سيمون دي بوفوار

قوّة الأشياء

الجزء الثاني

مكتبة بغداد

ترجمة
عايدة مطرجي إدريس

دار الآداب

سيمون دوبوفوار

قوة الأشياء

الجزء الثاني

ترجمة
عايدة مطرجي إدريس

مراجعة الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حقوق الترجمة والنشر بالعربية
محفوظة لدار الآداب

الطبعة الأولى
آب « اغسطس » ١٩٦٤

تمهيد

لماذا هذا التوقّف ، فجأة[1] ؟ انني أعرف جيداً ان حياة انسان لا تتحلّل الى مراحل حاسمة ، ولم يسجّل عام ١٩٥٢ انفصالاً في حياتي . ولكن الأرض ليست هي الخارطة . وإن قصّتي تتطلّب ، قبل ان أستطيع متابعتها ، شيئاً من التوضيح .

إن من نقائص المذكرات الحميمة والسير الذاتية ان « الامور البديهية » فيها لا تُقال عادةً ، وهكذا يفوتها الجوهري . وانا أيضاً أقع في هذا . ففي « المثقفون » أخفقت في أن أظهر كم يُعلّق ابطالي من أهمية على عملهم ؛ وقد كنت أرجو ان أتحدّث هنا بشكل أفضل عن عملي : فكنت أخدع نفسي . إن العمل لا يسمح بأن يُوصف : كل ما هنالك أنه يُعمل . من هنا انه يحتلّ في هذا الكتاب مكاناً يسيراً ، في حين انه يحتل في حياتي قطاعاً كبيراً : فهي كلّها تنتظم حوله . وانما ألحّ على هذه النقطة لأن الجمهور يدرك تقريباً الوقت والجهود التي تتطلبها دراسةٌ ما ؛ ولكنه في معظمه يتصوّر ان روايةً او مذكرات انما تُكتب كما يجري بها القلم . ولقد قالت بعض النساء ، بعد قراءة « مذكرات فتاة رصينة » : « إن ذلك لا يتطلّب دهاء خاصاً ، فاني جديرة بأن افعل مثل ذلك . » واذا استثنيت واحداً او اثنين ، فان جميع

---

(١) راجع الجزء الأول من « قوة الأشياء » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتّاب الذين أعرفهم يعانون معاناة هائلة : وانا مثلهم . وعلى عكس ما يتصوّر البعض ، فان الرواية والسيرة الذاتية يستغرقانني اكثر جداً مما تستغرقني الدراسة ؛ وهما يمنحانني كذلك فرحة أكبر . وأنا أفكر فيهما مقدّماً لفترة طويلة . لقد حلمت بأبطال « المثقفون » الى حدّ أني آمنت بوجودهم . ومن أجل كتابة مذكراتي ، ألفت ماضيّ وانا أقرأ رسائل وكتباً قديمة ويومياتي الحميمة وجرائد يومية . وحين أحسّني جاهزة ، أكتب دُفعة واحدة ثلاثمئة او اربعمئة صفحة . وإنه لجهد شاق : ذلك انه يتطلّب تركيزاً كثيفاً ، وأنا انفر من الخليط الذي أُراكمه . حتى اذا مضى شهر أو شهران ، أصبح النفور من القوة بحيث أنقطع عن الكتابة . وأعود من الصفر . وبالرغم من المادة التي تحت يدي ، تكون الورقة بيضاء من جديد ، وأنا أتردّد قبل ان أغطس . وبصورة عامة ، أبدأ بداءة سيئة ، بدافع من نفاد الصبر ؛ فاني اودّ لو أقول كل شيء دفعة واحدة : وهكذا تكون قصتي عجينية ثقيلة ، فاقدة النهج وادوات الاتصال . ورويداً رويداً ، أخضع نفسي للتريّث ، الى ان يأتي الوقت الذي أجد فيه المسافة واللهجة والايقاع التي ترضيني ، فأنطلق بجدّ ، وأستعين بمسودّتي لأنشيء فصلاً من الفصول بخطوط كبيرة . وأعود الى الصفحة الأولى ، حتى اذا بلغت آخرها ، كتبتها من جديد جملةً جملة ؛ ثم أصحّح كل جملة بالنسبة لمجموع الصفحة ، وكل صفحة بالنسبة للفصل كلّه ؛ وفيما بعد ، كل فصل وكل صفحة وكل جملة بالنسبة لمجموع الكتاب . لقد كان بودلير يقول : إن الرسامين ينطلقون من الرسم الايجازي الى العمل الناجز وهم يرسمون في كل مرحلة اللوحة كاملة ؛ وهذا ما أحاول أن أفعل . ثم إن كل كتاب من كتبي يكلفني عامين أو ثلاثة — وأربعة أعوام لـ « المثقفون » — أقضي في اثنائها ست ساعات او سبعاً كل يوم امام طاولتي .

إن الناس غالباً ما يأخذون عن الأدب فكرة أكثر رومانتيكية . ولكنه انما يفرض عليّ هذا النظام لأنه شيء آخر غير المهنة : انه هوس ، او لنقل هوى عجيب . فعند اليقظة ، يجبرني ضيقٌ أو شهوة لتناول قلمي على الفور ؛

وأنا لا أستجيب لأمرٍ مجرّد الا في الأوقات المظلمة التي أشكّ فيها بكل شيء : اذذاك يمكن للأمر نفسه ان يتحطّم . أما النهار الذي لا أكتب فيه ، الا ان اكون في سفر او أمرّ بأحداث غير عادية ، فان له طعم الرماد .

وللإلهام دوره بكل تأكيد : فبدونه لن تجدي المثابرة شيئاً . إن مشروع التعبير عن بعض الأشياء ، على طراز من الطرز ، يولد ويغتني ويتحوّل بلا تصميم . وليست أصداء حَدَث في نفسي ، او ضوء او بريق ذكرى ، مدبّرة أو مهيّأة ، ولا حظّ صورة او كلمة . انني فيما اتقيّد بمخطّطي ، آخذ أهواء مزاجي بعين الاعتبار : فاذا أخذتني الرغبة فجأة في ان اروي فصلاً ، وأعالج موضوعاً ، فاني أفعل ، من غير ان ألزم نفسي بالنظام المقرّر . انني واستسلم عن رضى للاتفاق او المصادفة ، بعد ان أبني هيكل الكتاب : فأحلم أهذي . لا أمام ورقي فحسب ، بل طوال النهار ، وحتى الليل . وغالباً ما يتفق لي قبل أن أنام او في اثناء أرق ان تخترقني جملةٌ من الجمل ، فأنهض لتسجيلها . وكثيرٌ من مقاطع « المثقفون » ومن ذكرياتي انما كُتبت دفعةً واحدة تحت تأثير انفعالٍ ما : وانا احياناً « ارتوشها » في اليوم التالي ، واحياناً أخرى لا .

وحين أقدّم النتيجة اخيراً لسارتر ، بعد ستة أشهر او عام او عامين ، لا أكون مسرورة منها بعد ، ولكني أحسّني ونَفَسي يكاد ينقطع : انني أكون بحاجة الى قسوته والى الوان تشجيعه لأستعيد اندفاعي . وهو ، باديء ذي بدء ، يطمئنني : « لقد ربحتِ .. سيكون كتاباً جيداً » . ثم يثور غيظه او حنقه لدى التفاصيل : هذا اطول مما ينبغي ، وهذا أقصر مما ينبغي ، وهذا غير صحيح ، وهذا سيء التعبير عنه ، وهذا مخربش ، وهذا فاسد . ولو لم آلف مرارة لغته – وليست لغتي ، حين أنتقده بأعذب من ذلك – لصُعقت . وبالفعل ، فقد أقلقني حقاً مرة واحدة ، حين كنت بسبيل ان أنجز « المثقفون » ؛ إنّ مآخذه عادةً تحرّضني لأنها تدلّني كيف اتجاوز نقائص كنت أعيها بعض الوعي او كلّه وهي غالباً ما تقفز الى عيني بمجرّد ان أراه يقرأني . فهو يقترح عليّ حذف بعض المقاطع وتغيير مقاطع اخرى ؛ ولكنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحثّني خاصّة على ان أجسُر ، وأن أعمّق ، وان اواجه العقبات بدلاً من ان أتحاشاها . إن نصائحه تسير في وجهتي الخاصة ، ولست أحتاج الا لبضعة أسابيع ، او لبضعة أشهر على الأكثر ، لأعطي كتابي وجهه النهائي . وانـا أتوقّف حين يداخلني الشعور ، لا بأن كتابي ممتاز حقاً ، بل بأني لا أستطيع أن أجعله أفضل مما هو .

لقد أخذت في هذه الأعوام التي أرويها كثيراً من الاجازات : وذلك يعني ، بصورة عامة أن أشتغل في مكان آخر . غير اني قمت برحلات طويلة لم أكن اكتب فيها : ذلك ان مشروعي لمعرفة العالم يظلّ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمشروع التعبير عنه . إن فضولي هو أقلّ وحشية مما كان في صباي ، ولكنه لا يقلّ عنه تطلّباً : إن المرء لا ينتهي قطّ من التعلّم ، لأنه لا ينتهي قطّ من الجهل . ولست أقصد بذلك ان ليس ثمة اية لحظة مجانية بالنسبة لي : فان اللحظة التي تحمل لي بهجة من البهجات لا تبدو لي قط ضائعة . ولكن عبر توزّع مشاغلي وتسلياتي وضروب تسكّعي وتشرّدي ارادةً دائمة في إغناء معارفي .

إن العالم ، ما عشت ، يدخل في حياتي حتى يكاد يفجّرها . وانا بحاجة ، من أجل ان أرويها ، الى اثني عشرَ باعاً ، والى مدوس « لأمسك » الأحاسيس — الكآبة والفرح والاشمئزاز — التي لوّنت مراحل برمّتها ، عبر ذبذبات القلب . ففي كل لحظة ينعكس ماضيّ وجسمي ، وعلاقاتي بـالآخرين ، ومشاريعي ، والمجتمع والأرض كلها ؛ وهذه الحقائق المرتبطة فيما بينها ، والمستقلة ، تقوى وتنسجم أحياناً ، واحياناً أخرى تتباعد وتتضّاد وتتسالب . فاذا لم يبق المجموع حاضراً دائماً ، لم أقل شيئاً صحيحاً . وحتى لو تغلّبت على هذه الصعوبة ، تعثّرت بغيرها . إن حياةً ما هي شيء عجيب ، تشفّ بين فترة وفترة ، وتبقى بكليتها كثيفة ، أصنعها أنا نفسي وهي مفروضة عليّ ، يمنحني العالم مادتها ويسرقها مني ، وهي مسحوقة بالاحداث ، محطمة منثورة ، وهي مع ذلك تحافظ على وحدتها ؛ انها تزن ثقيلاً وهي غير ذات

كثافة : وهذا التناقض يتيح الحظّ لألوان سوء التفاهم . ولقد قيل إن الحرب لم تهزّني الى الحدّ الذي أزعمه ، لأني في عام ١٩٤١ كنت أصيب المتعة في التنزّه ؛ وسيقال بلا شك إن حرب الجزائر لم تمسّني الا قليلاً ما دامت روما والموسيقى وبعض الكتب قد احتفظت بجاذبيتها بالنسبة لي . ولكن الجميع أحسّوا ذلك ، فبوسع المرء ان يتسلىّ وقلبه في حداد . إن الانفعال الأعنف والأصدق لا يدوم طويلاً : فهو يخلق احياناً بعض الافعال ، ويخلّف بعض ضروب الهوس ، ولكنه يزول . وبالمقابل ، فان هناك همّاً نبعده ظاهرياً فلا يكفّ عن الوجود : فهو حاضر لفرط العناية التي آخذها لتجنّبه . إن الكلمات ليست هي غالباً الا صمتاً ، وإن للصمت أصواته . أتراني كنت ، في أثناء أسر سارتر ، شقيةً ام سعيدة كذلك ؟ كنت كما وصفت نفسي ، بألوان جذلي ، وضيقي ، وخيبتي ، وأملي . لقد حاولت ان التقط الحقيقة في تنوّعها وتميّعها ؛ ومحاولة تلخيص قصتي بكلمات نهائية لا تقلّ ضلالاً عن ترجمة قصيدة جيدة الى نثر .

إن الخلفية ، الفاجعة أو الصافية ، التي ترتفع عليها تجاربي ، هي التي تمنحها معناها الحقيقي وتشكّل وحدتها ؛ ولقد تجنّبت أن أربطها بتنقّلات ربما تكون مشتركة ، ومن ثمّ مصطنعة . ولكن ، ما دام التجميع يبدو لي ضرورياً الى هذا الحد ، فلماذا أخضعت نفسي للتسلسل الزمني بدلاً من ان اختار بناءً آخر ؟ لقد فكرت في ذلك ، وتردّدت . ولكن الهامّ قبل كل شيء في حياتي ، هو ان الزمن يجري ؛ إنني أشيخ ، وإن العالم يتغير ، وتتغيّر علاقتي به ؛ وليس ثمة ما يهمّني اكثر من أن اصور التغيّرات وضروب النضج او الانحطاط التي تصيب الآخرين وتصيبني . وهذا ما يجبرني على ان أتبع بوداعة مجرى السنوات .

ولهذا أستأنف ، بعد هذه الوقفة ، قصتي من حيث تركتها .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القِسْم الثاني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السادس

إنّ للنساء الصبيّات حسّاً مرهفاً لما يحسن بالمرأة أن تصنعه او لا تصنعه حين تكفّ عن ان تكون شابة . إن احداهن تقول : « لا أفهم حين تتجاوز المرأة الأربعين ان تصبغ شعرها باللون الأشقر ، وان تعرض مفاتنها بثوب السباحة « بكيني »، وان تتغندر مع الرجال .. أما أنا ، فانني حين أبلغ هذه السنّ ... » وتأتي تلك السنّ ، فيصبغن شعورهن باللون الأشقر ، ويرتدين البكيني ، ويبتسمن للرجال . وعلى هذا النحو ، كنت اقرّر ، وانا في الثلاثين : « يجب ان أتراجع ، بعد ان اتجاوز الأربعين ، عن المضي في ذلك الغرام ... » وكنت أحتقر ما كنت اسمّيه بـ « الجلود العتيقة » وأعيدُ نفسي ، حين يكون جلدي قد شاخ ، أن أدخله الى المرأب . ولم يمنعني ذلك ، حين بلغت التاسعة والثلاثين ، من أن ارتمي في قصة جديدة . وأنا الآن في الرابعة والأربعين ، وقد دُفعت الى بلد الظلال والعتمة : ولكن سبق ان قلت إن جسمي اذا تدبّر أمر ذلك ، فان خيالي كان غير خاضع له . وهكذا كنت أقبض على الفرصة حين تتيح لي ان أولد من جديد .

كان تموز في نهايته . وكنت أهمّ بالسفر في السيارة الى ميلانو حيث كان الاتفاق ان يلحق بي سارتر بالقطار ، على ان نسافر طوال شهرين عبر ايطاليا .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفي تلك الاثناء كان بوست وكو يستعدّان بجذل للسفر بالطائرة الى البرازيل ليؤلّفا « دليلاً » بتكليف من دار نشر « ناجيل » . وقد اشترى كل منهما لنفسه ثوب سموكنغ أبيض، ودعانا بوست للاحتفال بسفرهما . واقترحت عليه ان يدعو كذلك «كلود لانزمان » . وتأخرنا في السهرة وشربنا . وصباح اليوم التالي ، رنّ جرس التلفون ، وقال لي لانزمان :

– اريد ان تصحبيني الى السينما .

– الى السينما ؟ لرؤية اي فيلم ؟

– أيّ فيلم .

وترددت ؛ كانت نهاراتي الأخيرة مثقلة ؛ ولكني كنت أعلم أنه ما كان ينبغي لي ان أرفض . وتواعدنا على اللقاء . وحين أعدت السمّاعة ، فوجئت مفاجأة كبيرة بأني انخرطت في البكاء .

وبعد خمسة ايام ، غادرت باريس ؛ وكان لانزمان واقفاً على حافة الرصيف يلوّح بيده فيما انا ادير المحرّك . لقد حدث شيء ما ؛ وكنت متأكدة من ان شيئاً ما يبدأ . كنت قد عثرت مجدّداً على جسم . وجعلت أدوّم في الضواحي ، وقد شرّدني انفعال الوداع ، ثم سلكت الطريق الوطنية رقم ٧ ، سعيدة بأن أجد أمامي هذا الشريط الطويل من الكيلومترات لأبتعث الذكريات والتخيّلات .

وكنت ما ازال أحلم وانا واقفة حين خرجت ، صباح اليوم التالي ، من « دومودوسولا» حيث كنت قد قضيت ليلتي ؛ وكان في السيارة مسافرتان صبيتان انكليزيتان ، كانتا مسافرتين من «كاليه » الى « البندقية » بطريقة الأوتوستوب ، وفي جيب كل منهما تذكرة بالطائرة من ميونيخ الى لندن من أجل العودة . وكان المطر يهطل على بحيرة « ماجور » ؛ فانزلقت سيارتي واصطدمت بنَصَب فاقتلعته ؛ ولم تتحرك المسافرتان . واقبل بعض الايطاليين يقوّمون مقدّم السيارة ، وهدّأوا كبريائي إذ قالوا لي إن عدد الحوادث على تلك الطريق المدبّبة لم يكن يحصى ؛ ولكن الصدمة زرعت الاضطراب في

حسّي ، بدلاً من ان توقظني . وتركت الانكليزيتين عند مفترق طرق ، ودخلت ميلانو ، وتهت أبحث عن مرأب . ولاحظت فجأة ان الباب الذي إلى يميني يصطفق ؛ وفيما كنت احاول ان أغلقه ، صعدت الى أحد الأرصفة . وقلت في نفسي : « اني أضيّع رشدي » وتوقفت ؛ وتبيّنت آنذاك ان المحفظة التي كانت تضم أوراقي وكثيراً من المال ليست بعدُ بجانبي . وزرعت هناك سيارتي وعدت أدراجي وانا أعدو . وكان ثمة راكب دراجة مقبلاً نحوي ، وهو يحمل محفظتي بطرف أصابعه ، في هيئة نفور .

وبعد ان عهدت في السيارة الى ميكانيكي ، وجدت سارتر في مقهى « سكالا » فاستعدت حواسي ؛ ولكني كنت منفعلة حين رجعت بعد الظهر الى المقود . هذه الطريقة الجديدة في السفر ، اتراها كانت تروق له ؟ كنت أخشى أن انفرّه منه بمزيد من الارتباك والحَرَق ؛ ولكن لا ؛ إنه لم يكن يفقد صبره ازاء حركاتي الخرقاء في القيادة ؛ وفي الطرقات ، لم يكن شيء يعكّر برودته ، باستثناء فظاظة بعض الايطاليين الذي كانوا يتجاوزونني من غير ان يوسّعوا المسافة . وكان سارتر يقول لي :

ـ هيّا تجاوزيه !

فكان الايطالي يزيد سرعته ، بل يعرّج سيره ليحتفظ بتقدّمه عليّ ؛ ولم يكن سارتر يدع لي راحة الا بعد ان أتجاوزه ؛ ولو اني خضعت لجميع تحريضاته لمتنا مئة مرة ؛ على اني كنت اوثر تلك الحملسة على نصائح الحكمة والتعقّل .

وقد اكتشفنا ايطاليا مرة اخرى ، من « كريمون » الى « تارانت » ، ومن « باري » الى « اريس » : فشاهدنا « مانتو » ومنقوشات « مانتغنا » ، ورسوم « فيراري » و « رافين » و « اوربينو » وساحة « اسكولي » ، وكنائس « بوي » وكهوف « ماتيرا » وترولى « البيروبيلو » وجمالات « ليك » الغريبة وروائع « نوتو » في جزيرة صقلية . وقصدنا أخيراً الى « اغريجانت » ، ورأينا ثانيةً « سيجيست » و « سيراقوز » ، واجتزنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« الابروز » ، وصعدت في التلفريك الى قمة « غران ساسو » ورأيت الفندق المظلم الذي حبسوا فيه موسوليني . وبفضل السيارة ، لم نكن بعدُ ملزمين بمراعاة اي وقت ، وكانت جميع الأماكن في متناولنا . على ان شيئاً ما ، على حد قول سارتر ، قد فُقد ، وكنت اقرّه على ذلك : مفاجأة ان يجد المرء نفسه غارقاً بغتةً في قلب مدينة ؛ فاذا وصلها الانسان بالقطار او بالطائرة بدت له كأنها عالم ؛ اما اذا ركب اليها السيارة ، فانها مرحلة ، وعقدة ، وليست كوناً ؛ إن شوارعها تُطيل طرقات وتنقذف نحو طرقات اخرى ؛ وإن أصالتها تشحب لأن لون جدرانها ، ورسم ساحاتها وواجهاتها يكونان قد عُرفا في الضيع المجاورة . على ان الفائدة تكمن في ان المرء يعرفها معرفة أفضل ، وان كانت الإثارة فيها أقلّ . وقد كشفت لنا نابولي عن معناها الحقيقي بعد ان عرفنا بؤس « الجنوب » ؛ وكانت أُلفةٌ جديدة تولد بين الارياف وبيننا ؛ كنّا نتوقّف في القرى ، فنختلط بـ « البراسيانتيين » الذين يظلّون جالسين في المقاهي طوال ساعات دون ان يأخذوا شيئاً او يُرجّوا شيئاً ؛ وغالباً ما كان بعض الرجال يشيرون لنا في الطرقات اشارة حبيّة ، فنتوقف لنحملهم معنا : وكان معظمهم عاطلين عن العمل ؛ وكانوا يسألوننا هل كان بوسعنا ان نجد لهم عملاً في فرنسا .

وكانت السيارة ، من جهة اخرى ، تحتفظ لنا ببعض المفاجئات . ومنها اننا في ١٥ آب غادرنا روما صباحاً ، متجهين الى « نوجيا » ، فسرنا طوال النهار تحت سماء من لهب ، وكنا نتوقّف بلا انقطاع امام أعمال حفر وسدود ؛ وحين هبط الليل ، أخذ الضوء الأبيض للمنارات الايطالية يعميني ، فنفدت قواي . وفي « لوسيرا » ترجّلنا لنشرب كأساً ؛ وصففت السيارة عند جدار المدينة ، وعبرنا الباب : فألفينا نفسينا في صالة يجري فيها الضوء شلاّلاً ، وكان اناس يرقصون ، وسقفهم السماء ؛ وكانت صالات اخرى تتابع ، في صف واحد ، وجميع الساحات مضاءة ، ولكل ساحة جوقتها وحفلتها الراقصة .

في ذلك الصيف ، سجّل ميزان الحرارة عبر ايطاليا كلها ٤٠ درجة بلا هوادة . وكان سارتر يكتب تتمة « الشيوعيون والسلام » ؛ كان يريد ان يكتب ، وكنت اريد ان أتنزّه : وقد نجحنا في ان نوفّق بين هذين الهَوَسَيْن، ولكن لا من غير مشقة وألم . كنّا نزور ونتسكّع ونسير ونلتهم الكيلومترات حتى منتصف الأصيل ، مجابهيْن ، في السيارة وعلى الاقدام ، أفظع ساعات القيظ ؛ وحين كنا نجدنا ، وقد هدّنا التعب ، في غرفتينا – حيث كان الجو خانقاً تقريباً – كنا نسارع الى قلمينا بدلاً من ان نرتاح . وقد حدث لي اكثر من مرة ان وضعت قلمي لأغطس وجهي المحمّر في الماء البارد .

وفي العودة ، مكثت بضعة ايام في ميلانو لدى أختي ، وقرأت في تلك الأثناء يوميات « بافيز » وحملتها معي الى باريس لأنشر منها مقتطفات في « التان مودرن » .

وفي هذه العطلة ، كان لانزمان قد قام برحلة الى اسرائيل ؛ وقد تبادلنا الرسائل . وعاد الى باريس بعد اسبوعين من وصولي ، والتقى جسمانا في الفرح. وبدأنا نبني مستقبلنا وكلّ منا يروي الماضي للآخر . ولكي يعرّف نفسه ، كان يقول اولاً : انني يهودي . وكنت اعرف وزن هذه الكلمة ؛ ولكن لم يكن واحدٌ من أصدقائي اليهود قد أفهمني معناها بشكل كامل . لقد كانوا يصمتون عن وضعهم كيهود – على الأقل في علاقاتهم معي . اما لانزمان فكان يطالب بهذا الوضع ، وكان يقود كل حياته .

وبالرغم من ان لانزمان كان يصغرني بسبعة عشر عاماً ، فان هذا الفرق لم يكن يرعبنا . وقد كنت بحاجة الى زمن لألزم قلبي بهذه العلاقة ، لأنه لم يكن وارداً ان استبدل بتفاهمي مع سارتر تفاهماً آخر . كان الغرين ينتمي الى قارة اخرى ، ولانزمان الى جيل آخر : وكان ذلك اخراجاً من المحيط كذلك يوازن علاقاتنا . كانت سنّه تهيئني لأن لا أكون الا لحظة من حياته : وكان ذلك يبرّر لي ، في نظر نفسي ، ألاّ أمنحه اليوم كل شيء من حياتي . والحق انه لم يكن يطلب مني ذلك : لقد قبلني جملةً وتفصيلاً ، بماضيّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحاضري ، ومع ذلك ، فان اتفاقنا لم يتمّ في لحظة واحدة . لقد قضينا في كانون الأول بضعة أيام في هولندا ؛ وتحدّثنا طويلاً في المقاهي والأكواخ ذات الستائر المسدلة ، حيث كنا نشرب « الادفوكا » . وكانت الاجازات التي كنت آخذها كل عام مع سارتر تطرح علينا مشكلة : انني لم اكن اريد ان أتخلّى عنها ؛ ولكنّ فراقاً يدوم شهرين سيكون شاقاً علينا كلينا ، انـا ولانزمان . واتفقنـا ان يجيء لانزمان كـل صيف ليقضي عشرة ايام مـع سارتر ومعي . وكان في احاديثنا مسائل اخرى تثير القلق ، ثم تلاشت آخر شكوكنا . ولدى عودتنا الى باريس ، عزمنا على ان نعيش معاً . وكنت قد أحببت عزلتي ، ولكني لم أتحسّر عليها .

وانتظمت حياتنا : كنا في الصباح نعمل جنباً الى جنب . وكان قد عاد من اسرائيل بملاحظات كان يريد ان يفيد منها لكتابة ريبورتاج .

ولقد حرّرني حضور لانزمان الى جانبي من عمري ، فقضى اولاً على ألوان ضيقي ، ثم أنعش الاهتمام الذي كنت أحمله للأشياء . ذلك ان فضولي كان قد تعقّل كثيراً . كنت أعيش فوق أرض ذات موارد محدودة ، تتأكّلها ادواء فظيعة وبسيطة ، وكان انتهائي الخاص — انتهاء وضعي ومصيري وكتابتي — يحدّ مطامحي ؛ لقد بَعُدَ العهد الذي كنت انتظر فيه من كل شيء كل شيء ! كنت أستخبر عن كل ما كان يظهر : من كتب وأفلام ورسوم وتمثيليات : ولكن كانت بي رغبة — بالاحرى — في ان اراقب وأعمّق وأتمّم تجاربي القديمة ؛ ولقد كانت هذه التجارب ، بالنسبة للانزمان ، جديدة ، وكان يضيئها بنورٍ غير متوقّع . وقد رُدّ لي — بفضله — ألف شيء : ألوان من البهجة والدهشة والضيق والضحك ورطوبة العالم . وبعد عامين كان الكساد العالمي قد توافق فيهما مع تحطّم حبّ لي وبدء الاحساس بالسقوط ، قفزت مرة اخرى الى السعادة . كانت الحرب تبتعد . وحبست نفسي في جذل حياتي الخاصة .

وظللت اقابل سارتر كالسابق ، ولكنا اتخذنا عادات جديدة . وكنت

قبل بضعة أشهر قد استيقظت على ضجة غريبة : كان ثمة من يضرب ضرباً خفيفاً على طبل . وأضأت النور : كانت نقاط من الماء تسقط من السقف على جلد أريكة . وشكوت الأمر للحارسة التي حدّثت مدير البناية الذي تكلم مع المالك . وظل المطر يهطل في غرفتي ، وكانت تتعفّن تدريجياً . وحين سكن لانزمان معي ، أغرقت الكتب والجرائد الأثاث والأرض الخشبية . وكان بالامكان ان نستمر في العمل وفي النوم في هذه الغرفة ، ولكن لم يكن لذيذاً بعدُ ان نقيم فيها . وكان ان رحت أجالس سارتر في « لاباليت » بجادة مونبارنياس، منذ ذلك الحين ، لأتناول العشاء وأتحدث وأشرب ، وأحياناً في « الفالستاف » الذي كان يذكرنا شبابنا . وكنت غالباً ما اذهب ايضاً مع لانزمان او اولغا الى مطعم وحانة « دولابوشوري » ، في الجانب الآخر من الساحة ؛ وكنت اعطي معظم مواعيدي هناك ؛ وكان يتردد على المطعم مثقفون يساريون ؛ وكانت تُرى عبر الفتحة المزجّجة كنيسة نوتردام ومساحات من الخضرة ؛ وكان فونوغراف يذيع اغاني بورجوازية . ومثلي كان سارتر يروقه ان يجلس في الجمع الصغير الـــذي دعوته الى مطعم « دولابوشوري » لاحياء سهرة الميلاد : اولغا وبوست وواندا وميشيل ولانزمان . وكان بيننا كثير من التواطؤ حتى ان بسمة كانت تساوي خطاباً : وكان الحديث يصبح آنذاك لعبة من ألذّ اللعب الاجتماعية ؛ اما حين كان هذا التواطؤ يزول ، فغالباً ما يكون العمل لامجدياً . وكنت قد فقدت الميل الى اللقاءات العابرة . واقترحت عليّ مونيك لانج ان أخرج يوماً مع فوكنر ، فرفضت ، وحين تناول سارتر العشاء عند ميشيل مع بيكاسو وشابلان ، الذي كنت قد تعرّفت عليه في الولايات المتحدة ، آثرت ان اذهب مع لانزمان لمشاهدة فيلم « لملايت » .

وحمل لي الربيع نبأ سارّاً ، لقد صدر « الجنس الثاني » في اميركا بنجاح لم تلطّخه اية نزعة كلبية . وقد كنت حريصة على هذا الكتاب ، وكنت مسرورة – كلما صدرت ترجمة له في الخارج – ان اتحقق من انه انما اثار فضيحة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فرنسا بسبب غلطة قرّائي ، لا بسبب غلطي .

حوالي نهاية آذار ، هبطت الى سان‌تروبيز بصحبة لانزمان ؛ وقد نزّهني عبر أدغالها ؛ وكانت مرتفعات ثلجية ما تزال نسدّ طرق « المارجوريد » . والتقينا بسارتر في فندق « الايولي » ؛ وكانت ميشيل تقيم مع اولادها في ساحة صغيرة مجاورة . وفيما كنا نتحدث مع سارتر على سطيحة « السنيكييه » التقينا هذا العام ايضاً ميرلو ــ بونتي وكذلك براسّور الذي كان يملك بيتاً في « غاسين » . وقد طلب من سارتر ان يقتبس له «كان » لدوماس ، وكان سارتر يعشق الميلودرام فلم يقل لا . وفي المساء ، كانت نارٌ من خشب الصنوبر تشتعل في قاعة طعام الايولي : إن هذا الفندق الأنيق لن يلبث طويلاً حتى يتكفّن في الغبار ، ولن تلبث السيدة «كلو » المحترمة مع أفراسها البيض ، وسترتها العالية ، وماكياجها الرصين ، ان تتهم بالتواطؤ في عملية غزو مسلحة بغاية السرقة ؛ ولقد وجدت مشقة ، عام ٥٤ ، ان اتعرّفها في صورة المرأة العجوز المذعورة التي ظهرت في الصحف . وشاهدت مع لانزمان جبال « المور » و « الايستريل » والشاطيء والطرق الساحلية . وفيما كنا نسير ، كنا نتحدث عن روايتي التي كنت قد أعرته مسودتها ؛ وكان له حسّ نقدي دقيق ومرهف ؛ وقد أعطاني نصائح طيبة وأفادني بانتقاداته ؛ وقد بدأت انزعج منها ، ثم ادركت النقص الذي كان يثيرها . وكنت أحمل همّاً كبيراً بسبب هذا الكتاب ؛ وكنت قد قلبته رأساً على عقب ، منذ النروج : وكان حين أعاد سارتر قراءته في آخر ٥٢ لم يكن راضياً عنه بعد . كانت تزعجني المواضعات الروائية ، ومع ذلك فقد كنت انطوي لها ، ولكن بلا صراحة ، فكانت الفصول اما قصيرة اكثر مما ينبغي او طويلة اكثر مما ينبغي او غير متلاحمة ، ولم يكن الحوار يوحي دائماً بالصدق ؛ وكنت اريد ان أقدّم افراداً غريبين ، بيقينهم وشكّهم ، قابلين للمجادلة من قِبَل الآخرين ومن قبل أنفسهم ، متذبذبين بين التبصّر والسذاجة ، وبين التحيّز والصدق ؛ وهأنذا ابدو وانا أعرض أفكاراً ، بدلاً من ان اصوّر أشخاصاً . وربما كان

مستحيلاً حقاً أن أتخذ كتّاباً ابطالاً ، او لعلّ المهمة على الأقل كانت تتجاوز قواي . وعزمت على ان « ألقي كل شيء للريح » . وكان سارتر يقول لي : « اشتغلي بعدُ » ولكن قلقه كان أثقل من تشجيعه . اما بوست ولانزمان ، فهما اللذان أقنعاني اكثر منه بالمضيّ والمثابرة ؛ كانا يقرءآن النصّ للمرة الأولى ، وكانا اشدّ تأثراً بحسناته منهما بسيئاته . وهكذا عدت الى العمل في الكتاب ، ولكني غالباً ما كنت اكظم شعوري، في هذا العام الأخير من الجدّ ، حين كان يسألني الناس بلهجة متأدبة الدهشة :

ــ انك لا تكتبين بعد؟ لماذا تراها لا تكتب بعد؟ لقد مضى عليها زمن طويل لم تكتب فيه ...

وكنت أحسّ في القلب دفقة من غيرة حين كان يظهر كتاب روائي جديد لكاتب موهوب ذي قلم أخفّ من قلمي .

وكان سارتر قد نشر في « التان مودرن » القسم الثاني من دراسة « الشيوعيون والسلام » التي كان يوضّح فيها حدود اتفاقه مع الحزب وأسبابه . وسافر الى فيينا ، وروى لنا بالتفصيل ــ لدى عودته ــ قصة « مؤتمر أنصار السلام » . كان قد شرب الفودكا طوال ليلة كاملة مع الروس . وكان عدد الشيوعيين الحاضرين قليلاً نسبياً : ٢٠ بالمئة . وكان كثير من المندوبين قد جاءوا الى المؤتمر بدون موافقة حكوماتهم ؛ واضطر البعض لكي يغادروا الصين واليابان ان يقوموا برحلات سرية طويلة ؛ وكان الآخرون ــ والمصريون منهم بصورة خاصة ــ يعرّضون انفسهم لدخول السجن لدى عودتهم . اما فرنسا ، فكان ممثلّوها قليلين ، باستثناء الشيوعيين والتقدميين . ولم يحضر المؤتمر اليسار المثقف الذي كان سارتر يتمنى ان يجرّه اليه . وقد ذهبت مع لانزمان الى اجتماع « فيل ديف » حيث روى المندوبون تجربتهم . وكان مثيراً ان يُرى سارتر جالساً الى جانب « دوكلو » وهو يتبادل معه البسمات . وأحسب ان الشيوعيين أنفسهم كانوا يدهشون لذلك ؛ وقد تردّد عضو المكتب المكلّف بتقديم سارتر تردّداً غير ظاهر :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– اني سعيد بأن يكون بيننا جان – بول ...

وحدثت رعشة صغيرة : فقد حسب الناس انه سيقول « دافيد » . وعاد الى مكانه ، فتناول سارتر الميكروفون . وكنت انفعل دائماً حين كان يتحدث الى الجمهور ، وسبب ذلك بلا شك تلك المسافة التي كان ذلك الجمهور يخلقها بيننا ؛ وكانت عباراته ، الواحدة بعد الأخرى ، تسقط بيسرٍ على قدميها ، ولكني كنت أحسّ كل مرة بأن ثمة معجزة طرية العود ، وقد راق الحضور كثيراً حين سخر برجال اليسار الذين أرعبتهم فينا ؛ وقد هاجم « مارتينه » و « ستيفان » ؛ وكان هذا جالساً امامي ، وكنت اراه بين الحين والحين يلتفت وعلى شفتيه بسمة صفراء .

كانت هيئة تحرير « التان مودرن » تقرّ بمعظمها موقف سارتر السياسي ؛ وقد روى [1] كيف تعكّرت علاقاته مع ميرلو – بونتي . وقد ابتعد عنه الكثيرون ، بضجة كبيرة او يسيرة ، إما لخلاف عميق في وجهة النظر ، او لأنهم كانوا يجدونه معرّضاً إياهم للخطر . اما في « فريبورغ » حيث ألقى محاضرة ، فقد استقبل استقبالاً طيباً . وقد تكلم ثلاث ساعات ؛ وقالت زوجة مدير المعهد الفرنسي وهي خارجة من المحاضرة :

– لقد استسلمت للإصغاء ، ولن يستطيع احدٌ ان ينتزعني منه بعد !

ومن اصل الألف والمئتي طالب الذين كانوا يستمعون اليه ، لم يكن عدد الذين يعرفون الفرنسية معرفة تمكنهم من متابعته يزيد على الخمسين . وقد قال أحدهم :

– لقد فهمنا الأفكار ، ولكننا لم نفهم الأمثلة .

وقد بدا لهم شديد القرب من الماركسية . وقام بزيارة لهيديغر المقيم في بيت شبيه بعش النسر ، والذي حدّثه عن ألمه للمسرحية التي ألّفها

---

(١) « ميرلو – بونتي حياً » .

عنه غبرييل مارسيل [1] . ولم يتحدثا الا في هذا الموضوع ، وتركه سارتر بعد نصف ساعة ، وقال لي : « ان هيدغر ينحدر الى الصوفية » وأضاف وهو يحدّق فيّ :

– اربعة آلاف طالب واستاذ يجهدون لدراسة هيدغر طوال النهار ... تصوّري ذلك !

وكان قد عزم أخيراً على ان يؤلّف هو نفسه معظم مادة الكتاب المخصص للدفاع عن هنري مارتان . وكان بعض الاصدقاء لا يخفون قلقهم : أليس لديه ما يفعله أفضل من ذلك ؟ وكنت قد فكرت بمثل هذا ، في اوقات فائتة : ما قبل الحرب . اما الآن ، فان الأدب ليس بعدُ مقدّساً في نظري ؛ وكنت أعرف ان سارتر اذا كان يختار دروبه ، فلأنه كان يحسّ الحاجة الى ذلك . « إن عليه أن ينجز روايته . وقد آن له حقاً ان يكتب دراسته الاخلافية . لماذا هو صامت ؟ لماذا تكلم ؟ » ليس ثمة ما هو نافلٌ كالنصائح والانتقادات التي وُجّهت إليّ بصدد سارتر . إن الناس لا يستطيعون ان يقدروا من الخارج الشروط التي ينمو فيها عمل أدبي : فالمعنيّ يعرف خيراً من اي انسان ما يناسبه . وقد كان يناسب سارتر آنذاك ان يحطم أشياء كثيرة ليعثر على سواها :

«كنت قد قرأت كل شيء ؛ وكان كل شيء بحاجة الى ان يقرأ من جديد ؛ ولم اكن املك الا خيط « اريان » ولكنه كان كافياً : تجربة صراع الطبقات، تلك التجربة الفنية الصعبة ، وقرأت ثانية . وكان في مخّي بعض العظام ، فحطمتها ، ليس بلا تعب . [2] »

وكان يعيد قراءة ماركس ولنين وروزا لوكسمبورغ وآخرين كثيرين . وكان يتهيّأ بذلك لمتابعة « الشيوعيون والسلام » . ولكن « لوفور » كان قد انتقده في « التان مودرن » فردّ عليه مطوّلاً .

---

(۱) « بعد فلورستان » مسرحية هجائية للوجودية الهيدغرية ، وهي لم تذع في "راديو الا في العام التالي ، ولكنها قرئت في اجتماع عام .

(٢) « ميرلو - بونتي حياً » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت مواقف سارتر الجديدة تملأ لانزمان بالرضى . كانت السياسة تبدو له جوهرية اكثر من الادب ، ولقد قلت إنه لم يكن ينتسب للحزب الشيوعي ، فإنما كان ذلك لاسباب ذاتية فحسب . وحين كان قد قرأ مسودة « المثقفون » ، كان قد أقنعني ان اوضح رأيي توضيحاً أفضل عن المسافات التي يتخذها هنري ودوبروي بالنسبة للشيوعيين ، وكانت قد بدت لي حتى ذلك الحين واضحة . كنت بعيدة عن ان اخالف سارتر ، ولكنه لم يكن قد اقنعني بأن أتبعه لأني كنت أحكم على تطوره بالعودة الى نقطة انطلاقه : كنت أخشى ان يبتعد اكثر مما ينبغي عن حقيقته من أجل ان يقترب من الحزب الشيوعي . اما لانزمان فكان يقف في الطرف الآخر من الدرب : وكان يعتبر كل خطوة يقوم بها سارتر نحو الشيوعيين تقدماً . كان مقيماً كليّةً ، وبشكل طبيعي ، في منظورهم ، فأجبرني على ان اقدّم حسابات ، في حين اني كنت قد تعوّدت ان أطلب حسابات ؛ ووجب عليّ كل يوم ان اناقش ردود فعلي الأكثر تلقائية ، أي ضروب عنادي الأكثر قِدَماً . وشيئاً فشيئاً ، قضم الوان صمودي ، فصفيت أخلاقيتي المثالية وانتهيت الى أن آخذ لحسابي وجهة نظر سارتر .

على ان العمل مع الشيوعيين ، من غير ان يتنازل المرء عن حكمه ، لم يكن أيسر مما كان عام ١٩٤٦ ، بالرغم من انفتاح الحزب الشيوعي الفرنسي نسبياً . ولم يحسّ سارتر نفسه معنياً بصعوبات الحزب الداخلية ، الناجمة عن طرد « مارتي » و « تيوّن » . ولكن لم يتقبّل محاكمات براغ ، ولا النزعة المناهضة للسامية التي كانت تنتشر في الاتحاد السوفياتي ، ولا المقالات التي كان يكتبها « هرفيه » في « سوسوار » ضد الصهيونية في اسرائيل ، ولا اعتقال « القتلة ذوي القمصان البيض » . واستقبل شيوعيين يهوداً طلبوا منه ان يتخذ موقفاً . وتحدّاه مورياك في « الفيغارو » ان يدين موقف ستالين من اليهود ، فأجاب في « الاوبسرفاتور » بأنه سيفعل ذلك في حينه . وقد كان سيجد نفسه مضطراً الى التخاصم مع أصدقائه

الجدد لولم يتغير مجرى الأحداث فجأة. فذات يوم، كان المفروض ان يتناول سارتر الغداء مع اراغون؛ وقد رآه يصل الى بيته متأخراً مدة ساعة ونصف الساعة، مضطرباً، غير حالق ذقنه: لقد مات ستالين. وعلى الفور اطلق مالنكوف سراح الاطباء المعتقلين واتخذ في برلين تدابير تساهل. وطوال إسابيع تاه الناس، في دائرتنا وفي كل دائرة في العالم، في ضروب الافتراضات والتعليقات والتشخيصات. وأحسّ سارتر بعزاء شديد! إن التقرّب الذي كان يتمناه ينال الآن حظوظه. ولم يهاجم الحزب الشيوعي المقال الذي نشره «بيجو» في «التان مودرن» عن قضية «سلانسكي»[1].

وكانت الحرب مستمرة في الهند الصينية. وكانت افريقيا الشمالية تتحرك. وبعد عامين من الجهود السلمية والآمال الخائبة، لم يكن بورقيبة يعتمد بعدُ الا على العنف لكي يحرّر تونس؛ وقد أحدث اعتقاله[2] اضراباً عاماً في البلاد ومظاهرات دامية؛ ولكن تمشيط رأس «بون» واعتقال ٢٠ الف رجل، واشاعة الارهاب والتعذيب، كل ذلك اعاد النظام. وحدث في كانون الاول ١٩٥٢ في الدار البيضاء، غداة اغتيال فرحات حشاد[3]، ان قامت مظاهرة احتجاج؛ واختلقت حوادث مخلّة، فقتل اربعة اوروبيين او خمسة، مما اتاح للسيد «بونيفاس» أن يضرب النقابية المراكشية التي كانت طرية العود: فقتل خمسمئة عامل. وكان حزبا الدستور الجديد والاستقلال حزبين بورجوازيين، ولكنهما كانا يجسّدان مع ذلك إرادة تونس ومراكش في الاستقلال، وقد أيدّهما سارتر بكل الوسائل الهزيلة التي كان يملكها: لقاءات، واجتماعات، والمجلة.

* * *

(١) قدمت السفارة التشهكية قسماً كبيراً من الوثائق.

(٢) وقد اعتقل معه ١٥٠ عضواً من الحزب الدستوري الجديد.

(٣) قائد الحركة النقابية في تونس، وقد صرعته عصابة «اليد الحمراء».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت ثمة تسلية تحتفظ لي بكل سحرها : الرحلات ؛ ولم اكن قد رأيت كل ما تمنيت أن أراه ، كنت ارغب في العودة الى كثير من الأمكنة . وكان لانزمان من جانبه يكاد لا يعرف شيئاً من فرنسا ولا من العالم . فكنا نقضي معظم اوقات فراغنا في النزهات ، قصيرة كانت ام طويلة .

واعتقد أن الشجر والحجارة والسماوات والألوان ووشوشات المناظر لن تني في التأثير عليّ . ولقد كنت أنفعل ، كما كنت انفعل في صباي ، لرؤية مغيب شمس على رمال اللوار ، ولرؤية جرف أحمر ، وشجرة تفاح مزدهرة ، وبرّية . وقد كنت احبّ الارض الرمادية والوردية تحت سياج أشجار الدلب ، او المطر الذهبي لاوراق الأكاسيا ، حين يأتي الخريف ؛ وكنت احبّ الضيع الريفية ، لا لكي اعيش فيها بل لكي اعبرها وأتذكّر ، كما كنت احب حركة الأسواق في ساحة « نيمور » او « افالون » والطرق الهادئة ذات البيوت الواطئة ، وشجرة ورد تتسلق عمود واجهة ، وطنين الليلك فوق جدار ؛ كانت نفحات من الطفولة تعود لي مع رائحة الحشائش المقطوعة ، والحراثة ، والخلنج وثرثرة الينابيع . وحين يكون الزمن محدوداً ، كنا نكتفي بالذهاب لتناول العشاء في ضواحي باريس ، سعيدين بأن نتنشق الخضرة ، وان نرى أنوار الاتوستراد مشعشعة ، وان نُحسّ لدى العودة أنفاس المدينة . وقد كنّا نشرب خمراً بارداً على حافة رابية ، وكانت نجوم حمر وخضر تمرّ فوق رأسينا وهي تنوس ، فتنحدر نحو سهل متلألىء مزروع بالأعمدة المعدنية الحمراء ، وكان طنينها يزرع فيّ الاضطراب كما كان يفعل في الماضي ازيز قطار عبر الريف . أجل ، لقد استطعت في بضعة أعوام اخرى أن أبتهج برؤية قرميد السقوف البورغونية ، وغرانيت الكنائس البريتانية ، وحجارة المزارع التورية ، وبتلك الدروب الخفية الممتدة بمحاذاة مياه اشد خضرة من العشب ، وبتلك الحانات التي كنا نتوقّف فيها لنأكل بعض سمك النهر او بعض اللحم المقليّ ، وبأضواء السيارات ليلاً على اسفلت الشانزليزيه . وكان

شيء ما خفيّ يتأكل هذه العذوبة وتلك الافراح وهذا البلد ؛ ولكني آنذاك لم اكن مقسورة على ان أحشر فيه أنفي ، وكنت استسلم لدغدغات المظاهر .

وفي حزيران ، قمنا باول رحلة كبيرة لنا . وكان لانزمان مريضاً ، وقد نصحه الطبيب بارتياد الجبل ، فذهبنا الى جنيف ؛ ولكن الطقس كان ممطراً ، وكان المطر يهطل في جميع انحاء سويسرا ؛ وشردنا حول البحيرات الايطالية ، ثم اتجهنا الى البندقية حيث كان سارتر موجوداً مع ميشيل . وكان الناس ينتظرون يوماً فيوماً حل قضية روزنبرغ ١ . وكان قد حكم عليهما بالموت منذ عامين وكان محاموهما يناضلون لانقاذهما . وقد اصدرت المحكمة العليا حكمها النهائي برفض كل تأجيل او وقف تنفيذ . ولكن اوروبا كلها والبابا نفسه كانا يطالبان في صخب بالعفو عنهما ، حتى ان ايزنهاور كاد يكون مجبراً على ان يمنحهما إياه .

وذات صباح ، بعد ان قضينا بضع ساعات في الليدو ، أخذت انا ولانزمان قارباً بخارياً لنلتقي ، في ساحة روما ، سارتر وميشيل ونذهب لتناول الغداء معهما في « فيسانس » ؛ وقرأنا في احدى الصحف عنواناً ضخماً عن اعدام الزوجين روزنبرغ . وبعد لحظات من وصولنا ، هبط سارتر وميشيل الى اليابسة . وكان وجه سارتر مغتماً ، وقال :

ـ لا رغبة لنا بعد برؤية مسرح فيسانس .

وأضاف بصوت مغتاظ :

ـ انتما تعلمان ، اننا لسنا مسرورين جداً .

ووافقت جريدة « ليباراسيون » التي اتصل بها لانزمان بالتلفون على ان تنشر مقالاً لسارتر . فحبس نفسه في غرفة وكتب طوال النهار ؛ وفي

---

(١) وفيها اتهم جوليوس روزنبرغ وزوجته اتيل ، وهما من أصل يهودي ، بأنهما سلما نائب القنصل السوفياتي في نيويورك اسراراً ذرية ، فحكم عليهما بالموت (نيسان ١٩٥١) ونفذ الحكم في حزيران ١٩٥٣ . (ه. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المساء ، قرأ لنا مقاله في مقهى بساحة سان مارك ؛ ولم يعجب به أحد ، حتى ولا هو نفسه . فأعاد كتابته في الليل : « لقد مات روزنبرغ وزوجته ، والحياة مستمرة . هذا ما كنتم تريدونه ، أليس كذلك ؟ » هذا ما نقله الى جريدة « ليبيراسيون » صباحاً بالتلفون ، مع تتمة مقاله .

كانت الحياة مستمرة فما العمل ؟ كنا نتحدث عن روزنبرغ انا ولانزمان فيما كنا نتجه الى تريستا . ولكننا كذلك كنا ننظر الى السماء والبحر وهذا العالم الذي ليسا بعدُ فيه .

وقال لنا بواب فندق تريستا :

ـ اذا ذهبتما الى يوغوسلافيا ، فان باستطاعتي ان أحصل لكما على دنانير .

هل كان الذهاب اليها ممكناً ؟ ليس أيسر من ذلك . ففي اربع وعشرين ساعة ، أعطتنا وكالة « بوتنيك » تصريحاً بالسفر وخريطة ونصائح . وتزوّدنا بعجلتين للحاجة وصفيحة بنزين وشموع وزيت وأوائل مختلفة وملأنا خزان البنزين ، وقال لنا صاحب المحطة :

ـ بالسيارة الى يوغوسلافيا ! اني أعِدُكما بمتعة كبيرة .

وكنا منفعلين ونحن نجتاز الحدود : ستار حديدي تقريباً . وقد كنا بالفعل نغيّر عالماً . لم يكن ثمة سيارة على الطريق تحاذي البحر ؛ وكانت الطرق ملآى بالشقوق والحفر حتى وجب علينا ان ندخل الرمول ، ولكن كان مستحيلاً اذذاك ان نتجاوز الأربعين في الساعة . وكان الوقت ليلاً ، وكنا نتضوّر جوعاً حين وجدنا فندقاً في « اوتوكاك » ، فقالوا لنا :

ـ سنقدّم لكما العشاء . أما بشأن الغرفة ، فلا بد من ان ننتظر البواب .

البواب ؟ يبدو انه كان يمثل دوراً لا يقل أهمية عن دور البواب في انتاج كافكا . غرفة ؟ إن البواب هو الذي يحمل مفتاحها . بنزين ؟ هو وحده من يستطيع ان يفتح المضخة او المخزن . ولكن اين هو ؟ انه غير موجود دائماً . ووجدوه أخيراً : فلم يكن المفتاح معه ؛ وهو ذاهب للاتيان به . وسوف يعود : ولكن متى ؟ في ذلك المساء بقينا في قاعة طعام مدخنة نتصبّر ونحن

نمضغ كريّات من اللحم ونشرب عرقاً مصنوعاً من عصير الخوخ. وقال لنا الخادم:

– هناك فرنسية تودّ ان تتحدث اليكما.

وكانت معلّمة عجوز فاقدة الاسنان جالسة الى قربنا؛ وكانت تعرف أميراً تتحرّق لتجعله يلتقي بنا، وقالت ان لديه شيئاً كثيراً يقوله لنا عن تجاوزات تيتو؛ اما هي، فقد كان زوجها في السجن، وكانت تجد مشقة كبيرة في كسب حياتها. وكان قد حارب ككولونيل الى جانب الألمان، وأضافت انه كان قد أقام في باريس بثوب «الفأرة الرمادية». وقمنا بنزهة في المدينة الغارقة في الليل والصمت والتي كانت تبدو لنا عجيبة لفرط دهشتنا من ان نجدنا فيها.

ولا شك ان عامل محطة البنزين قد سخر منا. فان السياحة لم تكد تولد من جديد؛ وكانت الفنادق نادرة جداً، وكذلك المطاعم والمآكل الزهيدة؛ وكان المرء يجد مشقة كبيرة في العثور على وقود للسيارة؛ وكان أقل تصليح يطرح مشكلات؛ وكان كل شيء ناقصاً في المرائب؛ وكان الميكانيكيون يقومون ببعض ضربات بالقدّوم. لم نكن نضحك او نتسلىّ. إن هذا البلد الذي كان قبل حرب ١٩٣٩ افقر بلد في اوروبا قد اكتسحته الحرب. وأسباب شظف العيش فيه مردودة الى مقاومته للفاشية، ورفضه بعث الامتيازات، وللمرة الاولى في حياتي، لم أكن ارى الرغد يسير الى جانب اليؤس، ولم نكن نعثر لدى أحد على غطرسة او على مذلّة، بل كنا نجد لدى الجميع الكرامة نفسها؛ وبصفتنا أجانب، وجدنا ودّاً بلا كتمان. كانت تطلب منا خدمات وتردّ لنا خدمات بالشكل الطبيعي نفسه.

ولقد كان يروق لنا ما نراه. وكان حول بحيرات «بليفيس» التي ينتشر فيها حفيف أوراق الشجر والشلالات، اطفال يبيعون سلالاً من لحاء الشجر ملآى بالفريز البرّي؛ وكانت فلاّحات جميلات ينظرن الينا لدى مرورنا على طول الطرقات؛ ومن جديد عرفت هذه الفرحة: أن اكتشف فجأة، من خاصرة جبل، البحر الأبيض المتوسط وشجر الزيتون الهابط من سطيحة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الى سطيحة نحو زرقة الماء التي لا تُحدّ ؛ وقد كان الشاطيء الوعر المتقطّع المزروع بالرؤوس والجزيرات المتلألئة في مثل جمال الشاطيء الذي رأيته في اليونان ؛ وشاهدنا « سيبانيك » و « سبليت » وقصرها : وفي الكنائس ، كانت نساء عجائز امام الايقونات . وفجأة ، برز الشرق : موستار بقبابها ومآذنها الممشوقة ؛ ولكن الحرارة كانت تتجاوز فيها ٤٠ درجة ، وكان الهواء دبقاً ، وقد التقط لانزمان حمّى ، وتذكّرت في ندم وصفات الطبيب . وقرّرنا ان نصعد ثانية نحو بلغراد ونتجه الى سويسرا . وقد بقينا في « ساراجيفو » نهاراً ؛ وكانت الجادّات الكبيرة ، القريبة من البحر المتوسط ، والفندق المؤثث بالأثاث الثقيل ، تنتمي الى اوروبا الوسطى ؛ في حين ان الجوامع الأنيقة المخرّبة ، كانت تنتمي الى الشرق . وأيّ مزيج من النساء المرتديات الغلالات السوداء ، والقرويين ذوي الأحذية الضخمة والملابس الجزيلة الصنعة ، في السوق الفقيرة التي كانت تذكّرني بتلك الكلمة العائدة الى عهد ما قبل الحرب : البلقان .

ولكي نتجه الى بلغراد ، اخترنا على الخارطة أقصر طريق تجتاز « الساف » . وكنا نعبر القرى ونتردّد عند مفارق الطرق ، وقد اضطررنا الى ان نسأل المارّة مراراً : « بيوغراد ؟ » فكانوا يجيبوننا بعبارات طويلة كانت تتردّد فيها كلمة « اوتوبوت » وبحركات كانت تدعونا لأن نعود ادراجنا . وفيما كنت أتجنّب الأرانب التي كانت تنبثق من كل مكان تحت اضواء السيارة ، كان لانزمان يسألني :

ــ هل تظنين انها الطريق ؟

فكنت أُريه الخارطة . وفي منتصف الليل ، وصلنا حافة رقعة واسعة من الماء المعتّم : ولم يكن ثمّة جسر . فوجب علينا ان نعود القهقرى مئتي كيلو متر لكي نبلغ الطريق العامة ؛ وحللت محل لانزمان المجهد على المقود ، فدهست ارنباً ، فقال لي :

ــ لُمّيه ، فنعطيه أحداً .

وكان الارنب البريّ ضخماً ، يكاد لا يقطر منه دم .

وكان النهار يبزغ حين دخلنا بلغراد ، فأخذنا قسطاً من النوم ثم زرنا المدينة ذات القلب الكثيف المحفوف بالضيع القروية الضخمة . وكانت الحوانيت والمطاعم والشوارع والناس ، وكل شيء يبدو فقيراً . وفي الحيّ القديم ترجلنا من السيارة ، عازمين على التخلص من أرنبنا الذي كنت أحمله من أذنيه . ولم نكن نجرؤ على ان نقدّمه لأحد : ولم نكن نستطيع مع ذلك ان نرميه ! واخيراً توقفنا امام زوج وزوجة شابين كانا يجرّان عربة طفل ، فمددت لهما الأرنب وانا اقول : « اوتوبوت » فشكرانا وهما يضحكان .

ومساء اليوم التالي ، مضينا من جديد نقطع الطرق العامة المقفرة التي لم يكن يسير عليها الا عربات تحمل العلف ؛ واوقفتنا في « برود » ، وهي مركز معدني ، عاصفة ذات عنف مريع ؛ وكانت في الفندق حفلة راقصة : كان العمال والعاملات يرقصون . وقد نبّهنا مدير الفندق الى مرحهم ، ثم عرض لنا في حماسة مآخذ بلاده على الاتحاد السوفياتي . وكان لانزمان يعرف الألمانية التي كان عدد كبير من اليوغسلافيين يتحدثون بها : فكان جميع الذين تحدّثنا اليهم تقريباً يحتقرون آنذاك الاتحاد السوفياتي احتقارهم لألمانيا . واتذكر ، مما أتذكّر ، محطة في قرية أعطينا فيها عجلتين للاصلاح . ودعانا بعض الجلوس على السطائح الى تناول قدح في كوخ مزدان بقصاصات الورق والأعلام ؛ وتحدّثوا عن ذكرياتهم في زمن المقاومة السرية ، وروى لانزمان ذكرياته . وكان احد عناوين الفخار لتيتو ، في نظرهم هم ايضاً ، قطع علاقاته بستالين .

بعد بضع ساعات من التوقف في زغرب ، ولوبليانا ، غادرنا يوغوسلافيا : لا من غير أسف . كان فقرها مدقعاً ؛ وكانت تفتقر الى الجسور والطرق ؛ وقد سرنا على قنطرة يستعملها في وقت واحد المارّة والسيارات والقطارات ولكن شيئاً ما ، عبر هذا البوٌس ، كان يمسّني ولم يكن قد سبق لي ان التقيته في اي مكان آخر : علاقة بسيطة ومباشرة بين الناس ، صلة مشتركة مـن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المصالح والآمال والاخوة . وكم بدت لنا ايطاليا غنية ، بمجرد ان اجتزنا الحدود ، فهناك شاحنات كبيرة ضخمة ، وسيارات ، ومحطات بنزين ، وشبكة للطرق والسكك الحديدية ، والجسور والحوانيت الغنية . وقد كنّا نجد ، الى جانب الازدهار ، تفاوت الطبقات ، والمسافات والحواجز .

وبلغنا سويسرا أخيراً ، والثلوج ، وكتل الجليد . وقد تسلقنا جميع الشعاب والقمم التي تستطيع السيارات بلوغها ؛ وكان يغيظنا ، بعد مصادفات الطرق اليوغسلافية ، ان نتبع دروباً مطروقة ؛ كنّا في الليل نتسلق طرقاً وعرة مجلدة ، فنستمدّ من الخوف شعوراً لذيذاً بالمغامرة ، وقد نمنا على ارتفاع يزيد عن ثلاثة آلاف متر ، عند قدم « جانغفرو » ورأينا الشمس تطلع على « الايجر » . ثم سرنا : وكنت ما ازال قادرة على ذلك ؛ كنا ننتعل حذاء من المطاط ، فنمشي طوال سبع ساعات متتابعة عبر ركام الثلوج . وكان لانزمان يستكشف الجبل العالي ؛ وفي « زيرمات » تعلّم عن ظهر قلب جميع مآسي « سرفين » . وبعد بضعة ايام في ميلانو ، قضيناها لدى اختي ، تنزّهنـا حول وادي « آوست » ؛ وقرأنا على لافتة ، عند حافة سهل : « احترم الطبيعة والمِلْك » . وحين عدنا الى باريس ، كنّا دهشين ان نجد في ذكرياتنا زيتون دالماسيا وزرقة الكتل الثلجية ممزوجيْن .

وما لبثت على الفور تقريباً ان تركت باريس من جديد مع سارتر . وقضينا شهراً في فندق بامستردام ، ونحن نستقل القوارب ؛ وكنّا نعمل ونزور المتاحف والمدينة وهولندا برمتها . وكان قد انفجر في فرنسا اضراب ذو نطاق واسع كان يشلّ جميع الخدمات العامة ، بما فيها البرق والبريد والهاتف[١] . ولكي نتراسل ، كنّا انا ولانزمان نحمل رسائلنا الى المطارات فنسلّمها لمسافرين . وقد حاول مرة ان يعطّف قلب عاملة تلفون وهو يدافع عن حرارة عاطفته ، فأجابته بجفاء :

---

(١) بدأ هذا الاضراب لدى عمال البرق والبريد احتجاجاً على مراسيم « لانييل » ، ولكنـه امتد الى السكك الحديدية والى عدة صناعات : فتوقف ثلاثة ملايين عامل عن العمل .

– إن الحب ليس قضية مستعجلة !

وغادرنا امستردام قاصديْن، عبر الغابات وشجر الدلب، متحف «مولر – كرولر» لنشاهد لوحات فان كوخ؛ وحاذينا شواطيء الران وضفاف الموزيل؛ وكنا نشرب على سطائح «وينستوب» خمراً معطراً في أقداح سميكة جميلة، لونها بلون العنب. وأراني سارتر على رابية تقوم فوق «تريف» بقايا المعسكر الذي كان أسيراً فيه: فأثّر فيّ المنظر؛ ولكن الأسلاك الشائكة الصدئة وبعض الأكواخ التي كانت ما تزال قائمة كانت أضعف تعبيراً مما هي في قصصه. واجتزنا الألزاس، وهبطنا حتى «بال» حيث شاهدت ثانية رسوم «هولبين» و «كلي».

وكان المفروض ان يلحق بنا لانزمان، كما اتفقنا، ليقضي معنا بضعة ايام، وكنت انتظره بفارغ صبر؛ ولكني تلقيت برقية: كان في المستشفى على اثر حادث سيارة وقع له في ضواحي «كاهور». وأخذني الخوف. وسافرت مع سارتر الى كاهور حيث كان لانزمان ممدّداً، مثخناً بالجراح، مرهقاً. ولكن الأمر كان أقلّ خطراً مما تصورنا. فهو ما لبث ان نهض، وقمنا نحن الثلاثة بنزهة عبر «اللو» و «الليموزان»؛ وزرنا مغارات «لاسكو» وهبطنا نحو تولوز، فشاهدنا مرة اخرى «ألبي» و «كورد» وغابة «غريزني». وأنهيت عطلتي مع سارتر برحلة الى «بريتاني» التي بدت لنا جميلة جداً تحت الخريف وعواصفه. ولكنني كنت قلقة. كنت قد خشيت ألاّ يرتضي لانزمان علاقاتي مع سارتر؛ ولقد كان الآن يحتل في حياتي مكاناً كنت أتساءل معه عمّا اذا كان تفاهمي مع سارتر لن يتأثّر بذلك. ولم اكن انا وسارتر نعيش بعدُ العيشة نفسها. فهو لم يسبق له ان استغرق في السياسة وفي كتابته وفي عمله كما هو مستغرق الآن؛ بل لقد كان يجهد نفسه. اما انا، فكنت أفيد من شبابي العائد؛ كنت استسلم للحظات. لا شك في اننا سنبقى دائماً صديقين حميمين، ولكن اترى مصيرينا اللذين كانا ممتزجين حتى الآن لن ينتهيا بالانفصال؟ ولكني استعدت الاطمئنان فيما بعد. إن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التوازن الذي حقّقته، بفضل لانزمان، وسارتر، واحتراسي الخاص، كان جديراً بأن يستمرّ، وقد استمرّ.

* * *

كانت نهاية ١٩٥٣ طيبة. صحيح أن عزل السلطان كان انتصاراً للاستعمار، ولكننا كنا نفكر بأنه انتصار موقت. وكان الصلح قد وُقّع أخيراً في كوريا؛ وكان «هوشي منه»، في مقابلة أعطاها لجريدة سويدية «لاكسبريسن»، يفتح الطريق للمفاوضات. وكانت اضطرابات ١٧ حزيران في برلين الشرقية التي أطلقت الشرطة فيها النار على العمال، وسقوط «راكوزي» والغاء «ناجي» لمعسكرات الاعتقال قد أجبر الشيوعيين بصورة وحشية ان يعترفوا بعدة وقائع كانوا حتى ذلك الحين ينكرونها؛ وكان بعضهم يطرحون على أنفسهم الاسئلة، وكان آخرون «يحرّقون الأرّم». لقد كان تطوّر الاتحاد السوفياتي يحمل للمتعاطفين معه رضى لا تشوبه شائبة. كانت معسكرات «بيريا» تختفي؛ وكان مستوى حياة الروس على وشك ان يرتفع، مما يسهّل تحويلاً ديمقراطياً وثقافياً، لأن الصناعة الخفيفة ليست بعدُ ضحية الصناعة الثقيلة؛ وكان قد بدأ يظهر «ذوبان جليد» على حد عنوان رواية اهرنبورغ الأخيرة. وحين أعلن مالنكوف أن الاتحاد السوفياتي كان يملك القنبلة الهيدروجنية، بدت امكانية وقوع نزاع عالمي مُبعدةً لمدة طويلة. اما «توازن الارهاب» فهو على اي حال خير من ارهاب بلا توازن. وفي هذا المضمار، كان انتصار «اديناور» الذي يرهص بخلق الجيش الأوروبي يفقد قليلاً من خطورته.

وكان سارتر قد كتب في بضعة اسابيع، فيما هو يتسلّى كثيراً، اقتباساً لرواية «كان» التي كان الممثل «براسور» قد طلبها منه؛ وهذه المرة، انقضت التمرينات بلا مشاكل. وشاهدت مسرحية «في انتظار غودو». وأنا أحذر المسرحيات التي تمثّل، تحت قناع الرموز، الوضع البشري في عموميته؛ ولكن أعجبني ان يوفّق «بيكيت» في أسرنا، حين صوّر ببساطة هذا الصبر الذي لا يكلّ والذي يشدّ الى الأرض، ضدّ كل شيء وفي وجه

كل شيء ، جنسنا البشري وكلاً منّا ؛ كنت واحداً من ممثلي المسرحية ، وكان رفيقي فيها المؤلف ؛ ففيما كنّا ننتظر – لست ادري ماذا ؟ – كان يتكلم ، وكنت أصغي : وبحضوري ، وبصوته ، كان أمل ضروري وغير مُجنْد ينعقد ويتغذّى .

وصدرت آنذاك رواية همنغواي « الشيخ والبحر » بالفرنسية ، وكان النقد كلّه يرفع لها المباخر . اما انا واصدقائي فلم نحبّها . كان همنغواي يُحسن رواية القصة ؛ ولكنه كان قد حمّلها وأثقلها بالرموز ؛ كان يتّحد بالصيّاد الذي يحمل على كتفيه صليب المسيح ، تحت شكل سمكة مزيّف ببساطة : وقد كنت أجد هذه النرجسية الشيخية مثيرة للغيظ . ولم اتفق تماماً مع لانزمان حول كتاب « الاستجواب » لفان سالومون ؛ كانت المانيا قد أصبحت اشد بلاد اوروبا ازدهاراً ؛ وكانت انطونينا فالانتين التي عادت منها قد روت لي قصة لقائها النازية الجديدة الألمانية ؛ فبالرغم من « الاستجوابات » كان النازيون القدامى ورجال الأعمال الذين كانوا قد أيّدوا هتلر يحتلّون من جديد أعلى المراكز . وكنت أفهم ان يُقابَل بغضب التبرير الذاتي لسالومون . لقد كنت أعترف بما في طريقته من نية سيئة تظهر في اسلوبه نفسه . ولكن حرارة قصصه كانت تنعش فيّ الرغبة القديمة في أن اروي ذكرياتي .

وبالفعل ، سيكون امامي عمّا قليل ان أتساءل : ماذا اكتب ؟ ذلك اني كنت أنجز كتابي ، وهذا قد أسهم كثيراً في خلق مرح ذلك الخريف . كان العنوان يقلقني ، وكنت قد عدلت عن « الأحياء » : إن الحياة عام ٤٤ ، مهما كان من أمرها ، لم تتوقّف . وقد كنت أختار عن طوع « المشتَبهون » لو أن الكلمة لم يسبقني « داريون » الى استعمالها منذ اعوام ، لأنّ الموضوع الجوهري للرواية كان التباس وضع الكاتب . وكان سارتر يقترح عنوان « السَحَرة » : وقد كنا نشبّه أنفسنا بأولئك الحدادين والمشعوذين والشعراء الذين كانت بعض المجتمعات الافريقية تحترمهم وتخافهم وتحتقرهم في وقت واحد . ولكن الكلمة كانت تعليمية اكثر مما ينبغي . واقترح لانزمان : «ولماذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يكون العنوان « المثقفون » ؟

وابتدأ الشتاء قاسياً ؛ وأطلق الاب بيار هجومه الإحساني الكبير ، ووافقت البورجوازيات باندفاع على الانفصال عن بعض القيود ، وأحسّ الجميع بأنهم طيبون وكرماء ، وكانت سهرات الميلاد منتعشة . واجتمع فريقنا الصغير لدى ميشيل . وأعطيت مخطوطة « المثقفون » لدار غاليمار ، وكان لدى لانزمان في كانون الثاني خمسة عشر يوماً من الإجازة ، فكان ان حلمت بالشمس . وكانت مراكش هادئة في الظاهر ، وكانت لدى لانزمان رغبة في معرفتها ، وانا في رؤيتها ثانية : وحجزنا مكانين في طائرة . وعشية سفرنا ، نشرت الصحف بعناوين بارزة « رعب في مراكش » . وكان ذلك بدء موجة الارهاب والارهاب المعاكس الناجمة عن عزل السلطان . وغيّرنا خطتنا ، واستقللنا السيارة في صباح اليوم التالي الى مدينة الجزائر الممطرة ، المليئة بالمتسولين والعاطلين واليأس . وخلف هذه الواجهة العابسة ، كان ثمة شعب يغلي ، وكان المناضلون ينظّمونه بصبر دائب ، ولكننا كنا نجهل ذلك . وما لبثنا ان اتجهنا الى الصحراء . وامام فندق « غاردايا » كانت شاحنات واقفة وعلى جوانبها كتابات تعلن أهداف المهمة الملقاة على عاتقها في الرحلة : « بيع طبّاخات كهربائية ودراسة الطفيليات على مدى ٣٠ ألف كيلومتر بافريقيا السوداء » وكانت ثمة اميركية تنظّف سيارتها ماركة «ويليس اوفرلاند » قبل اجتياز الصحراء . لماذا لا نهبط ، نحن ايضاً ، نحو « الغوليا » ؟ هكذا سألني لانزمان . وكان رجال الفندق يؤكدون له ان سيارة « الاروند » ستبلغها حطاماً مبعثرة . واقترحت ان نتجه اولاً الى « غريره » . وكانت المدينة تنتصب حمراء رائعة فوق الرمال ؛ وفي الساحة ، كان ثمة وسط دائرة فضولية رجل يحمل خروفاً على ظهره ، وهو يمشي طولاً وعرضاً وبسرعة ، وينادي : كان ذلك بيعاً بالمزاد ، ونظرنا الى الناس والشوارع ومشينا في الواحة . ولكن اية تجربة قاسية كان الذهاب والعودة ! كنا نسير على طريق متموّجة ، تقطعها الأقنية ، فننتقل بوعورة من ٨٠ إلى ٥ في الساعة ؛ وعند العودة ، كان الليل

يهبط ، فغرقنا في الرمل تحت سماء عاصفة ذات جمال مريع ؛ وكنا نملك رفشاً وألواحاً ، فتمكّن لانزمان من اخراجنا من الرمل : ولكنه عدل عن متابعة الرحلة الى الغوليا .

وفي « اوارغلا » شاهدت ثانية الرمال البرقوقية اللون ، لم يتغيّر فيها شيء ، والحروف اللوزية اللون التي كانت قد اثارت انفعالي لثمانية أعوام خلت ؛ ولم ترق لنا توغورت ، فبتنا فيها ليلتنا وسارعنا في مغادرتها بالرغم من هبوب ريح رملية ومن النصائح التي كانت تتدفق علينا . ولم يكن المرء ليرى فيها امامه ، على بعد عشرة امتار ، وبعد خمس دقائق الفينا أنفسنا في اراض بور ، فعدنا ادراجنا الى الطريق ، بعد ان جمعنا عنادينا ، وأضأنا أنوار السيارة ، فتوقفت في وجهنا سيارة كان فيها عين من اعيان المسلمين مع سائقه فقالا لنا : « اتبعانا » ؛ وكانت سيارتهما « السيتروين » تسير بسرعة ٩٠ في الظلام الأبيض الكثيف . وكان لانزمان يدلف خلفها ، وعيناه مشدودتان الى مؤخرة السيارة . وتوقّفا في قرية ، ومضينا نحن بالسرعة نفسها — فقد كانت السيارة ترتجّ فتصطفق جميع قطعها حين كان لانزمان يبطيء في السير — ونحن واثقان من اننا سنتحطّم اذا انبثقت في وجهنا عقبة . وخرجنا أخيراً من العاصفة ، ولكن الريح كانت قد كدّست تلال الرمول على الطريق ؛ وبعد اربعة كيلومترات، غرقنا ثانية في الرمل ، فأقبل لنجدتنا فريق كان يعمل على سكة حديدية ضيقة ؛ ثم غصنا مرة اخرى ، فتوقّفت شاحنتان كانتا مارّتين بسرعة عشرة كيلومترات في الساعة ، وهما تحملان عمّالاً ، فأخرجونا من المأزق . وغرقنا مرة أخيرة على بعد ثمانين كيلومتراً من « الواد » ، وكان ذلك عند الشفق والبرد شديد ، والليل ينذر بأنه سيكون قاسياً . وباركنا نجمنا المُسعد حين لمحنا سيارة « دودج » تحمل رئيس المحطة وزوجته وسائقين مسلمين . وبعد ان أخرجونا ، غصنا من جديد ، وانتهى بنا الأمر الى الصعود الى الدودج مع امتعتنا ؛ وقد أغلقنا السيارة ولكنا رفضنا ان يقضي أحد السائقين الليل في حراستها .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفي الصباح ذهب السائقان ليعودا بالسيارة ؛ وخشي رئيس المحطة إن هو لم يستعمل قاطرته في اية خدمة ان يُلغوا عملها ، فاقترح ان نستعملها في اليوم التالي لتعود بالسيارة الى بيسكرا . ولكن شاباً ذا هيئة عازمة يُدعى « سالم » تنبّأ بأن السيارة ستتحطم بهذا الشكل ، فاقترح ان يسوقها بنفسه حتّى « نفطة » عبر التلال ، لقاء اربعة آلاف فرنك . وكان قد سبق لي ان اجتزت التلال في الشاحنة ، ولكن هل كان بوسع سيارة من طراز « اروند » ان تعبرها بأمان ؟ كلا ، على ما قيل لنا . وفيما كنا نتنزّه ، قلقيْن ، بين الحدائق الجميلة التي كان لها شكل الأقماع ، ألتقينا « سالم » ؛ وكان يقود سيارة جيب محملة بالأولاد ، وكان يقفز بها من تلة الى تلة . فقرّرنا ونحن نقول له :

ـ اذا كنت لا تزال على رأيك ، فلنقم بالمحاولة !

وفي المساء ودّعنا رئيس المحطة الذي كان حزيناً . وكانت زوجته التي لم يمض على وصولها الى الجزائر وقت طويل ، ما تزال مبهورة : بيت كبير ، وحديقة واسعة ، وخَدَم تحت التصرّف ، إنها لم تكن قد حلمت بهذا قط : « إن أهلي ، حين أكتب لهم اني اقطع مئتي كيلومتر في النهار بالسيارة ، لا يريدون ان يصدّقوا ! » لقد كانوا اناساً طيبين ، وقد عارضوا أن يعوّض لانزمان على السائقين اللذين كانا موظفين في المحطة . غير ان لانزمان أعطاهما بعض المال بصورة خفية ، فاكتشف مدير المحطة وزوجته هذه الحركة ولم يكونا مسرورين .

وفي الصباح كانت بلدة « الواد » كلها تنظر الينا ونحن نغادرها ؛ وكان « سالم » قد نفّس العجلات ، واقلع بالسيارة تحت نار الأنظار المرتابة : « انك لن تستطيع ان تمرّ ومعك هذه ! » وكنّا قلقين : ففي حالة الاخفاق ، لا بدّ لنا من ان ننتظر ثمانية ايام حتّى يصل القطار القادم . ويا للحسرة ! لقد غاصت السيارة في الرمل ، بعد أقل من خمسة كيلومترات ! وساعدها بعض الفلاحين على الانطلاق من جديد ، ولكن لن يكون ثمة أحد في المرة

القادمة ، هذا ما قلته في نفسي . ثم أخذت « الاروند » تطير فوق الرمال ؛ وبين الفترة والفترة ، كان سالم حين يصل أعلى تلّة من التلال يهبطها بسيرٍ خلفي ليصعدها من زاوية اخرى : وكان ينجح في ذلك . وعند الساعة الثالثة ، كنا نشرب نخبه في مقهى اسلامي بنفطة ، وكان الزبائن الذين أثارهم ينظرون اليه باعجاب . كان ذا حيوية كبيرة ، وكان ذكياً بمقدار ما كان حاذقاً ؛ ولا شك في انه قد انضمّ الى جيش التحرير الوطني منذ الأيام الأولى : فما تراه قد حدث له ؟

وبفضله ، استُقبلنا استقبالاً طيباً ؛ ولكن فيما بعد ، لدى عودتنا من نزهة في الواحة ، نظر الينا الباعة القليلون المتسمّرون خلف بسطاتهم ، في الساحة المقفرة تقريباً ، نظرة استياء ، كان الفندق مغلقاً ؛ ورفضت الحانة التي كانت تبدو مفتوحة ان تقدّم لنا حتى قدح ماء . وزرنا تطوين ومدنين وجربا ، ولكننا أحسسنا بين البلد وبيننا غلالةً من العداوة . وبالقرب من قابس ، سمعت للمرة الأولى كلمةً ما لبثت أن ألفتها ؛ فلقد سألت ضابطاً إن كان بالامكان ان نذهب الى « مطماطة » : فقد كنت أخاف الرمال . وارتسمت على شفتيه بسمة مترفّعة ، وقال :

– هل تخافان رجال « الفلاغة »[١] ؟ اطمئنّا بالاً ، فنحن هنا ، ولن يحتكّوا بنا !

وذات مساء ، طفنا برأس « بون » . ثم استقللنا الطائرة من تونس ، وأرسلنا السيارة على ظهر باخرة ؛ وقد قرأ احد عمال المرفأ ، وهو تونسي شاب ، اسم سارتر على السيارة ، فنادى رفاقه .

– سيارة جان بول سارتر ! سنهتمّ بأمرها على الفور ! قولا له شكراً باسمنا.

وحسدت سارتر أنه عرف أن يولّد على هذه الوجوه التي كانت فرنسا

---

(١) مفردها فلاغ وهو قاطع الطريق . وهو اسم كان يعطى في تونس ثم في الجزائر الى الأنصار المجتمعين في فرق مسلحة لمقاومة السلطة الأجنبية القائمة . (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد هيّأتها للحقد ، بسمات الصداقة هذه .

* * *

واستأنفت الكتابة ، ولكن برخاوة . وكان المشروع الذي يشغل ذهني وقلبي الآن ان ابتعث طفولتي وشبابي ، ولم اكن اجرؤ على ان أفعل ذلك دون مواربة . وشرعت في كتابة قصة طويلة عن موت « زازا » ، عائدة إلى احدى المحاولات القديمة العهد . وحين أطلعت عليها سارتر منذ شهرين أو ثلاثة ، لم تحظ باعجابه ؛ وكنت على وفاق معه : كانت تلك الحكاية تبدو مجانية ولا تثير الاهتمام . واكتفيت فترةً من الزمن بقراءة مسودة « المثقفون » وتصحيحها تصحيحاً رديئاً .

وكان عام ١٩٥٤ يكذب آمالنا ؛ فقد فشل مؤتمر بارلين ، وكانت فرنسا تستعد للتصديق على « اسرة الدفاع الأوروبية » التي كانت تدعمها اميركا التي كانت تريد بعد هزيمتها في كوريا ، ان تجنّب الهند الصينية الوقوع في الشيوعية ، فرفضت عروض « هوشي منه » . ومنذ اليوم الذي بدأ فيه الجنرال « نافار » ، في ١٣ آذار ، معركة ديان ــ بيان ــ فو ، عانيت للمرة الأولى تجربة شاقة : لقد أحسستني مقطوعة بصورة جذرية عن كتلة مواطنيّ . وكانت الصحافة والاذاعة تعلنان ان جيش الفياتمينه سوف يُباد ؛ ولم يكن الأمر يقتصر ، وانا أقرأ صحف اليسار والصحف الأجنبية ، على التحقّق من ان هذا كان كاذباً ، بل كنت مع اصدقائي سعداء بذلك . ومن جهة الفياتمينه ، كانت الحرب قد خلّفت في الشعب والجيش مئات الألوف من الموتى ، وكان هذا اشدّ تأثيراً عليّ من الخسائر التي تكبّدتها الحامية : ١٥ ألف جندي من الفرقة الأجنبية كان ثلثهم على الأقل من قدامى الشرطة العسكرية النازية . وكانت بطولة وحدات الانتحار اعظم من بطولة جانفييف دوغالار والكولونيل دوكاستري التي كانت الدعاية تستغلّها استغلالاً قبيحاً . وكان بيدو يستمد شجاعتهما حجة لرفض التفاوض حتى من أجل هدنة تسمح بنقل الجرحى . وحين سقطت ديان ــ بيان ــ فو علمت ان الفياتمينه قد كسبت استقلالها عملياً ، وكنت سعيدة

بذلك . لقد كنت منذ اعوام ضد فرنسا الرسمية ؛ ولكن لم يسبق لي ان ابتهجت لهزيمتها كما ابتهجت اليوم . وكان الأشخاص الذين ألتقيتهم يتصورون ان مصيبة كبيرة قد حلّت ببلدهم ، بلدي . ولو انهم اكتشفوا فرحي لاستحققت في نظرهم اثنتي عشرة رصاصة في جسمي .

وشاء المتطرفون والجيش ان يردّوا اسباب الألم والاحتضار والموت في ديان – بيان – فو الى المدنيين في مجملهم ، والى اليسار بوجه خاص ؛ على ان الجيش الذي غذّى حقده من ذكرى هذا « الذل » ما لبث ان تحمّل كامل تبعته . اما اليسار ، فانه لم يكتف بأنه كان دائماً يريد السلم ، بل ان صحافته ورجاله السياسين كانوا قد فضحوا جنون خطة « نافار » . لقد كان في الحكومة رجل قاتل : هو بيدو ، ولكن جرمه لم يكن في انه خان العسكريين : بل كان يكمن في انه ، من أجل دعمهم وتأييدهم ، لا يتردّد في تعريض البلاد لحرب عالمية . ولم يكن بالامكان التنبّؤ بالحدود التي يؤدي اليها جنون جيش كان عائداً الى فرنسا ، متعطشاً الى الثأر ، رافضاً ان يعترف بأخطائه . وفي هذه الاثناء ، فيما كان البرلمان يقلب لانيال وبيدو ، ويعارض ذهاب الفرقة ، ويكلّف مانديس – فرانس بالتفاوض ، وفيما كان جزء كبير من البلاد يقرّه على ذلك ، كانت شوفينية شرسة يشيعها مهزومو الهند الصينية تبدأ بافساد الرأي العام . وكان المفروض ان ترقص « اولانوفا »[1] في باريس : فظنّ المظلّيون انهم يثأرون من ديان – بيان – فو بمنع الحفلة بواسطة تهديدات أخافت السلطات.

وفي آذار ، ألقى الاميركيون على بيكيني قنبلة تجاوزت نتائجها كل تقديراتهم[2] . وبالرغم من ان « اوبانهيمر » قد أسهم في صنع القنبلة ، فقد اتّهم بالقيام بنشاط معادٍ لاميركا . ولم تكن عمليات مطاردة الشيوعيين وتطهير الدوائر منهم لتقف لحظة : ومع ذلك فان الامبريالية الاميركية كانت في صحة جيدة ؛

---

(١) نجمة رقص سوفياتية شهيرة . (هـ.م)

(٢) فقد تركت عدداً كبيراً من الضحايا بين الصيادين اليابانيين وبين المستهلكين الذين كانوا يبتاعون سمكهم .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فقد كان الذين تضطهدهم والذين كانوا يحاولون ان يحاربوها سرعان ما يُسحقون. ومن أجل اجتذاب أنظار العالم ، قام بعض سكان البورتوريكو باطلاق النار في قاعة الكونغرس بينما كانت الجلسة منعقدة : ولكن عبثاً . وكان « اربانز » ، في غواتيمالا ، قد حاول ان يلوي نير « اتحاد الفاكهة » : ولكن بعض المرتزقة الذين عُمّدوا باسم « جيش التحرير » نزلوا الى اليابسة وطردوه .

وفي شباط ، طلبت ايلسا تريوليه من سارتر ان يشارك في لقاء بين كتّاب الشرق والغرب الذين سيُعدّون في « كنوك لزوت » نوعاً من الطاولة المستديرة ، فقبل . وقد صحبناه في السيارة انا وميشيل ولانزمان ؛ وكنا في اثناء النهار نتنزّه ونشاهد اللوحات ؛ وفي المساء كان يقصّ علينا أخبار الجلسات . وكان المفكرون البورجوازيون ، امثال مورياك ، قد رفضوا دعوة ايلسا تريوليه ، وكان الفريق الصغير من الشيوعيين ومناصريهم الذين جمعتهم يحرّرون نداء من أجل اجتماع اوسع : وكان المطلوب عدم إجفال ايّ انسان ، وكانت كل كلمة تُزان بدقة ؛ وكان في الحضور كارلو ليفي المرتجف من البرد تحت قبعته الفرائية ، وفيدين ، وأنّا سيغرز ، وبريخت الجذّاب الذي أبرم الجميع ، حين انتهى المجتمعون من اقرار صيغة النداء ، فطلب بلهجة ساذجة اضافة احتجاج على التجارب الذرية الاميركية ، وعمل فيدين وسارتر بحكمة على إبعاد اقتراحه . واستقبلت ملكة البلجيكيين ، وهي تقدمية قديمة ، اعضاء هذا المؤتمر الصغير في بروكسل . ودعا الكتّاب الروس سارتر للمجيء إلى موسكو في ايار .

وكان قد عمل طوال العام في نشاط مبالغ فيه : فكان يعاني من الإجهاد والتوتّر . وكان الطبيب قد امره بارتياد الريف وأوصاه براحة طويلة : ولكنه كان يكتفي بتناول بعض اقراص المخدرات . ولم يكد ينام في الليالي التي سبقت رحلته لأنه كان عليه ان ينجز مقدمته لمجموعة « كارتيه — بريسون » التي عنوانها « من صين الى اخرى » ؛ وكان عليه ان يتوقف في برلين ويشترك في اجتماع لحركة انصار السلم ، على ان يُعدّ خطابه في الطائرة : والحق انه

كان يجهد نفسه وكنت قلقة عليه ، فقد كان يبدو منهكاً . على ان رسائله الأولى طمأنتني قليلاً . وكان قد تكلم في برلين عن جعل التاريخ ومتناقضاته جامعياً : فأحد مظاهره ظهور أسلحة قادرة على ازالة الأرض ؛ ومظهر آخر هو تدخّل البلاد المستعمرة كلياً او جزئياً التي كانت ، من اجل الحصول على استقلالها ، تشن حروباً شعبية لم تكن للقنابل الذرية اية سلطة ضدها .

وكان سارتر يؤكد أنه كان الآن يستعيد صحته . وكان من الفندق الذي نزل فيه ، فندق الناسيونال ، يشرف على الساحة الحمراء الملآى بالأعلام : كان ثمة احتفال بذكرى اتحاد اوكرانيا وروسيا . وقد شاهد العرض ، وكتب يقول لي : « لقد قست بعينيّ مليون نسمة . » وقد استوقفته فظاظة بعض الدبلوماسيين الأجانب الذين كانوا ، وهم في مقاعدهم ، يقهقهون . « لو كانوا في فرنسا ، في عيد ١٤ تموز في ساحة الشانزليزيه ، لما تسامحنا أمام فظاظتهم » وزار الجامعة ، وتحدث الى طلاب واساتذة ، واستمع في احد المصانع الى عمال تكنيكيين يناقشون أعمال سيمونوف ؛ وكان يتنزّه كثيراً ؛ وكان مترجمه قد سلّمه ٥٠٠ روبل ليصرفها حين يخرج وحده ، وهذا ما كان يفعله غالباً . وقد دعاه سيمونوف الى مسكنه الريفي ، « الداشا » ، حيث خضع لتجربة قاسية : مأدبة دامت اربع ساعات ، وشرب فيها عشرين نخباً من الفودكا ، وكانوا يملأون قدحه بلا انقطاع بخمر ارمينيا الوردي وخمر جورجيا الأحمر . وقال احد المدعوين :

ـ انني اراقب هذا الرجل فيما هو يأكل : ولا بدّ انه رجل شريف كريم ، لأنه يأكل ويشرب بصدق واخلاص .

وعزّ على سارتر أن يبقى حتى آخر المأدبة جديراً بهذا المديح ، فاعترف لي بقوله :

ـ انني لم أفقد استعمال رأسي ، وانما فقدت جزئياً استعمال ساقيّ .

وحملوه حتى قطار لنينغراد التي بلغها صباح اليوم التالي . وقبضت عليه ارصفة « النيفا » والقصور ؛ ولكنهم لم يكونوا يراعونه . اربع ساعات من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النزهة في السيارة عبر المدينة ، زيارة الآثار ، ساعة راحة ، اربع ساعات في زيارة قصر « الثقافة » . برنامج مشابه في اليوم التالي ، وسهرة لرقص الباليه . وعاد الى موسكو فطار منها الى اوزبكستان . وكان عليه بعد ذلك ان يرافق اهرنبورغ الى ستوكهلم لحضور اجتماع لحركة السلام وان يعود الى باريس يوم ٢١ حزيران .

وفي حزيران ، أقامت أختي معرضاً للوحاتها الأخيرة على الشاطيء الأيمن . كانت حريصة على ان تعمّق مهنتها ، فكانت تلجم تلقائيتها الى ما لا حدّ ، ولكنّ بعض لوحاتها كانت قد بدأت تلفت النظر . وقد التقيت في حفلة الافتتاح فرانسواز ساغان ، بصحبة جاكلين أودري . ولم اكن قد أحببت روايتها « مرحباً ايها الحزن » قطّ . وفيما بعد آثرت عليهما « بسمة ما » و « بعد شهر بعد عام » ؛ ولكنها كانت تملك طريقة رائقة بالتملّص من شخصيتها كفتاة عجيبة .

وكان صيفاً جميلاً . وقد ذهبت أقيم مع لانزمان في فندق صغير على بحيرة « سيتون » ؛ وكنا قد حملنا معنا مكتبة ، ولكننا قضينا معظم أوقاتنا في مشاهدة الكنائس والقصور ، وكان وزّال مزدهر يصفّر الروابي . ويوم عودتنا ، وجدت في صندوقي ، بأسفل السلّم ، كلمة من بوست : « مرّي حالاً لرؤيتي » ففكرت : « لقد حدث شيء ما لسارتر . » وبالفعل ، فان اهرنبورغ كان قد تلفن لـ « داستييه » من ستوكهلم ، وطلب اليه ان يخابر اصدقاء سارتر انه كان يعالج في مستشفى بموسكو ؛ واتصل داستييه بـ « كو » الذي أخبر بوست . وأخذني الخوف ، كما حدث في ذلك اليوم من عام ١٩٤٠ حين عرّفتني رسالة من مجهولة على عنوان سارتر الجديد : كرانكن — ريفييه . وكان يبدو على بوست انه مذعور هو ايضاً . ما الذي كان يشكوه سارتر بالضبط ؟ كان يجهل ذلك . وأردت ان أتحدث الى كو ؛ وكان في السوربون حيث كان ينعقد اجتماع لا أدري ماهيته ، فقصدناه ؛ وقال لي كو إن داستييه قد تحدث عن نوبة اجهاد وتوتّر ، وليس في الأمر خطورة . ولكن ذلك لم

يرضني . وعزمت مع بوست واولغا ولانزمان أن نقصد السفارة السوفياتية ونطلب الى الملحق الثقافي ان يتلفن لموسكو . وعند المدخل ، التقينا موظفين فعرضت عليهم طلبي ، فنظروا الينا بدهشة :

ـ ولكن تلفنوا بأنفسكم ... فليس عليكم الا ان ترفعوا السماعة وتطلبوا موسكو !

لقد كان الستار الحديدي آنذاك من السماكة والشدّة بحيث اننا لم نكد نصدق هذا الكلام . وحين عدنا الى شارع « دولابوشوري » طلبت موسكو والمستشفى وسارتر ، وبدهشة ، سمعت بعد ثلاث دقائق صوته ، فقلت له في قلق :

ـ كيف حالك ؟

فأجابني بلهجة احتفالية : ـ على خير ما يرام .

ـ بل انت في صحة رديئة ، ما دمت في المستشفى .

ـ ولكن كيف عرفت ذلك ؟

وكان يبدو وكأنه مخدوع . وشرحت له . فاعترف بنوبة توتّر ، ولكنها انتهت ، وكان عائداً الى باريس. وأعدت السمّاعة ، ولكني لم استردّ الطمأنينة. لقد كان لهذا الخطر مغزى مختلف عن مغزى ١٩٤٠ ؛ كانت تلك اخطاراً خارجية تهدّد سارتر ؛ وتحققت فجأة من انه ، كسائر البشر ، كان يحمل موته في نفسه . ولم يكن قد سبق لي قط ان واجهت هذا الموت صراحة ؛ فقد نصبت في وجهه زوالي انا بالذات الذي كان يطمئنني فيما هو يرعبني ؛ ولكني في تلك اللحظة كنت خارج اللعبة ؛ لقد كان سيان ان أجدني او لا أجدني على الأرض يوم يختفي سارتر ، وان أعيش بعده ام لا : إن هذا اليوم آت . فبعد عشرين سنة او غداً ، إنه القرب نفسه : فسيموت . اية بهرة سوداء ! وانحلّت الأزمة . ولكن حدث شيء غير قابل للقلب ؛ كان الموت قد أمسكني ، فهو لم يكن بعدُ فضيحةً ميتافيزيقية ، وانما مزية من مزايا عروقنا ؛ وليس هو بعد غطاءً ليلياً حولنا ، وانما حضور صميمي كان يخترق حياتي ، معكّراً المذاقات والروائح والانوار والذكريات والمشاريع : وكل شيء .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعاد سارتر ؛ وكان قد أحبّ كل شيء رآه ، باستثناء بعض ألوان القبح الهندسي . وقد اهتم خصوصاً بالعلاقات الجديدة التي نشأت في الاتحاد السوفياتي بين البشر ، وكذلك بين الناس والأشياء : بين مؤلّف وقرّائه ، بين العمّال والمصنع . فالعمل ، والعطلة ، والمطالعة والرحلات والصداقة : كان لكل شيء هناك معنى آخر يختلف عن معناه هنا . كان يخيّل إليه ان المجتمع السوفياتي كان قد قهر الى حدّ كبير الوحدة التي تتأكل مجتمعنا ؛ والمحذورات التي كانت الحياة الجماعية في الاتحاد السوفياتي تعانيها ، كانت اقلّ ابتعاثاً للأسف من التخلّي او الاعتزال الفردي .

كانت الرحلة منهكة ؛ فمن الصباح حتى الفجر ، لقاءات واجتماعات وزيارات وتنقّلات ومآدب . وكان البرنامج في موسكو ، اذ انبسط على بضعة ايام ، يمنحه قليلاً من الراحة ؛ اما في البلدان الاخرى ، فان المنظمات الاقليمية لم تكن تدع له أية راحة . وكان المقرّر ان يقضي ٤٨ ساعة في سمرقند فطلب ان يخصص يوم للرسميين ، ويوم له وحده . وقد أثار هذا الهوى الدهشة : فان الجمال هو الجمال حتى ولو كان الذين يشاهدونه اربعين ؛ وعُزي ذلك الى فرديته البورجوازية . ولكنّه وُعد اخيراً بالاستجابة له . وفي آخر لحظة ، حصر اتحاد الكتّاب في طشقند النزهة بيوم واحد : فقد كان ثمّة مصانع للزيارة ، وكتب للأطفال يجب فحصها ، ولكن المترجمة وعدت بقولها : « ستُترك وحدك » وواكب عالم اثري وبعض الاعيان سارتر عبر المدينة ؛ فكانت السيارة تقف أمام القصور والمساجد ، وهي آثار رائعة لعهد تيمورلنك ؛ وكان الجميع يهبطون ، والأثري يشرح ، ثم كانت المترجمة تبسط ذراعيها وتطرد الجميع :

– إن جان بول سارتر يتمنّى الآن ان يكون وحده !

فكانوا ينسحبون ، وكان سارتر يعاني الضجر بانتظار ان يلحق بهم !

وكانت لحظات الراحة هي ، على جذلها ، أشدّ ما يُرهق : ولائم وشرب لا ينتهي . وقد كان لا بدّ لسارتر ان يعيد غالباً « المآثر » التي قام بها في مقصورة

سيمونوف. ففي طشقند ، تحدّاه مساء سفره مهندس صلب شبيه بثلاث خزائن ان يباريه في الفودكا؛ وصحبه المهندس بعد ذلك الى المطار، فاذا به ينهار، وفرح سارتر وهو يتوصّل الى الجلوس في معقده بالطائرة حيث استسلم لنوم ثقيل . وحين استيقظ ، كان من شدة الارهاق بحيث طلب من المترجمة ان تدبّر له في موسكو يوم راحة ؛ ولكنه ما ان هبط من الطائرة حتّى سمع في الباحة نداء من مكبّر الصوت : جان بول سارتر . وكان سيمونوف هو الذي يدعوه تلفونياً لتناول الغداء . ولو كان يعرف الروسية ، لطلب تأجيل الغداء لليوم التالي ، وكان سيمونوف سيقبل ذلك ؛ ولكن لم يشأ احد من « مساعديه » [1] — وقد كان احد اعضاء الكتّاب يرافقه في تنقلاته بالاضافة الى المترجمة — ان يتكفّل بعرض هذا التغيير على سيمونوف . وأقيمت المأدبة في اليوم نفسه ، وقدّم فيها الخمر بسخاء ، وفي آخر مرحلة قدّم سيمونوف لسارتر قرناً كبير الحجم مملوءاً بالخمر :

— خذه ، مليئاً او فارغاً !

ووضعه بين يديه ؛ وكان من المستحيل وضع القرن قبل إفراغه . فاضطر سارتر الى كرع ما فيه . وحين غادر المائدة ، ذهب يتنزّه وحده على شاطيء نهر « موسكفا » وكان قلبه يخفق شديداً بين جنبيه . وظلّ يخفق بشدّة طوال الليل وصباح اليوم التالي حتّى انه أحسّ نفسه غير قادر على ان يلتقي ، كما كان مقدّراً ، بفريق من الفلاسفة . وسألته المترجمة :

— ولكن ما بك ؟

وجسّت نبضه ، ثم هرعت خارج الغرفة تستدعي طبيباً ما لبث ان أرسل سارتر الى المستشفى . وعولج هناك ، فنام ، وارتاح ، وحكم على نفسه بالشفاء . والواقع ان الأمر لم يكن كذلك . ولقد جمعت بعض الأصدقاء ، فكان لا بدّ له من بذل جهد واضح ليروي لنا قصصه . وقد أعطى تصريحاً الى جريدة « ليبيراسيون » : فتكلّم بسرعة ، وحين اقتُرح عليه ان يعيد

(١) بالمعنى الذي يعطيه كافكا لهذه الكلمة في « القصر » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النظر في التصريح ، تهرّب . وفي ايطاليا التي قصدها بصحبة ميشيل للراحة ، بدأ كتابة سيرة ذاتية ؛ ولكنه لم يكن يوفّق ، كما كتب لي ، الى إرداف جملة بأخرى . وكان على الاقل ينام كثيراً ، ويقابل أشخاصاً كانوا يثيرون اهتمامه : ولقد استقبل استقبالاً وديّاً كبيراً من قبل الشيوعيين الايطاليين . وقد تناول العشاء ذات مساء في الهواء الطلق مع « تولياتي » بساحة « تراستافير » ؛ وقد اقبل موسيقيّ يعمل في المطعم فأبرز في اعتزاز امام تولياتي بطاقة انتسابه للحزب الشيوعي الايطالي ، وغنّى على شرفه أغاني رومانية قديمة ؛ وتجمّع حولهما فريق كبير بحرارة وتدافع ؛ ولكن كان ثمة اميركيون فأخذوا يصفرون ؛ وردّ عليهم الايطاليون بالتوبيخ : وكان لا بدّ من التفرّق والرحيل ، تفادياً من قيام معركة .

وفي هذه الاثناء ، سافرت الى اسبانيا مع لانزمان ؛ وكان عدد من مناهضي العهد الفرانكي يتنزّهون فيها منذ اعوام ، بلا خوف : وقد كظمت مخاوفي . ولم أجد كثيراً من التغييرات ، إلاّ في « توسّا » التي أصبحت سياحية بصورة بشعة ؛ وكان البؤس قد تفاقم ؛ ولقد كانت الشوارع في بعض زوايا برشلونه ، وفي كل مكان تقريباً من تاراغونه ، بلاليع يعمرها اولاد يتضورون جوعاً ومتسولون وذوو عاهات ومومسات هزيلات . وكان المرء يحسّ ان فرانكو كان يعنى بالعاصمة : فقد مُسحت الاحياء القذرة التي سبق ان رأيتها عام ٤٥ ؛ ولكن اين تراهم قد انزلوا السكان ؟ لقد كانت الأبنية التي نبتت في تلك الانحاء تؤوي موظفين ميسورين .

ومهما يكن ، فقد استعلمنا عن وضع البلاد . ولئن كنا قد جئنا مع ذلك فلأن تلك البلاد كانت تحتفظ بما يشدّنا اليها : ماضيها وارضها وشعبها . ولقد زرت ثانية « البرادو » : وفضّلت هذه المرة « غويا » و « فيلاسكيز » على « غريكو » . واستعدت مباهجي ومُتعي القديمة في الاسكوريال وطليطلة واشبيلية وغرناطة .

كنا انا ولانزمان نحبّ ان نفهم ونتعلّم ، ولكنا كنا نحب ايضاً انفعال المظاهر

الفارّ : قصر أحمر ، منتصب على رابية عند حافة بحيرة ؛ او وادٍ يُرى من أعلى شِعْبة ، محفوراً الى ما لا نهاية تحت غلائله الضبابية ؛ او ضوء يفجّر فجأة احدى الغيوم ويُغرق فيما هو يميل سهول قشتالة القديمة ، او البحر ، على مدى النظر . ولقد تبنّى لانزمان هوسي القديم في ان يمسح بدقّة المناطق التي نمرّ بها : الجبال المرجانية اللون والسهول المرمّدة المغطّاة بالبثور ، والفيافي المغطّاة بالتبن والتي يُلهبها الشفق ، وذلك الشطّ الوعر الممزّق الذي عرف « دالي » كيف يرسم روائعه وذعره . ولم تكن الحرارة تخيفنا : لقد كانت ريح محرقة تكنس اندلس الأراضي البور حين زرنا تحت درجة ٤٠ اكواخها . وكنا نرتاح على شواطيء رملية او في سيركات متوحّدة ، ونحن نستحمّ طويلاً في البحر وتحت الشمس . وكنا مساءً في القرى ننظر الى الفتيات في اثوابهن الفاتحة يمررن في عرضٍ وهن ضاحكات .

وكان ثمة عيد في « الليريكا » ؛ كانت فتيات صغيرات متنكرات باللباس الاندلسي بتنانير طويلة فضفاضة ومراوح وأخمرة — وشفاههن وخدودهن واجفانهنّ مثقلة بالمساحيق — يتمايلن بين طاولات الرماية واليانصيب وحلبات الخيل والمقاهي المكشوفة ؛ وكانت مفرقعات تنفجر في جميع زوايا الشوارع . وشاهد لانزمان للمرة الأولى حفلة مصارعة للثيران ، كانت رديئة ، ولكنه انفعل بها مع ذلك . ثم صعدنا نحو الشمال الذي لم أكن أعرفه وشاهدت زجاجيات « ليون » ومتحف « فالادوليد » والمرافيء الصغيرة الواطئة : غرنيكا . واخيراً سان سيباستيان التي عُدنا منها تواً .

كنت أسيء تمييز العواطف التي كان الشعب الاسباني يوحيها لي . إن الهزيمة مصيبة ؛ فمن المستحيل ان يعيش المرء بعدها من غير ان يتحالف مع ما يحتقر . لقد كنت منزعجة بصبرٍ لم يكن يضيء الأمل بعد . ولا شك في ان الجالسين على السطائح عند الطرق لم يكونوا يبسمون لنا حين كنّا نلمّ بهم . على انهم كانوا يعرفون ان الاغنياء ليسوا أصدقاءهم ، اولئك الفلاحون الذين لم يكونوا قط يرفعون إصبعاً ليستوقفونا ؛ وكانت تأخذهم الدهشة اذ كنّا نعرض عليهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ان يصعدوا ؛ بل إن احدى العجائز ظنّت أن في الأمر محاولة خطف . وقد أخذنا ذات مساء رجلاً مسناً جداً كان يحمل كيساً كبيراً :

— الى اين انت ذاهب ؟

فقال بحركة متعالية : — ولكن الى العاصمة !

وكان يقصد « باداجوز » على بعد سبعين كيلومتراً .

— ولكنها بعيدة ...

— صحيح ، كنت سأمشي طوال الليل .

ولا بدّ ان المومسات الصغيرات في اشبيلية قد نظرن الينا نظرة عداء ؛ ولكن لا ، إن احداهنّ ، وكانت صغيرة السنّ ، جلست الى طاولتنا وأخذت تبتهل إليّ :

— خذيني الى باريس ، فأنا أحسن الغسيل والكيّ ، وانا شديدة المراس للعمل ، وسأهتمّ بك ...

وجرى معي حديث آخر كشف لي أموراً . فقد كنا ذات مساء نتناول العشاء في فندق « الحمراء » بغرناطة ، فاغتاظ لانزمان من رئيس الخدم الذي كان يمنعه من نزع سترته ، وأخذ يشتم العسكريين والخوارنة الذين كانوا يحكمون ذلك البلد ؛ وأخذ الآخر يضحك ، انه هو ايضاً لم يكن يحبّهم . وكان في اثناء الحرب العالمية قد عمل في فندق « فالانس » حيث كان مالرو واهرنبورغ موجودين . وأثار بعض الذكريات ، ثم قسا صوته :

— لقد شجعتمونا على القتال ، ثم تخلّيتم عنّا . ومن الذي دفع ؟ نحن . مليون قتيل ؛ قتلى في كل مكان ، في الشوارع والساحات . ولن نعود الى ذلك أبداً ، بأيّ ثمن .

أجل ، كان هؤلاء الرجال الهادئون قد جازفوا بحياتهم من أجل مستقبل آخر ؛ وقد كانوا ابناءً واخوة لأولئك الذين وهبوا حياتهم ؛ وقد كانت انكلترا وفرنسا مسؤولتين عن خضوعهم واستسلامهم مسؤولية ألمانيا وايطاليا . وكان ينبغي ان ننتظر جيلاً آخر ، اقل انسحاقاً بالذكريات ، ليستعيد الأمل

ويستأنف الصراع .

* * *

حين عدت الى باريس ، كان منديس ـ فرانس قد وقع الاتفاقيات مع الفياتنام ، وسافر الى تونس حيث تفاوض مع القادة التونسيين . وكان قد حثّ مجلس النواب على التصويت ضد تكوين « اسرة الدفاع الاوروبية » . وبالرغم من انه رفض تأييد أصوات الشيوعيين ، فان سياسته كانت هي التي يتمنّاها اليسار .

كان سارتر ما يزال متوعك المزاج حين سافرت معه في آخر آب بالسيارة ؛ وقد ظلّ في المساء الاول ، في غرفته بستراسبورغ ، لحظة طويلة جالساً على كرسي ، ويداه على ركبتيه ، وظهره منحنٍ وعينه محدّقة . وتناولنا العشاء في مطعم صغير من مطاعم « فرنسا الصغيرة » ، وصرّح لي بقوله : « إن الأدب هو قذارة » ، وظلّ طوال فترة الطعام يعبّر عن اشمئزازه . كان التعب يجعله بؤسياً ؛ وكانت الكتابة تقتضيه جهداً هائلاً حتّى انه لم يكن يجد فيها بعدُ أيّ معنى . واجتزنا الألزاس « والفوريه نوار » وبافاريا . يا للخرائب ! كانت « أولم » نثاراً مبعثراً ، وكانت نورمبرغ حطاماً . « وكانت صلبان معقوفة تلوّح على جميع النوافذ » وقد نقلتنا روتمبرغ ، التي اعيد تأسيسها بحذق ، إلى عشرين سنة خلت : ففي عام ١٩٣٤ كنا نمشي على هذه المتاريس ، رافضين ان نواجه الكارثة الوشيكة ، غير قادرين ، وحتّى سارتر الذي كان يملك القدرة على تخيّـل المصائب ، ان نستشعر فظاعتها وهولها . وكان بالامكان ان نتصوّر انه لم يكن قد حدث شيء قط في شوارع « اوبراميرغو » المطليّة . وفي ميونيخ التقينا مجدداً بالمطاعم الفخمة والجذل البافاري . وكان حزن السكان في برلين ، عام ٤٨ ، قد اطفأ أحقادي ؛ ولكني كرهت ميونيخ الصاخبة الثراء التي كان مستغلّو الهزيمة يتطاوسون فيها مبتهجين . ولم أحتفظ منها الا بذكرى رضية واحدة : فذات صباح رأيت في وسط النهر الذي كان قد جفّ تقريباً ، رجلين يرتديان لباس السهرة الرسمي وهما يترنّحان في الماء ؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد كانا بثوبيهما الاحتفاليين الأسودين ، وهيئتهما المشرّدة ، وجهودهما المضطربة للعثور على الشاطيء يجسّدان شذوذ ألمانيا العجيب .

وفي سالزبورغ ، عاد سارتر الى العمل في فندق بالمدينة القديمة يعكس جميع محاسنها ؛ وكان ثمة يجد نفسه من جديد . وزرنا البحيرات والجبال والضواحي ، وبعد اسبوع اتجهنا نحو فيينا . وكان ثمة فرقة تستعدّ لتمثيل « الايدي القذرة » وفقاً لاتفاقات عقدتها دار نشر « ناجيل » بلا موافقة سارتر ؛ وقد اخبرته « حركة السلام » بذلك ، فاحتجّ واوضح موقفه في مؤتمر صحفي. واخيراً شاهدت رسوم اعضاء اسرة « بروجيل » و « الدانوب » و « الرنغ » و « البراتر » ، والمقاهي القديمة التي حُدّثت عنها طويلاً ؛ وكنا في المساء نجلس الى طاولات تقوم في كهوف من العصور المتوسطة ، في قلب المدينة ، او في حانات بالضواحي ، عند اقدام الروابي المغطّاة بالكروم الشقراء .

وكانت لديّ رغبة بزيارة « براغ » ثانية ؛ وقد حصل سارتر بسهولة على تأشيرتين ؛ وكانت فكرة اجتياز الستار الحديدي تهمز فضولي ؛ وليس في هذا استعارة ؛ لقد كانت الطريق الصغيرة المعشبة التي أفضت بنا الى مركز للحدود معزول تصطدم بحاجز تحفّ به اقفاص سميكة ومهدّدة من الاسلاك الشائكة ؛ وفي أعلى مركز للمراقبة ، كان حارسٌ يسير ذهاباً واياباً بلا مبالاة ؛ واطلقت صفارة سيارتي : فلم يتحرك الحارس ؛ وأعدت الكرّة فخرج من المركز جندي وفحص جوازينا عبر الاسلاك ؛ وأومأ للحارس الذي فتّش في جيبه ورمى له بمفتاح ففتح الحاجز كما لو انه يدفع بوّابة حديقة خاصة .

كان اليوم يوم أحد ؛ ليس من سيارات ؛ ولكن كثيراً من الناس كانوا يتنزهون على الروابي وبين الحقول وتحت الصنوبر . وكنت ادرج بسيارتي عبر الأرياف والقرى ، تأخذني الدهشة ان أعرف دفعة واحدة مثل هذا التواصل الصميميّ مع احدى الديمقراطيات الشعبية . وفي براغ ، سأل سارتر بالألمانية أحد المارّة عن عنوان الفندق الذي كنا نعرف انه مخصّص للأجانب ؛

وتلفن للشاعر « نزفال » الذي بدا مرتاحاً حين قال له سارتر بألاّ يزعج نفسه ، لأن زوجته كانت آنذاك تضع ولداً . واستعرنا مالاً من البواب ، ومشينا في المدينة ، ونحن منفعلان ان نتعرّف كلّ شيء من جديد ـ الجادات والجسر والآثار وكذلك المقاهي والمطاعم ـ في حين انه لم يكن ثمة بعد ما هو مشابه (كنّا أمام هذا الكوخ تماماً قد قرأنا من فوق كتف احد الناس اسم « دولفوس » وكلمة كانت تبدأ بحرف « م ») كان ثمة لافتات بأنوار النيون ، ومعروضات معتنى بها ، وجمهور متحرك ، وكثير من الناس في المقاهي ، شبيهون جداً بأناس فيينا . وشردنا طويلاً عبر الشوارع والذكريات !

وفي اليوم التالي جاء الشاعر السمين نزفال ـ الذي كان يحب باريس كثيراً وكان يجلس الساعات الطوال على سطيحة مقهى بونابرت ، معتمراً « بيريه » ـ فأرانا ما يسمّى « بالجانب الصغير » ، والكنائس والمقبرة اليهودية والمتحف وكهوفاً قديمة ؛ وكان ثمة اصدقاء بصحبته . ومررنا امام تمثال ضخم لستالين ؛ فقالت امرأة شابة بصوت جاف ، قاطعة كل تعليق :

ـ انه لا يروق لنا على الاطلاق .

وشاهدنا اوبرا ، دون المتوسط ، كما شاهدنا في عرض خاص عدة افلام كانت تمثّلها « العرائس » ؛ وكان ألذّها يحثّ سائقي السيارات على البطء : وماكان أمتعه ، راكب الدراجة البخارية الذي كان يسابق السيارات والقطارات والذي حطّم أضلاعه وهو يحاول ان يسبق طائرة . وذهبنا محمّلين بالهدايا : كتب فنية ، اسطوانات ، دانتيلات ، قطع بلورية . وتمثال من طين ، ولكنه ضخم ؛ وحين كنا نزور احدى المكتبات ، ألفى أحد المديرين نفسه معنا وحدنا ذات لحظه ، فتمتم بتقطّع :

ـ في هذه اللحظة تجري اشياء مريعة هنا .

وفي طريق العودة ، عبرنا بلا تعقيدات جمركاً صغيراً ، ولكن جندياً روسياً شاباً رفض ان يدعنا نمرّ من الجهة النمسوية : وكنا قد أهملنا ان نطلب اذناً بالتجول في القطاع السوفياتي ؛ وفيما كان يتلفن لقائده ، عقد جندي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نسوي محادثة مع سارتر ، وقال بلطف :

– انني اعرف باريس ، وقد مكثت فيها عام ١٩٤٣ .

ولحق بنا لانزمان في فيينا . ولم يكن قد سبق لي قط ان قمت بهذه التجربة : ان انتظر في المطار شخصاً عزيزاً . انّها مؤثّرة ، تلك الصحراء السماوية ، وصمتها ، وهذه التمتمة المفاجئة وهذا العصفور الصغير الذي يكبر ، ويقترب ، ويجنح ، ثم يبتعد ، ويعود فيهجم عليك . وسافرنا الى ايطاليا . واقترحت ان نمرّ بـ « الفلوسكلوكنر » فاغتاظ سارتر : كانت الطريق التاريخية هي طريق « برينر » . وقد تحدّث بفخامة ، فيما كنا نعبر الطريق ، عن رحلة ماكسيميليان على فرسه ، هابطاً من المانيا المعتمة عن الشمس الرومانية والتاج الامبراطوري . وارتحنا من اوروبا الوسطى حين بلغنا « فيرونا » و « فلورنسا » .

واستقلّ سارتر القطار الى ميلانو حيث مكثت وقتاً قصيراً لدى شقيقتي . وعدت الى فرنسا مع لانزمان عن طريق جنوى والشاطيء . وكانت الهدايا التشيكية قد سُرقت مني جزئياً في فلورنسا حين تركتها ذات ليلة في السيارة ؛ وبقيت لي كتب واسطوانات شمّها رجال جمرك « مانتون » بنية سيئة ؛ كانت آتية من براغ ، فهي مشبوهة . وشرحت : اشياء فنّية ، أغانٍ فولكلورية ، فأجابوني :

– كيف تثبتين ذلك ؟

فأريتهم صوراً في احد الكتب ، وانا اقول :

– ترون جيداً انها مناظر .

فقال احد رجال الجمرك وهو يشير بحركة واسعة الى شاطيء البحر :

– إن المناظر متوفّرة هنا ...

وصودرت الكتب والاسطوانات .

* * *

ابتداء من أول تشرين الأول ، أخذت انتظر من يوم لآخر صدور « المثقفون » ؛ وكنت منذ « الجنس الثاني » قد كسبت تجربة : فكانت الأقاويل

والاشاعات تلطّخ مسبّقاً طبلة أُذني ، وكنت قد وضعت في هذا الكتاب كثيراً من ذاتي حتى أن وجنتيّ كانتا تحرقانني لمجرّد التفكير بأن اشخاصاً مختلفين او كارهين سيسحبون عليه أنظارهم .

وكنت صاعدة مع لانزمان من نيس الى باريس ، فدخلت حوالي منتصف الليل احد فنادق غرنوبل ؛ وكانت نسخة من جريدة « باري – بريس » موضوعة على مكتب الاستقبال ؛ ففتحتها ووقعت على مقال كتبه «كليبير هادنس » عن « المثقفون » . وأدهشني ان يقول عنه أشياء طيّبة – لأننا لم نكن انا وهو ننظر الى العالم نظرة متشابهة – . وحين تلفنت لسارتر في اليوم التالي ، أخبرني ان مقالاً لطيفاً جداً قد صدر عن الكتاب في « لليلتّر فرانسيز » : أترى إذن جميع الجهات ستستقبل الكتاب بالحظوة ؟ كان الأمر كذلك في مجموعه . ولقد قلب النقّاد البورجوازيون تقديراتي فوجدوا ان كتابي يميل الى مناهضة الشيوعية ، في حين ان الشيوعيين وجدوا فيه ، عن حق ، شهادة ودّية ؛ اما اليسار اللاشيوعي ، فكنت قد حاولت ان أتكلم باسمه . وقد هاجمني بعنف بعض الاشتراكيين واقصى اليمين . وفي شهر واحد ، بيع من الكتاب اربعون ألف نسخة .

وقال لي جان كو :

– إن اسمك وارد بالنسبة لجائزة غونكور .

فصدمني ذلك . كنت قد تجاوزت سنّ الجوائز . وقال لي جميع أصدقائي :

– ستخطئين خطأً فاحشاً اذا رفضت .

فلئن فزت بالجائزة ، فسأكسب الجمهور الكبير ، وسأربح مالاً . ولم تكن لي به حاجةٌ ملحّة لأني كنت أفيد من مال سارتر : ولكني كنت أودّ ان أحمل نصيبي الى الصندوق المشترك . ثم إن المطر كان يزداد هطولاً في غرفتي : وستسمح لي جائزة غونكوران اشتري شقّة لي . حسناً : اذا عرضوها عليّ فسوف أقبلها .

وقيل لي إن هناك حظوظاً وافرة لكي أظفر بها ، مما رشح من المناقشات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التمهيدية . ولما كنت لا أريد ان اكون طريدة الصحفيين ، فقد انتقلت مع لانزمان ، عشيّة المداولات النهائية ، الى مسكن كانت قد حصلت لي عليه سوزان بلوم . وانتظرت الحكم الى جانب جهاز الراديو ، في بعض الانفعال ، لأني كنت قد شُجعت على مشاريع ما كنت لأتخلّى عنها بلا استياء ؛ وعند الظهر علمت اني فزت بالجائزة . وقد احتفلنا بذلك في « اجتماع عائلي » تناولنا فيه الغداء عند ميشيل حيث قدّم لي سارتر هدية تلائم المناسبة : كتاباً صدر حديثاً من تأليف اندريه بيللي عن « الغونكور » ؛ وفي المساء ، تناولنا العشاء مع اولغا وبوست وسيبيون ورولان . وكنت قد أخبرت لجنة التحكيم وغاستون غاليمار اني في حالة اختياري لن أظهر في ساحة « غايون » ولا في شارع سيبستيان ــ بوتان . ولو كنت بعد في الخامسة والثلاثين ، وفي براءتي ، لكان مما يسلّيني ان أظهر في الناس ؛ أما الآن ، فان ذلك ينفّرني . فأنا لا أملك من التصلّف ولا من اللامبالاة ما يجعلني اعرض نفسي في خفّة لأنظار الفضوليين . ولقد أقبل صحفيون يجلسون على درجات السلّم ويحاصرون عبثاً باباً كانت تموء خلفه قطّة ، هي قطة بوست . وبعد يومين او ثلاثة ، تمركز مصوّرون في « كافيه ديزامي » يترقّبونني : فخرجت من عيادة الطبيب البيطري التي كان بابها يفضي الى شارع آخر . ولم أعط إلاّ مقابلة واحدة لجريدة « الاومانيته ــ ديمانش » : وكنت أحرص على ان اوضّح ان روايتي لم تكن معادية للشيوعيين وهي لم تثر عداوتهم . وقال لي البعض :

ــ اذا كنت تقبلين الجائزة ، فلا بدّ من ان تلعبي اللعبة .

وانا لا أدري ماذا كان حكم اللجنة يخلق لي من واجبات تجاه التلفزيون والراديو والصحافة ، ولا لماذا يجبرني على أن أبتسم للكاميرا وان أجيب على اسئلة هي من اللغو في الكلام ، وان أنشر صوراً تمثّل محتويات الادراج عندي . « إن الصحفيين يقومون بمهنتهم » . هذا صحيح ، فليس لديّ مآخذ عليهم ، بل إن لي فيهم أصدقاء حميمين ؛ ولكني لا أحبّ صحفهم . وبالاضافة الى ذلك ، فان الدعاية ، سواء كانت حسنة النية ام سيئتها ، تشوّه

الذين تستولي عليهم : ورأيي ان العلاقات التي يعقدها الكاتب مع الحقيقة تمنع عليه ان ينطوي لهذه المعاملة ؛ فحسبه انهم يكبدونها إياه قسراً .

كلفتني هذه الجائزة مراسلة ضخمة . إن هناك عدداً وافراً من القراء الذين يشترون آلياً جائزة غونكور والذين لا أملك لهم شيئاً يروقهم : وهؤلاء قد بعثوا لي برسائل غاضبة ، او آسفة ، او حانقة ، او واعظة ، او شاتمة . وانا اذكر منها هذه الجوهرة ، ذات الأصل الأرجنتيني ، وهذا ما يجعل لون الشرق فيها شاحباً بعض الشيء : « لماذا وجب ان تُصوّر مشاهد الغرام في مثل هذه الرواية على شاكلة « رواية خادمة » او « اميرة كليف ؟ » وقد كتب لي اشخاص كانوا يرتبطون بي قديماً يهنئونني ، كما لو نلت ترقية ؛ وقد ادهشني ذلك ، ولكني وجدت متعة ان ارى بعض الاطياف تنبثق من أعماق السنين : طلاباً ورفاق دراسة واستاذاً للانكليزية من معهد « ديزير » . روان ومرسيليا والسوربون وطفولتي نفسها : كان الماضي يتجمّع فجأة . وقد كتب لي كذلك كثير من المجهولين ، من فرنسا وبولونيا والمانيا وايطاليا ، وأبلغتني سفارة البرتغال استياءها ، ولكن طلاّباً من لشبونة ومن كويمبر قد شكروني . وأرسل لي بعض الشبان المالغاش تمثالاً خشبياً صغيراً ، وقد تأثروا أني تكلمت عن اضطهاد ٤٧ . انني اومن بالموت ايماناً اشد جذرية من ان يجعلني أهتمّ بما سوف يحدث بعدُ ؛ وفي اللحظات التي يتحقق فيها حلم اعوامي العشرين — وهو أن أجعل الناس يحبونني عبر كتبي [1] — لا شيء يفسد عليّ لذّتي .

اما الأمور الوحيدة التي أزعجتني فقد جاءتني مما أشاعه النقد من اني كتبت قصة حقيقية ؛ لقد كانت اختراعاتي تصبح أشياء بعيدة عن الرصانة او حتى وشايات . والروايات، شأنها في ذلك شأن الاحلام ، هي غالباً ، عوارض أمراض لأنها تتيح المجال لامكانيات ؛ من ذلك ان كامو وسارتر قد اختصما بعد عامين من بدء سردي للتغيّرات ولانفصام صداقة . وقد شاءت عدة نساء

---

(١) هذه بلا ريب رغبة مشتركة بين كثير من الكتاب . وقد كان جينيه يقول : « اني انما اكتب ليحبني الناس » وقد أخذ ليريس هذه العبارة لحسابه في احدى المقابلات الصحفية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ان يتعرفن في قصة بول قصتهنّ بالذات . وقد انتهت هذه المصادفات الى تجميل أساطيري . وقد سئلت : ايكون كامو او سارتر هو الشهادة المزيّفة التي عهدت فيها الى هنري ؟ ومتى مارست علم النفس التحليلي ؟ لقد كان يروقني ، على نحو ما ، ان تستطيع قصصي الإقناع ؛ ولكني كنت آسفةً ان تُعزى إليّ بعض ألوان السماجة والفظاظة . من ذلك ان شخصية ثانوية ، هي سيزوناك ، قد أتاحت الفرصة لسوء تفاهم شقّ عليّ كثيراً . فقد كان يذكّر ، في بعض ملامحه ، بفرنسيس فانتونون الذي تحدثت عنه والذي كان يُعزى موته العنيف الغريب الى احد المتعاونين السابقين ؛ وفي « المثقفون » يُصفّى أمر سيزوناك بطريقة مشابهة ، ولكن من قِبَل رفيق له ، ذلك لأني جعلت منه عميلاً مزدوجاً ، أذنب بأنه سلّم للقتل بعض اليهود . والذي حدث ان صديقة لفانتنون طلبت مني موعد لقاء : لقد كانت تظنّ اني أملك عنه معلومات سرية ؛ وكانت تشتبه بأن يكون احد أصدقائه القاتل المتخيّل . وقد تركتني من غير ان اوفّق الى ازالة وهمها . وأخشى ان يكون كتابي قد أحدث أخطاء أخرى لفرط ما أصرّ الناس على اعتباره نسخة أمينة للواقع .

* * *

قنابل ، محاولات اغتيال : إن الوطنيين المراكشيين لن يتركوا الكفاح قبل عودة السلطان . وحين انفجرت الثورة في جبال الاوراس فكرت بأن الاستعمار ، في افريقيا الشمالية على الاقل ، لن يعمر طويلاً بعد . وكان منديس فرانس يرسل تعزيزات الى الجزائر ؛ وكان « ادغار فور » بعده يرفض التفاوض ؛ وكانت شرطة الجزائر تسجن وتعذّب [1] ؛ وكان سوستيل الذي أصبح حاكماً عاماً يعتنق نظرية « الدمج » ؛ وكان الجيش يقسم علناً بألاّ يغادر الجزائر ابداً ؛ وكانت حركة « بوجاد » التي ولدت قبل ذلك بثمانية عشر شهراً ، تزداد انتشاراً . ولكن الثورة التي شُنّت كانت غير قابلة للقلب ،

(١) وقد كان مورياك في « اليوميات » التي بدأ نشرها منذ ١٩٥٤ في « الأكسبرس » يفضح منذ كانون الثاني ١٩٥٥ تحت عنوان « الاستجواب » اساليب استعمال التعذيب في الجزائر .

وكنت على ثقة من ذلك ، بسبب بقاستها في الهند الصينية وسير العالم بالاجمال . وقد وكّد مؤتمر باندونغ هذا الاعتقاد ؛ وكان يعلن زوال الاستعمار القريب عن الكرة الأرضية قاطبة .

ورأيت مظهر شارعنا يتغيّر . فهناك افريقيون شماليون يرتدون سترات جلدية ، ويبدون بمظهر معتنى به ، ويتردّدون غالباً على «كافيه ديزامي» ؛ ومُنع شرب الخمر ؛ وكنت ألمح ، عبر الزجاج ، الزبائن جالسين امام أقداح من حليب . وانقطعت منازعات الليل . وكان هذا النظام مفروضاً من قبل مناضلي «جبهة التحرير الوطنية» التي كان تأثيرها قد أصبح طاغياً على العمال الجزائريين المقيمين في فرنسا ، بعكس تأثير «الحركة الوطنية الجزائرية» الذي كان ينحسر . وكانت هذه الحركة تمثّل في الجزائر انقساماً ضارّاً ، على ما كان يؤكّد فرنسيس وكوليت جانسون في كتابهما : «الجزائر المتمردة على القانون» ؛ وقد كان اليسار الفرنسي بمجمله يتردّد بين جبهة التحرير الوطنية ، والحركة الوطنية الجزائرية ؛ والحق ان موقفه لم يكن واضحاً في اي موضوع ؛ كان يتمنّى حلاً «متحرراً» للنزاع ، وكان يمكن لهذه الكلمة أن تعني اشياء كثيرة . وكان سارتر و «التان مودرن» يطالبان ، بالاتفاق مع جانسون ، بالاستقلال للشعب الجزائري ويعتبران ان هذا الاستقلال كان يتجسّد في «جبهة التحرير الوطنية» .

وقد كان من شأن أحداث افريقيا الشمالية وسقوط منديس فرانس ان تفاقم المعارضة بين الفرنسيين الذين كان يريدون تغييرات ، واولئك الذين كانت لهم مصلحة ببقاء «الوضع الراهن» . وقد حدثت تجمّعات في المعسكر الأول . فجمعت جريدة «الاكسبريس» حول منديس فرانس «اليسار الجديد» الذي كان يدعمه كذلك مالرو ومورياك . وكان منديس قد حمل المجلس على ان يصوّت يوم ٣١ كانون الأول ، على اتفافيات باريس التي كانت تبعث الجيش الألماني ؛ وكان يدافع عن نفسه بأنه كان يريد «ترك» الجزائر ؛ وكان مؤيدوه يقترحون مراعاة الرأسمالية والاستعمار في منظور تكنوقراطي :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والحقيقة ان القضية كانت قضية يمين مجدّد بعض الشيء . اما « اليسار الجديد » الذي كان « بورديه » قد أطلق فكرته قبل ذلك بعام ، فقد كان اشد استحقاقاً لاسمه من ذلك اليسار .

وبدا لنا ضرورياً ان نميّز في « اليسار » حلفاءنا الحقيقيين وخصومنا . وباشر محرّرو « التان مودرن » في توضيح هذا لمعنى المبلبل . وتكفّل لانزمان بأن يعالج الموضوع مواجهةً بكتابة مقال عن « رجل اليسار » ؛ وقام آخرون بتحقيقات او درسوا نقطاً خاصة . اما انا ، فتناولت القضية معكوسة ، محاولةً أن اعرّف الافكار التي يدعو اليها اليمين اليوم . وقد لذّني ان اكشف الأساطير المنسوجة حول المرأة ؛ وكان المطلوب في هذه القضية ايضاً تعرية الحقائق العملية ـ دفاع أصحاب الامتيازات عن الامتيازات ـ التي تخفي فجاجتها خلف انظمة وأفكار غامضة ؛ وكنت قد قرأت كثيراً ، وابتلعت كثيراً من الحماقات : فمجّدت حماقات اخرى . وكنت اعاني الضجر ، ولكن بجذل ، لأنّ هذا الدخان كان يدلّ على الهزيمة الايديولوجية لأصحاب الامتيازات . وكان علماء اقتصاديون يشحذون ، لقصد الاستعمال ، نظريات ابرع من نظريات آبائهم ؛ ولكنهم ، لتبرير معركتهم ، لم يكونوا يعرفون بعد أيـة اخلاقية او اية مثالية يتبعون . وانتهيتُ الى أنّ فكرتهم ليست بعدُ الا فكرة ـ مضادة . وقد اثبت المستقبل اني كنت على حقّ . فان « العالم الحرّ » ، على لسان فرانكو وكندي وسالان ، لا يذكر اي سبب آخر لوجوده ولا اية قاعدة الا هذه : إسقاط الشيوعية ؛ وهو غير قادر على ان يقترح حلاً مضاداً ايجابياً . ومما يثير الشفقة ان نرى حكومة الولايات المتحدة الاميركية تبحث في يأس عن موضوعات للدعاية : انها لا تستطيع ان تخفي عن العالم ان القيم الوحيدة التي تدافع عنها اميركا انما هي المصالح الاميركية . وحتى كلمة « ثقافة » أصبحت غير قابلة للاستعمال : فالعلماء الروس يوشكون ان يطالبوا بها ضد «سبندر » و « دوني دوروجمون » . بالطبع سيبقى هناك دائماً امثال تييري مولنيه ممن يحرّكون ، في وجه المستقبل ، كلمات ممسوخة مشوهة :

ولكن هذه المهمّات التأخيرية لن تؤخّر شيئاً أبداً.

في حزيران، كتب ميرلو ــ بونتي «مغامرات الديالكتيك»، وقد كان يزعجه موقف سارتر السياسي، فأعاد بناء فكرته بصورة عجيبة جداً. وقد كان مرتبطاً بعهد «اليسار الجديد»، فاستعمل فكرتها لمهاجمة «بولشفية سارتر المتطرفة» وهكذا ادخل البهجة الى قلوب اليمينيين المتطرفين. وقد اختار جاك لوران عبارة فاشلة جداً من عبارات ميرلو ــ بونتي ــ تخلط بين الحاجة والحرية ــ فصرّح بأنه، بهذه الكلمات، قد صفّى السارترية. وقد كانت افكار سارتر مفهومة فهماً سيئاً بما فيه الكفاية، فبدا لي مثيراً للشفقة ان يلحقها مزيد من التشويه: لقد كان الناس غالباً ما ينسون ان الانسان، في «الوجود والعدم»، ليس وجهة نظر مجردة، وانما هوحضور مجسد، وكانوا غالباً ما يقلّصون العلاقة مع الآخرين ويقصرونها على «النظر» وحده! وكان «غورفيتش» قد ادّعى، في احدى محاضراته الحديثة، أنّ «الآخر» عند سارتر هو «مزعج». واردت ان اعيد الحقيقة الى نصابها؛ فقد كان سارتر يطبّق في عدد كبير من الميادين المنهج الديالكتي؛ وكان يترك الباب مفتوحاً لنظرية عامة للعقل الديالكتي؛ ولم تكن فلسفته فلسفة الفاعل الخ... وقد كانت العبارات التي استشهدت بها من اقواله تناقض حرفاً بحرف تأكيدات ميرلو ــ بونتي.

وقد قيل انه كان على سارتر ان يجيب: ولم يكن شيء يجبره على ذلك؛ وبالمقابل، فقد كان يحق لكل سارتري ان يدافع عن فلسفة تبناها. وقد أخذوا عليّ كذلك عنف ردّي: ولكن هجوم ميرلو ــ بونتي كان في حقيقته شديد الخشونة. اما هو، فلم يعتب عليّ، او على الاقل لم يعتب عليّ طويلاً: فقد كان يستطيع ان يفهم ألوان الغضب الفكرية. والحق ان خلافاتنا كانت دائمة عنيفة، بالرغم من ان احدنا كان يكنّ للآخر صداقة كبيرة؛ كنت اندفع في غضبي، وكان يبتسم.

وقد قال لي البعض: انني في دراساتي إجمالاً حاسمة اكثر مما ينبغي:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فان لهجةً اشدّ تواضعاً جدير بها ان تكون اكثر اقناعاً . وانا لا أعتقد ذلك . ان على من يريد ان يمزّق القشور ان يضع فيها أظافره ، لا أن يدغدغها . وليس يهمني ان ألجأ الى نداءات عاطفية حين أعتقد ان الحقيقة بجانبي . على اني في رواياتي أتعلق بلونيات والتباسات . ولكن كلامي هناك مختلف . إن الوجود ـ كما قال آخرون وكما ردّدت غالباً ـ لا يتقلص الى افكار ، ولا يُطرح في صيغ : فليس بالامكان التحدث عنه الا عبر شيء متخيل ؛ ويجب آنذاك التقاط انبثاقه ، وتدويماته ومتناقضاته . إن دراساتي تعكس اتجاهاتي التطبيقية وتوكيداتي الفكرية ؛ اما رواياتي ، فتعكس الدهشة التي ألقي نفسي فيها ، تعكس وضعنا البشري ، جملة وتفصيلاً . انها تساوي نوعين من التجربة لا يمكن التحدث عنهما بالطريقة نفسها . ولكل من النوعين في نظري أهمية وحقيقة متماثلتان ؛ فأنا لا أتعرّفني في « الجنس الثاني » أقلّ مما أتعرّفني في « المثقفون » ؛ والعكس بالعكس . ولئن عبّرت عن آرائي في سجلّين ، فلأنّ هذا التنويع كان ضرورياً لي .

* * *

هبطت في الشتاء الى مارسيليا بصحبة لانزمان ؛ وكنت ما ازال أحبّها بالرغم مما أصابها من دمار ومن قبح البناء الجديد فيها . وقد أحبّها هو ايضاً ؛ وكانت متعة ان أفتح كل صباح عيني على اسطول « المرفأ القديم » وان أرى مياهه الناعمة تشقرّ في المساء . وكنا نشتغل بمقالاتنا ونتنزه ونتحدث ونقرأ الصحف في مثابرة . وذات مساء ، أخبرنا عنوان كبير في الصفحة الأولى ان بولغانين يحلّ في رئاسة الحكومة السوفياتية محل مالنكوف الذي قدم استقالته وسيكون خروتشوف ساعده الايمن . ومن جديد كانت الاولوية للصناعة الثقيلة على الصناعة الخفيفة . واستردّ راكوزي السلطة من ناجي في المجر . ولكن لم يكن ثمة عودة الى الستالينية . وبدأ الحديث عن التعايش . وفي حزيران قام بولغانين وخروتشوف بزيارة لتيتو .

ولم يكن ذلك يحول دون ان يواصل مناهضو الشيوعية المتهنون عملهم

المثمر في فرنسا . وقد اوحوا لسارتر باسطورة : « نيكراسوف » . ولم تكن قد انتهت حين بدأ جان مايرفي اخراجها مع فيتولد الذي تولى دور « فاليرا » ، وهو نيكراسوف المزيّف ؛ وكان سارتر يعاني صعوبة في انهاء المسرحية لأنه لم يكن يريد ان يجعل من بطله جباناً صريحاً ولا ان يردّه عن معتقده . وبعد بضع تجارب ، حمل نصّ فصل جديد كان يصوّر فيه ، بغنائية تهريجية ، الخوف البورجوازي الكبير . فبينما كان نادي الذين سيُعدمون قريباً يقيم حفلة معتمة لدى السيدة بونومي ، كان بعض المضربين يمرّون تحت نوافذها ، فكانت نزعة المدعوين البؤسية الغامضة تتحول الى خوف أخضر . وامتقعت سيمون بيريو وقالت : « إن الحضور سيحطّمون كراسيّ . » وكان ماير المذعور يحتج : « إن هذا اطول جداً مما ينبغي ! » وكان المفروض في فاليرا ، وهو هارب من الشرطة ، ان يقفز من نافذة ويسقط بين المضربين الذين يفتحون له فيما بعد عينيه . ولكن هذه التفاؤلية الجدانوفية لم ترق لسارتر بعد التفكير : فحذف مشهد الاضطراب ؛ وبدا المشهد من جراء ذلك مخفّفاً ، وكان كذلك أقصر ؛ ومع ذلك، فقد كانت المسرحية ، بعد انتهائها ، طويلة أكثر مما ينبغي : فضُحّي بالتمهيد . وقدّم ماير « نيكراسوف » من غير اختراع ولا جذل ، وآخذ سارتر نفسه منذ ذلك الحين انه لم يركّز الحبكة على اليوميات بدلاً من تركيزها على فاليرا . ولم يمنع ذلك انها كانت هزلية طريفة ، بفضل الممثلين الممتازين ؛ وكان سارتر قد أفاد تأثيرات لم تكن لتُقاوم من ألوان الذعر والارهاب والهذيانات والأهواء والافتراءات والشعارات والاختلاقات التي يطلقها مناهضو الشيوعية — ومنها اسطورة « محفظة البارود » التي كان مالرو قد أشاعها — . ومساء العرض الأول ، كان النقاد والمدعوون من الطبقة الراقية ضد المسرحية : انهم لم يستطيعوا الامتناع عن الضحك ، ولو صرّحوا بعد ذلك بأنهم قد تثاءبوا ... ولكن الصحافة لم تغفر لسارتر انه قد سخر منها ؛ وارادت الحصول على جلده . وطلبت فرانسوازجيرو ان تدعى لحضور المسرحية وسبقت بالكتابة عنها في « الاكسبريس » رينيه سوريل التي كانت تؤمّن نقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المسرحيات ، فاضطرت رينيه الى الاستقالة ؛ وهاجمت فرانسواز هجوماً عنيفاً « نكراسوف » . وقلدتها جميع الصحف تقريباً . وإن بوسع تمثيلية ما ان تحتقر النقّاد حين تكون حاصلة على تأييد الناس ؛ وهذا شأن مسرح « انوي » الذي يروق الأغنياء . ولكن نكراسوف كانت تهاجم الناس الذين يحصلون على موارد طيبة ؛ لقد أصاب الذين جاءوا متعة وتسلية ، ولكنهم رأوا من الواجب ان يقولوا لاصدقائهم انهم قد ضجروا . إن البورجوازية تهضم ، بحجة الثقافة ، كثيراً من الإهانات : اما هذه الحسكة ، فقد ظلت عالقة في حلقها . ولم تعرض « نيكراسوف » الا ستين عرضاً .

* * *

استغرقت مقالاتي في ذلك العام وقتاً طويلاً بسبب المطالعات التي أوجبتها عليّ . ولكن كان لدي مع ذلك اوقات فراغ . وقد كنت اتنزّه مع لانزمان ، وأخرج ، وأقابل أصدقاء . وكنت قد تعرّفت الى اخيه جاك لدى عودته من اميركا . وكان يروي وهو يتأتيء مغامرات غريبة كانت أحلامه تختلط فيها بالواقع . وكان كتابه الأول « تحطم الجليد » يصور ايسلندا بدقة وروعة : ولقد أسفنا ان يستاء سفير ايسلندا من المقاطع التي نشرناها من الكتاب في « التان مودرن » . وكان للانزمان ايضاً أخت اسمها « ايفلين راي » كانت تنتمي الى فرقة « مركز الغرب » وقد كانت غالباً تمثل في الريف ؛ ولكن المركز قدّم في باريس « الاخوات الثلاث » ورأيتها آنذاك للمرة الاولى . وبعد ذلك بقليل ، تولت تمثيل دور « استيل » في « جلسة سرية » بمسرح « الاتينيه » . وحين كانت في الثانية والعشرين كانت مفلسة وبلا تجربة ، وكانت حمراء الشعر ، سمينة ، ترتدي اثواباً من المخمل الاسود . ولكن باريس سرعان ما ارهفت ذوقها . فرأيتها تصبح في عام واحد شقراء ، هزيلة ، طفولية وأنيقة . وكانت خفيفة الروح ، وهذا نادر بين النساء ، وكانت جميلة جداً حتى ان ذكاءها كان يُدهش . وغالباً ما كنا نخرج معها . كنت أحبها كثيراً .

وكنت أقصد السينما مع لانزمان . وقد كان « ملح الأرض » قصة مؤثرة ، مروية بخشونة . وقد استمتعت بهذيان « بونوال » عن « روبنسن كروزو » وعن اروع آثار « فلليني » : « آل فيتوليني » . وكان سارتر قد حبّبني في الماضي بأفلام الوسترن ، فاحتفظت بهذا الحسّ . وقد كنت أضع فوق الجميع « كنز سيارا مادر » الذي أخرجه هوستون اقتباساً عن رواية « ترافن » هذا المؤلف العجيب للروائع الذي كان يعيش في المكسيك والذي لم يكن أحد يعرف هويته . وكذلك احببت غاري كوبر في « القطار يصفر ثلاث مرات » وماريلين مونرو في « نهر بلا عودة » ، وكانت منازعات « شين » قد أمسكت عليّ أنفاسي . وذلك العام وجدت ثانية في « جوني غيتار » جوان كراوفورد أجمل منها ، وهي في بريق الخمسين ، من اي وقت مضى . على ان الاميركيين كانوا ، في معظم الأحيان الآن ، يفسدون هذا النوع من الافلام بتحميلها « رسالة » سياسية هي هي دائماً . فهناك بطل ، رجل او امرأة او صبي ، كان ينفر ، بنوع من العصابية ، من العنف ؛ وطوال ساعة ونصف ، واحياناً ساعتين ، يفشل لؤم اعدائه في جعله يعتنق العنف : وفجأة ، في الدقيقة الأخيرة ، يلجأ الى القتل لينقذ صديقه ، او لتنقذ الفتاة خطيبها ، او لينقذ الصبي أباه . ويعود المشاهد الى بيته مقتنعاً ، على ما يؤمّلون ، بضرورة الحرب الوقائية .

وشاهدت « بورغي وبيس » التي قدمتها فرقة اميركية بشكل جذّاب ، و « ساحرات سالم » الذي كان « رولو » قد أخرجها جيداً . وبدت لي مسرحية « بنغ بونغ » التي كان يمثل فيها بعض الاصدقاء — ومنهم ايفلين وشوفار — افضل مسرحية لأداموف . ولا ادري لماذا فاتتني عام ٥٤ رؤية مسرحية « الام كوراج » التي عرّفت الجمهور الفرنسي ببرخت . وقد اكتشفت موهبته [١] في حزيران ٥٥ في « دائرة الطبشور القوقازية » التي قدّمتها فرقة

---

(١) لم تعطني « اوبرا الدراهم الأربعة » التي رأيتها عام ١٩٣٠ ، تمثلها فرقة فرنسية ، اية فكرة عنه .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« برلينر » في مسرح ساره برنار.

اما الكتب التي كانت تستوقفني، ما عدا التي كانت ترشدني عن زماني وعصري، فكانت قليلة. وقد كان منها « الصيف الجميل » لبافيز. وقد كان يحمل لي كل ما يمكن ان يطلب من عمل روائي: اعادة خلق عالم يشمل عالمي ويخصّه هو، ويحمل لي الاغتراب ويضيئني، ويفرض نفسه عليّ الى الأبد ببدهية تجربة يخيّل إليّ اني عشتها. وقد عثرت في « خليط » ليريس ما سبق أن جذبني في « بيفور »؛ تلك الدوّامات من الكلمات التي تلتفّ حول نفسها وتتدحرج إلى مالا نهاية، حافرة هوّات الماضي والقلب، متلألئة مع ذلك في وضح النهار، رادّة المرء، بين صورة وصورة، إلى سرّ يتلاشى ما ان ينكشف من غير ان يكون للبحث غاية الا نفسه في انعكاسات مراياه الألف.

وفي آخر الربيع ظهرت رواية « خراب » لفيوليت لوديك: رواية متشنّجة عنيفة تقذف فيها المؤلفة تجربتها للجمهور من غير ان تمنحه أية مشاركة؛ من اجل هذا لم يصدم الكتاب فقط، بل استاء منه الناس. ولا سيما قرّاء دار نشر غاليمار. كان القسم الأول من الرواية يروي بلا مراعاة – وبلا دعارة – غراميات طالبتين: فطلب القراء حذف هذا القسم. وحكموا بأن بعض المشاهد يجب الا تُنشر، بالرغم من انها لم تكن تفوق بالجرأة مشاهد مطبوعة: ولكن موضوع الغزل كان الرجل لا المرأة، فأحسّوا بأنهم مهانون. وهكذا تفقد القصة، وهي مقطوعة على هذا النحو، طابع البروز من غير ان تكسب المحاسن التي كانت فيوليت لوديك قد رفضت ان تكسبها اياها عن وعي. على انها ظنّت بأن الرواية تنطلق انطلاقة طيبة. وكنا نتنزّه في ممرات مخازن « باغتيل » بين مصاطب زهر الخزامى والنرجس، ونحلمُ بنجاح كبير يصيبه الكتاب، انطلاقاً من ارقام المبيع التي قدّرتها دار غاليمار: ولكن الأرقام كانت مخطئة. وقد أحبّ بعض النقّاد الكتاب وعبّروا عن آرائهم: غير ان الكتاب لم يُبع. وكتبت لي فيوليت لوديك ذات يوم تقول: « انني صحراء تحاور نفسها ». إن الأدب، حين يصف الخشونة، يفضحها عادةً:

وهكذا يتنزّه القارىء على هواه بين مناظر ملوّنة زاهية ؛ اما هي ، فان صحراءها تحت بريق الكلمات ، كانت تظلّ عارية ، مزروعة بالحصى والشوك ؛ ذلك كان نجاحها : وكان فشلها . ولقد ألقاها هذا الفشل في خمود كبير .

* * *

كانت بي رغبة شديدة لمشاهدة الاتحاد السوفياتي ؛ ولكني كنت اتمنى اكثر من ذلك ان أعرف الصين ؛ وكنت قد قرأت ريبورتاج « بلدن » وجميع الكتب ، التي كانت ما تزال قليلة ، والتي ظهرت بالفرنسية عن الثورة الصينية ؛ وكنّا قد حلمنا ونحن ننظر الى صور كارتييه ـ بريسون . وجميع المسافرين الذين كانوا يعودون من بكين كانوا يتحدثون عنها بصوت مبهور . وحين قال لي سارتر اننا كنا مدعويْن لزيارتها ، لم اجرؤ على تصديق ذلك . وكنت ما ازال أشكّ في الأمر وانا اشاهد في حزيران المشهد الهائل الذي قدمته فرقة اوبرا بكين .

وفي اثناء ذلك ، قمت برحلة اكثر تواضعاً ، ولكن كان لها شأنها عندي ؛ فقد انعقد مؤتمر حركة السلام في هلسنكي؛ وكان تطوّري السياسي قد أدّى بي الى الرغبة في المشاركة فيه . وقد صحبت اليه سارتر ؛ وتوقّفنا بضع ساعات في ستوكهلم ؛ ثم ارتفعنا فوق بحرٍ بارد الزرقة حتى ليبدو صلباً : جليد في حالة الذوبان . وكنت ألمح نُثاراً من الجُزيرات المهجورة التي كانت اشدّ عزلةً حين كان بيتٌ ينتصب في قمتها ؛ وقد ازداد عددها ، حتى بتّ لا أدري اكنت أطير فوق مياه تتخلّلها الأراضي ام فوق اراضٍ مثقوبة بالمياه ؛ وانتصرت القارّة : صنوبر وبحيرات خفيّة كأنها الصخور تحت الماء . لقد كان نظري ينتهك هذه الامكنة العاصية التي لا تدرك ، ولا تُرى ، المنغلقة والمنفصلة ، ينتهكها ويجمعها ، مانحاً هذه القطعة من الكرة وجهاً لم يكن موجوداً الا بالنسبة لي ، وهو مع ذلك حقيقي . ووجدت ثانية اضطراب صباي ، حين كانت عيناي تخلقان العالم من جديد ، وذلك الحزن القديم : إن هذا لن يكون بعدُ ، بالنسبة لأي انسان ، بعد لحظات :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واحسست في هلسنكي بما كان سارتر قد أحسّ به في فيينا . ففي القاعة الواسعة المزيّنة بالاعلام ، كانت جميع البلاد تقريباً حاضرة ؛ وكان اعضاء « المكتب » جالسين على الدرجات ؛ اما باقي المؤتمرين ، فكانوا يجلسون امام طاولات مزوّدة بسمّاعات، او انهم كانوا يسيرون ويتهامسون في الممرات . وكان ثمة كثير من الأزياء : هندك ، وعرب ، وكهنة . وكان موثراً مشهد هؤلاء الناس الذين كان يجذبهم أمل واحد من جميع اركان العالم ، على مخاطر ومجازفات غالباً . وتحدثت مع طلاب اميركيين قدموا سرّاً الى هلسنكي ، معرّضين أنفسهم لسحب الجوازات منهم . وقدّمني سارتر الى ماريا روزا اوليفر ، وهي ارجنتينية جميلة ، مشلولة ، كانت تنتقل بين انحاء الأرض على كرسيّ مريض : وقد كان لا بدّ لها من ان تعبر الشيلي لتجيء الى فنلندا . وتعرّفت الى نيقولا غويان ، الشاعر الكوبي ، وجورج امادو ، الكاتب البرازيلي الذي كنت أحبّ رواياته . ورأيت من جديد أنا سيغرز وعينيها الزرقاوين . وفي اثناء حفلة طعام ، عقد لوكاس مع سارتر نقاشاً حول الحرية ، كان أرقّ من الرسائل المتبادلة بينهما قبل ذلك بأعوام ، ولكنه غير مجدٍ : فقد استمع اليه سارتر بأدب وهو يعرض ان الانسان كان مكيّفاً ببيئته وعصره ؛ ولم يكن قد فرغ بعد حين افتتحت جلسة بعد الظهر . وتعشيت مع سوركوف وفيدين ؛ وفيما كنت أشرب خمر جيورجيا ، عند تخوم ليل متردّد ، وأصغي تحت السماء المصفرّة الى حفيف الأشجار ، كنت اتذكّر الفضول الحزين الذي تطلّعنا به ، لأربعة أعوام خلت ، فيما وراء « الرأس الشمالي » ، الى الاسلاك الشائكة الروسية والى الحرس الذين يحملون النجوم ؛ كان الستار الحديدي قد ذاب بالنسبة لنا ، فليس ثمة بعدُ من ممنوع ولا من نفي ؛ لقد كان العالم الاشتراكي جزءاً من كوننا .

لقيت اهرنبورغ بضع مرات . وكنت أتذكّره ، على سطيحة مقهى « الدوم » في باريس ، قبل الحرب ، ضخماً وقصيراً . وقد كان اليوم يرتدي ثياباً جريئة لامبالية تذكّر بلباس مونبارناس القديم : بذلة من التويد الأخضر ،

وقميص برتقالي، وربطة عنق صوفية ؛ ولكن جسمه كان قد هزل، وكان وجهه تحت شعر ابيض مسرّح ، قد طال . كان صوته غنياً ، وفرنسيته لا غبار عليها . وما أزعجني لديه انما هو يقينه : كان واعياً انه السفير الثقافي للبلد الذي يمسك بين يديه مستقبل العالم ؛ إن الشيوعي الحقيقي لا يشكّ بأنّه يملك الحقيقة : فليس ثمة ما يدهش في ان يتحدّث اهرنبورغ بلهجة احتفالية . وقد كان سحره ، المتموّج والحادّ في وقت واحد ، يخفّف من تأثير عقائديته . وقد أخذ على سارتر ، بلهجة صداقة تكاد تكون من جدّ الى حفيده ، بعض التفاصيل الواردة في المقابلة التي اعطاها لجريدة « ليبراسيون » عن الاتحاد السوفياتي . وطلب اليه بالحاح ألاّ يهاجم الولايات المتحدة في حرارة مبالغ بها ، حين يتحدّث ؛ فقد كان الزمن زمن مراعاة : وكان قد انتوى ان يوصي احدى المجلات بأن تنشر بعض المقاطع من كتاب « اميركا يوماً فيوماً » ، ولكن نشر هذه المقاطع الآن لم تكن تبدو له مناسبة . وحدّثني عن « المثقفون » ؛ وكان جميع المثقفين الذين يعرفون الفرنسية في موسكو قد قرأوه وناقشوه في تأييد ، بالرغم من ان القصة الغرامية بدت لهم نافلة . واضاف : « ولكن لا يمكن التفكير بترجمة روايتك الى الروسية الآن » وأعطاني سببين لذلك : اولهما نزعة الاحتشام الأدبي التقليدية المبالغ فيها في روسيا ؛ ثم إن المناقشات المعقودة حول المعسكرات ما كانت لتزعج احداً لو نشرت قبل ذلك بأعوام ؛ فقد كان بالامكان التفكير آنذاك : « حتى المتعاطفون ينزلقون الى نزعة مناهضة الشيوعية ! » ولكن كان معروفاً الآن ان عودة المنفيين تطرح مشكلات صعبة وإذ ذاك لن يتحمّل الجمهور ان يوضع الأصبع على ذلك الجرح . وروى حكايات تثير الفضول عن ستالين ، بينها هذه الحكاية : كان ستالين يتحدّث بلهجة منفرجة جداً مع بعض الكتّاب : « إن هناك طريقتين تمكّنان الانسان من ان يكون كاتباً كبيراً : ان يصوّر لوحات قوية وفاجعة ، مثل شكسبير ؛ او ان يصف بدقة وعمق تفاصيل الحياة الدقيقة ، مثل تشيكوف . » واضاف ستالين بعد لحظة : « اما أنا ، فلو كنت كتبت ، لكنت تشيكوف . » وكان اهرنبورغ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يبذل جهداً كبيراً لـ « يذيب جليد » الادب السوفياتي ، وكان يحاول في مجلته ان يضاعف الاتصالات بالغرب ؛ وكان يحمي الرسم غير الرسمي . كان يجهد ، هو الذي اوتي ذكاءً متنوّعاً وذوقاً تكوّن لديه مما كان يسمّى « الطليعة » ، بان يوفّق توفيقاً ناجعاً بين هذه التحرّرية والارثوذكسية السوفياتية ؛ ولم تكن المهمة دائماً خالية من الخطر .

تنزّهت وحدي او مع سارتر في المدينة القبيحة التي يسوطها بحرٌ أخضر تعترضه الصخور والحجارة . وقد كان على ابوابها حديقة واسعة مزروعة بأشجار القضبان والصنوبر ؛ وقد تناولنا فيها العشاء ، ذات مساء ، على طاولات صغيرة ، في جناح زجاجي كبير ، وكنت اتمتّع بالتحدّث مع هؤلاء واولئك . وحدّثني فيركور وزوجته عن بكين ، وعن السوق المكشوفة ، والقصر الامبراطوري ، وكنت أقول لنفسي : « بعد ثلاثة أشهر ! » وذهبنا نتمشّى في الممرات مع « دومينيك ديزانتي » وكاترين وفارلين غويان الذي وصل في آخر الطعام وهو يتضوّر جوعاً . وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً ، كانت السماء ما تزال مشرقة ، وكان ذلك مساء عيد ، وكنّا نلتقي تحت الصنوبر بعصابات من الفنلنديين كانوا ذاهبين وهم يغنّون ليحتفلوا بأحد أبطالهم ويتفرّجوا على الأسهم النارية . وحين عدنا الى هلنسكي ، كان غويان يحلم بفطائر بالنقانق ؛ ولكن لم يكن ثمة حانوت مفتوح ، ولا حانة حتى ولا بسطة : كان الصمت في كل مكان . وكان مشرب الفندق يغلق أبوابه ، فأردنا ان نشتري زجاجة لنشربها في غرفتي ، فقال انا احد الموظفين بجفاء :

ــ ان الساعة منتصف الليل ودقيقتان !

فاكتفينا بالماء القراح . وكان غويان يهاجم الطهرية الشمالية . وذات مساء آخر ، كان سارتر مدعواً لحضور احد اجتماعات اللجان ، فصعدت الى حانة الفندق ، في الطابق الخامس عشر . وامام قدح ويسكي ، تأملت طويلاً الشمس المعلّقة بطرف الافق ، والشاطيء والصخور التي كان يصفعها ماء صاخب كان زبده يذوب رويداً رويداً في الليل . كان ذلك رائعاً وكنت سعيدة .

وكان ما قاله لي اهرنبورغ عن « المثقفين » قد سرّني : وكان الطلاّب الاميركيون يتنبّأون لي بنجاح كبير في الولايات المتحدة ؛ لقد كنت محظوظة : كان انفراج الجوّ قد خدم هذا الكتاب الذي كانت الحرب الباردة ، فيما كنت أكتبه، ترصده للاخفاق . كنت أحسّني ، بعد سنوات من المعاكسة ، مؤيدة من التاريخ ؛ وكانت بي رغبة الى ان امتزج به اكثر فأكثر . وكان مثال الرجال والنساء الذين كنت أحاذيهم يحرّكني . كنت طوال ثلاثة أعوام قد منحت حياتي الخاصة الشيء الكثير . ولم أكن نادمة على شيء . ولكنّ اوامر جديدة كانت تستيقظ فيّ : أن أصلُح لخدمة شيء ما .

كانت جلسات المؤتمر تفتقر الى الأهمية ؛ وكان عدد الخطباء مبالغاً فيه : إنهم لم يكونوا قد جاءوا من أقصى المعمورة ليصمتوا . وكان العمل الحقيقي يتمّ في اللجان . واراد الوفد الجزائري ان يتحدّث مع الوفد الفرنسي ؛ وكان يرأسه بومنجل ؛ وقد شرحوا لنا وضع بلدهم، فذكروا ان الثورة كانت منذ بضعة ايام قد دخلت مرحلة جديدة؛ وهي تكسب ولاء البلاد كلها ؛ وسوف يكون المئة والعشرون ألف جندي فرنسي الموجودون الآن في الأرض الجزائرية عاجزين عن صدّ الثورة . وكان يقول : اننا نحن نكاد لا نستطيع ان نضبط الثوار : وغداً لن نضبطهم على الاطلاق . وحثّوا الفرنسيين ان يحطّموا على الفور الدائرة الجهنمية والاضطهاد : «تفاوضوا معنا ! » وكان « فالون » و« كابيتان » يبتسمان : « إن القضية اقتصادية : فاذا قمنا بالاصلاحات اللازمة ، فان مطالبكم السياسية لن تكون واردة بعد » ولكن الجزائريين كانوا يهزّون رؤوسهم : « سنحقق الاصلاحات بأنفسنا . إن شعبنا يريد الحرية . » وكان بين الفرنسيين من أيّدهم . ولم يتكلّم سارتر لأنه لم يكن يعرف الموضوع معرفة كافية ، ولكنه كان يعلم ان اي اصلاح اقتصادي صحيح لا يمكن ان يتحقق في اطار الاستعمار .

ولم تكن الدائرة قد تحطّمت حين عدنا الى باريس . وقام نائب من « الحركة الجمهورية الشعبية » يفضح في المجلس الطرق التي يتبعها البوليس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الجزائر والتي هي جديرة بالغستابو . وقد استمع اليه الحضور في شرود [1] ، وبعد ذلك بقليل أُعلنت حالة الطوارئ . وأنشأ المارشال جوان لجنة مصممة بأي ثمن على الاحتفاظ بالجزائر لفرنسا . وقد كان الاستعمار يتحطم من كل جانب : عودة بورقيبة المنتصرة الى تونس ، مقتل « لوميغر دوبردى » في مراكش ، اضطرابات في الكاميرون . ولكن هذه الحقيقة لم تكن تبلغ اولئك الذين كان من صالحهم ان يتجاهلوها .

* * *

عدت الى اسبانيا مع لانزمان . وكنّا عازمين على ان نشاهد صراع الثيران . وفي ذلك الوقت الذي كان الكلام لا يكلّف فيه شيئاً كثيراً ، قدّرت تلك المحن التي يُلزم فيها الانسان جسمه في صراع حقيقي. شريطة ان يفعل ذلك طبعاً بكامل ارادته . إن ارادة المستَغلّين في مجتمعنا ليست حرة ابداً ؛ وعاهات الرأسمالية تنتشر بألف طريقة على خشبة الملاكمة كما في الحلبة. وبعد هذا التحفّظ الضروري ، فاني أجد الهجوم الموجّه باسم الاخلاق ضد الملاكمة او مصارعة الثيران غير ذي أساس . ان الاخلاقيين البورجوازيين هم اذهان مجرّدة تقريباً ؛ إنهم يجهلون من أجسامهم حاجاتها وألوان تعبها ومواردها وحدودها وقوتها

---

(١) كان « فويوم » المفتش العام للحاكم الاداري قد كلف في شهر شباط بالقيام بتحقيق ؛ ولم اعرف تقريره الذي قدمه يوم ٢ آذار ١٩٥٥ الا بعد ذلك بكثير ، حين نشر في « تموانياج ودوكومان » وقد صور ألوان التعذيب المختلفة التي استعملتها الشرطة ، واضاف انها كانت تبدو له ضرورية : « يجب ان يملك المرء الشجاعة ليتخذ موقفاً بشأن هذا الموضوع الدقيق . وبالفعل فاما أن يبقى المرء في الموقف المنافق الذي سادحتىالآن والذي يتلخص بتجاهل مايقوم به الشرطة ... وإما ان يتخذ موقف الغضب الزائف الذي يتخذه من يدعي انه كان مخدوعاً .. والواقع انه لا يمكن لأي من هذين الموقفين ان يكون صالحاً ، الأول لأن الستار قد رفع والرأي العام قد عرف ، والثاني لأن الجزائر محتاجة ، ولا سيما في الظروف الراهنة، الى شرطة فعالة بصورة قوية . ولكي نرد للشرطة ثقتها ونشاطها، فليس ثمة بعد الا حل واحد: الاعتراف ببعض الأساليب والطرق وتغطيتها . » ولم يقر سوستيل رسمياً هذه الاستنتاجات ، ولكنه اقر النتيجة التالية التي كانت تشمل جميع النتائج الأخرى : « إن البحث عن المسؤوليات الافرادية صعبة الى اقصى حد . وانا بالاضافة الى ذلك اعتبره في غير محله » .

ورخاصتها ؛ وهم لا يعترفون بجسمهم الا بشكل الجنس او الموت : وهذه الكلمات سرعان ما تأتي على اقلامهم حين يعلّلون حدثاً ينخرط فيه الجسم حتى الدم ، بلا واسطة آلية ، في حضوره الخام . ولئن كانوا يشجبون هذا على انه من البربرية والسادية فلأن توحيد الانسان مع جسمه يثير استغرابهم ؛ وهم يعزون للجموع التي تقرّ ذلك بصورة طبيعية لأن فيه استجابة لتجربتها الصميمية غرائز « منحطة » او « معتكرة » . انهم ينسون ان الاعياد التقليدية لا يمكن ان تُشرح بألوان من الفساد الفردي ؛ اما الموت ، فهو أقلّ حضوراً في حلبة مصارعة منه في طرق سباق السيارات . وإن انصار مصارعة الثيران يزعجونني عادة بمقدار ما يزعجني اعداؤها ، لأنهم يأخذون الأفكار والأساطير نفسها فيمجدونها بدلاً من ان يحنقوا عليها . وهذه الاساطير لم تكن موجودة في المجتمعات الفلاحية التي وُلدت فيها مصارعة الثيران ؛ وانما هي قد استغلّت وأشيعت حين استولت عليها الارستقراطية مالكة الأراضي وزبائنها ليفيدوا منها . فاذا أُبعدت ، بالرغم من الاحتفالات ومن ادب كامل خلقته ، فان مصارعة الثيران تحتفظ بمعناها الاصلي : حيوان ذكي يعمل على ان يهزم حيواناً اقدر منه ولكنه غير مفكر ، ولأنّ لي عن الانسان رؤية مادّية ، اراني اهتمّ بهذا الصراع . صحيح أنه قد أُفسد بالغش والتزييف لأنه أصبح (كالملاكمة) مشروعاً مالياً يتغلّب فيه همّ البحث عن الفائدة . ولكن جرأة مصارع للثيران واخلاصه يردّان له أحياناً نقاوته .

ابتدأنا بزيارة برشلونة حيث رأينا « شاماكو » التي كان سكان برشلونة يعبدونها . ثم ذهبنا الى « بامبولون » ، وكان فيها عيد لا يشبه قط ما وصفه همنغواي . لم يكن في الساحات والمقاهي الا رجـــال في فرق او عصابات او أخويات يغنّون ويرقصون بثقل ويبتهجون ان يكونوا رجالاً فيما بينهم . وشهدنا ثلاث حفلات في الحلبات ؛ وكنت أحبّ « جيجون » الذي حصل ذلك العام على « الأذن الذهبية » .

وانحرفنا الى الشاطيء الغربي ، فتوقفنا عند « التوجا » ، مفتونين بسهول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصنوبر ووحدة الشواطيء الشاسعة . ولكن اسبانيا لم تكن في تلك المناطق ، لتبتسم . فحين كنا نسير على أرصفة المرفأ الصغير ، كانت وجوه الصيادين المنحنين على شباكهم تقسو ، وفي مدن « الاستوري » وقراها ، حول المناجم ، كانت جميع الانظار ضروباً من العتاب ؛ وقذف بعض الأولاد سيارتنا بالحجارة . وقد كنّا نؤثر هذا الغضب على الاستسلام ، ولكن لم يكن يروق لنا ان نجعل من انفسنا مرمى لهم . ثم اننا كنّا نحتقر الوان المخاتلات اكثر من ذي قبل . كان ثمة مفرقعات اكثر مما ينبغي تصطنع الفرح في كل مكان ؛ وكان ثمة كهنة اكثر مما ينبغي يحملون الى الضيع المجاورة سراب الآخرة : كان ينغل ، هذا الكهنوت ذو القبعات المخملية الذي لم يُحلْ الاحقاد الى الصمت الا بقوة السلاح . وحين دخلنا « اوفيادو » كان موكب مطوّفين يملأ الطرقات بالتراتيل والأناشيد ، واليتيمات ، والنسوة بلباس الحداد ، والمراهقين باللباس الطويل : ولم يكن ثمة أي نور على هذه الوجوه التي بلّدتها التقوى الهزيلة . وامام كاتدرائية سان جاك دوكومبوستيل ، لذنا بالفرار ، رغم عظمة الكاتدرائية وفخامة اسمها : كانت رائحة الماء المقدس والرشوة تصعد من الشوارع . وعبرنا غابات كان بلّوطها يستعمل غذاء للناس ؛ واردنا ان نزور وادي « الهورد » الذي كان فيلم «بونويل» قد كشفه قبل الحرب . وكان ثمة طريق ينحدر اليه ، بلا مخرج ، وهو من الوعورة بحيث أن الجدار الذي يتعرّج منه ، كان يبدو غير قابل للعبور . وكان المرء يقرأ على احد الأبواب : « انتم داخلون وادي الهورد »، وخيّل الينا ان عالماً مقطوعاً عن العالم الى الابد كان ينغلق علينا . وفي الجبل ، على بضعة كيلومترات ، كنت أعلم أن دير فخماً كان قد بُني حديثاً : وهنا كانت تتوقف العناية العامة . كانت البيوت اسطبلات يعيش فيها الماعز والدجاج وقطيع من البشر ؛ وعلى وجوه الاطفال والبالغين والمغدودين ، كان يخيّم يأس حيواني واحد ؛ ولم نشاهد إلا قعر الوادي حيث كانت تجري شبكة من الماء ، وحيث كانت الأرض تنتج بعض النبات ؛ ولكن كان لا بد من حمل الماء والتراب على ظهور الرجال لبلوغ

صخور السهول . ولدى العودة ، كان الليل قد هبط ؛ لم يكن ثمة نور ، ولا صوت ؛ وكانت بعض الابواب تنفتح على ظلام صموت تتراكم فيه الحيوانات والناس ؛ وقد كانت الاصوات تتجلّد في افواهنا نحن كذلك[1] .

وكانت سلامانك جميلة : ساحات وقباب وحجارة وعاج في طابع كلاسيكي غير مألوف في اسبانيا . واتجهنا تواً الى فالانس عبر « المانش » ذي الرياح الصاخبة حيث كانت تنتصب طواحين دون كيشوت . وكان ثمة عيدٌ قد راق لنا اكثر كثيراً من عيد « بامبولون » ؛ ولم يكن فيه شيء فولكلوري : بل غليان مدينة حقيقية من مدن اليوم . وقد شاهدنا في صباح اليوم الأول حفلة « ابارتيدو » ثم شاهدنا جميع حفلات السباق . وكنا نتنزّه في « الالبوفيرا » ونرى الى الحجب البيض تنزلق وسط أشجار البرتقال . وقد افتقرت فالانس الى الماء طوال هذه الايام الثلاثة ؛ وكان الناس يشربون البيرة والخمر ، وكنا نأخذ حمامات بحر كانت تزفّت جلودنا . واشترى لانزمان لوحة رائعة حمراء وصفراء تمثّل « ليتري » وهو يجابه ثوراً ، فسمّرتها على أحد الجدران .

بعد ان فرغنا من زيارة الأندلس مرة اخرى ، اتجهنا الى « هويلفا » ؛ وكان « ليتري » يعود اليها عودةً أعلنتها الصحافة بصخب . كان من سكان البلدة ؛ ويوم حفلة الصراع ، كان جمع من الرجال والنساء يترصدون خروجه امام بابه في تقوى . وقد احتفظت بصورة حيّة جداً عن الحلبات الريفية الملطّة بالكلس التي كانت تشرف عليها رابية ذات ألوان افريقية ؛ وكان ثمة أشخاص يرتدون ثياباً فاقعة اللون ، يتفرجون بين الصخور الشقراء والاوكالبتوس . ولم يكن يحدث شيء هام . وكان اورتيغا الأشقر ذو الكرش يبدو ماتادور اوبرا . وكان « بيانفانودا » يراعي مخاطره وأمله ؛ ولم يكن ليتري ذو الخدين المورّدين والشبيه بعذراء « زورباران » يستحق تماماً التصفيق الذي كان يثيره . وفجأة ، قفز الى الحلبة ، في انبثاق ثور جديد ، فتى يحمل

---

(١) كانت الفضيحة شديدة البروز . وقد عولجت منذ عام او عامين معالجة سطحية ، ففتحت الطريق من الجانبين ، وأدخلت الكهرباء ، وانشئت بعض المدارس .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منديلاً أحمر ؛ وجابه الثور ببضع حركات جريئة ، فكان يخيّل إليّ ان قرنين قد بدا ينغرزان في بطنه ؛ ولم يتحرك اي مصارع من مصارعي الثيران ، الى ان تقدّم جندي مسلّح ، فضرب الفتى بالمطرقة ، من فوق الحاجز ، فانهار ، وحملوه .

* * *

غابة كبرى من الاوكاليبتوس ، وسهل رمادي مزروع بالصنوبر ، وسلسلة من الجبال العارية ؛ ثم مدريد . وقد أحببناها ذلك العام ، وربما كان ذلك لأننا تسكّعنا فيها مع مدريديين . وحدث ان أحد هؤلاء ، بينما كنا ذات ليلة نشرب المانزنيلا في حانة ، تحت رأس ثور شهير ، قد أحبّنا عبر فرنسيته الرديئة واسبانيتنا الرديئة ؛ وقد ذهب يوقظ أخاه الذي كان يحسن الفرنسية ، وقصدنا كوخاً قديماً ذا جدران مطلية فأكلنا معاً اربيان بالزيت والثوم ؛ وحتى الصبح تحدّثنا وشربنا على انغام الغيثار في الحانات الصغيرة القريبة من « بويرتادلسول » ؛ وكنّا نلتقي هنا وهناك رجلاً او امرأة وقد نزل عليهما الوحي فجأة ، فأخذا يغنّيان او يرقصان . وكان صديقانا من البورجوازيين الصغار الميسورين ؛ ولم يكونا يحبّان الحكم ، ويؤكدان ان ليس ثمة من يحبّه ، ولكنهما قلّما كانا يهتمان بالسياسة ؛ وكان أحدهما يؤمن بالله ايماناً عنيفاً ، وقد قال لنا : « لو لم اكن اؤمن به لقتلت نفسي على التو » ولم يتركانا ندفع ثمن كأس واحدة : « فنحن في منزلنا » ويوم الأحد التالي اصطحبناهما مع زوجتيهما الى الاسكوريال حيث شاهدنا مصارعة للثيران كانت رديئة .

* * *

لقد رويت رحلتي الى الصين [1] . وهي لم تشبه الرحلات الاخرى . انها لم تكن تشرّداً ولا مغامرة ولا تجربة ، بل كانت دراسة قمت بها عن كثب وبلا هوى . وقد كان ذلك البلد غريباً عني كل الغرابة ؛ كنت قد اكتشفت ألواناً من التواطؤ والمشاركة ، حتى مع « اليوكاتان » وغواتيمالا وعبر اسبانيا :

---

(١) « المسيرة الطويلة » .

اما هنا ، فلا شيء . وقد عرفت الكتّاب الذين التقيتهم هناك عبر ترجمات انكليزية ؛ ولكنهم لم يكونوا ، حتّى ذلك الحين ، قد وُجدوا في نظري ؛ ولم يكن اسم سارتر ولا اسمي يعنيان شيئاً لهم ، باستثناء اثنين او ثلاثة من الاخصائيين في الأدب الفرنسي ؛ وقد ذكرت الصحف ان سارتر قد كتب «سيرة نكراسوف» (الشاعر الروسي الكبير في القرن التاسع عشر) ، وكان المتحدّثون الينا يظهرون اهتماماً مؤدباً بهذا الأثر ، ثم ينتقلون الى الحديث عن الاطعمة الفاخرة . وقد ازعج هذا الجهل المتبادل أحاديثنا ، اكثر مما ازعجتها ضروب الكبت السياسية . ثم ان الثقافة الصينية ، من جهة اخرى ، — وقد شرحت ذلك مطوّلاً — هي بالجوهر ثقافة موظفين ورجال بلاط : فهي لم تؤثّر فيّ كثيراً . وقد احببت الأوبرا وسحر الحركات الطقوسية ، وعظمة الموسيقى التراجيدية ، وزقزقة الأصوات . وأحببت في مجد الخريف ليالي بكين الصافية . وقد كانت الاشياء في المسرح احياناً ، واحياناً في زاوية شارع ، تغمرني فأنسى نفسي . ولكني عادة ما اكون حاضرة وتجاهي عالم أجهدُ في فهمه ولا أدخله .

لم يكن عالماً سهل الفهم . انني للمرة الاولى ألمس الشرق الاقصى ؛ وللمرة الأولى فهمت فهماً عميقاً معنى كلمة : البلاد المتخلّفة ؛ وعرفت ماذا كان يعنيه الفقر على مستوى ٦٠٠ مليون نسمة ؛ وللمرة الأولى شاهدت هذا العمل القاسي : بناء الاشتراكية . كانت هذه التجديدات تتراكب وتختلط ؛ ولم تكن الفاقة الصينية الا عبر الجهود المبذولة للتغلب عليها ؛ وكانت انجازات الحكم مدينة بقسوتها لهذا البؤس ؛ كان الطابع الأجنبي يلقي حجاباً على الجماهير التي كنت ألتقيتها ، وعلى أفراحها وآلامها ؛ ومع ذلك ، فعبْرَ النظر والمقارنة والاستشارة والقراءة والسماع ، كان ثمة حقيقة تنفذ من خلال الظلمات : هي ضخامة الانتصارات التي تحققت في بضع سنوات ضد الاوبئة التي كانت تسحق الصين ، والقذارة ، والقمل ، وموت الاطفال ، والامراض وسوء التغذية ، والجوع ؛ كان للسكان ألبسة ومساكن نظيفة ، وكانوا يأكلون . وثمة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حقيقة اخرى كانت تفرض نفسها : هي الطاقة النافذة الصبر التي كان هذا الشعب يبني بها المستقبل . وكانت نقاط اخرى تضيء بعضها بعضاً . وبدأت افكر بأنه ربما كان مفيداً ان انقل هذه التجربة ، مهما كانت ناقصة .

وقضيت في موسكو ، وانا في الطريق الى الصين ، نهاراً واحداً ، ولكن من غير ان يفسد عليّ هذا التجلّي شيء او احد ؛ وبصحبة سارتر الذي كان دليلي ، سرت في الطرقات من الصباح حتى الساعة التي اضاءت فيها على ابراج الكرملين نجوم الياقوت . ومكثنا فيها اسبوعاً لدى عودتنا من بكين . وقد بهرتني موسكو ، بعد شهرين من الفقر الصيني ، كما بهرتني نيويورك لدى خروجي من الفاقة الاوروبية . وكان الليل قد هبط حين أقبل سيمونوف يلقانا في المطار ؛ وكانت « الجامعة » ، القبيحة في النهار ، تقذف ألف ضوء ؛ وتناولنا العشاء معه ومع زوجته — وهي ممثلة معروفة كانت قبلة الأنظار — في « السوفيتسكايا » التي كانت قاعـة الطعام فيها تتحول الى حانة . واية فرحة ان نعثر ثانية على الأطعمة والأشربة التي تسكرنا ! وكان ثمة فرقة موسيقية ومشاهد جذابة ؛ وكان رجال ونساء يرقصون ويتعانقون وخدودهم مورّدة : كانوا بعيدين عن الفتور الكونفوشيوسي . وعبر المدينة كلها ، كان البناء قائماً على قدم وساق ، ولكن لا بواسطة المسجّات وسلال التراب الصغيرة : بل بواسطة الشاحنات والدحادل والرافعات والكاسحات ، لم يكن ثمة ما هو ناقص . وقد كانت العزَب القديمة الباقية هنا وهناك ، تعلوها الآن أشرطة التلفزيون اللاقطة .

وقد نزّهتنا مترجمتنا ، اولغاب ، بلا برنامج ، ووفقاً لأهوائنا وإلهامها . وقد أخذتنا الى كنيسة زاغورك ، في ضاحية موسكو ؛ وكانت الكنائس الجميلة جداً ملأى بالنساء العجائز المتمتمات ؛ وفي قاعات الصف ، كان طلاب اكليريكيون ملتحون وقذرون يقلّبون الكتب ؛ ولم يكن الكهنة الذين كنا نلتقي بهم في الخارج ، وفي الممرات ، أكثر نظافة ؛ وحين كانت النساء الورعات يلمحن واحداً منهم ، كنّ يرتمين على يده ويقبّلنها بشهية . على

ان الارشمندريت الذي دعانا لتناول الغداء كان رائعاً : جبّة بنفسجيّة ، شعر طويل مسرّح جيداً ، ولحية طويلة معتنى بها . وقال لنا : « اعذروني ، ان الطعام اليوم هزيل » فيما كان راهب صغير يملأ صحوننا بالكافيار ؛ وكانت صور ضخمة للينين وماركس مسمّرة في الجدران . وشرح لنا الارشمندريت الخدمات التي أدّتها الثورة للدين : وقد أصبح الشعب يعرف اليوم ان الكاهن يصبح كاهناً بالدعوى والرسالة ، لا بالمصلحة . وكانت اولغا ب.، وهي اسرائيلية ، تكاد تختنق من الغضب ، وكانت تقول بصوت جاف ، وتردّد من غير لهجة ، ما كان يقوله الكاهن . وفيما كنا خارجين ، قالت لنا وكأنما تلقي الدرس عليها هي نفسها : « أنا أعلم انه يجب تعليم الشعب ، لا تنفيره ؛ ومن الواجب احترام عقائده ؛ ولكنهم مع ذلك يبالغون ويسيئون . »

والتقينا كارلو ليفي . وكان الجانب البالي من موسكو يسحره : الستائر المغضّنة ، والشبابيك المدموغة ، والقطائف ، والطرز ، والحملات ، والثريّات. وكان يقول : « ان هذه هي طفولتي ، انها تورينو عام ١٩١٠ » ونظرنا طويلاً الى سكير مستند الى جدار كان المارّة يحاولون بإحسان ان يوقفوه ؛ اما الذين كانوا يتمدّدون ارضاً ، فكانوا يُلتقطون ، ويُحتفظ بهم حتى الظهر ، ويصلون متأخرين الى عملهم .

وشاهدنا بعض التمثيليات : « الغيطان » التي أخرجت اخراجاً كلاسيكياً على غرار ستانيسلافسكي ؛ وهزلية لسيمونوف مثّلتها زوجته ، و « البقّ » لمايا كوفسكي في مسرح « الساتير » . وكانت اولغا ب . قد روت لنا المسرحية بالتفصيل ، وكانت تترجم لنا ، ونحن نشاهدها ، مقاطع طويلة ؛ وكان النصّ مدعوماً باخراج سريع ، لامبالٍ ، مليء بالاختراعات وبممثل مدهش كان يمثّل « على مسافة » [1] ، باسلوب بريختي . وفي اثناء الاستراحة ، ألقيت

---

(١) عرفت فيما بعد ان بريخت قد شاهد هذه التمثيلية بعد بضعة ايام فأقر بحرارة الفن الذي قدم به الممثل شخصية « بريسيكبين » من غير ان يتحد به .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بنظرة على الجمهور، فرأيت أنف ايلسا تريوليه الجميل ؛ ولكن العينين لم تكونا عينيها ، وكان الشعر أحمر : أنها في الحقيقة أختها ، صديقة مايا كوفسكي القديمة . وقد تبادت بعض الكلمات مع سارتر ؛ وقالت بصوت حادّ : « لقد قيل إنها تمثيلية مناهضة للشيوعية ؛ ولكن لا : انها مناهضة لنوع معيّن من علم حفظ الصحة ! » ففي نهاية المسرحية ، كان بريسيبكين يدنو من مقدّمة المسرح ويسأل المشاهدين : « ولماذا اسمّ ، انتم ايضاً ، في القفص ؟ » لقد كان يقفز فجأة من الخيال الى الواقع ، فيضع جميع الناس في المغطس . وكانت اولغا ب . تأخذ على « البقّ » طابعها التعليمي البنائي . وقد كان مغزى المسرحية واضحاً لنا : كان من المستحيل قبول المجتمع البورجوازي بعاهاته وتطرّفاته ؛ ولكن حين يكون المرء قد رُبّي عليه ، فمن المستحيل اخضاعه لعلم « حفظ الصحة » الذي كانت بداءات البناء الاشتراكي قد تطلبته في الاتحاد السوفياتي . وكان انتحار المؤلف يبدو وكأنه يوكّد هذا التعليل الذي كان في الحق تعليل مدير المسرح وفرقته . وقيل لي إن المسرحية قد قُدمت فيما بعد على احد مسارح موسكو الذي محا منها الالتباس وجعل منها درساً في الاخلاق . [١] .

ادركت لماذا ذهب سارتر ، لعام خلا ، الى احد المستشفيات : لقد كان الكتّاب الروس ينعمون بصحّة هائلة ، وقد كان من الصعب التهرب من كرمهم العظيم . وقد كان موتمر للنقّاد القادمين من جميع مناطق الاتحاد السوفياتي منعقداً آنذاك في موسكو . وقد طلب سيمونوف من سارتر ان يشترك بعد ظهر أحد الايام باحدى جلساته، وكنّا نتناول الغداء معه ومع بعض الاصدقاء الجيورجيين ، وقد قبل سارتر ، ولكنه اشترط ألاّ يشرب ، ومع ذلك ، فقد كان على طاولة المطعم اربع زجاجات من الفودكا ، من انواع مختلفة ، وعشر

(١) لم تحظ الترجمة التي نشرت في « التان مودرن » ولا الاقتباس الذي أخرجه بارزاك في مسرح « الاتوليبه » بأي نجاح . واعتقد ان « البق » المحرومة من اية قرينة ظلت مقفلة على الجمهور الفرنسي .

زجاجات من الخمر . وقال سيمونوف : « ستشربان فقط اقداحاً من الفودكا » وملأ كأسينا اربع مرات ؛ وكان لا بد بعد ذلك من شرب الخمر مجاراة في اكل قطعة هائلة من لحم الخروف مغروزة في سفّود ، يسيل منها الدم . وروى سيمونوف والمدعوون الآخرون الثلاثة انهم كانوا قد أدبوا طوال الليل ، وتحدّى الجيورجيون والموسكوفيون بعضهم بعضاً في شرب الفودكا والخمر ؛ ولم يكن سيمونوف قد نام ، وقد بدأ عمله في الخامسة صباحاً . وأفرغوا ايضاً جميع الزجاجات من غير ان يبدو عليهم أيّ تأثّر . وكانت اولغا ب . قد تمنّعت عن الشرب ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ولكننا حين وصلنا الى المؤتمر وجدت نفسها أشدّ تعباً من ان تستطيع الترجمة ؛ وكان رأسي انا ملتهباً ، واعجبت بسارتر الذي نجح في ان يتحدث حديثاً سليماً واعياً عن دور النقد . ونوقشت الاهمية التي ينبغي ان تعطى ، في رواية قروية ، للتركتورات وللبشر ؛ وقد وجدت المناقشة شاقّة ، ولكن ليست اكثر مشقّة مما هو مألوف في هذا النوع من المناقشات . ولا أتصوّر ان اي كاتب ، سواء في الشرق ام في الغرب ، يتعلّم اي شيء عن مهنته حين يعقد مؤتمراً مع كتّاب آخرين .

وكان لا بدّ من كتابة مقالين ، واعطاء مقابلات ادبية ، والتحدث في الراديو ؛ وامضيت في السرير نهاري الأخير ، وقد نفدت قواي ، وأخذت برداً بلا ريب . وقرأت « درب الآلام » لألكسي تولستوي ، وانا اتذوّق وحدتي ، والصمت .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع

حين عدت من الصين كنت أثق بالتاريخ : إن المستَغَلّين في المغرب ايضاً لا بدّ من ان ينتصروا ، وربما عمّا قليل . وكان المراكشيون قد ثأروا يوم ٢٠ آب في وادي زيم لإخوتهم الذين سبق للمتطرفين ولرجال الشرطة وللجلاوي ان ذبحوهم . وفي اليوم نفسه ، كان « جيش التحرير الوطني » قد قتل في منطقة قسنطينة سبعين اوروبياً [1] . وكانت الحكومة قد ارسلت فرقاً الى افريقيا الشمالية – ومنها ٦٠ ألف رجل الى الجزائر – ولكن ذلك لم يتمّ بلا معارك . ففي يوم ١١ ايلول ، ارتفعت في محطة « غاردوليون » بباريس صيحات : « مراكش للمراكشيين » ، فأوقف المجندون الاحتياطيون القطار . وحثّت جريدة « الاكسبريس » الجنود الشبّان على الطاعة ، فأغرقتها رسائل الاحتجاج. وحين ثنتهم مجلة « التان مودرن » عن الخضوع والطاعة ، وجدنا انفسنا متفقين مع قسم كبير من الرأي العام . وفي روان وكوربوفوا وثكنات كثيرة اخرى، رفض الجنود ، بتأييد من الشيوعيين ، الذهاب ولم يخضعوا الا حين استعملت القوة .

---

(١) منهم ٣٥ في الحلية . وكان عدد ضحايا عملية التأديب ١٢٠٠٠ ضحية بين رجال ونساء وأطفال .

وتأييداً لهذه المقاومة ، وحشداً للرأي العام ضد الحرب ، حاولت صحافة اليسار ان تعرّف حقيقتها : فأخذت تدلـّل على ان جيش التحرير الوطني لم يكن عصابة من اللصوص ، وانما كان جيشاً شعبياً منظماً ومدركاً للسياسة . وفضحت عمليات المسح والملاحقة والتطهير وإحراق القرى وألوان التعذيب . وفي تشرين الثاني ، حطّمت « التان مودرن » اسطورة الدمج في مقالين اثنين . وانشأ بعض المثقفين مركزاً للمعلومات [1] ؛ وتألفت لجنة من المفكرين لمحاربة مواصلة الحرب في افريقيا الشمالية .

وفي تشرين الثاني ، كان السطان يعود الى مراكش ؛ وكانت تونس تحصل على« الاستقلال ضمن الارتباط » على حدّ قول ادغار فور ؛ اما قضايا الجزائر ، وهي مستعمرة إسكان ، فكانت أشدّ تعقيداً من قضايا المحميتين ، ولكن كان يبدو لنا ان فرنسا لن تستطيع التهرب من منحها وضعاً شبيهاً بوضعهما . وبعد انتخابات كانون الثاني ، اعتقدنا بأن اللحظة قد اقتربت ، بالرغم من فوز بوجاد ، كانت الجبهة الجمهورية تجمع معظم الأصوات ، وقد تعهّدت بانهاء تلك الحرب التي كان موليه يصفها بأنه « قاسية وسخيفة » في أسرع وقت ممكن . وقد تحدّث في خطابه الرئاسي يوم ٣١ كانون الثاني عن « شخصية الجزائر الخاصة » . وصرّح روزانفلد في جلسات الحزب الاشتراكي بقوله : « يجب ان نعترف بالواقع الجزائري القومي . »

ولم ندهش لردّ فعل الجيش والمستوطنين الأوروبيين ـ وداع مدينة الجزائر الحار لسوستيل ، وطماطم ٦ شباط ، ولجان « الطمأنينة العامة » ـ ؛ وبدا لنا استسلام موليه ، اذ احلّ لاكوست محلّ كاترو ، أشدّ غرابة . لقد أختير لكي يعقد السلام ، فشدّد الحرب : ولقد رأينا مذهولين كيف أيـّدته « الجبهة الجمهورية » وكيف صوّت الشيوعيون ، يوم ١٢ آذار ، تأييداً للسلطات الاستثنائية . وقد بُرّر هذا الارتداد بدعاية لم تكن تخيفها اية شائعة او خبر كاذب . كان الشعب الجزائري يحبّ فرنسا ، وكانت الثورة

---

(١) وقد اصدر نشرة « تيموانياج ايدوكومان » (شهادات ووثائق) .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« مؤامرة اسلامية » كان عبدالناصر والجامعة العربية يشدّان خيوطها. وقد كان سوستيل يجتذب التصفيق من النواب الفرنسيين في ممارسة مهمّاتهم تأييداً لفلسفة التاريخ هذه التي تغذّي روايات « ميكي سبيلان » و « السلسلة السوداء » ، فرع التجسّس. وكانت الصحافة تذيعها وتنشرها ، فيستمتع بها القرّاء ، وقد دغدغ مشاعرهم دخولهم هذه الأسرار ، التي كانت ضعيفة السريّة. وكانت الصحف تخفي بألوان من الصمت والأكاذيب طابع الاضطهاد الحقيقي. وكان معروفاً ان « إعادة السلام » باعتبار أنها لم تكن الحرب ، فان الحقوق الدولية لم تكن تنطبق على جيش التحرير الوطني : ومن هنا كان تجنّب الحديث عن الأسرى. ولم تكن هناك الا جريدة « اومانيتيه » التي أشارت في نيسان الى الاربعمئة مسلم الذين ذُبحوا في قسنطينة او قُتلوا او ألقوا في المجاري ، على ايدي قوات الأمن ، بعد ظهر احد الأيام. ولم تكشف الا « الاوبسرفاتور » و « الاومانيته » النقاب عن مأساة « ريفيه »[1] ، وحين ألتحق المرشّح « مايو » يوم ٦ نيسان بجيش التحرير الوطني ، غُطّي بالشتائم من غير ان يمحّص احدٌ اسباب عمله. اما اوضاع الافريقيين الشماليين المعيشية في فرنسا ، وأما أحياء التنك في « نانتير » ، فلم يكن احد يتحدث عنها ، باستثناء اثنين او ثلاثة من صحفيي اليسار.

وباشرت الحكومة محاولة إخراسهم. فاعتقلت « بورديه » واوقفت

---

(١) وقد قتل فيها دركي يوم ٨ ايار ، فقتل الشرطة على سبيل التأديب رجلين مسلمين ؛ ورداً على ذلك قتل خباز اوروبي يوم ١٠ ايار. وعندذاك ، جرى إطلاق رهيب للنيران ، واستدعي الجيش ، فحاصر الحي الاسلامي ، وحمل في الشاحنات جميع الرجال — وكانوا زهاء اربعين — ثم قتلهم. والتقط كذلك بعض الشبان من « المشاتي » المجاورة ، فقتلوا ، واشعلت النيران بالمشاتي بعد ذلك ، فاحترق جميع السكان وهم احياء ، باستثناء حفنة استطاعت ان تنجو ، فابتهلت الى العسكريين ان يبقوا لها الحياة. وقد نشرت بعض الصحف صور هؤلاء وتحتها عبارة : « سكان بضعة احياء يتحالفون مع فرنسا » ، وأصبحت « ريفيه » قلعة ، والسكان المقتولون فيها « عصاة » ، وهكذا جعلوا من هذا العمل نصراً عظيماً لجيوشنا !

« ماندوز » وفتّشت بيت « مارو » الذي كان قد احتجّ في جريدة « لوموند » يوم ٥ نيسان ، على ألوان القمع الجماعي ، وعلى المعسكرات ، وعلى التعذيب : وكان يشبّه تلك الأعمال بأعمال الغستابو والجيش الالمـاني . وصودرت « الاومانيتيه » بضع مرات وحُبس « اندريه ستيل » ؛ وحاول البعض توريط اليسار في « قضية الفرار » الغامضة ؛ وكان اليمين يعزو لبورديه وستيفان وداستيه ومناورات فان شي اضاعة الهند الصينية : فكان ينبغي ألاّ يترك الخونة يطعنون الوطن الأم مرة أخرى في الظهر . ومع ذلك ، فقبل أن تنخرط البلاد التي صوّتت للسلام في الحرب ، اصابتها بعض الانتفاضات . فاحتجّت في عدة أمكنة ، بأعمال عنيفة ، على سفر المجنّدين . وعقدت الاجتماعات في أماكن عدة ، وقامت المظاهرات ، والاضرابات وازاحـة القطارات عن السكك الحديدية ؛ وكانت العرائض تُتداول ، واللجان تلتقي بالنواب . وكان الشيوعيون ينظّمون هذه المظاهرات او يدعمونها . وبعد الاستقبال الودّي الذي أقامته موسكو في حزيران لموليه وبينو ، خفّف الشيوعيون اللهجة . وكان سارتر يتمنّى ان تشجب حركة السلم حرب الجزائر ؛ وقد صرّح له مندوب سوفياتي مرموق ، كان يمرّ بباريس ، أن مثل هذا القرار غير مناسب ؛ كان يريد ان يجعل الحركة تصوّت على قرار لا يعارض الا حرب الهجوم : وإن الفرنسيين لم يكونوا هجوميين . وكنا نعتقد ان الاتحاد السوفياتي كان متحفّظاً لأنه كان يخشى ان يصبح المغرب منطقة نفوذ اميركية ثم إن الحزب الشيوعي كان يخشى ان ينفصل عن الجموع اذا بدا أقلّ وطنيّة من سائر الأحزاب . لقد عارض رسمياً الحكومة ؛ ولكنّه كفّ عن حثّ المجنّدين الاحتياطيين على التمرّد ؛ وهو لم يحارب النزعة العنصرية لدى العمّال الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون الأربعمئة ألف افريقي شمالي الساكنين في فرنسا دخلاء يسرقون لهم امكنتهم ويعتبرونهم في الوقت نفسه بروليتاريـا متخلّفة تستحق الاحتقار .

كانت الحملة الانتخابية قد قامت على ملابسات ومزايدات ؛ وكانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« الجبهة الجمهورية » تَعِدُ بالسلام فيما هي ترفض فكرة « التخلّي » ومن غير ان تتلفظ بكلمة « الاستقلال » التي لم تكن شعبية قط ، حتى اننا كنّا في « التان مودرن » نتجنّب ذكرها بالرغم من اننا كنا نريدها ونعتقد انها لا مفرّ منها . ترى ، لو لم يستسلم موليه ، أكان نجح في المفاوضة ؟ إن ما هو مؤكد أن كل مقاومة للحرب كانت قد انتهت في آخر حزيران . ولم تقدّر البلاد ما سوف تكلّفها الحرب ، وكانت مقتنعة بأن « خسارة الجزائر » ستفقرها ، فاذا هي تسقط في الشوفينية والعرقية ، ممتلئة الفم بالشعارات : الأمبراطورية الفرنسية ، المقاطعات الفرنسية ، التخلّي ، البيع ، العظمة ، الشرف ، الكرامة ، وكان الجميع يرددونها : العمال وأصحاب العمل ، الفلاحون والبورجوازيون ، المدنيون والعسكريون . ولئن فقد « بوجاد » كل أهمية ، فلأن الجميع في فرنسا قد اصبحوا بوجاديين . وكانت فرق من الشبيبة تُرسل الى الجبال ، فتتعزّى بأن تلعب على حساب «العرب» لعبة الرجولة [1] . واذذاك ، كان بامكان المرء ان يراقب ، ولمدة أعوام ، الظاهرة التي يسمّيها سارتر « الارتجاع » [2] ، اذ كان كل واحد يجد في سلوك الآخر اسباب موقفه الذي يخدم كسبب للآخر ايضاً . وحين أعدم موليه أسيرين يوم ٢٠ حزيران ، وثالثاً يوم ٥ تموز ، وهذا ما سبّب اضراباً عاماً لدى مسلمي الجزائر ، لم يتحرك أحد في فرنسا .

وكنّا قد احتقرنا أولاً بعض الرجال وبعض العصابات : ولكنا جعلنا نكتشف رويداً رويداً ضلوع جميع مواطنينا ، ونحسّ في وطننا ، بنفينا . لم نكن الا عدداً صغيراً جداً مؤتلفاً ومتفاهماً . وكانوا يتهموننا بأننا نحطّ من معنويات الأمة ، ويعاملوننا على اننا انهزاميون ، وكان ابي يقول وهو يمرّ قرب مقهى « لاروتوند » : « إن هؤلاء الأشخاص انهزاميون » — وعلى

(١) كان في الجزائر في شهر آذار ١٩٠ الف رجل ، فأصبحوا في أول حزيران ٣٧٣ الفاً ، ثم ما لبثوا ان زادوا الى نصف مليون .

(٢) نقد العقل الديالكتي

اننا مناهضون لفرنسا . ولكن لماذا ترانا سنكنّ انا وسارتر ـ اذا لم نذكر سوانا ـ غضباً مناهضاً لفرنسا ؟ طفولة وشباب ولغة وثقافة ومصالح ـ كل ذلك كان يشدّنا الى فرنسا . ولم نكن فيها مجهوليْن او مغموطيْ الحقّ ، ولا جائعين ، ولا مضطهديْن بأي شكل . وحين كان يتفق لنا ان نجدنا على وفاق مع سياستها ومع انفعالاتها ، فقد كان ذلك التفاهم يسعدنا . ولم يكن في عزلتنا الحزينة العاجزة ما يثير الحسد . لقد فرضت نفسها علينا لأن بعض الحقائق كانت تسكننا .

كان جيش التحرير الوطني يعدّ الآن ٣٠ ألف رجل مزوّدين ، لا ببنادق الصيد ، بل ببنادق حربية وأسلحة اوتوماتيكية ؛ وقد كانوا يشرفون ، باعتراف لاكوست نفسه ، على ثلث الجزائر ، وهذا يعني ان الشعب كان يواليهم . وكان فرحات عباس قد التحق بجبهة التحرير الوطني . كانت المعركة ، من الجموع حتى قادتها ، تُستقطب ، وكانت الوحدة تُصنع في النضال . ولسوف تربح الجزائر . وكنا نعتبر تطويل أمد الحرب « سخيفاً ووحشياً » كما كان يعتقد موليه ، لأنّ هذا التطويل كان يسوق الى الموت والعذاب مئات الألوف من الجزائريين ؛ وكان يضحّي في فرنسا بألوف الشبّان ، ويتطلب مخادعة نظامية للرأي العام ، وخنق الحريات ، وافساد الايديولوجيات وحطّ بلد مليء بالأكاذيب الى حدّ انه فقد حسّ الحقيقة ذاتها واستُبعد وأُبعد عن السياسة ، فأصبح سلبياً ، ناضجاً لجميع السلبيات ولأول دكتاتورية تستولي عليه .

وكنّا نرفض ان نغضب تجاه مناهج الصراع التي كانت جبهة التحرير الوطني تتبعها ؛ وكان جانب فرقة المظلاّت يردّد : « إن الحرب لا تُعلن على اطفال الكورس » . ومع ذلك ، فقد كانوا يصفون بالقتل الاجرامي أن يلجأ المناضلون الجزائريون في فرنسا الى تصفية الخونة . ففي الوقت الذي كان فيه الفرنسي حين يَذبح ، وينتهِك الأعراض ويُعذِّب ، انما كان يثبت رجولته ، فان الارهابي الجزائري كان يكشف عن « البربرية الاسلامية » القديمة . والحقيقة ان جبهة التحرير الوطني لم يكن لها الخيار : كانت تقاتل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالوسائل التي تملكها . على اننا لم نكن ، بين اولئك الذين كانوا يعترفون بشرعية مقاصدها وأهدافها ، إلاّ حفنةً صغيرة ترفض مقابلة الارهاب بالقمع . لقد كان معظم الذين يفضحون ألوان التعذيب والتطهير ، يبدأون بالتصريح ، بدافع من الحيطة ، ولكن بصدق فاضل: « نحن بالطبع نعلم ان في الجانب الآخر تجاوزات مروعة . » أية تجاوزات ؟ إن الكلمة لم تكن تناسب اياً من المعسكرين . ولم يسبق لكامو ان لفظ عبارات أجوف من تلك التي لفظها حين طالب بـ : الشفقة للمدنيين . لقد كانت القضية قضية صراع بين جماعتين مدنيتين ؛ إن أعداء المستعمَرين هم اولاً المعمّرون ، وبالتالي الجيش الذي كان يدافع عنهم ؛ ولم يكن بوسع هذا الجيش ان ينتصر إلاّ بازالة السكّان الذين كانت قوة جيش التحرير الوطني تكمن فيهم ؛ وهذه الضرورة نفسها هي التي كانت تدين عملها ، بدلاً من أن تبرّره . إن ذبح شعب بائس على يد أمّة غنية (حتى ولو تمّ بلا حقد ، كما يؤكّد احد المظليين الشبّان [١]) يثير الاشمئزاز . ولقد كانت معتقداتنا قائمة على الحسّ السليم : ومع ذلك ، فقد كانت تفصلنا عن مجموع البلاد ، وكانت تعزلنا في قلب اليسار نفسه .

* * *

كان كتاب « الثورة والأصنام » لهرفيه المحاولة الأولى التي يقوم بها منذ موت ستالين ، مفكر شيوعي فرنسي ، لنقد اديولوجية الحزب الرسمية : ولكن الكتاب كان للأسف هزيلاً ومضطرباً . وقد هوجم هرفيه مهاجمة عنيفة من قبل ارثوذكسيي الحزب ، وخاصة غي بيس ، قبل ان يُفصل من الحزب . اما سارتر ، فقد طرح هرفيه وبيس ظهراً لظهر ، وكان يوكد في « التان مودرن » أهمية فكر ماركس في نظره : « إن الرجال الذين في سنّي يعرفون هذا جيداً : إن قضية حياتهم الكبرى كانت ، اكثر مما هي قضية الحربين العالميتين ، مقابلةً دائمة بين طبقة العمال وايديولوجيتها تعطيهم رؤية لا يمكن

---

(١) بيرو : « المظليون » . في أي شيء تنقص فظاعة وحشية ما اذا تمت بلا حقد ؟ إنني أعتقد انها بذلك اشد فظاعة .

ردّها للعالم ولأنفسهم .. ان الماركسية ليست في نظرنا فلسفة وحسب : انها بيئة أفكارنا والوسط الذي به تتغذّى ؛ انها الحركة الحقيقية لما يسميه هيغل « الروح الموضوعية » . ولكنه كان يشكو من ان الماركسية قد اوقفت ؛ وقد هاجمه في « الاوبسرفاتور » نافيل الذي كان يعتقد انه قد دفع الماركسية قُدُماً ، فردّ عليه سارتر . وترك الشيوعيون مقال سارتر يمرّ من غير أن يكون لهم ردّ فعل كبير . وقد كتب سارتر افتتاحية في « التان مودرن » أخذ عليهم فيها اشتراكهم في التصويت على منح السلطات الخاصّة ؛ ولكننا ظللنا حلفاءهم .

وابتداء من شباط ، اعتقدنا بأن وجه العالم السوفياتي سيتغيّر : ذلك ان خروتشوف كان يؤكد في المؤتمر العشرين أن الحرب ليست قابلة للتجنّب ، وان بالامكان ان يكون هناك تلاشٍ سلميّ للاستعمار وانتصار لطبقة العمّال من غير صراع مسلّح ؛ وتحدث عن حقّ بلد في ان يحدّد طريقه الخاص الى الاشتراكية . ولكن الدهشة تجاوزت الأمل حين رَشح تقريره الذي صدر بتاريخ ٢٥ شباط : ذلك ان فظاظة هذه المطالعة ، وفجائيتها وجانبها الحكائي كانت تثير الحيرة . لم يكن يكفي تحطيم ستالين : بل كان ينبغي تحطيم النظام الذي جعله طغيانه « وجرائمه الدامة » ممكناً . وكانت اسئلة مزعجة تظلّ معلّقة في الهواء : أليست الديكتاتورية البوليسية موشكة على ان تولد من جديد لصالح فريق آخر ؟ إن الذين يفضحون اليوم « عبادة الشخصية » كانوا قد عملوا مع ستالين : فلماذا لم يسبق لهم ان قالوا شيئاً ؟ ما هو حظّهم في المشاركة والضلوع ؟ واية حظوة ينبغي أن يُعطَوا ؟

لم يشرح أحدٌ حتّى الآن ، لا في الاتحاد السوفياتي ولا في اي بلد آخر ، العهد الستاليني شرحاً وافياً مرضياً . وبالمقابل ، فان اسباب تقرير خروتشوف ومغزاه تبين بسرعة . لقد كانت مناورة سابقة التصميم . كان قد اراد ان يثبت ان التغيرات التي حدثت منذ ثلاثة أعوام لم تُضَفْ بطريق الاتفاق ، وإنما كانت تشكل نوعاً من الثورة ، منسجمة ولا يمكن ردّها ؛ وقد آثر ان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقوم بعمل على ان يقوم ببرهان مجرّد ؛ إنه بادانته ستالين قد خلق انفصاماً نهائياً بين الماضي والحاضر؛ ولا بدّ للبيروقراطيين الستالينيين بعد الآن من ان يتخلّوا عن عاداتهم وينحنوا للأوامر الجديدة ، وإلاّ ظهروا معارضين بلا ادنى التباس .

واثبتت إعادة الاعتبار لراجك ، يوم ٢٩ آذار ، ان ازالة آثار ستالين كانت تقوم في الديمقراطيات الشعبية . وكان بالامكان التأميل بأن تُدرك الاحزاب الشقيقة : ولكن الحزب الشيوعي الفرنسي قاوم. ونشرت « الاومانيته » في اواخر آذار مقالاً للبرافدا ضد ستالين ؛ ولكن توريز وستيل وكورتراد وبيو وورمسر جهدوا في تعليقاتهم على المؤتمر العشرين في ان يتعبوا الخصم ... ولم تُعمل الا ايماءات الى « التقرير المنسوب لخروتشوف » ولم يذكره المؤتمر الرابع عشر الذي عُقد في « الهافر » بكلمة . وهكذا لم يصبح الحزب ديمقراطياً.

على ان ازالة آثار ستالين في هنغاريا وبولونيا –كما في المانيا الشرقية بعد عام ٥٣ – كانت تنقلب الى الثورة على القادة الستالينيين . ففي بودابست انتصب نادي « بيتويفي » الذي كان العهد يشجّع اجتماعاته ، ضد هـذا الحكم : وقد تحدّثت فيه السيدة راجك يوم ٩ حزيران . ويوم ٢٧ حزيران اجتمع بضعة آلاف من المثقفين ليعيدوا الاعتبار الى مئات من الصحفيين أُدينوا بأنهم « بورجوازيون » . وهاجم تيبور ديري وتيبور ميراي القادة . وطولب باطلاق الحرية للصحافة والأنباء ، وبدأت الصيحات : « يسقط العهد ! وليعش ايمر ناجي ! » .

وفي اليوم التالي أضرب الآلاف من عمّال المعادن في « بوزنان » وأخذوا يصيحون : « نريد خبزاً ! ليسقط المتسلّطون ! » وقد كانوا يحتجّون مباشرة على نقص الغذاء ، وبصورة عامة ضد عهد كان يخنق حرياتهم من غير ان يؤمّن لهم مستوى من الحياة لائقاً. وأطلقت الشرطة النار، فسقط رسمياً ثمانية واربعون عاملاً قتيلاً . وشرح الحزب الشيوعي الفرنسي الاضطراب بأنه ناتج عن « استفزازات » قام بها عملاء أجانب . وفضح كورتاد « التمرّد

البولوني » . على أن الحكومة البولونية والصحافة الرسمية ما لبثت بعد ايام ان اعترفت بأن مطالب العمّال كانت مشروعة .

* * *

بعد ان تسلمت جائزة غونكور ، اشتريت شقة لي ، وتسلّيت مع لانزمان في تأثيثها ، ولدى عودتي من الصين ، أقمنا فيها . انني احب كثيراً هذا الطابق الأرضي ذا السقف العالي ، المليء بالنور والألوان وذكريات السفر ؛ كان يُرى عبر الفتحة الزجاجية فيه جدار مغطى باللبلاب وسماء واسعة ؛ ومن الطابق الأول الذي يُؤدي اليه سلّم داخلي ، كان المرء يشرف على مقبرة مونبارناس ، وبيوتها الواطئة ، وشوارعها الخالية ؛ وهنا وهناك ، كانت حمرة باقة تنفجر بين الحجارة . وربما بسبب هذا الجوار ، ولكن خصوصاً بسبب ميل الى النهائي ، فكرت حين اضطجعت للمرة الأولى في غرفتي الجديدة « هوذا سرير موتي » وردّدت ذلك اكثر من مرة . لا ريب في أني سأنهي ايامي في هذه الشقة ، وهنا ، حتى ولو لفظت آخر انفاسي في مكان آخر ، سيصفّي أقربائي موتي : ستُفرز اوراقي ، وستُرمى بعض الأشياء التي تخصّني او توزّع أو تُباع . وسيظل هذا الديكور بعض الوقت بعد موتي ؛ وحين انظر اليه ، ينقبض قلبي ، كما لو أني أكتشفت فيه غيبة صديقة عزيزة لن تعود .

ولكني إذ ارتفق النافذة في الطابق الأول ، أجهل المستقبل وتتملكني اللحظة . وغالباً ما اتفرّج على الشمس وهي تغرب ؛ ويأتي الليل ؛ وتحت أوراق شجر شارع فروادوفو يحمرّ سيكار مقهى واشارات ضوئية لملتقى الطرق ، في حين يكنس برج ايفل بذراعيه الناريتين باريس . وفي الشتاء ، تضيء في الصباح الباكر الذي لم تكد تغادره الظلمة ، قباب زجاجية ، صُفر وبرتقالية وحمر . ولكني انما يلذّني في الصيف خاصة ، حوالي الخامسة صباحاً ، ان أتنفّس ، بين اغفاءتين ، النهارَ البازغ ؛ اذذاك تكوت حرارة ثقيلة قد بدأت تنتشر في السماء المزرقة الرمادية ؛ ومن الأشجار التي تغزر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فوق القبور ومن اللبلاب الذي يغطّي الجدار تنبعث رائحة خضراء كثيفة يمتزج فيها عطر الزيزفون الذي يُزهر في حديقة قريبة بزقزقات العصافير ؛ انني آنذاك في العاشرة ، وانا في ملعب مارينياك ؛ وانا في الثلاثين ، أهمّ بالذهاب مشياً على الاقدام عبر الريف . لا : ولكني على الأقل أُعطى هذا العطر وتلك الزقزقة وهذا الأمل الغامض .

ومنذ عودتي ، تأكّد عزمي على الكتابة عن الصين . لقد كنت أعرف ، وما زلت أعرف ان الغربيين الذين أصابوا غذاء كافياً هم غير قادرين ان يخرجوا لحظة واحدة من جلدهم . ومع ذلك ، فقد شُدهت بالجهل الذي ينزل بهم . كان اعداء الشيوعية يلتفتون بضراوة نحو الصين ، بعد ان أفحمهم تطوّر الاتحاد السوفياتي . كانوا يرثون للصينيين انهم يرتدون جميعاً لباساً واحداً أزرق [1] ويهملون التذكير بأن ثلاثة ارباعهم كانوا من قبل يمشون عُراة . وهذه التجاوزات من سوء القصد كانت تحرّضني . ثم انني كنت أتذكّر العهد الذي أخذته على نفسي في هلسنكي : انني اذ أكذّب دعاية هونغ ــ كونغ ، اقدّم بعض الخدمة . ولم يكن يسوؤني ان تكون المهمة قاسية . وقد تطلّبت مني جهداً كبيراً . فمن أجل استكمال معلوماتي ، قصدت المكتبات ومراكز الاستعلام لأراجع دراسات ومقالات وكتباً وتقارير واحصائيات مخصصة للصين في الأمس واليوم ، من غير ان أهمل مآخذ الخصوم . وسألت اخصائيين في شؤون الصين ، فقدموا لي المساعدة . وكان تجميع الوثائق هذا يأخذ مني وقتاً ، وكنت أحتاج الى وقت كبير لأهضم معلوماتي واخرجها في شكل مركّب . وقد ندر ان قدّمت مؤلّفاً على مثل هذا الجهد الموصول في ذلك العام . وكان يتفق لي ان أبقى أربع ساعات أمام طاولتي ، في منزلي صباحاً ، أو في منزل سارتر بعد الظهر ، من غير ان أرفع رأسي . وقد قلق مراراً وهو يراني وقد أصبحت محمرّة الوجه : كنت أحسّني على حافة الاحتقان ، فأرتمي بضع لحظات على ديوانه .

---

(١) وهذا في الحق غير صحيح الا في الصين الشمالية حيث أصبحت هذه الرتابة تقليدية .

وحين ظهر « المسيرة الطويلة » ، هاجمني طبعاً مناهضو الشيوعية ؛ وحين تُرجم الكتاب في الولايات المتحدة ، أثار صيحة غضب واحتجاج . وفي جوقة ، صاح الاميركيون الذين كانوا يبتلعون ما يقدمه لهم آلان دالاس في « سلطة » يقولون : اية سذاجة ! ومع ذلك ، فبعد ستة أعوام ، أكّد ما قلته إخصائيون ليس واحد منهم مشتبهاً بأنه شيوعي ، وهم رينه دومون ، وجوزيه دوكاسترو ، وتيبور ماند . إن الصين هو البلد الأكبر المتخلّف الذي انتصر وحده على الجوع ؛ وإذا قورن بالهند والبرازيل الخ .. فان هذا النصر يبدو أعجوبة .

وقد افدت شخصياً ، من هذه الدراسة ، فائدة كبيرة . لقد اكتشفت ، وأنا أقارن حضارتي بحضارة اخرى مختلفة كل الاختلاف ، تفرّد الملامح التي كانت قد بدت لي مشتركة ؛ إن كلمات بسيطة كفلاح وحقل ، وقرية ومدينة واسرة لم يكن لها المعنى نفسه في أوروبا وفي الصين ؛ وقد انتعشت ، من جرّاء ذلك ، روئيتي لمحيطي الخاصّ ، وقرأت في تلك الفترة بالذات « المدارات الحزينة » لليفي ستراوس التي كان احدى ميزاتها ، بين ميزات كثيرة اخرى ، انها اتاحت لي ان أكتشف من جديد وجه الأرض ، لا بفضل اتساع تدقيقاته وانما بفضل المنظور الذي كان يواجه منه الأمور : وهو المنظور الذي حاولت ان أتبنّاه لأصور بكين والأماكن الأخرى التي زرتها . وبصورة إجمالية ، كانت هذه الرحلة قد كنست جميع معاييري السابقة . فحتّى ذلك الحين ، بالرغم من مطالعاتي ومن بعض نظرات فروسية الى المكسيك وافريقيا ، كان ازدهار اوروبا والولايات المتحدة هو ما اعتبرته القانون ، باعتبار ان « العالم الثالث » لم يكن موجوداً في الافق الا بغموض . ولكن الجموع الصينية افقدت في نظري توازن الكرة الأرضية ؛ وأصبح الشرق الأقصى والهند وافريقيا وبوسها هو حقيقة العالم ، وأصبح بذخنا الغربي امتيازاً ضيقاً .

ولم يكن بوسع « المسيرة الطويلة » ان يكون كتاباً في مثل حيوية « اميركا يوماً فيوماً » ، فان بعض مقاطعه قد أصبحت بالية . ولكني لست آسفة على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجهد الذي كلّفني إيّاه : فلقد اكتسبت وانا اكتبه رموزاً ومفاتيح افادتني في فهم البلاد المتخلّفة الأخرى .

وكان سارتر ايضاً يعمل كثيراً . وكان أصدر قبل ذلك بعامين القسم الثالث من دراسته عن « الشيوعيون والسلام » الذي كان قد عدل عملياً عن إنجازه : فإن الظروف التي كانت قد دعت الى تأليفه قد بَعُدت ؛ وكانت صلته بالشيوعيين قد تغيّرت منذ عام ٥٢ . وكانت مطالعاته وأفكاره تتجه وفق منظورات جديدة . كان يبحث ، وقد اعتنق الديالكتية ، ان يضع لها اساساً ، انطلاقاً من الوجودية . ومن جهة اخرى ، كان غارودي قد عرض عليه ان يقارن جدوى المناهج الماركسية والوجودية على نقطة معينة ؛ وكانا قد اختارا ان يشرحا ، كلّ بطريقته ، فلوبير وانتاجه . وكتب سارتر دراسة طويلة معمّقة ، ولكنّ شكلها كان أشدّ إهمالاً من ان يواجه نشرها . وكان يتابع كذلك سيرته الذاتية ، باحثاً عبر طفولته عن الاسباب التي كانت قد دعته للكتابة . وكان يؤلّف أخيراً ، اقتباساً من مسرحية ميللر ، سيناريو عن « ساحرات سالم » كان المفروض برولو ان يخرجه على الشاشة .

* * *

في ذلك العام ، كانت أوقات فراغي قليلة . على اني كنت امنح نفسي ، بين الفينة والفينة ، مأذونيات . وقد أقمت في كانون الثاني مع لانزمان فترة من الزمن في رأس مدينة « شيدك » الصغيرة . وكان في الصباح الأول لا يكاد يقف على زلاّجتيه ؛ اما انا ، فلم اكن قد انتعلت زلاّجتي منذ ستة أعوام ، وإذ استعدت صرير الثلج اللذيذ تحت قدميّ ، خُيّل إليّ اني سجلت انتصاراً على الزمن . وأخذنا دروساً في التزلج وحققنا تقدّماً كان سريعاً بالنسبة له وبطيئاً بالنسبة لي ؛ ولكني كنت ارتعش لذة في الصباح حين كان البرد ، تحت الشمس البازغة ، يقرص وجهي . وكنا نهبط الى « غريندنوالد » ؛ وكانت مركبة هوائية ترفعنا فوق هوّات مزروعة بالصنوبر الاسود والأبيض ، حتى قمة « الفيرست » ، وكانت اسناننا تصطك برداً في جو تبلغ حرارته

عشرين تحت الصفر ، بالرغم من المعاطف المشمعة الصفيقة التي كان الموظف قد ألقاها على اكتافنا ؛ وفي الأعالي ، وجدنا الشمس وبانوراما باهرة : الايجر ، والجانغفمرو . وما لبثنا ان مزجنا نزهات طويلة ، كنا نقطعها ببعض المحطّات على سطائح الشاليهات ـ المطاعم التي كانت رائحة الخشب المبتلّ تصعد منها، مع رائحة الشحم وقشر البرتقال. وفي المساء ، حين تكفّ قطارات النقل عن العمل ، كان الصمت والوحدة يسربلان الفندق ؛ وكنا نضطجع على سريرينا ونأخذ في القراءة . وقد كانت « مملكة هذا العالم » لأليجو كاربانتييه عن ثورة هايتي رواية رائعة ، ولكنها أقلّ من قصة جيمس التاريخية « اليعقوبيون السود » ، وكان كاربنتييه في روايته « قسمة المياه » بالرغم من انه قد بالغ في اساطير الحياة الأولية والجنسية ، ينقلني عبر غابة عذراء في أجمل رحلة أخذني فيها كتاب .

وفي الربيع ذهبنا بالسيارة الى لندن التي كان كلانا يحبّها ، بالرغم من جفاف امسياتها ؛ وذهبنا بالطائرة الى ميلانو حيث كانت اختي تعرض آخر لوحاتها ؛ وقد دار سائق الطائرة ، مدة ربع ساعة ، في صباح مشرق ، فوق « سرفان » و « مونروج » وكان يبدو غير عادل ان نرى بلا جهد المنظر العظيم الذي كان متسلّقو الجبال يجازفون بحياتهم ليبلغوه . وقمنا بدورة في « بريتاني » : قمة « الراز » و « موربيهان » و « كيبورون » . وفي الطريق استوقفنا رجل ، فأقللناه في سيارتنا ، واخذ يتحدث بصوت متقطع يائس : كان خارجاً من السجن حيث اعتقل بتهمة التشرّد ؛ وكان يبحث عن عمل ، ولم يكن ثمة من يعطيه إياه لأنه كان خارجاً من السجن ، وهو سوف يقبض عليه من جديد ويودع السجن بتهمة التشرّد . ومررنا امام دركيين ، فقال : « لو كنت اسير على قدميّ ، لقبضا عليّ » وروى لنا جانباً من حياته : إن له أهلاً بؤساء ، ولم يكن قد تعلّم القراءة ، ولم تكن له مهنة . وقد أشار إلى الأعمدة الكهربائية ، على طرف الطريق وقال : « سأصعد ذات يوم الى أحدها ، فألمس السلك : وسيكونون مجبرين على الاهتمام بي »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونحن نقرأ غالباً في الصحف ان متشرّداً قد صعد أحد الأعمدة الكهربائية وصعق نفسه بالتيار ؛ وقد فهمت ذلك اليوم ماذا كان يعني انتحار كهذا : انه يعني تخلّياً يبلغ من العمق بحيث ان المرء لا يستطيع حمل الناس على الاعتراف بأنه انسان الا حين يتحول الى جثة . ولا يتردّد المتشرد في اختيار وسيلته : فالأعمدة الكهربائية هي أفقه وهوَسه .

تناولت الغداء بصحبة الين وريتشارد رايت مع ناشري الاميركي . وقد كان مسروراً بترجمة « المثقفون » ولكنه اعتذر لاضطراره الى حذف بعض الاسطر هنا وهناك ، واوضح لي يقول : « ان بوسع المرء عندنا ان يتحدث عن الجنسية في كتاب ، اما عن الدعارة ، فلا . » وقد أصاب الكتاب نجاحاً كبيراً في الولايات المتحدة الاميركية .

وزرت معرض نيقولا دوستايل الذي كان قد انتحر منذ عام لأسباب خاصة ، ولكن كذلك ، كما يبدو ، لأنّ ضربة ريشة لن تهدم القَدَر ؛ كان قد أوغل اكثر مما ينبغي في معظم الأبواب المسدودة لرسم اليوم . وشاهدت في « قصر الرياضة » السيرك الروسي وبوبوف ؛ كانت النزعة الانسانية الاشتراكية تفرض عليه احترام جنسه ، ومن الصعب على ممثل هزلي ان يضحك الناس على جنسهم من غير ان يهزّيء هذا الجنس – بالرغم من ان شارلي شابلن قد نجح في ذلك – وحضرت العرض الأول لـ « سوليداد » : وكنت ارى ان صديقتي كوليت اودري المؤلفة وصديقتي ايفلين الممثلة ، كانتا تملكان موهبة كبيرة . وقدمت فرقة « بوشوم » على مسرح « ساره برنار » تمثيلية « الشيطان والرحمن » ؛ وكان « مسمر » يمثل أفضل من « براسور » القسم الثاني خيراً من القسم الأول ؛ ولكن الممثلين الباقين كانوا دون المتوسط ، وكان الاخراج تعبيرياً ، والاقتطاع يتجاوز حدوده ، مما أفسد المسرحية حقاً . ومع ذلك ، فقد كانت الصحافة أكرم في المديح مما كانت يوم قُدّم العرض الأول للمسرحية على مسرح انطوان . واعتقد ان النقّاد يعكسون سنوبيسم قاعة لم تكن تفهم الألمانية وقد تحمّست بمقدار ما أُعفيت من فهمها .

وحضرت عرضاً خاصاً لفيلم « ليل الضباب » . ولدى الخروج ، عرض عليّ «جيجر » ، الذي كنت قد عرفته قليلاً في مقهى الفلور ، وكان يدير شركة سينمائية ، ان أعلّق على فيلم وثائقي أخرجة « مينيجوس » في الصين ؛ وقد كان الفيلم متحلّل الاوصال ، تفسده هنا وهناك تشويهات وألوان من الغش ، ولكن كان فيه سلسلة مدهشة من المشاهد : بناء سكة حديدية ، عبر جبال وعرة ، فوق « يانغ – تشه – كيانغ » ؛ وكان استعمال جرّافة حملت قطعها المتفرقة عدة سفن ، يمتزج بألوان من التكنيك الغريب كنت قد رأيت نماذج منه . وقبلت ان اكتب نصاً ، وقصدت الاستديو بضع مرات وانا ارى المشاهد بضع مرات ، فأدركت ان المهمة كانت صعبة ؛ كان على الجمل أن تنطوي لإيقاع الصور ، من غير ان تسبقها او تتخلّف عنها ؛ ولحرص مينيجوس وجيجر على ان يدركا اكبر عدد من الجمهور ، منعاني من اية اشارة سياسية ؛ وكان الأمر قد بلغ بهما ان حذفا جميع المقاطع التي كانت تظهر فيها صورة ماوتسي – تونغ ؛ وإذن ، فقد كان محكوماً عليّ أن أؤثّت لحظات الصمت بذلك الشعر الزائف الذي يقع فيه معظم المعلّقين ؛ وكنت أكره ذلك . ثم إن الصور كانت تصف قساوات العمل الناجز وأخطاره : وكان دوري ان امجّد البطولة في ذلك – ولم أحبّ أن أتحمّس تحت الطلب . ودفعتني وساوسي الأدبية والاخلاقية الى جفاف كان مبالغاً فيه بلا ريب . وغيّر المنتج والمخرج نصّي بأن أضافا اليه عبارات زاهرة : ولم أشأ أبداً ان اذهب لسماعه .

وفي حزيران ، ظهرت « السقوط » لكامو . وكنت آخذ عليه المقالات التي كان يكتبها في « الاكسبريس » ؛ لقد كان في عام ٤٥ من اوائل الذين احتجّوا على اوضاع الجزائريين ؛ اما الآن فقد كان المعمّر الأوروبي يتغلّب على النزعة الانسانية عنده . على اني كنت قد تأثّرت حين علم الى اي حدّ كانت بعض الهجمات الموجّهة الى « الانسان المتمرّد » قد شقّت عليه ؛ وكنت أعرف كذلك انه كان في حياته الخاصة قد اجتاز ساعات مظلمة جداً ؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت ثقته بنفسه قد تزعزعت، وكان قد وضع نفسه بصورة مؤلمة موضع التساؤل . وقد فتحت كتابه في فضول كبير . وفي الصفحات الأولى عثرت مجدّداً على الكاتب الذي عرفته عام ٤٣ : كان ذلك صوته ، وتلك حركاته ، وهذا سحره ، صورة صحيحة لا مبالغة فيها ، كانت قسوتُها معدّلةً تعديلاً دقيقاً بتجاوزاته نفسها . لقد كان كامو يحقّق مشروعاً قديماً : ان يسدّ المسافة بين حقيقته ووجهه . ولقد وجدت البساطة التي يعرض فيها نفسه ، هو المتكلّف عادةً ، بساطة ممزّقة . وفجأة ، كان صدقه يتلاشى ، فاذا هو ينكّر اخفاقاته بقصصٍ وحكايات اصطلاحية ، واذا هو يتحوّل من تائب الى قاض ، وينزع من اعترافه كل ما هو لاذع إذ يضعه بشكل تقريري اكثر مما ينبغي في خدمة أحقاده .

* * *

ألفينا انفسنا ذات صباح ، حوالي الساعة التاسعة ، مجتمعين امام الكوبول : ميشيل وسارتر وانا ولانزمان ، وكنّا مسافرين الى اليونان . وكنت أنظر في جذلٍ غير مصدّق الى السيارات الانيقة المصفوفة عند الرصيف والتي ستدخل اثينا بعد عشرة ايام وقد علاها الغبار .

يومان من التسكّع في البندقية ، ثم ذهبنا الى بلغراد حيث التقينا مفكرين يوغسلافيين . وسألنا احدهم ، وهو شيخ ، عن اخبار أراغون بلهجة خائفة : ذلك انه كان خارجاً من السجن الذي قاده اليه تعلّقه بالستالينية ، وهو لا يكاد يجرؤ على النطق بأسماء رفاقه الفرنسيين . الاشتراكية والأدب ، والفن والالتزام هذه هي الموضوعات الكلاسيكية التي نوقشت ؛ ولكن كان لكتّاب بلغراد موضوع أخصّ ؛ لقد كان معظمهم متأثرين ، بل حتى مدموغين بطابع السريالية ، فكانوا يتساءلون كيف يدخلونه في الثقافة الشعبية ، وقال روائي بلهجة حاسمة :

ـ اما وان الاشتراكية قد تحققت الآن عندنا ، فان كل اديب حرّ بأن يكتب على هواه .

فاحتجّ الآخرون . ذلك ان البلاد كانت ، كما لم يخفوا عنّا ، فريسة صعوبات كبيرة . كانت السياسة الجماعية قد فشلت ، وكان الفلاحون قد بلغوا حدّ القتل حتّى يمنعوها .

وحين غادرنا بلغراد ، استرعى نظرنا بؤس ضواحيها وأسى قراها بمحاذاة الطرق المغبّرة المحفورة . وتوقفنا في سكوبي ، وهي مدينة بلقانية كئيبة قذرة ملآى بالفلاحين ذوي المظهر الحزين ، وبالنساء اللواتي يعتمرن غلالات سوداء كنّ يرددنها على وجوههن . وهناك ايضاً كان الكتّاب متململين ؛ فقد كانت السريالية المنتشرة في العاصمة تزعجهم . كانوا مقدونيين ، يريدون ان يكتبوا للناس عن ريفهم ؛ وكان ينبغي ان يُغنوا لغتهم التي كانت ما تزال معقّدة خشنة ، وان ينوّعوها ويكيّفوها بحيث تتمكن من التعبير عما كانوا يتمنّون قوله عن قضايا عصرهم وبلدهم ؛ أية مساعدة كان عساهم يجدونها لدى اراغون واليوار ؟ ولكن هل كان بامكانهم ان يختاروا نقطة انطلاق اخرى ؟ كان مجرد هذا السؤال يبدو وكأنه يلامس لديهم الحرام . وواصلنا طريقنا . وعند الحدود ، رأينا في دهشة ان رجال الجمرك كانوا يجبرون السوّاح القادمين من اليونان على ان يغسلوا في الأجران عجلاتهم وأقدامهم .

ولاحظنا على التوّ انهم في اليونان كانوا ينظرون الينا بلا لطافة : وحيثما كنا نقف كان ينبغي ان نسارع الى القول بأننا فرنسيون . ذلك ان القنابل كانت ، لسنة خلت ، قد انفجرت في نيقوسيا : كانت قبرص تطلب الانضمام الى اليونان . وطوال العام ، كانت الاغتيالات واعمال القمع قد ادمت الجزيرة . وفي حزيران كان الارهابيون قد شُنقوا . ولم يكن الانكليز يجهلون شعور العداوة لدى اليونانيين : وطوال الرحلة لم نلمح واحداً منهم .

ووصلنا إلى سالونيك بحدائقها المخضوضرة وقرميدها اللامع وكنائسها الملكية . وتركنا سارتر وميشيل ، فهبطنا نحو اثينا من الطرق الشاقة التي تحاذي حصون الاولمب . الأكروبول ، دلف ، اولمبيا ، ميسين ، ابيدور ، ميسترا ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ديلوس : لقد رأيتها مرة اخرى ، ما عدا سانتوران . وعرفت اماكن جديدة : رأس سونيون ، شواطيء الاوبيه ، روعة تيرانت الضخمة ، وحدة « الموريه » المحمومة حيث ما زال الآباء ، على ما قيل ، يقطعون بالفؤوس فتياتهم الضالات. وتنزهت في مالفوازي المحرّمة التي تكاد تكون مقفرة بين اسوارها المخرّبة التي تبدو وكأنها تتحدّى قراصنة . لم يكن في السماء غيمة واحدة ، ولم يكن قلبي قد صديء . ومن اثينا كنّا نهبط احياناً في المساء لنشرب قدح ويسكي عند « شي لابان » الذي كانت سطيحته تشرف على الخليج الصغير الذي كانت البخوت تغتسل فيه ، وتشقّ البحر كأنها مقدّمة سفينة ؛ وقد حملني تلألؤ المدينة ونبض النجوم بعيداً عن كل شيء وعن نفسي ، كما في السابق . وكنت أحبّ في « دلف » ذلك المقهى المكشوف ، فوق بساتين الزيتون ، حيث كان سكان المدينة يرقصون في الليل ؛ وكانت طفلة في الثالثة من عمرها تدور وتتأرجح على الانغام ، وقد شوّهت النشوة وجهها ، فبدت مجنونة تماماً . وكان البحر يبدو عند الأفق . اما الريف فكان يظهر بائساً بشكل فاجع ؛ كانت ثمة نسوة يحطمن الحصى على الطرقات ، وفلاحات يخرجن من بيوتهن ليستعطين . ومع ذلك ، فقد كان ثمة في المساء فساتين فاتحة وضحكات .

اني في باريس لا املك وقتاً كبيراً للمطالعة . اما في العُطل ، فاني دائماً ما أحمل حقيبة ملآى بالكتب . وفي ذلك الصيف ، استغرقت في قراءة « اخلاقية القرن العظيم » لبنيشو وانا متمدّدة في ظلّ غرفتينا او مستلقية على رمال الشواطيء : كما قرأت « الإله المختبيء » لغولدمان ودراسة ديزانتي عن سبينوزا — وكانت دراسات تدفع الماركسية الى الامام وهي تقيم العلاقات بين الأثر والمجتمع الصادر عنه . وقد كنت أتمنّى لو أستطيع ان اعيد النظر ، على هذا الضوء ، في ثقافتي برمّتها .

واتجهنا بالباخرة الى برنديزي ، والتقينا بسارتر في روما . وبعد بضعة ايام قضيناها معاً في نابولي وامالفي وبوستوم ، عاد لانزمان بالقطار الى باريس .

* * *

تعبنا انا وسارتر بعض الشيء من السفر والرحلات ؛ وقد كنّا نحب ايطاليا بين جميع البلدان وروما بين جميع مدنها ؛ وقد مكثنا فيها ، وكنا هناك نقضي جميع فصول الصيف ، مع رحلات قصيرة الى البندقية ونابولي وكابري ، باستثناء الصيف الذي زرنا فيه البرازيل . فحتّى حين كان قرميد روما يحترق بنار « فيراغوستو » ويذوب الزفت على الجادات المقفرة التي ينتصب فيها شرطي متوحد ، غير مجدٍ ، يعتمر خوذة بيضاء ، كنا نحس انّنا مرتاحان . إن هذه المدينة الكبيرة المتحرّكة ، المكتظة ما تزال تذكّر بالضيعة التي بناها رومولوس ؛ وقد كان كاتب فكاهي يقول : « يجب بناء المدن في القرى ، فالهواء فيها اكثر سلامة وصحة ! » وانا اذ اكون في روما أكون في الريف . لا مصانع ولا دخان ؛ والمرء لا يلتقي فيها الريف ابداً ، وإنما يلتقي في شوارعها ومساحاتها خشونة القرى وصمتها . والاسم القديم للشعب الذي تتحطم فيه تشقيقات الطبقات يناسب الأشخاص الذين يجلسون مساء على سطيحات حوانيت بائعي الخمر ، في التراستيفير ، او على الكامبو دي‌فيوري ، امام اباريق الفراسكاتي ؛ إن هناك اولاداً يلعبون ؛ واصغرهم سناً ينامون ، وقد هدّأتهم رطوبة الشارع ، على رُكبِ امهاتهم ، وتصعد أصوات ثاقبة في الهواء الذي يطفو فيه جذل خفيف . وهناك تسمع طقطقات الدراجات البخارية ، ولكن كذلك غناء جندب . صحيح أني اميل الى المدن الكثيفة التي تحاصرك من كل مكان والتي تبدو الأشجار ذاتها فيها نتاجاً بشرياً : ولكن ما أعذب ان يستنشق المرء ، من غير ان يترك اضطراب الناس ، هواء نقياً ، تحت سماء صافية ، بين جدران تحتفظ بلون الأرض الأصلية ! ثم إن روما تقدّم كذلك حظّاً أندر : إن المرء يتذوّق فيها غليان الساعة وسلام العصور ! إن هناك طرقاً عديدة للموت : ان تسقط المدينة غباراً ، كما حدث لبيزنطة ، او أن تتحجّر كما حدث للبندقية ؛ او نصف لهذا ونصف لذاك : قطع أثرية بين رماد . إن روما مستمرة ، وماضيها حيّ : فهناك اناس يسكنون مسرح مرسيليوس ، وساحة نافونا هي ستاد ، والفوروم حديقة . وبين القبور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وشجر الصنوبر ما تزال طريق آبيا تفضي الى بومبي. ثم إن الناس لم يفرغوا بعدُ من اكتشافها ؛ فمن أعماق العصور ، يبرز شيء ما جديد في نضارة كل لحظة : شيء ما عذبٌ دائماً في عينيّ. إن روما الكلاسيكية والغريبة ، العجيبة بهدوء ، تجمع الحنان الى الصرامة ؛ ليس فيها اي تصنّع ولا استرخاء ، ولكن كذلك لا جفاء فيها ولا قسوة.

وايّ لامبالاة ! إن الساحات غير منظمة ، والبيوت مبنيّة بصورة مائلة. إن برجاً رومانياً ضخماً يجاور برج اجراس صغيرة بشكل قطعة حلوى للأعراس ، ومن هذا التنافر في الهوى يولد انسجام ؛ اما الساحات الضخمة فهي لتحدّبها الرقيق ولاتساعها العذب تُفلت من الطابع الاحتفالي ؛ وخطوط الأبنية – هنا كورنيش وهنا ضلع جدار – تميل وتستدير ، محطّمة الجمود من غير ان تفسد التوازن. وأحياناً يفرض تناظرُ رسم ما نفسه ، ولكن قسوته يرقّقها رُخص الخطوط وحمرة الطين والصدأ الذي يغطّيه. ويأتي النور فيُرعش صُفرة الحجر الرهباني. وتنبت أعشاب بين أصابع المرمر. إن الصناعة والحقيقة تمتزجان. ويستوقف النظر صورة خشبية من القرن الثامن عشر ، بيضاء مسطحة ، وترتعش ، فتكون كنيسة ، او سلّماً ، او مسلّة. وألمح في كل مكان ديكورات مسرح تخدع عينيّ بصورة رائعة : ثم يظهر انها لا تكذب ، فالدربزونات والحجارة والسطائح والأعمدة حقيقية ؛ وذات مساء ، رأينا عبر منظورات معقّدة ، كما لو ان ذلك كان داخل علبة للأقلام اعطيت هدية وتذكاراً ، شبح شارع كانت تمشي فيه أشباح رجال صغيرة : وكان ذلك ، على مقربة منا ، شارع ورجال. روما. في كل منعطف ، وعند كل ملتقى طرق ، ولدى كل خطوة ، يستوقفني تفصيل ما : فأيّها أختار ؟ هناك بين الخضرة ، في جوف ساحة ، ساحة مظلمة ذات ميزان مزدوج ، افقي ، حادّ ومهدّد ، كقصة من قصص ادغار بو ؛ وبالقرب من الكورسو برميل الحجارة الذي يأتي العشّاق ويشربون منه ، وهنا الدلافين المؤثرة التي تتزاحم ، على ساحة البانتيون ، عند حراذين الماء ذات الحدود المنتفخة :

وجميع تلك البيوت الصغيرة ، بساحاتها وحدائقها ، المبنيّة فوق سطوح البيوت الكبيرة . روما ، بأصدافها وحلازينها وأجرانها : النور في المساء يغيّر مياه الأحواض الى باقات من اللآليء في حين ان الحجارة تهدر ، سائلة تحت تدفّق الانعكاسات المنقّشة ؛ وفي مخمل السماء الليلية ، تقتطع السقوف التي تلوّنها الشمس الغاربة شرائط من النجوم ؛ وفي الكابيتول ، أشمّ رائحة صنوبر وشربين تعطيني الرغبة بأن أكون خالدة . روما . مكان اكثر شيء عاديّ ويومي فيه هو ما ينبغي تسميته بالجمال .

كنا نشرب قهوتنا صباحاً في ساحة البانتيون بين سماسرة يعتمرون قبعات من لبّاد ويعقدون الصفقات كما لو انهم في ساحة سوق ؛ وكان بعض المهرّبين الصغار يراقبون علب السكاير الاميركية التي كانوا أخفوها في اسفل السيارات ، امام فندق سينياتو . وكنّا نعلق طويلاً على أنباء الصحف ثم نعود الى الفندق لنعمل . وحوالي الساعة الثانية كنا نذهب للتنزه على الروابي السبع والجوار . وقد قضيت ذلك العام اوقاتاً خشنة ؛ كانت غرفتي في فندق بساحة مونتسيتوريو تشرف على ساحة كان يصلحها بناءون يعتمرون قبعات مصنوعة من ورق الجرائد ؛ وكان بناء متراكب يسدّ عليّ نافذتي ؛ وكنت أعمل بجد ونشاط لأنجز كتابي عن الصين ، وكان الحر يخنقني احياناً . وفي المساء ، كان الحر ينحسر ، فكنا نتناول العشاء هنا او هناك ، في ساحة نافونا غالباً ، او ساحة سانت اينياس ، ونتشاور عن المكان الذي نشرب فيه قدحاً . وقد كنا نحب ساحة ديلبوبولو ، ولكننا كنا نلتقي في مقهى روزاتي ، وهو شبيه بمقهى الفلور بباريس ، صحفيين كانوا يطلبون منا مقابلات ، وكثيراً من المزعجين . وكنا نجلس احياناً في حانة صغيرة عند قدم الكابيتول ؛ وكان يخيّل إليّ أن المحارب البرونزي يوشك بين الفينة والفينة ان ينقضّ بحصانه ، مغادراً وسط المساحة المضاءة كأنها حلبة رقص ، ويهبط السلّم خبباً . وكان مكاننا المفضّل ساحة سانت اوستاش ، تجاه الكنيسة ، حيث يحلم رأس أيّل ؛ وحتى ساعة متأخرة من الليل كانت السيارات الفخمة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

او المتواضعة تجري ، والاسر والازواج والجماعات يأتون ليحتسوا على المشرب فناجين قهوة اشتهرت بأنها أفضل قهوة في اوروبا ؛ وغالباً ما تبقى النساء في السيارات ، تاركات الرجال يتناقشون ويضحكون فيما بينهم ؛ وكان ثمة رجلٌ ذو عاهة كبيرة يعرض على النساء دمى اطفال يبولون ، وكان يملأ الدمى بالماء كل عشر دقائق في دقّة حزينة ، من غير ان يشتري أحدٌ منه دمية واحدة . ولقد كنا نبقى هناك ، وفي امكنة كثيرة اخرى كنا نستطيع ان نرى فيها روّاد الليل في روما ، فندمن على الشراب والحديث . وكان سارتر قد اصبح اقل ثقة بالمستقبل من ذي قبل ، واشدّ قسوة على الماضي ، فكان يغرق في اليأس احياناً ؛ وكان يشكو على غرار كامو في الماضي ، ولكن في اتجاه آخر – ان يكون مستحيلاً على الكاتب ان يعطي الحقيقة . إن هناك حقائق تقال ، وهذا افضل من لا شيء ، ولكنها تُقال محطّمة ممزّقة مقطّعة بألف أمرٍ وأمر . وقد كنا في محادثاتنا نحرص على ان نذهب في قول الحقيقة الى النهاية ، وبكل وجوهها ، مستسلمين بلا تحفّظ الى مباهج التشكّك والمبالغة والتجديف ؛ كان في ذلك توضيح وتحرّر كذلك ، لعبةٌ وتطهّر .

ودعتنا الى تناول العشاء ، بشارع مارغوتا ، لجنةٌ من الكتّاب اليساريين . وأسرَّ لي الرئيس ، ريباسي ، وهو ذو شعر شديد البياض وخدّين مورّدين وعين صافية ، انه كان مندهشاً هو نفسه برشاقة قلمه : فقد كان قادراً في اسبوع ان ينتج روايتين . وكان سارتر جالساً الى جانب روائية في الثمانين من عمرها ، وهي السيدة سيبيل ، التي كانت ما تزال جميلة جداً ، وكانت قد أحدثت ضجة ، لخمسين عاماً خلت . وكان بوسعها ان تعتقد انها ما تزال شابّة لفرط ما كان الايطاليون – الذين كانت فظاظتهم محسوبة على شكل مختلف عن الفرنسيين – يغازلونها ؛ بل انهم كانوا يتّبلون مآدبهم بهوايات وغرائب لم اكن أضجر معها . وقد تسلّيت كثيراً في عشاء تناولته لدى « ألبادو سيسبيدس » ؛ وكانت صديقتها « بولا ماسيني » تجمع مثلها

الى الخبث الايطالي اللذيذ لذوعةّ نسوية ، وقد كشفتا لنا خفايا الحياة الأدبية في روما . وكان حاضراً كذلك فيسكونتي بذكائه وحيويته وحديثه اللذيذ ، وكذلك شاب تَوجّه اليه والى سارتر قائلاً في انبساط :

— انتما اللذان تعرفان عالم السينما ، قولا لي لماذا يبدو المخرجون بلهاء الى هذا الحدّ ؟

وكنا نجتمع بين فترة وفترة الى كارلو ليفي ، ومورافيا ، والرسام الشيوعي غوتوزو ، وأليكاتا . ومما يزيد في سحر روما ان وحدة اليسار فيها لم تنفصم ، منذ زيارتنا الأولى لها بعد الحرب عام ١٩٤٦ . إن ما كان سارتر قد حاول ان يفعله في فرنسا ، كان يجده هنا . لقد كان جميع المثقفين تقريباً يتعاطفون مع الشيوعيين ، وكان هؤلاء يظلّون امناء لتقاليدهم الانسانية . ولقد كان التحالف مع الحزب الشيوعي يتجلىّ في ايطاليا بمحادثات صريحة وحارّة ، في حين انه كان شديد القسوة في فرنسا ، وقد كان سارتر متأثراً جداً بهذا الجو من الصداقة . ثم إن مناهضة الشيوعية في هذا البلد لم تكن شائعة ، وكان من حظّها ألاّ تجد لها بعدُ من مستعمرات ؛ إن الأشخاص الذين يلتقي المرء بهم لم يكونوا كما كانوا عندنا مثلنا ، ضالعين في المذابح وضروب التعذيب .

وبفضل موقف الحزب الشيوعي الايطالي المتّحد ووضعه الطيّب ، كان في ايطاليا صحف يسارية جيّدة يقرأها جمهور كبير ؛ وكان من مباهجنا أن نقرأها . وقد اهتممنا بأخبار الحوادث والجرائم لأن ايطاليا تتجلى فيها . وقد هزّت حادثة « تيرازانو » الصحافة طوال ايام . انها قصة اخوين مسجونين في مأوى « رافيرسا » المظلم ، بالقرب من نابولي . وقد حصلا ذات يوم على اذن بالخروج لحسن سلوكهما ، فاشتريا بلا صعوبة رشاشين ومتفجرات واحتلاّ مدرسة تيرازانو ، مطالبيْن لقاء حياة تسعين طالباً وثلاث معلمات كانا قد اوثقاهنّ مبلغ مئتي مليون لير ، وطلبا كذلك جهازي راديو وتلفزيون وطعاماً . وقد أجيبا : فحملت شاحنةٌ المال اليهما ، ولكنهما لم يخرجا لخوفهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من ان يكون ثمة فخّ قد نصب لهما ؛ وطوال ست ساعات ، ظلاّ يهدّدان الناس والأطفال ، بينما كان رجال الشرطة والاعيان وأحد الكهنة يحاولون ان يردّوهما الى الصواب. وقتلا عاملاً صغيراً كان يحاول ان يدخل من النافذة . واخيراً استطاع رجال الشرطة ، بمساعدة احدى المعلمات التي استطاعت ان تتحرر من وثاقها ، ان يقبضوا عليهما .

وقد تابعنا في جريدتي «لونيتا» و «بيزسيرا» محاكمة بوزنان التي بدأت في ١ ايلول . وخلافاً للعادات المتبعة ، لم يهيء رجال الشرطة هذه المحاكمة . وقد كان للمتهمين محاموهم الذين دافعوا عنهم ، كما شهد شهود النفي . وصفّق الجمهور للمحامين حين وضعوا القادة موضع الاتهام . وأيّدتهم في ذلك مظاهرات واضطرابات. وكان الشعب يطالب بعودة غومولكا الى الحكم ، وكان الستالينيون قد سجنوه عام ٤٨ ثم أعيد له اعتباره . وقامت الحكومة بتنازلات هامّة ؛ وصدرت على المسجونين احكام رحيمة . وفي تشرين الأول ، طالبت الجموع بسيادة بولونيا ، وبانسحاب الجيوش السوفياتية التي كان يقودها روكوسفكي ؛ وكانت تطالب بادخال سياسة الحدّ من العمل الجماعي السريع السيء في المشاريع العمالية ، وبجعل البلاد ديمقراطية . ويوم ١٩ تشرين الأول فتح «البلينوم» الثامن ؛ فسُمّي غومولكا عضواً في اللجنة المركزية وطلب على الفور طرد القادة المشايعين للسوفيات واستدعاء روكوسوفسكي .

مفاجأة : خروتشوف ، مولوتوف ، جوكوف ، ميكويان ، كاغانوفتش ، هبطوا الى فرصوفيا ؛ وكانوا يعارضون رحيل روكوسوفسكي ؛ ومشت مصفحات روسية الى فرصوفيا : ودعا غومولكا الجيوش البولونية وسلّح العمّال . وحصلت اشتباكات ، وبدء اضطرابات. وفجأة ، سافر خرونشوف وموكبه . ما الذي حدث بالضبط ؟ على اي حال ، لقد سُمّي غومولكا سكرتيراً أول للحزب الشيوعي ، وكانت بولونيا تسلك طريق ازالة آثار الستالينية .

وفي هنغاريا ، كان راكوزي قد ترك الحكم . ويوم ٦ تشرين الأول مشى جمع غفير وراء نعش راجك . ويوم ١٤ ، أعيد ناجي الى الحزب . وقرر الطلاب ان يتظاهروا يوم ٢٣ للاحتفال بالنصر البولوني .

واية صدمة أصابتنا يوم ٢٤ تشرين الأول حين اشترينا « فرانس — سوار » من احد اكشاك ساحة «كولونا » فقرأنا بعناوين ضخمة: « ثورة في هنغاريا: الجيش السوفياتي والطيران يهاجمان الثوار » والواقع ان الطيران لم يتدخل. ولكن الحوادث ، كما أوردتها « بيزا سيرا » لم تكن اقلّ فظاعة : كان ٣٠٠ الف شخص قد تظاهروا في بودابست ، مطالبين بعودة ناجي ، وبسياسة مستقلة عن الاتحاد السوفياتي ، بل ان البعض طالب بالخروج من ميثاق فرصوفيا . وأطلقت السلطات النار على الجمهور ؛ واستُقدمت دبابات سوفياتية على عجل من بودابست ، فشاركت في اطلاق النار : وسقط على الأقل ٣٥٠ قتيلاً وألوف الجرحى . وحين تسلّم ناجي السلطة ، صباح اليوم التالي ، كان الروس والثوار يتقاتلون وكانت الجموع تقتل افراد السلطة .

في ذلك المساء ، تناولنا العشاء في الفونتانيلا مع « غوتوزو » وزوجته ؛ وقد أخذنا « شي جورج » بالقرب من شارع « فينيتو » حيث كان عازف قيثار يعزف ألحاناً رومانية قديمة . وكنا نردّد أخبار الاحداث بلا انقطاع ، وفي عصبية ، من غير أن نفهمها ؛ إن ازالة الآثار الستالينية قد افضت الى انفجار وطني ، كما في بوزنان ، ضد حكم غير شعبي ، بل ومحتَقر ، وكما حدث في بوزنان ، اطلقت الشرطة النار ؛ ولكن لماذا تدخلت الدبابات الروسية على عجل مكذّبة وعود المؤتمر العشرين ، ناهكة مبدأ عدم التدخل ، ملطّخة الاتحاد السوفياتي بجريمة سوف تُظهره للعالم كبلد استعماري ومضْطَهِد؟ كان غوتوز مصعوقاً ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتصور ان يقطع علاقاته التي لا تحصى بحزبه ؛ وكان يصارع تمزّقه بكلمات ، ويكرع كؤوس الويسكي التي كانت تُطلع الدموع في عينيه . وسارتر الذي كان مثله ملتزماً بالجهود التي قد بذلها للتفاهم مع الشيوعيين ، كان يدافع عن نفسه بالطريقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذاتها . وكنا نفكر كذلك باليسار الفرنسي الذي كان بحاجة اكثر من اي وقت آخر الى التضافر – وكنا قد سمعنا آنذاك نبأ أسر بن بللا، ذلك الأسر الأبله – والذي سيكون من شأن تلك المأساة التي لا مبرّر لها ان تمزّقه. وظهرت أنا مانياني ، فسلّتنا قليلاً عما نحن فيه ؛ وقد جلست الى طاولتنا وغنّت بصوت منخفض بعض الأغاني ، وكان عازف الغيتار يصاحبها . ثم عدنا الى ألوان قلقنا . وكانت بي رغبة ، في بعض اللحظات ، أن أقلّد دوس باسوس : « أفرغ سارتر كأس الويسكي ، وقال في اضطراب إن الاتحاد السوفياتي كان حظ الاشتراكية الأوحد ، وانه قد خان الاشتراكية . وقال غوتوزو انه لم يكن بامكاننا لا ان نقرّ التدخل ولا ان ندين الاتحاد السوفياتي . وطلب قدحاً آخر ، وطفرت الدموع إلى عينيه . » ولكنّ هذه الظاهرة كانت تتحطم على اخلاص ضيق شديد كان يراود في تلك اللحظة ذاتها ملايين من البشر .

وعلقت « بيز سيرا » و « الاونيتا » على الأحداث في كثير من التجرّد . وكان قد سبق « للاونيتا » في « تورينو » أن دافعت ذات يوم عن التدخل السوفياتي (ذلك ان هناك بعض الاختلاف بين طبعة محلية واخرى) ، فكان ان اكتسح بعض العمال قاعة التحرير محتجّين . وكان شرف الشيوعيين الايطاليين يرفع معنوياتنا قليلاً . وكان الوضع يتطوّر على ما يبدو نحو اتفاقات مماثلة للاتفاقات التي تحققت في بولونيا . وطالب ناجي بعفو عام ، وتشكلت مجالس استشارية للعمال ولجان ثورية عبر جميع البلدان ؛ ووعد ناجي ، كما حصل ، على انسحاب الفرق السوفياتية المعسكرة في بودابست . وحين تركت سارتر في ميلانو لإقامة قصيرة في بيت أختي ، كنّا قد استرددنا بعض الاطمئنان ، ولكن حديث الكاردينال منذزنتي في الاذاعة بعد خروجه من السجن ، ومطالب الثوار ، وتنازلات ناجي ، كل ذلك ايقظ القلق من من جديد : كان ناجي يعلن اعادة تشكيل الاحزاب القديمة والانتخابات الحرة ؛ وبالرغم من زيارة ميكويان وسوسلوف ، فانه كان يرفض ميثاق

فرصوفيا ويطالب لهنغاريا بالحياة ؛ وكانت مطاردة رجال السلطة مستمرة ، وكان يظهر « مهاجرون من الداخل ». كانت الاشتراكية الآن في خطر. وحاصرت الدبابات الروسية بودابست. ويوم ٣ تشرين الثاني دخل كوتلي الاشتراكي واعضاء مختلف الاحزاب في الحكومة التي لم يكن باقياً من الشيوعيين فيها الا ثلاثة : ناجي وكادار وماليستر.

وبعد ظهر اليوم التالي ، عاد لانزمان بالطائرة ليصحبني ، فغادرنا ميلانو ، وتوقفنا في « سوس » لقضاء الليل ؛ واشترينا صحفاً ، فقرأناها في مقهى حزين كنا نرتعش فيه من البرد. وكانت موسكو تتهم ناجي بأنه اختار « طريق الفاشستية » ؛ وكان الروس قد هاجموا بودابست وقصفوا معامل « سيسبل » وطوال الأمسية ، جعلنا نجترّ هذه الأنباء في ضيق. وكان ما يحدث في مصر يقلقنا كذلك. وكانت دعاية هائلة قد شُنّت في انكلترا وفرنسا طوال الصيف على عبدالناصر ، بعد تأميم قناة السويس. ويوم ٣٠ تشرين الثاني ، ارسل اليه ايدن وموليه انذاراً. وكان موليه قد دفع في وجهه الجيش الاسرائيلي الذي ربح معركة سيناء بتأييد عظيم من الطيران الفرنسي. وكان المتوقّع ، بالرغم من معارضة باقي العالم ، نزولٌ فرنسي بريطاني في مصر.

في اليوم التالي تركنا ايطاليا عن طريق رأس « مون جينيفر » ؛ وكان الثلج يلتمع كالفرحة بين سماء زرقاء ناصعة وارضٍ محمرّة ؛ كانت بودابست والقاهرة بعيدتين ؛ وكنا نتحدث عنهما ؛ ولكن روعة الجبال تحت الشمس كانت تبدو لي وحدها حقيقية. ثم دخلنا فندقاً ، فطلبنا غداء. وكان صاحب الفندق يضحك مع بعض الزبائن ، ويضرب فخذيه وهو يقول : « لقد وقعوا في الفخّ ، والتقطوا في السماء كأنهم الفراش ! » وادركت فوراً اني كنت في فرنسا : فتدحرجت في أعماق حفرة موحلة. لقد تمكّن ماكس لوجون ولاكوست حين أعطيا أمراً بمصادرة الطائرة المراكشية من تخريب خطوط التفاوض. وعلى الصعيد العالمي ، كانت فرنسا قد اختارت طريق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوحدة والعار هذا الذي لن تنحرف عنه بعد. ومن غير ان تربح شيئاً، ذلك لأن قادة جدداً في الجزائر كانوا يتناولون الراية. وكانت قد حدثت اضطرابات ضد الفرنسيين في تونس، ووقعت في مكناس مجازر للأوروبيين؛ ولكن هذه المزحة الفرنسية كانت تضحك صاحب الفندق وكثيراً غيره بالملايين. «كالفراش!» هكذا كانوا يرددون. وقد انتصر جذلهم على روعة الخريف الهادئة: فاستعدت الحرب، والحروب، وانقساماتنا، والانقسامات التي كانت تمزّق العالم.

وحين عدت الى باريس كانت البلاد مغتاظة بصورة علنية لـ «الذل الوطني» الجديد الذي كانت تعانيه. ذلك ان المظليين الفرنسيين والانكليز كانوا قد هبطوا يوم ٥ تشرين الثاني في مصر؛ ويوم ٦، افرنقعوا تحت ضغط الأمم المتحدة والولايات المتحدة وخروتشوف. وكان مواطنيّ في الواقع قد تأثّروا تأثّراً شديداً من تقنين البنزين الذي ادّت اليه محاصرة القنال.

وكان سارتر بعد عودته من ايطاليا قد وجد ثانيةً، في نفور، الصحافة الفرنسية الشيوعية. كانت جريدة «ليبراسيون» تتحدّث بصدد هنغاريا عما سمّته «بالانقلاب الفاشي»، وكان اندريه ستيل يصف عمّال بودابست بأنهم «طغمة الطبقات الساقطة» ويصفهم ايف مورو بأنهم «فرساليون». وأجرت «الاكسبريس» مقابلة مع سارتر فشجب الغزو السوفياتي بلا تحفظ؛ وقال انه يقطع صلته، على مضض، ولكن قطعاً كاملاً، مع اصدقائه السوفيات، ولا سيما مع المسؤولين عن الحزب الشيوعي الفرنسي بصورة نهائية. كان قد بذل، لمدة طويلة، جهوداً كبيرة ليصل الى تفاهم معهم وليحافظ على هذا التفاهم! ومع ذلك، فانه لم يتردّد لحظة واحدة: كان لا بدّ من فضح التدخّل الروسي باسم الاشتراكية نفسها التي كان التدخل يزعم انه يريد الدفاع عنها. ووقّعت معه ومع كتّاب آخرين بيان احتجاج على التدخل الروسي نشرته مجلة «اوبسرفاتور». وقُمعت الثورة

بعد ايام من القتال ؛ ولكن العمّال الهنغاريين كانوا يحتجّون باضراب طويل ضد هذه « العودة الى النظام » . وكانت اكاذيب « الاومانيتيه » التي كانت تصوّر قوات الأمن مقتولة كالعمال ضحايا الفاشست تغيظنا جداً . ولكننا كنا من جهة اخرى معجبين بنزعة مواطنينا الشوفينيين الرسميين : فلأن دبابات روسية قد اطلقت النار على عمال هنغاريين ، كانوا يريدون منع الحزب الشيوعي الفرنسي ، وكان بعض البيض الذين نصبوا انفسهم قضاة – والدم الجزائري يقطر منهم – ينطقون بعبارات مبنية على حق الشعوب في أن تحكم نفسها ؛ وتأييداً لذلك ، كانوا يشعلون النار في مركز الحزب الشيوعي ، ويهاجمون مبنى « الاومانيتيه » . اي حظّ وجده اليمين في احداث بودابست ! لقد عطّلت ثورة اكتوبر البولونية ثورة الاتحاد السوفياتي : فكان يُعطى تطوّراً جديداً برّمته . وحين سئل مالرو عما اذا لم يندم على خيانة « الوضع البشري » ، أجاب : بودابست . وفي ذلك العام ، ظلّ الحوار التالي يُكتب ويذاع بلا نهاية :

– والسويس ؟

– وبودابست ؟

كانوا يمنعونك من ان تشجب حادثة السويس اذا لم تكن قد صرخت بأعلى صوتك ضد الدبابات الروسية . وكان امثال تييري مولنييه منزعجين جداً ، حتى أن سارتر قد صاح ، فهنأوه ، وهم يقهقهون على براعته .

وبمقدار ما كنا نزداد اطلاعاً على الأحداث التي شُوّهت وفُسرت بطرق كثيرة ، كان معناها يبدو لنا أقلّ وضوحاً . لا ، لم يكن العمال الهنغاريون « فرساليين » ؛ ولكن اليمين قد أمّل قيام ثورة – مضادة حين كانت « اذاعة اوروبا الحرة » تشجّع الثوار . أكانت هذه الامكانية موجودة ؟ في هذه الحالة ، ما دمنا نفكر بان الاشتراكية ، حتى ولو شوّهت وتعكرت ، هي اليوم فرصة البشر الوحيدة ، فكيف ترانا نحكم على رد الفعل السوفياتي ؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد قضينا ليلة طويلة ، بين ليالٍ كثيرة ، ونحن نناقش هذا الموضوع مع « فيجتو » ؛ وكان حاضراً وزوجته وسارتر وماندتينيه ولانزمان وسفير بولونيا وصحفي بولوني من جريدة « تريبونا – لودو » كان قد شاهد الثورة . وكان قد سبق لفيجتو ان كتب كتاباً وعدداً لا يصدق من المقالات حول هذا الموضوع : وقالت لنا زوجته انه كان مرهقاً جداً حتى انها كانت مضطرة الى زرقه بأدوية منشّطة . اما الصحفي البولوني فقد كان يعتقد ان الثورة كانت في البدء تعبر عن استياء الشعب الجماعي ؛ ولم يكن يصدّق قط أن مهاجرين وفاشيستاً قد لعبوا فيها دوراً هاماً . ولكنه كان يعتقد ان الانحدار نحو اليمين ، الذي حدث من ٢٣ الى ٣١ ، كان سيؤدي الى حرب اهلية لولا التدخل الثاني ؛ فلو تحالفت هنغاريا مع الكتلة الغربية ، لحدثت اضطرابات في البلدان الدائرة في فلك الاتحاد السوفياتي سيبلغ من خطورتها أن الحرب العالمية ستقع . واما فيجتو الذي كان مناهضاً للسوفيات بصورة ضارية ، فقد كان يقرّ بأن رد الفعل ، خصوصاً في غرب البلاد ، كان قد ألهب الثورة لصالحه ؛ نعم ، كانت الحرب الأهلية تهدد بالانفجار ، ولم يكن نجاح الاشتراكية مؤكداً . وعندذاك ، كان « البولوني » يُلحّ متسائلاً : أكان يجب ان يخاطر بالتعرض لهزيمته ؟ وكان سارتر يجيب – وهي الفكرة التي وسّعها في « شبح ستالين » – بأنّ من يرفض التجربة يختار – منظوراً سياسياً معيّناً : هو منظور كتلة الحرب الباردة ، اي منظور ستاليني ؛ ان هنغاريا وجميع الاحزاب الشيوعية والاتحاد السوفياتي نفسه سيدفعون غالياً ثمن القرار الذي اتخذه الروس : وقد كان من المفضّل على هذا العنف الذي أُخذ به الشعب الهنغاري اجراء انتخابات حرة .

ومضت الصحافة الشيوعية في الأكاذيب ؛ وظلت « بسمة بودابست » لأندريه ستيل عالقة في حلق كثيرين . وكان بين مثقّفي الحزب من أعلنوا ، في قليل أو كثير من الحذر ، عدم موافقتهم . وطُرد رولان ؛ وتلقّى كلود روي ومورغان وفايان انذارات . وقد حدث في وسط مكتب « اللجنة

الوطنية للتطهير » التي كان سارتر احد اعضائها مشادة عنيفة بين اراغون ولويس دوفيلفوس الذي ترك اللجنة مع بعض المتعاطفين الآخرين ؛ اما فيركور وسارتر فقد وجدا من الافضل البقاء فيها ؛ ولكنهما كانا يجدان النص الذي جعل اراغون يطوف به لنيل التواقيع غير كافٍ إطلاقاً . وخشيت اللجنة الوطنية للتطهير شعور العداء ، فألغت حفلة البيع السنوية التي كانت تقوم بها . واهتزّت « لجنة المثقفين » بمنازعات داخلية عنيفة ؛ واراد بعض الأعضاء ، وعلى الاخص من كان منهم شيوعيين سابقين ، فرض عريضة تدين الاتحاد السوفياتي بصورة جذرية ؛ وكان هذا بمثابة طرد للشيوعيين من اللجنة . وكان آخرون يعتقدون بأن السلام في الجزائر كان يظلّ بالنسبة لنا نحن الفرنسيين الهدف الرئيسي وانه ينبغي ألاّ ننقسم : وكان هذا موقف جميع أصدقائي وقد دافع عنه لانزمان .

في هذه الاثناء لجأ ناجي الى السفارة اليوغوسلافية ، ثم اختطفه رجال الشرطة ؛ وبلغت انباء اعتقالات جديدة . ووجّه الكتّاب السوفيات للكتّاب الفرنسيين رسالة يعاتبونهم فيها على موقفهم ، ويدافعون عن موقف الاتحاد السوفياتي ، فأجابهم الموقّعون على احتجاجنا بتصريح جديد كان في مثل وضوح التصريح الأول ، ولكنه اكثر مناسبة ، وكان يترك احد الأبواب مفتوحاً : « اننا مستعدون للالتقاء بكم في البلد الذي تختارون من اجل متابعة هذا الموضوع . » وتدخّل سارتر وكلود روي وفيركور ، في « اللجنة الوطنية للتطهير » ، لصالح الصحفيين الهنغاريين المحكوم عليهم بالموت . وكان اراغون ، هذه المرة ، من رأيهم .

وأصدرت « التان مودرن » في كانون الثاني عدداً خاصاً عن هنغاريا ، كان قد أُنجز كلّياً بين المؤتمر العشرين وأحداث تشرين الأول . وشرح سارتر في « شبح ستالين » موقفه : « إن السياسة الحقيقية تحتوي في داخلها ، بحالة ضمنية ، تقييمها الأخلاقي الخاص . » ومن هذه النقطة انطلق لينتقد علاقات الاتحاد السوفياتي بالبلدان الدائرة في فلكه وليهاجم التدخّلات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الروسية . على انه كان يؤكّد ثانية انتماءه للاشتراكية ، كما كانت تتجسّد في الاتحاد السوفياتي ، بالرغم من اخطاء قادته . صحيح ان بودابست قد حملت له طعنة ، ولكنه في آخر المطاف ، قام ، في هذه المناسبة ، بتجربة السلوك الذي حدّده لنفسه : ان يختار الاتحاد السوفياتي ولا يعتمد الا على نفسه للمحافظة على وجهة نظره الخاصة .

ولم يسقط في الوحدة مرة اخرى ، ولم يُعتبر عدواً للشعب . لقد اجبرت بودابست – التي جاءت بعد المؤتمر العشرين وبعد تشرين الأول البولوني – أجبرت المثقفين الشيوعيين أن يطرحوا على أنفسهم الاسئلة . وشدّ عدد كبير منهم على « أسنانه » ولم ينبسوا بكلمة . ولكن كثيرين أحسّوا أنفسهم في شكّ حتى العظم . وقد قالت لي احدى المتعاطفات : « ريبورتاجي عن هنغاريا ! كيف استطعت ان اصورها بألوانٍ وردية الى هذا الحد ! صحيح انها كانت آنذاك في عهد ناجي » . وآخذ بعضَ المناضلين أنفسهم في صخب أنهم كانوا قد أكّدوا ذنب راجك وسلانسكي . وأيقظ آخرون حسّهم النقدي ، مثل هيلين بارملين التي رفضت ان تستسلم لما أسمته عملية « تعرية عقلية » وهي تمرين كان يجعل مناهضي الشيوعيين على غايـــة الغبطة ؛ وتشكلت بعض الفرق ، عازمة ان تبقى داخل الحزب الشيوعي ، على ألاّ تقبل منه كل شيء . وفي خريف ٥٦ انشأ بعض المناضلين من العمال الباريسيين المستائين من التصويت على منح السلطات الخاصة ، مجلة « لاتريبـــون دوديسكوسيون » ، فانضمّ اليها عدد من المثقفين . وأنشأ آخرون في كانون الأول « لايتنسيـــل » الـــتي اندمجت في نيسان بـ « لاتريبون » . ولم تكن القضية بالنسبة للمجلتين « اعادة النظر » بالماركسبة من الخارج ، بل « تغييرها » ، لأنهما بدلاً من التغلّب على التناقضات الاشتراكية ، كانتا تجدان نفسهما منخرطتين فيها . ولم يكفّ سارتر لحظة عن المطالبة بماركسية حيّة ؛ وتضاعف الحوار بينه وبين الشيوعيين المعارضين ؛ كما كانت له صلات كثيرة مـــع المثقفين البولونيين . ووُقعت في موسكو اتفاقيات بولونية سوفاتية على القاعدة

اللينينية بتساوي الحقوق ؛ وقد أُبعد الستالينيون ، وأُعيد اعتبار عدد من المناضلين ، وشُجّعت النقابات على الدفاع عن المصالح العمالية . وأدان مؤتمر الكتّاب الواقعية الاشتراكية . وكان غومولكا ، من غير ان يضعف الاشتراكية ، يحاول ان يمنح الحرية حقّها : وكان استقلال سارتر بالنسبة للحزب الشيوعي يجعل منه في اعين الكتّاب البولونيين ، مفاوضاً ممتازاً . وقد دُعينا في تشرين الثاني الى سفارة بولونيا . فالتقينا فيها جان كوت وليسوفسكي الذي طلب من سارتر مقالاً لمجلة كان يهتمّ بها . وقُدّمت مسرحيات لسارتر في فارصوفيا . وخصّصت « التان مودرن » بمساعدة كتّاب بولونيين ، عدداً خاصاً لبولونيا .

ولم تكن الجسور مقطوعة حتّى مع الشيوعيين المتعصبين ، ولا حتّى مع الاتحاد السوفياتي نفسه . كان سارتر قد قطع علاقته مع فرنسا ـ الاتحاد السوفياتي ، لا مع « اللجنة الوطنية للتطهير » ولا مع حركة السلم . وعلم ان «البغي الفاضلة » كانت ما تزال تمثّل في موسكو ؛ وقد مثّلت في تشيكوسلوفاكيا وفيما بعد في هنغاريا . وفي ربيع ٥٧ التقى مرتين باهرنبورغ ، وكانت له معه محادثة ودّيّة ، من غير ان يغيّر ايّ منهما موقفه . كان الروس أمناء لروح المؤتمر العشرين وحكماء ، فقرّروا ألاّ يتخلّوا عن المتعاطفين الذين كانوا قد رفضوا ان يهضموا حادثة بودابست ؛ وقد استقبلوا في عام ٥٧ فيركور ، احد المحتجّين . وكان ذلك تجديداً هاماً : أن يتمكّن المرء من ان يهاجم ، في ناحية معيّنة ، الاتحاد السوفياتي ، من غير ان يعتبر خائناً . وقد اتاح لنا هذا الاعتدال ان نتابع عملاً مشتركاً مع الحزب الشيوعي الفرنسي بصدد نقطة كانت تمسّنا مسّاً ملحّاً ومحرقاً : الجزائر .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثامن

لم أدع حرب الجزائر تكتسح فكري وليلي ومزاجي عن رضى ولا عن جذل. فلم يكن ثمة من هو اكثر ميلاً مني لاتباع نصيحة كامو: ان يدافع المرء بالرغم من كل شيء، عن سعادته الخاصة. كانت قد وقعت كوارث الهند الصينية ومدغشقر ورأس بون والدار البيضاء، وكنت أستطيع دائماً ان استرد الهدوء والصفاء. ولكن هذا الصفاء انهار بعد أسر بن بللا وغزو السويس: إن الحكومة معاندة في المضيّ في هذه الحرب. صحيح ان الجزائر ستحصل على استقلالها: ولكن بعد وقت طويل. وفي تلك اللحظة التي لم أكن ألمح فيها نهاية حقيقية «اشاعة السلام»، انكشفت تلك الحقيقة تماماً. ذلك ان مجنّدين تكلّموا، وتدفّقت المعلومات: محادثات، رسائل موجّهة لي، والى اصدقاء، ريبورتاجات أجنبية، تقارير سرية كانت بعض الجماعات تذيعها. لم نكن نعرف كل شيء، ولكننا كنا نعرف كثيراً، بل اكثر مما ينبغي. ومن جرّاء ذلك، انقلب وضعي الخاص في بلدي وفي العالم وفي علاقاتي بذاتي.

اني امرأة فكر، وانا أقيم وزناً للكلام وللحقيقة؛ ولقد حدث اني تعرّضت في كل يوم لهجوم الأكاذيب التي تبصقها جميع الأفواه، وتكرّرها الى مالانهاية. كان بعض الجنرالية والكولونيلية يشرحون انهم انما كانوا

يخوضون حرباً شريفة ، وحتى ثورية : إن جيشهم كان يفكر ! ولـكن المستوطنين كانوا يطالبون بالاندماج في حين ان مجرّد فكرة انتخابات المقاطعة الواحدة كانت تجعلهم يقفزون في الهواء . وكانوا يؤكدون ان الشعب كان يحبّهم باستثناء بعض المشاغبين . ومع ذلك ، فانهم في اثناء عملية التقتيل التي تبعت دفن « فورجيه » ، لم يقوموا بأي تمييز بين المسلمين « الطيبين » ، مسلميهم هم ، وسائر المسلمين : فلقد قتلوا جميع الذين كانوا يقعون في أيديهم . واما الصحافة ، فكانت قد اصبحت مشروع تزوير وتزييف . وقد أغضت عن المجازر التي سبّبها « فيشوز » و « كاستيل » [1] ، ولكنها ارسلت صراخاً عظيماً احتجاجاً على حوادث القتل التي فتحت معركة مدينة الجزائر . وأغلق المظليّون حيّ القصبة ، واوقف الارهاب : ولم يكشفوا لنا عن الوسائل التي استعملت لذلك . ولم تكن الصحف تخشى ان تصادر وتلاحق فحسب ، وانما كانت تخشى ان تسيء الى مشاعر قرّائها : فكانت تنشر ما كان هؤلاء يتمنّون سماعه .

ذلك ان البلاد كانت توافق بجذل على هذه الحرب ، شريطة أن يزيّنوها لها ويغطّوها بالمساحيق . ولم أكن لأنفعل حين كان المتطرفون يتظاهرون في جادة الشانزليزيه ؛ كانوا يطالبون بأن يمضي القتال « حتى النهاية » ، وأن يُعلّق اليسار بالمشنقة ، وكانوا يحطّمون في طريقهم زجاج وكالة السياحة التي كانت مكاتب جريدة « الاكسبريس » تقوم فوقها . لقد كانوا متطرفين . ولكن ما صعقني هو ان الشوفينية [2] قد كسبت الأغلبية العظمى من الفرنسيين ، وأن اكتشف عمق شعورهم العنصري . وكان بوست ولانزمان – اللذان كانا قد سكنا غرفتي في شارع لابوشوري – يرويان لي كيف كان رجال الشرطة يعاملون الجزائريين المقيمين في ذلك الحيّ : في كل يوم تفتيش ومصادرة

---

(١) سقط ضحية قنبلة البلاستيك التي وضعها فيشوز في حي القصبة في تموز ٥٣ قتيلا وعدد لا يحصى من الجرحى . ووضع كاستيل قنبلة اخرى يوم ٦ آب لم يكن عدد ضحاياها أقل .

(٢) التعصب الوطني المتطرف الى ابعد الحدود (ه.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واطلاق رصاص ؛ وكانوا يضربونهم ، ويقلبون عربات الباعة منهم . ولم يكن ثمة من يحتجّ على هذه المعاملة ، بل كان الذين لم يكن الجزائريون قد لامسوهم بالاصبع سعداء بأن يكونوا « محميّين » وقد زاد انشداهي وحزني حين عرفت اللذة التي كان الجنود الشبّان في جيش الاحتلال يطبّقون بها طرق اعادة السلام .

لم اكن اميل الى تعذيب نفسي ، حتّى ان اول حركة قمت بها حين وضع لانزمان بين يدي « ملفّ موللر » هي أني أبعدته عني . وانا اليوم ، في هذا الشهر الحزين من كانون الأول ١٩٦١ ، ككثيرين غيري مثلي كما افترض ، أشكو من نوع من الكزاز في المخيّلة . انني اقرأ تصريح « بودو » في محاكمة « ليندون » :

« لقد رأيت ذات مساء رجالاً زرقاً يأتون الى طاولتي : كانوا رجالاً عباقرة قادمين من دفن اربعة رجال وهم احياء ، اربعة من جيش التحرير كانت أعمارهم تتراوح بين العشرين والخامسة والستين . وكان آخرهم العجوز هو آخر من مات منهم . وقد قيل لي إنه كان شديد الخوف ... حتّى ان عرق جسمه كان يصعد بخاراً في الليل . كانوا يموتون تدريجياً تحت وطأة التراب الذي كانت الكاسحة تهيله عليهم . » وقرأت شهادة « لولييت » :

«كان هؤلاء الاسرى قد شُنقوا من أرجلهم . وقد رأيتهم في الصباح ، وفي المساء كانوا ما يزالون معلّقين . وكانت وجوههم سوداء برمّتها ، وكانوا ما يزالون احياء . واودّ ان اذكر كذلك استعمال التيار الكهربائي . وحين كان هذا التيار يبلغ أسفل البطن ، فآنذاك كان يصعد اقوى الصراخ . وكانوا يجيلون التيار ايضاً في الفم » .

اقرأ هذا وانتقل الى مقال آخر . وربما كان هذا هو أصل خفض معنويات امة من الأمم : ان الناس يعتادون .

ولكن في عام ١٩٥٧ ، كان العظم المحطّم ، والحروق في الوجه ، وعلى العضو التناسلي ، والاظافر المنتزعة ، وايلاج الأوتاد في المؤخرة ،

والصراخ ، والتشنّجات — إن ذلك كله كان يصيبني انا بالذات . كان موللر قد تحدّث بصورة علنية عن تجربته حين كان ما يزال جندياً في الجزائر ؛ وقد كلّفته هذه الجرأة حياته برصاصة جندي فرنسي آخر : وكان من الواجب ان يُقرأ وان يُعرف . ولكن كان لا بدّ لي من ان افسر نفسي . وقد كان عليّ ان أتكبّد قراءة وثائق اخرى من هذا القبيل . وكنا نتلقى كثيراً منها في « التان مودرن » فننشر وثيقة واحدة من كل عشر . وقد ظهر بعضها كذلك في مجلة « اسبري » . كانت هناك فرق برمّتها تسطووتسرق وتحرق وتنتهك الأعراض وتذبح الناس . وكان التعذيب مستعملاً كوسيلة طبيعية واساسية لانتزاع المعلومات ؛ ولم تكن المسألة عارضة ، او مسألة تجاوز معيّن ، بل كانت منهجاً يتبع : ففي هذه الحرب التي ينتصب فيها شعب برمّته ضدنا ، كان كل فردٍ مشبوهاً . ولن توقف الفظائع الا بوقف النار .

ولم يكن مواطنيّ يريدون ان يعرفوا شيئاً . ولكن الحقيقة رشحت ، ابتداء من ربيع ٥٧ ، ولو انهم استقبلوها بالحماسة التي استقبلوا بها الكشف عن وجود معسكرات العمل السوفياتية لانفجرت في وضح النهار . إن مؤامرة الصمت لم تنجح إلاّ لأن الجميع كانوا ضالعين فيها . اما اولئك الذين كانوا يتكلمون ، فلم يكونوا يُسمعون ، وكان الصياح يرتفع ليغطّي أصواتهم . واذا سمع أحدٌ بعض الشائعات ، بالرغم عنه ، فانه كان يعجّل في تناسيها . وقد علّقت جريدتا « لوموند » و « الاكسبريس » ، وهما ليستا صحيفتين سريتين ، على كتاب بيار — هنري سيمون : « التعذيب » الذي كان يقدّم للجمهور وثيقة « مولر » . وتحدثت صحافة اليسار كلها عن مجموعة « مجندون يشهدون » التي كتب عنها سارتر في « التان مودرن » مقالاً بعنوان : « انكم هائلون » ؛ وقد كان مؤلفو هذه الوثائق ، في معظمهم ، كهنةً لم يشترهم عبد الناصر طبعاً ، ولا موسكو ؛ والواقع ان احداً لم يتهمهم بالكذب : وانما سد الجميع آذانهم . ولم يكن سرفان — شرايبر الذي جُند قبل ذلك ببضعة أشهر كملازم في الجزائر مشرى من قبل الجامعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العربية ولا من الاتحاد السوفياتي . وقد أحدثت شهادته ، التي نشرت اولاً في « الاكسبرس » ثم ظهرت في كتاب ضجة كبيرة حتى صدرت بحقه « مذكرة إخبار » : وبالرغم من احترامه للأشخاص القائمين وللتقاليد العسكرية ، وبالرغم من أنه المتهم في تهم مخادعات « فرق الكوماندوس السود » ، فانه كان يروي جرائم كان من المفروض ان تؤثر في الرأي العام : من مثل قتل العرب بدافع اللذة ، والإجهاز على الاسرى بصورة وحشية ، وإحراق قرى برمتها ، والقتل بصورة جماعية الخ . ولكن الرأي العام لم يتأثر .

وكان القتلة حاملو البازوكا يتنزهون في حرية . وكان ايفوتون قد وضع قنبلة في مصنع فارغ ، متخذاً كل الاحتياطات لئلا يسبب القتل، وقد حكم بالإعدام، ونُفّذ فيه الحكم . فلماذا تضامن هذا الفرنسي مع الشعب الجزائري؟ ولماذا كان أطباء ومحامون وأساتذة وكهنة من مدينة الجزائر يساعدون جيش التحرير الوطني ؟ لقد كان يقال انهم خونة ، وقد أجابوا . وأُخبر الجمهور بـ « انتحار » العربي بن مهيدي الذي وجد مشنوقاً على حديد شبّاكه ، وقد أوثقت يداه وقدماه . وبعد « انتحار » بومنجل ، الذي سُجن وعُذّب على ايدي المظليين طوال بضعة أسابيع ثم أُلقي من أعلى سطيحة ، اوقف «كابيتان » استاذ الحقوق في جامعة باريس دروسه احتجاجاً : فكان لحركته اصداء صاخبة . ويوم ٢٩ آذار ، قام الجنرال دولا بولارديير بحركة كان لها وقع الانفجار : فقد طلب ان يعفى من قيادته لأنه كان يشجب طرق الجيش الفرنسي . اما قضية جميلة بوحيرد فقد عُرفت في فرنسا كلها وفي الخارج . ولم يجهل الرأي العام الفرنسي الحملة التي شنّها اليسار ضد التعذيب ، بدليل انها ازعجت الحكومة الى حدّ ان أنشأت « لجنة للسلامة » لتحتمي خلفها .

وكنت قد اتُهمت بأني ضد فرنسا : وأصبحت كذلك . لم اكن اطيق بعدُ مواطنيّ . وحين كنت أتناول العشاء في المطعم مع لانزمان او سارتر ،

كنا ننزوي في ركن ؛ وكانت ضجة الاصوات تبلغنا مع ذلك ؛ وكانت عبارةٌ ما تُلفظ بين تعليقات سيئة عن مرغريت او بريجيت باردو او ساغان او غراس اميرة موناكو ، فتعطينا الرغبة في ان نفرنقع . وذهبت مرة مع لانزمان الى « ترو ابو ديه » حيث كان يغنّي فيان . وكان الممثلون في احد الاسكتشات يفتحون صحفاً : هزيمة وحدات العصاة ، انضمام حي اومشّى الى صفوفنا . وكنت اقرأ : ريفيه واورادور ، وأحتقر ضحكات القاعة . وفي مساء آخر ، استمعنا الى « غريكو » في « الاولمبيا » . وعلى المسرح روى مستوطن فرنسي في الجزائر قصصاً عن « التيوس » ، فشعرت بلزوجة العار تملأ يديّ . وفي السينما ، كان ينبغي ان نبتلع صور الاحداث التي كانت تتكلم عن جمال الاعمال الفرنسية في الجزائر . وانقطعنا عن الخروج . وأصبحت محنةً لنا ان نشرب بعدُ فنجان قهوة في حانة ، او ندخل مخبزاً . وكنا نسمع من يقول : « ان سبب هذا كله هو ان الاميركيين طامعون في بترولنا » او نسمع : « ولكن ماذا ينتظرون للاجهاز على المقاومة والانتهاء منها ؟ » وعلى سطائح المقاهي ، كان الزبائن يبسطون جريدتي « لورو » و « باري بريس » وكنت أعرف ما الذي كان يدور في خلدهم : الشيء نفسه المطبوع على الورق ؛ ولم أكن أستطيع بعدُ ان أجلس قربهم . كنت قد أحببت الجموع : اما الآن ، فان الشوارع نفسها أصبحت تكنّ لي العداء ، وكنت أحسّني فارغة اليد ، شأني في الأيام الأولى من الاحتلال .

بل لقد كان الأمر اسوأ من ذلك . لأن هؤلاء الناس الذين لم اكن اطيق بعدُ أن أسير الى جانبهم ، انما كنت أجدني ، عن رضى أو عن مضض ، شريكة لهم في الذنب . وهذا ما لم اكن اغفره لهم اكثر من اي شيء آخر . او ربما كان ينبغي لي منذ الطفولة ان أتربّى تربية احد افراد الشرطة العسكرية النازية ، او أحد افراد المظليين ، بدل ان اتزوّد بضمير مسيحي ، ديمقراطي ، انساني : ضمير . كنت بحاجة الى احترامي لكي أعيش ، وكنت اراني بعيون نساء انتهكت اعراضهن عشرين مرة ، او رجال حُطمت ضلوعهم ، او اولاد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اصيبوا بالجنون : امرأة فرنسية .

وكانت اختي وزوجها قد اقاما في باريس . وكان هو اشتراكياً يدافع عن سياسة موليه ، وكان يقول لي : « ولكنهم وضعوا حداً للارهاب في الجزائر » وكنت أعرف ــ بطريقة غير كاملة ، ولكن معرفة كانت كافية لطمأنينتي ــ كم كلّف هذا السلام الزائف . وكان يقول لي ايضاً : « اما التعذيب ، فليس الا حالات استثنائية » وكان ذلك يدفعني الى غضب كنت احاول ان أكظمه . ولكني كنت أحسّ من خفقات قلبي المتسارعة ، وثقل رقبتي ، وطنين اذنيّ ، ان ضغطي قد ارتفع .

وكنت أتمنى لو أحطم مشاركتي في الذنب مع هذه الحرب ، ولكن كيف ذلك ؟ ؟ هل أتحدث في الاجتماعات العامة ؟ هل اكتب المقالات ؟ لوفعلت ذلك لقلت ما كان يقوله سارتر ، ولكن بطريقة رديئة . وكان يبدو لي مضحكاً أن أصحبه كظلّه في المظاهرة الصامتة التي اشترك فيها مع موريالك . واليوم ، شتاء ٦١ ، لا يسعني مهما كان وزني خفيفاً في الميزان ، الا ان القي فيه بكل ثقلي . ولذلك ، كنت اريد بعدُ ، قبل ان احاول ذلك ، ان ابذل مجهوداً لا يبدو لي من غير جدوى .

كنا نعرف جيداً فرانسيس جانسون : فقد سبق له ان التقى سارتر عام ٤٦ لكي يسلّمه مخطوطة « مذهب سارتر الاخلاقي » . وكان في اثناء الحرب قد عبر الحدود الاسبانية لينضم الى مقاتلي فرنسا الحرة : فقبض عليه ووضع في المعسكر . واطلق سراحه بعد بضعة أشهر ، وكان الأسر قد هدم صحته ، فاضطر الى الالتحاق بأحد المكاتب في الجزائر . وارتبط برباط الصداقة مع بعض المسلمين . وبعد التحرير ، عاد مرات كثيرة الى الجزائر وتابع عن كثب ما كان يجري فيها : وهكذا تمكن من تأليف كتابه « الجزائر المتمردة على القانون » . وحين أصبح مساعداً في « التان مودرن » ظلّ مديراً لها أربعة أعوام . وعام ٥٥ ، نشر في دار « سوي » كتاب « سارتر كما يرى نفسه » . وكان قليلون يعرفون فكر سارتر معرفته إياه . وبعد بودابست ، كان قد أخذ

على سارتر أنه وقف موقفاً صلباً اكثر مما كان ينبغي ، وفي ذلك الحين فترت علاقاتنا . ولكنا عرفنا من البعض انه كان في الجزائر يشارك جبهة التحرير الوطني في نضالها . ولم يكن احد منا ، لا لانزمان ولا سارتر ولا انا، مستعداً بعدُ لاقتفاء أثره . لم يكن في الجزائر الا خيارٌ واحد : فأما الفاشية واما جبهة التحرير الوطني . وكنا نفكر ان الأمر مختلف في فرنسا . كنا نجد ان اليسار لم يكن لديه دروس يعطيها للجزائريين ، وأن « المجاهد » قد أحسن صُنعاً باعادة اليسار الى مكانه . ولكنا كنا نعتقد كذلك ان بالامكان أن نعمل لاستقلالهم بوسائل مشروعة . وكنا نعرف ان جانسون ما كان ليتخذ هذا الالتزام لو لم يكن قد فكر فيه بنضج ؛ ولا ريب في انه كانت له وجهة نظره . على اني خشيت . فقد سبق ان التقيت شخصين كانا يعملان معه [1] ، وكانا قد صدماني بخفتهما وثرثرتهما ؛ وكنت أتساءل عما اذا لم يكن العمل السرّي طريقة لتصفية بعض العقد النفسية . أتراه لم يكن لدى الذين اختاروا هذا العمل السري ارادة للانفصال عن المجتمع الفرنسي ، ربما كانت مرتبطة بحقد او بلون من الاستياء [2] . كنت تجاه السؤال المقلق الذي يطرحه عليّ اختيارهم ، ادافع عن نفسي بهذه الشعوذة التي أحتقرها ، النزعة البسيكولوجية ، من غير ان أتساءل عما اذا لم يكن حَذَري قد أملته عليّ دوافع ذاتيه . انني لم اكن قد فهمت ان جانسون لم يكن ، وهو يساعد جبهة التحرير الوطني ، ينكر انتماءه لفرنسا . وحتى لو كنت قد قدّرت عمله تقديراً اوعى واكثر تبصّراً ، فانه يظلّ باقياً ان المرء الذي يشارك فيه ، ينحاز في عيون مجموع البلاد الى معسكر الخيانة : وكان شيء ما فيّ — من مثل الخجل والمخلّفات — يمسكني دون

---

(١) وما لبثنا ان تركاه .

(٢) اجاب جانسون على هذه الشكوك اجابة ممتازة : « حين باشرنا هذا العمل الذي يؤخذ علينا ، لم نكن محتاجين الى عمل ، وكان كل منا يحب مهنته التي لم يكن فيها فاشلا قط. ولم نكن نستطيع ان نجهل ان فرنسا كانت البلد الوحيد الذي كان لنا حظ ان نحس فيه بالاطمئنان لكي نعيش ونعمل وفق امزجتنا ».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مواجهة ذلك بعد .

* * *

بعد ان فرغت من دراستي عن الصين ، باشرت في تشرين الأول ٥٦ سيرة طفولتي . وكان ذلك مشروعاً قديماً . وكنت قد حاولت عدة مرات في رواياتي وقصصي ان أتكلم عن « زازا » . وكنت قد أسندت الى هنري في « المثقفون » رغبتي في ان أروي حياتي . وحين سمحت مرتين او ثلاثاً بأخذ أحاديث مني ، أصبت دائماً بالخيبة : كنت اودّ ان أضع انا نفسي الاسئلة والاجوبة . وقد أوضحت رأيي في مذكرات لم أنشرها :

« لقد تخيّلت دائماً بالخفية ان حياتي كانت تحطّ في ادق تفاصيلها على شريطة آلة تسجيل ضخمة ، واني سوف افرغ ذات يوم كل ماضيّ . اني في حوالي الخمسين ، وقد فات الأوان للغشّ : فكل شيء سينهار عما قريب . إن حياتي لا يمكن ان تُثبّت الا بملامح كبيرة ، على ورق وبيدي : وسأصنع منها إذن كتاباً . وكنت أتمنى وأنا في الخامسة عشرة ان يقرأ الناس سيرتي ذات يوم في فضول منفعل ؛ وأملاً في ذلك ، كنت اريد ان اصبح « مؤلفة معروفة » . ومنذ ذلك الحين ، حلمت غالباً بأن اكتب سيرتي بنفسي . غير ان الحماسة التي كنت اداعب بها في الماضي هذا الحلم هي اليوم غريبة عني ؛ ولكني احتفظت في قلبي بالرغبة في تحقيقه ...

« ... أنفقت العشرين سنة الأولى من حياتي في قرية ضخمة كانت تمتدّ من « ليون روبيفور » الى شارع جاكوب ، ومن جادة سان جرمين حتى جادة راسباي : وما زلت اعيش فيها . وإني ارى ، من وراء طاولة العمل ، عصبة من الطالبات يمرّرن في ساحة سان جرمين دي‌بريه : وكنت انا احداهنّ ، انها تعود الى بيتها ، في الساعة التي تضيء فيها الفوانيس الأولى ؛ وستكون جالسة امام ورقة بيضاء ، وستخطّ علامات كما أخطّ علامات على هذا الورق الأبيض . لقد حدثت حروب ورحلات ، وموتى ووجوه : لم يتغيّر شيء . وسأرى في المرآة صورة اخرى ، ولكن ليس ثمة من مرآة ، ولم يكن هناك

مرآة . وتأتي لحظات لا أدري فيها بعد ُهل انا طفل يمثّل دور الراشد ام امرأة مسنّة تتذكّر .

« لا . انني اعرف ؛ هذه انا ، اليوم . إن الطفلة التي أصبح مستقبلها ماضيّ غير موجودة بعد . انني اريد ان اصدّق أحياناً اني أحملها في نفسي ، وان من الممكن ان انتزعها من ذاكرتي ، وان ادعك جفونها ، وان أجلسها الى جانبي . هذا زيف . لقد اختفت من غير ان يحتفل بذكرى مرورها تفصيل دقيق واحد . فكيف السبيل الى اخراجها من العدم ؟ » .

وطوال ثمانية عشر شهراً ، تعلّقت بتحقيق هذا البعث ، بجهود ومصاعب ومباهج كثيرة : إنه خلق ، لأنه يستعين بالخيال والتفكير بمقدار ما يستعين بالذاكرة .

وفي هذه الاثناء ، كان سارتر ، بتحريض من ليسوفسكي ، يدرس العلاقات بين الماركسية والوجودية ؛ وقد كتب دراسة أصبحت فيما بعد : « قضية منهج » . واستمر اندفاعه ، فبدأ الكتاب الذي عنونه « نقد العقل الديالكتي » ، وكان يفكر فيه منذ اعوام ، ولكن افكاره لم تكن تبدو له بعدُ ناضجة ؛ وكان لا بد له من مساعدة خارجية لكي يخطو الخطوة . ومن جهة اخرى ، طلبت اليه دار نشر نصاً عن رسّام لينشر في مجموعة فنية . وكان سارتر قد احب دائماً « لوتانتوريه » ؛ كان قد اهتم قبل الحرب ، وخاصة بعد عام ٤٦ ، بالطريقة التي يفهم بها هذا الرسام الزمان والمكان . فعزم على ان يخصّه بدراسة .

وكانت « مذكرات فتاة عاقلة » تستغرقني اقل من دراستي عن الصين ، فزادت مطالعتي . واعارني اصدقاء بعض الكتب كان الاميركيون يحلّلون فيها مجتمعهم ، وكانت خاتماتهم تختلف فيما بينها : The lonley crowd لريسمان ، ودراسات رايت ميلزو The Organisation man لهوايت و The Exurbanist لسبكتورسكي . وقد كانوا يصوّرون تلك الانقيادية التي كانت قد خيبتني عام ٤٦ والتي كانت تزداد قوة ؛ كانوا يصورونها بأسبابها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونتائجها . كانت اميركا قد أصبحت جوهرياً مجتمع استهلاك ، فانتقلت من التكيّف الداخلي الطهري الى التكيّف الخارجي الذي يمنح كل فرد قانوناً ليس هو حكمه الخاص . بل سلوك الآخرين ؛ وكانوا يُظهرون الشكل المحيّر الذي تغيّرت به من جرّاء ذلك الأخلاق والتربية واسلوب الحياة والعلم والعواطف . إن هذه البلاد التي كانت مأخوذة بالفردية والتي لا تزال تصف الصينيين في احتقار بأنهم « شعب النمل » كانت قد أصبحت شعب خراف ؛ كانت تضطهد ، لديها ولدى الآخرين ، كل أصالة ، وترفض النقد ، وتقيس قيمة الشيء بمقدار نجاحه ، فلم تكن تفتح للحرية اي درب آخر الا درب التمرد الفوضوي : ذلك كان تفسير إفساد الشبيبة ، ولجوئها الى المخدّرات والى حوادث العنف البلهاء . كان ثمة بكل تأكيد رجال في اميركا يستعملون عيونهم لكي يروا بها : وهذه الكتب نفسها وسواها وبعض الأفلام التي كانت تثبت ذلك . وقد كانت بعض المجلات الأدبية والصحف السياسية التي تكاد تكون سرية تجرؤ على الانحياز ضد الرأي العام . ولكن معظم صحف اليسار كانت قد احتجبت . ولم تكن « لاناسيون » و « نيو رابيبلك » تحتفظان الا ببعض حرية الفكر . وكانت « النيويوركر » قد أصبحت في مثل تقى « بارتيزان ريفيو » .

لم تكن كراهيتي لاميركا ، منذ حرب كوريا ، قد نقصت . وكانت الحكومة تحارب بقسوة نسبية سياسة التمييز العنصري ، وكان قسم كبير من الرأي العام يرفضها ، وكان تصنيع الجنوب يهيئها للزوال ؛ على انها لم تكن اقلّ من السابق سبباً في خلق فضائح مريعة في السنوات الأخيرة ، ومن هذه الفضائح اعدام ماكغي ، والإجهاز على « ايميت تيل » الذي اتهم ، وهو في الرابعة عشرة ، بأنه اعتدى على امرأة بيضاء ، ولم يكن ثمة دليل على ذلك ، وتبرئة قتلته ؛ وحوادث العنف التي ارتكبت في ألباما ضد الطلاب الملونين الذين كانوا يريدون ان يختلطوا بالبيض ؛ وخارج هذه الأحداث ، كنت أعرف ما الذي كانت تتطلبه تلك السياسة ، اليوم كما بالأمس . اما تعصب الاميركيين

ضد الشيوعية ، فلم يكن يوماً بمثل العنف الذي بلغه في تلك الفترة . كانت عمليات التطهير والمحاكمات والتفتيش والمطاردة ، وجميع مبادىء الديمقراطية نفسها منكورة . وقد سحب جواز الغرين منه لانتمائه الى لجنة روزنمبرغ . وفي الخارج ، كانت اميركا تدعم بقوة الدولار ، ضد مطالب الشعب ، رجالاً كانوا مباعين لها وكانوا في الحقيقة ، لحرصهم على منافعهم الخاصة ، يخدمونها أسوأ خدمة . ولئن كانت ثمة أصوات ترتفع لتشجب هذه السياسة ، فقد كانوا يخنقونها : فلم أكن لأسمع صوتاً واحداً .

وماذا تراه قد حدث للكتّاب الذين كنت قد احببتهم وكانوا ما يزالون احياء ؟ وما كان رأيي بهم اليوم ؟ لقد عدت أقرأهم بعين جديدة ، وأتناقش مع لانزمان بشأنهم ، فأعدت النظر في كثير من احكامي .كانت روايات رايت وشتاينبيك ودوس باسوس وفوكنر تحتفظ في نظري بالمزايا التي لا تعادلها مزايا ، والتي كنت أعرفها فيها . ولكننا لم نكن بعد متفقين سياسياً مع رايت الذي أصبح معارضاً صريحاً للشيوعية ؛ وكان يبدو انه فقد اهتمامه بالأدب . وكان شتاينبيك يبدووكأنه سقط في الشعور الوطني والسذاجة . وكانت قريحة دوس باسوس قد نضبت منذ تحالف مع القيم الغربية : لقد تخلّى عن تصوير عالم ذي أبعاد غنية ، وراح يجهد في اخفاء تحلّل العالم تحت حركات وعبارات ، ولا يصوّر بعد الا مظاهر متصلبة . وكان فوكنر هو ايضاً يقص في روايته « اسطورة » عذاب المسيح ، تحت غطاء قصة جندي : اي تكرار واجترار ! وكانت رواية Intruder in the dust تظهر أنّ للعنصرية في الجنوب وجهاً متناقضاً في الثروات والرفاهية التي يجهلها رجال الشمال المصرّون على اتباع سياسة عنصرية ساذجة . وكان فوكنر في عام ١٩٥٦ قد قال فيمقابلة صحفية انه ينبغي ان تُترك للجنوبيين مهمة حل مشكلة الزنوج على طريقتهم ؛ وكان يعلن انه متضامن مع البيض حتّى ولو كان ينبغي الهبوط الى الشارع واطلاق النار على « السود » . اما همنغواي فقد ظللت معجبة ببعض قصصه . ولكن « وداع السلاح » و « ما تزال الشمس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تشرق » قد عادتا عليّ بالخيبة حين قرأتهما ثانية . وكان قد مهد الطريق لتقدم كبير في التكنيك الروائي ؛ ولكن بعد ان زالت أصالة الاساليب والنماذج ، فقد تعرّت وقفزت الى العيون . وقد كنت أكتشف لديه مفهوماً للحياة لم يعد يروقني إطلاقاً . كانت فرديته تفترض تواطؤاً مصمماً مع الظلم الرأسمالي ؛ كانت فردية هاوٍ غنيّ بما فيه الكفاية لتمويل رحلات صيد مكلفة في البر والبحر ولممارسة نوع من الابوة البريئة على المرافقين والخدم والسكان المحليين . ونبّهني لانزمان الى ان « ولا تزال الشمس تشرق » كانت مدموغة بالعنصرية . فالرواية هي عالم صغير : فاذا كان الانسان العادم الذكاء والمروءة هو يهودياً ، واليهودي عادم الذكاء والمروءة ، فان رابطة من التفاهم ، إن لم نقل رابطة عالمية ، قائمة بين هذين الطبعيْن . والحق ان المشاركات التي يصفها لنا همنغواي عند جميع منعطفات قصصه تفترض اننا واعون بأننا مثله آريون ، رجال ذكور ، مزوّدون بالثروة والعُطل ، لم يُحسّوا قط بأجسامهم الا تحت شكل الجنس او الموت . انه سيّد يتوجه الى أسياد . ومن الممكن لبساطة الاسلوب ان تخدع ، ولكن ليس من قبيل الصدفة ان يكون اليمين قد ضفر له تيجاناً فارهة : فلقد صور مجدّ عالم أصحاب الامتياز .

اما الشبان من الكتّاب ، فكنت أعرف قليلين منهم . وكنت قد احببت كثيراً كارسون ماكلورز التي كنت قد لقيتها مرة في باريس وقد اتلفتها الخمرة ، وكانت متورمة ، شبه مشلولة ؛ ويبدو انها قد كفّت عن الكتابة . وكنت قد لمحت كذلك ، في بيت اسرة رايت ، ترومان كابوت مضطجعاً على ديوان ، في بنطال من المخمل الأزرق ؛ كان يملك موهبة ، ولكنه يكاد لا يستخدمها . وكان كثيرون قد مدحوا لي Catcher in the rye لسالنجر ؛ وكنت أعثر فيه خصوصاً على وعود . ومن سوء الحظ ان الشعر كان يفلت مني ؛ فأنا لم اكن اعرف اللغة معرفة كافية لأتمكن من تذوقه ، وكنت أحذر الترجمات . وبالاختصار ، لم يكن شيء من اميركا ، في الأدب وفي سواه ، يمسّني بعدُ ، ما عدا ماضيها . لقد احسست تجاهها بالحزن الغاضب نفسه

الذي كانت توحيه لي فرنسا . وكنت احتفظ بذكرى حارّة لمناظرها ومدنها ومسافاتها وجماهيرها وروائحها ، وكنت احبّ لغتها السريعة الحيّة ، اللامبالية ، القوية ، القادرة على ان تلتقط الحياة بحرارتها ؛ وكنت افكّر في شغف بأصدقائي الاميركيين الذين كان ودّهم يروق لي ، وصراحة ضحكاتهم ، وروحهم الفكاهية الوعرة . ولكني كنت اعرف اني اذا عدت الى نيويورك او شيكاغو ، فان الهواء الذي سأستنشقه هناك ، سيكون كهواء باريس ، مسموماً .

* * *

كانت اجمل فترة في ذلك العام ، الخمسة عشر يوماً التي قضيتها مع لانزمان في دافوس : فقد عثرت فيها على مباهج الشمس والثلج واستشعرت العزاء ألاّ أسمع بعدُ أصواتاً فرنسية . لقد تركت ، في بدء الصيف ، هذا البلد الذي كانت حكومة اشتراكية تلغي فيه اعياد ١٤ تموز . وسافرت مع لانزمان الى جنوب ايطاليا . وقد كانت الطرق أفضل منها عام ١٩٥٢ ، والفنادق أوفر راحة ؛ وكانت المدن قد اتسعت وأصبحت اكثر أناقة . ولكن الريف كان مايزال يبدو على فقره ؛ وكان قد اقيم حول خليج تارانت شكل من الاصلاح الزراعي ؛ كانت بيوت صغيرة تحمل اسماء قديسين ترتفع وسط المستنقعات التي وُزّعت بين الفلاحين : وكانت تفتقر الى الماء والسماد ، ولم يكن ينبت فيها شيء . وكان المرء يلتقي « البراسيانتي » في ساحات القرى ، ولم تكن حياة الريف قد تغيرت منذ صوّرها « فيليني » في « الفيتوليني » ؛ وكنا نشرب ذات مساء كوب عصير في شارع مقفر من شوارع كانتازارو ، ونشاهد مشهداً يذكّرنا تذكيراً أميناً بمشاهد فيلمه : كان بعض الشباب يركضون وراء سيارة « توبولينو » فيقبضون عليها ويهزّونها ويسدّون مستودع التنفيس فيها بسدادة من ورق ؛ وتنطلق ثانية ، فتقفز السدادة الضحكات التي تشبه تثاؤباً ؛ وتقوم بنصف دورة ، ثم يعود كل شيء من جديد . وكنّا أول مَنْ ضَجِر .

وهبطنا نحو صقلية ؛ وقد بدت لنا في المساء الهابط ، عند منعطف طريق ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منقّطة بالأنوار ، مخطّطة بالضباب ؛ وتوقّفنا ، فتوقفت سيارة خلفنا ، وقال لنا سائقها :

– انكما تنظران المشهد ، أليس كذلك ؟ إنني انا ، كلما مررت ، وقفت انظر .

وكان دركياً ، وقد كنس المدى بذراعه وصرّح في لهجة فخمة :

– انه المشهد الثاني الأجمل في العالم .

فقلت : – واين هو المشهد الأول ؟

فتردّد ثم قال : – اما هذا ، فلا أعرفه .

وزرت صقلية مرة اخرى ، فرأيت « راغوز » وعليها مظهر النعمة والعبوس ، وكانت جمالاتها الغريبة محاطة بأبنية جميلة جديدة . وأسرعنا نهرب من جزر ليباري ذات المياه المسودة بالمازوت والمليئة بالسيّاح والفريسين . وبعد توقف قصير في رأس « بالينور » الذي كانت دارينا سيلوني قد اوصتني منذ أعوام بزيارته، عدنا الى روما . وقد حملْنا اليها مرتدّاً يوغوسلافياً استوقفنا عند مخرج « ايبولي » ؛ وكان قد حصل على اذن لبضعة ايام لمغادرة المعسكر الايطالي الذي كان بعض مواطنيه مسجونين فيه بتهمة الدخول بصورة غير مشروعة ، بحثاً عن عمل ، ولكنه لم يكن يملك درهماً في جيبه ، وكان معرّضاً للعقوبات اذا عاد متأخّراً : وكانت تلك حالة اخرى من الحالات المعقدة التي لقيتها في الطرقات غالباً .

مكثت في روما اكثر من شهر بصحبة سارتر . وقد ظلّ اصدقاؤنا الشيوعيون متحفظين معنا ، وكان الناس الذين رأيناهم قليلين ، ولكني كنت سعيدة في فندق « انكلترا » قرب ساحة اسبانيا ، وقد عملت كثيراً . وكان سارتر يريد ان يرتاح من « نقد العقل الديالكتي » . وقد ذهب الى البندقية ليشاهد لوحات « لوتانتوريه » ، وأخذ يكتب عن الرسم . وكتب كذلك مقدمة لكتاب « الخائن » لغورز [1] .

---

(١) بعد عشرة اعوام من لقائنا في جنيف، استقر غورز في باريس وحمل لسارتر كتاباً فلسفياً–

وكنت راغبة في ان أستنشق لمدة اسبوعين او ثلاثة هواءً أقل مدنيةً من هواء روما . واقترح سارتر السفر الى كابري . وكانت الصحف تقول إن حمى قادمة من آسيا كانت تكتسح نابولي ؛ ولكن كابري ليست نابولي ، ولا شك في ان الحمى ستذهب صعوداً نحو الشمال ؛ وكان ان ذهبنا الى كابري . وهناك قرأنا في صحف نابولي ان الحمى الاسيوية كانت تكتسح روما – كانت كل مدينة تضخّم على هواها المصيبة التي كانت نازلة بالمدينة الأخرى .

كنت أخشى ان تكون كابري غارقة بالسيّاح والسنوب ؛ والواقع انهم كانوا ينقضّون جميعاً – كما في البندقية وفلورنسا وكل مكان – على الأمكنة نفسها وفي الساعات نفسها . وكنا نتجنّبهم بلا مشقه . وكنا ننزل في فندق لا جمال فيه ، يقع في وسط المدينة ؛ ولكن الوحدة والصمت كانا يخيّمان في المنطقة التي لم تكن اية سيارة تستطيع دخولها . كنا نسير بحذاء الشاطيء ، وكنا ننظر الى « الفاراغليون » التي كان سارتر يصيب من رؤيتها مثل المتعة التي كان يصيبها من نقوش جياكوميتي ؛ ومررنا فوق المقصورة الحمراء التي أوصى بها مالابارت لكتّاب الصين الشعبية الذين كانوا مرتبكين بها تماماً ؛ وكنا نتسلق احياناً حتى نبلغ قصر « التيبير » ؛ وغالباً ما كنا نقف في امكنة أشد انخفاضاً ، في بعض الحوانيت المقفرة حيث كنا نتغدّى قطعة كاتو او قطعة ساندويش ، مع قدح من الخمر الأبيض ، فيما نحن نتأمل انعكاس أشعة الشمس على الصخور والمياه . وكان سارتر ، فيما هو يكتب « السائح الأخير » قد استعلم عن جميع هذه الآثار ؛ وكان يعرف كذلك كثيراً من الحكايات والفكاهات عن الحياة في كابري . وعزمت ان أقنعه بركوب تلسياج « اناكابري » للصعود الى « مونت سولاريو » ؛ وكان أقلّ منّي تأثّراً بسحر هذا الصعود المجيد ، ولكنه كان مسروراً بأن يعانق بنظرة واحدة

= ذكياً ولكن تأثره بكتاب « الوجود والعدم » كان مبالغاً فيه . وكتب بعد ذلك دراسة عن نفسه ممتازة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجزيرة وأشكالها .

وكنا صباحاً ، عند تناول القهوة ، ومساء بعد العشاء ، نجلس على سطيحة مقهى « سالوتو » الذي لا يبقى فيه بعد منتصف الليل الا جمهور صغير منتثر عند قدم السلم ؛ وكان يصعد هذا السلم زرافات او وحدان يهبطونه ، ويتوقفون عند اعلى الدرجات ، او يجلسون على درجة ، او يختفون في الظلّ الذي كان محفوراً في الخلفية : فكأنهم كانوا يمثلون ملهاة خفية جميلة جداً ؛ وقد كانت حركاتهم ووقفاتهم وألوان ثيابهم ، ومنها اللون الوردي الذي يشبه لون لوحات « لوتنتوريه » ، مملاة كلّها بالضرورة ؛ ثم كان ينبعث وهمٌ أضعناه منذ وقت طويل : لقد كان لحياتنا الامتلاء والصرامة اللذان تنعم بهما القصص التي تروى . وكان سارتر يحدثني عن كتابه . وكان يعمل من غير تعجّل متنبّهاً الى عباراته : وكان بينها عبارات كنت اردّدها في تلذّذ ، عبر صمت الليل المخملي . وفي كابري ، كانت الحجارة في ذلك الصيف جميلة كالتماثيل ، وكانت الكلمات تتلألأ أحياناً .

لم تكن اختي تسكن ميلانو بعد ؛ فلم نمكث فيها الا نهاراً . وقد انضمّ لانزمان الينا فيها . وسافرنا بطريق رأس « تاند » الى نيس حيث اتجهنا الى « ايكس » لنبيت الليل . وفيما كنا نسير في الليل المتلألىء بالنجوم ، لمحنا في السماء بريق شهاب نحاسي : السبوتنيك ! وأكدت الصحف في اليوم التالي مروره في تلك الساعة ، وفي ذلك المكان . وكنّا نفكر بصداقة في هذا الرفيق الصغير العابر ، وكنا ننظر بعين جديدة الى القمر القديم الذي ربما سافر اليه رجال ونحن على قيد الحياة . وكان اول كوكب ، خلافاً لجميع التقديرات ، قد أُطلق على يد الاتحاد السوفياتي : وكان ذلك يملأنا رضى . لقد كان خصوم الاشتراكية يدللّون على سقوطها بالتخلّف الصناعي والتكنيكي في روسيا : فأي تكذيب مفحم يحمله هذا السبوتنيك ! وتحدثت اميركا عن « بيرل هاربور علمي » . لقد كان هذا الانتصار يمنح الروس تفوّقاً عسكرياً كنا نهنّيء أنفسنا به : فاذا كان البلد الذي لا يكنّ الاّ أقلّ الأهمية

للقيام بالحرب يملك اكبر الحظوظ لربحها ، فان السلام سيكسب كثيراً من ذلك . وكان « اللاحزبيون » قد أُبعدوا ؛ وكانت روح المؤتمر العشرين تتأكد . وكان لا بدّ لآمالنا في تعايش سلمي ان تعزّز حين اوقفت موسكو في نيسان التجارب النووية .

اما في اميركا الجنوبية ، فقد كانت الثورات تحت الرماد ضد الامبريالية الاميركية . وكان الحديث يتردّد عن العصاة الكوبيين حين اختطفوا ، قبل يومين من جائزة سباق سيارات الهافانا ، العدّاء الشهير فانجيو من قاعة احد الفنادق ، ثم تركوه بعد السباق . وكان قائدهم كاسترو ، وهو محامٍ نفاه باتيستا الى المكسيك ، قد عاد منها مع بعض رفاقه . وكان يوصف بأنه أشبه « بروبين دوبوا » ولكن بلحية . وفي الجيش الصغير الذي يقوم بالمقاومة معه ، كان ثمة نساء ، وهذا ما كان يثير لدى البورجوازيين الفرنسيين ضحكات بطرة ؛ وكان يبدو ان له تأييداً واسعاً لدى الشعب ، ولا سيما بين الطلاب والمثقفين ؛ ولكن كان من الصعب تصديقه حين كان يعلن انه سوف يقلب باتيستا في مدة قصيرة ، عن طريق الاضرابات والمعارك والاضطرابات .

* * *

لم يشفَ اليسار الفرنسي جيداً من حادثة بودابست . وقد اغتاظ اللاشيوعيون من قسوة العقوبات التي حُكم بها الثوار — ومنهم تيبور ديري الذي حكم بأربع سنوات في السجن — في حين كان الحزب الشيوعي ماضياً في تأكيد تضامنه مع كادار . وأوقفت جريدة « الايتانسيل » . وأصدر فيركور الذي كان صديقاً متحمّساً للحزب كتاباً طريفاً أوضح فيه أنه قد ملّ تمثيل دور آنية البورسلين الشرفية ، وانه قد ترك المسرح . وكاد جمود البروليتاريا السياسي أخطر من منازعات المثقفين هذه . وفي آخر تشرين الأول ، دعا اتحاد العمل العام واتحاد العمل المسيحيين الفرنسي الى اضراب ناجح للغاز والكهرباء ، والى اضرابات اخرى انفجرت في سان نازير بعنف شديد حتى ان عاملاً قُتل ، وجُرح الصحفي « غاني » . واوقف عمال شركة « رينو »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العمل ، وكذلك اعضاء هيئة التعليم والموظفون . ولكن نشوب هذه الحركات في ابان الأزمة الوزارية كان يدل على انها كانت ضد السياسة . فلم تربط الاحزاب ولا النقابات بينها وبين اي صراع ضد حرب الجزائر . على ان اليمين كان يتحرك ، وكان الحديث يجري عن مؤامرات . وانشأت « الأكسبريس » مؤتمرات اقليمية لمكافحة التهديد الفاشي .

وكان « ربع الساعة الأخير » الذي أعلنه لاكوست مستمراً منذ اكثر من عام ، وكانت طرق اعادة السلام هي هي لم تتغيّر . وكان هناك بعد ذلك ، على حد تعبير « دانيال » احد محرري « الاكسبريس » : « الحصة المألوفة من أعمال التعذيب » ، وكان يشير بذلك امام احد الاصدقاء الى موجز مواد احد اعداد « التان مودرن » . صحيح ان هذا كان رتيباً ؛ الضرب ، والمغطس والشنق والحروق وانتهاك الاعراض ، واستعمال الاقماع ، وانتزاع الأظافر ، وكسر العظام : كان ذلك شائعاً . ولكننا لم نكن نجد سبباً لتغيير الاسطوانة ما دام الجيش والشرطة لا يغيّرانها .

وكان جامعي يُدعى « اودين » قد أوقف في الجزائر يوم ١ حزيران : وسرعان ما انقطعت أخباره . وكان اساتذة ليسيه جول فيري قد طلبوا اجراء تحقيق : ولكن عبثاً . وفي مطلع كانون الأول قدّم أحد أصدقائه ، بدلاً عنه ، رسالته في الرياضيات بجامعة السوربون : فكانت حفلة تأبينية حضرها عدد كبير من الأساتذة والكتّاب .

وحتى قرّاء « الفيغارو » اطلعوا ، مما كتبه مارتان شوفييه [١] ، على حوادث الاعتقال الاعتباطي والاختفاءات والتعذيبات . وفي جريدة « لموند » ظهر بعد بضعة أسابيع من التسويف تقرير « لجنة السلامة » وقد بدأ المقرّر بالتصريح : « بأن أعمالاً يمكن في اوقات اخرى وظروف عادية ان تُعتبر تجاوزاً وافراطاً ، هي في الجزائر مشروعة تماماً » إذن ، فلم يكن وارداً فضحها ، وقد اكتُفي بالاشارة الى الوقائع التي كانت تبدو ، في قلب هذه « المشروعية » المفرطة ،

(١) وكان قد قام بتحقيق باسم « اللجنة العالمية للكفاح ضد حكم معسكرات الاعتقال » .

فاحشة . وكانت كثيرة وضخمة ، وكانت كافية لاثارة فضيحة . وقد هوجمت « لموند » هجوماً عنيفاً لنشر التقرير ؛ اما الرأي العام ، فقد تلبّث طويلاً امام الأحداث .

وفُتحت يوم ١٠ كانون الأول محاكمة بن صدّوق ، وكان لبضعة أشهر خلت ، قد قتل علي شهقال ، نائب الرئيس السابق للمجلس الجزائري وأهم شخصية من المتعاونين المسلمين ، وقد استشهد محاميه ، بيار ستيب ، بعدد من المفكرين بينهم سارتر ، كشهود دفاع . وكان سارتر منفعلاً حين قصدنا قصر العدل ؛ إن الكلام في المؤتمرات والاجتماعات لا يزن مثل هذا الوزن الثقيل ؛ اما هنا ، فقد كان رأس انسان في الميزان . فلئن أنقذه ، فان عفواً عاماً بعد بضعة أعوام سيجعل منه رجلاً حراً من جديد : وكانت الموازنة بين الموت والحياة اشد تطرّفاً منها في اية محاكمة عادية . من هنا ، كان ضيق الشهود الذين كان كل منهم يفكر بأن شهادته كانت توشك ان تُميل نهائياً قرار المحكمين.

ووضع سارتر والشهود الآخرون بمعزل عن المحاكمة ، اما انا ، فقد جلست وسط جمهور كبير ، الى قرب المحامين الشبان . وعند قدم المحكمة ، كانت السيدة علي شهقال محجبة بحجاب الحداد ، تمثل الجانب المدني . ونظرت الى الشاب ذي الوجه الصريح الذي كان واقفاً في قفص المتهمين : كان قد قام بعمل شبيه بتلك الأعمال التي كانت توصف ، في أثناء المقاومة ، بأنها بطولية ؛ ومع ذلك ، فان هناك فرنسيين كانوا على وشك ان يغرّموه ربما حياته ، ثمن هذا العمل .

وتكلم أصدقاء لصدوق عن مزاياه كانسان ، وعامل ، وصديق : وبكى اقرباء مسنّون له . وبعد ذلك راح اساتذة وكتّاب وكاهن وجنرال وصحفيون يشرحون عمل صدوق بالوضع الذي كان يعيشه اخوته الجزائريون : ورسموا هذا الوضع . وقال محاميان شابّان كانا جالسين الى قربي ، بلهجة انقباض : « انما يحاكموننا نحن : فهم يشرحون لنا ان كل ما يحدث لنا في الجزائر ، فنحن لم نسرقه ! » وكان الاتهام قد استدعى سوستيل . وقد وصل وعلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عينيه نظارتان سوداوان ، وهو يرتدي معطف صناعي كبير ؛ ومن غير ان ينظر الى أحد ، مدح الميت . وبعد ذلك تقدّمت فتاة كانت تمشي ، بمساعدة ذويها ، على ساقين اصطناعيتين : لقد اصيبت بشظايا حادث اغتيال « كازينو الكورنيش » [١] ، فأخذت تصرخ بصوت ثاقب ، متقطّع :

– كفى فظائع ؛ انكم لا تعرفون ما نعانيه ! كفى دماً ! كفى ! كفى !

وقد احدثت انزعاجاً ارتدّ على الاتهام الذي كان قد أخرج هذا المشهد الميلودرامي ، اكثر مما ارتدّ على صدوق . وطالب « اميل كاهن » ، وكان ابيض الشعر هزيلاً ، مترنحاً ، طالب باسم « جامعة حقوق الانسان » التي كان رئيسها بأن يُعترف لصدوق بظروف تخفيفية واسعة . وقرأ راعٍ رسالة من أخيه المجنّد في الجزائر ؛ وكان الشاب المجنّد يروي كيف رأى وحدةً اقليمية – اي مستوطنين فرنسيين في الجزائر – يعذّبون شيخاً عربياً ؛ وقد اضطر الى تهديدهم بالسلاح ، وساعده بذلك بعض الرفاق ، لينتزع منهم طريدتهم . وقد سقطت هذه الرواية التي تتحدث عن الشنق والضرب والتعذيب في صمت الموت . لم يكن ثمة تنهيدة اندهاش او اشمئزاز : كان جميع الناس يعرفون . ومرة اخرى ، أصبت بتجلّد القلب من هذه الحقيقة : كان جميع الناس يعرفون ولا يبالون ، او يوافقون .

وكان سارتر بين آخر من ادلوا بشهادتهم . ولم يظهر اضطرابه في شيء الا في تسمية القتيل « علي شاقال » ، حين تحدّث عنه في احترام متصنّع المراعاة . وقارن وضعه بوضع بن صدوق ، فشرح ان الشبان لم يكونوا يستطيعون ان يقرّوا صبر الذين يكبرونهم في السنّ ، لأنهم لم يكونوا يعرفون من فرنسا الا وجهها الدموي . وأشار بعد ذلك الى ان العمل الذي قام به صدوق كان جرماً سياسياً ولا ينبغي ان يشبّه بقتل إرهابي . وبذل جهداً كبيراً ليتكلم لغةً لا تصدم المحكمة ، وقد تعزّت هذه باعتداله .

ثم قدم ماسينيون شهادته ، وبعده جيرمين‌تيون ؛ فلاحظت ان فرنسا

---

(١) الذي حول فيما بعد الى مركز للتعذيب .

قد دفعت الشبيبة الى الحقد. وروت ان مدرّساً كان قد طرح على طلاّبه، وهم من المسلمين الذين لم يتجاوزوا العاشرة، هذا الموضوع للانشاء: «ماذا تفعل لو كنت غير مرئيّ؟»؛ وقرأت جيرمين بعض المسابقات: لقد اجاب الجميع، عبر ألوان من الاختلافات الخيالية، بما معناه: «لو كنت غير مرئي لقتلت جميع الفرنسيين.»

وغادرت القاعة. وفي الممرات كان الجنرال «توبير» يبرق ويرعد ضد فرنسيي الجزائر. وكان جميع الشهود يمتدحون تجرد الرئيس والحرية التي كان قد كان منحهم إياها. وكانوا يعلّقون في قسوة على غياب كامو. وقد كان لصوته وزن ثقيل، لو كان قد قبل الحضور، لا سيما وانه كان قد نال جائزة نوبل. وكان ستيب قد طلب منه فحسب ان يقول بصوت مرتفع ما كان قد كتبه في دراسة حديثة بشجب حكم الاعدام: ولكنه رفض ان يمثل امام المحكمة، بل رفض ان يرسل رسالة الى المحكمة. وكان بعض الشهود، التماساً لرحمة المحكمة، قد ذكروه، واحياناً بلهجة لا تخلو من الخبث.

تناولت العشاء في «لاباليت» مع سارتر ولانزمان. ترى، هل ينقذ رأس صدوق؟ لقد كنا قلقين، وشرب سارتر الويسكي ليخفّف التوتّر الذي خضع له طوال النهار: وكان لا يستطيع احتمال الويسكي منذ فترة من الزمن، فتفاقم انفعاله: وما لبث ان سقط في شراسة غاضبة:

— من كان يظنّ اني سأمتدح شهقال؟ واني سأتحدّث ضد الارهاب: كما لو انني كنت أشجب الارهاب! وكل ذلك لكي أروق «لبوجاديي» المحكمة! اتتصورون ذلك؟

وكان الحزن الخانق والغضب يصعدان الدمع الى عينيه، وكان يردّد:

— كل ذلك من اجل البوجاديين!

وقد ذُعرت من عنف تأثّره وانفعاله: انه لا يعني فقط الاشمئزاز من التنازلات التي وافق عليها؛ فقد كانت اعصابه منذ أسابيع وأشهر، ثائرة.

وصباح اليوم التالي أغمّتنا قراءة الصحف. صحيح انها كانت وهي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تورد الشهادات تنصب على غير ارادة منها مطالعة ممتازة ضد الحرب : وهكذا سيعلم الجمهور الحقائق ، بطريقة غير مأمولة . ولكنها كانت منحازة بصورة عنيفة ضد صدوق ؛ وقد عنونت احداها مقالها بعبارة : « ما أجمله شاباً ، قاتل شهقال ! » وكانت الصحافة تتهم الشهود بأنهم « وسّخوا » فرنسا ، وكان يبدو أن سكين المقصلة وحدها هي التي تستطيع محو هذا العار . وكنا نخشى ان تتأثر المحكمة بهذه المقالات .

وبعزاء كبير عرفنا الحكم في المساء . سجن مؤبّد ؛ ولكن السجون ستفتح بعد الحرب . وكنا سعداء من أجل صدوق أولاً ؛ ولكن كان يرفع معنوياتنا كذلك ان نرى ان في فرنسا بعدُ بعض الرجال القادرين على ان يحكموا وفق ضمائرهم ، تجاه انسان جزائري .

اما في الجزائر ، فان هذه الفكرة لم تكن سارية بعد ؛ كانت اكباش الفداء تختار بالإتفاق : وقد اعترف ستة من المسلمين ، تحت ألوان من التعذيب باشتراكهم في قتل « فورجيه » ، فاختير منهم واحد ، وبالرغم من انه لم يقم اي دليل ضده هو بالذات ، فان كوتي [1] رفض ان يعفو عنه .

حوالي نهاية كانون الثاني ١٩٥٨ ، طلب مني السيد « بروغييه » شهادة حسن اخلاق لصالح جاكلين غروج التي كانت في روان واحدة من افضل طالباتي . وقد عينت معلّمة في الجزائر فتزوجت معلماً مسلماً ، وكانت مثله عضواً في الفرق المدنية لجيش التحرير الوطني ؛ وكانت قد أعادت الى « ايفوتو ن » القنبلة التي كان قد وضعها في احد المراكز . وقد حكم عليهما كليهما ، كما حُكم على متهم مشترك معهما ، بالموت في كانون الأول ١٩٥٧ . وشنّ اليسار حملة لصالحهم ، فشاركتُ فيها ، الى ان حصلنا على العفو عنهما . اما « طالب » المقتنع فقط أنه قد هيّأ متفجرات وكان ينكر كل مشاركة بهذا العمل ، فقد نفّذ فيه حكم الاعدام .

وحزن قسم كبير من اليمين الفرنسي لحادثة قصف قرية « ساقية » :

---

(١) رئيس الجمهورية الفرنسية . (هـ.م)

فقد كانت حوادث كحادثة « اورادور » تُرتكب كل يوم على حد قول كابورال في الجيش ؛ امـــا ضرب قرية تونسية ، فتلك غلطة فاحشة . واردات الأنباء الرسمية ان تبرّر هذا القصف ، فعرضت في الأحداث المصورة بدور السينما شريطاً كان يُظهر جنوداً من جيش التحرير الوطني معسكرين في تونس : وكانت تلك غلطة اخرى ؛ فقد كانوا بلباسهم الرسمي وتنظيمهم يشكّلون جيشاً لا جمعيةً من المشاغبين الأشرار .

وكانوا يروون ان الجنرال «ماسو» ، صاحب الروح التقيّة الموسوسة، اراد ان يتذوّق التعذيب ، وانه قد صرّح : « انه قاس جداً ، ولكن يستطيع رجل شجاع أن يتحمّله » . وصدر كتاب يكشف حقيقة التعذيب التي لا تُحتمل ، هو كتاب « الاستجواب »[١] لهنري اليغ . وعلّق عليه سارتر في مقال بعنوان « انتصار » نشرته مجلة « الاكسبريس » وحذفت المراقبة بعض مقاطعه . ومع ذلك ، فقد بيع الكتاب بعشرات الآلاف من النسخ ، وتُرجم في العالم كلّه .

لقد كان التعذيب الآن واقعة ثابتة حتى ان الكنيسة نفسها اضطرت الى اصدار حكمها عن شرعيته . وكان كثير من الكهنة يرفضونه ، بالكلام وبالعمل ، بينما كان كهنة آخرون يشجّعون « هيئات النخبة » في التعذيب ؛ وأما المطارنة ، فقد كان معظمهم يذهبون بعيداً في التساهل ، ولم يكن احد يجازف في الانتقاد والتوبيخ . وكم كان بين المدنيين من صمت موافق ! وكان صمت كامو يثيرني . إنه لم يكن يستطيع ان يتبجّح ، كما تبجّح في اثناء الحرب الهند الصينية ، بأنه لم يكن يريد ان يلعب لعبة الشيوعيين ؛ فكان يتمتم بأن المتروبول لم يكن يفهم المشكلة . وحين اتى الى ستوكهلم ليتلقى جائزة نوبل ، كشف عن نفسه اكثر فأكثر . وكان يمتدح حرية الصحافة الفرنسية : وفي ذلك الاسبوع ، صـــودرت « الاكسبريس » و « الاوبسرفاتور » و « فرانس ــ نو فيل » . وصرّح أمام جمهور كبير :

---

(١) وقد صدر مترجماً بالعربية عن دار الآداب بعنوان « الجلادون » . (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« اني احبّ العدالة ؛ ولكني سأدافع عن أمي قبل العدالة » وهذا يعني انه ينحاز الى صف المستوطنين الفرنسيين . وقد كانت المزايدة تكمن في انه كان يتصنّع في الوقت نفسه انه قائم فوق المعركة ، مانحاً بذلك كفالةً لمن كانوا يتمنّون التوفيق بين هذه الحرب وطرقها وبين النزعة الانسانية البورجوازية . ذلك ان بلادنا ، كما قال الشيخ روجيه ، بعد ذلك بسنة ، من غير ان يضحك « تحتاج الى ان تلوّن جميع أعمالها بمثل اعلى من العالمية والانسانية » . وبالفعل ، فقد كان مواطنيّ يتدبّرون الأمر ليحافظوا على هذا المثل الاعلى فيما هم يركلونه بأقدامهم . وقد كان جمهور حسّاس يبكي كل مساء ، في مسرح مونبارناس ، على المصائب القديمة التي اصيبت بها « آن فرانك » الصغيرة ؛ اما جميع اولئك الأطفال الذين كانوا يحتضرون ويموتون ويجنّون فوق ارض يقال انها فرنسية ، فان هذا الجمهور لم يكن يريد ان يعرف من امرهم شيئاً . واذا حاولت ان تعطّفهم عليهم ، اتهموك بافساد معنويات الأمة .

ولم أكن لأحتمل بعدُ هذا النفاق ، وهذه اللامبالاة ، وهذه البلاد ، وجلدي الخاص . إن هؤلاء الأشخاص الذين يسيرون في الشارع ، موافقين او شاردين ، انما كانوا جلاّدين للعرب : كانوا كلهم مذنبين ، وانا كذلك . « اني فرنسية » لقد كانت هذه العبارة تجرح حلقي كما لو انها اعتراف بعاهة . كنت في نظر ملايين من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، اختاً للمعذّبين ، للمحرقين ، للذابحين ، للمجوّعين ؛ وكنت استحق حقدهم ، لأنني كنت أستطيع ان أنام واكتب واتمتّع بنزهة او بكتاب : واللحظات الوحيدة التي لم اكن استشعر فيها الخجل ، هي تلك التي لم اكن أستطيع فيها ان اكون كذلك ، تلك التي يؤثر فيها المرء ان يكون أعمى على ان يقرأ ما يقرأ ، وان يكون أصمّ على ان يسمع ما يروى له ، وان يموت على ان يعرف ما يعرف ، كان يخيل اليّ اني أحمل مرضاً من تلك الأمراض التي يكمن أخطر عوارضها في عدم الاحساس بالألم .

وكان بعض المظليين يقيمون احياناً ، على رصيف سان جيرمين دي‌بريه

نوعاً من الكشك . وكنت أتجنّب دائماً الاقتراب ، ولم أعرض قط ما كانوا يصنعون : لقد كانوا على اي حال يقومون بالدعاية لأنفسهم . وكنت من وراء طاولتي أسمعهم يعزفون ألحاناً عسكرية ؛ وكانوا يتناقشون ، واعتقد انهم كانوا يقدّمون صوراً مختارة عن حملاتهم . وكنت استشعر هذه الكرة في حلقي ، هذا الاشمئزاز العاجز الغاضب : ذلك ما كنت أحسّه حين كنت ارى الشرطة العسكرية النازية . كانت الملابس العسكرية الفرنسية تحدث لديّ الرعشة نفسها التي كانت تحدثها في الماضي الصلبان المعقوفة . وكنت انظر الى اولئك الفتية في الثوب الكاكي الذين كانوا يروحون ويجيئون مبتسمين ، ووجوههم برونزية وايديهم فارغة : تلك الايدي ... وكان اناس يقتربون ، مهتمّين ، فضوليين ، وديّين . أجل ، كنت أسكن مدينة محتلّة ، وكنت أحتقر المحتلّين في ضيق اشد من ضيق سنوات ١٩٤٠ ، بسبب جميع الروابط التي كانت تشدّني اليهم .

وكان سارتر يتعزّى من الوضع بالانقضاض على « نقد العقل الديالكتي » يكتبه بسعر وغضب . ولم يكن يعمل على مألوف عادته باللجوء الى بعض الراحة والتوقف والشطب وتمزيق صفحات وكتابة سواها ؛ كان طوال ساعات متتابعة ينتقل من ورقة الى ورقة من غير ان يقرأ ما كتب ، كما لو انه كان مشروقاً بالافكار التي لم يكن قلمه ، حتى ولو جرى ركضاً ، يتمكن من القبض عليها ؛ ولكي يبقى على هذا الاندفاع ، كنت أسمعه يقرض حبوب الكوريدرام التي كان يبتلع منها انبوباً كل يوم . حتى اذا أشرف النهار على نهايته ، كان مرهقاً نافد القوى ؛ واذ ذاك كان يأتي حركات غير واثقة ، بعد ان يكون تنبّهه قد تراخى ، ويقول غالباً كلمة بدلاً من اخرى ، وكنا نقضي امسياتنا في شقتي ؛ وكان الكحول يستخف برأسه لمجرد شرب كأس واحدة ، فكنت اقول له : « هذا يكفي » ؛ ولكن ذلك لم يكن يكفيه ، فكنت أقدّم له كأساً اخرى على مضض ؛ وكان يطلب كأساً ثالثة ؛ وقد كان منذ عامين محتاجاً الى اكثر من ذلك ؛ ولكن مشيته وكلامه الآن كانا يرتبكان بسرعة ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكنت اردّد : « هذا يكفي » . وقد تولاني غضب عنيف مرتين او ثلاثاً ، وأرسلت يوماً بالكأس تتحطم على بلاط المطبخ . ولكن كان يرهقني ان أتخاصم معه . ثم اني كنت أعلم انه كان بحاجة الى راحة الأعصاب ، اي الى ان يهدم نفسه قليلاً ؛ ولم اكن احتجّ الا عند الكأس الرابعة . فاذا تركني وهو يترنّح ، كنت اواخذ نفسي على مسلكي . وكانت تنتابني ألوان من القلق الحادّ الشبيه بالذي عانيته في حزيران ١٩٥٤ .

كنت أؤمّل ان يحمل لي الثلج بعض المرح . ولكن الاسبوعين اللذين قضيتهما في « كورشوفيل » قد خيّباني . وكنت أحسبني أستعيد شبابي ، حين انتعلت لعامين انقضيا آلة التزلج : كان عمري يتحدّد بأني لم اكن أتقدّم . وكان لانزمان نادراً ما يصحبني على حلبات التزلج : كان يكتب لمجلة « التان مودرن » مقالاً عن خوريّ « اورف » . وكانت مدهشة قصة ذلك الكاهن وهو يقتل المرأة التي جعلها تحمل منه ، ثم بقر بطنها ليعمّد الجنين ، ودقّ الجرس فاضحاً الجريمة ، ومساعداً ابناء رعيته على البحث عن القاتل . وقد كانت المحاكمة اشدّ من ذلك ادهاشاً ، وقد استخرج لانزمان مغزاها بخبث وصرامة : « إن وجهة نظر الكنيسة » كانت تطلب رفض فهم الخوري ورفض معاقبته في وقت واحد » . كان الكاهن قد أنقذ رأسه ، في حين ان قاتليْ سان كلود — اللذين لم يكونا اقل جدارة بالرحمة ، باعتبار انهما صبيان نصف متأخرين ، وقد قضيا طفولتهما في المياتم — قد حكما بالاعدام [1] . وكان نزلاء الفندق يجدون من الطبيعي جداً اعدامهما : ولم اكن استطيع ان اتجنّب الاصغاء ، اثناء وجبات الطعام ، الى ما كانوا يقولون . من أجل هذا خاصة كان مكوثي ذاك غير سعيد : فكأنما كنا قد بقينا في فرنسا . لقد كنت غارقة في هذه البورجوازية كلها التي كنت أفرّ منها في باريس . صحيح ان الرجل والزوجة كانا يشكوان من انه ليس من حقّ البلجيكيين في الكونغو ان يقتلوا الزنوج بعد . لقد كانا بلجيكيين ؛ ولكن الفرنسيين الموجودين كانوا يفهمون حسرتهما .

---

(١) وقد عفي عن أحدهما .

وحين اردت في نيسان ان اسافر بضعة ايام بصحبة لانزمان ، اخترنا انكلترا : الشاطيء الجنوبي ، الكورنواي . وكان الفرنسيون الوحيدون الذين يوحون لي جماعياً بالودّ ، هم من الشبّان ؛ وقد طلب مني طلاّب يساريون ان ألقي في السوربون محاضرة عن الرواية ، فقبلت : لقد كنت أعيش منسحبة من الحياة العامة الى حدّ أني ، حين دخلت قاعة المحاضرات ، لاحظت من استقبال الجمهور لي ، اني لم اكن مجهولة لديه . ودفّأتْ صداقته قلبي : وكان بحاجة لها .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل التاسع

أدّى قصف قرية « ساقية » الى تدخّل « المساعي الحميدة » الانكليزية والاميركية ؛ وكان الحديث يجري عن « ديان بيان فو » دبلوماسية ؛ وكان الجيش يصيح بأعلى صوته أنه لن يوافق عليها . وبدأ الحديث عن عودة ديغول . ولم يكن ينبغي الاعتماد على الشرطة لحفظ الأمن الجمهوري . وكان عددٌ من رجال الشرطة قد قُتلوا في باريس على ايدي جزائريين – لا بطريق الاتفاق ، وانما في معظم الاحيان بدافع انتقامات فردية – فتظاهر رجال الشرطة بعدد كبير يوم ١٣ آذار امام المجلس الوطني . كانت شبكة « ديد » قد أفسدت الشرطة ، فجعلتها تتعاطف مع الروح الفاشستية : فبعد ان أسقط سوستيل وبيدو ، يوم ١٥ نيسان « غايار » ضاعف اليسار المؤتمرات والاجتماعات ، ولكن « الوطنيين » الذين كانوا يأتون للاعتداء على الخطباء ، كانوا واثقين من حماية الشرطة لهم . وكان يبدو مستحيلاً اقامة اي تركيب وزاري ، وكان اسم ديغول يعود بعد فترة الى بساط البحث . وذُكر يوم ٦ ايار اسم « فليملن » ، ولكنه كان بحاجة ، لكي يكلّف بتشكيل الوزارة ، الى أصوات المستقلين الذين لم يكونوا ينجحون في اتخاذ قرار في هذا الصدد .

كانت جبهة التحرير الوطنية قد امتصّت معظم « الحركة الوطنية الجزائرية »

وأحدثت مخالفات مسرحية [1] . وكانت تطلب ان تطبّق على جيش التحرير الجزائري اتفاقيات الحقوق الدولية . وحين أعدمت الحكومة الفرنسية مقاتليْن جزائريين بالمقصلة ، أُعدم ثلاثة اسرى فرنسيين بالرصاص . وقررت مدينة الجزائر ان تتظاهر يوم ١٣ ايار احتجاجاً على هذا العمل الانتقامي .

* * *

كنت مساءً في شقتي مع لانزمان حين تلفن لنا « بويون » وهو سكرتير محرر في المجلس الوطني : لقد تحولت مظاهرة الساحة الكبرى الى ثورة ؛ فاستولت الجموع وعلى رأسها لاغايارد على مقر الحكومة العام ؛ وكان ماسو يرأس لجنة للسلامة العامة ؛ وبالاختصار كانت الجزائر ، لكي تظلّ فرنسية ، تنفصل عن فرنسا ، بتأييد من الجيش . وتبعت ذلك مخابرات تلفونية اخرى ، فقد كان صحفيون أصدقاء ينقلون الينا آخر البرقيات . واخبرنا بويون من جديد بأن جواب مجلس النواب كان حازماً ، فقد صوّت على الثقة بفليملان بـ ٢٨٠ صوتاً ضد ١٢٠ ، وقد استنكف الشيوعيون مبدئياً عن التصويت . واويت الى فراشي وقد عادت إليّ ثقتي . وسرت شائعة في اليوم التالي ان الكولونيليه حين عرفوا تصويت مجلس النواب امتقع لونهم ، وقال أحدهم : « لقد خسرنا ! » وقطع فليملان المواصلات بين الجزائر وفرنسا : إن الثورة ، تجاه هذا الحصار ، لن تصمد اكثر من ثمانية أيام . ويوم ١٤ ايار ، لم يكن احدٌ حولي شديد القلق . وكان لانزمان قد دُعي ، مع وفد صحفي من اقصى اليسار ، الى زيارة كوريا الشمالية : وقد تساءل في الليل عما اذا كانت هذه الرحلة لن تلغى ؛ اما الآن ، فلم يعتقد ذلك .

وعرفنا في اليوم التالي ان سالان صاح في الساحة العامة ، عند الصباح : « يعيش ديغول » ، وان ديغول أعلن في بلاغ : « انني مستعدّ للأضطلاع بسلطات الجمهورية » . وأعاد فليملان الاتصالات مع الجزائر ولم تتخذ اي

---

(١) ففي يوم ١٨ نيسان ، هرب الى تونس تسعة لاعبين من لاعبي كرة القدم الجزائريين التابعين لفرقة فرنسا ، وعشرة صف ضباط جزائريون من سان - مكسانت والمفتي الأكبر الأقدم »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تدبير آخر . وفي اليوم التالي ، وصفت الصحف التظاهرة المرائية التي نُظّمت في مدينة الجزائر وفي البلاد كلها باسم « التآخي » .

وفي المساء الذي سمعت فيه في مسرح ساره برنار « الحكم على لوكولوس » لبريخت ، وهي هجوم عنيف ضد الحرب والجنرالية ، صفّقت القاعة تصفيقاً حادّاً ؛ ولكن الحضور كانوا مثقفين يساريين ، معزولين منذ وقت طويل في بلدهم . لقد كان الشيوعيون دعاة تفاؤل . وكان لانزمان يمثل سارتر في لجنة مقاومة الفاشية ؛ وكان ريمون غويو يصرّح في كل جلسة : « يجب اولاً ان نبتهج : فان لجاناً تتشكل في كل مكان ... إن الوضع ممتاز » ولكن الاضراب العام الذي قامت به النقابات يوم ١٩ ، أصيب بالفشل . وفي اليوم نفسه، عقد ديغول مؤتمراً صحفياً روى لنا لانزمان تفاصيله بينما كنا نتناول العشاء في « لابوشوري » مع بوست وزوجته ؛ وكان قد تعرف في المجلس الوطني الى جميع وجوه تجمّع الشعب الفرنسي . وقد طلب ديغول ، لكي يتولى الحكم ، سلطة استثنائية ، وأعلن أنه كان يريد ان يُدعى دعوة شرعية من البلاد كلها . وكان ثمة سيدات من سيدات المجتمع يستمعن منتشيات ؛ وكان مورياك من الجذل بحيث كاد يغمى عليه . وسأل بورديه الجنرال ديغول ألا يعتقد انه كان يلعب لعبة الثوار ، فأجاب ديغول : « إن عالمك ليس عالمي » ولم يكن لانزمان يشك في انه سينجح في عمليته ؛ لقد كانت الديمقراطية البورجوازية تؤثر أن تغرق ذاتها لصالح ديكتاتور على ان تحيي جبهة شعبية . ولم يكن بوست يريد ان يصدق ذلك : فتراهنا على زجاجة ويسكي .

وذكر آنذاك ان بعض الاميركيين كانوا متوقفين في مطار اورلي ، في اثناء رحلة لهم ، فرفضوا ان يغادروا الطائرة لأنهم كانوا يظنّون باريس غارقة في النار والدم : وقد أضحكتنا القصة ، بلا مرح . وكان كل شيء يجري في هدوء جنائزي . كانت البلاد تستسلم للاقتناع بأنه لم يكن ثمة الا حل واحد : اما ديغول او المظليون . كان الجيش ديغولياً ، وكان البوليس فاشياً . وكان موك قد اقترح تجنيد ميليشيا شعبية ؛ ولكن الهمّ الوحيد لليمين والاشتراكيين ،

في اللحظة التي كان المظليون يستعدون فيها للزحف على باريس ، هي تجنّب « ضربة براغ » . وكان النداء الذي وجّهه ديغول يوم ١٩ الى موليه قد صدم بفظاظته المعنيّ نفسه؛ ثم استعدّ للاجابة عليه . واما عدم تحرّك البروليتاريا فكان ينبغي اعتباره موافقة ، فلولا ديغول ، لحدثت انتفاضة بلا شك ؛ ولكن حكومته بين ١٩٤٥ و ١٩٤٧ لم تكن أسوأ من التي أعقبتها ؛ كان يحتفظ بنفوذه كمخلّص ، وكان يعتبر شريفاً ، لابتعاده عن قضايا المال . وكانت مدينة الجزائر تنتصر بفضله .

وما كان يبدو يوم ١٣ ايار مستحيلاً ، كان يبدو لنا يوم ٢٣ لا مفر منه . كان المستوطنون والجيش قد ربحوا . وسوف يمرّ كل شيء بلا نزاع : وكان ذلك من البداهة بحيث ان الوفد الذي كان ينتمي لانزمان له قرّر ان يؤجل سفره . وكان يودّ لو يبقى ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتخلّى عن الآخرين . وذهبت أقضي معه يومين في فندق قريب من « هونفلور » التي كنا نحبّها . وقد قال لي ، وهو يدلّني على براعم التفاح المزدهرة ، بصوت حزين :

— حتى العشب ، لن يبقى له اللون نفسه .

والحق ان ما كان يرهقنا هو ان نكتشف فجأة الوجه الذي كانت فرنسا قد اخذته رويداً رويداً : فقد أصبحت بعيدة عن السياسة ، جامدة ، على وشك ان تستسلم للرجال الذين كانوا يريدون الاستمرار في الحرب الى نهايتها .

وصحبت لانزمان الى اورلي صباح ٢٤ ايار . وعرفنا بعد ظهر ذلك اليوم ثورة كورسيكا . وقد كانت تلك في نظري ونظر كثيرين اياماً محيّرة . وكنت قد كففت عن العمل ، بعد ان كنت قد سلّمت الى دار غاليمار ، في آذار ، مخطوطة « مذكرات فتاة رصينة » . وكنت مترددة في متابعتها . وقادتني بطالتي والقلق العام الى العودة لكتابة مذكراتي ، كما حدث في ايلول ١٩٤٠ . وقد بدأت كتابي كذلك لأريه بعد ذلك الى لانزمان الذي كان من المستحيل عليّ تقريباً ان أكاتبه . وانا انقل بعض هذه اليوميات مرة أخرى .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٦ ايار .

ايام عجيبة هذه التي نسمع فيها الراديو ساعة فساعة ، ونشتري جميع طبعات الصحف . وأمس ، وكان أحد العنصرة ، غادر ٨٠٠ ألف باريسي المدينة ، فأقفرت الشوارع ، وكان الجو ثقيلاً ، ولكنه ليس حاراً ، بسماء رمادية . ومن نافذة غرفة سارتر كنا نرى سيارات الاطفائية الحمراء تمرّ بسلالمها الكبيرة وتدرج نحو جادة سان جرمين . وكان ثمة كثير من سيارات الشرطة . وقد صرّحت لجنة مدينة الجزائر الجديدة (المؤلفة من ماسو وسيدكارا وسوستيل) يوم السبت : « ديغول أو الموت » إنهم هم الذين ارسلوا « اريغي » الى كورسيكا ، ولكنهم يؤكدون كذلك انهم قطعوا كل علاقة لهم بكورسيكا .

سافر لانزمان امس الأول الى كوريا . برقية من موسكو حيث سيبقى ثلاثة أيام .

حديث مع سارتر في المساء ، في « لاباليت » ، عن كتابي . وقد ذكّرني كم كنا سعيدين في « روان » يوم كنا في غفلة الشباب (انني أتمثّل حانوت بول حيث كنت أصحّح مسوداتي) يجب ألاّ أخون هذه الفترة بسردها .

إن اليوم مثلج . والريح تدافع اللبلاب على جدار المقبرة وتدخل الشقّة من جميع ثقوب النوافذ . إن العمل الذي اباشره سيستغرق مني ثلاث سنوات او أربع ، وذلك مخيف بعض الشيء . وأعتقد ان عليّ ان اجمع اولاً ، دفعة واحدة ، عدداً كبيراً من المواد .

أجل ، النهار بطوله ايضاً ، اثنين العنصرة هذا ، كانت بارس افرغ منها بالأمس ، وكانت الصحف مراقبة ، والصحافة الأجنبية ممنوعة — جوّ كارثة لا مذاق له . لقد هطل المطر ، وكانت ثمة عاصفة كبيرة مع رعود . تناولنا طعام الافطار في « لاباليت » مع ناظم حكمت . سبعة عشر عاماً في السجن ، وهو الآن مضطر الى ان يظل مضطجعاً اثنتي عشرة ساعة في اليوم بسبب قلبه . إن حديثه لساحر . وقد روى كيف انه ، بعد عام من مغادرته السجن ، تعرّض لحادثي اغتيال (بواسطة السيارات في شوارع

استامبول الضيقة) ثم شاءوا ان يرسلوه ليقوم بالخدمة على الحدود الروسية : وكان في الخمسين من عمره ، وقال له الطبيب : « إبق نصف ساعة واقفاً في الشمس وستموت . ولكن عليّ ان اوقّع لك شهادة بأن صحتك جيدة . » واذذاك ، فرّ عبر البوسفور، على قارب بخاري صغير ، في ليلة عاصفة : ذلك ان المضيق في الطقس الهادىء يكون في مراقبة جيدة . وكان يريد ان يصل الى بلغاريا ، ولكن ذلك كان مستحيلا بسبب البحر الهائج . والتقى بسفينة شحن رومانية ، فأخذ يدور حولها وهو يصيح باسمه . فحيّوه ، ولوّحوا بالمناديل ، ولكنهم لم يتوقّفوا . فتبعهم واستمر يدور في العاصفة الشديدة ؛ وبعد ساعتين توقفوا ، ولكن من غير ان يطلبوا اليه الصعود . وتعطّل محرّك قاربه ، فاعتقد بأن النهاية قد دنت . ثم رفعوه اخيراً الى السفينة : وكان لا بدّ من الاتصال تلفونياً ببخارست لتلقي الأوامر . كان يرتعش ، نصف ميت ، حين دخل غرفة الضباط . وكان ثمة صورة كبيرة له مع عبارة « انقذوا ناظم حكمت » وأضاف ان أغرب ما في الأمر هو اني كنت قد أُطلق سراحي منذ عام .

تلفن لانزمان من موسكو . انها الساعة السابعة هنا ، والتاسعة هناك ، وكان الليل يهبط على نهر الموسكفا . ما اقربه ، وما ابعده . واقترب منه شبّان وهو على باب الفندق وهم يتمتمون : « بزنيس ؟ » كانوا يريدونه ان يتخلّى لهم عن ثيابه مقابل فتيات يقدمونهن له . إنه شارد ، قلق للأحداث التي لم يكن يعرف عنها شيئاً الا من مراسل « الاومانيتيه » .

صعوبة في العمل . اننا ننتظر ، لا ندري ماذا .

قضيت الأمسية مع سارتر وبوست . ورحنا نتأمل الاحداث .

الثلاثاء ٢٧ ايار .

غداء مع سارتر في الكوبول . كانت « اللجنة العامة للعمل » قد اصدرت أمرها باعلان الاضراب ، ولم تتبع « القوة العمالية » و « الاتحاد الفرنسي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للعمال المسيحيين » امر الاضراب ، ولكن الناس كانوا يتوقعون مع ذلك شيئاً : لا شيء . عادت الباصات للسير ، والمترو . في التاكسي ، وفي الاذاعة نهاية تصريح ديغول . اجل ، انه « ربع الساعة الأخير » كما كتب دوفيرجيه . ويقول السائق : « لقد بُعصوا . كفاهم استهزاء بنا ، وأخذاً لأموالنا ، وقتلاً للناس في الجزائر ! » كان غاضباً على الذين صوّتوا للسلطات الاستثنائية ، وكان يرسل تحية للجيش ؛ كانوا هم ايضاً يستهزئون بالناس ، « وانتم ترون كيف يسير اضرابهم » لا شك في انه يساري ، يوشك ان يقبل ديغول ، بدافع من غضب . اية شعوذة ! إن كل شيء سيتمّ في عذوبة ، ثم يتصلّب . بلاد تُترك للاهمال ثم للاشمئزاز . ما اشدّها من هزيمة ! شعورٌ بأن المرء يعيش اياماً « تاريخية » ، ولكن على غير الطريقة الحادة لأيام حزيران ١٩٤٠ . ايام مخاتلة موحلة ، كتلك التي يرويها « غويومان » .

كان ثمة في هذا الليل اشياء فظيعة سوداء ، ملويّة كفروع الكَرْم ، تسقط من السماء ؛ وكانت احداها تهبط الى جانبي ، فاذا هي افعى ، واذا الخوف يمنعني من الفرار . وتمرّ سيارة شرطة ، فأقفز اليها : كانوا يقومون بمطاردة الأفاعي التي كانت قد انقضت ساعات وهي تهاجم البلد ــ وهو بلد غريب من الغابات المتوحشة والطرق الوعرة . ولكن الرؤية الوحيدة الأخاذة ، كانت تلك الأشكال الجلّيانية التي تسقط فوق رأسي .

طوال النهار ، مخابرات تلفونية ، كليلة ١٣ ايار . وصديقي المرسيلي الشاب يكتب لي كل صباح . إن المرء بحاجة الى ان يتكلم مع الآخرين ، حتى ولو لم يكن لديه ما يقوله .

تلفن « بيجو » (في الساعة السادسة) بأن فليملان خرج من لدى كوتي متحلّل الوجه ، وان ديغول قد غادر كولومبي . إنه يعود . ليس ثمة اي اضراب ، الا عند عمال مناجم الشمال . وكان ديغول قد قال هذه الليلة انه اذا لم يعط السلطة خلال ثمان واربعين ساعة ، فسيأخذه . إن الجيش معه . وفي تولوز ، طلب الى القيادة العسكرية ان تؤمن النظام (بسبب المظاهرة

المتوقعة هذا المساء) فرفضت .

يعمل سارتر في مسرحيته ؛ واحاول انا أن أهتمّ بماضيّ . كان لانزمان يقول لي ونحن على طريق « هونفلور » : « حتّى العشب لن يبقى باللون نفسه . » وانظر الى ساحة سان جرمان وافكّر : « إنها لن تكون بعدُ المدينة نفسَها » .

اخبار الساعة ٧,٣٠ : ربما كان هناك أمل .

الاربعاء ٢٨

قضينا امسية الأمس مع ليريس وزوجته ؛ وقد استمعنا لديهما إلى الراديو ؛ وكان مستحيلاً ان نلتقط راديو لوكسمبورغ ، فلم نحصل الا على راديو الدولة . جلسة الليل : فليملان طرح على التصويت الدستور . ذكرى الوقت الذي كنا نستمع معهما ايضاً الى الراديو ، حين عودة الألمان الى بلجيكا .

هذا الصباح ، طقس رائع . استمعت الى الاخبار . حصل فليملان على اغلبية ٤٠٠ صوت مقابل ١٠٠ ، المستقلّونغادروا الوزارة ، فاستقال ولكن من غير ان يخلق « عطلة السلطة » . اعلن كوتي ان وزارة جديدة ستتشكل منذ هذا المساء .

المفروض ان تقوم مظاهرة كبيرة هذا المساء . وقد ذهبنا نراها .

الجمعة ٣٠ ايار .

لا أستطيع ان اكتب شيئاً آخر غير هذه اليوميات ، بل لا اكاد اكون راغبة في كتابتها ، ولكن يجب ان اقتل الوقت . يوم الاربعاء ، غداء في « لاباليت » مع كلود روي الذي طلب ان يعاد ثانية الى الحزب الشيوعي ، وسيُقبل دون شك . وهو يستشهد بكلمة لديغول عن مالرو الذي يعدو في باريس : « لقد أخذ عليّ ان أمضي بعيداً حتّى ضفة نهر « الروبيكون » للصيد بالشبكة ، وها هو الآن ، بعد ان قفزت النهر ، يصطاد في المستنقع » . والواقع ان مالرو قد قضى الوقت كله في البندقية وهو يتحدّث عن الفنّ .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكنه عاد امس الأول وهو ينتظر ، على حد ما قال فلورانس ، ان يعيّن وزيراً للأنباء او للثقافة .

في الساعة الخامسة من مساء الاربعاء قصدنا بالتاكسي محطة مترو روي–ديدرو . مظاهرة طويلة على الرصيف الأيسر : شيوعيون ، كما يبدو واضحاً ، يحملون لافتات : « تعيش الجمهورية » وفي محطة المترو ، انتظرنا لجنة الدائرة السادسة ، ولكن ثمة ايضاً « اللجنة الوطنية للتطهير » التي تواعدت هناك على اللقاء . ويخرج من فم المحطة أشخاص نعرفهم : بونتاليس ، شابسال ، شوفار ، اداموف وزوجته ، بوزنر وزوجته ، آن فيليب ، تزارا ، جيجيه واختي . وقد دهش الجميع لرؤية هذا الجمع الهائل : وكان كل انسان يخشى ان تفلس المظاهرة . وكانت محطة « لاناسيون » سوداء بالناس . ومشينا خلف لافتة « البوزار » لنلتقي خلف « حقوق الانسان » ثم في مكان غير متميّز . وكان ثمة جمهوريون شيوخ يذوبون فرحاً لأن ذلك كان يعيد اليهم شبابهم ؛ انهم يقفزون في الهواء ، ليروا فوق الرؤوس طول الموكب ، وعندذاك تشرق وجوههم ؛ ويتسلّق أناسٌ بعض الأعمدة ، وسط الشارع ، او يعتلون كتف رفيق لهم ، ثم يقومون باشارات موافقة : إن الموكب لا ينتهي ، لا من هذه الجهة ولا من تلك . وعلى طول الأرصفة ، يصفّق الناس ويصيحون معنا : الواقع انهم متظاهرون ، جموع مرحة ، جموع عاقلة تطيع الأوامر ، ولم يكن الهتاف : « تعيش الجمهورية » بل كان خصوصاً : « لن تمر الفاشية » وكان ثمة هتاف « ماسو على المشنقة ؛ سوستيل على المشنقة » وهتاف أقل « ليسقط ديغول » وكان هذا هتافاً حيّياً . وقد نجحت شعارات : « ديغول في المتحف – المظليون في المعمل » . (هذا التحفظ ، اكان بدافع الحرص على اطاعة الأوامر ، ام على احترام ديغول ؟ على اي حال ، اذا جرؤ احدهم فقال : ديغول على المشنقة ، كانوا يسرعون الى اسكاته) ويغنّي الجمع نشيد « المارسيلياز » أو « نشيد الرحيل » . ويغني سارتر بأعلى صوته . وكان ثمة شابان طويلان ومعهما فتاتان جميلتان لا يكفّون عن الهدير ؛ وكان على

النوافذ فضوليون كان كثيرون منهم يبدو لنا الودّ ، وكان اطفال يصفقون . وكان فوق « البيرسو دوريه » ثلاث عجائز ، ذوات شعر ابيض ، مستندات الى وسائد مذهبة ، وكن يحييننا بحركات ملكية . وتستمر انوار الاشارة في الانتقال من الأحمر الى الأخضر بالرغم من ان السير لا ينقطع . على ان الموكب كان بين الفينة والفينة ينحصر ، فنتوقف ثم نستأنف السير . وامام مركز البوليس ، يقف رجال الشرطة جامدين لا يتحركون ، ويلتفت الجمع اليهم ليهتف بعداء : « ماسو على المشنقة ! » انها مظاهرة حارة ، جماعية ، مؤثرة . ويبدو أن المنفيين قد تظاهروا بلباس مخطّط ، وان المرضى ومشوّهي الحرب في سياراتهم . وكان الوصول الى ساحة « الجمهورية » مخيّباً ؛ ولم نكن قد توقّعنا شيئاً . كان ثمة أشخاص قد تسلّقوا قاعدة التمثال ، وهم يلوحون يلوحون بالأعلام ، ولكن لم يُعط اي امر ، وهكذا تفرّق الجميع . وسمعت بعض الصيحات : « الى الكونكورد » ولكن لم يتبع أحد ؛ والحق ان احداً ما كان ليمرّ . لم يكن ثمة شرطي واحد في الطريق ، ولكن الجانبين كانا محروسين بسيارات قوى الأمن . لم يكن الجمهور مقاتلاً . والمدهش هو الاندفاع الذي استخفّ بالجميع ؛ فحتّى ابعد الناس عن السياسة في القرى كانوا قد جاءوا . ولكن عدداً منا كانوا يلاحظون ان الناس كانوا في مزاج طيب ، مسرورين ان يصرخوا وان يغنّوا ، ولكن غير عازمين ابداً على ان يعملوا . وكان الاضراب عشية الأمس قد أخفق ؛ وفي اليوم التالي ، كانت « القوة العمالية » و « الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين » يهنئان نفسهما بأنهما قد تظاهرا « مستقلين عن الاتحاد العام للعمل » . لن يكون ثمة بالتأكيد اضراب عام . وقد صعد بوست وأولغا وأبتكمان وزوجته الى الطابق الأول من « اوتيل مودرن » حيث كان يعمل صحفيون اميركيون ، بمساعدة مقادير كبيرة من الويسكي ؛ فقالوا إن المنظر ، من ذلك الارتفاع ، كان أخاذاً . في حين انه كان ثمة ، في غرفة الطعام بالطابق الأرضي ، على بعد عشرة امتار من الشارع ، نساء انكليزيات بأثواب طويلة يأكلن حساءهن بلامبالاة . ويبدو ان الناس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد هتفوا لمنديس فرانس في ساحة « لاناسيون » ، ولكن بعد ان تفرّق الناس هاجمه بعض الفاشست ، فلم يكن لهم حظّ .

عدنا الى شقة سارتر متأثرين ، وفي قلوبنا فجر من أمل . ولكن الانباء السيئة وردت على التو : لقد هبط المظلّيون (وقد سرت هذه الشائعة اربعة ايام) ؛ لم يكن الجيش ولا قوى الأمن تدعم الحكومة ؛ غادر ديغول كولومبي وسيستدعيه كوتي في الليل . وكان سارتر مرتبطاً بموعد في المساء ، ولم اكن أطيق ان اكون وحدي ، فقصدت مطعماً في شارع ستانيسلاس لألتقي ببوست وابتكمان وزوجتيهما . واستقللنا السيارتين اللتين كنا قد تركناهما في شارع « فوبور سانت اونوريه » وطفنا حول قصر الاليزيه المشعّ ؛ وكان الوقت منتصف الليل تقريباً ؛ وكان الجمع الذي جاء باعداد كبيرة في المساء قد بدأ في التفرّق ؛ وكنا نسمع عبارة « ماسو في باريس ! المظليون في باريس ! » وكانت هذه العبارة صادرة عن جمع من الأربعينيين المعتبرين (نسيت ان اقول ان البورصة تصعد بجذل ، وان الليرة الذهبية نابليون قد انخفضت ٧٠ فرنكاً) وقد دفعتهم الشرطة بكل تأدّب . وكانت فرق من قوى الأمن بسياراتهم المعتمة ، خارج السيارات ، والاسلحة في ايديهم ، يحاصرون كل شيء ؛ لو انهم كانوا جمهوريين ، لشعرنا بأننا محميّون ، ولكنهم في الظروف الحالية ، يخيفون . وكانوا يتركون الجمع يمرّ ، راكبين او راجلين . وكانت بربارا ابتكمان تبسم لهم بجاذبية ، فيردّون عليها بعبارات لطيفة . وقد سألتهم :

ــ ماذا تنتظرون ؟

ــ ديغول ؛ ولكن مضت ساعتان ونحن ننتظره ، فلم يأت .

وقال آخرون : ــ نحن من بوردو ، ولا ندري ما نفعل هنا .

وآخرون : ــ ننتظر ان نقاتل .

مظاهرة هائلة لسيارات أنيقة تسير الهوينى بسبب صعوبة السير .

ــ اين انتم ذاهبون ؟

– نرى ديغول .

تاكسي من مطعم مكسيم ، بشكله القديم ، وسائقه الانيق وأسلحة مكسيم على الباب ، وكان في داخله رجل باللباس الرسمي وامرأة رائعة بثوب أحمر ، تغطيها الجواهر . لكأنه تمثيل سينمائي : اللمحة النموذجية غير المنتظرة في فيلم سيصوّر بعد عشر سنوات . وخرجت سيارة من قصر الأليزيه ؛ كان يبدو ان الامر قد انتهى وان ديغول لم يأت . ومررنا أمام مجلس النواب ، ثم ذهبنا نشرب قدحاً في «لابوشوري» . وكان المقهى غاصاً بالأشخاص الذين كانوا قد تظاهروا بعد الظهر ، وكان كل منهم دهشاً ان يلقى هذا العدد الكبير من رفاقه . ولكن لم يكن ثمة من يعرف ما كان يحدث الآن ، وكان جهاز بوست للارسال قد تحطّم . وتلفنت لبيجو . لم يكن أمر المظليين وارداً بعد ، وكان الاشتراكيون صامدين في وجه ديغول . وبالفعل ، فقد عاد ليلاً الى كولومبي . وكان ابتكمان مقتنعاً مثلي بأن الاشتراكيين سيخونون . وكان صباح اليوم التالي (أمس ، الخميس) ذا حزن غريب . كان الجو رائعاً ، وقد خرجت اقرأ الصحف ، وكانت العصافير تغرّد في الحدائق ، وكانت أشجار الكستناء تفقد زهورها . وجلست على سطيحة المقهى ، عند زاوية جادة ادرليان . كانت « الفيغارو » تنتقد المظاهرة . وكانت « الاومانيتيه » تقدّر عدد المظاهرين بـ ٥٠٠ الف ، وهذا ما عاد عليّ بالخيبة ، لأني كنت أظنّ اننا كنا حقاً ٥٠٠ الف . وكانت الاكسبريس على وشك ان تغرق نفسها ، مع مقال محزن لمورياك . وعدت وانا غير قادرة على قراءة الصحف بجدّ ، وغير قادرة على الكتابة ، وغير قادرة على شيء . كنت معقّدة بالقلق والضيق . وعلى الرصيف كانت القمامات ملآى بالأقذار ، لأنه كان ثمة اضراب لعمّال التنظيفات .

وفي النهار ، بدأت الخيانة . فنُشرت الرسالة التي يطلب فيها اوريول الى ديغول ان يستنكر حركة الجزائر ، وصرّح تسعة وستون نائباً اشتراكياً انهم ، اذا فعل ذلك ، فسيصوتون له بالثقة « تجنّباً لحرب مدنية » . وتناولنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الغداء لدى بويون وزوجته . وهناك سمعنا رسالة كوتي لمجلسي الشيوخ والنواب : كان يهدّد بالاستقالة اذا لم يكلّف ديغول . وعاد ديغول في المساء . فجمع في قصر الاليزيه رؤساء الكتل « الوطنية » . ورجع ثانية الى كولومبي في الليل . سيمرّ نهارٌ آخر من المناورات ، وستقدّم التمثيلية وفق سيناريو وضع ونفّذ ببراعة .

وفي الغداء ، تحدّث بويون حديثاً مسلّياً جداً عن الاخلاق والطقوس البرلمانية . وكان حاضراً ليفي ستروس الذي كان على صمته المعهود . وقد سأل بلهجة مندهشة :

— ولكن لماذا يحتقر ديغول البشر ؟

وهذا ما كان لطيفاً ، لأنه يتصنّع الاهتمام بالحيوان والنبات في بلدٍ ما اكثر من الاهتمام بسكانه ؛ ولكنه في الواقع ذو نزعة انسانية ، ولا شيء ينفّره اكثر من فكرة « العظمة » .

في شقة سارتر عند الساعة الخامسة : جرائد راديو ، غيظ . ولكنه مع ذلك يشتغل .

الأمسية مع اولغا . وقد طلبت الى بوست ان يلحق بنا الى الكوبول . وكان يصحبها صحفي يساري شاب يرفض ان يصدق ان ديغول قد اشترك بمؤامرة . وراح يتأمّل في « شخصيته » و « طبعه » مما أثار أعصابي . وعدت الى شقتي ، في حالة من الغيظ الشديد .

السبت ٣١ ايار

لا أدري لماذا عاودني الهدوء ؛ ربما لأن سارتر امتنع عن تناول الكوريدران وهو يجهد لكي ينام ويهدأ ، وكان ذلك مُعدياً . ثم إن اللعبة قد تمّت خصوصاً ، وخسرنا المعركة ، وكما كان يقول تريستان برنار بعد اعتقاله : لقد انتهى الآن عهد الخوف ، وبدأ عهد الأمل . سيكلّف ديغول هذا المساء ، بكل تأكيد . سيتفسّخ على الأقل حزب « القسم الفرنسي من الدولية العمالية »

S. F. I. O. وقد كان اضراب المعلمين الذي أيّده آباء الطلاب أمس انتصاراً كاملاً في القسم الابتدائي والتكنيكي ، ونصف انتصار في الثانوي . سيكون ثمة قوى معارضة ذات خطر ، وسيكون لها شأنها بلا شك .

وحدثت أحداث مساء الخميس في سان جرمان ديبريه ، وكانت ايفلين حاضرة . كانت سيارات جميلة ملآى برجال جميلين صاعدة نحو الشانزليزيه ، فحدث تعرقل في السير ، فأخذوا يطلقون زماميرهم « الجزائر فرنسية » . وفرغت المقاهي ، وخرج جميع « القرويين » ، فعثروا على قطع من البلاط امام الكنيسة ، فالتقطوها وقذفوا بها السيارات. وتبعت ايفلين بالسيارة مع روبير موكب السيارات الجميلة . وحول قصر الاليزيه ، كانت السيدات بأثواب السهرة والقفازات الجلدية والجواهر ، يتآخين مع اعضاء قوى الأمن المعتمرين بالخوذات .

كان بعض الناس ، حتى في ما حولنا ، يتراخون ويتراجعون . وقد قال : « ز » ذات لحظة :

— إن ديغول هو على اي حال خير من ماسو !

ويشرح لي جان اليوم ان الاشتراكيين إن لم يصوتوا لديغول ، فستقع الحرب الأهلية . وهو ينتظر ان يحكم ديغول مع منديس فرانس ويقلب الاقتصاد . وقالت لي زوجته ، حين أصبحت وحيدة معي :

— انت تفهمين ، اننا بحاجة الى التفكير بأن جان لن يكون مضطراً الى الاستقالة .

تناول سارتر الغداء مع كوكتو الذي لم يكن موافقاً على النداء الذي وجهته الاكاديمية الى ديغول .

مؤتمر صحفي في لوتيسيا عن التعذيب . أعلن مورياك أنه ديغولي ، فلم يصفق له الحضور الا قليلاً . تدفق كبير . الصحفيون قليلون بالفعل ، ولكن عدد المفكرين خمسمئة .

أقرأ في هذه الفترة اكثر كثيراً مما أكتب . قرأت في «كريتيك» مقالاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هاماً عن بحث العمليات الحسابية . لو كان على آلة حاسبة ان تحسب « أفضل » وضع في حالة كهذه : اقصر طريق لزيارة عشرين مدينة اميركية ، لاستغرق ذلك منها مئتين وخمسين ألف سنة . اما الانسان فيلجأ الى الطرق المختصرة » ؛ وكل انسان متعلّق بآخرين يتخذون قراراتهم ايضاً بطرق مختصرة . كل شيء يتمّ على مستوى ليس « الأفضل » فيه موجوداً .

إن لانزمان يصل اليوم الى كوريا . وضع عجيب .

حين كنت عائدة من شارع بلوميه ، امس حوالي الساعة الثالثة ، رأيت فرقاً من الشباب يذرعون الطريق في جادة باستور . وقال لي سائق التاكسي :

ــ لقد طردهم رجال الشرطة ، ولكنهم يعودون .

وقد كانوا أشخاصاً من اليمين كانوا يريدون فتح صفوف معهد « بوفون » . وقال السائق :

ــ انني لن اشترك بعد بالاضرابات ، فقد فهمت ، اننا لا نشتغل بينما يشتغل الآخرون ، فلا فائدة ... ما الذي سيحدث ؟ إنه لن يكون أسوأ مما كان سابقاً .

وذلك كان هو التفكير الذي يسمع في كل مكان : إن الأمور ستتغير على الأقل ، ولن تكون اسوأ من ذي قبل . ومع ذلك ، فان السائق يضيف ، متحدثاً عن ديغول :

ــ كل هذا بسبب غلطته : ففي عام ١٩٤٥ ، لم يكن عليه الا ان يطرد جميع اليهود .

وحين انفجرت ضاحكة ، انتهى الى القول :

ــ انني لا أفهم شيئاً مما يحدث ، لا أفهم شيئاً من شيء . اننا لا نفهم شيئاً . وإن لي ابناء في الجزائر !

وأعلن الراديو مساء امس ان هناك مظاهرات اخرى في الشانزليزيه مع زمامير سيارات وهتافات « يعيش ديغول » وكان متظاهرون معاكسون يصرخون « لن تمرّ الفاشية » مصادمات . عدة جرحى بحالة خطرة . الشيوعيون هم

الذين انتصروا .

هذا الصباح أقرأ بهدوء المجلات الاسبوعية وكل المقاطع التي قيلت عن ديغول . هائلة ضربة البطاقات البريدية المرسلة الى كولومبي . لا ، ليس فيه شيء من « الوجه الكبير » .

غداء ونهار هادىء مع سارتر . وحاولت ، وانا ما ازال غير قادرة على العمل ، ان اقرأ « مراكش في المحنة » تأليف لاكوتور . وأعلن الراديو تكليف ديغول ليوم الغد ؛ ولم يكن الاشتراكيون موافقين (فقد كان ٧٧ معه ، و ٧٤ضده ؛ وفي المجلس ٤٠ مع ، و ٥٠ ضد . يمكن لموليه ان يستقيل) وسوف يصوّتون افرادياً . لقد مزج ديغول خمره بالماء ؛ وسيمثل شخصياً أمام المجلس ، وقد قبل ان تؤخذ له صور . الوزارة المتوقعة يمينية ، متطرفة ، ولكن ليس فيها احدٌ من أصحاب حركة الجزائر . ولا بدّ ان الجزائر قلقة ، بالرغم من المظاهرة الضخمة التي حدثت أمس .

حين خرجت من لدن سارتر ، التقيت ايفلين وجاك ولستيان وبنيشو . كانوا يريدون الذهاب الى الشانزليزيه حيث يتوقع عرض كبير . وقد بدأ الفاشيست الصغار يفدون الى سان جرمين بصحفهم وشعاراتهم . وكان الشرطة في كل مكان . سوف يسيل الدم .

ايفلين تحضر با ستمرار لجنة الدائرة السادسة وتتنازع كل مساء . وأخذتني رغبةٌ حادّة في ان اكون شابّة ، وان اقصد الشانزليزية في اندفاع شباب حقيقي ، بصحبة فرقتها ، وربما كنت فعلت ذلك لو لم اكن على ذلك الموعد مع فيوليت لوديك . وعدت الى شقتي ، انني على اي حال سأصحبها الى سان جرمين ، انني لا أستطيع ان أبقى بمعزل ، هذا المساء : آخر مساء للجمهورية . وكانت اللجان تتنبأ بمظاهرات تحدث غداً ، ولكن ذلك يبقى غامضاً ، وهذا ما هو مقلق كذلك .

السؤال رقم ١ : ماذا يفعل ديغول في الجزائر ؟

امسية غريبة ؛ تصل « ف . ل » وترتمي بين ذراعي : « لقد ماتت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شانتال » وهأنذي غارقة في قصص بنايتها : اسير الطابق الثالث الذي حملت له طبقاً من الرز بالحليب ، فاستقبلها ببنطاله الداخلي ، ثم ارتدى ثيابه ووضع ربطة عنقه ، واخذ يلقي خطباً « سياسية » على مدخل السلم ، فطردته حارسة البيت الى « فيلجويف » . اما شانتال ، فكانت في الخامسة عشرة ، ولها شعر كثيف ، وثلاثة ثقوب في القلب ، وقد بقيت ستاً وعشرين ساعة على طاولة العمليات ، وماتت هذا الصباح ، وقد نفد كل دمها . انها تروي قصصاً حزينة ولكنها لا تخصّني ، وتمنعني من التفكير بما يعنيني . وتناولنا العشاء في « البوشوري » حيث لمحت كلود روي ، فذهبنا نشرب قدحاً في حي سان جرمين . وكان الناس منتشرين في كل مكان ، ولم يكن ثمة كرسي في مقهى « الدوماغو » . وجلسنا على سطيحة « الرويال » وظللنا زهاء ساعتين ننظر ولا نتكلم . كنا ننظر الى اثواب النساء الهائلة ، والى الوجوه ، والى السيارات خصوصاً التي كانت تروح وتجيء ملآى بالنساء والرجال المبتهجين . واحياناً باص رجال الشرطة او سيارة دورية . لم يكن شيءٌ ملحوظاً ، في منتصف الليل لولا تدفق السيارات هذا ، كأنه عودة من عطلة نهاية الاسبوع ، او بعد ظهر مثقل من الاسبوع . وكنت مسمرة على كرسي ، بجانب « ف. ل » ، أحسّني فارغة ، يستولي عليّ كلياً هذا المساء الجميل الذي لا سماء فيه (فقد كانت الأنوار تأكله) والذي لم يكن شيء يحدث فيه بالاجمال ، باعتبار ان كل شيء قد استُهلك ، ومع ذلك فقد كان شيء ما قبيح ، ينزع قناعه ، مع السيارات المتلألئة والسيدات والسادة المنتصرين .

الأحد ١ حزيران

قليل من الأرق ؛ تدهشني الكلاسيكية المدنية لأحلامي : لقد رأيت في نومي ان امرأة عارية ، نصفها لحم ودم ، ونصفها تمثال ، كانت تُغرق : إنها « الجمهورية » . تكليف ديغول بعد ظهر اليوم . قرعت جرس شقتي امرأة شابة وسلّمتني دعوة لجنتي ، لجنة الدائرة الرابعة عشرة ، للاجتماع

في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥ .
برقية من لانزمان بوصوله الى بيونغ يانغ .

الاثنين ٢ حزيران

لم أجد دقيقة بالأمس لأروي ما كان يجري . لقد تلفنت لي اللجنة . و « ف » هو الذي تلفن ، وحين قلت له « انني انا » ظلّ غير مصدّق :
— أهي انت ؟
— نعم .
— شخصياً ؟
— نعم .
ويفسر سارتر ذلك بأنه الحذر الشيوعي ، ويخبرني « ف » قرار اللجنة : يجب الذهاب لوضع زهور على تمثال « الجمهورية » . وسألت إن كان عليّ ان أنضم الى لجنة الدائرة الرابعة عشرة ؛ وسارتر ؟ فتردد « ف » ، إنه لا يدري ، وقال لي ان امرّ بالمركز ، ولكن ان اسير كذلك مع الدائرة الرابعة عشرة ، وطلب مني ان انقل كلمة الأمر ، لأنه حُظّر عليهم ايّ بلاغ ، ولم يستطيعوا ان يوزّعوا اية مناشير . إن ذلك كله يبدو لي سيء التنظيم .
كنت متواعدة مع رولان في « الدوماغو » لأنه يريد ان ينشر مقطعاً من « مذكرات فتاة عاقلة » في « الاوبسرفاتور » ، مع مقابلة قصيرة . وكانت لديه هو تعليمات شيوعية : ان يذهب بالسيارة الى سيفر « بابيلون » ليُحدث عرقلة سير (؟) وصعدت الى شقة سارتر ؛ ولمحت من النافذة بوست يثرثر مع ايفلين ، التي كانت ترتدي تنورة مزهرة وقميصاً وردياً وعلى رأسها غلالة وردية : كانت فاتنة . كانت كل يوم تكنس مركز الدائرة السادسة ؛ وقد قضت قبل ظهر اليوم بالتنقّل بين مراكز البوليس مع ريجياني لتخليص فتاة اعتقلت بتهمة توزيع مناشير ، ولكنهما لم يجداها . وعرضت علينا ان ننضم الى لجنة الدائرة السادسة التي تتجمع في الساعة الثالثة والنصف عند

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« سيفر كروا روج » .

وهبطنا في الثالثة وخمس وعشرين دقيقة ؛ ومرّ اداموف وآخرون . وصعدنا السيارة التي كانت اولغا وايفلين تنتظراننا فيها . واشتريت في شارع جاكوب بعض السوسن الأزرق والأبيض وبعض الدلبوث الأحمر : من كان يقول ، منذ عشرين عاماً ، اننا سنذهب يوماً لنضع باقة مثلثة الألوان على قدم تمثال الجمهورية ! وفي ملتقى سيفر – كروا روج ، كان كثير من المتظاهرين بأعلامهم ولافتاتهم ، بعضهم منتشر ، وبعضهم متجمّع . ومرت سيارة وأطلقت زمورها : « الـجزا ـئر ـفر نسية » . فانقضّوا عليها ، ففرّ السائق بسرعة متعرّجة ، ضاحكاً ، والشتائم تلاحقه . وصاح البعض : « يسقط ديغول » فردّ زبائن كانوا يشربون في حانة لوتاسيا : « يعيش ديغول » . مناقشة : يقترح ديزانتي وزوجته وبعض الآخرين الذهاب الى « الجمهورية » ، في حين ان الشيوعيين اعطوا تعليمات مختلفة : فأخذ الموكب يصعد من جديد بولفار راسباي ، وهو يطلق شعارات . ولما كنا ننتمي الى « اللجنة المناهضة للفاشية » ، فقد استقللنا السيارة ثانية وتوجهنا نحو ساحة « الجمهورية » ؛ وسررت بذلك لأنه كان لديّ إحساس بأن الموكب سيصطدم بالشرطة (وهذا ما حدث – بل لقد سال بعض الدم) وتركنا السيارة والزهور في جادة فولتير . وفي الرابعة الا ربعاً ، كان الناس قليلين ولكن الشرطة منتشرة في كل مكان ، فكأنها فرقة جيش : فصائل بالخوذ ، افرادها مترجلون ، وسيارات ملآى ؛ وكان التمثال محاصراً وكان يستحيل الاقتراب منه . كان الجو حاراً جداً . وثقيلاً جداً . ودرنا حول الساحة ؛ كان ثمة كثير من الناس ، ولكنهم منتشرون ، متململون ، وكان في اذرع النساء بعض الباقات (وكانت ترى كثير من الباقات ذلك الصباح في الشوارع ، ولكن لسبب آخر : كان ذلك عيد الأمهات) وعند مدخل المترو ، كانت امرأة تئنّ ، وهي ضحية نوبة أعصاب . وجلسنا على احدى السطائح : ومرّ ابتكمان وزوجته اللذان جلسا معنا . وكثير من الزبائن كانوا مثلنا ينتظرون ؛ وكان ثمة الى جوارنا امرأة تحمل باقة . وذهب

ابتكمان يرى ما يجري ، ثم عاد مسرعاً : بوسعنا ان نمرّ . وركض بوست يحمل زهورنا ، ولكنه تأخّر ، فاختلطنا بدونه في الموكب الذي يجتاز الساحة ، تحت مراقبة الشرطة ، زرافات زرافات ؛ وكان ثمة فتاة صبية تحمل باقات صغيرة من زهر الربيع ، فأعطت واحداً منا باقة . ووضعنا الباقات ، واصطففنا على الرصيف ؛ وبدأ الناس يكثرون ؛ وكانت خلفنا حوانيت بائعي الزهور ، وقد نُصبت او ضوعفت على الأقل من أجل المناسبة . وكانت الجموع تغني « المارسيلياز » وتصيح : « الشرطة معنا » . وسارع شبان يرتدون معاطف جلدية يشترون الفوانيا او الهورتنسيا ويعبرون الساحة بلياقة ، وتبدو على على عجوز رائع ، ذي لحية طويلة صفراء ونظارتين وبسمة منتشية على الشفتين — هيئة تقيّ عائد من مائدة القربان المقدس . ويستمر الجمع في الصياح ؛ « شرطة جمهورية . ديغول الى المتحف » وفجأة يأخذ الجميع في الركض . وفي الجلبة ، يسقط مريض ، فيقف الناس ليلمّوه . وارادت ايفلين ان تختبيء وراء باب دار للسينما ، فطردوها ، وأغلق الحرّاس الباب الخارجي (كما حدث اثناء تحرير باريس) وسلكنا طريقاً معترضة ، فدلفنا الى البولفار وبحثنا عن السيارة التي كان بوست قد غيّر مكانها ولا ريب (وهذا ما أخرّه) ليفسح المجال امام سيارات قوى الأمن . انها الساعة الرابعة والنصف تقريباً . وعبرنا الساحة مرة اخرى بالسيارة ، فكانت هادئة . (وبعد ذلك بعشر دقائق ، كما أظنّ ، تعرّض جورج ارنو لتحطيم ذراعه بضربة مطرقة ، وهناك سال الدم) وكانت الشائعة تسري بأن تظاهرة تقوم في بلفيل ، فصعدنا نحو « بوت — شومون » . كم كان المنظر مخضوضراً مرحاً ، وكم كانت الشوارع جميلة ، مع امتدادات طويلة على ابعاد باريس المزرورقة ! إنه يوم أحد هادىء ، والناس يتناولون الطعام على المقاعد الخشبية ، والأولاد يلعبون ، والشيوعيرن يروحون ويجيئون . ثم نلتقي في جادة « منيلمونتان » بموكب ، فنخرج من السيارة وننضم اليه ؛ انه يتألف من شيوعيين ، هم افراد خلايا الحيّ ، وهم يصعدون ويهبطون هذا الشارع حيث كنت في الماضي « ادرّب فرقاً اجتماعية » . وكانوا ينادون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الناس على النوافذ : « جميع الجمهوريين معنا ! » .

وكان سارتر يغني ملء حنجرته « المارسيلياز » كما غنى يوم الاربعاء ؛ إنه هناك ، لا كعضو وفد ، حتى ولا بصفته الكاتب ج ـ ب . سارتر ، وانما كمواطن غفل ؛ فليس له بعدُ اي احترام بشري ، وهو مرتاح في هذا الجمع ، هو الذي يجد مشقة كبيرة في قبول النخبة ويجد نفسه في وضع قلق بين ظهرانيها . ونعود الى الجادة ، فنجد امام مقهى مليء بالجزائريين . المتظاهرين يصرخون : « السلام في الجز ائر ! » فيكتفي الجزائريون ببسمة ضئيلة . وتتمتم امرأة : « ليس هناك كثير من المتظاهرين » ـ « انهم على حق ، فهم يعرّضون أنفسهم لأخطار جسيمة ، لأنهم هم الذين يصابون بكل شيء في هذه الحالة . » هذا ما اجابت به جارتها في لطف . وبدأ الناس يلتقطون حجارة من الطريق الذي كان يُصلح ، ولكن موكباً آخر بالاعلام واللافتات يسبق موكبنا فيوقفهم . مناقشة . ويدعو المسؤولون الجمع الى التفرق . اتراهم كانوا قادمين من ساحة « الجمهورية » ؟ لقد كانت هادئة حين مررنا بها مجدداً في السيارة ؛ ولكن كان الآن الى جانب الشرطة ممرضون من الصليب الأحمر ، واقفين بقبعاتهم في زوايا الشوارع .

واستمعنا في غرفة مدام مانسي الى آخر الأخبار . لقد حدثت مصادمات في امكنة كثيرة ، وكانت قوى الأمن عند الأبواب ومخارج المحطات يعترضون طريق الأشخاص القادمين من الضواحي (ومعظمهم اعضاء الخلايا الشيوعية) ؛ على ان ذلك لم يحل دون التجمّعات في « الترينيته » و « الباستيل » الخ ... خطابان جيّدان « لمنديس » و « ميتران » اللذين صرّحا : « اننا لن نخضع « للشانتاج » إن هناك اكثر من نصف الاشتراكيين ، ٥٠ على ٩٠ ، سيصوتون ضد . وسيبدأ التصويت في السابعة والنصف .

تلفنت ايفلين ؛ لقد قبض على جاك مساء السبت في جادة الشانزليزيه ، فأخذ إلى معتقل « بوجون » ؛ وقضى ليلة وهو شارد في الممرات والساحات ، وقضى النهار من غير ان يأكل ، لأنه اضرب عن الطعام ؛ وكان الذين

اعتُقلوا معه من الفاشيست ، وقد تخاصموا بتبادل الحجارة . وكان قد بُدىء باطلاقهم زرافات صغيرة . واطلق سراح جاك في الساعة التاسعة مساء (وذكرت ايفلين كلمة لطيفة للستيان ؛ انه يشكو من « بال » : « إن « بال » ديغولي ، وهو يقوم امامي بدعاية ديغولية ؛ وذلك يثير الاشمئزاز ، لأنه يعرف جيداً اني في حقيقتي يميني ، وان من اليسير جداً التأثير عليّ ! ») .

قضيت الأمسية مع سارتر في « لاباليت » وفي شقتي . أمل (غير مؤكد) لتدارك اليسار ، وفضول عظيم فيما يخص الجزائر. تحدّث مالرو ثلاث ساعات يوم السبت مع ديغول ؛ إنه بلا شك وزير الانباء .

قطاع خاص : لقد رأى سارتر يوم السبت هوستون وسوزان فلون ؛ واتفقوا على ان يؤلف سيناريو الفيلم عن فرويد .

حوالي الساعة الحادية عشرة انفجرت العاصفة التي كانت تهدد السماء طوال النهار . فكان برق يغلّف الهليكوبتر ذا الأنوار الحمراء ، هليكوبتر الشرطة الذي كان يحلّق فوق باريس يوم الاربعاء في اثناء التظاهرة ، ولا يزال يراقبها اليوم ؛ برج ايفل مضاء ؛ وكان هذا يُسمّى « ثوبه الضوئي » ؛ وقدكنت اوثره معتماً، حول رأسه ياقوته الأحمر .زوابع مياه ، وريح عنيفة ، قلما تلائم تظاهرات حماسية ، والواقع ان اية تظاهرة لم تقم . كان التكليف هذه الليلة جاهاً كتكليف اي رئيس وزارة . ومع ذلك ، فان رأسي يكاد ينفجر ، لم يكن ثمة ضيق بعد ، وانما توتّر هائل جداً حتى اني ابتلعت اقراصاً من السارباغان .

قرأت هذا الصباح « خط القوة » من تأليف هيربار فوجدت فيه مقاطع عن « جيد » خبيثة جداً ، ولكنها طريفة جداً ، وحكاية جميلة عن « اراغون » ؛

أعطيت رولان صفحات من « مذكرات فتاة رصينة » ، وتناولت الغداء مع الطالبة الاميركية « ج » التي دوختني بآراء خاطئة عن الديغولية . وروت لي طفولتها : غشاء فظيع على عينها ، وأمّ اسرائيلية ، طفولية ، مسيطرة ومضطربة ، عُقَدٌ في كل مكان . واجريت لها عملية وهي في التاسعة عشرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فأعادت لها عيناً ذا مظهر طبيعي ، وهي تدّعي ان كتب سارتر وكتبي قد علّمتها بأن المرء مدموغ بالماضي ، ولكنه ليس محدّداً به . من هذه النقطة ، وجدت نجاتها . وهي تريد ان تهدي إليّ الثمانية عشر جزءاً مخطوطاً من مذكراتها الخاصة . إن شبح القنبلة الذرية يسكنها ، وهي لا تفهم ان يكون اهتمام فرنسا به ضئيلاً الى هذا الحد . وقد كتبت الى اوبنهايمر . وأطلعتني على كراس عن اولئك الاميركيين الأربعة الذين كانوا بالباخرة في الباسيفيك ، فتوقفوا في المكان الذي كان المتوقع ان تجري فيه التجربة القادمة . والتقوا ثانية في السجن . وهي تحلم بسفينة محمّلة بأشخاص من جميع البلدان: بهذه الطريقة لم تتمكن الولايات المتحدة من وضعهم في السجن . او انها ستقدم نفسها كشهيدة لتجربة نتائج الانفجارات . روح اميركية نموذجية ، هذه السذاجة المثالية ، على مستوى عالمي (غاري ديفيس) . على انها ليست بلهاء ، بل على العكس . ولعلّها ستتخلّص من ذلك اذا اوتيت مهنة وكانت قدماها على الأرض .

قضيت النهار لدى سارتر اقرأ الصحف واسجّل الملاحظات . وقد تناول طعام الغداء مع س . س . وجيرو . واجرت « الاكسبريس » استفتاء منذ عشرة أيام ، وكان الجميع ضد ديغول بصورة عنيفة ، باستثناء « ف » ، بدافع اليأس ، وطبعا جان دانيال .

ليس في الحكومة شخص من الجزائر ؛ وليس في مدينة الجزائر اية تظاهرة حماسية . انهم يخشون كثيراً ان يكونوا قد خُدعوا . واستسلم « بوف – ميري » استسلاماً كاملاً . كان آخر عدد من « الاكسبريس » أفضل من سابقه . وأعند كتّابه وأصلبهم هو بورديه . وقد كان ردّه على « سيريوس » (بوف – ميري) في « الموند » ممتازاً . والحق ان جريدة « لوموند » منقسمة على نفسها ؛ وبعض المتعاونين معها صامدون . اما « فرانس – سوار » فقد بدأت تغيّر رأيها : فهي تنشر ابتداء من اليوم مقتطفات من « مذكرات » ديغول .

كنا نقول مساء أمس مع سارتر : « إن المفكر يستطيع ان يكون

متفقاً مع عهد ما : ولكن عليه ألاّ يقبل قط ــ الا في البلدان المتخلّفة التي تفتقر الى ملاكات ــ وظيفة تكنيكية كما فعل مالرو . يجب ان يبقى ، حتى ولو كان يؤيد الحكومة ، في جانب الشك والنقد ، وبكلمة اخرى ، يجب ان يفكّر ، لا ان ينفّذ . وهناك بعد ذلك ألف سؤال تطرح نفسها عليه ، ولكن دوره لا يختلط بدور القادة ؛ إن توزيع المهامّ امرٌ مرغوب فيه تماماً . »

الثلاثاء ٣ حزيران

بعد التوتّر ، انحطاط . إن رغبتي في التدخّل بشؤون هذا العالم ضعيفة جداً حتى اني نمت هذا الصباح حتى الثانية عشرة والنصف . ما يزال الجو ثقيلاً وبارداً . قضيت امسية أمس مع سارتر وبوست . غداء اليوم مع سارتر وبونتاليس وشابسال . وقد كنت في انتظارهم في مطعم « فالستاف » ؛ على الطاولة المجاورة كان يجلس شاب من طراز الموظفين الكبار [1] ، ويتحدث الى امرأة بشعة جداً فيقول : «على اي حال ، لقد صفّق منديس فرانس لديغول ... كلا ، إن « X » لا يريد جبهة وطنية : وإذن فسوف يمتنع ... حاولي ان تؤثري على فريقك ... هذا محزن : يبدو ان لازاريف مناهض للديغولية الى حد بعيد ... » وحين وصل سارتر ، تمتما : « هذا سارتر » ، ولم يلبثا ان ذهبا . وبدأنا نأكل ، فدُعي سارتر الى التلفون : «كنت حريصاً يا سيد سارتر على ان اقول لك ان الجنرال يستعدّ لإحلال السلام في الجزائر ، وانه لن يأمر باعتقالك ، واننا نأسف للموقف الذي اتخذته في « الاكسبريس ». انه مهذّب : كان يريد ان يُقنع . لا يسلّيني بعدُ ان أسجّل هذه الملاحظات . ولكني اشدّ انهاكاً من ان استطيع الكتابة . او ربما كنت منهكة لأني لا أكتب ؟ اننا ذاهبون في الاسبوع القادم الى ايطاليا ، وهذا ما يضيف شيئاً الى ما في هذه الفترة من عَرض وموقت . انه يصعب عليّ ان أهتمّ بماضيّ : وانا لا

---

(١) وربما كان دجالا . وقد التقى عام ١٩٦٣ مرة ثانية بسارتر في « فالستاف» فقال له متنبئاً « سيكون الأمر قاسياً الآن » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أدري ما ينبغي ان أفعل حقاً .

مقال طيّب جداً في « الساتورداي ريفيو » مع صورتي على الغلاف . ولكن « التايمس » و « النيويورك تايمس » ليستا مسرورتين على الاطلاق . فان ما يغيظهما ان اقول اشياء طيبة عن الصين في حين اني لست شيوعية .

سيكون مشكلة ادبية حقيقية ان أروي تظاهرات الاربعاء — الأحد « كلية — منزوعة الكلية » ؛ وقد حلّ سارتر هذه المشكلة الى حد ما في « وقف التنفيذ » .

كان سارتر يروي لبونتاليس منذ لحظات انه حين يبحث عن موضوع مسرحية ، يقوم في رأسه فراغ كبير ؛ وذات لحظة ، يسمع الكلمات تصدي : « فرسان الجلّيان الأربعة » وهذا عنوان رواية لبلاسكو ايبانيز كان قد قرأها في صباه . إنه هو ايضاً يجد مشقّة كبيرة في العودة الى العمل . وهو يتناول الكوريردان من جديد . ويقول لي : « انني لست حزيناً ، ولكني أنام . انه هدوء جنائزي » .

الخميس ٥ حزيران

لا أدري لماذا كنت حانقة الى ذلك الحد ، مساء امس ؛ لا شك في أنه الغيظ من ان ارى جميع هذه الصحف وكل هؤلاء الناس يتساءلون عما سيقوله « هو » ويضيعون في تفسير ألوان صمته . ثم لأني سمعته في خلفية هتافات مدينة الجزائر ، بصوته الشيخ وتفخيمه العجيب للكلام . ولأني فكرت في انهم سيعودون الى استقراء المعجزة ، راغبين بأي ثمن ان يستخرجوا منها آمالاً ، في حين ان اللعبة قد تمّت : سنوات من الحرب والمذابح والتعذيب .

قصدت صباح أمس طبيب الاسنان د . وهو شيوعي يهودي ، وكان مغتمّاً هو ايضاً ، فقال إن لدى الشيوعيين اندفاعاً وتفاؤلاً غير محتملين ، وقد اقتنعوا بأنهم ربحوا كل شيء لأن نصف الاشتراكيين قد صوّتوا معهم . اما زبائنه ، فمنهم من قال له : « ولكن ، اسمع ! إن ديغول لن يرسلكم

الى معسكرات الاعتقال ، فما عساه يؤثر « ذلك » عليكم ؟ » وتناولت الغداء مع بيانكا التي لا تزال غارقة في لحانها . وقالت انهم قد التقوا بفرق من المظليين بلباس مدني في الشوارع (وهذا يتفق مع ما روقب في «الأكسبريس» التي عادت فأذاعته اليوم : لقد هبط لاغايارد مع ستة من رفاقه في احد المطارات ليتصل بالمظليين المعسكرين قرب باريس . ولكنهم أُعيدوا بأدب الى الجزائر) وقالت ايضاً ان نوعاً من فرق « الميليشيا المدنية » قد بدأت تنظم نفسها في « باسي » و « نويي » مع قواد مناطق الخ ... كما حدث في أثناء الاحتلال .

قضيت بعد ظهر امس عند سارتر ، محاولة عبثاً ان افكر بكتابي . وانا ايضاً كنت أتساءل : ما الذي سيقوله ديغول ؟ اما الآن ، فأعرف إنه يحيّ « التجديد » و « التآخي » اللذين ضربت الجزائر مثلاً لهما كان يتمنى ان يمتدّ الى فرنسا كلّها . ولم يتركه سوستيل طوال النهار . ثم ذهب الى الساحة العامة فحيّا مدينة الجزائر والجيش ، ومن غير ان يذكر كلمة « الدمج » وقال إن المسلمين يجب ان « يكونوا فرنسيين بحقوق كاملة » ؛ وهو يتحدث عن « انتخابات جماعية » . وقد خاب أمل حكام الجزائر لأن هذا في نظرهم ليس فاشياً بما فيه الكفاية ، وذلك دمجاً « حقيقياً » سيزعجهم جداً . وبالرغم من حذرنا كلّه ، أدهشنا أن يضطلع بالجزائر هذا الاضطلاع الجذري وان يستعيد سياسته . هذا هو الواضح على الأقل . ولم نتكلم الا عن ذلك طوال السهرة في « لاباليت » . واني اواخذ نفسي اني لم اكن اكثر حيوية . وقال لي سارتر ما اقوله لنفسي غالباً : انه يصعب عليّ ان افعل نسخاً ثانية لما يفعل ؛ فاسمانا ليسا الا اسما واحداً . ولكن ذلك لا يمنع حزني . وسوف احاول ، لدى عودتي من ايطاليا ، ان التزم أكثر فأكثر . سيكون الوضع اقلّ قسوة بالنسبة لي حين أناضل بصورة أعنف وحين عدت الى شقتي ، ثائرة الأعصاب وشبه ذليلة ، وجدت رسالة لا معنى لها إطلاقاً من « ي » بصدد كتاب « الخائن » « لغورز » ومقال سارتر في «الاكسبريس» : إن الرسالة بحرٌ من النزعات المناهضة للسامية . واستولى عليّ غضب عام خنقني اكثر من ساعة ولم أستطع ان اطفئه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلاّ بالمنوّمات .

وأرقت في نومي ، واستيقظت ثائرة الأعصاب . وتلقيت رسالة مــن « وزارة الدفاع الوطني » موقعة باسم « السيدة ..... » وفيها تطلب مني مقالات لمجلة « بيلون » التي ارسلت لي نسخة منها ، وهي مرصودة « للنساء المجنّدات » . اتراهم يغروننا فوق هذا كلّه ؟ وذهبت أشتري الصحف ، وأقرأها في مقهى الزاوية (زاوية جادة اورليان) ما تزال «الاوبسرفاتور» في موقف ممتاز . اما « الاكسبريس » فتنشر مقالات طيبة واخرى رخوة . والجريدتان متحفظتان : كانتا تتوقعان ان يريد ديغول حقاً التفاوض في الجزائر ؛ وهما تقولان ان لا بدّ من التجمع ضده « حتّى ولو ... » ؛ إن كل شيء هو واضح اليوم ، وافترض ان بورديه « قد خاب خيبة عذبة » ، على حد تعبير لمورياك . اما تونس والرباط فهما حاسمتان : إن ما يعرض ديغول غير مقبول . وعمروش ، هذا المجنون ، هو وحده الذي يضرب السلام العسكري في « لوموند » : « انني اثق بكلمتك يا سيدي الجنرال » ومن جهة اخرى ، عُلم ان هناك اكثر من خمسمئة لجنة للسلام العامة في فرنسا . وسوف تضرب بقوة ، مع كل تشجيع ديغول هذا . ويقول سارتر اننا ــ هو وانا ــ لا نستطيع في هذه اللحظة ان نفعل شيئاً . فلنذهب إذن للاستراحة ، وسنعمل عند العودة .

غداء مع ريجياني وزوجته . وقد روى لهما سارتر مسرحيته التي يريد ان يقدّمها الى الجمهور في تشرين الأول ؛ لأن الأحوال بعد ذلك ستكون مشكوكاً فيها .

اشتريت فستاناً لأتسلّى ، ولكن ذلك استغرق مني خمس دقائق ولم يُسلّني . مذاق الهزيمة المرّ .

اني لا أفهم أنا نفسي لماذا أصبحت مضطربة الى هذا الحد . سنبلغ الفاشية ، وسيكون اذذاك السجن او النفي ، وكلاهما سيكون سيئاً لسارتر . ولكن ليس هو الخوف الذي يشغلني ، فأنا دون ذلك ، واكثر منه . إن ما لا

احتمله ، جسدياً ، هو هذه المشاركة في الذنب التي يفرضونها عليّ على صوت الطبول ، مع أشخاص حارقين ومعذّبين وذابحين ؛ إن القضية قضية بلادي ، وقد كنت أحبها ، بلا شوفينيه ولا مبالغة في الوطنية ، وليس من المحتمل الا بصعوبة ان يكون المرء ضد بلده الخاص . حتى الارياف وسماء باريس وبرج ايفل مسمومة .

بينما كنت اقرأ هذا الصباح عند زاوية الجادة ، ارتمى بائعان متجولان — كانا يبيعان الكرز ، وكلاهما جزائري — أحدهما على الآخر . وكم كانا عنيفين في النزاع ! على انه ما لبث ان مرّ شخصان يرتديان معطفين جلديين — وهما ليسا بورجوازيين بالطبع — فسارعا الى تفريقهما . وكان ذلك قاسياً ، لأن احدهما كان قد زرع اسنانه في كتف الآخر عبر قميصه ذي المربعات . ثم وصل شرطي يضحك وهو يؤرجح عصاه ؛ ولكن الأمر كان قد انتهى ، وهكذا فقد فرصته للضرب .

الجمعة ٦ حزيران

هذا الصباح ، انحلّ شيء ما فيّ ، لغير ما سبب خاص ، وانفرجت أعصابي . وتلقيت بطاقة من لانزمان من « ايركوتسك » : لقد سحرته سيبيريا . وكم أتذكّرها ، تلك المطارات الصغيرة ذات الستائر المغضّنة . وأخذت السيارة ، فقمت بدورة فونتنبلو ذهاباً واياباً على سبيل التجربة . حسناً ، اني متهيئة للسير ، وكذلك السيارة . وعجّلت في الذهاب .

وضعت جوان عند بوابة البناية الأجزاء الثمانية عشرة من يومياتها . وهي يوميات ممتعة بالرغم من الخليط الذي تستسلم اليه في غير تحفظ . إن المذكرات اليومية بالاجمال تسحرني ، وهذه المذكرات الخاصة عظيمة ، إذ يغرق المرء فيها حقاً في حياة اخرى ، وفي نظام آخر للمقاييس ، وذلك ، على نحوٍ ما ، مجال حادّ للشكوك والريب : فبينما انا اقرأها أعرف انها هي الموضوع المطلق ، ولست أنا .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إن ديغول يتابع جولته في الجزائر ، وهو مستاء بصورة واضحة . لقد صاحوا في وهران : « سوستيل ! سوستيل ! » فقال : « كفى ، أرجوكم » . إنه بالطبع لا يحب هذه الفاشية التي تحاول ان تطفو عنه والتي يلعب مع ذلك لعبتها . ولكن كفى تعليقات وتنبوءات وتفسيرات . إن كل ما أسجّله ان الصحافة غير متحمسة ، ذلك ان هذه « الرجعة » لا تتمّ من اي جهة في الحماسة .

السبت ٧ حزيران

خمسة عشر يوماً تقريباً بلا عمل ، بينما كنت أحسّني نافدة الصبر ، صباح يوم ٢٥ من الشهر الماضي ، ولكن الضيق غير مجدٍ للعمل ، ولا سيما حين يتوجب على المرء ان يخلق ، وان يندفع . تلقيت رسالة من جوان هذا الصباح ؛ لقد أحسّت بالاشمئزاز وهي تستمع الى ديغول ، ردّ فعل عاطفي بحت ، ولكنه كان رد فعل كثير من الناس : اسلوب فاشي ، عسكري ، فخم الألفاظ ، يكشف القناع عن أشياء كثيرة . رسالة هامة من ا . ب [1] . إنه يتحدث عن خوف المسلمين ، في الأكواخ الأرضية ؛ كانوا يتجنبونه لأنهم كانوا يجدونه يعرض سمعتهم ؛ ولقد عُمد الى سياسة « التآخي » الزائفة بألوان هائلة من الضغط ؛ وفي هذه الأثناء استمرت الاعتقالات والقتل .

اني الآن اردّ على الرسائل ؛ صباح رمادي ، محايد .

الأحد ٨ حزيران

انتهى الأمر ، اني استمع الى الراديو ثلاث مرات في اليوم ، وأطلع على جميع طبعات الصحف . إن الأمور ستجري الآن بهدوء . ففي مستغانم ، لفظ ديغول اخيراً ، مساء الجمعة عبارة « الجزائر الفرنسية » ، ولكن « الديغوليين اليساريين » يشيرون الى انه قد رفض ذكر كلمة « دمج » ؛ ولقد كان مصالحاً

---

(١) جندي في الجزائر

بشكل يثير الفضول ، اذا ذكرنا انه رجل « ذو شخصية » ؛ ذلك ان الوزيرين اللذين كانا يصحبانه الى مدينة الجزائر قد حُجر عليهما ؛ وبدلاً من ان يطلب ان يمثلا في الأيام التالية في جميع الاحتفالات ، فقد ابتلع الإهانة . وهكذا أصبح صُلْبه طرياً .

مضيت في الغرق والتوحّل في يوميات جوان . وقد أثّرت فيّ ، لأنها قرأتني بطريقة حيّة جداً حتّى ان كثيراً من انتقاداتها صحيحة ، وانها تتولى دائماً الدفاع عني في كثير من الحرارة والذكاء . ولكني أحسّني هنا ايضاً خائبة ؛ ولو كان ذلك منذ عشرة أعوام ، لكان قد ترك لديّ أثره ؛ صحيح اني الآن أصيب من ذلك بعض المتعة ، ولكنها متعة قلقة : يجب ان أكتب كتباً اخرى أفضل ، وان أستحقّ من جديد ، ان استحق حقاً ان أوجد هكذا من أجل الآخرين . وانا مأخوذة بين مشروعين من غير ان أنجح في الاستقرار .

الثلاثاء ١٠ حزيران .

قال مالرو لـ « س . س » عبارة نقلها مباشرة الى سارتر : « إن لدينا اخباراً مؤكدة عن التآخي : انها حقيقة واقعة . » حين يُصبّ الولع بالكذب في نظام عام يصبح شيئاً خطيراً . لقد ألقى خطاباً عن « كرم » فرنسا حتّى ان « كلافيل » نفسه في جريدة « كومبا » قد احتجّ على ذلك . وقد دخل بوست في لجنة النشاط السينمائي ، وهو غاضب على تحفّظ الأعضاء الشديد ؛ إن عشرة على خمسة عشر هم شيوعيون . ويقول سارتر إن القضية هي قضية تحديد ، وان اللجان لا تملك ان تصنع شيئاً جدّياً قبل اقتراب الاستفتاء .

تناولت العشاء مساء الأحد مع « سوزان فلون » اللذيذة ، وهوستون الذي يملك الاغراء الاميركي ، بالرغم من وجود دملة كبيرة على جفنه . وتحدثنا طويلاً عن فرويد ، الذي ظل طاهراً حتّى سن الزواج ، في السابعة والعشرين من عمره ، وكان زوجاً اميناً كل الأمانة . وفد اتت هوستون فكرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الفيلم بعد ان صور فيلماً وثائقياً عن العُصاب الذي تحدثه الحرب ؛ وكان الفيلم ذا نزعة مناهضة جداً للروح العسكرية حتّى انه روقب وحذفت منه مقاطع .

الاربعاء ١١ حزيران

كانت امسيتي أمس حرّة ، فدعوت جوان . إن قلبي ينقبض قليلاً اذ افكر بأنها طوال خمسة أعوام قد تمنّت رؤيتي ، وانها بذلت من أجل ذلك ثباتاً ودأباً حتّى نجحت ، ولكن ذلك تقلّص الى هذه الجلسات الثلاث التافهة . اما واني قد فرغت الآن من قراءة مذكراتها كلّها ، فقد اردت ان احدثها عن نفسها . لكم كانت شقية ! واي « جحيم خاص » جميل صغير قد صنعت لنفسها ، بهذا المزيج العجيب الاميركي من الحرية والمحرّمات ، على خلفيّة قبحها الذي كان قاسياً فظيعاً ، ومن علاقاتها المعذّبة مع ام جميلة مشهورة ومجنونة بسبب هجر زوجها — وهو رجل هادىء ساحر — سافر الى أقصى الدنيا . لقد قضت جوان ، وعلى عينيها غشاوة ، واسنانها مائلة ، وحركات غريبة تكتسح وجهها ، قضت في ظلامها طفولة متوحّدة ومطاردة . وحين بلغت العشرين ، احبت بونونهايم ، الشاعر الشهير في اعوام ١٩٢٠ ، الذي كان الخمر قد ضيّعه ، فأصبح عاجزاً ، نصف مجنون ؛ وقد كان يداعبها في الحدائق . وعلمت الأم الخبر ، عن طريق « امرأة شرطية » فكتبت الى بونونهايم رسالة زعمت له فيها انها ملاكمة محترفة ، وهدّدته بأن تحطّم له رأسه . وشرح هو لجوان ان عليه ان يقطع علاقته بها لانه كان مصاباً بالبواسير والفتق ؛ ولأنه كذلك قد حدثت له مع غير البالغات مشكلات كثيرة بحيث ان اية مشكلة جديدة تعرّضه للسجن ، او للفضيحة على الاقل ، فيمتنع ناشره عن طبع كتبه مرة اخرى . وقد مات بعد ذلك بخمسة اعوام ، حين داهمه زوج غيور مع زوجته الجميلة في السرير ، فطعنه في صدره ، وخنق زوجته وأنهى أيامه في مستشفى للمجانين . وقد خرجت غرينووش برمتها فمشت

في جنازة بونوبهايم ، ولم يخرج احد وراء نعش المرأة . وبعد ذلك ، كانت قصة جوان سلسلة طويلة من المغامرات القذرة الى حدّ والاهواء الشقيّة. وقد قضت عامين في « يال » : فكانت لها هناك اهواء شقية اخرى . كانت مرتبطة بشيوعيين وتروتسكيين ، وكانت جريئة نشيطة ، وكان الناس يحذرونها بالرغم من انها كانت طالبة لامعة . واخيراً جاءت الى باريس ، وهكذا حضرت محاضرتي وشاركت في النقاش وكتبت لي . وقد تناولنا طعام العشاء في الفالستاف . وكان ثمة بائعة زهور نصف مجنونة تغنّي وتتلوّى على البلاط وسط الضحكات . وقد نصحتُ جوان ان تعود الى اميركا ، وان تكفّ عن كتابة اليوميات ، وان تفكر بشيء آخر غير نفسها ، وان تقرأ بدلاً من ان تتكلم . ونصحتها ان تكتب . ويخيّل إليّ انها تستطيع ذلك ، لأن في هذه اليوميات العجيبة « شيئاً ما » هاماً . ولكنها لا تجروُ ؛ انها تريد ان تشتغل في مصنع « لتكون قريبة من البروليتاريا » . ولكني أعتقد ان الأدب هو بالنسبة اليها الوسيلة الوحيدة لتنتزع نفسها من وحدتها . وكانت ترتدي ثوباً من المخمل الأسود مع لؤلؤة جميلة زرقاء ، وجعّدت شعرها ، وقالت لي « لست ugly وانما فقط plain » وهي ستعود الى اميركا في آب . وسأستغرب ان تلجأ الى الكتابة .

مررت هذا الصباح بدار نشر غاليمار . وتحدثت طوال ساعة ونصف مع جاك لانزمان في مقهى « الدوماغو » . وقد روى لي رحلته الى المكسيك وكوبا وهاييّي وسان دومنغ . وهو يؤكّد انه رأى في سانتياغو دو كوبا بأم عينيه رجالاً مشنوقين من خصيهم ، ونمراً كان يأكل الجثث . ولكنه شاعر . إن صحف باتيستا تنشر يومياً صور الأشخاص الذين يأمر بتعذيبهم وقتلهم : أكثر من مئة كل يوم . وقد مرض من هذا كلود جوليان الذي عُذّب في اثناء المقاومة . ووجدا طريقة للسفر الى مناطق الثوار السريين : وهما ينويان ان يكتبا ريبورتاجاً عن كاسترو والجيش المتمرد . وقد اوقفا ساعة قبل سفرهما ؛ وخطر لهما ان يقولا للجنرال (الذي كان يخصي بيديه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذاتهما) : « إن لنا في الجزائر مشكلات مماثلة لمشكلتكم : ولهذا جئنا نرى كيف تحلّونها » واستطاع جوليان بفضل اوراقه ان يعود الى هافانا ، في حين انهم وضعوا جاك في الطائرة المسافرة الى هايتي .

مساء أمس ، اصدرت لجنة السلامة العامة لمدينة الجزائر تصريحاً حارقاً . أتُرى سالان قد أقرّه أم لا ؟ وبعد تردّد ، قرّر ديغول مع ذلك ان يقول انه لم يكن مسروراً .

في بيت سارتر ، أصحّح مسوداتي ، وأسجّل ملاحظات . إنه في مثل سروري للسفر الى البندقية . من المستحيل عليّ أن أعمل قبل ان أستقر هناك . كان لدي اندفاع منذ ثلاثة اسابيع ، ولكنه تحطّم الآن .

يميّز جول موك (في كتابه « بعد الحرب ») بين عهد التهديم الفردي ، الصنَعي ، وعهد الحلقات الصغيرة ، والكبيرة ، وشبه العامة . لماذا لا يؤثّر التهديد الذرّي الا تأثيراً بسيطاً (وشأن سارتر في ذلك مثل شأني) ؟ لعلّ ذلك لأني ليس لي عليها اي سلطان ؛ فالمرء في هذه الحالة لا يستطيع إلاّ ان يحلم بها ؛ وهذا غير مجدٍ ؛ لا سيما حين تكون مشكلات الجزائر حقيقية الى هذا الحدّ ، وعاجلة ، وتعنينا بصورة مباشرة .

الجمعة ١٣ حزيران

رسالة لطيفة جداً من طالبة في العشرين . إن كل شيء في هذه الفترة يشجعني على النرجسية : يوميات جوان ، طائفة من الرسائل الودية ، كتاب « جيناري » عنّي ، مذكّراتي الخاصة التي اقرأها طوال النهار فيما أنا اصحح مسودات « مذكرات فتاة عاقلة » . وهذا ما يدفعني الى كتابة بقية هذه السيرة الذاتية : لا شك في ان هناك أشخاصاً يهمهم ذلك ؛ ويكرّر لي سارتر انني على اي حال قد فعلت مافيه الكفاية لكي تكون التجربة مشروعة . وإذن ، فسأعود الى ذلك في ايطاليا . نهارات عرضية تسبق السفر ؛ ارتياد السوق ، بريد ، رزم هائلة من المسودات للتصحيح . استعرت من فيوليت

لودوك كتاب مونيك ناتان عن « فرجينيا وولف » ؛ كنت اريد ان انظر من جديد الوجوه العجيبة لهذه المرأة ، بعد ان قرأت مذكراتها ، واي وجه متوحّد وجهها !

مالرو و « صدمته البسيكولوجية » : ضلال في ضلال .

الاثنين ١٦ حزيران — ميلانو

فجأة تغيّر كامل للمنظورات : اجازة . لقد استيفظت يوم السبت منذ الساعة السادسة والنصف ، ومن الذي كان يمنعني ان أذهب على التو ؟ وذهبت . اي استعادة للشباب أن يغرق المرء ثانية في الوحدة ، وفي الحرية ، كعهد الرحلات على القدمين . صباح جميل . انني أعرفها عن ظهر قلب طريق مورفان هذه ، فهي ملآى بالذكريات ... و « أنسي » هي أيضاً ذكرى ، اكثر قدماً ؛ انني أتذكّر جيداً ، بعد عشرين سنة ، الأقنية ، والطرقات ذات القناطر ،والمطاعم الصغيرة على ضفة الماء . وأتناول العشاء في المدينة القديمة ، وأشرب كأس ويسكي على البحيرة وانا أقرأ « الخطوة الأولى في الغيوم » لهلاسكو . انني أحب هذه الرحلات المبكرة ، قبل رفع الستار . طريق جميلة ، ما تزال مقفرة ، على ضفة البحيرة ، ثم تمتليء القرى رويداً رويداً بالناس ، وتتزيا بزيّ يوم الأحد . هناك ثلج في قرية « بوتي سان برنار » بل هناك متزلّجون يقومون بمباراة هبوط . إن مناظر الجبال هذه تخلّف لديّ بعض الحنين ، لأن هذا ما فقدته الى الأبد : المسيرات الطويلة من عشر ساعات الى اثنتي عشرة بين الفين وثلاثة آلاف متر واكثر من الارتفاع ، النوم تحت الخيمة او في الأنبار ، وكل ما كنت قد أحببته . وأتناول الغداء في سان فانسان . وتسألني صاحبة المطعم : «كيف الحال في فرنسا ؟ » فقلت لها : « هذا متوقف على الجهة التي ينتمي اليها المرء ، وهل هو يحب الجنرالية ام لا . » ولكي أتمتّع بالشمس ، توقفت في حقل ، وحولي منظر رائع ، وعلى يميني قصر مخلخل ، وعلى يساري قصر بعيد آخر غارق في العشب العالي ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفرغت من قراءة هلاسكو : كثير من الفودكا ، قليل من الحب ، بسبب نقص المساكن التي تمكّن من عمل الحب ، خبث مُعدٍ ناتج عن الاستياء من العالم ومن الذات ايضاً ؛ كتابٌ مرويّ بحذق ، لا اكثرَ . وعبرت بعض المدن الصغيرة الأخرى ، تنغل بمرح ايام الأحد ، وهي مبلطة بحصى أصفر ، ثم ها هو الأوتوستراد وساحة السكالا .

انها الساعة السادسة ، وليس لديّ ما أفعله قط ، وذلك محيّر بعض الشيء ولذيذ . وشربت قدحيْ دجن – فز في مشرب الفندق : إن الخمر ما يزال جيداً . وكم كانت هذه الحانة عام ٤٦ تبدو لي فخمة ! لقد كان هذا بالحقيقة شباباً جديداً ، اكثر تدويخاً من الشباب القديم . لقد كنت اتذكّر ذلك العهد ، وخرجت الى ميلانو الفاترة ، العاطلة ، الفارغةتقريباً : نهاية يوم أحد . جميع الايطاليات كنّ في أثواب أشبه بالقمصان ، أنيقة ، ولكنها في رأيي تدعو للأسف . ناطحات سحاب جديدة ، وأبنية جديدة ؛ إن الأشياء تتغير بسرعة في ايطاليا . لقد تغيّر الأوتستراد منذ العام الماضي ، بهذا الجسر الهائل الذي يربطه بالمدينة .

وصل سارتر هذا الصباح في الثامنة والنصف ؛ وقرأنا الصحف في مقهى لاسكالا . يا لإيطاليا المدهشة ! إننا سرعان ما ألفنا الجوّ . وقد كانت الصفحات الأولى من الجرائد كلها ملآى بأخبار فاجعة فنيّة : رجل مجنون يصف نفسه بأنه « رسّام في غير أوانه »هاجم بالمطرقة صباح أمس في «البريرا» تمثال رافائيل « زواج العذراء » . وحال احد الحرّاس دون ان يكون الهدم كلياً ، ولكن ستبقى هناك آثار من « العمل التدنيسي » ، وهذا ما يبرم العالم كله ، كما يبدو . اما فرنسا ، فان صحف اليوم تتحدث عنها قليلاً ، ولكني عثرت لدى الحلاّق في عدد من « اوجي » مقالاً مسلياً جداً « وصايا الديغولي العشر » ؛ وهي تضع في ميزان التوازي الاحداث الحالية مع احداث عام ٢٢ التي وقعت عندهم ؛ لقد جاء دورنا في تذوّق الفاشية ، وهذا ما يطربهم . اما اليسار فانه قلق ، فيما هو يضحك . إن ديكتاتورية يمينية في فرنسا تحمل خطراً كبيراً

لإيطاليا ايضاً .

تسكعنا هذا الصباح في ميلانو ، ثم تناولنا الغداء مع موندادوري وزوجته في مطعم لاسكالا . لم يتغير الرجل قط طوال اثني عشر عاماً ، وهو ما يزال يحتفظ بهيئته ، هيئة القرصان الرائعة . اما الزوجة فقد أصبحت شقراء ، ولا تزال تحتفظ ببسمتها وطبيعتها وسحرها . إنه يكتب قصائده الأولى ، وهي قصائد ملتزمة ، وهو يساري . وتحدثنا عن همنغواي . وروى موندادوري ان همنغواي كان في كورتينا يشرب كعادته ، ولكنه كان مذعوراً بسبب كبده وقلبه وعند التفكير بأن الخمر سيقتله . وذات يوم ، اصيب في نهاية الطعام بالفُواق ، فنادى الطبيب مذعوراً ، فقال له الطبيب : « يجب ان تركب المصعد » وست مرات متواليات صعد همنغواي وهبط ، يسنده الطبيب من جهة ، وموندادوري من جهة اخرى . وتوقّف الفواق . فسوّى قبعته الخضراء ونام .

قصدنا معرض الفن اللومباردي القديم . ليس فيه ما هو جيّد ، سوى لوحة راقدة وراء مذبح . واغتاظ سارتر : « انه فنّ عسكري ! ذلك هو الرسم الذي يُصنع حين يتولى العسكريون السلطة ! » (وكان موندا دوري يقول لنا في ودّ لا يخلو من خبث : « طوال عشرين عاماً لم يكن لدينا فنّ ولا أدب . »)

تناولنا العشاء عند المغيب في ساحة « الدوم » وقد تعزّينا وتحررنا من فرنسا . وكان سارتر يقول انه منذ وقت طويل لم يشعر بمثل ذلك الهدوء والأمان .

الثلاثاء ١٧ ــ البندقية .

بالرغم من كل شيء ، ما زالت تنتابني الاحلام المزعجة ، فأتعجّل اليقظة في الصباح .

ذهبنا قبل العاشرة ؛ سماء زرقاء رمادية . وطقس مشمس لزج : ايطاليا الشمالية . غداء في « بادو » . تناولنا القهوة في مقهى اشتهر بأنه أوسع مقهى في العالم . واشتريت الجريدة . في الصفحة الأولى « اعدام ناجي رمياً بالرصاص »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكذلك ما ليستر وآخرين. وقال سارتر : « يجب ألاّ نشتري الصحف بعد » وفقد كل طمأنينته.

البندقية : للمرة العاشرة ام الثانية عشرة ؟ مدينة أليفة. « قناة مسدودة — أشغال » ونسلك أقنية جديدة ضيقة جداً حتّى ان من الصعب جداً ان نلتقي بقوارب اخرى. غرف لطيفة في فندق « كافاليتو » وطلب سارتر « ٣ شاي » وجلس يكتب. وأرسل لي « فيسّي » تجارب للتصحيح، فقصدت ساحة سان مارك، ولكن الموسيقى فيها كانت طاغية؛ وجلست على الرصيف وصحّحت أربعين صفحة، ثم عدت الى هنا. السماء ممتقعة، تكاد تكون وردية، وضجة خفيفة تصعد من حوض اصحاب قوارب الغندول والأرصفة. يجب ان اعود غداً الى العمل، وإلاّ بدأت في الاسترخاء.

الاربعاء ١٨ حزيران

وتتحدث الصحف الايطالية في صفحاتها الأولى الا عن اعدام ناجي وماليستر. لماذا ؟ وناقشنا الموضوع بدقة، من غير ان نفهم. إن هذا بالنسبة لفرنسا مشؤوم، لأن الشيوعيين سيكونون اشد عزلة. وسيزداد اليسار ديمقراطية وستتعزز الديغولية. وسيفتقر المتظاهرون المعاكسون اليوم الى الحماسة. وسارتر الذي كان يريد لبضعة ايام ان ينسى السياسة !؟.

رسالة طويلة من لانزمان المبهور بسيبيريا والذي أسكره الكوريون بالخمر. وقد علم بتكليف ديغول في بيونغ — يانغ من راديو اوكيناوا.

الجمعة ٢٠ حزيران

أحبّ كثيراً غرفتي بأنوارها وظلالها التي تخفق على السقف وثرثرات أصحاب قوارب الغندول. ولكني حتّى هذا الصباح، اشتغلت قليلاً، وقرأت كثيراً، وكنت متعبة. وقد صممت هذا الصباح على الاستغراق في العمل. يجب ان افرض على نفسي كتابة عشر صفحات مسودة كل يوم.

حتى اذا انتهت الاجازة ، كانت بين يديّ مادة ، ورزمة جميلة من « الخليط » أستطيع ان أبني عليه شيئاً . إن هناك ذكريات كثيرة لا بدّ ان تُجمع ، حتى ان هذه تبدو لي الطريقة الوحيدة . وقد أعدت قراءة « المدعوة » وسجّلت رأيي فيها . وانا أجد فيها أشياء قلتها في « مذكرات فتاة عاقلة » واخرى عادت في « المثقفون » . نعم — وليس في هذا ما يثبط ، إن المرء لا يكتب إلاّ كتبه .

شاهدنا مرة اخرى سان روكو وكنيستها والأكاديمية . وقارنت ما شاهدناه بما كان سارتر يقوله لي في العام الماضي عن لوحات « لوتانتوريه » .

يبدو انه لم يحدث شيء تقريباً يوم ١٨ حزيران ، باستثناء بعض الاشتباكات الفاشية في أجاكسيو وبو ومارسيليا .

السبت ٢١ حزيران

رسائل . احداها من رومانية متزوجة ، ام ولدين كبيرين ، وقد ناضلت ضد الفاشية وفي الحزب الشيوعي ، ولكنها ذُعرت بإعدام ناجي ، وهي تشكو من حياتها انها لا تملك ما تفعله ، ولا تستطيع ان تؤثّر على شيء . وما اكثر اللواتي يكتبن لي مردّدات « مريعٌ ان نكون من النساء ! » كلا ، لم اكن مخطئة وانا اكتب الجنس الثاني ، بل لقد كنت ، محقّة اكثر مما كنت أظنّ . إن بالامكان الحصول على وثيقة مؤلمة من مقتطفات الرسائل التي تلقيتها منذ صدور هذا الكتاب .

رأينا أمس في متحف « كورير » لوحة لانطونيو دومسين ليست جميلة جداً ، ولكنها تؤكد حقيقة ما كان سارتر قد قاله لي : لقد تمّ بواسطة الانتقال من فيفاريني الى « عاصفة » جيورجيون ، وبصورة ادق من طريقة « بليني » الأولى الى طريقته الثانية . إن ذوقنا لم يتغير كثيراً طوال خمسة وعشرين عاماً . فأنا أجد كل مرة الدهشة المعجبة نفسها امام لوحات « كوزيمو تورا » التي اكتشفناها سابقاً بكثير من الدهشة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واستقرّ ايقاع حياتنا . نستيقظ في التاسعة والنصف فنتناول الافطار ونقرأ الصحف في ساحة سان مارك . ونعمل حتّى الثانية والنصف ، ثم نأكل قليلاً . ونتنزه بعد ذلك او نقصد المتحف . ثم نستأنف العمل من الخامسة حتّى التاسعة . عشاء . كأس ويسكي في حانة « هاريز » ، وكأس أخيرة في منتصف الليلة في الساحة حين يغادرها الموسيقيون والسيّاح والحمام ، نتشرّد بالرغم من كراسي السطائح وسط هذا الجمال الفاجع الذي صوّرها عليه « لوتانتوريه » في « خطف القديس مارك » .

صححت بعد ظهر امس رزمة كبيرة من التجارب التّي ارسلها « فيسبّي » : للمرة الأولى أجد متعةً في قراءة كتاب كتبته . ولا بدّ ان يحظى بنجاح عند الفتيات اللواتي يعانين من الاسرة او من الدين واللواتي لا يجرؤن بعدُ على ان يجرؤن ، اذا صحّ تقديري . ومن جهة اخرى ، اخذت اندفاعي ، كما اعتقد لأستأنف كتابي الجديد .

صحف من باريس . وقد بلغ الأمر بموريأك في يومياته أنه يمتدح غي موليه ! رسائل من باريس . كان اجتماع الدائرة السادسة حيث قرأ « ريجياني » رسالة سارتر ناجحاً جداً يوم ١٧ حزيران ؛ وبصورة خاصة ، هتفوا لسارتر مطولاً منذ العبارات الأولى ، وفي الختام اكثر فأكثر . (وكان عددهم زهاء سبعمئة في قاعة « سوسيتيه سافانت ») وقد طُرد هنري لوفيفر من الحزب لمدة عام لأنه انتسب الى « نادي اليسار » .

ما كان أجمله في الليل ، ذلك الشبّاك المضاء وحده في ساحة سان مارك ، تحت رؤوس الأبنية ، في الواجهات الواسعة المنبسطة ، وتمثال ذلك الرجل ؛ كان ينظر ؛ فكأنه لم يكن يستطيع ان ينزع بصره عن مشهد تلك الساحة ، في الليل . وانطفأ النور فجأة ، على غير انتظار ، حتّى اننا انا وسارتر قلنا معاً : « عجباً ! انها أشبه بنجم مذنّب ! » .

الأحد ٢٢ حزيران

أجل ، هأنذي قد انطلقت ، على ما اعتقد ، لمدة عامين على الأقل .

وهذا أمان ، على نحوٍ ما . إنّ فيّ دائماً تلك التلميذة العاقلة التي تقلق اذا « ظللت دون أن أعمل شيئاً » اكثر من اسبوع او اسبوعين . إن السفر نوع من النشاط ، وانا استسلم له من غير ندم . ولكني كنت في باريس عائمة . وكنت اواخذ نفسي على ذلك . غير انني لم أضيع تماماً وقتي . فالى جانب هذه اليوميات وتلك التجارب المصحّحة ، جمعت مادة لكتابي ، واعدت قراءة رواياتي القديمة . وقرأت رسائل وسجلت ذكريات . وأعتقد انني الآن سأكتب صفحاتي العشر كل يوم . صحيح أن في هذا الإفساد ما يثير الاشمئزاز ، ولكني لا أستطيع ان « أكتب » اكثر من صفحة قبل ان يتمّ هذا النسيج . هذه هي الطريقة التي اتبعتها في كتابة « اميركا يوماً فيوماً » ؛ ولكن لم افعل ذلك بالنسبة لـ « مذكرات ... » التي ألّفتها بواسطة مجموعات من الملاحظات .

الثلاثاء ٢٤ حزيران

تنزّهنا بعد ظهر الأحد بجانب « الارسونال » ؛ وكان ثمة كثيرون عند « فوندمانتا نيوفا » ، ولكن لم يكن فيهم سيّاح : وانما ايطاليون كانوا قادمين ليشاهدوا سباق القوارب . كانت القوارب مليئة بالناس ، وكانت تتجمّع حول الأعمدة المطلية باللون الأخضر . وكانت مواكب من الغندول منتشرة فوق مياه البحيرة الخضراء – في مثل خضرة الشجر تماماً – وسائقوها يرتدون الثياب البيضاء ، وهم منحنون على محاجنهم بسيقانهم الممشوقة ، كما في لوحات « كارباشيو » . وكان ثمة بعض الأشرعة ، بلون الصدأ او البنفسج ؛ ويختان او ثلاثة في البعيد . وذهبنا عند بدء السباق . اي سلام في هذه الطرق : الريف . وشيئاً فشيئاً ، ازداد المارّة – كالسيارات في الشوارع حين نقترب من المدن – واذا هو الجمع فجأة ، مؤلفاً من فلاحين بقبعات تيرولية ، هم بؤساء حقيقيون منحدرون من جبالهم (وكان فيهم واحد ذو لحية هائلة حمراء) وألمانيات سمينات بأثواب شفّافة وقبعات من قش . ثم ها هي ساحة سان مارك ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والحمام ، ، والمصورون ، والمدينة الكبيرة .

بعد أن تناولنا العشاء في « لافينيس » حيث حرص صاحب المطعم على ان نزور المطابخ ، ذهبنا نشرب قدحاً في بار « هاريز » . وعند خروجنا ، اقترب ايطاليان من سارتر ، فدعوانا الى تناول قدح في « السيروس » ؛ وقالا لنا وهما يرشداننا الى الطريق :

ـ استديرا الى اليسار ؛ فمع سارتر ، دائماً الى اليسار .

كان أحدهما شاباً قصيراً جداً يمتهن النحت ؛ وكان الآخر في حوالي الأربعين ، وهو طريف جداً وشديد الحيوية ، يصف نفسه بأنه « عالم علميّ » ؛ وهو يهتم بالميكروبات ويدير مختبراً ؛ وهو يقول في ذلك : « إن مهنتي أنا هي ان أجعل الناس يبولون » وقال لنا ان اسمه هو « شارمان » وقد قرأ « الجدار » وهو لا يريد ان يقرأ شيئاً آخر لسارتر ، لفرط ما أعجبته تلك القصة . وهو يحبّ ككثير من الايطاليين ان يتلاعب بالكلام ! وقد قدّم لنا خمراً أبيض من خمر البندقية وهو يتحدث حديثاً ساحراً عن المدينة التي هي ريفية جداً ، وتؤوي مع ذلك جزءاً كبيراً من الشعب العامل ، وهو يؤكد : « ان ليس ثمة من يشتغل افضل من البندقيين . والحق ان ميلانو وحدها تضم ٣٠٠ ألف منهم . » وأنهينا سهرتنا في مرقص كوخ « مارتيني » الذي كان خالياً لأن الساعة كانت قد بلغت الثانية .

وواعدانا على اللقاء في « الهاريز » في الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم التالي ؛ وحين وصلنا كنا نقول فيما بيننا : « ستكون هذه الجلسة مزعجة ؛ فقد شربنا أولاً يوم أمس ، ثم انهما سيصحبان معهما أشخاصاً آخرين » ولم نخطيء ، ولكن الجلسة كانت مختلفة عما كنا قد تصوّرنا .

كان شارمان يتناول العشاء مع شاب أسمر على طاولة مستديرة ؛ واقترب منا يقول : « انه اميركي مزعج جداً قد وصل لتوّه من نيويورك » وقد كان ايطالياً يتاجر مع اميركا ، ولكنه من جنوا ، والجنويون ، على قول شارمان ، ليسوا ايطاليين . ولا يتكلم الاميركي اية كلمة فرنسية ، وهذا ما جعل الحديث

مزعجاً ؛ ووصلت بعد ذلك ايطالية شقراء ، ثقيلة ، ولكن لها عينين جميلتين ممتقعتين ، وكانت كثيرة مساحيق الوجه ، ذات صلة بالاميركي ، ولم تكن تتكلم الفرنسية ايضاً . وقد مازحها الرجلان لأنّ لصاً قصد بيتها بالقارب ، ودخله من احدى النوافذ ، وسرق لها روافع نهديها وبناطيلها الداخلية : « عدّة عملها » ، كما قال شارمان الذي كان يكره النساء (وكانت تستولي عليه النزعة اللوطية) ؛ واقترح علينا بلهجة منتعشة ان نذهب فنشرب قدحاً في فندق جديد في « الغويديكا » يريد صديقه ان ينزل فيه ؛ وكان لذيذاً ان نعبر القناة في ليلة جميلة تشع فيها النجوم مع هلال برتقالي بدا أنّه عُلّق هناك قصداً من أجل السيّاح ؛ وفي البعيد كانت تتلألأ أنوار الليدو صفراء ، وقصر « باليه دي دوك » الذي يبتعد . وكان للفندق حديقة تغطس في البحيرة ، وكان جميلاً حقاً . ولكننا شردنا في غير اطمئنان عبر الدهاليز ؛ وقال لنا البوّاب إن صاحب الحانة قد « رفع شراعه » . وصعد الاميركي يختار غرفته ، فأقمنا ننتظره . وتلفن النحّات ؛ حسناً ؛ فخرجنا من جديد ، وحين هبطنا اليابسة ، حسبنا انا وسارتر اننا نعيش احدى قصص « بافيز » : من جرّاء تلك المشاريع الحماسية الجوفاء التي تفلس فجأة . وكان النحّات ينتظرنا مع بعض أصدقائه ، فقصدنا سهل « لافينيس » حيث كان يقوم مقهى جميل بين الأشجار الخضراء . وطلب شارمان مشروبات غريبة هي مزيج من شراب النعناع والعنب يزعم ان العامل البندقي يشربها في الساعة الخامسة صباحاً ، مع مزيج من البرنود والويسكي . اما انا ، فقد اكتفيت بشراب العنب الطبيعي . واما سارتر المسكين فكان طريدة شاب قصير ذي عينين مبهورتين يعمل في السينما ؛ وهو قد اشترك في سيناريو « لوأميس » ، وقد قال لي : « انك مشهورة هنا ، والبندقيون يحبّون « المثقفون » فسألني شارمان : « هل انت كاتبة المثقفون » ؟ إنه لم يقرأها ، وقال لي في تململ : « أجل ، بعد التفكير ، يمكن الاعتقاد ان بوسعك ان تكتبي » وأصبح هذا الحديث كله مصطنعاً ، فزال السحر . واستأذنّا فاتجهنا الى حانتنا المعتادة على ساحة « الاسود »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصغيرة ، على جانب سان مارك . وكانت الساحة الكبرى مقفرة ، وكان فيها امرأة حمراء الشعر تبكي وتصرخ ؛ وكانت احدى يديها ملفوفة بضماد ، وهي تتخاصم مع شخصين بثياب مهندمة لا شك في انهما من الشرطة ولكن بثوب مدني ؛ انها مرتمية تحت القناطر ؛ وتوقفت فجأة عن البكاء ، وقفزت الى احد الرجلين تحتجّ بحركات كبيرة ؛ وخرجت جميع مومسات الساحة من الظلّ ليرين ما كان يحدث . واخيراً ، ابتعدت ذات الشعر الأحمر وهي تدمدم . وجلسنا أمام قدح الويسكي . وخرج رجل يعدو من المقهى المجاور – وهو ايطالي ذو مظهر حسن – يتبعه خادمٌ ينهال عليه ضرباً ؛ ويلتفت الزبون فجأة ، فيتناول كرسياً ، ويرفعه ، فيرميه الخادم ارضاً. واية صرخة تنبعث من المشاهدين : « كلا ! » ثم يندفعون ليفرّقوا بينهما . كان ذلك لطيفاً : فلو حدث مثله لما كان هذا الاندفاع ، ولتركوا لبعض الدم ان يجري . وأُعيد الخادم الى مقهاه ؛ وانسحب الزبون ومضى ؛ وبعد دقيقتين ، عاد برفقته حارسين يحملان سيفين . وذهبنا نقف أمام المقهى ، بين الفضوليين (وكلهم ايطاليون لأن الوقت متأخّر) . وينزعج الخادم ، فيطلب ان يذهب الناس عنه ويقول بالفرنسية : « إن من كان مهذّباً لا يبقى هنا ! » فقال له سارتر : « تتهمني بأني قليل التهذيب ؟ » وتوشك المناقشة ان تتفاقم ، ولكن صاحب المقهى يتضايق فيُدخل الخادم بينما تصرخ فيه مومس ايطالية ، سمراء طويلة : « انه فرنسي وأنت تهينه : هذا غير مقبول ! » وعدنا الى مكاننا . ويُقبل الايطالي المضروب ليتناول فنجان قهوة في مشرب حانتنا ، بهيئة متحدّية ، ولكنها متحللة . ثم يمضي . ويأتي متشرّدان يرتديان ثياباً نظيفة ، وشعرهما أبيض جميل ، فيساعدان خادم المقهى المجاور على إدخال الكراسي والطاولات ، فيما هما يستمعان الى قصته ؛ ويعطيهما بعض الدراهم . فيتقاسمانها ويمضيان لامباليين في الليل . ونمضي نحن ايضاً ، وفجأة نجد حولنا ثلاثة او اربعة من خدم المقاهي ، بينهم بطل الحادث . وهو يريد ان يتفاهم مع سارتر ، ولكن لهجته عدائية ، ويبدو ان النزاع سيتفاقم بدلاً

من أن ينتهي ؛ وقال احد الخدم دفاعاً عن زميله : « إن ذلك الزبون يأتي كل يوم لإزعاجنا » ويقول الخادم بطل الحادث في إلحاح : « انني لم أهاجمك . كنت أتحدث الى الجميع ، بصورة عامة » فقال سارتر مبتسماً : « كانوا ايطاليين ، وقد تكلمت بالفرنسية » وضحك الجميع ، ومدّ الخادم يده بلطف . « حسناً . انني اذن اعتذر » وكان في هذه القصة كلها اسلوب خاص جداً بايطاليا .

اليوم مطر ، والبندقية تذوب في الضباب ، والأبنية تتلاشى . وقد تدثّر بعض سائقي الغندول بوشاحات سوداء .

يستمر ديغول في التفاوض لمجيء موليه الى الجزائر : انه يريد ان يتأكد من انه لن يكون مجبراً على ان يتركه معلّقاً في المشجب . وقد أُقيل احد محرّري الراديو تحت ضغط حكومة الجزائر ؛ وتغيّر مجموع الموظفين : فقد ذهب دولانوي ، وعاد نوشيه . إن حكومة الجزائر تحكم أكثر فأكثر .

الاربعاء ٢٥ حزيران

نشرت « كوريير ديلاسيرا » تعليقاً على المؤتمر الصحفي لمالرو كان مسلياً جداً . صور وتلفزيون وابهة عظيمة ؛ كان مالرو يتكلم بلهجة واعظ صوفي ، وقد دهش الصحفيون الاربعمئة . ويقول المراسل الايطالي إن الأخبار قليلة ، ولكننا تعلّمنا كثيراً عن « الاسلوب البسيكولوجي والكوريغرافي للعهد » إن مالرو يريد ان يجعل من الجزائر وادي تنيسي . ويرسل الحملة الثلاثة الفرنسيين لجائزة نوبل ليحقّقوا في السجون . إن الأمر كما يقول سارتر : « إننا نسقُط من الجُبن الى الرمز » .

الخميس ٢٦

رسالة من لانزمان ، تعبّر عن الإعجاب والانزعاج في آن واحد . فهو يقول ان الكوريين لطيفون الى ابعد الحدود ، ولكن التفاؤلية الرسمية أسوأ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من تفاؤلية الصينيين .

ملاحقات قضائية ضد « الابسرفاتور » و « الاكسبريس » : وهكذا على الأقل نعرف اين نحن من حرية الصحافة. والحق اننا نلاحظ ، اذا قارنا الصحف الفرنسية بالصحف الايطالية ، ان صحافتنا تقوم بمراقبة نفسها ، فهي لذلك مخصيّة . ولا شك في ان المقالات المحذوفة تخصّ الجزائر ، وكان بينها مقابلة مع احد قادة جبهة التحرير الوطني . في حين ان حكومة الجزائر المحلية ترغي وتزبد ؛ باعتبار ان مؤتمر مالرو الصحفي قد غاظها .

الاثنين ٣٠ حزيران

شاهدنا مرة اخرى لوحات تورسيلو وكارباسيو في سان جيورجيو ؛ وصعدنا الى « الكامبانيل » ودقّت الأجراس بكل قوة في آذاننا . وزرنا « البيانال » : عرض رديء جداً للوحات « براك » ، وعرض رائع جداً للوحات « وولز » ؛ منحوتات هامة ل « بسفنر » . وقد قضينا امسيات لطيفة ؛ ولكي نتحاشى اللقاءات ، هاجرنا من حانة « هاريز » الى « السيروس » حيث كانت عازفة بيانو المانية توقّع ألحاناً قديماً جميلة . وتسلّيت بمشهد شابين اميركيين ظلاّ ساعات جالسين جنباً الى جنب ، من غير ان يفتح احدهما فمه ، ولكن عينيهما كانت ملتمعة ابداً ، وبسمة على شفاهما لا تغيب ، كما لو انهما لا يصدّقان انهما موجودان على الأرض ، وانهما اميركيان وان باقي العالم موجود . وشرع بلجيكي سمين باهت الوجه في رسم صورة لسارتر ، من غير ان يعرف انه سارتر : فكانت صورة رديئة جداً . وكان قد وصل من بروكسل بصحبة كونت لوطي كان ضحية ألمٍ من تلك الآلام الفظيعة التي يعانيها اللوطيون كثيراً : كانت عينه سوداء ، فارغة ، مسحورة بصورة بعيدة ، وحين كان الآخر يوجّه له الكلام ، كان يشقّ عليه ان يستردّ حواسّه .

هذاء المساء ، آخر مساء ، قصدنا « هاريز » لنودّع « شارمان » والنحّات.

وكانا يشربان خمراً ابيض مع مجهّز مراكب سويدي وزوجته. وقد أثّر بي لأنه كان قد اشترى « المثقفون » وقضى ليلة فقرأ منها ١٣٧ صفحة ؛ وقال لي بحماسة إنه كان يجد هذه الرواية افضل من « ذهب مع الريح » وقال : « انا بالتأكيد « سنوب » : وما الذي املك غير ذلك ؟ » وأشار الى السويدية قائلاً : « انها تكره « المثقفون » ، فقالت لي من غير انزعاج : « نعم إن فيها قدراً مبالغاً به من السياسة ، وأنا أكره السياسة » ثم أضافت في لطف : « ثم إنني يمينية . إن لي زوجاً ، وعشيقاً شرعياً ومالاً كثيراً : فأنا إذن من اليمين . » ثم بدا عليها القلق ، فسألت مجهّز المراكب : « أليس كذلك ؟ الا أملك كثيراً من المال ؟ » فهزّ رأسه وضحكت : « لا ؟ إنه الخراب إذن » وهاجمت « شارمان » : « اما انت ، فخراء ! » فأجابها باندفاع « نعم ، ولكنه بشري ! » .

الثلاثاء ١ تموز

سفر . ولكننا اولاً نتناول الفطور في الريالتو ، على « الغران كانال » ونحن نقرأ الصحف . لقد ذهب ديغول وموليه الى « الجبهة » الجزائرية . وتبدو قضية استاذ « بيربينيان » الذي قتل طالباً قضية واضحة . إن « بيربينيان » ملآى « بالافريقيين » القادمين من مراكش ومن تونس ، وهم جذرياً من الفاشيين الذين ألّفوا نوعاً من « لجنة السلامة العامة » ضد الأساتذة الذين اضربوا في حزيران ، وضد جميع الاساتذة اليساريين بالاجمال . وقد كان « اميال » وزوجته يساريين ، وكانوا قد جعلوا حياتهما مستحيلة بالهتافات العدائية في قاعات الدروس ، وبوضع المتفجرات في صندوقهما البريدي عند باب منزلهما . وكان الزوج قد هُدّد تهديداً جدياً بالقتل . ومنذ بضعة ايام ، اقبل بعض الطلاب يهتفون ضده عند الباب ، فأطلق مسدسه في الهواء . وحدثت اليوم مظاهرة عدائية ضده تحت منزله ، فأطلق النار ، وقتل طالباً . والآن يتنازع اساتذة الليسيه في الملعب ويتضاربون ، فاشيين ضد اعداء الفاشية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت بيانكا قد حدثتني عن التوتر في باريس نفسها بين الطلاب والأساتذة ، في الليسيات « الرفيعة » مثل ليسيه باستور وجانسون الخ ...

توقّفنا في « فيرار » . ووصلنا عند الساعة السادسة الى « رافين » . وكان الجو رائقاً في المساء الهابط ، ولكن ليس ثمة ما هو أشدّ صخباً من هذه المدن الايطالية الصغيرة بدراجاتها البخارية والعادية . لقد انقضت ستة أعوام على مجيئي الى هنا ، وعلى قيادتي السيارة للمرة الأولى طوال رحلة كاملة ، وعلى تعرّفي الى لانزمان .

الاربعاء ٢ تموز

ما أجمل « سبوليت » بشوارعها الملآى بالدربزينات والسلالم ، وبحصى طرقها الصغير . وعلى الواجهات السوداء فوانيس معلقة كبيرة ، وظلال كثيرة تحسب العناكب معها انها في عليّة فتنسج خيوطاً هائلة بين اسلاك التلغراف . وكان الفندق يشرف على ساحة مبلطة بصورة غير منتظمة ، تحيط بها الخضرة يبكي وسطها ينبوع صغير ، وتبدو وكأنها حديقة خاصة . وتختلط رائحة الزيزفون برائحة غامضة من البخور والجلود . وحول ذلك كله تقوم رواب جافة ، وأبعاد ايطاليا الزرق .

لم أذهب لأشاهد ثانية فسيفساء « رافين » ، فلم تكن لي رغبة في ذلك ولا أحسّني بعدُ حاملةً رسالة : فأنا في السفر لا افعل الا ما يحلو لي . كان يروقني ان ارى ثانية « اوربينو » حيث تغدّينا وأخذنا القهوة تحت القناطر . وسأل الخادم سارتر :

– هل انت فرنسي ؟ وانت كاتب ؟ وانت جان بول سارتر ؟

وادعى انه عرفه من صورته في الصحف . ولكن بعد ذلك بدقيقة ، اقبل ثلاثة اساتذة ايطاليين يطلبون من سارتر توقيعه : كانوا هم الذين اكتشفوه .

كان كتاب « التعذيب » لأليغ يباع في « سبوليت » . وكانت على الجدران مناشير تصف ديغول وموليه وفليملان بالدكتاتورية والرجعية ... ثم يأتي تعلبق

يقول : « هذا ما تؤدي إليه مناهضة الشيوعية : الفاشية ... » سماء رائعة زرقاء ومتعة كبيرة ان أجد ايطاليا ثانية : فان البندقية ليست هي ايطاليـــا .

وفي المساء تنزهت مع سارتر في هذه الشوارع التي تنبعث منها رائحة البزور ، وكانت الفوانيس الضخمة قد أضيئت فيها .

الجمعة ٤ تموز

رأينا أمس الشوارع و « الدوم » والجسر الرائع ذا الحنايا القائم فوق وادٍ ضيّق قليل العمق : ما سبب وجود هذا الجسر ؟ وامام الفندق ، كان الخدم يضعون الطاولات والمصابيح الصغيرة ، وهم يطلون باللون البنفسجي المتاريس لعيد لا أدري ما هو . وسافرنا الى روما ، فكنا نرى على بعد عشرين كيلومتراً كنيسة القديس بطرس وجبل ماريو.

كان المطر يهطل ، ولم أفد جيداً من اوقات بعد الظهر ، بالرغم من متعتي في ان انزل فندق « سيناتو » بساحة لاروتوند . وحين أنام ساعة بعد الظهر ، يستولي عليّ الضيق قبيل اليقظة : سنبلغ إذن السبعين ، وسنموت ، هذا صحيح ، وهذا مؤكّد ، وليس هو كابوساً ! كما لو ان الحياة الموقظة كانت حلماً مفرط الزرقة قد امّحى منه الموت ، وأني أبلغ في النوم قلب الحقيقة .

تعود إليّ اليوم ، والطقس جميل والسماء زرقاء ، سعادة ان اقضي مدة طويلة في روما ، والرغبة في ان أكتب . وأكتب . وقد تلقيت رسالة طويلة من لانزمان الذي كان مقسّماً بين حبه للكوريين وسأم السفر في وفد .

عاد ديغول من الجزائر . ولم يستقبل لجنة السلامة العامة ؛ والمسؤولون في مدينة الجزائر غاضبون . ولكن الالتباس مستمرّ ، والرمز والجدل اللفظي . وقد قرأت مقالاً لمورياك في « الفيغارو » الأدبي يمجّد فيه ديغول ويتحدّث بشغف حاقد عن مالرو المتطلّع الى القوة والذي عُهد اليه في « وزارة للقضم ».

وقد بدأ سارتر ، بعد أن سَعِد في روما ، كتابة مسرحيته في سرور .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولم أقرأ بعدُ شيئاً. ويبدو ان سيمون بيريو قد بدأت تجنّ في باريس.

حين تأخذني الرغبة الآن في ان أكتب، آخذ في تأليف كتابي. وحين تغادرني الرغبة، فحتى هذه اليوميات تضجرني. ولا ادري ان كان لها حظّها.

الثلاثاء ٨ تموز

عناوين كبيرة في الصحف، «سوستيل يحل محل مالرو». والاشتراكيون يتحالفون اكثر فأكثر. وما زال موليه على جموده.

لا، في هذه اللحظة، ليس لديّ ما اقوله في هذه اليوميات. إن روما بلا سيّاح، وقيظها ليس شديداً اكثر مما ينبغي، وهي زرقاء، مثالية. الايقاع نفسه الذي عرفته في العام الماضي. حوالي العاشرة، فطور طويل على الساحة التي ما تزال ملآى بالرجال الدون ولابسي القبعات الطرية، عمل حتى الساعة الثانية او الثالثة، وتناولنا سندويشاً على سطيحة مقهى، وتنزهنا قليلاً. وعدنا الى العمل الساعة ٥. وقد تناولنا العشاء عند «بافكراسيو» فأكلنا «سباغيتي» و «بارولو»، وشربنا ويسكي اكثر مما ينبغي في ساحة سانتي ابوستولي او في ساحة ديلبوبولو. وهذا مألوف جداً وسعيد جداً حتى ان الكلمات لا معنى لوجودها.

الجمعة ١١ تموز

وربما كان لأسباب أخرى اني لا أجد ما أقول. أجل، إن روما سعادة لي، وعملي، بالرغم من انه منفّر قليلاً، يهمّني، وعمل سارتر شاقّ، ولكنه يستغرقه. ولكن هناك فرنسا. وفيما كنا نشرب الويسكي، في شارع فرنسيسكو كريسبي، وننظر الى مدرّبات المرقص المجاور (والفتاة الطريفة التي تكون في المساء متوردة وانثوية، وتبدو في اليوم التالي مسحورة بحذاء سارتر) اعترف احدنا للآخر بأنه لم يكن يملك مرح القلب. كنا نتظاهر بأننا نعيش متيقظين، في سلام، ولكن الأيام لم يكن لها حقاً مذاق سليم.

عاصفة عنيفة أمس على روما ، وفي المساء كان شارع « فينيتو »، الذي كان ما يزال مبللاً ، شبه مقفر . انني لا احب المخرج « فليني » الى هذا الحد ؛ ولكن من المستحيل الا ارى شارع فينيتو عبر صور « ليالي كابيريا » .

كان « فلوران » يتحدّث بودّ في « لوموند » عن المقتطفات التي ظهرت في « التان مودرن » من « مذكرات فتاة عاقلة » . اودّ كثيراً ان يحب الناس هذا الكتاب ، وهذا ما يؤدي لي خدمة لكتابة الجزء التالي منه .

طلب الاشتراكيون من ديغول ان يلغي لجان الجزائر ؛ ولهذا مغزى بعيد كما كانت تقول « لوكوريبري ديلا سيرا » ، وهو بلا اي اهمية . صمت الصحافة الفرنسية واستسلامها . وتشير « الاكسبريس » و « الاوبسرفاتور » في يأس الى هذا الخمود ، والى الصعود الهادىء والقدري لكل ما نحتقر .

الأحد ١٣ تموز

« قبل اختراع الزجاج كان من المستحيل ان يكون ثمة عبقرية خارج المناطق التي « تنبت فيها شجرة الزيتون » . هوذا لون من التأملات التي تسحرني . لقد قرأت كتب « سوفي » في شغف ، وانا الآن اقرأ كتب « فوراستيه » التي تسلّيني كثيراً . وهو يزعجني كذلك بنزعته التكنوقراطية . رؤية تكنوقراطية فظيعة للانسان . إن « تنظيم الانسان » هو الوجه الآخر لتفاؤليته . فهذه المدن الثالثية التي يريد « لوكوربوزييه » و « فرانكا ستيل » و « فوراستييه » وسواهم ان يعيشوا الناس فيها ، هي تماماً الـ Suburbs ، احياء السكنى الاميركية الخاصة : وذلك ما يُرعشني . قد يكون هناك مدى ونور وهواء ونظام ، ولكن ما الذي يقصدونه بـ « انسجام » ؟ الا يحتاج « الانسان » (اي انسان ؟) الى روح اعتدائية هجومية حوله حاجته الى الهدوء ، او لا يحتاج الى الصمود واللامتوقع والى ان يحسّ في الجوار ان العالم ليس بستان فاكهة كبيراً ؟ أمن الواجب حقاً الاختيار بين أكواخ وشقق فاخرة ؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اي يوم جميل ! لقد تناولنا الغداء في برج « ديلكاربون » بجانب طريق آبيا. كان ثمة شجر سرو وصنوبر وقرميد تحت سماء مصفرّة ، وتلك الطريق التي لا تنتهي ، لأن العين حتى في السيارة تقيسها كما كانت حين كان المرء يسلكها راكباً على حصان او ماشياً على قدميه حتى بلدة « بومبيي » : طريق مستقيمة بين شجر سرو مستقيمة ، توحي بأرض مسطحة لا حدود لها . ولقد أحببتها اليوم بمثل الانفعال الذي احببتها به وأنا في الخامسة والعشرين . .

هذا المساء ، سيرقص الناس في باريس ، تحت اجمل الألعاب النارية ، ومع اكبر الفرق الموسيقية التي رؤيت منذ أعوام . وقد كان مضحكاً في العام الماضي ان تمنع حكومة اشتراكية حفلات رقص ١٤ تموز . ولكن هـذا « الانبعاث الوطني » الذي سيحتفل بنفسه غداً ، انما هو شيء منفّر . لقد أحببت كثيراً حفلات ١٤ تموز . أترى لن يحدث شيء؟ انني مسرورة ألاّ أكون في باريس . ولو كنت لظللت أكزّ على اسناني كل هذه الليالي .

ما ألطف هذا ! إن نافذة غرفة حمّامي ، عبر الطريق الضيقة ، تؤطّر نافذة حمّام جاري المواجه التي تؤطّر شاشة تلفزيون ؛ إنه جالس وحده على كرسي ، وانا ارى تماماً ما يتفرّج عليه . فهذا المساء امرأة تتأمّل وحدها في الشاشة البيضاء ، ثم تقول كلمة ويرتفع التصفيق . انها جلسة « لاسكيا ـ رادوبيا » من تلك الجلسات التي يقدمون عنها تقارير حماسية كل يوم في الصحف ؛ إنها رياضية وطنية حقة في ايطاليا .

ازالت العاصفة توتّر الجو ، وقد خفّ التوتر عندي ايضاً ، بلا سبب . انني لا أهتم بحفلات رقص ١٤ تموز ؛ كنت الساعة في ساحة نافونا ، وكانت السماء زرقاء معتمة ، سماء ليالي روما ، فوق البيوت الحمراء الداكنة ، مع الفوانيس المضاءة ، وهؤلاء البشر جميعاً الذين يروحون ويجيئون ، وكان ذلك اكتمال اللحظة . إن الحياة هذا المساء تشدّ قلبي من جديد .

الثلاثاء ١٥ تموز

سيكون يوم ١٤ تموز بعد الآن العيد الوطني للعراق : ثورة في بغداد

وهوذا حلف بغداد يتحطّم ، والعراق يؤيد « الجمهورية العربية » وعبدالناصر في فرحة كبرى ، وكذلك ثوار بيروت . وافترض ان جبهة التحرير الوطني في جذل .

وفي هذه الاثناء ، قام العرض العسكري في الشانزليزيه . ولم يكن ديغول حاضراً العرض ، لأنه لم يكن في المنصة الا المكان الثالث : دائماً حسّ « العظمة » ذاك ! وتحدّث مالرو ، في ساحة اوتيل دوفيل ، ولكن كان في عداد « شعب باريس » مقاتلون مسلمون وفرنسيون متجمعون في نظام . والقصة الوحيدة الهامة هي التالية : بعض الجنود الجزائريين الشبان الذين حُملوا قسراً إلى باريس ليرمزوا الى التآخي ، مرّوا في العرض من امام منصة كوتي ، وبدلاً من ان يحيّوه ، سحبوا من تحت قمصانهم اعلاماً خضراء وبيضاء ولوّحوا بها في تحدّ . وفي الليل ، قتل احد عشر شخصاً على ايدي الجزائريين ، بينهم عشرة مسلمين متعاونين .

رسالة طويلة اخرى من لانزمان . وهو يقول ليس ثمة كوري واحد الا وهو ارمل او يتيم : وكثيرون يبكون وهم يروون قصصهم . لقد ازال الاميركيون مدناً وقرى لمجرد اللذة ، والناس يكرهونهم كرهاً وحشياً . إنهم في جميع المسرحيات وفي جميع الأفلام يلعبون ادوار « البشعين » بأنوف من كرتون ، وسط هتافات عدائية ليس فيها ما هو اصطلاحي . وقد رأى العرض ، ويقول « غاتي » الذي حضره وحضر عرض أول اكتوبر في الصين ، إن ذلك كان أشد وأكثر عسكرية من هذا . لقد زادوا تصلّباً في الحرب ؛ وتفرّد البلاد يكمن في هذه الخلفية الحربية .

كان سارتر يقابل مساء امس بعض الأشخاص ، فذهبت الى السينما : فيلم اميركي رديء عن مساويء الصحافة . وكانت دار اخرى تعرض مقاطع من « دروب المجد » ويبدو انها جيدة ولكني لا أملك الشجاعة لمشاهدتها . إن الحاضر سيء بما فيه الكفاية من غير ان أذهب فأشمئزّ ايضاً حول اعدامات ١٩١٤ ـــ ١٨ وحول الكلبية العسكرية . وكما كان يقول جورج باتاي :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« انني اعذّب نفسي عندما يحلو لي » .

فيما كنت أتناول الفطور مع سارتر ، التقينا بميرلو – بونتي وزوجته النشيطين اللذين كانا متجهين الى نابولي . وقد انزرعت امام طاولتنا فتاة ايطالية قصيرة ، خائفة جداً ، ووجهت لي كلمات ودية كثيرة ؛ وهذا ما يسرّ دائماً (الى اي حدّ ؟ الخ . هذه نقطة يجب توضيحها في كتابي القادم) .

لو كنت أشبه ذلك الأديب الشهير الذي يذكر « فوراستييه » ان ضجة آلة للتزحلق يركبها طفلان كانت تمنعه من ان يعمل ، لكنت شقية حقاً . إن هذه الساحة هي أصخب ساحات روما : دراجات بخارية ، وسيارات تتوقّف بضجة كبيرة ، زمامير ، بالرغم من المنع ، اصوات حديد ، صراخ ، كل شيء . ولكن ذلك لا يزعجني . اما نساء روما فتشوههن هذه الاثواب – القمصان التي هي اشد وقاحةً في المساء ، عند شارع فينيتو ، منها في الصباح حين ترتديها نساء الحي العاملات في البيوت . وهناك تدفق غريب لنزعة السادية اللواطية لدى الخياطين الكبار .

اقرأ كتاب « جونس » عن فرويد؛ ما أعظم قدرة هذا « المغامر » على اقامة التوازن في ميدان الضمير والخفة وميدان السذاجة والبراعة . إن كوكايينه قد قتل شخصاً (من غير التحدث عن الآخرين) وقصة « فليش » فظيعة . كانت لديه « احاسيس ذنب » ولكنه كان مذنباً . اما قصة « بروير » فرائعة . إنه يعالج « أنّا و . » فيقع في غرامها من غير ان يعترف بذلك، ولكن زوجته تشعر بالأمر . ويعزم على ان يوقف المعالجة ، فيخبر « أنّا » التي تكون قد شفيت ، ومساء القطيعة ، يُستدعى بحجة انها في اسوأ حالة : فاذا هي تقلّد بصورة هستيرية حالة الوضع ؛ ويفهم « بروير » فيأخذ قبعته ، ويفرّ الى البندقية مع زوجته ويُولدها فتاةً تقتل نفسها بعد ستين عاماً في نيويورك . غير أن « أنّا » كانت أول مساعدة اجتماعية في اوروبا ؛ وقد أنقذت عدداً كبيراً من الأطفال اليهود في اثناء حوادث الابادة عام ١٩٠٠ .

الاربعاء ١٦ تموز

يوم ٢٥ ايار ، بدأت هذا الكتاب في الجذل ؛ اما الآن ، فأعمل في مشقة واشكّ قليلاً ؛ ربما كان الطقس حاراً جداً : ٣٦ درجة ؛ وقد كتبت دفعة واحدة اربعمائة صفحة في خليط فظيع ؛ وذلك يقتل اللذة . ينبغي ابتداء من هذه المواد التي سأمضي في تجميعها طوال شهر ، وانا انتزعها من رأسي ، ان يعاودني في باريس بعض الاهتمام بنفسي ، وبعض الحماسة . انني لا أدري بعد على الاطلاق ما عساها تكون لهجة هذا الكتاب ، ولا تصميمه .

لقد اكتسح الاميركيون لبنان ، على حد قول « بيز سيرا » ، و « نزلوا في لبنان » على حد قول « الميساجيرو » ، وهناك فرق .

أُوقف الشبان المسلمون الذي انتزعوا من صدورهم اعلام جبهة التحرير الوطنية . وقيل انهم كانوا اربعة . وقد كانوا يصرخون ، كما روت « لوموند » « لتسقط الجزائر الفرنسية » . وقد قتل الفرنسيون « بلونيس »[1] الذي اتّهم بأنه قتل اربعمئة من رجاله ؛ ويقول الايطاليون ان الفرنسيين قد قتلوا « بلونيس » والاربعمئة رجل معه ...

ان جونس لا يشرح جيداً عُصاب فرويد الخاص ولا كيف تحرّر منه . ربما كان منزعجاً بوجود ابنته ، ولكن هناك قضايا لا يطرحها : علاقات فرويد بزوجته مثلاً . أما القول بأنها كانت « ممتازة » ، فهو قول سريع ؛ ولكن انحطاط القوى والدوار وسواهما مما كان يُحسّ به فرويد انما هو مرتبط مباشرة أو غير مباشرة مرتبط بحياته العائلية . وقد كان على اي حال رجلاً حياً جداً : ودليل ذلك شغفه الشديد بالرحلات . صحيح ان له زوجة واحدة ، ولكن لماذا ؟ إن جونس يتحاشى طرح القضية . غير ان ما يصوّره جيداً بالمقابل ، انما هو عمل فرويد ، المختلف جداً عن عمل فيلسوف وعن عمل عالم في الوقت نفسه . واللحظة الأشدّ تأثيراً هي التي يكتشف فيها خطأه

(١) كان بلونيس قد اتصل بفرنسا لحساب « الحركة الوطنيـــة الجزائرية » ونظم ضد « جبهة التحرير الوطنية » جيشاً شعبياً للتحرير .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن الهستيريا : لقد حسب ان جميع مرضاه من النساء انما هنّ قد « أُغرين » بآبائهن ، ، وعرض هذه النظرية على زملائه ، وسط استنكارهم العام ؛ وفكر بأنه لم يكن ممكناً ان يكون ثمة هذا العدد الكبير من الآباء المسافحين ، وان أباه لم يكن مسافحاً ، بالرغم من ان اثنتين من شقيقاته كانتا تعانيان من اضطرابات هستيرية ؛ وقد فهم ان جميع مريضاته قد اخترعن كل شيء. فأي تكذيب ! وأية صدمة ! ولم يجرؤ على مواصلة الممارسة ، وظل وقتاً طويلاً من غير ان يربح درهماً . ومع ذلك ، فقد كتب لـ « فليس » ان لديه شعوراً بالنصر ، لا بالهزيمة : لقد بدت له تلك الكذبة المشتركة ثقيلة بالمعنى وفتحت طريقاً جديداً . والواقع انه ابتداء من هنا اكتشف النزعة الجنسية الطفولية ؛ وكان يقول في أسف أحياناً : « انني مغامر ، فاتح ، ولست عالماً » ومن المؤثر ان نرى هذه الأفكار التي أصبحت مدرسية وآلية الى ذلك الحد – النقل مثلاً – تنكشف في تجربة حية الى هذا الحد . ففي المرة الأولى التي ألقت فيها احدى المريضات ذراعيها حول عنق فرويد تذكّر قصة بروير واستشعر النقل . وهو يصور في احدى رسائله تصويراً فاتناً ساحة كولونا وايطاليين : كـــان نازلاً في فندق ميلانو . إن وجهه في صوره يصبح مع السنّ كثيفاً أكثر فأكثر ومنغلقاً أكثر فأكثر ، وحزيناً خصوصاً .

إن « جوان » تكافح ميلها للعبادة في البحث عن نقائص « ابطالها » وألوان ضعفهم ؛ ولكن الأمر على العكس ، حين نأخذ أولاً « بطلاً » على انه رجل ، فنعجب به ابتداء من ألوان ضعفه التي تجاوزها .

أعدت قراءة هذه اليوميات ، فسلاّني ذلك . عليّ ان أتمّها ، ولكن ينبغي إيلاؤها مزيداً من العناية . إنني دائماً أصمت عمّا هو « تحصيل حاصل » : مثال ذلك ردود فعلنا بعد اعدام ناجي .

لِمَ تكون هناك اشياء أتمنّى ان أقولها ، وأخرى أكفّنها ؟ لأنها ثمينة اكثر مما ينبغي (وربما مقدّسة) بالنسبة للأدب . كما لو ان الموت وحده ، النسيان وحده كان على مستوى بعض الحقائق .

حبّذا لو كنت أستطيع الكتابة حين اكون قد شربت ، او أبقى منتعشة بعض الشيء حين أكتب ! لا بدّ ان هناك مفصلاً !

مطر ، مطر على روما ؛ وكم ان ذلك جميل عبر الشبابيك ، عند منتصف الليل ، مع قصف الرعد وخرير المياه المتصل . إن العواصف تناسب روما . وفتحت شبابيكي : إن شلالات تسقط من السماء ، من قبة « البانتيون » ومن السقوف ، ومن المزاريب . إن هناك ثلاثة اطياف سوداء ، صغيرة ، مسمّرة ، مع لطخة القمصان البيضاء ، على أعمدة البانتيون التي تبدو هائلة فجأة ؛ إنها الآن تتحرك ، بخطى هادئة في الفناء الأسود والأبيض ، في حين يتدفق حولها الماء والبرق . إن هذا لجميل حقاً . إن الشارع يصبح سيلاً ، وتندرج قطعة من ورق في الدوّامة ، وتتهادى ثم تمضي فتنسحق عند جدار . وحين يلمع البرق ، تنقضّ على الطريق سبحات من اللؤلؤ المتوهج . وتنبعث فجأة رائحة ارض قوية من هذه المدينة الحجرية . وتخلّف السيارات وراءها أثلاماً كأثلام السفن . ولكن فجأة تغور السيارات حين ينطفيء النور الكهربائي في الخارج . ويحاول أشخاص ان يخرجوا من السكرستيا ؛ ويفتح الخادم مظلّة ، وتقلع سيارة تاكسي وهي تهدر . ولا ينقطع اولئك الرجال الوحيدون ، الوقحون ، الهادئون ، القصار الذين يكادون لا يتحركون ، وهم سود وبيض على البلاط الأسود والأبيض .

هدوء في العاصفة . وتشتعل لافتة من جديد : « بيزاريا » . آخر قصف للرعد. ويمرّ رجل باللباس، الوردي الأزرق وهو يعدو. إنها الساعة الواحدة صباحاً.

الجمعة ١٧ تموز

أحسّ كل مرة هذا الاحساس ، حين ابدأ كتاباً جديداً ، انه مشروع هائل ، مستحيل . انني أنسى كيف يتم العمل ، وكيف أنتقل من المسودات التي لا شكل لها الى الكتابة ؛ ويخيّل إليّ ان هذا جهد ضائع ، واني لن ابلغ ما اريد ابداً . ثم يتكوّن الكتاب ، حسناً او سيئاً ، ولا تكون القضية بعد الا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قضية وقت .

الاحد ١٧ آب – باريس

إن طبعي ، بكل تأكيد ، مكوّن تكوناً جيداً . لقد أحببت هذه العطلة ، وهي متعةٌ لي ، رغم كل شيء ، أن أجدني ثانية في باريس ، جالسة أمام مكتبي ، في هذه الحجرة التي ملأها لانزمان بالهدايا المجلوبة من الشرق الأقصى والمعروضة في فوضى على الدواوين التي بلا غطاء . انها المرة الأولى منذ سنوات ، التي لا أصحبه فيها في السفر ، بسبب كوريا . ولكني أشيخ . ولقد ضعفت رغبتي في ان اذرع الطرقات ، ونمت رغبتي في العمل ، وبدأت أحسّ هذه الضرورة العاجلة التي يدركها سارتر ادراكاً عميقاً . كم كان الطقس حاراً في ايطاليا ! كانت الذراعان تلتصقان بالطاولة ، والكلمات تتدبّق في خلايا المخّ ، فلا تهبط الى القلم . اما هنا فالرطوبة التي تكاد تتجاوز الحدّ ، وان أمامي أحد عشر شهراً متتابعة على الاقل ؛ سيبدو ذلك طويلاً ، ولكن هذا يشجعني في هذه اللحظة . ويقول لي لانزمان إن القراء قد أحبّوا المقتطفات المنشورة من « مذكرات فتاة عاقلة » ، وهذا يشجعني ايضاً .

وبسبب الحرّ لم استأنف طوال شهر كتابة هذه اليوميات : ويجب ان أكتبها بسرعة ، والجذل في اليد التي تركض على الورق . لقد كان باستطاعتي ان أقسر نفسي على العمل – فقد حرّرت ستين صفحة ، وهو بالنسبة لي شيء عظيم – ولكن لم يكن باقياً لديّ اي اندفاع لشيء آخر . وانا اعود مجدداً الى اليوميات ، منذ هذا الصباح الأول في باريس .

وربما كان ذلك ايضاً لأنه لم يكن لديّ شيء كثير أقوله عن كابري . لقد كانت لنا هذا العام غرفتان ساحرتان في هذا الفندق «لابيناتا » الذي اكتشفته في العام الماضي ، حين كنت استنشق دخان مطابع « لابالما » . كانت ثمة حجرة واسعة ذات تربيعات كانت تبدو رطبة ، بالرغم من انها لم تكن كذلك ، وسطيحة كبيرة مع كراسي قابلة للطي وطاولات ؛ وكنا نرى البحر والصنوبر

وجبل سولاريو ، وطوال الاسبوع ، تمتعنا بأجمل الليالي المقمرة . وكنت أحبّ صياح الديكة صباحاً . وكان للجزيرة رائحة ادغال طيبة ، ولكن عطراً مسكّراً من الفريز المسحوق كان يتصاعد من بعض الأمكنة . تناولت الفطور مع سارتر في « سالوتو » ، وقرأنا الصحف ، واشتغلنا من الحادية عشرة والنصف حتى الثالثة تقريباً ، ثم قمنا بنزهة في الحرّ الشديد ، وتوقفنا لنأكل قليلاً . وكان في « المترومانيا » حلوى طفولة لذيذة ، وأيّ منظر ! وعملنا من جديد حتى الساعة التاسعة . أماسيّ طويلة قضيناها ونحن نتطلع الى الناس في الساحة ، ونحن نشرب الويسكي . وكانت المصابيح المعلقة فوق « السالوتو » تكشف للأسف جانب البضائع وتبرزه .

أترانا قد احسسنا هذا الاحساس الحي بنقائص كابري لأننا انما كنّا أقل جذلاً من ذي قبل ؟ لقد كان وضع فرنسا ذاك يثير فينا الاشمئزاز ، وهو وضع بلغ من استرخائه في الاشمئزاز الى حدّ اني لست زاغبة بعد بالتحدث عنه . ثم إن سارتر ، في العام الماضي ، كان يكتب عن لوحات « لوتانتوريه » في جذل . بينما هو يبطيء الآن في سير مسرحيته ؛ بل هو ليس في مزاج يمكّنه من كتابة شيء « مختلق » في هذه الفترة . وانما يفعل ذلك لأنه كان مرتبطاً بالتزامات .

ولمحنا «كلوزو » وزوجته ، وتعشينا مرتين مع مورافيا الذي كان لذيذاً جداً ، وودوداً ، ومنشرح البال ؛ وبدلاً من ان ينشر أفكاراً عامة ، تكلّم عن نفسه وعن ايطاليا ، وكان يتكلم عنهما جيداً . وبالنسبة لحادث السيارة الذي جرى له ، صرّح في بساطة طبيعية : «آه ! ان احداثاً كثيرة تجري لي ، فأنا اقود السيارة قيادة سيئة ، وانا مفرط العصبية واريد الاسراع في السير . وذات مرة ، من « سبوليت » الى روما ، لم يكن في الطريق أحد ، فلم أتخلّ عن المئة والأربعين ، وكان ذلك لذيذاً ؛ ولكن اذا لم ... » وكان قد تشابه عليه في روما السير الى الامام والسير الى الخلف ، فصدم فلاحتين بجدار ؛ وقبل ذلك بيومين ، كان قد صدم سيارة « كاديلاك » فخمة تخصّ احدى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاميرات ، ودفعها بشاحنة واوقف سيارته ايقافاً مفاجئاً بحيث ان النار اشتعلت « داخل العجلات » . ووافق مورافيا على ان كارلو ليفي اشد منه حذراً : « ولكنه مضطر ، لكي يخرج من موقف السيارات ، الى ان يستدعي الحارس : فهو لا يعرف السير الى الوراء ، ولا يتجاوز قط الأربعين في الساعة [1] » وهو ظريف جداً حين يقنعه المرء بأن يتحدث عن زملائه . فهو يقول إن جميع هؤلاء الكتاب الذين يأتون من الريف عندهم « شيء » واحد يقولونه عن منطقتهم ، وهذا محلّي ، ثم يفرغون : في حين انه هو يملك روما برمّتها (يعني ايطاليا والانسان) وهو يعمل بسرعة ما أعجبها ! إنه يكتب ساعتين او ثلاثاً كل صباح ، لا اكثر . ويؤلف اقصوصتين كل شهر ورواية كل سنتين او ثلاث ! وقد حدّثناه عن كتبه الأولى . فأخذ يروي حياته بصورة متقطعة ، وشكل لطيف جداً . وكان مريضاً بمرض العظام ، منذ التاسعة حتى السادسة عشرة من عمره ، ولم يتلقّ اية دروس تقريباً ، وكتب « اللامبالون » وهو في العشرين ؛ وأحرز الكتاب في ايطاليا نجاحاً لم يحرزه كتاب غيره منذ وقت طويل ، ولن يحرزه بعد ذلك . وطوال ستة أعوام ، أحسّ بأنه فارغ ؛ فلم يفعل شيئاً . ثم كتب « الأطماع الخائبة » ؛ ولم تحظ الرواية في ايطاليا بأي « سطر » من النقد ، بسبب الفاشية : كان ذلك من الأدب المنحط ، وقد مُنع فوراً من توقيع المقالات التي كان يعطيها للصحف ، ثم منع من كتابتها . وكان يملك مالاً ، منذ ولادته ، ففرّ من الفاشية إلى السفر والتجوال : في الصين وفرنسا واميركا . وأمضى عدة اعوام في كابري مع زوجته ، ايلسا مورانت . وهو يتحدث عنها بكثير من الاحترام ، ويعتبر رواياتها أفضل الروايات الايطالية المعاصرة ، ولكنه يبدو مستطار اللب حين اقول اني اتمنى

---

(١) بعد ذلك بوقت قصير ، كان كارلو ليفي يقول لسارتر في روما : « مورافيا ؟ إنه يتعرض لحوادث اكثر كثيراً مما يقول . وهي حوادث يومية . ولو كانت صغيرة جداً . ولهذا لا تنشر في الصحف . إن ما ليس طبيعياً عنده العلاقة النفسية – الآلية ، العلاقة بين الرأس والذراع . إنه لا يعرف ، فبدلا من ان يركب الاولى يسير خلفياً ! »

ان أتعرف عليها . فهو منزعج من انها لا تحيط نفسها الا باللوطيين . وهو يزعم ان ثمانـين بالمئة من الرجـال في روما قد ناموا مع رجال . ويتحدث عن ذلك في شيء من الحسد ، لأن المغامرات عندهم سهلة جداً ، ولأنهم على شراهة مرحة ؛ وهو يذكر عبارة «ب» صديق مورانت : «كم عدد الرجال في الأرض» ؟ – اكثر من مليارين – إن هناك اذن اكثر من مليار رجل لن أنام معهم ! » ويروي كذلك، في جاذبية كجميع الايطاليين ، قصصاً عن الكنيسة . فهذا البابا طامح حقاً الى ان يصبح قديساً ، قديساً مرسوماً ؛ والكرادلة يصلّون من أجله : «ليفتح الرب عيون ابانا البابا – او ليغلقها له ! » .

لذة الكتابة من أجل لذة الكتابة : انني اكتب ايّ شيء . حين كنا نعود الى الفندق ، كنا نجد دائماً هذا الخادم الأصفر ذا الخامسة عشرة الذي جعلته احدى النزيلات يوماً يزرّر لها صدرتها ؛ كنا نجده دائماً هناك ، صباحاً ومساء . وقد سألته يوماً :

– الا تنام أبداً ؟

فأجابني : «احياناً» بلا مرارة ولا سخرية ، وفي اليوم التالي سألته :

– كم ساعة نمت هذه الليلة ؟

– اربع ساعات .

– وفي النهار ؟

– ساعة .

– ليس هذا بالكثير .

– انها الحياة ، يا سيدتي .

ولا بدّ انه مسرور أن يأكل وان يرتدي ثوباً نظيفاً : انه ذو امتياز . وربما كان ادعى للحزن ذلك الخادم الذي يخدم في «كابرانيكا» وهو يرتدي التبّان المخطّط ؛ وقد قال لسارتر مساء اليوم الثالث الذي قدمنا فيه الفندق :

– المصنع ؟ أنا أشتغل ...

كان يريد عملاً في مصنع بفرنسا . ولم تكن مهنته تروقه ؛ وقد قال ذات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مساء في حزن :
ــ هذه خدمة ليست جميلة هذا المساء .
ولم تكن خدمته جميلة ابداً ؛ ومع ذلك ، فقد أشرق وجهه ذات مساء آخر :
ــ اوه ! هذا المساء ، الحساب جميل جداً .
وقد قام لانزمان برحلة خاطفة ، واكتسح جزيرة كابري الصغيرة ستمئة مليون من الصينيين ، ما عدا الكوريين . وقد صحبته الى نابولي حيث كان المطار المدني محروساً بجيش من العسكريين الاميركيين ، لأنه كان مغطىً بجنود اميركيين يقصدون لبنان . ثم عدت مع سارتر ، عبر طرق جديدة بين نابولي وروما على شاطيء البحر . وقد أحسسنا معاً فجأة ، عندما رأينا الصنوبر والخضرة في « الدوميتيان » اننا مقذوفان في العهود القديمة . وقضينا السهرة في روما مع ميرلو بونتي الذي التقيناه في ساحة البانتيون . ثم ذهبنا الى بيزا ، حيث شاهدنا تماثيل « بيزانو » في المتحف : الراقصة بلا رأس ، والمرأة التي تختبيء وراء ثوبها ؛ لكأنّ المرمر كان غاطساً في بركان ، فقد كانت المادة فاجعة والحركة مدهشة .
وعدت مع سارتر الى بيزا حيث أخذ ينتظر ميشيل . وعانيت جحيماً في طريق بيزا ــ جنوى ، وكذلك صباح ١٥ آب على الطريق حتى تورينو . ثم استعدت متعة قيادة السيارة ، ولا سيما أمس ، من بورج الى باريس في خمس ساعات ونصف .
من علامات الشيخوخة : الضيق لدى كل سفر ، ولدى كل فراق . وحزن جميع الذكريات لأني أحسّها محكوماً عليها بالموت .

الاربعاء ٢٤ آب

عمل : لقد غرقت ، وانا في المكتبة الوطنية ، طوال ساعات بعد ظهر يومين متواليين ، في مجموعات قديمة لمجلة N. R. F. واعداد قديمة لمجلة « ماريان » : انه مدهش ان يجد المرء نفسه « قبل » الأحداث التي هي الآن

من الماضي . انني ازداد رغبة في ان اكتب عن الشيخوخة . وانا أحسد هذا الشباب الذي تجاوزنا الى هذا الحد ، بفضلٍ منا جزئياً . كم كانت التغذية سيئة ! وكم كان بدائياً كل ما كان يُشرح لنا في الفلسفة والاقتصاد الخ . شعور (ظالم جداً) بالوقت الذي أضاعته الانسانية على حسابي . ومن الشاق ان يحتفظ المرء لحياته ولعمله ببُعْدِ مستقبل ، في حين انه يُحسّ نفسه مدفوعاً من قِبَل جميع الذين سيأتون « بعد » .

قامت جبهة التحرير الوطنية في البلاد ، ليلة أمس الأول ، بسلسلة من الحوادث : إحراق مستودعات البنزين في مارسيليا ، وقتل عدد من رجال الشرطة في باريس . وقد هتفت دكار وغينيا ضد ديغول . انني اقرأ « دوفرجيه » و « نزاع العصر » لستارنبرغ وأجد فيه المتعة التي أجدها في قراءة رواية بوليسية . اول يوم جميل ، بعد المطر والبرد ؛ إن الجو حارّ ، مذهّب ، خريفيّ بعض الشيء ، وعظيم .

لقد نظمت لجنة مقاومة الفاشية مظاهرة معاكسة كبيرة في ذكرى ١٤ ايلول : فكيف تُرى سيجري ذلك ؟ إن لانزمان الذي يهتم كثيراً بالأمر يقول لي ان حملة الإعداد تسير سيراً جيداً . وقد خطب في عدد من الاجتماعات التي عقدت في باريس والريف .

الاثنين ١ ايلول

مخابرة من سارتر . لقد التقى سرفان ـ شرايبر في روما . وسيكتب ثلاث مقالات في « الأكسبريس » ايام ١١و ١٨ و ٢٥ .

الخميس ١٤ ايلول

إن لهذه الصبيحة مذاقاً كئيباً غامضاً ، وما يزال سارتر في روما ، ولم يعد لانزمان من « مونتارجي » حيث خطب مساء أمس ، وباريس تبدو لي فارغة . إن العمال يضربون الجدار بقوة ، بحيث يكون من المستحيل النوم بعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الساعة الثامنة مساء ، ويكون من الصعب العمل ؛ والحق انني ثائرة الأعصاب اكثر مما ينبغي . السماء زرقاء ، خفيفة ، مع سحب صفراء فوق الأوراق التي بدأت بالاصفرار ؛ انه الخريف بين قبور مقبرة مونبارناس . انني استشعر ضيقاً لبعد ظهر هذا اليوم . ليس ثمة من خوف (وان كان يختلط به) وانما هو الضيق خشية الإخفاق ؛ إنني أخشى ان يتوجّب عليّ ابتلاع ساعة من هذه الحفلة التي تثير الاشمئزاز بلا اية نتيجة . أجل ، انهم يبعثون « بيتان » ، وسيمنحون وسام جوقة الشرف لمئة عامل من النخبة ، وسيشرح مالرو أن ديغول قد قبل تحدّي اليسار وانه يجرؤ على ان يخطب في « ساحة الجمهورية » . وقد مررت بالساحة امس الأول مع لانزمان . انها تقوم بشكل يصبح معه الجمهور بعيداً لبضعة كيلومترات ـ وستكون المقاعد ملآى بالمدعوين والشرطة والمقاتلين القدامى ـ وسيكون من المتعذر سماعنا . وقد سمعنا مساء امس في نشرة الاخبار ان المحافظة تعلن انه ممنوع حمل اللافتات . وقد اعطونا في اللجنة اوراقاً صفراء كتبت عليها كلمة « لا » ؛ والمفروض ان نخرجها حين يبرز ديغول . والحق ان الاوامر تتغيّر وفق اللجان . فلجنة ايفلين لن تأتي قبل الخامسة ، وليس الرابعة ، وستخرج على الفور اعلاماً صغيرة ، وهذا ما هو سخيف . إنهم يلجأون الى الارتجال . وعلى اية حال لا اعتقد ان لدينا ، بالنسبة لوجود عدد كبير من الشرطة في الجمهور ، (وقد أقرّت باري ـ بريس » هذا وهي تبتسم) حظاً كبيراً في ان نعاكس هذه المظاهر والتهريجات التي تلتوي لها معدتي تقززاً .

كانت امرأة قصيرة قد دقّت بابي منذ يومين لـ « تتصل » بي . وهكذا كنت مساء أمس في لجنة مقاطعتي . وكان ذلك مثيراً للشفقة ومؤثراً . لقد ارتكبت خطأً أن أصل في الساعة التاسعة : فلم أجد أحداً . وقد أعطتني البوّابة مفتاحاً وهي تمتم ، ولكني آثرت ان انتظر وانا جالسة على مقعد خشبي . ووصلت امرأة شابة بعد نصف ساعة فأدخلتني الى قاعة كبيرة خالية تقع داخل مساحة واسعة . وما لبثت نساء أخريات ان وصلن حتّى بلغ عددنا ثماني ولم

يكن بيننا رجل واحد. مناقشات لا جدوى منها ؛ على اني مع ذلك أعجبت باخلاصهن ؛ إنهن لم يكن يأوين إلى فراشهن قبل منتصف الليل ، وقد تطوعت ثلاث منهن لإلصاق المنشورات وتوزيعها بين السادسة والسابعة صباحاً ، بالرغم من ان لهنّ مهنة واولاداً. امسية رقيقة جداً ، وكانت الشوارع غاصة بالناس وانوار النيون مشتعلة.

مُنع الافريقيون الشماليون ان يتجولوا في الليل. وقد اطلقت الشرطة النار في « اتيس مون » على بعض الايطاليين الذين حسبتهم افريقيين.

٩ ايلول

كنت مخطئة صباح ٤ ايلول حين كنت اتوقّع فشلاً ذريعاً. وقد التقيت « جينيه » في الساعة الواحدة بساحة سان جيرمان دي‌بريه ، فتعانقنا ، وتناولنا الغداء معاً على احدى السطائح. وقد حدثني عن اليونان وهوميروس بحماسة ، وحدثني حديثاً لذيذاً عن رامبرانت ، وكانت بعض مقاطع دراسته عن رامبرانت منشورة في « الاكسبريس » ، ولكنها مختلطة مشتبكة ، وكان ما يقوله أفضل كثيراً. إنه ايضاً يبني الشخص على صورته حين يقول إنه قد انتقل من الرائع الى الطيّب لأنه لم يكن يريد ايّ حاجز بين العالم وبينه: والحق انها فكرةجميلة. وحدّثني بلطف عن المقاطع التي قرأها من « مذكرات فتاة رصينة » وقال: « إن ذلك يمنحك كثافة » . ومضى يمتدح امتداحاً مهووساً النزعة الارهابية لقوى جبهة التحرير الوطنية ، وحاولت عبثاً ان أعيده الى « الجمهورية ».

عزم بوست على ان يحمل صليبه الحربي ، ورفع لانزمان مدالية المقاومة التي كان يملكها. وقد وصلت معه قبل الساعة الرابعة الى الحواجز التي كانت تفصل المدعوين عن الجمهور في شارع « توربيغو » ؛ وكان الشرطة هناك يدقّقون في بطاقات الدخول. وحين رأينا عملية الحواجز والمماحكات ، فكّرنا على الفور: « إنها مصيدة » فعدنا الى ليسيه تورغو حيث كان موعدي محدّداً: فلم يكن ثمة أحد. ورأينا بمحاذاة الارصفة سيارات عسكرية ملأى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأفراد قوى الأمن ، وكانت نساء قبيحات ومتبرجات جداً يمررن امامها وهنّ يرفعن إذن المرور بهيئة يقظة : لقد كنّ يشعرن بأنهن من النخبة .

لقد فهمت ان الشوارع كانت مغلقة بالحواجز ، وان الآخرين لن يصلوا حتى الليسيه ، فخرجت من هذا المأزق . وعلى بعد ثلاثمئة متر فقط كان ثمة فريق من الشرطة . وقد ذهب لانزمان يلتحق في « سان — مور » بقادة لجنة المقاومة [1] ، وانتظرت لجنة الدائرة السادسة عند مدخل محطة مترو « ريومير » حيث كان المفروض ان تجتمع ، على ما أبلغتني ايفلين . وبالفعل رأيت ايفلين تصل مع اداموف وزوجته الخ . وبدأ الناس الآن يتدفقون زرافات ووحدانا . واستعدنا الأمل ، فتجمّعنا في محطة « آر زيماتيه » بالقرب من اول حاجز للشرطة . وقد أراد شخص ان يمرّ فمنعوه فشتمهم ، فصفعوه ؛ وهدر الجمهور وأغرقهم بمناشير صغيرة : لا . وقد انقطع نَفَسي لشجاعة بعض المتظاهرين . وقال احدهم بصوت مهمل : « انهم سيُعدّون بنادقهم للإطلاق ، وقد ارتدوا قفازاتهم » فتراجعنا قليلاً ، بحيث يمكننا ان نسلك الطرق المعترضة . وكان الناس ما يفتأون يصلون جماعات ، ولكنهم كانوا جميعاً يُصدمون حين يرون ضخامة الحواجز . وقال أداموف منزعجاً : « لنحاول في مكان آخر ! » وكنت أعتقد انا انه كان علينا ان نبقى ، وألاّ نتفرّق ، وان نواجه المقاعد في اكبر عدد ممكن ؛ واحسب اني كنت على حق ، بحيث اننا كنا على وشك ان نُهاجم بعصيّ رجال الشرطة ؛ غير ان نفاد صبر اداموف عاد علينا بالسلامة . فبدأنا ندور حول ساحة الجمهورية ، محاولين عبثاً ان نجد وسيلة للاقتراب . وكان ثمة شائعة بأن فرقنا قد انتقلت الى ساحة « لاناسيون » ، ولكني أقنعت فريقي للتظاهر تجاه المقاعد في « آرزيمتيه » . والتقينا مواكب اخرى ، لا ادري الى اين كانت ذاهبة . وهي نفسها لم تكن تدري . وكان البعض يقول للبعض الآخر : « هذا طريق مسدود ، وذلك طريق مسدود ايضاً » واخيراً ، وجدنا أنفسنا في شارع « بريتاني » فأخرج بعض الناس

---

(١) التي كانت تنسق أعمال جميع لجان المنطقة .

أعلاماً صغيرة ، ومناشير ولافتات وبالونات صغيرة كتبت عليها كلمة « لا » وسط عاصفة من التصفيق . وارتفعت صيحة « يسقط ديغول » على انغام الطلاب ، وقال اداموف في غيظ : « إن هذا مرحٌ اكثر مما ينبغي ، وهو غير مناسب » وكانت عناقيد من البالونات ترتفع في السماء . والتقينا سيبيون ووالد لانزمان ، وكانا قادمين من شارع « توربيغو » ؛ وكان الأشخاص الذين تُركوا يمرّون بعدد كبير مصنوعين كالجرذان : وقد بدأوا يتظاهرون حين أخذ « بارتوان » يخطب ، بحيث لم يُسمع خطابه ؛ واذذاك ، هجمت الشرطة من وراء ومن أمام ، ولم يكن ثمة ايّ مخرج ، بحيث انهالت الهراوات بوحشية على الجمهور . وفيما كان سيبيون يروي هذا ، شعر اداموف بالعطش ، فدخلنا جميعاً الى احدى الحانات ، وفجأة ، حدث الانقضاض في الخارج : وكان ثمة شرطة يستعدون للاطلاق (وكان قد بدأ اطلاق صغير من قبل) فالتجأنا الى احدى البوابات الكبيرة ؛ وكانت حارسة البناية تُدخل الجميع وتقول : « اذا جاءوا أغلقوا الباب » ودخلت الى الحانة بعض النساء الجريحات ، وكانت احداهن هادئة واخرى تهدر ، فمددناها على مقعد في القاعة الخلفية . وكان ثمة شقراء لطّخ شعرها بالدم ؛ وكان رجال تسيل منهم الدماء يمرّون في الشارع وقد ذرفت ايفلين ثلاث دمعات من شدة التأثّر ، وقال لها أحدهم بقسوة : « انك لن يُغمى عليك ، أليس كذلك ؟ » وخرجنا ، وعدنا للتظاهر . وعلى طول شارع « بريتاني » كانت تقوم السوق ، وكان يبدو على التجار أنهم بجانبنا . كانت الجموع لذيذة : قاسية ، ومتحمّسة ، ومرحة ؛ وكانت تلك اشد التظاهرات التي اشتركت فيها حيوية : لم تكن مسموحاً بها ، كموكب الدفن الكبير الذي حدث في ساحة الجمهورية ، ولا متردّدة كتلك التي قامت يوم الأحد لدى تكليف ديغول ؛ كانت رصينة ، وفي بعض الآراء خطرة . وكانت زوجة ف . ممتقعة حين وصلت في الساعة الخامسة ، واصبح لونها مخضرّاً في الخامسة والربع ، ثم قاءت في الخامسة والنصف . وكان زوجها يسند لها رأسها الى جدار ويربّت على كتفها ؛ وقال صديق : « انها مريضة »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فصحّح آخر : « بل هي خائفة » وأضاف بتفهّم : « هذا ما يحدث لها كل مرة » فسألت لماذا لا تبقى في بيتها ، فكان الجواب : «آه ! إن ضميرها يؤنّبها تأنيباً شديداً حتّى انها تصبح مريضة بدلاً من ان تكون خائفة » وتركناها في مقهى بشارع « الارشيف » .

وحوالي السابعة والنصف قررنا ان ننسحب . وحملنا والد لانزمان بسيارته ، فمررنا ثانية بملتقى شارع « آرزيمتيه » : كانت الأرض مزروعة بأوراق « لا » ؛ وفي شارع « بوبور » رأينا بعض البلاطات منزوعة ؛ وعلى الجادات ، كان الناس يتناقشون . ونزلنا الى منزل بوست ، وكان قد اشترك في التظاهرة مع « سيرج » . وتناولنا العشاء جميعاً عند ماري كلير ، وكل منا يروي للآخر أحداث النهار ، وقد حطّمنا مقال جرمين تيون الذي اعتبرناه انــا وبوست ولانزمان من قبيل القذارات .

وفي اليوم التالي ، كانت الصحافة لئيمة . ومع ذلك فان « بضع مئات من المتظاهرين » على حد قول « الفيغارو » ، كانت شيئاً حياً . كانت المحافظة تعلن ان العدد ١٥٠ الفاً ، كان بينهم ستة آلاف مدعو واربعة آلاف فضولي او اجنبي او مخدوع بالديغولية ؛ واذن فقد كان عددنا ١٤٠ الفاً . (وحين خابرت سارتر تلفونياً بالرقم ، اصيب بالخيبة ؛ ذلك ان الصحف في روما كانت تتحدث عن ٢٥٠ ألف متظاهر) وقد اطلق الرصاص في شارع بوبور ، فسقط اربعة جرحى . وأعطت « الاومانيتيه » و « ليبراسيون » تقارير تنطبق تماماً على ما كتبه لانزمان لجريدة لجنة المقاومة ، والمصيبة ان احداً لا يقرأها ، باستثناء الأشخاص الذين من رأيهم . على ان بعض الحقائق قد خرجت ، عبر تزييفات « فرانس ــ سوار » ، وفي اليوم التالي نشرت « لوموند » بعض الرسائل ؛ ولم تكن لهجة « باري بريس » لهجة انتصار . فهم يعترفون بأن « الصلة » المرجوة لم تنعقد بين ديغول والجموع . وقد استمعنا الى خطابه في منزل ماري ــ كلير : ولكننا لم نسمعه منقولاً مباشرة ، وانما مذاعاً بعد نصف ساعة ليكون بالامكان حذف ضجيج هتافات « لا » ؛ انه صوت شيخ لا

حيوية فيه . وكانت لؤلؤة النهار كما ذكرها عدد كبير من الصحف : أنّ ستة صحفيين سويديين قد ضُربوا ضرباً وحشياً بالهراوات ، وأُخذوا الى مركز الشرطة ، فضربوا هناك من جديد . وانتهى الأمر باحتجاجاتهم الى ان تبلغ السفارة أخيراً ، فأطلق سراحهم مع عبارة : « اعذرونا ، لقد حسبناكم هولنديين » وقال صحفي آخر : « انني اميركي » ، فحدجه احد رجال الشرطة وقال له : « Go home ! [1] »

كان م . بين المدعوين ؛ وحتى بين هؤلاء ، لم يصفّق الجميع ، وكان الناس يسمعون عبارة « لا » بصورة قوية ؛ وكان الدبلوماسيون الأجانب يتطلّعون ملء عيونهم الى عمليات الضرب بالهراوات في جوف الشارع . وفي اثناء خطاب ديغول ، كان الناس يديرون رؤوسهم بلا انقطاع جهة الجموع ، وبين الفينة والفينة ، كانت تسري شائعة بـ « انهم اخترقوا الحواجز » واذ ذاك ، تنتاب هؤلاء السادة جميعاً ردّة الفعل نفسها : كانوا ينزعون احزمتهم ليتخذوا منها سلاحاً . تشويه جذري قامت به نشرة « المحليات » والراديو والتلفزيون . ومع ذلك ، فقد عدل ديغول عن دورته الدعائية الكبرى ؛ وهو لن يسافر ، قبل ٢٨ ، الا الى بعض المدن ، وسيكتفي بالاتصال بـ « الهيئات القائمة » .

وهذا تفصيل ، من جملة التفاصيل الكثيرة ، عن الدعاية . لقد وجدت في منزلي ، بياناً بالحجز . وكتبت للجابي « حسناً ، حدّدوا اليوم » فأجابني : « اذا كنت ستدفعين في تشرين الثاني ، فلن أحجز » وفهمت ان المحاسبين قد تلقّوا امراً « سرّيّاً » بألاّ يجبوا الضرائب في قسوة ، وألاّ يقوموا بحجز ، طريقة من الطرق لملاطفة المكلفين .

الأحد ١٤ ايلول

إنه لخريف باذخ . أمس ، عند الساعة الثامنة والنصف ، انتابني الشعور بأنني موجودة في بكين : انها عذوبة السماء والهواء نفسها ، وقد كنت أنتظر

---

(١) « عد الى بلدك » (المترجمة)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيارة كان المفروض ان تحملني الى اجتماع مضجر ؛ انها قضية محاضرة تلقى على مدرّسين بروتستانت ، في « بيافر » ؛ وكنت قد قبلت إلقاءها ، لأنتزع منهم كلمة « لا » جواباً على الاستفتاء . وكان جميلاً ذلك البيت القديم القائم في حديقة كبيرة معشبة . وكان الحضور يبدون لطفاء ؛ وكان ثمة كثير من الاساقفة بينهم « ماتيو » الذي كان قد قضى ستة أشهر في الزنزانة لأنه ساعد احد اعضاء جبهة التحرير الوطنية على الفرار الى سويسرا . وتحدثت عن التزام المثقفين ؛ وتناقشنا قليلاً ، وكانوا يبدون موافقين . ولكن خاب ظني في السيارة لدى العودة ؛ كانت السيدة ذات الشعر الأبيض تفكر مثلي ؛ اما الأخريان ، عالمة النفس التحليلية والطبيبة ، فقد كانتا تخافان المظليين والشيوعيين ، وكانتا تقولان ان ديغول كان ، بعد كل حساب ، هو ديغول ؛ ولم يكن في اليسار الا منديس فرانس ، وهو شخصية كريهة جداً ! إن جميع هؤلاء الذين يخنقون انفسهم بأيديهم ، على هذا النحو ، ليسوا من الفاشيين : ولكنهم يعانون من الشيوعية رعباً واي رعب !

اصطحبني لانزمان مساءً لتناول العشاء في « لافان روج » . لقد ألفيتني في باريس مرة اخرى ، وانا من شدة النعاس وثورة الاعصاب بحيث لم أستطع حتى ان اذهب لشرب قدح في « الدوم » ، فعدت لأنام . وما زلت هـــذا الصباح أحسّني متوترة . ترُى ، هل يعود إليّ ما أصابني في ايار ؟ انني أخاف ذلك . وأخشى ان أظلّ متشنّجة حتى ٢٨ . وبعد ذلك ؟ انني لا أتصوّر شهر تشرين الأول هذا .

لقد عاودتني الرغبة بكتابة هذه اليوميات وذلكّ معزوّ جزئياً الى عجزي عن القيام بأي عمل آخر في هذه الحالة من التوتّر . كان اجتماعاً لطيفاً ، مساء الخميس ، ذلك الذي عقدته « لجنة الارتباط » للدائرة الرابعة عشرة . ولقد سرت مشياً على القدمين نحو شارع « شاتو » ، وكان لذيذاً شاعرياً ان أسير في شارع « فروادیفو » ، وأن أمرّ امام فندق « ميسترال » وامام « ليترووا موسكوتير » . لقد غطست في ماضيّ ، هذه الأيام الأخيرة ، الى حدّ انه

في هذه الفترة قد أصبح بعُداً من أبعاد حياتي . وكانت القاعة ، التي لا بدّ انها كانت دائرة « للجنة العامة للعمل » غاصّة بالحضور . وطلب مني « جوسكان » ان أجلس وراء المكتب . وكنت الى جانب « فرانكوت » ، وهو عضو مجلس الشيوخ ومستشار بلدي شيوعي سابق ، وكانت تبدو عليه هيئة السياسي القديم المنتمي الى يسار ماهر . وقد قال لي : « آه ! « المثقفون » ! انه جيد ... » وأضاف ضاحكاً : « إنه تماماً الموقف نفسه ، والمشكلة ذاتها : معنا او ضدنا ... » فقلت له : « نعم ، والحلّ نفسه : اننا « مضطرون » للعمل معكم . » اذذاك اتخذ لهجة لا يمكن تقليدها ليقول : « ذلك اننا نخطيء أحياناً ، ونرتكب أغلاطاً : ومن لا يرتكب الاغلاط ؟ ولكننا اجمالاً لا نجاوز الحقيقة » وقد قدّم « جوسكان » عرضاً للواقع لا بأس به ، ولكن ، يا إلهي ، لماذا هذه التفاؤلية ؟ لماذا يقول « ان انتصار جواب «لا » مضمون» حين تكون القضية ان نعرف اذا كان عدد أجوبة « لا » اكثر قليلاً من أصوات الشيوعيين ؟ ولقد طلب مني مقالات لجريدة الحيّ الصغيرة ، وقبلت كذلك ان التقي بطلاّب من « المدينة الجامعية » ، ثم أُرسلت لي كلمة : « اي سرور في ان أعثر عليك ثانية الخ ... » وكانت صاحبة الكلمة ف . دوبون التي كان قد مضى وقت طويل لم أرها فيه . وقد اصطحبتها الى مطعم « تروا موسكوتير » حيث تناولت قطعة من اللحم . وكانت تشرف على مجلة « ترافاي ايكولتور » ولكنها اختلفت مع أصحابها اختلافاً سياسياً ، فتركتها . وهي ما تزال تكتب في « اوروب » وتعمل « قارئة » لدى دار نشر جوليار .

سارتر يعود غداً ؛ وقد قال لي بالتلفون إنه متعب بما فيه الكفاية . وقد كان مصداق ذلك في المقال الذي ارسله ، والذي حذفتُ منه مع سرفان شرايبر بعض الاشياء ؛ إنه لا يبدو ملهماً جداً . ولكن كان لا بدّ من ان يكتبه .

مؤتمر صحفي رائع لمنديس فرانس ، وقد حضرته مع لانزمان ، وجينيه بصورة تثير العجب . ويبدو أن مورياك قد تأثّر به ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يردّد في ضعف شيخوخي : « ومع ذلك ، فهناك ديغول ، هناك ديغول » ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انه يتهم نفسه — وأخشى ان يكون ذلك صحيحاً جداً بالنسبة اليه — بأنه سعى طوال حياته الى نوع من العزلة المؤسفة التي تحملها السيارة — السرير .

١٦ ايلول .

لقيت سارتر أمس في محطة ليون ، تحت المطر ، وقضينا النهار ونحن نتحدّث . انه متعب جداً . وظللت « اناضل » : تحرير مناشير ، حضور اجتماعات ، مقالات . اما لانزمان ، فقد استغرقته الحملة الانتخابية استغراقاً كلياً . وكان قد تحدّث في « مونتارجي » امام مئتين وخمسين معلماً عن « انتهاك الضمائر » ، فقال له « ز » وهو شيوعي : « ما كان لك ان تنطق بهذه الكلمة : فقد كان ثمة نساء . »

الاربعاء ٢٣ ايلول

كان الجنون منتشراً حولي حتّى هذا الصباح . فلقد أصيب سارتر بأزمة كبد عندما همّ يوم الأحد بكتابة مقال لجريدة « اكسبريس » . وبعد ظهر الأحد ، بلغ من ارهاقه وارتفاع حرارته وتعطّله بحيث كان يبدو مستحيلاً ان ينجو من هذه الحالة ؛ وكان قد أزعجه ان يكون مقاله الأول كابياً ، وكان ذلك يغيظه ويجعله يخشى ان يكون هذا كذلك . وقد عمل ٢٨ ساعة متوالية من غير ان ينام او يتوقّف تقريباً . وليلة الأحد — الاثنين نام قليلاً ، ولكني حين تركته في الحادية عشرة من مساء الاثنين ، مرهقاً ، عاد الى العمل واستمر حتّى الحادية عشرة صباحاً ؛ وأمس بعد الظهر كان يبدو عليه انه أصمّ أعمى ؛ وكنت أتساءل كيف يمكنه أن يتماسك واقفاً في اثناء الاجتماع . ويبدو انه خطب جيداً جداً . وهو لم ينم الا في الساعة الثانية عشرة والنصف . وفي هذه الأثناء ، وجدت لانزمان مساء الاثنين فريسة مقال عن الصين كان قد قضى في كتابته الليل واليوم التالي — وهو مقال جيد جداً . اما انا ، فقد أمضيت مساء الاثنين في اجراء بعض الحذف في مقال سارتر ، وهو

عمل عاقّ ومتعب بما فيه الكفاية حين تكون في الأمر عجلة. ووصل عدد «اكسبريس» اخيراً الى سارتر، فاذا المقال ممتاز حقاً، ولم تكن مواضع الوصل ملحوظة فيه.

اني لا أنجح في وقف زيادة التوتّر عندي، ولا أدري ان كان ذلك بداعي العصبية او العمل؛ وانا أحسّ ذلك في رقبتي وعيني واذنيّ وصدغيّ وهذا ما يجعل العمل مستحيلاً. لقد كتبت المقالات الموعودة؛ والوقت الذي تتطلبه كتابة كلمة لا يمكن ان يصدّق. ومهما يكن فقد عدت الى كتابي، ابتداء من فصله الأول.

صباح امس، طرق بابي احد افراد ابرشية «تراب»: هو بيار مابيل. وكان يحمل لي مذكرات زازا، ليعينني على اكمال «مذكرات فتاة رصينة». ولم يكن فيها ما هو ذو أهمية، إن رسائلها كافية لتقول كل شيء.

تناولت الفطور هذا الصباح مع باديو، خريج دار المعلمين. وقد حدثني عن الحزب الاشتراكي، وعن احتلال المظليين لتولوز يوم ١٤ تموز؛ لقد كانوا يدفعون جميع الناس على الأرصفة، ويشربون في المقاهي، ويرفضون الدفع، ويجبرون الفتيات على الرقص. ولقد كان الرقباء يهتفون في المذياع: «هيّا ايها الفتية، أرقصوهنّ، فأنتم خيرٌ من اولئك «القوّاد» المدنيين» ولكن ذلك لم يكن يحدث دعاية ضد ديغول، بل على العكس، كان الناس يفكرون: إن ديغول سينقذنا من هذا. وقال لي باديو إن أباه كان في خطر جدّي يوم ٢٧ ايار حين أراد بعض الجنود القدامى من تونس ومراكش، وهم كثيرون في تولوز، ان يقوموا بانقلاب وطني. وتحدثنا طبعاً عن الجزائر. وعن الاستفتاء. وهو شديد التشاؤم.

إن الجميع ينتظرون يوم الأحد: ٦٠ بالمئة؟ ٧٠ بالمئة؟ لقد تراهنّا على ٦٥ الى ٦٨ بالمئة. وعلى الأصح ٦٨. وبعد ذلك ستكون الحملة الانتخابية التي تبدأ سيئة.

اما التعذيب فيستمرّ ويتفاقم، حتى في الوطن الأم نفسه. ولا يمضي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوم دون ان تنطلق فيه الرشاشات بين الجنود الجزائريين .

السبت ٢٧ ايلول

نعم ، يعود عليّ بالخير ان أخرج من شرنقتي ، وكنت قد تحسّرت غالباً في العام الماضي ان أعيش منغلقة اكثر مما ينبغي . لقد أحببت كثيراً أمسية البارحة ، لا لأنني أصبت منها الرضى الشخصي الذي احسسته من محاضرتي في السوربون ، امام ستمئة شخص أتوا من أجلي واستقبلوني بتلك الحرارة ؛ ولكنني « ديمقراطية حقة » انا ايضاً ، وهذا النوع من الاتصال هو الذي يؤثّر فيّ اكثر ما يؤثّر حين يربح المرء تعاطفاً جماعياً .

لقد أعددت مقدّمة بأربع كلمات ، في حانة من حانات شارع اليزيا ، ثم دخلت المدرسة . حوالي ٢٤٠٠ شخص ، نصفهم في القاعة يختنقون من الحرارة ، والنصف الآخر يرتجف في الساحة . ووصف « ستيب » الاجتماع بأنه « اجمل اجتماع في الحملة كلها » وكان « جوسكان » يزعم بتقوى انه لم يكن ثمة الا ثلثهم من الشيوعيين ؛ ولكن حتى لو قلبنا النسبة ، فان ثلثاً من اللاشيوعيين حين يكون مرفقاً الى مرفق مع الشيوعيين ، يكونون شيئاً ذا بال . وكان عند المنصّة بعض السادة المسنّين ــ واحد ذو لحية ، وعدد من الصلع ــ وكانوا مهتاجين جداً . لقد كان ثمة مؤتمر آخر للاتحاد الفدرالي على بعد بضعة مئات من الأمتار ، في دار بلدية الدائرة الرابعة عشرة ، ولم يكن مؤتمرنا قد أخبر بذلك ؛ وكان كل واحد يهزأ شخصياً بذلك ، ولكن كان لا بدّ من مراعاة حساسية الآخرين الخ . وبالاختصار ، تقرّر ان يرسل كل مؤتمر وفداً منه الى المؤتمر الآخر . ثم تكلم شريكي الرئيس ، وقلت بضع كلمات ، وتتابع الخطباء : ومنهم مادول ، وجيزيل حليمي التي كانت لهجتها مقنعةً جداً ؛ كانت تتكلم بلا بهرجة ، بلهجة محادثة ، ولكنها لهجة مهووسة ، مع حركات صغيرة وحيوية باسمة ؛ وكانت قد عقدت عشية الأمس اجتماعاً في تولوز ، وقضت نهارها في القطار ، وكانت عازمة في

صباح اليوم التالي الذهاب الى رئيس الجمهورية لتلتمس العفو ، وهي ذات اولاد ومهنة لا بد انها تستنفد الأعصاب والقلب : هذه ايضاً احدى تلك النساء الناشطات اللواتي ارفع لهن قبعتي احتراماً . ولقد تبادلنا الودّ والعناوين . ثم قدّم « ايف روبير » مشهداً ممتعاً ، الى جانب « دانيال ديلورم » التي كانت نضرة كالزهرة ، ترتدي تايوراً اصفر من آخر طراز ؛ يجب استخدام مزيد من نجوم « الفن »، وقد أضحك هذا المشهد كثيراً . ثم فوجيء الحضور بكلمة ألقاها محامٍ كان حتى الأمس ديغولياً يسارياً ، ملمّعاً ، أنيقاً ، من طراز « موضوع المستقبل » ، يختلف اختلافاً جذرياً عن جميع الحضور ، ويتكلم بكلمات غير مفهومة ؛ وقد روى ان التصفيق الذي جرى يوم الخميس في اجتماع قاعة « بلايل » كان يغطي صوت سوستيل ؛ كانوا يصيحون « الموت للشيوعيين » وكان سوستيل يشجعهم . وصاح أحدهم « سوف نقتله ! » (وكان الناس يطلقون كلمات « نعم ! لا ! برافو ! » وكان ذلك لذيذاً بالاجمال) وانهى المحامي كلمته بحركة خطابية :

– لقد رأيت تلك القاعة هناك ، وارى هذه القاعة هنا : ولقد اخترت !

فهتف له الحضور ، وكلّ منهم يُحسّ انه هو الذي اختير شخصياً . ثم جاء دور « داستييه » وكان كلاسيكياً ؛ شيوعي يقرأ (كما يفعلون دائماً) من غير ان ينسى كلمة ، وبلا انعطاف في الصوت ، بياناً طويلاً ؛ ثم كان « ستيب » يعلّق على الدستور في دقة . وكان جميع الخطباء الآخرين يرشحون عرقاً ؛ وحين أعطاني هو يده ، كانت مثلجة . وحدث بعد ذلك فصل مضحك : فقد اشار احد مندوبي الاتحاد الفدرالي الى الاختلافات الكبيرة بين الجهة التي ينتمي اليها وهذا المؤتمر ؛ ولكنه ابتهج لهذه « الاتجاهات المتوازية التي ستلتقي لتقول لا » . وفيما كان الرئيس الشريك يطلب مالاً ، أُعلن ان بورديه كان موجوداً في القاعة . وانطلق الهتاف : « الى المنصة » ! ولكنه رفض ان يتكلم . كان قادماً من مؤتمر الاتحاد الفدرالي حين لم يكونوا ، كما يظهر ، الا ثلاثة وتسعين . وكنت احبّ رؤوس الناس وردود أفعالهم . وكان ثمة امرأة بائسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جداً ، كما لو انها متشردة ، اصطحبت معها طفلين : فتاة صغيرة سمراء بشعر أسود مقصوص ، وصبي في العاشرة كان يضحك ويصفق ويبدو عليه الحماس .

وعند الخروج التقيت بطلاب لطفاء ، وبضرير مع زوجته : لقد قرأ « المثقفون » بطريقة « براي » ، وهو يدير مكتبة تبيع كتب طريقة « براي » وقد ألّف مجموعة مختارات توّجتها الأكاديمية ويريدني ان أرعى مجلته المخصصة للشعراء العميان : وقد سبق ان حصل على موافقة فرنان غريغ ودوهاميل ! وانسحبت ، والتقيت في المطعم « شونيز » و « دوبون » و « رينيه سوريل » . وعلى طاولة مجاورة كان ثمة « بارمولان » و « وورمسر » و « بينيون » ؛ وعلى طاولة اخرى اعضاء الاتحاد الفدرالي : ستيب وبورديه وحليمي . وكنا نتبادل الوفود بين طاولة وطاولة ، وكان ذلك مرحاً جداً ، وقد بقيت حتّى الساعة الواحدة والنصف صباحاً . وكان الحضور مجمعين على امتداح مقال سارتر .

اليوم عمل ؛ وقد استوى الفصل الأول . وليس مستحيلاً ان ينتهي الكتاب في عامين .

يوم الثلاثاء ، ستنطلق النسخ من عند غاليمار . واني اذكر هذا النوع من الضيق الذي احسسته يوم صدور « المثقفون » ، اذ تصوّرت جميع تلك الأنظار التي ستحطّ على صفحات وضعت فيها كثيراً من نفسي . اما هذه المرّة ، فالأمر مختلف ، ذلك أني استعددت له ؛ إن النقاد والقراء لا يزعجونني ، ولكني أحسّ ضيقاً – يكاد يكون ندماً – وانا افكر بجميع اولئك الذين اتهمتهم والذين سيغضبون .

خريف جميل ، حارّ ، مذهّب ، ظليل ومشمس ؛ ولكن بدأ الناس في كل انحاء فرنسا ينزعجون من الاحداث .

محادثة اخيرة مع سائق سيارة ؛ انه يلاحظ ان باريس غاصّة هذا السبت بسبب الاستفتاء . وقد سألته : وكيف سيتمّ التصويت ؟ فقال :

ـ ولكن عجباً ، يا سيدتي الصغيرة ، الأمر واضح : اذا كانت القضية قضية شرف ، فهو رجل شريف : وإلاّ لشتمته الاحزاب ... لا ، انني لا أراه ديكتاتوراً ؛ ثم ماذا ؟ بعد ذلك ، سيُنتخب النواب ، وسيكون لكل واحد كلمته ... على اي حال ، يجب ان يتغيّر الوضع ، وهو لا يمكن ان يكون اسوأ مما كان في الماضي . يجب ان نتذرع بالثقة » .

الأحد ٢٨ .

الاستفتاء .

الاثنين ٢٩ ايلول .

واخيراً ! لقد عرفناه ، مذاق الهزيمة ، وكان أقرب الى المرارة . كان نهاراً جميلاً ، مذهبّاً ، خفيفاً ، وكان الناس ذاهبين ليقترعوا في ابتسام ، وكان يبدو على المكاتب انها فارغة ، بالرغم من المشاركة الهائلة ، ولاشك ان ذلك بسبب حسن التنظيم . لقد صوّتّ في الصباح ، وتناولت الغداء في منزل اختي ، وصحبت سارتر الى شارع مابيون ؛ وقد قال له موظف المكتب وهو يبتسم : « لقد جاء بعض المصورين هذا الصباح يسألون متى تأتي لتصوّت » وتنزّهنا في استرخاء ، وجاسنا على سطيحة مقهى قرب شارع سان ميشال : كنا نحسّ نفسينا معطلين ، خاليين من العمل ؛ ولم نكن شديدي الضيق : بين ٢٦٪ و ٦٨٪ ، كان يبدو ان الأمور ستستقر هكذا ، حتى في رأي الحكومة والشيوعيين والتقدير السليم . والتقينا « بوبال » ، فقال في اقتناع : « آه ! الاحتلال ! لقد كان ذلك زماناً طيباً ! » واشتكى من انه لم يبق في مقهى الفلور الا دراجات . وبعد ذلك ، عملنا وتعشينا في « لاباليت » . ما يزال سارتر متعباً بعض الشيء . وقد انتزعت منه وعداً بان يذهب لاستشارة طبيب . ووصل لانزمان حوالي منتصف الليل ، وكان مصاباً بشبه كارثة ، وان لم يرد ان يُظهر ذلك لأن سارتر يتهمه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دائماً بالتشاؤم. وكانت النتائج التي حدثت مُبلبلة : اكثر من ٨٠٪. وذهب سارتر لينام. ومررنا بجريدة « فرانس – سوار » التي كانت تطنّ بالنشاط : لقد حصلوا على نتائج الريف كله ، ما عدا مارسيليا ، وكانت النتيجة اكثر من ٨٠٪ . وعدنا كئيبين ، واستأنفنا ، كما حدث يوم ١٣ ايار ، دورة المخابرات التلفونية. واتصلنا اولاً بـ « بيجو » الذي كان يملك كمية كبيرة من الأرقام الدقيقة ، المؤسفة. وفي « الاومانيته » تحدث لانزمان مع ت. وسأل : « ولكن الشيوعيين قد خانوا : فهل هذا ممكن ؟ » فأجابه الآخر بجفاء : « اقرأ مقال صديقك سارتر. » وأخذت أبكي ، ولم اكن اعتقد ان ذلك سيؤثر لديّ الى هذا الحد ؛ ولدي رغبة في ان أبكي كذلك هذا الصباح. إنه لفظيع ان نكون ضدّ بلدٍ برمته ، بلدنا ، وكفانا أننا منفيون ، وخابرنا والد ل ؛ فقال إن في جادة الشانزليزيه عدداً كبيراً من الفاشيست المبتهجين المهلّلين. وكان احتمال فرحهم في مثل قسوة احتمال خيبة الذين هم من رأينا. وحدثت لحظة أمل مزيّف : فقد اذاعت محطة « اوروبا ١ » ان آخر الانباء تشير الى ٧٢٪ فقط. ولكن ذلك كان خطأ ؛ وقد صوتت باريس بالايجاب بنسبة ٧٧٪ . وهناك عدد هائل لا يعرفون كيف يصوّتون ، على غرار السائق الذي حدثته ذلك اليوم : ولكن يجب ان يحصل تغيير ، ان نؤمّل خيراً. غير ان ذلك غير قابل للقلب ، فكم يحتاجون من السنين قبل ان يدركوا ان لا أمل هناك ؟ وآنذاك ؟ لقد سأل لانزمان بالتلفون موظفاً في الاستعلامات كيف صوّت ، فكان جوابه : نعم. وقال لانزمان : لقد أخطأت. وانا كذلك سألت واحداً بالتلفون : « هل انت مسرور من النتائج ؟ » فسألني الرجل بلهجة قلقة : « لماذا تسألينني ذلك ؟ » – لكي اعرف. فقال لي : لقد هاجمني الآن احدهم. – لأنك صوّت نعم ؟ – نعم فقلت وانا اعيد السماعة : هذا مؤسف حقاً. » ولم يكن واثقاً من انه كان على حق : ولكنه قال « نعم » على اية حال.

كوابيس طوال الليل. ثم انني احسّني محطّمة.

وحين اشتريت « فرانس ــ سوار » و « ليبراسيون » وفتحتهما وانا في ساحة « دانفير ــ روشيرو » ذكّرني ذلك بالحرب ، حين كنت افتح الصحف وانخرط في البكاء : « دخل الالمان بلجيكا » . اما هذه المرة ، فكنت مهيّأة ؛ ولكنني أحسست بالضيق نفسه تقريباً . ما كان أكأب لهجة « ليبراسيون » ! ويبدو ان لهجة « الاومانيتيه » كانت كذلك ، ولكنها كانت نافذة . وتلفنت . ولم يكن سارتر يتوقّع ذلك . ولكن الموت كان في نفسي .

إن مقاطعتي ، « لاكوريز » ، هي التي صوّتت أفضل تصويت ! هذا البلد المسكين المليء بالطحلب وبشجر الكستناء ، كان في طفولتي جذرياً .

ما أشدّ ما يستفظع الناس البرلمان ! إن سارتر يشير في مقاله الى ان الناس ينظرون الى النواب على انهم « كسالى » ، وانهم ينصبون في وجه السلطة التنفيذية انواعاً من العناد والعصيان . وهناك امور اخرى . اولاً ، أرجاع فضائح قديمة : بناما ، اوستريك ، ستافيسكي ؛ ولم يحدث اية فضيحة في عهد الجمهورية الرابعة (كانت القروش موضوعاً آخر) ولكن الناس احتفظوا بفكرة ان مجلس النواب هو الماسونيه والكواليس والعمولات ، وانه يوجه اليهم ضربات خفية . وحقيقة القضية انهم « لا يريدون ان يحكمهم من هم مساوون لهم » : إنهم ينظرون اليهم نظرة سيئة اكثر مما ينبغي ، لأنهم ينظرون الى أنفسهم نظرة سيئة اكثر مما ينبغي والى جيرانهم الأقربين . إنه لأمر « بشري » ان يحب المرء المال وان يخدم مصالحه الخاصة . ولكن حين يكون المرء بشرياً كالآخرين ، لا يكون جديراً بحكمهم . وإذن ، فان الناس يطلبون اللابشري ، وما فوق البشري ، و « الانسان الأعظم » الذي سيكون « شريفاً » لأنه هو « فوق هذا » .

إنها لهزيمة كئيبة لأنها ليست هزيمة حزب ، او فكرة ، ولكنه تنكّر يتبنّاه ٨٠ بالمئة من الفرنسيين لكل ما كنا نؤمن به ونريده من أجل فرنسا . تنكّر لأنفسهم ، انتحار جماعي هائل .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاربعاء ١ تشرين الأول

نهار مظلم بالاستفتاء وبمرض سارتر الذي يشكو صداعاً ، ولا يريد ان يرى الطبيب قبل يوم السبت ، فيقلقني . تمرّ بي كوابيس ، واعاني طوال النهار انحراف المزاج .

تعشيت مساء مع « هان سوين » التي هي فاتنة جداً . وقد لقيتها ثانية في « بون – رويال » ، وكانت ترتدي تايوراً فاتحاً ، طويلاً ، دقيقاً ، ويكاد وجهها ألاّ يكون اسيوياً ، وهي جميلة بالنسبة لأعوامها الأربعين . اما ابنتها المتحدّرة من أب صيني ، فهي واضحة الاسيوية ؛ وهي لا تعرف كلمة فرنسية واحدة ، ولا بدّ انها قد انزعجت كثيراً . وقد تناولنا العشاء في مطعم « بولمان » . إن هان سوين تثير الاهتمام . لقد عزمت منذ نعومة اظافرها على ان تضطلع بوضعها كخلاسية : فاختارت ألاّ تختار ؛ وهي تقول انها تحسّ نفسها غربية بقدر ما تحسّها اسيوية ، ولكن قلبها كلّه لآسيا . إنها تعيش في سنغافورة ، ومن الساعة التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساء كل يوم ، تعالج النساء الصينيات (فهي طبيبة في الأمراض النسائية) ؛ ثم تعود بالسيارة الى بيتها وتأخذ في الكتابة . ومنذ عام ٥٢ ، تذهب كل سنة الى الصين ؛ وهي شديدة الاعجاب بالقادة والملاكات ، وتقول عنهم : انهم قديسون . وقد روت لي أن في سنغافورة وحتى في كانتون ، ما تزال هناك ، بالرغم من الحكم القائم ، مجتمعات من النسوة (ثلاثون ألفاً تقريباً في كانتون) اللواتي يتعاطين الشذوذ الجنسي بصورة مشروعة ؛ انهن يتزوجن فيما بينهن ويتبنّين الأولاد . وباستطاعتهن ان يخرجن من مجتمعهن ويتزوجن رجلاً ، واذذاك يقطعن شعرهن . وإن لهن آلهتهن واحتفالاتهن الخ ... وتقول إن الطهرية الصينية خانقة حقاً ، وان الروس اثاروا الفضائح في البدء حين كانوا يحاولون مغازلة الصينيات . وهي تعتقد ان الوضع سيظلّ قاسياً بالنسبة للمثقفين الصينيّين لخمسة أعوام اخرى .

الخميس ٢ تشرين الأول

أيام قاتمة . وإن مطالعة جريدة « اكسبريس » تشعر بالمذلّة : فعددها اليوم عدد هزيمة مقبولة وتسلية . اما « الاوبسرفاتور » فموقفها أصلب . وقد تناول سارتر الغداء مع سيمون بيريو : الشكر لها ، لأنها جعلته يخاف ، فهو ذاهب لساعته الى الطبيب وسأكون بصحبته . رضى معتدل : فقد انذرته بالفالج وبالنوبة القلبية ؛ وهيئته متعبة بصورة فظيعة ؛ وهو لا يكفّ عن تناول المهدّئات كالاوبتاليدون والبلادينال والكوريردران ؛ وهو يحسّ الدوار والصداع الذي لا ينقطع .

تناولت الغداء في الكوبول مع جيزيل حليمي . وقد روت لي حياتها دفعة واحدة . آه ! إن مصير النساء لم يتقرّر بعد ... وروت لي دعوى فيليبفيل : لقد امتنع جميع الفندقيين عن قبول ايوائها ؛ فوجب على محامي المدينة ان يستقبلوها عندهم . وكان المفوض قد طلب الحكم على تسعة أشخاص بالموت : فأصدرت المحكمة حكمها بالموت على اربعة عشر شخصاً ، اي على جميع المتهمين (الذين التقطوا بالاتفاق بعد الاضطرابات ، ولا شك في انهم جميعاً ابرياء) . واستؤنف الحكم ، وستجري المرافعة فيه في مدينة الجزائر هذه الأيام .

الاثنين ٦ تشرين الأول

قابل سارتر الطبيب . وقد تحسّنت صحته قليلاً ، بالرغم من استمرار الصداع لديه .

هطل مطر كثير حتى ان الشجر على جادات باريس ما يزال مخضوضراً . فكأننا لسنا حقاً في الخريف .

ليس للمستقبل وجه . إن المرء ليُحسّ نفسه في بطالة ، ويُحسّ انه متعطّل ، حائر .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الثلاثاء ١٤

ايام فظيعة حقاً . مثل هذا حدث للطائرة التي فقدت احد محركاتها ، على بعد ست ساعات من « شانون » : هلعٌ مستمرّ ، مع فترات هدوء قصيرة ، ثم يقظة الخوف من جديد . وكذلك الأمر مع سارتر . انه يبدو احياناً متحمّساً ، واحياناً اخرى ، كالأمس ، يخلط بين الكلام ويمشي بمشقة ، وتبدو كتابته وخطّه مثيرين للجنون ، فيستطار لبّي . وقد قال الطبيب إن بُطينه الأيسر مُتعَب بما فيه الكفاية . وهو بحاجة الى راحة حقيقية لن يأخذها . إن موتنا فينا ، وليس كالنواة في الثمرة ، ولا كمعنى حياتنا ؛ إنه فينا ، ولكنه أجنبيّ ، عدوّ ، فظيع . ولا أهميّة لغير ذلك . إن كتابي ، والنقّاد ، والرسائل ، والناس الذين يحدثونني عنه ، وكل ما يجلب لي السرور ، كلّ ذلك قد تلاشى جذرياً . بل انا لا املك حتى الرغبة في متابعة هذه اليوميات .

الثلاثاء ٢١

ايام فظيعة . ولا سيما يوم السبت حين ذهبت الى الطبيب . يوم الأحد ، وامس : كابوس طويل .

الثلاثاء ٢٨

خرجت من ذلك الكابوس ، من هذا المرض . لا بدّ ان الشيخوخة قد بدأت حتى استطعت ان أتحمّله .

أعتقد انني سأنقطع عن هذه اليوميات .

وبالفعل ، انقطعت . وقد وضعت الأوراق في مغلّف كتب عليه : « يوميات هزيمة » . ولم ألمسه بعد ذلك .

* * *

إن ما حدث في هذه الأيام الفظيعة ، هو ان سارتر قد نجا في آخر لحظة من نوبة خطيرة . لقد كان منذ وقت طويل يخضع صحته لتجربة قاسية ،

سواء بالارهاق الذي كان يتكبّده ، لرغبته في تحقيق « الاستخدام الكامل » لنفسه ، او بالتوتّر الذي كان قد أقامه في ذاته . أن يفكر المرء ضد نفسه ، ذلك شيء جميل ، وخصب ، ولكنه في نهاية المطاف يُرهق ؛ وهو اذ حطّم بعض العظم في رأسه ، أفسد كذلك أعصابه . كان تأليف كتابه « الخيالي » قد ألقاه في الماضي في اضطرابات خطيرة ؛ ولكي ينجز « نقد الديالكتيك » بذل جهداً جسمانياً أضخم . ولكن هزيمة اليسار خصوصاً ، وصعود ديغول للحكم بكل ما كان يجسّده ، قد استنفدا قواه . وكان قد اشتغل ، وهو في روما يتناول الكوريدران ، بوضع مسرحية ؛ وكنت أعرف خطوطها الكبرى ، وكان قد أطلعني في « بيزا » ، قبل ان اغادره ، على الفصل الأول منها . وكان الحرّ في الخارج يبلغ اربعين درجة ، اما في غرفته فكان قد أدار مكيّف الهواء بشكل يجعل الغرفة قاعة مثلجة . وقد قرأت وانا أرتجف نصاً مليئاً بالوعود ولكنه لم يكن يفي بها . وقد قلت له : « ان هذا اشبه بما يكتبه « سودرمان » . فأقرّني على ذلك . وقال انه سيعيد كتابته ، ولكنه كان محتاجاً للوقت . وكان قد تعاقد مرة اخرى بشكل غير حكيم . وكان الخوف من إفساد عملٍ ذي أهمية كبيرة في نظره يساعد على اغاظته وزرع الاضطراب في نفسه . واخيراً ، حين عاد الى باريس ، انتابته نوبة كبد خطيرة . كانت الساعات الثماني والعشرون من العمل المتصل ، والتي تبعها في المساء ذلك المؤتمر الذي سجّلت ملاحظاتي عليه في يومياتي ، قد ارهقته تماماً . كان مسحوقاً بالصداع ، وكان صوته مسترخياً ، وكلماته ملتاثة ، وكتابته وخطّه مجنونين ، وكان يشكو الدوار وفقد التوازن . وحين كان يتناول الغداء لدى سيمون بيريو ، وضع كأسه – بارادته – على بعد خمسة سنتمترات من الطاولة : وسرعان ما أخذتْ التلفون وحددت له موعداً مع الاستاذ مورو . وكنت أنتظره في اثناء الزيارة في حانة قريبة ، وأنا اتوقع أن أراه لدى خروجه محمولاً على حمالة . ولكنه عاد على قدميه وأراني الوصفة : مسكّنات ، الامتناع عن التدخين والشرب ، والراحة . وقد اطاع تقريباً ، ولكنه استمرّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعمل. وكان الصداع باقياً. وكان، هو الحيّ النشيط العازم، يمضي برقبة متصلبة واعضاء مسترخية، ووجه متورم ومسمّر، وكلماته وحركاته غير مطمئنة. وكان مزاجه ايضاً فظيعاً: هدوء تقطعه سورات غضب حادّة. وقد دهش الطبيب لهيئته الصابرة، باعتبار انه قد وعده بسرعة: «سأعيد لك نزعتك الهجومية». ولكني حين كنت اراه في مكتبه، متشنّجاً، مخربشاً على الورقة بقلم شارد، وعيناه تغشاهما غلالة من نعاس، وكنت اقول له «استرح»، كان يجيبني في عنفٍ لم أعهده فيه من قبل. وكان أحيانـاً يستجيب، وهو يقول: «خمس دقائق، نعم.» وكان يتمدّد فينام مصعوقاً لمدة ساعتين او ثلاث. وبعد ظهر احد الايام، قالت لي امه حين وصلت قبله: «انه اليوم متعب»، فسألته: «هل انت متعب؟» فأجاب وهو يجلس وراء مكتبه «لا». وألححت، فأجاب: «أؤكد لك ان حالتي حسنة»؛ وابتسم وأضاف: «إن لكل منا استقطاراته...» — ماذا تعني؟ — ولكنك تعرفين هذا جيداً: ادغال القلب» وأخذ يخطّ علامات لا اسم لها، وتظاهرت بأني أعمل، وانا اتوقع ان اراه بين لحظة واخرى وهو ينهار. وكان على موعد صباح اليوم التالي مع صديقة، فأقنعته ان يلغي الموعد بارسال رسالة مستعجلة؛ وقد تردّد اربع مرات ليكتب الرسالة، وحين تلقّتها صديقته انفجرت باكية: كانت الكلمات فيها متراكبة، مشوّهة وغير منسجمة. وذهبت ارى الطبيب، فقال لي: «انني لن أخفي عنك أني حين رأيته يدخل مكتبي، فكرت: إن هذا الرجل سيصاب بنوبة» واضاف: «انه رجل انفعالي جداً. هو مجهدٌ فكرياً، ولكنه على الأخص مجهد شعورياً. إنه بحاجة الى هدوء نفسي. فليعمل قليلاً، اذا كان حريصاً على ذلك، ولكن يجب عليه ألاّ يقاوم الساعة بأي ثمن: وإلاّ، فاني لا أتوقّع له ان يعيش ستة أشهر: » هدوء نفسي، في فرنسا، اليوم؟! وقد كان يريد ان يرى مسرحيته ناجزة بعد شهرين؟! وذهبت على التو ارى سيمون بيريو: فوافقت على ان نؤجّل حتى الخريف القادم «أسرى ألتونا». ولم أكن قد

حدثت سارتر عن هذه التدابير ؛ وحين رويتها له ، بعد ذلك بساعات ، أصغى إليّ بلامبالاة باسمة : وكنت اوثر ان يغضب . ومضى بعض الوقت لم يشتغل فيه إلاّ بمقادير صغيرة ؛ ثم استعاد صحته تدريجياً . وكان أشق ما في هذه الأزمة عليّ ، تلك الوحدة التي كان مرضه يحكم عليّ بها : انني لم اكن أستطيع ان اقاسمه الهموم التي كانت تشغله . وظللت مدموغة بذكرى هذه الأيام ، ولا سيما باليوم الذي نصبتْ فيه « ادغال القلب » بيننا سرّها . وفي عام ١٩٥٤ ، كان الموت قد اصبح لديّ حضوراً صميمياً ، ولكنه استولى عليّ منذ ذلك الحين .

وكان لهذا الاستيلاء اسم : الشيخوخة . وحوالي منتصف تشرين الثاني تناولنا العشاء في « لاباليت » مع ليريس وزوجته ؛ وكان ليريس ، منذ لقائنا الأخير ، قد جرع مقدراً مميتاً من المسكّنات ، ولم ينجُ الا باجراء عملية له في النخاع الشوكي وبمعالجة طويلة . لقد كان هو وسارتر شخصين ناجيين من الموت . وتحدثنا عن المنوّمات والمخدّرات والمسكّنات ومقاومات المعاكسة التي كان ليريس يستعملها ، فسألته عن فعاليتها بالضبط فقال : « انها تقاوم المعاكسة ! » وحين ألححت ، قال : « ان المرء يظل يُحسّ بالمعاكسات التي كانت من قبل ، ولكنها تكفّ عن معاكسته » . وفيما كان يتناقش مع سارتر حول الفرق بين مقاوم المعاكسة والمسكّن ، فكّرت : « انتهى الأمر ، لقد انتقلنا الى الجهة الاخرى : الشيوخ . » وفيما بعد ، كنت أتحدّث مع صديق لي قديم جداً ، هيربو ، فقلت إننا بالاجمال لم نعد ننتظر شيئاً اللهم الا موتنا وموت المقرّبين منا . من الذي سيقضي اولاً ؟ ومن الذي ميعيش ؟ تلك هي الاسئلة التي كنت اطرحها الآن على المستقبل . فقال لي : « كفى ، كفى . اننا لم نبلغ بعدُ هذا : وقد كنت انت دائماً سابقةً على سنّك » ولم اكن مخطئة مع ذلك ...

إن الحبل الأخير الذي كان يمسكني بعيداً عن حالتي الحقيقية قد انقطع : لقد انحلّت علاقاتي مع لانزمان . وكان ذلك طبيعياً ، كان مقدّراً ، بل كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالنسبة لكل منا ، بعد إعمال الفكر ، شيئاً مرغوباً فيه ؛ ولكن لحظة إعمال الفكر لم تكن قد أتت بعد . إن فعل الزمن قد بلبلني دائماً ، وانا اعتبر كل شيء نهائياً ، ولهذا كان عمل الفراق شاقاً عليّ ؛ وعليه ايضاً ، بالرغم من ان المبادرة قد صدرت عنه . انني لم اكن واثقة من اننا سننجح في انقاذ الماضي ، وكنت أشدّ حرصاً عليه من ان أتحمّل فكرة انكاره . ولقد انهيت هذا العام المرهق بقلب كئيب مستوحش .

الفصل العاشر

لم تفتأ طلقات شديدة من الكلمات تنقضّ على فرنسا ، منذ شهر أيار ؛ وحتى كلمة « أكاذيب » الواضحة لم تكن تلائمها : لقد كانت أحرفاً لا علاقة لها ، ايجابية او سلبية ، بالحقائق ؛ انها اصوات يُحدثها في الهواء نَفَسٌ بشري . وكانت ثمة فِرَق متخصصة لتفسيرها . فقد كانت تترجم « سلام الشجعان » الذي كان يعني في نظر الجزائريين الاستسلام بأنه « عرض سخيّ » .

ونامت الصحافة . وكانت الانتخابات في الجزائر نكتة ، وفي فرنسا نصراً للاتحاد الوطني الجمهوري الذي شكّل مع النواب المسلمين المنتخبين بالفرض كتلة من مئتين وستين نائباً ديغولياً . وخسر الشيوعيون بعض مراكزهم. وكثيرون من الذين كانوا حتى ذلك الحين الى اليسار اختاروا ما كانوا يسمونه « الواقعية » . وكان يشكل حالة تلفت النظر « سيرج ماليه » وهو نقابي كان في مطلع ٥٨ قد حدّث سارتر بكثير من الذكاء عن التكتيك الجديد لأرباب العمل وعن الصعوبات التي كانت تخلقها للنقابات ؛ وكان آنذاك يبحث ، في اطار صراع الطبقات ، عن طريقة لتجاوزها . وقد دهش سارتر لحرَق الدراسة الطويلة التي كتبها وعرض فيها هذه النظرية : وسرعان ما صحح ماليه موقفه . فأعطى « التان مودرن » وعدة صحف يسارية مقالات ممتازة كان يحلل فيها الرأسمالية الجديدة ويصف الظروف الحالية للعمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الارياف والمصانع . وقد تعرّفت اليه في « الكوبول » في فترة الاستفتاء فأدهشني : كان يعلم من مصدر موثوق ان مبعوثاً لديغول كان موجوداً في تونس ، وهو يفاوض ؛ وسوف يوقع على السلام بعد يومين . وقد رأيته بعد بضعة اسابيع : فوصف مناورات ارباب العمل الشبان ليفتتوا الطبقة العاملة ، ووبّخ النقابيين الذين كانوا يصرّون على مواقف فاسدة ، ولاحظت انه ، تحت شعار إقامة الانسجام بين الطليعة العمالية ومخترعات الرأسمالية الجديدة ، كان يتبنى تعاون الطبقات . كان يتحالف مع تلك النزعة الاقتصادية التي كانت حلوى العهد . وكفّت « التان مودرن » عن ان تقبل منه اي مقال نظري .

كانت نتائج الاستفتاء قد اكملت عملية فصمي عن بلادي . لقد انتهت رحلاتي في فرنسا . ولم تكن لديّ رغبة في ان ارى بعد « تافان » و « وسان سافان » وامكنة اخرى كنت أجهلها . كان الحاضر يفسد علي الماضي . ورحت منذ ذلك الحين أعيش عزّة الخريف في الذلّ ؛ وعذوبة الصيف الوليد في المرارة . صحيح أن روعة منظر من المناظر ما تزال تأخذ بخناقي ، ولكن ذلك أشبه بحب يُخدع ، وبسمة كاذبة . كنت كل ليلة ، حين آوي الى فراشي ، أخشى النوم ، وكانت كوابيس تخترقه ، وكنت عند اليقظة أشعر بالبرد .

وأعلن ديغول في توغورت : « لقد انتهت مرحلة المعارك » . انهم لم يسبق لهم قط ان كانوا على مثل هذه الجدّية . وأحرز « شال » انتصارات عسكرية ، وحطّم «الكتيبة » ولكن هجومه البسيكولوجي أخفق ، ولم يكسب الشعب . وفي مطلع ربيع ٥٩ ، كُشف لنا من حرب الابادة تلك وجهٌ لم نكن نعرفه : معسكرات الإعتقال . وكنا نعلم ان العملية المسمّاة « تجميعاً » كانت ابتداء من تشرين الثاني ٥٧ قد عادت الى سابق انتشارها واتساعها . فما دام « جيش التحرير الوطني » — بالرغم من الدعاية الرسمية — كان في الشعب «كسمكة في الماء » ، فلا بدّ من رفع الماء : بافراغ المشاتي والدوارات ،

واحراق الاراضي ، وتجميع الفلاحين ، تحت رقابة الجيش ، وراء الاسلاك الشائكة . وقد اتبعت هذه الطريقة على نطاق واسع . ويوم ١٢ آذار ١٩٥٩ ، أشارت « لوموند » اشارة سريعة الى وجود هذه المراكز . وفي نيسان ، كان المونسنيور رودهان ، السكرتير العام لجمعية « الانقاذ الكاثوليكي » ، يقوم بتحقيق نشر في ١١ آب بعض نتائجه في جريدة « لاكروا » : « لقد اكتشفت ان القضية قضية اكثر من مليون كائن بشري ، معظمهم من النساء والاطفال ... وهناك نسبة كبيرة ، ولا سيما لدى الاطفال ، تشكو المجاعة . لقد رأيت ذلك ، واني اشهد به » وكان يقدّر بأكثر من ١,٠٥٠,٠٠٠ عدد المجمّعين [١] . وقد رأى بعينيه ان بعضهم قد بلغ بهم الأمر الى اكل العشب . وكان السلّ كاسحاً . وقد بلغ من تلف الناس أن الأدوية نفسها لم تكن بعد لتفيد . ويوم ١٥ نيسان نشر تقرير افظع من ذلك ، طلبه السيد دولوفرييه ، ويتبين منه ان اكثر من مليون فلاح مجمّعين كانوا يعيشون في ظروف « رقيقة الحال الى ابعد الحدود » [٢] . وقد كان ثمة ، في المعدل الوسط خمسمئة وخمسون

(١) وهذا هو ايضاً الرقم الذي ذكره « بايا » الذي هو بالاجمال قليل التحسس بمصائب السكان المسلمين – وذلك في كتاب « ملف الجزائر السري » : ازداد عدد الأشخاص المنفيين بين ايار ١٩٥٧ وتموز ١٩٦٠ من ٤٦٠,٠٠٠ الى ١,٥١٣,٠٠٠ . وعددهم ما يزال في ازدياد . ويؤكد عنوان الفصل « مأساة مراكز التجميع » وكل ما يلي أنه يتكلم عن المعسكرات . وهو يشير كذلك ، مستعيناً بتقرير للجنرال بالانج ، الى وضعها المادي المثير للرثاء .

(٢) كان التقرير يشير الى « أن كل نقل للسكان يؤدي الى قطع وسائل عيش المعنيين قطعاً محسوساً دائماً ، وكلياً أحياناً . كانوا يفقدون على الأقل ثلث مواردهم ، حين يضطرون الى ترك مواشيهم ودجاجهم وحقولهم الهزيلة ؛ وكانوا في افضل الحالات يجدون بعض الأراضي التي تحتاج الى فلاحة، ولكن لما كان عدد الذكور البالغين قليلا – باعتبارانهم جميعاً في المقاومة او السجن او انهم قد ماتوا – فانهم لم يكونوا يلبون حاجات النساء والأطفال والشيوخ الذين يؤلفون مركز التجميع برمته تقريباً . والواقع ان هؤلاء الـ ١,٥٠٠,٠٠٠ شخص المنقولين من أراضيهم كانوا يعيشون من مساعدة هزيلة هزالا مريعاً . « اما الحالة الصحية فقد كانت بالاجمال تثير الشفقة ... وحين كان يبلغ عدد التجميع الواحد الف شخص ، يموت فيه تقريباً طفل كل يومين » ويضيف اصحاب التقرير ان الحالة الصحية مرتبطة بمستوى المعيشة : « في احدى الحالات الفاجعة التي حدثت ، يوضح تقرير طبي ان الحالة الجسدية للسكان بلغت من السوء بحيث =

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طفلاً في كل تجميع من ألف شخص ، وكان يموت من هذا العدد طفلٌ كل يومين ؛ ولما كان عدد كبير من النساء والشيوخ لا يستطيعون المقاومة ، فبالامكان ان نقول إن عدد الموتى في المعسكرات قد بلغ ، في ثلاثة اعوام ، زهاء مليون . [١] .

وقد منع دولفريبه انشاء مراكز جديدة . ولكنهم لم يصغوا اليه ، فظلّ عدد المجمّعين يتزايد . وفي تموز ، كان « بيار ماكيني » ينشر في « الفيغارو » قصة زيارته لمعسكر بيسومبورغ : «كانت تلك البقايا البشرية مركومةً هكذا بالاتفاق ، كل خمسة عشر شخصاً في خيمة منذ عام ١٩٥٧ ، فكانت تعيش في خليط بشري لا يمكن وصفه . إن ١٨٠٠ طفل يعيشون في بيسومبورغ ... والسكان يعيشون حالياً من أكل البرغل وحده . ويتلقى كل شخص زهاء ١٢٠ غراماً من البرغل يومياً ... اما الحليب فيعطى مرتين في الاسبوع : نصف لترٍ لكل طفل . ولم توزّع اية كمية من المواد الدهنية منذ ثمانية أشهر . ولم يوزّع شيء من الحمّص منذ عام ... ولم يوزّع شيء من الصابون منذ عام ... »

وقد عرفت تفاصيل اخرى من جنود شبّان ، ومن صحفيين التقوا في تونس جزائريين منتزعين من معسكرات على الحدود : الاعتداءات على اعراض النساء ، وهي اعتداءات منظمة ، بسبب ان الرجال مبعدون عن

— كفت الادوية عن التأثير » وفي اطار مستوى المعيشة ، يقول التقرير :« إن وضع المجمعين هو من هذه الزاوية في ذروة الفاجعة ، باعتبار ان الحالة الصحية ليست الا نتيجة ذلك ... إن انعدام تربية المواشي هو الميزة المشتركة لكل التجميعات : فهو يقضي بأن الحليب والبيض واللحم مبعدة عن تغذية المجمعين ... والاعاشات الموزعة بصفة مساعدة هي هزيلة جداً ؛ فهي محددة ، في احدى الحالات المراقبة ، باحد عشر كيلو من الشعير لكل بالغ في الشهر ، وهذا قليل حين يكون ثمة اطفال صغار . وأخطر ما في الأمر ، الانعدام الكامل للانتظام في توزيع هذه الاعاشات . فيجب تقدم وسائل العيش ، بأي ثمن ، لهؤلاء السكان للحيلولة دون ان تتحول التجربة الى كارثة . وكان كل تجميع يضم دائماً الف شخص على الأقل ، ويبلغ احياناًستة آلاف.

(١) وهذا هو ايضاً الرقم الذي ذكره الجزائريون .

المعسكر او مجمّعون في زاوية ، في حين يطلق الجنود طلقاتهم ؛ والكلاب التي تطلق على الشيوخ ، بدافع من اللذة ؛ وألوان التعذيب . وقد كان من شأن هذه التقارير ان تزرع الاضطراب في النفوس ؛ وقد تحدّث عنها المونسنيور « فيلتان » والاسقف بوغنز في غضب : فلم يكد يصغي اليهما أحد . وكانت الصحافة خرساء . ولم يكن الصليب الأحمر الفرنسي الذي كان الصليب الأحمر العالمي يدعوه منذ عامين للاهتمام بالمجمّعين ، يبدي حراكاً . وبالمقابل حين أغرق الطوفان مئة ألف شخص في مدغشقر ، اهتمت الحكومة بأن تظهر الحسنات التي تكسبها الجزيرة من انتمائها الى المجموعة الفرنسية ، فقامت بحملة واسعة ، وأسرع الفرنسيون لاثبات انهم « هائلون » [1] إن المرء يفضّل التأثر لكارثة طبيعية على التأثر بجرائم هو ضالع فيها .

وقد كان ثمة معسكرات اخرى للاعتقال والنقل والاختيار ، كان الرجال يحبسون فيها بقرار اعتباطي من الشرطة او من الجيش ؛ وكانوا يعذّبونهم ، جسدياً ونفسياً ، حتى الموت غالباً او حتى الجنون . وقد روى عبدالله س . في « الاكسبريس » كيف كانوا يجبرونه ، بين الضرب وألوان التعذيب ، على ان يتنكّر لجبهة التحرير الوطنية وان يعلن حبّه لفرنسا ، بكلمات صادرة عن القلب . وقد كانت معسكرات من هذا النوع موجودة في فرنسا ؛ فقد كانت كلمة « لارزاك » بالأمس اسماً لسهلٍ كنت في صباي قد عبرته جذلى ، على الاقدام ، او على الدراجة ؛ اما الآن ، فكان اسم جحيم . وكان سكان المنطقة يعرفونه ، بالرغم من الاحتياطات . وكان جميع الفرنسيين يعرفون انه قد فُتحت على اراضيهم معسكرات شبيهة بمعسكرات سيبيريا التي سبق لهم ان فضحوها بأعلى أصواتهم : اما الآن ، فلم يكن احد يصرخ . ولم يكن كامو يرفع صوته بأي احتجاج ، هو الذي اشمأزّ اشمئزازاً

(١) كان المونسنيور رودهان يسجل في تقريره : « كارثة للطبيعة في مدغشقر ، وكارثة للبشر في الجزائر ... هناك ١٠٠ الف منكوب ، وهنا مليون لاجيء ... ولكن الجمهور تحمس لمدغشقر.. اما اللاجئون الجزائريون ، فلم يتحرك لكارثتهم أحد . »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عظيماً في الماضي من لامبالاة البروليتاريا الفرنسية تجاه المعسكرات الروسية.

اما التعذيب الذي طُلب الى ديغول ان يدينه علناً، فانه في آذار ١٩٥٨ أسقط من أعلى منصّته انه كان مرتبطاً بـ « النظام » وسيختفي معه: وكان مالرو يؤكد بعد ١٣ ايار « أنه ليس ثمة تعذيب بعد » والواقع ان التعذيب كان قد بلغ فرنسا نفسها. وقد ذكر الكاردينال جيرلييه في معرض دفاعه عن الكهنة المتهمين في ليون، في شهر تشرين الأول، بأنهم ساعدوا جبهة التحرير الوطني، ذكر ألوان التعذيب التي تكبدها المسلمون في مفوضيات شرطة المدينة. وفي مفوضية من مفوضيات فرساي، شنق جزائري نفسه بحديد النافذة، بعد ان « استُجوب ».

ونشرت « تيمونياج كريتيان » و « التان مودرن » شكاوى الطلاب الجزائريين الذين « استُجوبوا » بوحشية في كانون الأول، من قبل « ادارة مراقبة الأرض الوطنية ». وفي شباط. في اثناء محاكمة الجزائريين الذين اطلقوا النار على سوستيل، اومأ احد المتهمين الى احد رجال الشرطة الذين كانوا يملأون القاعة، وهو المفوض « بيلوي » قائلاً: « لقد عذّبني هذا الرجل » فامّحى المفوض ولم يُستجوب. لقد كان التعذيب في الجزائر عملاً مقبولاً. وقد قالت لي جيزيل حليمي: « حين كنت في الماضي اؤكّد ان اعترافات موكلي انما انتُزعت منه بالتعذيب، كان رئيس المحكمة يضرب الطاولة ويقول: انك تهينين الجيش الفرنسي. اما الآن فهو يكتفي بأن يجيب: اني اعتبرها مع ذلك صحيحة. » وقد كتب ثلاثون من الكهنة الشبّان الذين زرعت تجربة عيشهم في الجزائر الاضطراب في نفوسهم، كتبوا لمطارنتهم محتجّين، وأعلن كاهن عسكري انه يشجب التعذيب علنياً. ولكن اصلاح العدلية الذي اعلن في آذار، وكان ينصّ على سرّيّة التحقيق، كان يسهّل الحبس واساءة المعاملة. وفي حزيران، تكلّم في « الغنغرينا » الطلاب الذين عُذّبوا في كانون الأول ــ ومنهم بومعزة، وقبايلي، وسوامي، وفانصي، وملجاج. وقد رفعوا شكوى على السيد « ديبو » الذي كان قد حضر شخصياً

عدة جلسات . وكان ان صودر الكتاب ، وخنقت القضية .

وفي آذار ، كان المقرر اقامة اجتماع ضد التعذيب في قاعة « الموتيواليته » ؛ وكنت بسبيل ان أهيىء خطابي حين اقبل مفوض الشرطة في حينّا يبلغني ان الاجتماع قد مُنع . وأبلغني ذلك بأدب . ثم أشار الى شريط اسود في ثنية سترته وقال : « لقد فقدت انا يا سيدتي ابناً لي في الجزائر » ، فأجبته :

ـ إن من مصلحتنا جميعاً ان تنتهي هذه الحرب .

فبدا التهديد في صوته :

ـ انني لا أتمنى الا شيئاً واحداً : ان اذهب الى هناك ، فأقتل عدة افراد .

وما كنت لأحبّ ان أستجوب من قبله . وفي المساء ، انعقد مؤتمر صحفي .

ونجحنا بأن ننظّم ، فيما بعد ، اجتماعين او ثلاثة . وحضر جمهور كبير ، في مقبرة مونبارناس ، دفن « ولد عوديا » الذي قتله شرطيّ ، قبل وقت قصير من محاكمة الطلاب الجزائريين الذين اوقفوا بتهمة اعادة تشكيل الاتحاد العام للطلاب الجزائريين ، وكان المفروض أن يدافع عنهم في المحكمة . وفي نهاية العام المدرسي نُظمت حملة « خمسة عشر يوماً من العمل لصالح السلام في الجزائر » . ولم تكن هذه التظاهرات عديمة الجدوى ، ولكنها كانت غير كافية اطلاقاً ، حتى ان عدداً متزايداً من الشبان والبالغين كانوا يتبنّون اللاشرعية .

ولم يكن بعدُ ، بعد حركة توقّف حزيران ٥٦ ، اية معارضة مفتوحة وجماعية ضد الحرب بين الشباب . صحيح أن لجاناً للشبان ، على درجة متفاوتة من السرّيّة ، كانت ما تزال تحتج ، ولكن بالكلام فقط . وفي ايلول ٥٨ ، تلقيت العدد الأول لنشرة مغفلة بعنوان « الحقيقة من أجل .. » وكانت اولاً محصورة بالتحليلات الاقتصادية والسرية ، ولكنها ما لبثت ان دعت الى الفرار من الجيش والى مساعدة جبهة التحرير الوطنية . وكان يديرها فرانسيس جانسون الذي كان يحاول على هذا النحو ان يتغلّب على صعوبة « تعميم حركة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المفروض فيها ان تظلّ سرية »[1] وفي الفترة نفسها نشأت حركة « جون ريزيستانس » (المقاومة الفتية) .

وكنت انا واصدقائي قد تطورنا كثيراً بالنسبة لموضوع دعم جبهة التحرير الوطنية . وكنا قد رأينا جانسون ثانية ، وكنا نجد مقنعاً ما يقدّمه من أسباب يبرّر بها عمله سياسياً . ولم يكن باستطاعة اليسار الفرنسي ان يتخذ اوضاعاً ثورية الا بالاتصال بجبهة التحرير الوطنية ؛ وقد قيل لليسار : « ولكنك بذلك تطلق النار على الجنود الفرنسيين من الخلف » وكان هذا المأخذ يذكّرني بصوفية الالمان حين يتهمون رجال المقاومة بالحيلولة دون عودة الأسرى . لقد كان العسكريون المتهنون والحكومة هم الذين يقتلون الشبان الفرنسيين باطالة الحرب . إن حياة المسلمين لم تكن قيمتها في نظري دون قيمة حياة مواطنيّ : لقد كان انعدام النسبة بين الخسائر الفرنسية وعدد الخصوم المقتولين يجعل الشانتاج المتعلق بالدم الفرنسي شيئاً مثيراً للاشمئزاز[2] . ولما كان اليسار قد أخفق في ان يخوض معركة فعّالة بصورة شرعية ، فانه لم يكن باقياً على المرء اذا اراد ان يظل اميناً لمعتقداته المناقضة للاستعمار وأن يحطم كل تواطؤ مع هذه الحرب ، الا ان يشترك في عمل سرّي . وقد كنت معجبة بأولئك الذين كانوا يخوضون هذا العمل . غير انه كان يتطلب التزاماً كاملاً ، والادّعاء بأني كنت قادرة على ذلك ، ضربٌ من الغش : انني لست امرأة عمل ؛ وإن سبب حياتي هو ان أكتب ؛ وكان عليّ ، لكي أضحّي بذلك ، ان أحسبني لا غنى عني في مكان آخر . ولم يكن هذا هو الوضع قط . لقد اكتفيت بأن اقدّم خدمات ، حين طُلب مني ذلك ؛ وقد قام بعض اصدقائي بأكثر من ذلك .

* * *

---

(١) « حربنا » لفرنسيس جانسون .

(٢) كشف جانسون فيما بعد انه بفضل علاقاته مع « اتحاد فرنسا » استطاع عدة مرات ان يؤثر فيه وينقذ حياة عدد من الفرنسيين .

كان مالرو يطرد من فرقة « الكوميدي فرانسيز » كلاً من « لاميش » و « فايدو » ؛ وقد غطّى بخطبٍ رفيعة مناورات مؤسسة فيليبس التي فكّرت بأن تستغلّ تجارياً مبنى « الاكروبول » لتعطي فيه مشهد « الصوت والضوء » ؛ وهذا ما أثار يأس اليونانيين . وقد قرأ الناس في اليوم نفسه في صحيفة يونانية ، محافظة مع ذلك ، قولها : « اننا منذ ان وضع النازيون اقدامهم في الأكروبول ، لم نعرف إذلالاً مثل هذا » . نعم ، كانت فرنسا ماضية في الانحطاط . وكانت « الجامعة » تشكو البؤس ، فيما كانت الحكومة تستعد لمساعدة المدارس الحرة . وكانت نزعة البورجوازية المناهضة للسوفيات ما تزال قوية . وأعلن السوفيات وهم يطلقون قمرهم الأول انهم سيمرّون على مقربة من القمر ؛ فدسّت الصحف انه فشل في ان يبلغه . وكانت قضية باسترناك حظاً غير متوقع ؛ وصحيح ان « اتحاد الكتّاب السوفيات » بدا متعصباً وأخرق حين شتم باسترناك وطرده ؛ ولكنه مع ذلك تُرك آخر الأمر يعيش بسلام في مقصورته ؛ وقد تصرف الأكاديميون السويديون تصرّف المحرّضين حين منحوا الجائزة لرواية روسية كانت بينها وبين الشيوعية مسافة ، وحين اعتبروها ضد الثورة : إنهم بذلك كانوا يجبرون اتحاد الكتّاب ، الذي كان حتّى ذلك الحين قد أغضى ، على ان يتدخّل . إن باسترناك شاعر كبير جداً ، ولكني لا أنجح في قراءة « الدكتور جيفاغو » ؛ إن المؤلف لم يكن يعلّمني شيئاً عن عالم يبدو انه تعامى وتصامم عنه طواعية ، وكان يغلّفه بضباب كان يذوب هو نفسه فيه . ولكي تبتلع البورجوازية هذا الضباب الكثيف ، فلا بدّ انها كانت مدعومة بتعصّب قدير . وهو الذي اوحى لها فيما بعد هوساً لا يقل عجباً تأييداًللتيبيت التي كانت تجهل عنها كل شيء ، ولكنها كانت قد ثارت على الاحتلال الصيني : فأصبح الدالاي لاما تجسيداً للقيم الغربية وللحرية . إن البورجوازية كانت تكره الصين اكثر من كرهها للاتحاد السوفياتي . وكان لانزمان ، لدى عودته من بكين ، قد حدّثني مطولاً عن تجربة الكومونات ، ويبدو انها قد نجحت بشكل غير متساوٍ ، وفق المناطق والظروف ؛ ولكنها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت محاولة هامة لنزع مركزية الصناعة وربطها بالزراعة ربطاً صميمياً. وقد اتُهمت بهدم الاسرة واضطهاد الافراد ، ولم يُسجّل لها الا ألوان فشلها.

تلقيت في نوع من السرور موت البابا ، ، وموت فوستر دالز. وقد حُلّت قضية قبرص لصالح القبرصيين. ولكن أعظم انتصار ثوري هو الذي احرزه في كوبا متمرّدو جبال سيارا ماسترا. لقد هبطوا في مطلع الشتاء من جبالهم ، فساروا نحو الغرب ، وفرّ باتيستا ، فيما كان شقيق كاسترو ورجاله يدخلون هافانا في جذل ، حيث استقبل فيديل استقبالاً مجيداً يوم ٩ كانون الثاني. وقد اكتشفت في الكهوف وفي الريف مستودعات للجثث: اكثر من عشرين ألف شخص قد عُذّبوا وقُتلوا ، وعدد من القرى اكتسحها الطيران. وكان الشعب يطالب بالعقوبات ؛ وإرضاءً وضبطاً له ، فتح كاسترو محاكمة علنية ادّت الى صدور احكام بالموت على مئتين وعشرين شخصاً تقريباً. وصوّرت الصحف الفرنسية هذا التطهير الضروري على انه جريمة. ونشرت «ماتش» صوراً للمحكومين وهم يعانقون زوجاتهم واولادهم ، ولكن من غير أن تظهر جثث ضحاياهم طبعاً ، ومن غير ان تذكر عدد هؤلاء الضحايا ، بل حتى من غير ان تتحدث عنهم. واستُقبل كاسترو في واشنطن استقبالاً حسناً ؛ ولكنه حين طبّق الاصلاح الزراعي واكتشف الاميركيون في «روبين دوبوا» هذا ثورياً حقيقياً ، غضبوا ان يكون قد اعدم رمياً بالرصاص عدداً من مجرمي الحرب ، ونسوا انهم كانوا قد شووا روزنبرغ وزوجته اللذين اتهموهما في اثناء السلم بالتجسس. ولكن الشعب الكوبي كله كان مع كاسترو ؛ وفي تموز ، حين اراد ان ينهي الخلاف بينه وبين رئيس الجمهورية ، اوروتيا ، فقدّم استقالته ، تجمّع مليون فلاح في هافانا وراحوا يصفقون فؤوسهم فيما بينهم محدثين ضجّة تصم الآذان ، وهم يطالبون بأن يبقى على رأس البلاد وان يذهب اوروتيا – وهذا ما فعله. وحلّ دورتيكوس محلّه.

* * *

سبق ان ذكرت اني عزمت في العطلة ان اتابع كتابة سيرتي الذاتية ؛ وقد ظل هذا القرار يترنّح وقتاً طويلاً ؛ كان يبدو لي من قبيل الزهو ان أتحدّث طويلاً عن نفسي. وكان سارتر يشجعني. وكنت أسأل جميع الذين كنت ألتقيهم إن كانوا موافقين : فكانوا كذلك. وأصبح سؤالي غير وارد بمقدار ما كانت كتابتي لسيرتي مستمرّة. وقد قارنت ذكرياتي بذكريات سارتر واولغا وبوست ؛ وقصدت دار الكتب الوطنية لأموضع حياتي في إطارها التاريخي. كنت طوال ساعات اقرأ صحفاً قديمة فأعلق بحاضرٍ مليء بمستقبل ما وقد أصبح ماضياً تجاوزته منذ وقت طويل : وكان ذلك محيّراً مبلبلاً. وكنت أحياناً استسلم لذلك الى حدّ ان الزمن كان يتأرجح. وحين خرجت من تلك الساحة التي لم تتغير منذ كنت في العشرين من عمري، لم اكن اعرف بعد في اي عامٍ كنت أحطّ. كنت أتصفّح جريدة المساء ولديّ شعور بأن البقية كانت موجودة على رفوف في متناول يدي.

لقد استخفّني نجاح « مذكرات فتاة رصينة » وأثّر بي ما لم يؤثّره سواه، بعد ان أصبح سارتر خارج الخطر. كنت حين استيقظ في الصباح، وحين أعود للنوم. أجد تحت بابي رسائل كانت تنتزعني من كآبتي. وقد انبثقت اطياف من الماضي، كان بعضها حانقاً والبعض الآخر راضياً ؛ وكان ثمة رفاق كنت قد أسأت معاملتهم يبتسمون لتصرفات شبابهم الحمقاء، في حين كان اصدقاء، كنت قد تحدّثت عنهم بودّ، غاضبين. وأقرّت طالبات قديمات من معهد « ديزير » اللوحة التي كنت قد رسمتُها عن تربيتنا، بينما احتجّت اخريات. وهدّدتني سيدة باقامة دعوى. وكانت اسرة « مابي » ممتنّة أنني بعثت « زازا ». واعطوني عن حياتها تفاصيل كنت أجهلها، وكذلك عن علاقات ذويها مع « براديل »، تلك العلاقات التي كنت أدرك خفاياها ادراكاً أفضل. كان هذا الاكتشاف لماضيّ ابتداء من القصة التي كتبتها عنه شيئاً روائياً. وقد كنت اعيد قراءة رسائل زازا ومذكراتها، فأعود الى الاستغراق فيها لبضعة ايام. وكان ذلك كما لو انها ماتت مرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اخرى . ولم تعد بعد ذلك ابداً لتراني في الحلم . وبصورة عامة ، منذ ان نُشرت قصة طفولتي وشبابي وقرئت ، انفصلت عني كلياً .

في تشرين الأول ، اجتمع فريق « التان مودرن » عند « ليب » لتناول الغداء احتفالاً بعودة « بويون » الذي انخرط حديثاً في علم خصوصيات الشعوب ، وكان قد امضى الصيف بالقرب من بحيرة « تشاد » عند قبيلة الكوربو . ولم يكن يتأثّر بالحرّ ، ولكن ازعجه الذباب الذي كان ، كلما اغتسل بالقرب من خيمته ، يغطيّه من رأسه الى قدميه . وكان قد اغتذى ، في جذل ، بمعجنات الذرة البيضاء التي كانت تُصنع له كل صباح . ولم يكن له من عمل آخر غير التحدّث الى السكان المحليين ، بواسطة مترجم . وكان يخيّل إليّ اني لو كنت مكانه لمتّ ضجراً . وقد قلت له : « انني سأتساءل كل صباح في قلق : ما الذي سأفعل حتى هذا المساء ؟ » فأجابني باندفاع : « إذن لا تذهبي الى هناك ابداً ! » ومن المؤسف انه جمع معلومات قليلة ؛ وقد كانت حياة قبيلة الكوربو على غاية التعقيد . واوضح لنا بويون : « لقد فقدوا القوس ، حصلوا عليه وفقدوه ؛ وهذا أسوأ مما لو انهم لم يجدوه بعد ؛ فهم لم يجدوه ثانية ابداً ! » وكانت قبائل مجاورة تستعمله ، ولكنهم كانو يقولون : ما جدوى ذلك ؟ في تلك الحالة لم يكن اي اختراع حديث ، لا السيارات ولا الطائرات ، ليبهرهم : ما نفع ذلك ؟ وكانوا بين الحين والحين يقتلون بالحجارة بعض الطيور التي كانوا يأكلونها . وكانوا يملكون مواشي ولكنها كانت ترعى مراعي بعيدة جداً ولا تقدّم إلا ثروة وهمية . وكانت النساء هن اللواتي يشتغلن الأرض ، ولذلك كان جميع الرجال هناك متعددي الزوجات ، باستثناء عازب ابله يعيش على الصدقات ، وشيخ أغنى من الآخرين اوضح لبويون وضعه : « لا حاجة لي الى اكثر من امرأة : فأنا غنيّ » وكانت تقاليدهم تبدو ابتدائية كأخلاقهم ؛ وكان لا بدّ ، لتخليدها ، من التقاء شيخ ذكي وطفل فضوليّ : وكان ذلك نادراً ما يحدث ؛ وكان كثيرون قد سقطوا في النسيان . كانوا يعيشون بلا دين ، وبلا طقوس او

يكادون . وكان صوت بويون يرتعش بالحماسة : كان هؤلاء الناس يُفلتون من الحاجة برفض جميع الحاجات ؛ كانوا يجدون الغزارة في العوز . وقد خشينا أن يتجنّس بجنسية الكوربو .

لم اكن أحبّ ، اذ خرجت من دائرة اصفيائي ، ان أتحدّث مع الناس الا افرادياً ، مما اتاح غالباً حرق مرحلة التوافه الاجتماعية ؛ وكنت متحسّرة اني لم أستطع قطّ ان أتجاوز هذه المرحلة خلال لقاءاتي النادرة مع فرانسواز ساغان . كنت احبّ كثيراً مزاجها الخفيف ، وارادتها في ألاّ تستسلم الى رواية شؤونها وألاّ تكشّر ملامحها ؛ وكنت اقول لنفسي دائماً ، حين كنت اغادرها ، اننا في المرة القادمة سنتحدث بطريقة أفضل ؛ ثم لا يتمّ ذلك ، ولا أدري السبب . ولما كانت تحبّ الإضمارات والايماءات ، ولا تنهي عباراتها ، فقد كان يبدو لي تحذلقاً ان أمضي في عباراتي الى نهايتها ، ولم يكن طبيعياً عندي ان اقطعها ، وكنت في نهاية المطاف لا أجد ما أقول . كانت تخيفني ، كما يخيفني الأطفال ، وبعض المراهقين وجميع الأشخاص الذين يستعملون اللغة على غير النحو الذي أستعملها فيه . وأعتقد انني ، من جهتي ، كنت أزعجها . وقد التقينا مساء صيف على سطيحة في بولفار مونبارناس ، فتبادلنا بعض الكلمات ، وكانت تملك على عادتها جمالاً وطرافة ، ولم اكن اطلب الا ان ابقى وحدي معها . ولكنها قالت لي على الفور إن بعض الاصدقاء كانوا ينتظروننا في « الابي كلوب » . وكان ثمة جاك شازو ، وباولا دوسان جوست ، ونيكول بيرجيه ، وآخرون . وشربت ساغان في صمت . وروى شازو حكايات عن ماري ــ شانتال ، وكان يدهشني التفكير بأنه لم يكن في الماضي شيء عندي اكثر طبيعية من أن أجلس ليلاً في احدى الحانات امام كأس ويسكي ، ذلك اني كنت آنذاك احسّ اني في غير مكاني تماماً ! وصحيح اني كنت أجدني محاطة بغرباء ، وانهم لم يكونوا يعرفون اكثر مني ماذا جئت أفعل بينهم .

كنت اقرأ قليلاً . وأضجرتني رواية اراغون « الاسبوع المقدس » كما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اضجرتني « الدكتور جيفاغو » ؛ فحين فهمت حديثه ، وقدرت براعته ، لم أجد سبباً لكي امضي الى ابعد من ذلك في هذا العمل الرمزي الجادّ ؛ وكنت اوثر صوت اراغون المباشر العاري ، كما كان يُسمع احياناً في « الرواية التي لم تنته » وفي « ايلسا » ؛ كان يؤثّر بي حين كان يحدثني عن الشباب واوهامه ، وعن مطامحه ، وعن رماد المجد ، وعن الحياة التي تمرّ وهي تقتلك. وقد فضّلت على كتاب « زازي » الذي كسبت الجمهور ، كتباً اخرى لـ « كونو » من كتابه « شياندان » الى كتابه « سان غلانغلان » . ولكني استغرقت استغراقاً لذيذاً في أعماق « لوليتا » . لقد كان نابوكوف يشكّك بفكاهية معلقة في عقلنات الجنس الصافية ، وفي الانفعال ، وفي الفرد التي هي ضرورية كلها لعالم التنظيم . وبالرغم من الارتباك المدّعي في المقدمة ، واللهاث في الخاتمة ، فان الحكاية قد اجتذبتني . وقد امتدح « روجمون » الذي يتحدّث بحماقة عن اوروبا ولكنه لا يتحدث حديثاً رديئاً عن الجنس ، امتدح نابوكوف على انه اخترع وجهاً جديداً للحب الملعون ؛ ومن الصحيح ان الحب ، في عهد كوكسينيل والباليهات الوردية ، لم يعد يجرّ على احد عذاب الجحيم ؛ في حين ان همبير همبير يدخل الجحيم منذ النظرة الأولى التي يلقيها على لوليتا . اما « كلوسوفسكي » فقد كتب في « الغاء براءة نانت » رواية غزلية عميقة ، بأسلوب سيّد . فالأبطال في الروايات الغزلية مقصورون إجمالاً على بُعد واحد ؛ ولا تكفي أعمالهم المجونية لانعاش أجسام قطعها المؤلف عن العالم ، بالتالي كانت محرومة من دمها .اما بطلة كلوسوفسكي ، وهي نائبة راديكالية اشتراكية ذات وسام ، فقد كانت تعيش ؛ وحين كان يدفعها ، في اقبية أجدر بـ « اسرار باريس » ، الى بعض ألوان الضعف والخور ، فاننا نؤمن بجذلها الماسوشي . وهو لم يكن يعامل اولئك الذين كانوا يراهنون على السماء معاملة افضل من الذين كانوا يهزأون بها ؛ فقد كانت الالتواءات الجنسية لدى الجميع تسجّل عجز البورجوازيين اليوم عن الاضطلاع بأجسادهم ، اي عجزهم عن ان يكونوا رجالاً .

كنت اقرأ عادةً بعد الظهر ، قبل ان أعمل . ويتفق لي ان أتصفّح مساء ، وانا في سريري ، رواية من الروايات الّتي تُرسل لي من دور النشر ؛ وكنت اطفيء النور بعد عشر دقائق . ولكني لم أطفئه في احدى الليالي . كان الكتاب لمؤلفة مجهولة ، وكان يبدأ بلا جاذبية ؛ انها فتاة صغيرة عاقلة تلتقي فتى يائساً ، فتنقذه من انتحار كان ينويه ، وما يلبثان ان يتحابّا : شيء تافه ، ولكنها لم تكن قصة تافهة . كان حبّهما المقلق المبهم يطرح على بساط البحث قضية الحب نفسه . كانت الساذجة تتحدث كامرأة غنية بالتجربة بلهجة وصوت أمسكاني حتّى آخر صفحة ، بالرغم من بعض الالتواءات . وانها للذة نادرة ان يصيبك كتاب لم يدلّك عليه احد ، وعلى غير انتظار . كريستيان روشفور : تراها من كانت ؟ لقد عرفت هذا فيما بعد ، حين تطابق رأي الجمهور مع رأيي .

وعُرضت في باريس النسخة الكاملة لـ « ايفان الرهيب » ؛ وقد كان القسم الأول متصنعاً بعض الشيء . اما الثاني ، فمنطلق ، غنائي ، ملهم ، وربما كان يفوق كل ما سبق لي ان رأيته على الشاشة . وكانت اللجنة المركزية قد أدانت الفيلم ، في أيلول ١٩٤٦ ، فكتب ايزنستاين لستالين الذي استقبله وحضر الفيلم في قاعة العرض بالكرملين ؛ وكان ستالين ، على حد قول اهرنبورغ ، يحتفظ بسحنة جامدة ، وقد خرج من غير ان يقول كلمة ؛ وقد سمح لايزنستاين ان يخرج قسماً ثالثاً يدمجه بالقسم الثاني : ولكنه كان مريضاً جداً ، ومات بعد ذلك بعامين .

وكان بوست يمتدح لي منذ وقت طويل فيلما كان قد رآه في عرض خاص ، وكان يخالف روتين السينما الفرنسية : « سيرج الجميل » . وقد ذهبت لحضوره بمجرد ان عرض في قاعة سينما عامة . وكان يمثّله مجهولون ، ويصوّر قرية من قرى وسط فرنسا في امانة شديدة ، حتّى ان الصور كانت تبدو لي وكأنها ذكريات ؛ وكان « شابرول » يروي حياة سكانها العابسة ومصائبهم ، من غير ان يتخذ لهجة التفوق عليهم ابداً . ولم أعثر في « ابناء العم » على تلك الهبة من الودّ ولا نضارة الحقيقة ؛ ولكن اللهجة هنا ايضاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت جديدة . اما « تروفان » في « اربعمئة ضربة »فيتحدث حدثاً رديئاً عن البالغين ، ولكنه حديث رائع عن الطفولة . لقد كان تواضع الموارد التي يتمتّع بها مخرجو « الموجة الجديدة » يمنعهم من اللجوء الى طرق الصناعة السينمائية المكلفة التي كان سابقوهم يستعملونها : فنفضوا الغبار القديم .

اصطحبني لانزمان في نهاية شهر ايار الى « الاولمبيا » ذات مساء لحضور تجربة لجوزفين بيكر ؛ وقد شاهدت وسط ديكورات ناقصة ممثلين في ملابس المدينة الى جانب ممثلين آخرين في ملابس تنكرية قديمة نصف عارية ؛ وقد راقتني هذه الفوضى ، وحركة التنكنيكيين ومزاج المسؤولين المعتكر ، والنتائج الغريبة الحاصلة من التقاء الصناعة الفخمة بالتسطّح اليومي ، ولكني حين تذكّرت جوزفين بيكر ، يوم ان كنت في سن الشباب ، ردّدت بيت اراغون : « ما الذي حدث ؟ إنها الحياة ... » كانت تقاوم الشيخوخة في بطولة تجبر على الاحترام ، وكان يبدو لي غير محتشمٍ ان أنظر اليها . كنت أكتشف على وجهها الداء الذي كان يتأكّل وجهي .

وبعد ذلك بقليل ــ بعد عشر سنوات تماماً من الموعد الذي قال فيه الاطباء لبوريس فيان « إن أمامك عشر سنوات » ــ مات بوريس من شدة الغيظ بعد نوبة قلبية ، في أثناء عرض خاص لفيلم « سأبصق على قبوركم » وقد عرفت النبأ بعد ظهر احد الايام حين وصلت الى منزل سارتر ففتحت جريدة « لوموند » . وكنت قد رأيت بوريس فيان للمرة الأخيرة في مقهى « تروا بوديه » ، فشربنا كأساً : ولم أره قد تغيّر قط منذ محادثتنا الأولى . لقد كنت اكنّ له ودّاً كبيراً . ومع ذلك فلم أتحقق من الموت الا بعد ذلك بأيام ، حين رأيت في « ماتش » صورة حمالة مغطاة بقماشة ، فقلت : إن فيان تحت القماشة . وادركت انه اذا لم يكن شيء فيّ يثور ، فلأني كنت قد ألفت موتي بالذات .

* * *

قضيت شهراً في روما مع سارتر . وكانت صحته في تحسّن مستمرّ .

وكان ينهي مسرحيته . كان قد كتب الفصل الأول من جديد ، وألّف اللوحات التالية التي كانت تملأني غبطة . وذات مساء أعطاني مخطوطة الفصل الأخير الذي قرأته في ساحة « سانت اوستاش » : مجلس عائلي يجتمع ليصدر حكمه على فرانز ؛ وكان كلٌّ يشرح وجهة نظره ؛ وكانت هناك عودة الى «سودرمان» ، وأنا أحاول حين يخيب ظنّي في عمل من أعمال سارتر ، ان اخطّيء نفسي اولاً وأغتاظ اكثر فأكثر حين أكون على حقّ . وقد كنت في مزاج سيء جداً حين عاد إليّ سارتر ، فحدّثته عن خيبة ظني . ولم ينفعل كثيراً . لقد كانت فكرته الأولى ان يجري لقاء بين الأب والابن ، ولا يدري لماذا غيّر هذه الفكرة . وقد عاد اليها ، فبدا لي المشهد هذه المرة أفضل مشهد في مسرحية كنت اعتبرها فوق جميع المسرحيات التي كان قد كتبها .

ومن جهته قدّم لي انتقادات قاسية على كتابي في شكله الأول : وقد ذكرت انه لا يراعيني هو ايضاً حين لا أرضيه . كان يجب كتابة كل شيء من جديد . ولكنه انتهى الى القول إن هذا الكتاب سيكون ، في ذوقه ، أهمّ من « مذكرات فتاة رصينة » ، وقد عملت في مزيد من المتعة . وكنت في الساعات الحارة استلقي على سريري وأقرأ « الفودو » من تأليف « ميترو » و « شمس هنود الهوبي » وهي سيرة ذاتية مدهشة لهندي يصور انتماءه المزدوج للحضارة الاميركية ولتقاليد قريته ؛ وقد وجدت مجـدّداً في « البلانيتاريوم » بورجوازيي ناتالي ساروت المصابين بالبارانويا . واكتشفت مرة اخرى « اعترافات » روسو .

تركني سارتر في ميلانو ؛ وكنت قد تواعدت مع لانزمان على أن التقيه هناك بعد اسبوع . وأقمت في « بيلاجيو » ، وانا خائفة بعض الخوف من هذه العزلة مع نفسي ، لأني كنت قد فقدت هذه العادة : وبدت لي الأيام قصيرة جداً . وكنت أتناول طعام الفطور على ضفة البحيرة ، وانا أقلّب الصحف الايطالية ؛ وكنت أعمل امام نافذتي المفتوحة ، مفتونة النظر بمشهد الماء والروابي ؛ وبعد الظهر كنت اقرأ « موزار » تأليف ماسين ، وكنت قد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انتزعته من سارتر قبل ان يفرغ من قراءته ؛ وكان يجده ممتازاً ؛ كان كتاباً غنياً ومتحمّساً الى حدّ اني كنت أجد مشقة في وضعه جانباً لأعود الى العمل . وعدت اليه في فرح بعد العشاء وانا اشرب عصير العنب على احدى السطيحات . ثم كنت أسير تحت ضوء القمر . وقضيت عشرة ايام في مانتون مع لانزمان . وقد قرأ مخطوطتي واعطاني نصائح طيبة . كانت حياتانا تفترقان ، ولكن الماضي حُفظ في الصداقة دون ان يمسّه شيء . انني حين عرفته لم اكن قد نضجت بعدُ للشيخوخة : فأخفى عنّي بوادرها . اما الآن فاني أجدها قد أقامت فيّ . كان باقياً لي القدرة على ان أحتقرها ، ولكني لم اكن املك بعد القدرة على ان أيأس منها .

* * *

في اثناء الصيف ، قام مالرو بدورة دعائية في البرازيل . وكانوا ينصببون تجاهه موقف سارتر السياسي : وقد اتّهمه في خطبه الرسمية بأنه لم يشترك قط في المقاومة ، بل اتّهمه بأنه قد تعاون حين قبل تقديم مسرحياته اثناء الاحتلال . ولم يسبق ان حدث قط ان أهان وزيرٌ للثقافة في الخارج كاتباً من بلده . وقد ادّعى من جهة اخرى انه ، خلال الاشهر الثلاثة التي كان فيها وزيراً للأنباء ، قد توقف التعذيب .

وكان الصليب الأحمر في تموز قد ذكر ان عدداً متزايداً من المسلمين كانوا يختفون كما سبق ان اختفى « اودان » . وكان المحاميان « فيرجيس » و « زافريان » قد نزلا يوم ١٠ آب في فندق « اليتّي » بمدينة الجزائر ليستقبلا الجزائريات اللواتي اختفى ازواجهن وابناؤهن او اخوتهنّ على هذا الشكل : فتدفقت هؤلاء النسوة . وسرعان ما طُرد المحاميان من الجزائر ، ولكنهما كانا قد تمكّنا من الاستماع الى خمس وسبعين شكوى ظهرت في « التان مودرن » بعددي ايلول وتشرين الأول ، وكذلك في « الأكسبريس » . وأجاب الذين يهمّهم ان ينكروا هذه الجرائم انه لم يكن ثمة جثث ، وإذن فليس ثمة أدلّة . وشرحت « لا فرانس كاتوليك » دفعة واحدة انه لم يكن

بالامكان تأكيد تعذيب اودان او خنقه ، باعتبار انه لم يكن موجوداً ليقدم شهادته في ذلك ، وان ألوان التعذيب التي تجشمها « اليغ » لم تؤثّر عليه كثيراً ، كما يبدو ، باعتبار انه قد عاش بعدها . وحين مات النقابي عيست ادير في المستشفى على اثر الحروق التي اصيب بها ، فُتح تحقيق : كان مسجوناً في معسكر في « بترّاريا »، فأفاق ذات ليلة من كانون الثاني وفراشه من القش يلتهب . وبالرغم من الاحتجاجات الملحّة التي نشرتها الصحف هذه المرة ، ولا سيما « لوموند » ، فقد انتهوا الى اعلان انه قد أحرق نفسه ، بدافع من طيش .

وأطلق ديغول يوم ١٦ ايلول كلمة « حق تقرير المصير الذاتي » ، ووافق في تشرين الثاني على ان يدرج « الحكومة الموقتة للثورة الجزائرية » في عداد « المفاوضين الصالحين » ؛ وتضاعف عدد المؤامرات والتجمّعات الفاشستية ؛ في حين كان ناشرو السلام يتابعون في الجزائر اكتساح الأراضي والسكان . وقد أعلن بلاغ رسمي للجش ان ٣٣٤,٥٤٢ مسلماً اعتقلوا في معسكرات التجميع بين حزيران وايلول [1]. وفي تشرين الثاني ظهرت في مجلة « الأكسبريس » شهادة « فاروجيا »، وهو احد المنفيين القدامى، عن معسكر اعتقال « بيروغايا[2] »

---

(١) نشر الكاهن بومون في « باستور » بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩٥٩ مذكرات سفر سجلها بين ١٤ و٢٩ تشرين الاول جاء فيها قوله : « كان معدل الاعاشة الغذائية الوسط في كثير من مراكز التجميع تعادل ربع او ثلث الحد الادنى الحيوي ، اذا حسب بحساب الوحدات الحرارية » . وكان عدد المجمعين قد ازداد ٣٠ بالمئة منذ شهر آذار ، ولن تزول المعسكرات بالتأكيد قبل نهاية الحرب . وبالاجمال ، كان كل فرد يتناول ١٦٠ غراماً من القمح ، اي ما يعادل ٧٠٠ وحدة حرارية في اليوم ؛ ولكني التقيت بمن أعطي ٩٠ غراماً في اليوم ، اي ٤٠٠ وحدة حرارية . وفي احدى الحالات القصوى ، مات في مزرعة « ميشال » ٥٠٠ طفل من أصل ١٠٠٠ . » وكان الكاهن بومون قد رأى بعينيه ، في معسكر « طبيعي » اطفالا ميتين او محتضرين من الجوع . « أطفال كان من اليسير رؤية عظمة الساق الكبرى عندهم ، اطفال مصابون بالكساح وبحمى المستنقعات ، ولم يكن الكينين متوفراً لهم ، وكانوا يرتجفون برداً على الأرض بلا غطاء . »

(٢) وكانت تؤكد الوصف الذي كانت قد نشرته جريدة «المجاهد» عن هذا المعتقل ؛ كان ٢٥٠٠ ـ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي كان معسكراً للاستئصال . وكان ثمة غيره . وقام الصليب الاحمر الدولي بتحقيق في معسكرات التجميع والاختيار والاعتقال والايواء بين ٢٥ تشرين الأول و ٢٧ تشرين الثاني ، وجمع في حوالي ٣٠٠ صفحة اثنين وثمانين تقريراً ؛ وكانت هذه التقارير من شدة الاتهام لفرنسا بحيث ان مفاوضات عقدت مع الحكومة ، فلم ينشر الصليب الاحمر الا بعض المقاطع ، استخرجت منها « لوموند » بعض التعليقات . ولكن النص الكامل تدوول في الخفاء . وذكّرت « الاوبسرفاتور » بالحيطة التي استعملها الصليب الاحمر الدولي حين تحدث عن المعسكرات النازية : إن محقّقيها لم يكونوا قد رأوا بأعينهم غرف الغاز ، وكان الضباط قد اكدوا لهم ان الرزم المرسلة الى المنفيين فد وُزّعت عليهم بأمانة الخ ... وهذه المرة ايضاً ، حاول كاتبو التقرير كثيراً ان يغلّفوا الحقيقة ، ولكني ، بالرغم من اني ألفت قراءة ألوان التعذيب ، فقد شق عليّ ان أتمّ التقارير حتى نهايتها .

وفي كانون الأول ، نشرت « تيموانياج كريتيان » و « لوموند » تقرير كاهن ، كان ضابط احتياط ، عن الأوامر التي أعطيت في آب ٥٨ الى « مركز التدريب على الحرب المبيدة » التابع لمعسكر جان دارك : « لقد اعطانا النقيب ل . خمس نقاط أحتفظ بها مع الاعترافات والأجوبة . اولاً : يجب ان يكون التعذيب نظيفاً . ثانياً : وألاّ يجري في حضور الشبّان . ثالثاً : وألاّ يجري في حضور الساديين ؛ رابعاً : وان يقوم به ضابط او مسؤول آخر ؛ خامساً : وان يكون خصوصاً انسانياً ، اي ان ينتهي بمجرد ان يتكلّم الشخص المعذّب ، والا يُبقي خصوصاً اي أثر . وهذا يعني انه يحق لكم ان تستعملوا الماء والكهرباء . »

ولم يتنبّه أحدٌ تقريباً لمضمون هذا التقرير . كان الفرنسيون يطفون في لامبالاة كانت تتعادل فيها كلمتا علم وجهل ، ولم يكن ايّ كشف عن حقيقة

= اسيراً مسجونين فيه : اشخاص يعتبرون خطرين جداً و « مثقفون » ؛ كانوا يسيئون معاملتهم ، ويعذبون ويضربون ويغتالون ، وقد جن كثيرون منهم وانتحر كثيرون .

يعلّمهم شيئاً على الاطلاق . ودلّلت لجنة « اودان » ان اودان قد مات مخنوقاً . ولم يكد الرأي العام يعرف الا شيئاً يسيراً من القضية ، وما كانت به حاجة الى اكثر من ذلك .

وبعد ايام الحواجز ، صوّت مجلس النواب على السلطات المطلقة لديغول . وكان الجو يصبح اكثر فأكثر غير قابل للتنفّس . كان رجال الشرطة يُرون عند ملتقى الطرق وامام مراكز البوليس وهم يحملون رشاشاتهم ويراقبون ؛ واذا اقتربت ليلاً لتسأل عن طريقك ، صوّبوا الرشاش اليك : وقد قتل احدهم ليلة عيد القديس سيلفستر ، في « جانفيليه » ، فتى في السابعة عشرة كان عائداً من السهرة . وكان بوست عائداً بسيارته الى منزله ، في سرعة كبيرة ، حوالي الساعة الثانية صباحاً ، فأخذت سيارة شرطة تطارده . وكان لا بد له من ان يقف ويبرز اوراقه ؛ المهنة صحفي . وقال احد رجال الشرطة في حقد « مثقف ! » وفيما كان يهدده برشاشه ، كان الآخرون يفتشون الصندوق . ولم يكن المرء يستطيع ان يسير اكثر من مئة متر من غير ان يرى جزائريين محمولين في سيارات الشرطة . وكنت مارّة ذات يوم امام دار المحافظة ، فرأيت جزائرياً ملقى على حمّالة ، والدم يسيل منه . وذات أحد ، سلكت في السيارة مع لانزمان شارع « لاشبيل » ، فإذا بنا نرى بعض رجال الشرطة والرشاشات في ايديهم يفتشون رجالاً محشورين امام الجدران رافعين ايديهم : انهم جزائريون قد حُلق شعرهم ولكنهم اعتمروا قبعات جديدة وارتدوا اجمل ثيابهم . لقد كان الأحد يوم احد بالنسبة اليهم ايضاً ؛ وكانت ايدٍ تغطس في جيوبهم وتستخرج ما كان فيها : علبة سكاير ومنديل . وعدلت عن التنزّه في باريس .

على انه كان مؤكداً ان الجزائر ستفوز باستقلالها : لقد كانت افريقيا كلها تحصل على الاستقلال . وحين أجابت غينيا اجابة سلبية جريئة على الاستفتاء ، قطعت فرنسا يوم ٢٨ ايلول ٥٨ علاقتها بها ؛ ولم تقطع علاقتها بالأمم الاخرى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي تظاهرت ، قبل ذلك بعام ، بأنها تسلك الطريق نفسها ١ . وكانت بلجيكا تفادياً منها لثورة في الكونغو ، وحفاظاً على مصالحها الاقتصادية ، تتخلى عن الاستعمار بسرعة . وكانت آخر المستعمرات البريطانية قد تلقت تأكيداً بقرب تحريرها . وكانت الدول الافريقية الفتية قد أظهرت تضامنها مع الجزائر في المؤتمر الذي عقدته في الصيف في مونروفيا .

كان الجو في العالم كله اقل ظلاماً وعتمة مما كان عندنا . صحيح ان التوتر بين الكتلتين كان ما يزال موجوداً : ولاسيما في المانيا الغربية التي كانت مناهضة للشيوعية وكانت مناهضة السامية فيها تعود الى الظهور ؛ وقد ظهرت اشارات الصلبان المعقوفة على الكنائس اليهودية ، ليلة عيد الميلاد . ولكن رحلة خروتشوف الى واشنطن ، والرحلة التي كان المفروض ان يقوم بها ايزنهاور لموسكو ، كانتا حدثين هامين لا سابقة لهما . وكان القمر الصناعي رقم ٢ والقمر رقم ٣ يؤكدان تفوق الاتحاد السوفياتي في الفضاء الخارجي : وكان ذلك احدى ضمانات السلام .

* * *

كما يُنصح لركاب طائرة تعرضت لحادث ان يستقلوا طائرة اخرى ، كان « ميراند » الشيخ قد نصح سارتر ، بعد فشل مسرحيته « نيكراسوف » : « اكتب على الفور مسرحية جديدة ، والا انتهى الأمر ، ولن تجرؤ بعد ذلك ابداً » وكان سارتر قد جرؤ ، بالرغم من مرور بضعة أعوام . وكنت احبّ « اسرى التونا » حباً شديداً حتى اني وجدت من جديد اوهامي السابقة : إن أثراً ناجحاً يغير حياة مؤلفه ويبرّرها ؛ على ان سارتر لم يكن لهذه المسرحية اية صداقة ، وربما كان ذلك بسبب الظروف التي بدأ فيها كتابتها . وقد أخرجتها « فيراكورين » في مسرح « لارونيسانس » ، وحين عدت الى باريس حضرت جميع التمرينات تقريباً ، وأنا مفتونة

(١) والحقيقة ان هذه الدول لم تهاجم الاستغلال الاستعماري ؛ باستثناء مالي ، وتابع الثوريون الحقيقيون الصراع . وقد كان هذا الصراع دامياً في الكامرون .

غالباً ، وخائبة غالباً . وكانت بهجتي لا تشوبها شائبة يوم سجل « ريجياني » المونولوج النهائي ، بعد ان حسّنه مراراً وفي دقه عجيبة ، وكنت اجد هذا المونولوج رائعاً ؛ وكان مما يدعو للاطمئنان ان يقول المرء لنفسه إن هذه الأصوات لن يتبدل منها شيء ابداً . ذلك ان الممثلين كانوا يمرون في الذرى والسفوح ؛ اما في الديكورات والملابس ، فلم يكن كل شيء يظهر ، وكانت المسرحية تدوم اطول مما ينبغي . وقد ساعدتُ سارتر على اجراء بعض الحذف فيها ، وشجعته على ان يرفض حذف مقاطع كانت الادارة تطلب حذفها . وكانت فيراكورين وسيمون بيريو ، التي كانت شريكتها ، تتنبّآن بوقوع كوارث ؛ وكنت قد ألفت المنازعات والعواصف ولكن الموضوع هذه المرة كان جدياً . ولم يكن قد سبق لي قط ان رأيت سارتر يتساءل في مثل ذلك القلق عن الاستقبال الذي ستقابل به مسرحيته . وكنا بين جلستين من جلسات العمل ، نخرج الى الشارع ، تحت سماء كامدة ، فيستولي عليّ القلق ، وكنت اقول له : « حتى ولو كان فرناً ، فانك كتبت افضل مسرحياتك » وربما كان ذلك صحيحاً ، ولكن اية كارثة ستقع على الممثلين الذين يكونون قد تعاقدوا على ذلك الموسم . واما هو ، فسيصاب بالغثيان من المسرح . وكنت افكر كذلك بالأعداء الذين كانوا يصرحون منذ أعوام انه كان قد انتهى والذين كانوا يسارعون في فرحة لدفنه . وقد بدأت الشائعات الكاذبة تروج حين كان لابدّ من تأخير موعد الحفلة الاولى ، بعد ان ثبت ان المسرحين والممثلين لم يكونوا مستعدين . وجرت الحفلة الاولى اخيراً ؛ وقد وقفت في جوف القاعة ارقب الحضور الذين كا وا يكادون يختنقون في القاعة الرديئة التهوية : وكان ذلك لا يساعد على متابعة نصّ غنيّ ولكنه صعب . وكنت آسف بكل تأكيد لكون ريجياني لم يمزّق ، كما كانت المسرحية تطلب ، ثوبه الرائع . وقد برزت لي فجأة نقائص اخرى أعمتني . كنت منفعلة اكثر من أي وقت آخر بكشف الستار كشفاً عاماً عن عملٍ كان يستولي عليّ حتى العظم ، وكان العرق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يسيل مني والضيق يهزّني ، فاستندت الى عمود ، وانا اظن بأني اوشك ان اسقط مغمى عليّ . وحين انتهت المسرحية ، صفق الحضور تصفيقاً حاداً جداً جعلني اعتبر القضية رابحة . على اني كنت مضطربة ، بعد ذلك بأيام ، حين ارتفع الستار قبالة الجمهور الشرس الذي يحضر الدعوة الخاصة للعرض . وتنزهت مع سارتر على الجادة ، فرأينا بناية تشتعل ، وتوقفنا لننظر الى الاطفائيين يقاومون الحريق . ثم دخلت احدى مقصورات المسرح ، ودخلت مقصورة اخرى ، وأنا احضر التمثيلية مقطعة فأجد ان الفرقة كانت ، كما يحدث دائماً ، تمثل المسرحية تمثيلاً اردأ من الأيام السابقة . وفي فترة الاستراحة أخذت فيراكورين واصدقاؤها ينتحبون شكوى من طول المسرحية : ولم يكن ذلك يرفع من معنويات الممثلين الذي كانوا نصف أموات من الوجل . وبعد اسدال الستار ، انتشر بعض الاصدقاء في مقصورات الممثلين وعلى السلالم والممرات . لقد احبوا المسرحية ولكنهم كانوا يشكون انهم لم يسمعوها جيداً وان الجو كان حاراً جداً . وكانت اعصابي ثائرة حين وجدتني ثانية في الطابق الاول من مقهى « الفالستاف » حيث كان سارتر قد دعا الى العشاء ممثلي مسرحيته وبعض الأخصاء . وكنا جميعاً قلقين . وكان سارتر مصمماً على القيام ببعض الحذف الجديد ، ولكن على مضض ، وكنت احسه برماً . وقد شرب قدحاً ثم قدحين ؛ ولم اكن في الماضي افكر بأن أعدّ عليه أقداحه ؛ فكلما كان يزداد شرباً يزداد طرافة : كان هذا في الماضي ؛ وقد صبّ لنفسه قدحاً ثالثاً ، فأردت ان اوقفه ، ولكنه تجاوزني وهو يضحك ؛ واذ ذاك انقضّت عليّ ذكريات الشتاء الماضي — الاستقطارات وادغال القلب — فاستولى عليّ رعبٌ شديد جداً ، وساعد على ذلك مفعول الويسكي ، حتى اني انخرطت بالبكاء ؛ واذذاك وضع سارتر قدحه . وعبر الحركة العامة ، لم يتنبه أحد للحادث تقريباً .

وحذف سارتر او قصّر فصولاً ، مخففاً المسرحية زهاء نصف ساعة . ومن غير ان يقرأ اي تعليق في الصحف ، طار الى ايرلندا حيث كان هوستون

ينتظره ليعيد النظر معه في السيناريو الذي وضعه عن فرويد. وحين استيقظت صباح الخميس، سارعت اشتري الصحف اليومية الاسبوعية، وتصفحتها على سطيحة، تحت الشمس: وكان صباحاً جميلاً من تشرين الاول. وكان جميع النقاد تقريباً يعتقدون مثلي ان «اسرى التونا» كانت أفضل من جميع مسرحيات سارتر الاخرى. واسرعت ارسل له برقية وقصاصات المقالات.

وحين عاد الى باريس، بعد عشرة ايام، كان نجاح «اسرى التونا» قد أصبح مضموناً. وروى لي، بنفسٍ مرحة، اخبار اقامته في ايرلندا. كان هوستون قد استقبله على عتبة منزله، وهو يرتدي ثوب سموكنغ أحمر؛ وكانت بناية ضخمة، لم تنجز بعد، ملآى بالآثار الفنية الغالية المختلفة، تحيط بها حقول واسعة جداً يتطلب عبورها مشياً على الاقدام عدة ساعات؛ وكان هوستون يمتطي فيها الحصان صباحاً، ويحدث له ان يسقط. وكان يدعو أشخاصاً من جميع الانواع، ويتركهم هناك مزروعين، وسط محادثة كان سارتر يجهد عبثاً في متابعتها: وهكذا كان لا بد لسارتر ان يُحدّث مطراناً انجليكانياً، واحد المهراجات، واخصائياً شهيراً بصيد الثعالب، ولم يكن أحدهم يعرف الفرنسية. ولما كان قد أمضى كل نهاراته في نقاش مع رينهارت وهوستون، فانه لم ير ايرلندا الا قليلاً، ولكنه تذوّق جمالها الجنائزي وكان يجد عمل كاتب السيناريو عاقاً.

وقد حاولت القيام بهذا العمل، لأول مرة. ذلك ان «كايات» عرض عليّ ان أعمل معه في فيلم عن الطلاق؛ ولم تكن لديّ اية رغبة في الكتابة عن «مشكلات الزوجين»، ولكني كنت أعرفها جيداً: كنت قد تلقيت عدداً كبيراً من الرسائل، واستمعت الى حكايات كثيرة؛ وقد اغرتني فكرة استعمال هذه المعرفة في سيناريو. وكان ثمة أمران يزعجانني. إن السينما لا تتيح الصراحة نفسها التي يتيحها الأدب؛ وكان من المستحيل التحدث عن حرب الجزائر، وإذن وضعُ ابطالي في قرائنهم الاجتماعية؛ ولكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مغامرتهم ، اذ تنفصل هكذا عن خلفياتها ، لم تكن ذات حقيقة في نظري : اتراني سأستطيع ان أهتمّ بها ؟ ومن جهة اخرى ، كان « كايات » يتمنى ان تكون رواية المرأة ، ورواية الرجل ، عن الصراع الذي ينصب احدهما في وجه الآخر ، مقدّمتين في قصتين مستقلّتين . واعترضت بأن حياة زوجين تشكل قصة ذات وجهين ، لا قصتين . وقد ألحّ . واعترف وهو يقرأ مخطوطتي بأن هذه القسمة كانت تضرّ بها . فمزجت القسمين معاً . وكان الأفضل ان انطلق من جديد ، ولكني كنت قد تعلّقت بأبطالي وبالحبكة التي ادخلتها فيها ؛ كان خيالي قد فقد حرّيته . وما لبثت ان ادركت انه كان بيني وبين كايات سوء تفاهم ، بالرغم من نيتنا الحسنة ؛ وانا اعتقد انه انما توجّه إليّ لأن الناس يعزون إليّ ميلاً إلى « روايات الفكرة » ، وقد سبق ان قلت إني لم اكن احبّ هذا النوع من الروايات. وقد كنت في السيناريو الذي كتبته أتحاشى التدليل على اي شيء ، وكانت جميع الفصول ملتبسة ، وعلاقاتها كثيرة وعائمة . اكان كايات على حق ام على خطأ في ان يجدها مختلطة ؟ وكان يعوزها ايضاً ، في نظره ، « اللقية » التي تدهش الجمهور وتؤكد النجاح وكنت اوثر ان آسر الجمهور أسراً خفياً بلهجة او باسلوب ، كما فعل « بريسون » مثلاً في « سيدات غابة بولونيا » بتجريد كثيف . ومهما يكن ، فان كايات كان يعرف ما كان يريد ، ولم يكن ذلك ما كنت أقدّمه له . وادركت جيداً لماذا استبعد مشروعي .

ولم اقطع مراجعة كتابي ، في الأسابيع التي اهتممت فيها بالسيناريو . كانت موافقة سارتر وبوست ولانزمان وانتقاداتهم قد شجعتني ، فاقتطعت ، واضفت ، وصحّحت ، ومزّقت وحلمت وعزمت . وقد كانت هذه في نظري مرحلة ذات امتياز ، حين أُفلت اخيراً من دوار الأوراق البيضاء من غير ان تكون حريتي قد تدبّقت في الصفحات المكتوبة . وقضيت كذلك ساعات وانا اقرأ واستعيد مخطوطة « نقد العقل الديالكتي » ؛ وقد تخبّطت متلمّسة عبر أنفاق مظلمة ، ولكني لدى الخروج ، كانت غالباً ما تستخفني

لذّة تجعلني شابّة . كانت « اسرى التونا » و « نقد العقل الديالكتي » يعوّضاني عن الرعب والمخاوف التي عرفتها في الخريف الماضي . كانت مغامرة الكتابة ، عبر سارتر ولحسابي ، تستردّ نكهتها المحرّضة .

* * *

إنه لنشاط غريب ان يقضي المرء ساعات وشهوراً وسنوات وهو يتحدّث الى أشخاص لا يعرفهم . ومن حسن الحظ ، ان المصادفة كانت تقدّم لي بين الفينة والفينة هدية صغيرة . وقد حدث في صيف ٥٥ ان دخلت مكتبة في « بايون » ؛ فسمعت امرأة شابة تقول : « إن هناك كتاباً يروقني ؛ انه كثيف ، خاصّ ، ولكني احبّه: « المثقفون » وكان يفرحني ان ارى قراء من لحم ودم يحبونني . وكذلك أجد لذةً ان ألمح اولئك الذين يحتقرونني . وقد حدث في صيف آخر اني كنت أتناول طعام الغداء في فندق بجبال البيرينيه مع لانزمان ؛ وكان ثمة اسبان وامرأة فرنسية متزوجة من شخص يُدعى كارلو ، يأكلون على مائدة مجاورة ؛ وقد تحدّثت عن خدمها : « ان عندي سائق سيارة ، وهذا مناسب : فهو يأخذ الأولاد في نزهات » ثم حلّلت في كآبة ونرجسية هموم قلبها : « اني احب كل ما لا يشبهني » . ثم ارتفع صوتها : « مجنونة ، شاذة ، وكتاب قذر » ... وكانت تعني « الجنس الثاني » وتعنيني . وكان ان غادرنا المكان قبلهم ، وحين صعدنا السيارة ، سلّمتُ أحد الخدم بطاقة بريدية كتبت عليها : « الى السيدة كارلو التي تمتاز بذوق رفيع في ان تحبّ ما لا يشبهها . »

ومنذ « الجنس الثاني » اعتدت ان أتلقّى رسائل كثيرة . وفي هذه الرسائل ما هو تافه : مصطادو توقيعي ، بعض السنوبيين والثرثارين والفضوليين . وهناك من يشتمني : فلا أغضب لذلك . فان سباب شخص مناهض للسامية يوقّع اسمه « ميردوكو » ، وهو يهودي روماني ، وسباب امرأة فرنسية مولودة في الجزائر تتهمني بالشذوذ وتصف حفلاتي ، إن هذا السباب لا يمكن الا ان يسلّيني . وكذلك فان شتيمة ملازم من « الجزائر الفرنسية »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتمنّى لي اثنتي عشرة رصاصة في جلدي ، تؤكّد فكرة أنّ لي قراءً عسكريين. وهناك رسائل اخرى مرّة ، او حاسدة ، او حانقة تساعدني على ان أفهم ما تلاقيه كتبي من مقاومة . على ان معظم مراسليّ يحدّثونني عن ودّهم ، فيسرّون لي مصاعبهم ، ويطلبون مني نصائح او توضيحات : انهم يشجعونني ، واحياناً يُثْرون تجربتي . وفي اثناء حرب الجزائر ، كان ثمة جنودٌ شبّان يُحسّون الحاجة بأن ينفتحوا لأحد ، فقاسموني همومهم . وغالباً ما يطلب مني ان اقرأ مخطوطات ، فأقبل دائماً .

وبين الأشخاص الذين يتمنّون لقائي ، كثير من عادمي الفطنة والتحفّظ . فقد سألتني فتاة شابة : « اودّ لو أتحدّث معك لأقف على أفكارك حول المرأة » فقلت لها : « اقرئي « الجنس الثاني » فقالت : « ليس لديّ وقت للقراءة » فأجبتها : « وليس لديّ وقت للحديث » ولكني أستقبل بكل رضى طلاباً وطالبات . وفيهم من يعرف جيداً كتب سارتر او كتبي ، ويطلبون ايضاحات او مناقشة : وهذه فرصة لي تطلعني على ما يفكر به الشبان ، وما يعلمونه ، وما يريدونه ، وكيف يعيشون ، فيما تمكّنني من ان اقدم لهم خدمة . وأنا أجد من المنعش معاشرة الفتيات اللواتي لم تنعقد حياتهنّ بعد . وقد تلقيت ذات مرة رسالة من امرأة ، فتوقعت حين ضربت لها موعداً للقاء ان اجتمع بأم أسرة مضطهدة ؛ ولكني فوجئت مفاجأة لذيذة حين رأيت شقراء جميلة في العشرين من عمرها تدخل منزلي . انها كندية فرنسية ، مسحوقة بأسرتها ووسطها وبلدها ؛ وبعد ان بلغت بدراستها حداً بعيداً ، نجحت في احدى المسابقات وحصلت على منحة لكي تأتي فتدرس الإخراج في باريس . وقد ساعدتها بعض التوصيات ، كما ساعدها جمالها وذكاؤها على ان تعقد علاقات كثيرة في اوساط المسرح الباريسية ؛ وكانت تحضر ألواناً كثيرة من الدروس والمحاضرات ، وتشاهد التمرينات : وقد حضرت كل يوم تمرينات مسرح « تيت دور » . وكانت تروي لي انطباعاتها : فلم يكن شيء يفلت من نظرها الناقد المرح . ولم تكن المشكلات الخاصة الصعبة تمنعها من ان تهتم اهتماماً حيّاً

بالمشكلات التي يضطرب بها العالم . وقد حزنت حين عادت فسافرت الى كندا . اما « جاكلين و . » ، فكانت قد نجحت هي ايضاً ، وان كانت مختلفة عنها جداً ، بان تنتزع نفسها من وسط خانق ، وان تتغلب على اضطرابات داخلية خطيرة ؛ وكنت معجبة بشجاعتها ؛ كانت وهي في العشرين من عمرها معلمة في سويسرا ، وكانت تُعدّ دبلوماً ، وتكتب في مشقة بعض القصص ، وتحرّر في الصحف ، وتناضل من أجل الاشتراكية وتصويت النساء واستقلالهن ؛ كانت سمراء ممتلئة ، وكانت اظافرها الخضراء او البنفسجية وأقراطها الطويلة لا تتناسب مع مشيتها الرصينة . وقد ودّعت اوروبا فيما بعد ، وسافرت كأستاذة الى مالي حيث راقت لها الاقامة .

وربطتني صداقة قوية كذلك مع شاب من مرسيليا كان يعرض عليّ صداقته في رسائله منذ بضعة أعوام . وكان قد أصبح ، بعد طفولة شاقة ، بحاراً ، ثم غطاساً في احد مطاعم لندن ، ولا اذكر ماذا كان بعد ؛ وقد قال لي في تواضع حين جاء لزيارتي في المرة الاولى « انني منبتّ جذورٍ كلاسيكي » وكان له وجه مغلق ، ولكن بسمة مرتبكة كانت تضفي عليه طابعاً طفولياً . كان ضد المجتمع ، وضد البالغين ، وضد كل شيء . وقد تدبر امره ، فيما كان يكسب حياته ، ليقوم بالدراسة وينجح في الامتحانات . وقد تحوّل من فوضاه المترددة الى التزام متطرّف . بل وحتى خطر . وكان غالباً ما يوبخني .وحين صدر كتابي « المسيرة الطويلة » ، وهو اقلّ حيوية من كتابي « اميركا يوماً فيوماً » سألني في قلق ، ويده تمثل انحداراً : « ترى ، هل ستستمرّين هكذا ؟ »

وكانت نساء ، صبيات غالباً ، يأتين لزيارتي . وكانت فيهن كثيرات يشعرن ، وقد بلغن الثلاثين ، انهن مرهقات بوضع – زوج او ولد او عمل – قد نشأ برضاهنّ وعلى مضض منهنّ : فهن يتدبرن امرهن في نجاح متفاوت . ويحاولن غالباً ان يكتبن ، وهنّ يناقشن معي مشكلاتهن . وبعضهن يقدمن لي اعترافات عجيبة ...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكل كاتب معروف بعض الشيء يتلقى رسائل من مجانين ؛ وكنت أمتنع عن الاجابة على مثل هذه الرسائل ، لأني لو فعلت لا اخدمهم ولا أخدم نفسي . ولكنهم يلحون أحياناً . وقد تلقيت ذات صباح في روما برقية – بالانكليزية – من فيلادلفيا : « احاول عبثاً لقاءك منذ خمسة عشر يوماً . سأتلفن صباح الثلاثاء . حبيّ . لوسي . » وكان يبدو على هذه المرأة انها تعرفني ، بل تعرفني جيداً : فمن تراها تكون ؟ وحدثني صوتها في التلفون بلهجة حميمة ؛ ولم افهمها جيداً ، على ذلك البعد ، وبالانكليزية وقلت : « ولكن اعذريني : متى التقينا ؟ انني لا اتذكرك .. » وساد صمت طويل ثم قالت : « لا تتذكريني ؟ » ثم أغلقت السماعة . وفكرت في استياء ان لوسي كانت قد التقت في باريس امرأة حلّت محلي . وتلفنت من جديد بعد الظهر ، فقالت لي بلهجة متباعدة : « ايها السيدة دوبوفوار ، سأكون في باريس يوم ١٧ كانون الاول ، واودّ ان اتناقش معك حول الوجودية » فقلت وأنا اعيد السماعة : « بكل رضى » ؛ وكنت قد فهمت . وعرفت فيما بعد ان لوسي قد تلفنت لناشري الاميركي اولاً لتعرف عنواني ، ثم تلفنت ، بناء على ارشادات الناشر ، الى ايلين رايت في باريس . وبدأت رسائل تردني : ثلاث او اربع في الاسبوع . وكانت لوسي تملك مخزناً للبضائع الاثرية القديمة ، وكانت تقول انها ستبيع المخزن لتأتي فتعيش معي في باريس ، وانها اشترت معطفاً جديداً ، وكانت تصف لي فرحتي حين ستصل وتدق بابي . وقد كتبت لها عدة مرات : « هناك سوء تفاهم » ، وكنت أتلقى برقية او رسالة ذات لهجة رسمية : « هل تريدين ان تحدّدي لي موعداً لكي نناقش كتابك « اخلاق الالتباس » . وفي هذه الاثناء بُلغّت ان في دائرة الجمرك رزماً كان عليّ ان أسدّد حقوقها : تمثال نصفي لنفرتيتي ، و « خاتم خطبة » قيمته ٥٠ الف فرنك . وقد أعدتهما الى مرسلهما . وكتبت من جديد : « لا تأتي » . واذ ذاك استدعت لوسي بالتلفون ايلين رايت وسألتها : « هل ينبغي ان أجيء ام لا ؟ » فأجابتها

ايلين : « لا » . وتلقيت منها رسالة أخيرة : « لقد بعت مخزني ، وأنا بلا مورد ، وهأنت الآن تطردينني ! لقد اعطيتني درساً ، ولكني تلميذة رديئة : فلم أفهمه . وأنا لا أستطيع حتى ان اعاتبك لفرط ما انت محروسة » وبعد شهر ، سلموني رزمة كانت آتية من فيلادلفيا : كانت قضيباً صغيراً من قضبان الكراسي ، ملفوفاً بعناية .

* * *

كنا في عام ٥٨ قد تقاربنا كثيراً من الشيوعيين الفرنسيين ، في وجه حرب الجزائر ، والتهديدات الفاشية . وكان سارتر قد خطب في « حركة السلام » طالباً النضال من أجل استقلال الجزائر ، كما كانت قد ناضلت من أجل استقلال الفيتنام . وكان في نيسان قد التقى مع سيرفان ــ شرايبر بعض الشيوعيين في « الاوتيل مودرن » ، بقصد انشاء لجان لمناهضة الفاشية . وابتداء من ايار ، ناضلنا جنباً الى جنب . وكان سارتر قد استعاد علاقته بالشيوعيين الايطاليين ، في ربيع ٥٨ ، عن طريق « غوتوزو » . وفي عام ٥٩ ارسل له « اراغون » دعوة من « اورلوفا » التي كانت تمثل دور ليزي في « البغي الفاضلة » ، ومن زوجها الكسندروف . وقد فكر سارتر انه لن يستطيع القبول ، ولكن حين دعتنا السفارة السوفياتية الى حفلة عشاء ، ذهبنا اليها . وكان ثمة موروا واراغون اللذان كانا يستعدان ليكتبا بطريقة متوازية تاريخ الولايات المتحدة وتاريخ الاتحاد السوفياتي ، كما كان ثمة ايلسا تريوليه وكلود غاليمار وزوجته وجوليار وزوجته ودوتور الذي تحاشى ان يصافحنا ، فوفّر علينا مصافحته . وكنت جالسة الى يسار فينوغرادوف الذي كان يشع فرحاً لأن مجيء خروتشوف الى باريس كان قريباً ؛ وكان جاري الآخر ليونيد ليونوف ؛ وكنت قد قرأت ، قبل ذلك بعشرين عاماً كتاب « حيوان الغرّير » ؛ ولكنه لم يكن يتكلم الفرنسية تقريباً ؛ وقد نجح في ان يقول لي : « لقد انتهت الفلسفة ... إن معادلة انشتاين تجعل كل فلسفة لا جدوى منها » . وكانت ايلسا تريوليه جالسة قبالتي ، بين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السفير وسارتر ؛ وكان شعرها قد أصبح رمادياً ، وعيناها ظلتا على زرقتهما العميقة ، وكانت لها بسمة جميلة تتناقض ومرارة سحنتها . واذ كنا نتحدث عن الاكتشافات التي تتيح عودة الشباب الى الشيوخ وإطالة الحياة ، قالت في اندفاع : «آه كلا ! إن الحياة تطول اكثر مما ينبغي ؛ وقد وصلت الآن الى نهايتها ، فلا يجبرني احدٌ ان اعود الى الخلف ! » وكان كامو قد قال لي عام ٤٦ : اننا كنا نملك صفة مشتركة : رعبنا من الشيخوخة . وكان سارتر ذات يوم قد أشار الى بدء قصة «الحصان الأحمر» التي كانت الراوية تتحدث فيها كيف أن انفجاراً ذرياً كان قد شوّه وجهها تشويهاً هائلاً حتى انها كانت تخفي ملامحها بجورب ، فسألها سارتر آنذاك كيف اوتيت الجرأة على ان تتصور نفسها بذلك الوجه المذعور ، فقالت : «ولكن ليس لي الا ان انظر في مرآة» وكنت قد قلت لنفسي آنذاك : «انها على خطأ : فالمرأة العجوز ليست امرأة قبيحة . انها امرأة عجوز» وقد يكون هذا صحيحاً في نظر الآخرين . اما في نظرها هي ، فان المرآة تعكس وجه امرأة مشوّهة ، حين تتجاوز هذه المرأة عتبة معينة . وقد كنت الآن افهم رأيها . وبعد العشاء ، وجدتني في زاوية من الصالة ، مع موروا . وكنت آمل ان يحدثني عن فيرجينيا وولف التي عرفها ؛ ولكن الحديث لم ينعقد .

وفي تشرين الاول ، حدثني لانزمان عن كتاب كان قد تصفحه تصفحاً ، ولكن كان يبدو له جيداً جداً : «آخر العادلين» تأليف شوارتز ــ بارت . وكنت حذرة . فما الذي ينتظره المرء من عملٍ مختلق بعد هذه التقارير الحقيقية الكثيرة وبعد «الريخ الثالث واليهود» لبولياكوف ؟ وفتحت الكتاب ذات مساء ، ولم اتركه طوال الليل . وحين أصبح الكتاب ، فيما بعد ، مشهوراً ومناقشاً ، رفضت كثيراً من الانتقادات التي وجهت اليه . على اني حين أعدت قراءته ، سجلت بعض التحفظات ، فيما يخص قبح الكتابة ؛ وكانت فيه نزعة دينية تنفذ عبر تغطيات ماهرة . وربما كان

صدق الأثر يتحالف مع قليل من المهارة ؛ ولكننا رغم ذلك كله كنا أمام أثر ادبي ؛ وكما يقول كوكتو : صيحة مكتوبة .

وتعرّف لانزمان الى شوارتز ــ بارت ودعانا معاً بعد ظهر يوم أحد . وكان شوارتز ــ بارت يرتدي لباس البروليتاريا ، ولكن سحنته كانت سحنة مثقف تخرج من كنزة ذات ياقة ملفوفة ؛ وكان ذا عين قلقة ، وفم حسّاس وغامض ، وكان يتحدث بذلاقة ، وبصوت هامس ، يكاد لا يُسمع . وبالرغم من انه لم يكن مهتماً على الاطلاق بالمظاهر الاجتماعية وبالمال والامتيازات والشهرة ، فانه لم يكن يتصنع انه منزعج بالاهتمام الذي يثيره حوله : « انني في هذه الفترة لا أعمل ، ولهذا لا تزعجني المقابلات والتصريحات وسواها : انها جزء من المهنة » وكان قد كتب كتابه بأفضل طريقة ممكنة طوال اربع سنوات : وكان يبدو له امراً مطلوباً ان يفعل ما هو ضروري ليقرأه الناس . على انه كان قد أجاب بقوة ، ازاء عدم تحفظ بعض الصحفيين : إنه لم يكن لديه شيء مما يميز الحمل الوديع ، فانه ان كان يدعو الى اللاعنف ، فلأن اللاعنف كان في تلك الفترة ، كما خيل إليّ ، يمثل في نظره السلاح الأنسب والأشدّ هجوماً : وهذا لم يمنعه من انه يتعلق به في صدق . كان يؤمن بالطبيعة البشرية ، وبأنها كانت طيبة ؛ وكان يتمنى ان يكتفي المجتمع بما كان يسميه « الحد الادنى البشري » بدلاً من ان يعدو خلف التقدم ؛ وبالاختصار ، كان أشد ميلاً للمثل الأعلى للقديس منه للمثل الأعلى للثوريّ . وكنا انا ولانزمان نخالفه في هذه النقاط ، ولكنه لم يكن واسع الاستعداد للنقاش . كان تلقائياً ، وحاراً ، فكان يعطي اولاً شعوراً بالانفراج والاستسلام ؛ ثم كان المرء يدرك انه اذ يطابق افكاره على انفعالاته انما كان قد بنى لنفسه نظاماً للدفاع يكاد يكون غير قابل للقسر ؛ إنه لن يغير مواضعه ابداً الا اذا عدّل صلته بالعالم في مجموعها . وقد لاحظنا بعد ذلك انه لم يقل لنا اكثر مما اعطى الصحف والتلفزيون في وقت لاحق ؛ وكان هذا طبيعياً ، ولكنه كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكذب وهم الصميمية الواثقة التي كان يخلقها برحابته . إن قصة ما تعلمه ، حتى ولو اقتصرت على سرد رسمي بعض الشيء ، تظلّ مثيرة ؛ كان له ذكاء سريع ، وسحر مكوّن من عذوبة واعتزاز ، ومرارة وصبر ، وصراحة وكتمان ؛ وبدلاً من الساعتين اللتين تنبأت بان نقضيهما معه ، بقينا ست ساعات .

وحين رأيت شوارتز – بارت للمرة الثانية ، كان ذلك مع لانزمان ايضاً ، في « الكوبول » ؛ وكان نجاح كتابه الذي كان يتنازعه لجنة « فمينا » ولجنة « غونكور » التحكيميتان قد أزعج الكتّاب ذوي الشهرة المحدودة ، والمهتمين باليهودية ؛ وكانوا قد اوحوا لـ « بارينو » ، الذي كان يطمع بجائزة غونكور لكاتب من اتجاهه ، بكتابة مقال علق عليه برنار فرانك في « الاوبسرفاتور » وأشاع المرح في باريس كلها . وقد اتهم شوارتز – بارت باخطاء طفيفة ، وبما هو اخطر من ذلك : بالسرقة ؛ والواقع ان في القسم الاول من روايته ، بضعة عشر سطراً كانت تشبه شبهاً شديداً مقطعاً من مقال تاريخي قديم . ولم يكن في هذا الا مأخذ يسير . لقد كانت هذه البداءة نقلاً ؛ وإن على من يريد ان يستخرج نصوصاً مقلدة ان يتعمقها : وكانت بعض العبارات تنحفر في الرأس الى حد ان يظنها المرء عباراته . وكنت قد قمت بهذه التجربة وانا اكتب « جميع البشر ميتون » . ولكن اذا كان شوارتز – بارت ، كما استشعرت من قبل ، يحاذر الى هذا الحدّ ، فلأنه كان قابلاً للجرح ؛ وكانت هذه المكيدة قد زرعت في نفسه الاضطراب . إنه يجلس تجاهي ، وهو يرتعش من الهدوء ويقول لي : « انتهى الأمر ، انني لا أهتم بعد بشيء ، ولقد قضيت الليل وأنا افكر برصانة . الجائزة عندي سواء . اما المال ، فقد كسبت منه قدراً كافياً . إن ما هو مريع ، ان يفقد الانسان الكرامة : ولكنني سأستردها . انني سأختفي طوال اربعة أعوام ؛ وسأعود بكتاب جديد ؛ وسيرى الناس اني كاتب حقاً . » وقد طمأناه الى ان لجنة غونكور لن تقع في الشرك ، وان احداً من القراء

لا يشك بأنه هو صاحب الكتاب . وكان لا يكاد يستمع الينا : « انني افضل ان أواجه الاسوأ ؛ تلك هي خطتي ؛ وانا اواجهه بدقة ، فأقتنع به ولا احس ّ بعدُ بأي خوف . »

بعد منح جائزة غونكور ، التي مُنحت قبل الأوان مما أثار غضب سيدات جائزة « فمينا » ، واعدت لانزمان وشوارتز – بارت على اللقاء في شقتي . وقد شُدهت حين رأيته داخلاً ، وأخذتني الرغبة في الضحك : كان متنكراً ؛ كان يرتدي مشمعاً طويلاً ، وقبعة خضراء ذات أطراف متهدلة ، ونظارتين سوداوين ، وقال باضطراب : « انني مطارد ؛ فالناس يلاحقونني في المقاهي ويطلبون مني توقيعي ، ويسمونني السيد شوارتز – بارت . السيد ! تصوروا هذا ! » كان يتحقق في ذعر صادق ان الشهرة تفصل وتقطّع . وكان قلقاً من الواجبات التي تفرضها ؛ وكم كان يتلقى من رسائل ! اعترافات ، الوان شكر ، شكاوى ، صلوات : وكان يبدو له انه كان عليه ان يذهب فيقابل كل مراسليه واحداً واحداً ؛ وكان يُحس نفسه مسؤولاً امام الشعب اليهودي كله . وكان في استطارة لبه بعض الالتذاذ ، وقد رغبت في ان اطمئنه ان بوسعه بعد بضعة أشهر ان يتنزه في الشارع بكل هدوء . إن المرء في الحقيقة لا ينتقل بهذه السرعة من الظلام الى المجد ، ومن البؤس الى الرخاء ، من غير ان يصيبه الاضطراب . وما عساه يفعل بهذه الملايين التي كانت تتدحرج على رأسه ؟ كان ثمة حوله من كان بحاجة الى مساعدة ، ولو متواضعة ، وكان عددهم قليلاً . اما هو ، فلم يكن راغباً في شيء . لا ان يشتري شقة ، ولا ان يشتري سيارة لن يحسن قيادتها ؛ وقد قال لنا : « ليست لي أحلام » ثم تردد : « بلى ، حلم صغير جداً : دراجة بخارية لأذهب الى الضاحية يوم الأحد . » وأضاف في نصف بسمة : « ثم إن المرء يستطيع ان يدير قدميه بسهولة على الدراجة ، وهذا مناسب » واقترحنا ان يشتري فونوغرافاً واسطوانات فقال إن ثلاث اسطوانات كانت كافية : « سأستطيع ان اسمع الى ما لا نهاية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السمفونية السابعة ؛ ولا ادري ماذا يجديني ان اشتري خمسين اسطوانة . »
كان يكره كرهاً صادقاً البذخ ، وكانت له وساوس هائلة بالنسبة للمال ، لأنه كان يقارن ثمن الاشياء براتب العمال ؛ وقال لنا إنه استقل سيارة عمومية لكي يأتي الى شقتي : كان هذا يشكل بالنسبة لليد العاملة ساعتي عمل. وكنت افهم موقفه ، لأن المال منذ ان أصبحت املكه ، قد طرح عليّ مشكلات لم أجد لها حلاً . وقد تحدث ايضاً عن مشاريعه : رواية عن وضع الزنوج ؛ وسوف يتخذ كبطلة له امرأة زنجية ، اذ كان شديد التحسس بالاضطهاد الذي تتكبده النساء . وكنت أتساءل عما اذا كان سينجح في ان يجعلها تعيش بشكل مقنع كـ « ايرني » . إنه على اي حال سوف يذهب الى المارتينيك .

ولم أره ثانية الا بعد مرور عام ، حين عاد من المارتينيك ليوقع بيان الـ ١٢١ . ولم يكن قد استسلم لمباهج الشهرة ولا لمتعة المال ، بالرغم من انه يستعمله الآن بمزيد من الطبيعية ، وان الزهد لم يكن بالنسبة له ، ولا بالنسبة للبشرية ، المثل الأعلى . وكان اصدقاؤه المارتينيكيون قد جعلوه يتبنى العنف الثوري : وكان قد قرأ في اقرار كامل ، في « التان مودرن » الفصل الاول من « معذبو الارض » حيث يدلل « فانون » ان المضطهدين ليس لهم الا هذا الدرب لكي يكتسبوا انسانيتهم . وبدا لي انه قد أصبح داخلياً اكثر حرية ، واوفر انفتاحاً ، وان قدميه قد انزرعتا في الارض بشكل أفضل . وكان يثبت بهذه التغيرات انه كان يؤثر حقيقة العالم على آرائه الخاصة ، والمجازفة على بذخ اليقين .

* * *

كنت وحدي مع سارتر ، بعد ظهر يوم من كانون الثاني ، حين دقّ جرس التلفون وقال لي لانزمان : « قُتل كامو منذ قليل في حادث سيارة » كان عائداً مع صديق له من الجنوب ، فاصطدمت السيارة بشجرة دُلب ، وقُتل لساعته . وأعدت السماعة ، ضيقة الأنفاس ، راجفة الفم . وقلت :

« إنني لن آخذ في البكاء. إنه لم يكن بعدُ شيئاً بالنسبة لي. » وظللت واقفة عند النافذة، وأنا انظر الى الليل يهبط على سان جرمين دي بريه، غير قادرة على ان اهدىء نفسي، ولا على ان اسقط في حزن حقيقي. وتأثر سارتر هو ايضاً، وطوال السهرة، تحدثنا مع بوست عن كامو. وقبل ان انام، اخذت اقراص بيلادينال؛ وكنت قد انقطعت عنها منذ شفاء سارتر، وكان المفروض ان انام؛ ولكن عيني لم تغمض. ونهضت وأنا ارتدي لبساً غريباً فخرجت أمشي في الليل. لم يكن هو الرجل البالغ الخمسين من كنت آسفة عليه؛ لم يكن ذلك العادل بلا عدل، ذا الكبرياء المقنعة الذي كان اقراره بجرائم فرنسا قد اسقطه من قلبي؛ وانما كان رفيق سنوات الأمل الذي كان وجهه العاري يضحك ويبسم بحلاوة، الكاتب الشاب الطموح، المجنون بالحياة، وبملذاته وانتصاراته، والرفقة والصداقة والحب والسعادة. كان الموت يبعثه؛ إن الزمن لم يكن موجوداً بعدُ بالنسبة اليه، ولم يكن لأمس حقيقةٌ اكثر مما كان لأمس الاول؛ كان كامو كما احببته ينبثق من الليل، فأجده ثانية وأفقده بألم. إن رجلاً حين يموت، يموت دائماً طفل، مراهق، شاب: وكل انسان يبكي من كان عزيزاً عليه. وكان المطر يهطل رذاذاً خفيفاً بارداً؛ وعلى جادة اورليان، كان المتشردون ينامون في فتحات الأبواب، متجمعين، مرتجفين. كان كل شيء يمزّقني: ذلك البؤس، وهذا الشقاء، وتلك المدينة والعالم، والحياة والموت.

وحين استيقظت، فكرّت: « انه لن يرى هذه الصبيحة »؛ ولم تكن تلك هي المرة الاولى التي اقول فيها هذا: ولكن كل مرة هي الاولى. واذكر ان « كايات » قد أتى، فناقشنا السيناريو؛ ولم تكن تلك المحادثة إلا تمثيلاً؛ إن كامو لم يغادر هذا العالم، وانما اصبح مركزه بعنف الحادث الذي ضربه، ولم اكن ارى بعدُ الا بعينيه المطفأتين؛ كنت قد مررت بالجهة التي لم يكن فيها شيء، ولاحظت، وأنا بليدة حزينة، الاشياء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي كانت ما تزال موجودة ، في حين اني لم اكن في وسطها ؛ وطوال النهار ، ترنحت على حافة التجربة المستحيلة : ان ألمس قفا غيبوبتي بالذات .

وكنت قد عزمت ان اشاهد في تلك الليلة فيلم « المواطن كان » ؛ وقد وصلت السينما قبل الموعد ، فجلست في المقهى المواجه ، بشارع الاوبرا . وكان ثمة أشخاص يقرأون الصحف ، غير مكترثين بالعنوان الضخم في الصفحة الاولى وبالصورة التي كانت تعميني . وكنت افكر بالمرأة التي كانت تحبّ كامو ، وفي العذاب بأن نلتقي في كل زاوية من شارع هذا الوجه العمومي الذي كان يبدو وهو يخص الجميع كما يخصها والذي فقد الفم ليقول لها العكس . كان ذلك يبدو لي إرهافاً ، وطبولاً تذيع في الريح بأسك السري . وقد جُرح في الحادثة ميشال غاليمار جرحاً خطيراً ؛ وكان قد امتزج بافراحنا عام ٤٤ وعام ٤٥ ؛ وقد مات هو ايضاً . فيان ، كامو ، ميشال : كانت سلسلة الأموات قد بدأت ، وستستمر حتى موتي الذي سيأتي حتماً ، عاجلاً ام آجلاً .

* * *

في ذلك الشتاء ، عدت من جديد الى ميدان كنت قد تركته منذ وقت طويل : الموسيقى . وكنت قد أهديت فونوغرافي ، وانقطعت عن الذهاب الى الحفلات الموسيقية . وقد حرّضتني صديقتي الكندية الشابة التي كانت تحضر حفلات « الدومين » الموسيقى ، أن أستمع الى احداها : وكان ذلك قريباً جداً من سارتر ، في « الاوديون » وقد تكفلت بان تقطع لنا تذاكر . وكنت خائفة ألا أفهم شيئاً . ولكن سارتر أخذه الفضول بأن يقوم بالتجربة . والواقع اننا احسسنا انفسنا ضائعين . لماذا كان الناس يقهقهون ؟ لماذا كانوا يصفقون ؟ ولم يكن « وال » و « ميرلو ـ بونتي » و « لوفيفر ـ بونتاليس » الذين التقيناهم في الاستراحة يفهمون شيئاً هم كذلك ، ولكن يكن ذلك يزعجهم على ما يبدو . وقد لُذع سارتر بهذا التأخر . واشتريت الكتروفوناً واسطوانات ، وجعلت اغني مجموعتي كل شهر . وكان سارتر

يساعدني على ان اكتشف السلاسل والخلايا. وشغلتنا «ويبرن» طوال الشتاء؛ وقد وجدت موسيقاه في مثل كثافة تمثال من صنع جياكوميتي: ليس فيها مادة اكثر مما ينبغي، ولا نغمة زائدة. وعدت الى الماضي؛ وكانت الموسيقى كلها تهمني. وكنت أقضي اوقاتي الفارغة أمام آلة الاسطوانات. وكنت أجلس، مرتين او ثلاثاً في الأسبوع، على ديواني مع كأس من الويسكي وأستمع طوال ثلاث ساعات او أربع. وهذا ما لا يزال يحدث لي غالباً. وقد احتلت الموسيقى من اهتمامي في هذه الفترة ما لم تحتله في اية فترة اخرى.

وقد تساءلت لماذا؛ لاريب في أن السبب الرئيسي ماديّ: وجود الميكروسيون وجودة التسجيلات. كانت الاسطوانات القديمة صعبة التصنيف والتحريك؛ وكان الاستماع اشد تقطعاً من ان يستطيع المرء ان يتركز ويستسلم في وقت واحد. اما اليوم، فان الوقفات تنسجم دائماً تقريباً مع تقسيمات طبيعية، وتتطابق مع ايقاع الانتظار. وهناك عدد كبير من الآثار المطبوعة، وهذا ما يتيح تأليف برامج متنوعة وغنية. وقد لعبت الظروف ايضاً: فأنا لا اقصد السينما او المسرح بعدُ تقريباً، والأزم بيتي؛ انني بالطبع أستطيع ان اقرأ؛ ولكن حين يأتي المساء، تكون الكلمات قد غمرتني كلياً. انني متعبة من هذا العالم الذي أعيش فيه والذي ما أزال ألقاه في الكتب. صحيح ان الروايات تخلق عالماً آخر، ولكنه شبيه بهذا، وهو عادةً أتفه. اما الموسيقى، فتدخلني في عالم آخر تسود فيه الضرورة. وأجد مادته وصوته لذيذاً، جسدياً. انه عالم من البراءة – على الاقل حتى القرن التاسع عشر – لأن الانسان غائب عنه؛ وحين استمع الى «لاسوس» او الى «برغوليز»، تمحي حتى فكرة الشر: وهذا ما يُريح. ثم إن جهلي في الموسيقى كان كبيراً. وقد حملت لي ما تمنعه عني الآن الفنون الاخرى: صدمة الآثار العظيمة التي ما تزال بكراً لديّ. لقد اكتشفت مونتفردي، وشولتز، وبيروتين، وماشو، وجوسكان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ديبريه ، وفيكتوريا . وتعلمت ان اعرف معرفة افضل الموسيقيين الذين كنت قد أحببتهم . إن كتبي قد تراكمت في مكتبتي على غير نظام ، وهي ليست شيئاً في نظري ؛ ولكني احبّ ان انظر الى الاغلفة المتعددة الالوان ، العابسة او الضاحكة ، التي توُوي تحت لمعانها انغاماً والحاناً . وبالموسيقى امتزج الفن ، في هذه السنوات الاخيرة ، بحياتي في ألفة ، وأصبت احاسيس عنيفة ، وادركت منها القوة والحقيقة ، وكذلك الحدود والتجاوزات .

* * *

كنا حين نتنزه أنا وسارتر يوم الأحد على الضفاف والمحطات ، وراء البانتيون ، او في منيلمونتان ، كثيراً ما نشكو من ان العمر قد أضعف فضولنا . ذلك انه كانت تُعرض علينا رحلات كبيرة . من ذلك ان « فرانكي » مدير « ريفولوسيون » وهي اكبر صحيفة كوبية ، مرّ بباريس ، فزارني مع عدد من الاصدقاء كان احدهم يتحدث الفرنسية . وقد قال لي بلهجة آمرة إنه من واجبنا ان نذهب فنرى بعينينا ثورة في طريق سيرها . وكنا نكن وداً كبيراً لكاسترو ؛ ومع ذلك ، فان عرض فرانكي ، الذي التقاه سارتر ايضاً ، قد خلفنّا لامباليين . وكان بعض البرازيليين يدعوننا لزيارة بلدهم في الصيف القادم ، ولم يكن ردّ فعلنا مختلفاً . وقال لي سارتر : « أتساءل اذا لم يكن تعب جسمينا هو الذي يستوقفنا ، لا تعب روحينا » وكان هذا الشرح يبدو له أصحّ وأكثر تفاؤلية من الشرح الآخر ، ولا شك في أن خوفي من ان يرهق نفسه كان يخنق رغباتي . وكان ثمة سبب آخر لكسلنا : كانت حرب الجزائر تسدّ علينا الأفق . ومع ذلك ، فقد كان باقي العالم موجوداً ، وما كان ينبغي لنا ألاّ نكترث به . وكان فرانكي على حق : كانت التجربة الكوبية تعنينا . وإن زيارة للبرازيل ستضيء لنا مشكلات البلاد المتخلفة ؛ وكان امادو وبعض اليساريين الآخرين يتمنون هذه الزيارة لأنهم كانوا يعتقدون ان سارتر يمكن ان يفيدهم بمحاضرات ومقالات . وكان التصامم عن هذه الدعوات ، وكتم فضولنا ، والتقوقع في المصيبة

عاًالفرنسية ، نو من التخلي . وكان سارتر اول من قرّر ان ينفض عنا هذا الجمود .

وحين أخذنا الطائرة ، في منتصف شباط ، كانت الحالة متأزمة بين كوبا والولايات المتحدة التي كان سفيرها قد عاد الى واشنطن . وكان سفير اسبانيا ايضاً قد غادر هافانا ، بعد ان اقتحم دار التلفزيون ، وهو في غاية السكر ، متهماً ادارته بأنها تشتم فرانكو . وكانت الروابط بين كوبا والاتحاد السوفياتي تتوثق : كان كاسترو قد استقبل ميكويان . وكان ذلك صباحاً جميلاً من أيام شباط ؛ وكنت أنظر تحتي الوان خارطة جغرافية ترتسم بدقة . وكان « جيروند » الاطلس يبسط مياهه من بوردو الى المحيط المزرق ؛ وكان الثلج يغطي البيرينيه المنحنية برقة نحو البحر الذي كان قد أصبح ربيعياً ؛ ثم دنت مدريد التي ظلت طوال هذه المدة بعيدة . ولم يُصب سارتر اية فرحة في لقائها ثانية ، هو الذي لم يضع قدمه فيها منذ ثلاثين سنة . كانت جميع الحوانيت ، حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، مغلقة ، وكان المطر يهطل ، وقد بدا له المارّة القليلون كئيبين وفي ثياب رديئة ؛ وقد قال لي في مقهى « غران فيا » حيث كنا نشرب المانزنيلا : « ليس ثمة اية بهجة في ان يتخيل المرء ما يدور برؤوس هؤلاء الاشخاص » . وفي اليوم التالي شاهد لوحات لغويا وفيلساكيز دو برداو . ثم سافرنا الى هافانا . وفي الطائرة حاولنا ان نقرأ بصعوبة بعض الصحف الكوبية ، ثم نمت باضطراب . وحين استيقظت ، لمحت بحراً جديداً كل الجدة ، وجزراً ، ثم الشاطيء وسهلاً أخضر تنتصب فيه أشجار النخيل .

اضطراب الوصول : كان صدغاي ما يزالان يؤلمانني ، واذناي تطنان ، والشمس تلمع فجأة ، وباقات الزهور ، والتهاني ، والاسئلة التي تتدفق (وقد سأل احد الصحفيين سارتر : ما رأيك بالثورة الكوبية ؟ فأجاب : لقد جئت لأعرف ذلك) وهذه الوجوه التي لم نرها من قبل . وحملتنا سيارة على طريق عريضة ، بين النخيل والزهور الضخمة ؛ وشرحت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لنا على الطريق الامكنة والأبنية ، وكنت لا اكاد أسمع ، ولا ارى الا البحر المتوحش عن يساري ؛ كنت نعسة ، وأشعر بالحرّ ، وكانت بي رغبة لأخذ حمام ؛ وهاءنذى جالسة في الطابق الاول ، فوق ساحة من الحجر الرمادي ، تجاه كنيسة جميلة جداً ؛ وقُدّم لي قدح « ديكويري » مثير للشهوة كذلك الذي يصفه سارتر ، وما تزال الأصوات تشرح وتسأل . وقد تضاعف عددها فيما كنا ، بعد هدنة قصيرة ، نتناول الغداء في مطعم يقلّد تقليداً باذخاً خشونة اكواخ البوهيو . لن تمضي أيام حتى أضع أسماء لهذه البسمات ، وسيكون لي من احبه ويحبني ، واكرهه ويكرهني ؛ اما الآن ، فانا لا أميز بين جميع هذه الأفواه التي تسألني عن الرسم التجريدي ، وعن الجزائر ، وعن الادب الملتزم في فرنسا واميركا ، وعن الوجودية ؛ وقد كانت هذه الفوضى تلذني لو كنت متحررة من التعب الهائل الذي يفاقمه اختلاف مواعيد الساعات .

في اليوم التالي ، كان التعب قد كفّ . وبعد مدريد وباريس ، كان الجذل ينفجر كالمعجزة تحت سماء زرقاء ، في عذوبة الليل المعتمة . وقد تحدث سارتر مطولاً في كتابه « عاصفة على السكر »[1] عما جاءت به الثورة للشعب الكوبي . لقد كانت مشاهدة صراع ستة ملايين رجل ضد الاضطهاد والجوع والاكواخ والبطالة والأمية ، وفهم تطوّرات ذلك ، واكتشاف منظوراته — كان ذلك كله تجربة لذيذة . ولم تتخذ المناقشات والزيارات وجلسات الاعلام اية لهجة رسمية ، الا نادراً ؛ وقد أصبح ادلاؤنا ومترجمنا ، اركوشا ، اصدقاء لنا بشكل سريع . وقد تمت رحلتنا مع كاسترو لمدة ثلاثة أيام في ألفة كبيرة ، بعد بضع لحظات من الافراط الرسمي . وقد التقينا معه ، حين دلفنا في حرارة الجماهير ، فرحة فقدناها منذ زمن طويل . وقد أحببت المناظر الكوبية البسيطة الواسعة : إن الخضرة الناعمة لحقول قصب السكر تتزاوج مع الخضرة العميقة للنخيل الذي يتوّج جذوعاً عالية

---

(١) وقد ترجمته الى العربية وصدر عن دار الآداب (هـ. م)

من فضّة ملساء ؛ ومما ادهشني ان ارى بقراً يرعى عند أقدام هذا الشجر الذي كانت صورته مرتبطة عندي بصورة الصحراء . وأحببت سنتياغو ذات الجموع الزنجية وترينداد المضمخة بماضيها الاستعماري ، والنضرة مع ذلك بعبير زهورها . وأحببت العاصمة هافانا . وقد كانت منطقة « الفيدادو » التي نزلنا فيها تملك جميع اغراءات مدينة رأسمالية غنية : جادات واسعة ، سيارات اميركية طويلة ، ناطحات سحاب ، وفي المساء أعراس النيون . وكانت نوافذ غرفتي تشرف على حديقة كانت تنحدر نحو البحر : وكنت ألمح من بعيد احياء هافانا القديمة التي كانت قمتها تهاجمها شفرات عالية . وفي الصباح ، كنت أشرب مع سارتر قهوة شديدة السواد ، تكاد تكون مرّة ، وآكل الاناناس اللذيذ الكثير العصير ، وفيما كان سارتر ينصرف لكتابة مقدمة لكتاب « عدن العربية » من تأليف « نيزان » ، وكانت دار نشر ماسبرو تود طبع هذا الكتاب من جديد ، كنت اترك طراوة الهواء المكيّف ، وأذهب لاقرأ في الحديقة وانا أشم رائحة العشب والمحيط ؛ وفي المساء ، حين كنت أخرج من باحة الفندق المكيفة ، كنت اتلقى في وجهي لزوجة الليل برائحتها العشبية والزهرية . وكان سارتر يعرف قليلاً احياء هافانا القديمة ؛ وقد أرشدني الى شوارع متراكمة رديئة ، وأطلعني على قناطرها ، وساعاتها التي كان الأشخاص يجلسون في مقاهيها وهم يحلمون . وكنا ندخل احد المطاعم ، وحدنا او مع اصدقاء . وكان وابل من الرطوبة يسقط دائماً على كتفيّ . وكنا غالباً ما نجلس في « السيروس » الذي كان يتردد اليه همنغواي . وقد تعشينا ذات ليلة في مشرب في « الهال » ، فتناولنا حساء صينياً مع الشاعر « باراغانيو » والمصور « كوردا » وزوجته التي كانت عارضة ازياء ومناضلة في المقاومة ، وسط رائحة قوية من الخضار والسمك . وفي كل يوم ، كانت تظهر في الصحف صور لسارتر في صحبة غيفارا ، وجيمنز ، وكاسترو ؛ وحين تحدّث في التلفزيون ، كان جميع الناس يعرفونه . وكان سائقو السيارات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يصيحون لدى مرورنا « هذا سارترا » . وكان رجال ونساء يستوقفونه ؛ كانوا من قبل يجهلون كل شيء عنه ، وحتى اسمه ؛ وكانت عواطفهم تتجه الى الرجل الذي كان كاسترو يصفه بأنه صديقه ، وكانت تجعلنا نلمس لمس اليد شعبيته .

كان ذلك في عيد الكرنفال . وكانت فرق الهواة تقدّم أيام الأحد ، في الشوارع ، حفلات تكون قد انفقت العام كله في إعدادها : ملابس خاصة ، موسيقى ، تمثيل ، رقص ، العاب بهلوانية ؛ وكان ذوق هؤلاء الهواة واختراعاتهم تثير إعجابنا ؛ وقد رقص بعض الزنوج رقصتي باليه تمثلان حفلات قروية سحرية صاخبة ؛ وكانت الرقصة الثانية تبدو لاول وهلة وكأنها مخصصة للنساء : ذلك ان الرجال كانوا هم ايضاً متبرجين يلبسون شعوراً مستعارة وتنانير ملوّنة ودانتيلا وغلالات جدّاتهم القدامى ؛ وقد شاركنا حتى الصباح ، وكان معنا أصدقاء ، بجنون جماهير كانت ما تزال سكرى بانتصارها . وقد شاهدنا كذلك على المسرح حفلات زنجية ، شديدة القرب من الحفلات الافريقية ، بالرغم من بعض التأثيرات الكاثوليكية ؛ وكان المدير قد دعا عدة أخويات لتقديم طقوسها على المسرح ، ولم تكن تقدم تمثيليات ، بل كانت تعيش حقاً حياتها الدينية . وكان كثير من الحضور مندهشين لكونهم قد وجب عليهم ان يدفعوا اجرة مقاعدهم لحضور طقوس مألوفة ؛ وكان البعض مغتاظين لكونهم لم يُختاروا ، وكانوا ينتقدون الممثلين ، فيتمتمون : انني امثل خيراً منهم . وحين أسدل الستار ، رأينا في الكواليس الراقصات وهن لم يكدن يخرجن من رعشة النشوة . وكان هذا الانتقال من اللعبة الطقوسية الى التمثيل يشير الى احترام الكوبيين لتقاليدهم الافريقية والى رغبتهم في انتزاعها من سريتها ، في وقت واحد .

كنا يوم ٥ آذار نتناول الغداء في الهواء الطلق في مزرعة برية ، في ضواحي هافانا ، مع « اولتوسكي » وزير المواصلات الشاب واثنين من زملائـــه حين سمعنا ضجة كبيرة ؛ ودُعي وزير الداخلية الى التلفون ؛

لقد نُسفت الباخرة « لاكوبر » ، وقُتل عدد من عمال احواض السفن ، وكلهم زنوج . وقد حضرنا الجنازة في يوم كان الضباب منتشراً فيه ، واقفين في السرادق الذي كان كاسترو موجوداً فيه . وقد مرّت النعوش ، وكلّ تتبعه اسرة باكية : كان ذلك أشبه ما يكون بسيارات الكرنفال والممثلين ، وقد تحوّلوا الى أناس في حداد . ثم تكلم كاسترو طوال ساعتين . وكان خمسمئة الف نسمة يستمعون ، متوتري الأعصاب ، مقتنعين ، وهم على حق ، ان عملية التخريب معزّوة الى اميركا ، او الى اميركيين .

وألغيت حفلات الأحد ومواكبه ، وفُتحت حملة لجمع المال الذي يتيح شراء الاسلحة . وعلى البرادو — هذه السطيحة الطويلة العريضة المظللة عند حدود الاحياء القديمة من المدينة — كانت نساء صبيات يبعن عصير الفاكهة والحلويات لصالح الدولة ؛ وكانت نجوم وكواكب يرقصن أو يغنين في الساحات ويجمعن المال ؛ وكانت فتيات جميلات بلباس الكرنفال التنكري ، يمددن الى المارة صناديقهن .

وكان سارتر يقول لي : « إنه شهر عسل الثورة » . لم يكن ثمة جهاز ، ولا بيروقراطية ، وانما كان ثمة اتصال مباشر بين القادة والشعب ، وتدويم آمال غير منتظمة بعض الشيء . إن هذا لن يدوم ابداً ، ولكنه كان مشجعاً . لقد كنّا للمرة الاولى في حياتنا شهود سعادة اكتُسبت بالعنف ؛ ولم تكن تجاربنا السابقة ، ولاسيما حرب الجزائر ، قد كشفتها لنا الا بوجهها السلبيّ : رفض المضطَهِد . اما هنا ، فان « العصاة » ، والشعب الذي كان قد دعمهم ، ورجال الحرس الذي ربما دُعي قريباً الى القتال ، إنهم جميعاً كانوا يشعون جذلاً . وعدت أعيش فرحةً كنت قد حسبت انها زالت الى الابد . ولكن عاكستها انباء وردت من فرنسا ؛ فقد ارسل لنا لانزمان رسائل محشوة بقصاصات الصحف : كانت الشرطة قد اعتقلت عدة اعضاء من شبكة كان يديرها فرنسيس جانسون ، وانه هو نجا من الاعتقال . وكانت تعليقات الصحف تثير الاشمئزاز ، وهي تذكر ان رجال الشبكة كانوا مأجورين ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وان نساءها « الباريسيات » ، وقد نشرت « باري بريس » صورهنّ بالصفحة الاولى ، قد أغواهنّ الرجال الجميلون الذين كانت جبهة التحرير قد أرسلتهم . لقد كان مستحيلاً على مواطنيّ ان ينسبوا الى غير المال والجنس اسباب السلوك البشري .

وإذن ، فقد استعددنا ، بلا جذل ، للعودة الى فرنسا . وقد سافرنا حتى نيويورك مع « شاندرلي » الذي كان يمثل الحكومة الموقتة للثورة الجزائرية في الامم المتحدة بصفة مراقب ، وكنا قد التقيناه مرة في الهافانا . كان ممتلئاً ، مرح النفس ، وكان يحمل لاولاده قبعات قروية من القش ، يرتدي هو احداها ضاحكاً .

ولم يكن قد سبق لي ان كنت مع سارتر في نيويورك . وقد هبطنا في الساعة الثانية بعد الظهر ، وكان موعد إقلاعنا الى لندن في الساعة العاشرة ، فكان الوقت قصيراً . وها أن ملحقاً كوبياً يعلمنا انه كان قد نظم لنا في فندق والدورف كوكتيل صحافة في الساعة الرابعة ! وأحسست انني كنت ما أزال بعيدة عن الاستسلام العاقل للانحدار . وصرّح سارتر ان وقتنا لم يكن فارغاً قبل السادسة . ورحنا نعبر المدينة في السيارة ، وعلى اقدامنا . وكان اليوم يوم أحد . وكان الطقس بارداً ، وقد بدت لنا المدينة ، بعد ان رأينا هافانا المبرقشة بسمائها الزرقاء وحشودها المتحمسة ، كئيبة وشبه فقيرة ؛ كان المارّة رديئي اللباس ، وكانوا يبدون ضجرين ؛ وكان ثمة ناطحات سحاب جديدة ذات اناقة جريئة ، ولكن كثيراً من الاحياء كان قد أُعيد بناؤها على طراز مساكننا ذات الايجارات المعتدلة . كان التناقض الذي كان في عام ١٩٤٧ يميزّ البذخ الاميركي عن البؤس الاوروبي قد زال ؛ ولم اكن ارى الولايات المتحدة بعدُ بالنظرة نفسها ؛ صحيح انه كان اشد بلاد الارض ازدهاراً ، ولكنه لم يكن البلد الذي يصنع المستقبل ؛ لم يكن الأشخاص الذين ألتقيهم ينتمون الى طليعة البشرية ، وانما الى مجتمع تصلّب « بالتنظيم » ، وتسمم بالاكاذيب ، وكان ستار الدولارات يقطعه

عن العالم : كانت نيويورك ، كباريس عام ١٩٤٥ ، تبدو لي كبابل ساقطة. وبالطبع ، فان الطريقة التي عبرتها بها ساعدت في اطفائها. كان الوقت قصيراً لايقاظ الماضي ورسم المستقبل. وحين خرجنا من « شيري نذرلند » حيث كنا قد وجدنا ثانية الطعم الحقيقي للمارتيني ، تعرّفت فجأة « سانترال بارك » و « مانهاتن » التي كان المساء ينعش جمالها : ولكن كان الاوان قد آن لنذهب الى فندق والدورف.

وكان الحضور كثيرين : ومنهم « سوفاج » من « الفيغارو » وكان حديثه سيء النية ، وصحفيون فرنسيون واميركيون ، وكذلك ، « والدو فرانك » الشيخ الطريف ، وصديقي هارولد روزنبرغ الذي كان ما يزال يتعاون ، بين الفينة والفينة ، مع « التان مودرن » وآخرون كانوا متعاطفين مع الثورة الكوبية. ولكي يكون المرء ، في الولايات المتحدة ، يسارياً حقاً ، فانه بحاجة الى شخصية قوية ومستقلة ومنفتحة : وقد كان لي اندفاع صداقة عميقة نحو هؤلاء الاشخاص واولئك الناس المتوحدين ، الشجعان.

* * *

كنت بعد عام ١٩٥١ قد واصلت التراسل مع الغرين. وكنت أحدّثه عن باريس وعن حياتي ؛ وكان يقول لي إن زواجه الثاني مع « ا » لم يكن افضل سيراً من الاول ، وان اميركا كانت تتغير ، وانه لم يكن بعدُ يشعر انه في منزله. ومع مرور الأيام ، قام الصمت بيننا. وكنت بين الحين والحين اسمع عنه بعض الاصداء ، وكلها عجيبة. كان قد مزّق عقوداً اسطورية ، ووقع اتفاقات تجرّ الى الكارثة ، وخسر ثروات في البوكر ؛ وذات صباح شتائي ، سقط في حفرة ماء لم يطفُ منها الا رأسه ، وكاد ان يموت واقفاً ، وهو مجلّد ؛ وكان قد اعطى موعد لقاء لوكيلة ادبية في ماخور في فيلادلفيا شبّ فيه حريق ، ففرّ من النافذة ؛ وبعد ذلك بقليل ، اطلقت الوكيلة النار على رأسها منتحرة. وفي عام ١٩٥٦ ، ظهرت ترجمة « المثقفون » في الولايات المتحدة ، في الوقت نفسه الذي ظهرت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيه روايته ؛ وقد امطره الصحفيون بالاسئلة حولي ، فردّهم بخشونة كانت تبدو وكأنها مصوّبة إليّ : فلم اهتمّ لذلك ، لقد كنت اعرف نوبات مزاجه . ومع ذلك ، فحين قال لي لانزمان ، ذات مساء : « ان الغرين سيحدثك عما قليل من شيكاغو : لقد ارسل خبراً مسبقاً بذلك » فهمت انه كان يريد ان يبرّر موقفه . وكنت استشعر الضيق لدى تفكيري باني سأسمع هذا الصوت الذي سيأتي من ذلك المكان البعيد : خمسة أعوام ، واكثر من ستة آلاف كيلومتر ، ولكنه لم يكلمني . لقد خاف هو ايضاً ، وارسلت له ذات يوم رسالة ، فأجاب ، واستأنفنا المراسلة ، في فترات متباعدة . وكان قد طلّق زوجته الثانية ، وكان يعيش من جديد في شيكاغو ، في احدى الشقق : كانت بنايات ضخمة ترتفع الآن مكان بيته القديم في « وابانسيان » . وكان يأمل بغموض ان يحصل على جواز سفر ويجيء الى باريس . وقد كتبت له مرة « نعم ، احبّ ان أراك ثانية قبل ان اموت » وحين قرأ هذه الكلمات ، فكر فجأة بأننا لن نعيش بعدُ فترةً طويلة . وفي تشرين الثاني ١٩٥٩ ، أبلغتني رسالةٌ منه أنه قد استردّ اخيراً حرية السفر ، وانه سيبحر الى لندن في مطلع آذار ، وبعد عشرة أيام ، يهبط في مطار اورلي . وأجبته بأني لن اكون في باريس قبل العشرين من آذار ، ولكن كان بوسعه ان ينزل عندي .

وكنت منفعلة وقلقة بعض الشيء حين طرقت باب بيتي ، فلم يتحرّك شيء ؛ وكنت مع ذلك قد أبرقت . وعدت اقرع الجرس . وفتح الغرين ، فسألني مشدوهاً : « أهذه أنت ؟ » كان بوست قد استقبله مع اولغا في المطار ، فأكدّ له بوست ، وكان يراه كثيراً ، ان اية طائرة من نيويورك لن تصل قبل يوم الغد . وكانت عينا الغرين عاريتين : كان قد استبدل بنظارتيه زجاجتي اتصال لم يحسن استعمالهما فقرّر ان باستطاعته ان يستغني عنهما ؛ ولولا ذلك ،لم يبدُ لي انه قد تغير قطّ ؛ ولكني حين عُدت الى بعض الصور القديمة لاحظت انه كان قد شاخ . في اللحظة الاولى ، كل ما رأيته ،

سواء كان في الخمسين او الاربعين او الثلاثين ، هو انه هو . وقال لي فيما بعد ، انه كان هو ايضاً بحاجة الى بضعة أيام ليكتشف ان الزمن كان قد طبعني بميسمه . ولم يفاجئنا ان نلتقي مرة واحدة ، بعد سنوات من الفراق وبعد صيفي ١٩٥٠ و ٥١ المعكرين ، القريبين من اجمل أيام ٤٩ .

كان الغرين قد وصل من دوبلن ؛ وقد روى لي قصة اقامته في قوارب ايرلندا التجارية ، بين معاقري الخمر الملهمين ؛ اما « براندان بيهان » الذي كان الغرين يحب كتبه حباً عظيماً ، فقد كان غارقاً في تبلّد اثيلي ، فلم يمنحه الا بعض التمتمات . وحدثني عن شيكاغو وعن اصدقائه القدامى ، والجدد ، الذين كانوا هم ايضاً يتعاطون المخدرات واللصوصية ويتجارون بالنساء او يعيّشونهن ؛ وأما رجال الخير ، فكان اقل احتمالاً لعجرفتهم من ذي قبل ؛ كان المجتمع على حق دائماً ، فان ضحاياه كانوا يعاملون على انهم مذنبون : وكان ذلك واحداً من التغيرّات التي كان الغرين لا يغفرها لاميركا . كان الغضب يوقظه كل صباح : « لقد خدعوني ، لقد جانوني » . كانوا قد وعدوه بعالم ، فاذا به يجد نفسه في عالمٍ آخر كان يناقض جميع معتقداته وكل أمانيه . ولم يكن غضبه يزول حتى المساء . وقال لي : « في الماضي ، كنت اعيش في اميركا . اما الآن ، فأعيش على ارض يحتلها الاميركيون . »

ومع ذلك ، فان ذلك البلد الذي كان يُحس نفسه منفياً فيه — كما احسّ نفسي في بلـــدي — كان ملتصقاً بجـــلده ؛ وكانت شيكاغو تُبعث في شقتي ؛ كان يرتدي اللباس الذي يرتديه هناك : بنطالاً من المخمل المضلع ، وسترات مستعملة ، وقبعة في الشارع ؛ وكان قد وضع على احد المكاتب آلة الكتابة الكهربائية التي تخصه ورزماً من الورق الأصفر ؛ وكان الاثاث والارض مزروعة بعلب الكونسروة والكتب والجرائد الاميركية . وكنت اقرأ كل صباح « نيويورك هيرالد » ، ونستمع الى الاسطوانات التي جلبها معه : بيسي سميث ، شارلي باركر ، ماهاليا جاكسون ، بيغ برونزي .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وغالباً ما كان بعض الاميركيين الذين يصلون باريس كسياح يدقون جرس بابي : فكان يأخذهم في نزهات ، ويريهم متحف غريفان . ولم أر إلاّ صديقه « ستود » الذي كان يعمل لراديو شيكاغو ؛ وأعطيته مقابلةً عن كوبا تلقّى بعد اذاعتها عدة رسائل حارّة . وارتبط الغرين مع بعض مواطنيه الذين كانوا يسكنون البناية ؛ وبواسطتهم التقى آخرين ، بينهم جيمس جونس ، كانوا يشكلون في باريس مستعمرة مغلقة ، مفصولة عن فرنسا التي لم يكونوا يتحدثون لغتها ، وعن الولايات المتحدة التي كانوا قد تركوها ، غير مكترثين بالسياسة ، ولكنهم مطبوعون باصولهم . وكان هو يؤثر ألوان غضبه اليومية على انبتات الجذور هذا .

كنت أعيش منعزلة اكثر مما كنت عام ٤٩ ، وكان عدد الاصدقاء الذين وددت ان أريه اياهم اقلّ من الماضي . وقد التقى ببوست وسارتر وميشيل ؛ وعرّفته على لانزمان ، ومونيك لانج التي كانت قد اعتادت على ان تنزّه في باريس المؤلفين الاجانب الذين يتعاملون مع دار غاليمار ، وصديقها جوان غويتسولو . وكان يُدهش زوّارنا حين يضيء ، بواسطة بطارية يخفيها في جيبه ، لمبة صغيرة حمراء معلقة وسط عقدة عنقه .

وقد قمت في الايام الاولى خاصة بنزهات طويلة معه على الاقدام ، عبر باريس . وحججنا الى شارع دولا بوشوري : ولم تكن قد بقيت لي ادنى صلة بالبيت القديم الذي كان على وشك ان يُهدم . وكان جاك لانزمان قد تركه ، وكان بوست واولغا قد انتقلا منه ، وكذلك الخياطة وزوجها ؛ وكانت بيّي ستيرن قد ماتت ، والبوابة القصيرة قد قُتلت في حادث سيارة . ولم يكن باقياً من ماضيّ الا « نورا ستيرن » وكلابها . وعدنا الى سوق الأشياء القديمة ، و « متحف الانسان » . وأخذنا بوست في نزهة بالسيارة . وكان الغرين قد استعار ، ويا للأسف ، آلة تصوير ، وكان يستعملها ، كالمرة السابقة ، بلا حياء . كان شارع « سانت دنيس » بمومساته يجذبه : وقد صوّر من نافذة السيارة جماعة كانت واقفة على

عتبة فندق ؛ وحين أضاء الضوء الأحمر ، توقفت السيارة : فأخذت النساء يشتمنه ، وحسبت انهنّ سيبصقن في وجهه . وعدت اتردد الى المطاعم . وكان الغرين يحبّ مطعم « اكفافيت » في شارع سانت بونوا ، بسبب الزجاجات المعلقة في لوح ثلج كان يسيل منه خمر صاف ؛ وكان يلذّه ان يجلس في « البوابات » حيث كانوا يقدمون « فراخاً ساحرة » واناناساً ملتهباً ، على صوت موسيقى افريقية . وكنا نقصد « الهال » لنأكل حساء بالبصل وفي مطاعم اخرى لحماً بالخمر . وذات مساء ، تعشينا على قارب ونحن ننظر الى الضفاف تنزلق تحت عيوننا ، بمتشرّديها وعشاقها .

كان قد أُتخم بالافلام الاميركية ، ولم يكن يعرف الفرنسية : فقصدنا السينما مرات قليلة . وقد صحبته لمشاهدة « الثقب » لبيكر ، واثقة من ان هذه القصة الصامتة التي تصوّر فراراً سوف تهمه ؛ وقد أحبّ اكثر مني « اميركا الوقحة » لريشنباك ، ربما لأنه لم يفهم التعليق الذي أفسد عليّ الصور. وقد استولى علينا « فيلم عودي يا افريقيا » ، بالرغم من بعض اخطائه الخرقاء ؛ كان فيلماً من افلام المناسبة ؛ وكانت الاحكام العرفية قد اعلنت في افريقيا الجنوبية على اثر الاضطرابات التي ادت رسمياً الى مقتل ٥٤ رجلاً وجرح ١٩٥ من السكان الزنوج .

وقد تفننت في اختراع النزهات التي يمكن الغرين ان يستمتع بها : وقد ابتهجت أنا نفسي ان اجدني أتسكع كأجنبية عبر ليالي باريس . واستمعنا في « الاولمبيا » الى « اماليارودريغيز » التي كانت جذابة جداً بثوبها الاسود والتي كانت تفرض على الجمهور بسحر صوتها حفلة اناشيد من الفلامنكو والغارو . واستمعنا في « الكاتالان » ونحن نشرب السنغريبا الواناً اخرى من الفلامنكو ورأينا راقصين ممتازين . ولما كان الغرين يحب الكرز في العرق والاغاني الفرنسية القديمة ، فقد قصدنا « لابان اجيل » بالرغم من ان الحضور والاغاني كانت منحطة ؛ وكذلك قصدنا « الأباي » حيث كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ألحان فرنسية تتناوب مع الفولكلور الاميركي . وفي « الاكلوز » رأيت بعد غياب سنوات « هارو » الذي كان يقدّم مونتاجات جديدة ناجحة جداً . وصحبنا اولغا وبوست الى « الكريزي هورس صالون » . وقد وجد الغرين فن السّتربتيز اشدّ رهافة ودقة مما هو في شيكاغو .

وكانت الامسية التي خلدتها الذاكرة اكثر من سواها تلك التي نظمتها مونيك لانج مع غويتسولو . فبعد ان تناولنا العشاء في « الباوباب » اقترحت مونيك ان نشرب كأساً في « الفياكر » . لاشك اني كنت أعيش على هامش العصر ، لأني شُدهت قليلاً بهذه الفوضى من الصبية والشبان الذين كانوا يثرثرون ويتبادلون التدليل ... وكنا نكاد نختنق ، وما كادت كؤوسنا تفرغ حتى لُذنا بباب الخروج . وقد أشار إليّ مراهق كانت مونيك تعرفه ، فقال : « ماذا تراها انت تفعل هنا ؟ » — ولكن ذلك يهمها — عجباً ! انها تؤيدنا ؟ » هكذا انهى كلامه ، مسروراً . وكان الغرين اشد انشداهاً مني .

وفي مقهى « ايل ايلوي » أضاع عقله تماماً : كان ثمة رجال ونساء يرتدون لباس النساء . ورجال ونساء يرتدون أثواب الرجال ؛ فلم يدر بعدُ كيف يميزّ الجنسين .

وحصلت مونيك له على دعوة الى فورمانتور حيث كان يجتمع ناشرون وكتاب من مختلف البلدان لتأسيس جائزة عالمية . وقد تركته يذهب وحده ، وبعد عشرة أيام استقللت الطائرة الى مدريد حيث كان ينتظرني مع غويتيسولو . وكان ذلك في مطلع أيار ، وكان الطقس رائعاً . وقد أصاب الغرين تسلية كبيرة لأنه التقى اناساً من جميع الأجناس . كانت برشلونة قد اختطفت قلبه ؛ وقد قضى ثلاثة أيام وهو يرقى السطوح ويروح ويجيء في « الباريو ستينو » وفي المرفأ . وفي هذه الاثناء كان غويتيسولو في مدريد يرهق نفسه بالمساعي لإطلاق سراح أخيه لويس الذي كان قد سُجن منذ أسابيع ، على اثر رحلة الى تشيكوسلوفاكيا ، وكان مريضاً جداً . وفي حانة ليلية

ذات جدران مطلية ، قضينا أمسية هامة مع بعض المثقفين الشباب الذين حدثونا عن جهود المعارضة ومصاعبها ؛ وقد ذكروا لي ان كتب سارتر كانت ممنوعة ، ولكن كتب كامو كانت معروضة في واجهات المكتبات .

وقد ضجر الغرين من مدريد ، فطرت معه الى اشبيلية ؛ وكانت اشجار مزدهرة ، ذات لون بنفسجي فاقع ، تزيل جفاف شوارعها . وفي تريانا ، داخل مراقص هزيلة ، تحت سقوف مزدانة بدوائر من الورق ، استمعنا عدة امسيات الى قصص اغاني الفلامنكو . وفي ملقه التقينا غويتيسولو وصديقه ف ، وهو مصوّر ، وقد نقلنا بالسيارة الى « توريس مولينوس » . وكان غويتيسولو يعرف كثيراً من الحكايات عن اللوطيين وسيدات المجتمع اللواتي يملأن المحطة في الصيف . وقد نمنا في مرفأ صغير كانت بيوته المبيضّة بالكلس والمغطاة بالقرميد منضّدة فوق رابية ؛ وقال لنا غويتيسولو حين كنا نتنزه هناك صباحاً : « بمقدار ما يكون الداخل خـَرِباً ، يزداد طلاء الجدران الخارجية بالكلس الابيض » . وبالفعل ، فقد كنا نلتقي في الشوارع اطفالاً عراة ، ونلمح منازل قذرة في الداخل . وفي أعلى القرية ، التقط الغرين صوراً ، وتمتمت امرأة : « أجل ، إن هذا في نظركم متميز .. اما الذي يهبط ويصعد عدة مرات في النهار ... » وكانت جميع عيون المياه موجودة عند اسفل التل . وحين عزم الغرين في اليوم التالي على ان يأخذ صوراً لحي البيوت المحفورة في الصخور في « الميريا » ، لم أصحبه ؛ وذهب غويتيسولو من جهة ليشاهد امكنة ويلتقي أشخاصاً ، فصعدت مع ف. الى أعلى الكابازا ، وقد ادهشني أن أهمل مرتين ، وانا اعبر المدينة ، هذه الحدائق والسطائح بأزهارها العنيفة ، وصبارها الشائك المكسور الزوايا . وكان ف. يلتقط الصور هو أيضاً ، ولكن بواسطة تيليوبجكتيف ، الروابي المثقوبة والسكان البائسين الذين كانوا يروحون ويجيئون في الممرات العمودية تقريباً . وقرأت « الخلية » من تأليف « سيلا » ، وهو كتاب جيد جداً ، في مرح الشمس الصباحية والصداقات . ثم كانت طريق غرناطة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرائعة ، عبر اراضٍ حمراء ورمادية ملآى بالبثور . وقضيت ثلاثة أيام في الحمراء مع الغرين . وكانت اسبانيا تجتذب مشاعره اكثر من ايطاليا .

* * *

كان المفروض ان تستمر اقامة الغرين خمسة أشهر او ستة ، ولم اكن اريد ان انقطع هذه المدة الطويلة عن حياتي العادية . وقد ظللت أشتغل في شقتي صباحاً ، وبعد الظهر في منزل سارتر الذي كنت أقضي معه عدة امسيات كل اسبوع . وكان لدى الغرين مقالات يكتبها . ولم يكن يعوزه الاصدقاء ، وكان يحب الوحدة : وكان هذا التدبير يناسبه .

وقد حضرنا انا وسارتر ، بعد أيام من عودتنا من كوبا ، حفلة الاستقبال التي اقامها خروتشوف في السفارة السوفياتية . وأيّ قنّ ! كانت السيدات الديغوليات يرتدين قبعات مدهشة ذات شرائط وريش ودانتيل وزهور ، واثواباً عارية ، مغطاة بالبهارج ، في صناعة مكلفة ؛ ومن غير تحيز ، كانت التقدميات في مظهر أفضل ، حاسرات الرأس ، يرتدين تايورات هادئة . اما نينا خروتشوف ، فقد كانت بسمتها الوديعة وثوبها الأسود يتنافيان حتى مع فكرة الأناقة . وخطب « ديبريه » . وكان الناس يتزاحمون ليلمحوا خروتشوف : وقد مرّ بين الحشد وصافح الأيدي . وكان سارتر قد فوّت اجتماعاً للكتاب والصحفيين كان بامكانه ان يراه فيه رؤية اطول . وكان المفروض ان يلتقي خروتشيف عما قريب بايزنهاور : فكانت الحمائم تطير فوق كؤوس الشمبانيا [1] .

صدر « نقد العقل الديالكتي » : وقد هاجمه اليمين والشيوعيون وعلماء خصوصيات الشعوب ، ولكن الفلاسفة رحبوا به . وقد استقبل كتاب « عدن العربية » لنيزان ومقدمة سارتر له استقبالاً طيباً . وفي هافانا ، كان سارتر قد عانى انزعاجاً وهو يكتب هذه المقدمة ، في حين كانت

---

(١) بعد ذلك بقليل ادى حادث الطائرة U2 الى فشل مؤتمر الذروة — وربما كان لخروتشيف ايضاً اسباب اخرى دفعته لرفضه .

اشياء اخرى كثيرة تشغله ؛ ولكن مقارنة شبابه الخاص مع شباب كوبيي اليوم كانت قد خدمته كثيراً ، وقد أثّرت مقدمته بصورة خاصة على الفتيات والشباب الذين في العشرين من عمرهم . كانت الشبيبة تحبها كثيراً ؛ وقد لمست ذلك مرة اخرى مساء تحدث في السوربون عن المسرح . فقد أثار من التصفيق مثلما يثير قائد فرقة موسيقية ، وعند خروجه واكبه الطلاب بعدد كبير حتّى بلغوا به سيارة عامة ؛ وقد كانوا معجبين ، الى جانب إعجابهم بالكاتب ، بالرجل وبمواقفه السياسية . وكان قد بدأ ، وهو المعتاد على الشمول والاحاطة ، كتاباً ضخماً عن كوبا كان يتجاوز حدود الريبورتاج الذي كان قد اقترحه على « فرانس — سوار » . وقد ساعده لانزمان على ان يقتطع منه مقالات . وواصل عمله هذا حتّى سفرنا الى البرازيل .

لدى عودتي من اسبانيا سلمت غاليمار كتابي الذي لم اكن قد عثرت له على عنوان بعد ، والذي نشرت فصولاً اولى منه في « التان مودرن » تحت عنوان « تتمة » وهو قليل التعريض للخطر . وكنت اريد ان أكمله ، فقصدت دارالكتب الوطنية لانعش ذكرياتي لأعوام ٤٤ — ٤٨ . وكنت قد رويت هذه المرحلة في « المثقفون » : وكنت افكر ان المرء انما يستخرج مغزى تجربة من التجارب اوضح استخراج ، حين يدفع بها الى الخيال . ولكني كنت آسف ان تخفق الرواية في ابراز جانب الصدفة فيها : فان التقليدات التي يمكن للرواية ان تبرزها منها سرعان ما تستولي عليها الضرورة . اما في السيرة الذاتية ، فان الأحداث ، على عكس ذلك ، تبرز في مجانيتها ، ومصادفاتها ، واختلاطاتها العجيبة احياناً ، كما وقعت تماماً : وهذه الامانة أشدّ إفهاماً من أي تحوير بارع كيف تحدث الأشياء حقاً للناس . على أن الخطر يكمن في ان القارىء ، عبر هذا التدفق الذي لا يضبطه شيء ، لا يميز اية صورة واضحة ، وانما يرى خليطاً فقط . وكما انه يستحيل على العالم الفيزيائي ان يعرّف في وقت واحد موضع جُسيم وطول الموجة المرتبط بها ، فكذلك الكاتب لا يملك ان يصوّر في وقت واحد احداث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حياة ما ومعناها . وليس احد هذين المظهرين من مظاهر الواقع حقيقياً اكثر من الآخر . وإذن فان « المثقفون » لم يكن يعفيني من ان اتابع هذه المذكرات التي كان لابدّ لها في الحقيقة من ان تمتد الى ابعد من هذا كثيراً .

وكنت مهتمة منذ وقت بعيد بجهود الدكتورة « دايل هاليه » لاشاعة استعمال موانع الحمل في فرنسا . ولما كنت قد تلقيت كثيراً من الاعترافات ، فقد كنت اعرف مآسي الحمل اللاإرادي والإجهاض . وكانت احدى المراسلات قد كتبت لي : « إن الحرية ، بالنسبة للمرأه ، تبدأ في البطن » وكنت موافقة ، وكان موقف الشيوعيين قد غاظني حين بدأت الدكتورة وايل هاليه وديرغوي وكوليت اودري وآخرون ، منذ اربعة أعوام ، حملة لمراقبة الولادات وضبطها . فقد اتّهمهم توريز بالمالتوسية : فقد كان المقصود بتلك الحركة ، في رأي الشيوعيين ، إضعاف البروليتاريا بحرمانها من الاولاد . وحاول وفد من النساء التناقش مع زوجة توريز ، جانيت فيرمرش ؛ وكانت كوليت اودري ما تزال متأثرة حين روت لي تفاصيل المقابلة . فلقد وجدت جانيت فيرمرش ، لتذكّر الوفد بجمال الحبل ، لهجة يجدر ببيتان ان يتبناها : « اتريدون نزع صفة الشاعرية عن الحب ؟! » وقد اضافت ، بعد ذلك ، حين استعادت حسها العملي : « تعرفون ان العمال الشبان يفعلون ذلك في الممرات ، بين بابين ... » وبالفعل ، فان عدم استعمال موانع الحبل انما يقود الى الاجهاض نساءً متزوجات في الغالب . وكان الشيوعيون يتحدثون ، بتفاؤلية تذكرنا بتفاؤلية السيد لويس ارمان اليوم ، عن الازدهار الذي يمكن لفرنسا ان تعرفه والذي سيمكنها من ان تطعم سبعين مليون نسمة : اما مصائب عاملات اليوم ، فلم تكن موجودة . وقد كتبت مقدمة قصيرة لكتاب السيدة وايل هاليه عن « التصميم العائلي » ومقدمة اخرى لكتاب : « الخوف الاكبر من الحب » وحين صدر هذا الكتاب ، حضرت المؤتمر الصحفي الذي عقدته المؤلفة في مكاتب دار جوليار الجديدة . وكان ثمة زهاء مئة شخص : من علماء النفس

التحليلي والاطباء والاختصاصيين المشهود لهم بالقلب البشري . وشرحت السيدة وايل هاليه ، وكانت شقراء نضرة ، كأنها عذراء ، ترتدي ثوباً ابيض ، فوائد مانع الحبل النسائي ؛ وقد سألت بعض النساء الخمسينيات ، في قلق ، ألا يضرّ استعماله بالرومانتيكية الغرامية . وكانت المفردات المستعملة بناءة جداً . لم يكن الحديث عن « رقابة الولادة » وانما عن الأمومة السعيدة ، ولا عن منع الحمل ، وانما عن تحسين الحياة.

وفي نهاية نيسان ، دعا فرنسيس جانسون في باريس مراسلي أهمّ الصحف الاجنبية ؛ وكان بين الحضور جورج ارنو الذي نشر تقريراً عن المؤتمر في « باري – بريس » ؛ ولم تُزعج الجريدة ، ولكن اوقف ارنو يوم ٢٧ نيسان بتهمة « عدم الكشف عن المشاغبين » . في حين ان الكابتن شاربونييه كان يتلقى وسام جوقة الشرف ، بالرغم من ان لجنة « اودين » كانت قد اتهمته في الدعوى التي اقامتها في « ليل » ضد جريدة « لافوادو نور » . وقد كانوا يهيئون في الجزائر مع محاكمة « أليغ » محاكمة اودين « الفارّ » . وفي تلك الفترة ، هيأت السلطات اقامة مأجورين مسلمين في الدرة الثالثة عشرة : الحركي ؛ وقد التقيت كثيراً ، في اثناء نزهاتي مع الغرين ، بعض هؤلاء الرجال الذين يرتدون اللباس الأزرق والذين استؤجروا ليخونوا اخوتهم .

وذات صباح من أواخر ايار ، تلفنت لي جيزيل حليمي وطلبت مني موعداً للقاء مستعجل : فالتقيتها على سطيحة « الاورينتال » بجادة اورليان . وكانت عائدة من مدينة الجزائر حيث ذهبت لتدافع يوم ١٨ ايار عن احدى لجزائريات . وقد سمح لها بأن تقيم في العاصمة ابتداء من يوم ١٦ ايار فقط ، ولكنها استطاعت ان تحصل على تأجيل الدعوى التي تحدّدت الآن في ١٧ حزيران . وكانت الفتاة الجزائرية قد قالت لها بأنها كانت قد عُذبت ؛ كانت هزيلة ، شاحبة ، تحمل آثار عدة جروح وحروق ، وتذكر اسماء شهود . وكانت جيزيل حليمي قد شجعتها على ان تقدم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شكوى وان تطلب فتح تحقيق كان يتطلب تأجيلاً جديداً ؛ وسألتني جيزيل : هل أنا راغبة في كتابة مقال اطالب فيه بهذه المهلة ؟ نعم ، بكل تأكيد وقد كتبت مقالاً اقتصرت فيه على ايراد شكوى جميلة وارسلته الى جريدة « لوموند » . وتلفن لي السيد غوتييه : « اننا ، لو تعلمين ، نملك معلومات سيئة جداً عن جميلة بوباشا ! » هكذا قال لي ، كما لو اني رجوته ان يوظف جميلة بوباشا عنده . واضاف يقول : « إن موظفاً كبيراً يؤكد لنا ، وهو مطلع على الأمور ، ان تهماً خطيرة توجه ضدها » . فقلت له : « إن هذا لا يبرر ان يولجوا لها زجاجة في المكان الذي تعلم. » فقال : « لا ، طبعاً » ورجاني ، في هذا الصدد ، ان استبدل بكلمة « فرج » التي استعملتها جميلة ، كلمة « بطن » ؛ وقال لي : « لنفرض ان مراهقين قرأوا المقال ، فان هناك خطراً ان يسألوا ذويهم بعض التفسيرات ... » وتساءلت بيني وبين نفسي : الا يمكن ان يكون ثمة سؤال آخر يطرحونه ؟ وقال السيد غوتييه ايضاً : إن « بوف ـ ميري » يجد عبارتي « كانت جميلة عذراء » صادمة ؛ وكان يتمنى كناية اخرى . وقد رفضت . وكان ان طبعوا هذه الكلمات الثلاث بين هلالين .

وتلقيت في جريدة لوموند اربع عشرة رسالة ودية ، وثلاثاً غاضبة ؛ وقد كتبت لي امرأة فرنسية مولودة في الجزائر ومنعزلة في باريس : « الجميع يعرفون ان قصص التعذيب هي قطع طقوسية من ترسانة محامي جبهة التحرير الوطنية ، ولكن اذا اتفق ان كان ثمة في عداد هذه القصص قصص حقيقية ، فان كل ما يمكن ان يُقال ان هذا شكل من اشكال العدالة الفطرية » . وقد وصلتني رسائل اخرى ، ودية ، كان واحد ممن ارسلوها يقول فيها : « لا ، اننا لا نعتاد الفضيحة : ولكننا لا نعلم الحقيقة » وقالت لي مراسلة اخرى ، بلهجة قلقة : « كنا نعتقد ، انا وزوجي ، ان التعذيب ، منذ تولى ديغول الحكم ، قد توقف . » وشكلنا لجنة للدفاع عن جميلة بوباشا ، وارسلت برقيات الى رئيس الجمهورية طالبة تأجيل المحاكمة . وكتبت

فرانسواز ساغان مقالاً في « الاكسبريس » تدعم فيه هذه الحملة . وقد صودر في مدينة الجزائر عدد « لوموند » بسبب مقالي ، وبسبب صفحة عن قضية اودان . وقال لي السيد غوتييه بالتلفون بصوت محمّل بالعتاب : « اربعمئة الف فرنك خسارة كل مرة تصادر فيها الجريدة ! » .

وكان المفروض ان ينعقد يوم ١٢ حزيران في قاعة « الموتيويالتيه » اجتماع « من أجل السلام في الجزائر » ولكنه مُنع . وكان موعد محاكمة جورج ارنو يوم ١٧ حزيران ، وكان سارتر احد الشهود ؛ وقد وصلت في ساعة مبكرة ، وانتظرت مدة طويلة عند باب ثكنة « روبي » مع بيجو ولانزمان وايفلين وزوجة ارنو ؛ وقد قالت لنا إن زوجها كان سعيداً بتلك الاقامة في السجن التي اتاحت له ان يتحدث مع المعتقلين الجزائريين . وجلست في المقاعد الاولى ؛ وكانت القاعة غاصة ؛ قاعة باريسية كان جميع المثقفين قد تواعدوا على اللقاء فيها . وقد لوحظ وجود احد نجوم قضية « لاكاز » ، الدكتور لاكور ، وخطيبته وهي زنجية جميلة جداً كانت سكرتيرة « فيرجيس » . وتكلم ارنو بشكل جيد جداً ، من غير ان يلتمس التأثير ولا المزايدة . واكتفى بعض الشهود بالدفاع عنه على صعيد مهني ؛ ودعم كثيرون ، بمساعدة اسئلة المحامين ، مطالعته ؛ وكانت المحاكمة موجهة ، عبر ارنو ، الى جميع المثقفين ، وقد أضحكنا الناشر « ماسبيرو » حين قدّم نفسه بتحدّ : « انني مثقف ، وأنا افخر بأن اكون مثقفاً ، من اسرة عريقة للمثقفين ، ثلاثة أجيال من المثقفين » وكانت الحرارة مرهقة في تلك القاعة الغاصة بالحضور ، وبعد ان قدّم سارتر شهادته ، خرجت معه . وقد أدين ارنو — وكان هذا في طبيعة الأشياء — ولكن مع وقف التنفيذ . وخرج مساء اليوم نفسه .

وكان صحفي قد أخبرني في اثناء المحاكمة ، ان محاكمة جميلة قد أُجلت : وقد أُبعدت جيزيل حليمي الى مدينة الجزائر من قبل السلطات ، ولم تجروْ المحكمة ، حين عرفت الضجة التي أثارتْها القضية ، على ان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تصدر حكمها على الفتاة بغياب محاميتها. وكان المطلوب الآن ملاحقة المعذبين ، بحيث ان التحقيق سيؤدي آلياً الى صرف النظر عن المحاكمة : وكان ينبغي الحصول من محاكم الجزائر على اسقاط للدعوى كان وزير العدل وحده هو الذي يملك صلاحية طلبه من محكمة التمييز .

وقد ذهب لمقابلته يوم ٢٥ حزيران وفد مؤلف من جيرمين تيون وانيز بوستيل فيناي ، وكلتاهما من المنفيين القدامى، وجيزيل حليمي وأنا. وكانت محادثات « مولان » تبدأ آنذاك ، وبالرغم من وجهة النظر التي كانت تباعد ديغول عن الحكومة الموقتة للثورة الجزائرية ، فان سادة هذا العهد هؤلاء كانوا يعتبرون ان الحرب وفظائعها كانت امراً من الماضي . وعلى هذا النحو فسرت موقف حامل الاختام ؛ كان عصبياً ، متهرباً ، ولم يتحمل حتى مشقة ان يشك في الوقائع التي كنا نحدثه عنها. وقالت جيرمين تيون : « لقد عانت اسرة بوباشا كثيراً » فأجاب بصوت مفاجيء وحزين : « جميع الأسر قد عانت » كما لو انه كان يقرر قدراً محتوماً لم يكن للحكومة يد فيه، ولم يشك في الوان العذاب التي تكبدتها جميلة ، ذلك انه كان قد رأى غيرها ! ولكنه كان يتردد فقط بشأن القرار الواجب اتخاذه. وقد جرؤ على ان يضيف : « سأسأل السيد باتين رأيه. حدثوه. وسأقوم بما ينصحني به : إنه ذو ضمير » ورافقنا الى الباب هو يقول لي بلهجة برمة : « انها فظيعة ، تلك الغنغرينا التي تأتي الينا من النازية. انها تكتسح كل شيء ، وتفسد كل شيء ، ولا ننجح في ستئصالها . إن الاعتقال شيء طبيعي ؛ فليس ثمة شرطة بدونه ؛ اما التعذيب ! انني احاول ان أفهمهم ؛ : إن هناك خطأ ينبغي الا يُتجاوز .. » وهز كتفيه علامة على عجزه ، وردد : « انها غنغرينا ! » ثم استدرك منهياً حديثه : « من حسن الحظ ان ذلك كله سينتهي ! » ولم أشعر بالفخر في أن اشد على يده .

ورافقنا بعد الظهر السيد بوستال ــ فيناي ، فقصدنا مكتب السيد

باتين . وقد روت جيزيل حليمي في كتاب « جميلة بوباشا » هذه المقابلة ، ولكنها كانت أشدّ تأثيراً في نفسي من ان امتنع عن العودة اليها . كان رجلاً أصلع ، ذا عينين دوّارتين ، ونظر غير مستقرّ خلف نظارتيه ، وكان على شفتيه بسمة مترفّعة ومتعبة ، وكان جالساً قبالة مساعده السيد « دامور » الذي لم يتلفظ بثلاث عبارات : كان يعطي رأيه حين كان باتين يتكلم . وقامت جيرمين تيون بالهجوم : فقد عرفت عن كثب عدة حالات من التعذيب ، ولم تؤدّ اية شكوى الى ايّ عقاب ؛ من أجل هذا قررت هذه المرة ان من المستحسن التوجه الى الرأي العام . والتفت باتين إليّ : كنت قد ارتكبت جُنحة حين أذعت شكوى جميلة ؛ وأضاف في عتاب : « ولم توردي الوقائع كما هي تماماً . فالذين فتشوا البيت هم جنود يقودهم نقيب ، وليسوا طغمة من الاوباش » واومأت لي زميلاتي ايماءات تهدئة ، فأدركت انّ من الكسب الاّ اتكلم الا قليلاً . وقد استطرد يقول : « إن جميلتك خلّفت لديّ انطباعاً سيئاً . إنها لا تحبّ فرنسا ... » وحين أخذت جيزيل حليمي تذكر كلمات لوالد جميلة ، وفيها بالرغم من التعذيب ثقة ساذجة بفرنسا ، هزّ كتفيه وقال : « انه جبان وممثل ... » واستطرد يقول : « إن هؤلاء الضباط الذين تهاجمنهم هم لطفاء جداً ... لقد كنت اتغدى منذ أيام مع ملازم صغير .. انه في حالته المدنية مهندس زراعي » قالها في تعطف ، كما لو ان الهندسة الزراعية ترفع الانسان فوق اية شبهة . واضاف وهو ينظر إلي في عتاب : « إن مقالاً كمقالك يحدث لهم مشقة كبيرة » ورددت جيرمين تيون انه لم يتخذ ايّ عقاب بصورة علنية ضد اي عسكري : ومع ذلك فان عدد المدنيين المسلمين المقتولين اكثر ارتفاعاً من عدد الضحايا الاوروبيين بما لا يُقاس . وهنا مدّ يده نحو ركام من الأضابير ، وقال : « أعرف ذلك ، أعرف ذلك ، وكم تمنيت لو يرى المتشككوّن هذه الحركة ، المصالحة بعض الشيء ، التي يقوم بها رئيس لجنة السلامة ! كان انتهاك الأعراض والقتل والتعذيب ، كل ذلك كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مدوّناً هنا ، وكان يقرّ هذا ، ويبدو انه يسأل : ما الذي استطيعه ؟ تصوّروا : إن مدينة الجزائر مدينة كبيرة ؛ والشرطة لا تكفي فيها للمحافظة على النظام ، فيتكفّل بذلك العسكريون : ولكنهم مبتدئون.. انهم يسوقون المتهمين الى المراكز ؛ وفي الليل يعود الضباط الى بيوتهم ؛ واذ ذاك يبقى المعتقلون هنـاك مع طغمة من الاوباش يذهبون غالباً الى أبعد مما ينبغي ... » وكان هذه المرة يصف جنود الفرقة بأنهم اوباش . واغتاظت انيز بوستال – فيناي : « إن الالمان لم يكونوا قط يتركون المعتقلين بين ايدي الجنود : كان ثمة دائماً ضابط . » (والحقيقة أن جلسات التعذيب ، في الجزائر ايضاً ، كان يشرف عليها دائماً ضابط : او عدة ضباط : فهذا ليس افضل) وانزعج ، فانفجر قائلاً : « افهموا : اذا لم يترك مجالٌ صغير للعسكريين ، فانه يستحيل بعد ذلك الخروج في شوارع مدينة الجزائر » فاحتجت جيزيل حليمي قائلة : « انك ، بعبارة اخرى ، تبرّر التعذيب ! » فاضطرب : « لا تقوّليني هذا ! » وقالت انها كانت تجد مما يدعو للاستنكار ألاّ يعطى المحامي حقّ الحضور مع موكله في اثناء التحقيق ؛ فقال ببسمة خائبة : « ولكن اسمعي : لو كان المحامي مطلوباً لما كان ثمة تحقيق على الاطلاق : ذلك ان المتهمين سيُقتلون بهدوء برصاصة في الرأس : فنحن والحالة هذه نحميهم . » وكدت لا أصدّق اذنيّ : لقد كان باتين يعترف في تلقائية بأن ضباطه الاعزاء النظيفين لن يترددوا – ولم يترددوا – في قتل خصوم توشك عدالةٌ عادلة ان تجنّبهم كرههم . وعاد الحديث الى جميلة ، فسأل جيزيل حليمي بلهجة لا تخلو من بطر : « ما الذي قالته لك على الضبط ، عن قضية الزجاجة ؟ » فذكرت له الواقعة ، وهزّ رأسه قائلاً : « هوذاك ! هو ذاك ! » وابتسم برقّة : « خشيت ان يكونوا قد « أجلسوها » على زجاجة ، كما كان يفعل في الهند الصينية مع الفتيات . » (لمن يعود الضمير المجهول إن لم يكن للضباط الاعزاء ذوي الايدي النظيفة ؟) واستطرد يقول « واذ ذاك تُثقب الامعاء وتؤدي الى الموت ... انك تزعمين انها كانت عذراء . ولكننا نملك صوراً عنها ، مأخوذة في غرفتها : وهي تمثلها بين جنديين من جنود جيش

التحرير الوطني ، وهي تحمل رشاشاً » قلنا : « وماذا يعني ذلك ؟ لقد صرّحت دائماً بأنها كانت تناضل في جيش التحرير الوطني ؛ وهذا لا يضع عذريتها موضع الشك ... » فأجاب : « مهما يكن من أمر ، فان هذا ، بالنسبة لفتاة ، امرٌ خطر » ثم أخذ يشكو : « حين استجوبتها في سجنها بمدينة الجزائر ، لم ترد ان تكلمني » قلنا : « طبعاً : إن لها اسباباً وجيهة لأن تحذر الفرنسيين والبوليس » فقال : « انا ؟ انها تعتبرني من البوليس ؟ هل تبدو عليّ هيئة رجال البوليس ؟ » فأجبنا بتأدب : « انك في رأي مسلمة معتقلة لست اكثر ولا اقل من اي فرنسي آخر » قال : « اذا كان الأمر كذلك ، فانه يدعو لليأس : فماذا نجدي ؟ » وبحث نظر السيد باتين عن نظر مساعده : « ماذا نجدي ، يا سيد دامور ؟ » فقالت له جيزيل حليمي : « لقد اقترحت عليك جميلة حين رأيتها للمرة الثانية ان تذهب فتزور مركزي البيار وحسين داي : فلم تذهب لزيارتهما . » قال : « وكيف ! ولكنكم لا تفكرون في الأمر ! إن هذا سيعرضني للطرد ! » وانتفخ السيد باتين بالذعر والحنق « بل انهم سيعتقلونني لو فعلت ... » وتأمل قليلاً : « انكم لا تتصورون ! إن هذه التحقيقات متعبة جداً . وهي تكلفني غالياً . اليس كذلك ، يا سيد دامور ؟ إنهم لا يدفعون لنا جميع نفقاتنا : فندفع من جيوبنا » وكان قد مسّ هنا نقطة حساسة ، بدليل ان السيد دامور انتعش فقال لنا في عتاب : « إن جميلتكم قد كلفتنا خمسة وعشرين الف فرنك . » وأنهى السيد باتين المقابلة بقوله : « على اي حال ! إننا نبلغ اخيراً نهاية جميع هذه المآسي ! » ثم عاد يُدلي ببعض التأملات عن بسيكولوجية جميلة : « انها تظنّ نفسها جان دارك ! » فقالت انيز بوستال فيناي : « في عام ١٩٤٠ ، حين كنا في العشرين من عمرنا ، كان كثيرات منا يعتبرن انفسهن جان دارك » فقال لها باتين : « نعم يا سيدتي ، ولكنك انت ، كنت فرنسية ! » وحين رويت في المساء هذه المقابلة لسارتر وبوست ، كانا مثلي مشدوهين بهذا القدر من الصراحة . وكان لابدّ لاشمئزازنا من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ان يظهر ، لأن باتين قال لفيدال ــ ناكيه : « إن لجنة اودين اقرب الى قلبي من لجنة بوباشا التي لم اتفاهم معها » وبعد ذلك بقليل ، اقترح قضاء مدينة الجزائر بكلمات مبطنة نوعاً من التسوية : ان تقبل جميلة ان يفحصها اختصاصي فيعلن انها مجنونة وغير مسؤولة ؛ ويطلق سراحها ، وفي الوقت نفسه تفقد شكواها كل قيمة . ولكنها رفضت . وفي آخر تموز نقلت الى سجن « فرين » . وكلف قاض من محكمة « كان » بالتحقيق .

فشلت محادثات « مولان » ؛ ولكن الشبان لم يكونوا موافقين على الجمود الذي كانت ميوعة البالغين قد قذفت فيه ، عام ٥٦ ، اخوتهم الكبار . واعترف اتحاد الطلاب الفرنسيين باتحاد الطلاب الجزائريين : فقطع وزير التربية المعونة عنه . وقامت مظاهرة غير عنيفة في ضاحية « فانسين » حيث كان عدد من الجزائريين المعتقلين اعتباطاً ، يتتنون : وكنا نرفض مبدأ المظاهرة ، ولكن كان للطريقة جدواها . كان عدد المتمرّدين يزداد . وقد التقينا ، بعد ظهر أحد الأيام ، في شارع جاكوب ، « روز ماسون » ممزّقة بين القلق والفخر ؛ كان ابنها الكبير « دياغو » قد اوقف في « اناماس » ، فيما كان يُحاول ان يساعد بعض المجندين على اجتياز الحدود ؛ وفي التحقيق ، اعترف بمسؤوليته بصوت مرتفع : كانت له ام اسرائيلية ، وكان منفياً في اثناء طفولته في الولايات المتحدة ، وقد اقسم ألاّ يتعاون ابداً مع النزعة العنصرية . وقد اوقفت كذلك ابنة خاله ، لورانس باتاي ، المتهمة بحيازة اسلحة ، وبأنها نقلت في سيارتها عضواً هاماً من اعضاء جبهة التحرير الوطنية . وفي مجلة « اسبري » كتب « جان لومور » ، وكان مسجوناً ، فعرض الاسباب التي تدعو مسيحياً لكي يتمرّد ويعصى . وصدرت رواية بتوقيع « موريان » وعنوان « الهارب من الجندية » تشرح لماذا كان بعض المجندين المدعوين للخدمة يفضلون النفي على هذه الحرب . وتحت ضغط امثال هؤلاء الشبان ، بادر « بلانشو » و « نادو » وآخرون الى وضع بيان يعترف فيه المفكرون الموقعون بحق التمرّد وعدم الخضوع ؛ وقد

وقعه سارتر مع هيئة تحرير « التان مودرن » بأجمعها . وكان الشيوعيون ينصبون في وجهنا نصّاً للينين مقتطعاً من نص كامل ، ويذهبون فيه الى ان المرء انما يحارب الحرب بالاشتراك فيها ؛ وبالاضافة الى ان هذا النص لم يكن ينطبق على الحروب الاستعمارية ، فان الشيوعيين لم يكونوا قد خلقوا في اي مكان ، لا في الثكنات ولا في الجزائر ، اية حركة تناهض الروح العسكرية . كان سيرفان شرايبر وتوريز ، معاً ، يديناننا باسم « حركة الجموع » : ولكن الجموع ، كانت في تلك الفترة ، خارجة . وبكل تأكيد ، لن يسلك درب اللاشرعية الا اقلية محدودة ؛ وحين شئنا مساعدتها ، ولو بللنا انفسنا ، كنا نأمل ان نعزل يساراً بلغ من احترام القانون حداً يُرثى له ، وفق كلمة « بيجو » ؛ وكنا نعتقد ان هذا العمل الطليعي يمكن ان يترك اصداء هامة .

* * *

عرضت اختي في غاليري « سانتيز » لوحاتها الأخيرة التي وجدتها جميلة جداً . وقد التقيت في حفلة الافتتاح « ماري لوهاردوين » التي كانت مضطربة بسبب اعدام تشسيمان الذي كانت تؤلف عنه كتاباً . وكانت حرب الجزائر تجند جميع انفعالاتي ، بحيث لم يبق لدي انفعالات اخرى ، ولكني كنت أفهم موقفها . وفي مارسيليا حيث قضيت بضعة أيام مع الغرين ، كنا نتساءل عن مستقبل بلاده . وكان الطلاب في « سيول » قد طردوا سيغمان ري ؛ وكانوا في اليابان قد تظاهروا بعنف ضد هاغرتي . وكان شي غافيرا قد تنبأ للولايات المتحدة : « سوف تخسرين الكرة كلها » ، وكانت الكلمة تتحقق . ولم يكن الغرين ، من أجل تغيير سياسة اميركا ، يعتمد لا على نيكسون ولا على كنيدي ؛ وقد قال لي : « اياً كان الرابح ، فان عزائي الوحيد هو ان الآخر يكون قد خسر » .

وبعد ذلك بقليل ، طرت معه لقضاء اسبوعين في عطلة : كان يتمنى ان يرى استامبول واليونان . وقد أثرّ عليّ الى حدّ الضيق السفر بالطائرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النفاثة التي كانت تضغط في ساعات قطاعات واسعة من ماضيّ : فقد خيل إليّ اني كنت ميتة ، واني احلق فوق حياتي من أعالي السماء . بحيرة جنيف : كنت قد رأيتها للمرة الاولى عام ١٩٤٦ ، مع سارتر . وكان باعثاً على الانشداه ان ارى في وقت واحد ميلانو وتورينو ، يفصل بينهما اوتوستّراد طوله ١٦٠ كيلومتّراً وكنت قد اجتّزته بفارغ صبر مرات عديدة . وكنت اكتشف جنوى ، والطريق الذي يحاذي الشاطيء والذي كان قد اعادنا مراراً ، انا وسارتر ، من روما الى ميلانو : كنا نتناول الغداء في « غروسيتو » ، في منطقة « بوكاسان لورانزو »... وفجأة ، ايقظت الغرين الذي كان النعاس قد أخذه بجانبي ؛ كنا نمرّ فوق كابري التي لم تكن ترى ، وكان النور من الصفاء بحيث كنا ، على ارتفاع ١٢ الف متّر ، نميز بدقة منعطفات « ايشيا » ؛ وقد تعرّفت فيها « فوريو » والمنّزه الصخري الذي كانت عربة قد حملتنا اليه ؛ وكان الغرين يُريني بعض سحب الدخان تنبعث من احد الثقوب ، وهي لم تكن في الواقع الا دخان سيجارته ، وكان يضحك من سرعة تصديقي . ثم كانت « امالفي » و « ليغالي » ، ذلك الشاطيء الذي كانت تتجمع فيه كثير من الذكريات ، والجنوب الممتد من بحر الى آخر ، وكان المساء يهبط على « كورفو » . وقفزت قفزة في الماضي ، حتى جسر « كايرو سيتي » حين بدت شواطيء اليونان وجزره وقناة كورنتيا . وفيما كنا نتجه نحو استانبول ، عبر سماء من الارجوان والكبريت ، كنت أحسّ ألماً في القلب ان اتذكر كم كنت حيّة وكم كان العالم جديداً . ومع ذلك ، فقد كنت أحسني في تلك اللحظة سعيدة : ولكن خلف خطّ آخر لن اتجاوزه بعدُ أبداً .

وبدت لنا استانبول ، في الليل ، مقفرة . وكانت في الصباح تنغل نغلاً . اوتوبوسات ، سيارات ، مركبات ذات اذرعة ، عربات تجر بالخيل ، دراجات ، حمالون ، مارّة : كان السير كثيفاً جداً على جسر « امينومو » حتى ان المرء يكاد لا يستطيع عبوره الا بتعريض نفسه للخطر ؛

وعلى محاذاة الضفاف، كانت مراكب كثيرة تتزاحم: قوارب بخارية، سفن، زوارق. وكانت الصفارات تدوي، والمداخن ترسل دخاناً متقطعاً؛ وعلى الطريق كانت سيارات عمومية محملة تقتحم المجال وتنحرف وتقف في هدير ثاقب ثم تنطلق وهي ترسل تفجراتها؛ وكانت قطع من الحدائد تتصادم، وصراخ وصفارات، فكانت فوضى هائلة تصدي في رؤوسنا التي يدوّخها عنف حرارة الشمس. كان الحرّ شديداً، ومع ذلك فلم يكن اي انعكاس يبدو على المياه المسودة «للكورن دور» الملآى ببقايا قديمة من الخشب المتعفن، المحشور بين الأكواخ. وقد صعدنا، في قلب استانبول القديمة، شوارع ميتة تكتنفها بيوت خشبية متداعية، واخرى تنفتح عليها حوانيت صغيرة؛ وكان بعض ماسحي الأحذية مقعين امام صناديقهم ينظرون الينا نظرة عدائية؛ وقد نظر الينا النظرة نفسها زبائن حانة بائسة ذات طاولات خشبية شربنا عليها القهوة؛ أتراهم كانوا يحتقرون الاميركيين ام السياح؟ لم يكن في القاعة امرأة واحدة، وكذلك في الشوارع تقريباً؛ لا شيء سوى وجوه رجال لم يكن أحدها ليبتسم. وقد شبهت السوق المغطّاة، الغارقة في نور رمادي، بمعرض هائل للآلات الخليطة؛ وكان كل شيء، في الأسواق المفتوحة المغبرّة، بشعاً، الاوعية والأقمشة والصور الشعبية. وقد أثار فضولنا امرٌ واحد: غزارة الموازين الاوتوماتيكية وعدد الاشخاص البؤساء غالباً الذين كانوا يضعون قطعة نقود ليزنوا أنفسهم بها. ترى، اين كنا؟ كانت هذه الجموع المذكرة تنمّ عن الشرق والاسلام، ولكننا لم نكن نجد هنا لا ألوان افريقيا، ولا اللون الصيني البارز. كنا نحسّ انفسنا على تخوم ارياف بائسة تنتمي الى عصور باهتة. اما داخل كنيسة سانت صوفي، والمسجد الأزرق، فقد ارضيا انتظاري؛ وأحببت مساجد صغيرة، اشد صميمية واوفر حياة، بمجاريها واحواضها التي كانت الحمائم تتطاير حولها؛ ولكن لم يكن شيء على وجه التقريب باقياً من العصور الزائلة. بيزنطة، القسطنطينية،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استانبول ؛ إن المدينة لم تكن تحقق وعود هذه الاسماء : الا في الساعة التي كانت فيها قبابها ومنائرها الدقيقة المروّسة تبرز ، من أعلى التلة ، في ضوء الشفق ؛ واذ ذاك ، كان ماضيها الدامي الفخم يشفّ عبر جمالها .

كنا نود ان نعرف اتراكاً . وكان انقلاب عسكري قد وقع منذ اسابيع فأدى الى طرد مندريس ؛ وحدثت في المدينة اضطرابات اشترك فيها الطلاب : فما عساهم كانوا يفكرون الآن ، وما كانوا يعملون ؟ إن السياحة الاجتماعية لم تكن خالية من المساويء ، ولكن مساويء وحدتنا كانت اكثر . ولم نستطع ان نبلغ هناك الا ديكوراً خارجياً ، فغادرنا المدينة بعد ثلاثة أيام غاضبين .

اما اثينا ، فقد بدت لنا ، بالمقارنة ، انثوية وشهوانية تقريباً ؛ وقد قضينا اسبوعاً في كريت : مناظر رائعة ، وآثار تبعث على الانفعال حقاً ، ولاسيما آثار فاستوس . ثم عدنا الى باريس ، وآن الاوان لكي نفترق . ولم تكن اية سحابة طوال هذه الأشهر الخمسة قد عكرت جوّنا . ولم اكن أهلع ، كالمرة السابقة ، لدى التفكير بأن قصتنا لن يكون لها مستقبل : فنحن كذلك لم يكن لنا من مستقبل ؛ ولم تكن القصة تبدو لي مسدودة ، بل بالاحرى منتهية ، ناجيةً من التهديم كما لو اننا كنا قد متنا . ولم تكن العهود الماضية توحي لي حتى بذلك الحنين الذي يحمل بعدُ أملاً . وقد روى لي الغرين ان قدميه قد قادتاه، في نهاية نزهة ، الى شارع « لابوشوري » بصورة آلية ؛ وقال لي وفي صوته أسى : « كما لو ان جسمي لم يتخلّ عن الماضي » فسألته : « اكان الماضي افضل الى هذا الحد ؟ » فقال لي باندفاع : « لم اكن اعرف وأنا في الاربعين اني بلغت الاربعين : كان كل شيء يبدأ. » أجل ، انني اتذكر. ولكنها كانت لحظة طيبة يوم تلقيت النبأ ؛ كانت لي سن متقدمة. وبالطريقة التي التقينا فيها من جديد ، محونا عشرة أعوام ، ولكن صفاء لحظة الوداع اعادني الى وضعي الحقيقي : لقد شخت .

* * *

كانت زيارتنا لهافانا قد اعطتنا دوافع جديدة لزيارة البرازيل. لقد كان مستقبل الجزيرة يقرَّر، الى حدّ بعيد جداً، في اميركا اللاتينية حيث كانت تيارات كاستروية ترتسم: وكان سارتر يفكر بأن يحدّث البرازيليين عن كوبا. كنا قد رأينا ثورة منتصرة. ولكي نفهم العالم الثالث، كان من الضروري ان نعرف بلداً متخلفاً، نصف مستعمر، كانت القوى الثورية ما تزال فيه، وربما لوقت طويل، مقيدة. وأقنع البرازيليون الذين التقيناهم سارتر بأنه سيخدم خدمة فعالة الجزائر واليسار الفرنسي بمحاربة دعاية مالرو في بلدهم؛ وقد انتصر إلحاحهم على مشروعنا.

ولم تدم هذه الرحلة الا شهرين؛ فاذا رويتها بالتفصيل، فلاشك في انه سيؤخذ عليّ ان أكسر خطّ ذكرياتي. ولكن البرازيل بلد جذاب جداً، ومجهول جداً في فرنسا، بحيث اني سأندم ألاّ اشاطر قرائي مشاطرة كاملة التجربة التي كسبتها فيه: اما الذين سيضجرهم هذا الريبورتاج، فيستطيعون ان يقفزوا عنه.

قبل ان نستقل الطائرة الى «رسيف» حيث كان ينعقد مؤتمر للنقاد، دُعينا لتناول العشاء عند السيد «دياز»، وهو رسام أراد ان يهتم بتذاكرنا وبسمات الدخول. وكانت لوحاته البهيجة تزين شقة كان بوفيه حارّ منصوباً فيها على طراز بلده الذي حكمت بأنه اكثر تمدنا من بلدنا: باعتبار ان المرء يستطيع فيه ان يتحرك ويبدل مخاطبيه. وكان ثمة كثير من النساء الجميلات والمثقفين الذين كان عدد كبير منهم قد سُجن في عهد فارغاس: ومنهم الرسام دي كافلكانتي السمين المرح تحت شعره الابيض الكثيف. وتحدثنا مع «فراير» الذي وصف في كتابه «سادة وعبيد» اخلاق الشمال الشرقي البرازيلي في العهد الاستعماري؛ وقد اعطاني كتاباً مصوراً عن «اورو بريتو». وتحدثنا طويلاً عن «برازيليا»؛ وفيما كنا نتحدث باعجاب عن نظريات لوشيوكوستا وأبنية «نيمير»، كان معظم الحضور آسفين ان تبتلع «كوبيشيك» ثروات في هذه المدينة المجردة التي لم يكن احد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنا يود ان يعيش فيها. وقال دي كافلكانتي : « مهما يكن من أمر ، فان في معبد القصر الرئاسي الآن باقة صغيرة من الزهور الصناعية : شيء من قلة الذوق اخيراً! اشارة حياة اخيراً! انها بداءة. »

ومن جديد ، في منتصف آب ، طرت عبر أقفار السماء. وكانت تحت قدميّ تتشكل طرق وتتناثر ، ومحيطات وجزر وجبال ، واودية كنت أراها بعيني وهي ليست موجودة. ولم يكن يتغير شيء ، لا المناخ ولا الروائح ولا رتابة الغيوم المتعددة الاشكال ، وفجأة أجدني ، من غير ان اكون قد تحركت ، في « مكان آخر ». وأمضي من جديد ، وقلبي منقطع بتعب غريب ان ادور على هذا النحو حول الارض التّي تدور ، هي ايضاً ، جاذبة انوارها ، مطفئة اياها بسرعة ، فيما تفقد ساعتي حساب الساعات. ورأيت شريط نهر « التاج » المعتّم ، ومطار لشبونة ؛ وعبر مكبر الصوت ، تحدث صوت : المسافرون الى اليزابيتفيل ؛ وتطلعت بفضول الى اولئك الرجال والنساء الذين كانوا متجهين نحو طائرتهم — نحو أي مصير؟ وبعد ذلك بقليل ، هبطت في بلد لزج أسود. وكان رجال عابسون ، يرتدون سترات بيضاء ، يروحون ويجيئون بين الطاولات بلا ضجة ؛ دكار ، افريقيا ، القارة الهائلة التّي كان الكونغو ينزف فيها دماً ؛ ولمحت جنوداً في الثوب القصير ، والقبعات الزرق : كانت الامم المتحدة قد قررت التدخل في الكونغو.

وبزغ صباح دمعه بحرٌ أخضر ، وصخور ، وشاطيء مزدان بزبد أبيض. « رسيف » : أنهار وأقنية وجسور وشوارع مستطيلة ، وتلال ، على قمة كنيسة برتغالية» ونخيل. واحواض اخرى ، وجسور وكنيسة ؛ واستدرنا ، واستدارت الى جانبنا طائرة صغيرة. وقال لي سارتر : « إنهم لا ينجحون في إخراج عجلات الهبوط » ففكرت « سينجحون ». لا يمكن ان يحدث لي أيّ شرّ في تلك الساعة ، تحت هذه السماء ، على تخوم قارة جديدة. وبعد نصف ساعة ظهرت العجلات ، وحطت الطائرة :

وكانت سيارات اسعاف واطفائية قد تجمعت في المطار . ذلك ان الطائرة العسكرية التي كانت تواكبنا قد ارسلت أوامر الى الطيار لحالة الهبوط على البطن .

لم يكن سارتر مرتاحاً ؛ كان يعاني ارهاقاً من الافراط في العمل ومن استياء عنيد . وحتى انا ترنحت وأنا أتلقى في وجهي الهواء والشمس . وكان ثمة كثير من الايدي الممدودة ، والزهور ، والصحفيين ، والمصورين والنساء باذرعة عارية ، والرجال بسترات بيضاء ، ووجه جورج امادو . شرطة ، جمرك ؛ وكما في هافانا ، كان التعب يدوّخني حين قادتنا سيارة الى قلب المدينة : اولاً الى الفندق القائم على شاطيء ، ثم الى مطعم بارد مرح . وشربت قدحي الاول من « الباتيدا » : وهو مزيج من عرق قصب السكر والحامض . وانعقد بين هؤلاء المجهولين وبيني صلة اولى ، هذا المذاق الجديد المألوف لديهم ؛ وعرفت كذلك طعم « الماراكوجا » الذي كان عصيره يملأ القرافات . ولاحظت على جميع الطاولات زجاجات ملآى بالطحين : انه نبات المنيهوث الذي يُرش على الأطعمة . وكان من الصعب ان نحزر مَنْ سيروق لنا ، ومن لن يروق ، ومن نرى ثانية ، واين ، وكيف : كان المؤتمر قد اجتذب أشخاصاً من جميع دول البرازيل . وفهمنا في سرور ان امادو الذي أتى خصيصاً لاستقبالنا سيكون دليلنا لمدة شهر على الأقل .

وقضينا بعض الدقائق في مركز المؤتمر ثم أخذنا امادو بصحبة بعض الرفاق لنستريح في « فازاندا » تخص صديقاً له . وكانت منطبقة على الاوصاف التي كنت قد قرأتها في كتاب « فراير » ؛ وفي الاسفل ، كانت تقوم مساكن العمال ، والطاحونة التي تطحن قصب السكر ، ومعبد في البعيد . وكان البيت قائماً على الربوة . كان سيده يرسم ، وكانت لوحاته تملأ البيت نوراً ؛ وبدت لي الحديقة المنحدرة باشجارها وظلالها وموزها ومنظر قصب السكر المتموّج جنّة شهوانية جعلتني ذات لحظة أداعب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حلماً من أبلد الاحلام : ان اندمج في جلد ملاّك أراض كبير . وكان صديقي امادو واسرته غائبين ؛ وقد وقفت على مظهر اول من الضيافة البرازيلية : لقد وجد الجميع من الطبيعي ان يجلسوا على السطيحة ويبدأوا الشرب . وملأ امادو قدحي بعصير فاكهة أصفر : كان يعتقد ، مثلي ، ان المرء انما يعرف البلد حق المعرفة عن طريق الفم . وبناء على طلبي ، دعانا بعض الاصدقاء في اليوم التالي الى تناول الأكلة النموذجية من مآكل الشمال الشرقي ، وهي « الفاتجوادا » .

وكنت قد قرأت في كتابات فرايير ان فتيات الشمال الشرقي كنّ في الماضي يتزوجن وهن في الثالثة عشرة ، في ذروة نضارة جمالهن الذي كان يبهت اذ يبلغن الخامسة عشرة . وقدم لي استاذ ابنته ، وهي جميلة جداً ، ومتبرجة جداً ، ولها عينان ملتهبتان ، ووردة حمراء مشكوكة في قميص متفتح ؛ انها في الرابعة عشرة . ولم ألتق مراهقات قط : فاما بنات صغيرات او نساء كاملات الانوثة . على ان هؤلاء الأخيرات كنّ يذبلن بأسرع مما كانت جداتهن يذبلن ؛ ففي السادسة والعشرين وفي الرابعة والعشرين، كانت لوسيا وكريستينا ت . يشعّ منهما الشباب . وبالرغم من الأخلاق الابوية المنتشرة في الشمال الشرقي ، فقد كانتا تملكان بعض الحريات ؛ كانت لوسيا تدرّس ، وكانت كريستينا تدير ، منذ موت ابيهما ، فندقاً فارهاً تملكه الاسرة في ضواحي « رسيف » ، وكانت كلتاهما تتعاطيان الصحافة قليلاً ؛ وكانتا تسافران . وهما اللتان اخذتانا في النزهات بالسيارة عبر مدينة رسيف .

وقد شاهدنا « اولندا » ، اول مدينة في البلاد بنيت ، قبل برازيليا بثلاثمئة سنة ، وفق تصاميم احد المهندسين ؛ فقد كلف موريس دوناسو ، الذي حكم المنطقة لحساب هولندا بين ١٦٣٠ و١٦٤٥ ، كلف بيتر بوست ببناء المدينة ، ثم عهد الى فريق من الرسامين والنحاتين ، في تزيينها . وهي منضدة على ارتفاع ستة كيلومترات فوق رسيف ، وقد ظلّ كثير من

بيوتها القديمة سليماً. وبعد ان طُرد الهولنديون منها، بنى فنانون برتغاليون فيها كنائس طريفة: فعبر رائحة المناطق الاستوائية القديمة، عثرت على السلالم والواجهات والبوابات التي كانت قد أثرّت بي على ارض البرتغال الجافة. وهبطنا الى بلاج لا اول له ولا آخر: وكم احببت جمود شجر جوز الهند السامق، تجاه صخب المحيط الآمر! وكانت تلتمع على المياه أشرعة «الجانفادا» المثلثة : إنها عوّامات ذات صوار مصنوعة من خمسة جذوع او ستة من أشجار مشدودة باوتاد خشبية؛ وهي في الطقس الهادىء تبدو صامدة، ولكنها ضعيفة المقاومة في العواصف. وكان يحدث في كل عام ألاّ يعود من البحر عدد من الصيادين. وقد تذوّقنا، تحت احد الاكشاك، ماء جوز الهند، وكان يُسحب بواسطة شرّاقة تخترق القرعة: وكان دافئاً لا طعم له.

وكانت «رسيف» ايضاً تضم عدداً من الكنائس الجميلة الغريبة؛ وكانت نوافذ ذات شرفات محفورة تضفي عليها هيئة من الخفة والجاذبية. وفي الأسواق، كانت جموع تحيط برواة الحكايات؛ وكان البعض يرتجل وهو يغني، وآخرون يقرأون في كراسات ذات رسوم مضطربة؛ وكانوا يتوقفون قبل الخاتمة: ومن شاء ان يعرفها، عليه ان يشتري الكتاب. وفي وسط المدينة، كانت ثمة ساحات قديمة مزروعة بشجر معتم، وانهار، وحوانيت وباعة متجولين؛ ولكن ما ان يغادرها المرء الى الطرق الجافة ذات الجدران المقشورة، والارض الرملية، حتى يلتقي بالكآبة والبؤس؛ وكان بوست قد قال لي: «إن في «رسيف» شحاذاً تحت كل شجرة نخيل». لا. كان المطر قد هطل هذا العام، وكان لفلاحي الضواحي جذور يقضمونها؛ ولكنهم في اوقات الجفاف ينقضّون على المدينة. انهم عشرون مليوناً يحتضرون بلا انقطاع من الجوع في مضلّع واسع كفرنسا. وقد أرتنا كريستينا على تخوم المدينة قطاعاً كانت تتراكم في اكواخه جموع عارية من كل شيء. وحدثتنا عن الجامعات الفلاحية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي كانت ، تحت ارشاد جولياو النائب الاشتراكي والمحامي في رسيف ، تحاول ان تجمع الفلاحين وتحرّك الاصلاح الزراعي ؛ وكان عدد من اصدقائه اعضاء في هذه الجامعات . وقالت لنا كريستينا : « حين بدأت انشغل بالفندق ، كنت ما ازال صغيرة، واردت ان ابدو خبيثة : سأجعل الموظفين يعملون اكثر ما يمكن وادفع لهم اقل ما يمكن . ثم رأيتهم يعيشون ... » كانت كاثوليكية صادقة ، وكان الظلم الاجتماعي يثيرها . وكانت صباح كل أحد تركب القارب الشراعي في افخم نادٍ بالمدينة ، وتشارك في سباق الخيل بحماسة ؛ ولكنها كانت تتنازع مع الأعضاء الآخرين ، وبالاجمال ، مع جميع أفراد وسطها . وفي حي القصر الرئاسي في رسيف ، كانت تقود سيارتها بسرعة كبيرة فتذعر المشاة ، وكانت تقول وهي تضحك : « يجب تذكيرهم بأنهم ميتون ! »

وعلى اثر ترتيبات معقدة يبرع البرازيليون في اعدادها ، وجدنا في حوزتنا اربع تذاكر في الطائرة لنا نحن الاثنين ؛ وقد جعل امادو كلاً من لوسيا وكريستينا تستفيد منها . وكان قد قضى شبابه في « باهيا » حيث كان لنا دليل آخر هو البروفسور في علم خصوصيات الشعوب فيفالدو ، وهو خلاسي ذو كتفين عريضتين كاكتاف لاعبي كرة القدم . وقد لحقت بنا زيليا زوجة امادو التي وصلت متأخرة مدة ليلة كاملة ؛ ذلك ان طائرة تعطلت في المطار ، فلم تستطع طائرتها ان تحطّ فيه . وكنا نشكل جمعاً من سبعة أشخاص كانوا جميعاً يتحدثون الفرنسية ويجدون متعة فيما بينهم . وكان تحت تصرفنا للتنقل سيارة كبيرة وسائق . وكانت صحة سارتر في تحسن ؛ وقد اقتصرت الواجبات على محاضرة وغذائين رسميين . وقد امضينا اسبوعاً مرحاً جداً .

وتتألف « باهيا » من مدينتين تربط بينهما مصاعد كهربائية ، وكانت احداهما تمتد بحذاء البحر ، والاخرى معلقة على رابية . وهناك يقوم الفندق العصري الواسع ذو الخطوط الأنيقة . وكنت ارى من غرفتي ،

ومن المشرب الواسع ذي الجدران الزجاجية ، المليء بالبنايات الخضراء والعصافير ، حيث كنا نشرب اقداح « الباتيدا » – كنت ارى تحت سماء معتكرة دائماً « خليج جميع القديسين » بصخوره وشواطئه وأشجاره من جوز الهند ، والقوارب باشرعتها ذات الشكل المثلث ؛ وكانت موجات قصيرة تجلد المحيط . وقد أرانا امادو الشوارع التجارية في المدينة العليا ؛ وكنا نقرأ على باب الجامعة : « الفلسفة في اضراب » ؛ ذلك ان الطلاب والعميد لم يكونوا على اتفاق . وكانت الكنائس تقوم في كل مكان . وكانت احدى شهيراتها من صنع فنانين اسبان ؛ ولم يكن ثمة بوصة واحدة من الحجارة الملساء : وانما كان هناك أصداف واقراص وخِرَق ونقش حلزوني وتخريمات . وكانت الواجهات البورتغالية ساذجة ؛ في حين ان الغنى في الداخل كان متفوقاً على الذوق الجميل : غطاء ، وقباب وتعاليق ، وطيور ونخيل وعفاريت تختفي كأنها دركي الاحجية بين بثور الجدران والسقوف . وكانت المواهف تعرض طاولات من خشب بنفسجي اللون او اسوده ، وخزفاً من « دلفت » وبورسليناً ومصوغات وتماثيل قديسين من الشمع بالحجم الطبيعي، جديرة بمتحف « غريفين » : فهي ضامرة ، او موسومة بالجروح ، او متشنجة من الألم او النشوة تحت شعرها الحقيقي ؛ وكان ثمة تماثيل للمسيح مسوطة ، معذَّبة ، مزروعة شوكاً ، تنزف جروحها شرائط طويلة حمراء . وقد جعلتني اتذكّر تمثال « بوبو ديولاسو » .

وكانت الشوارع القديمة التي قضى فيها امادو طفولته ضيقة ، مستقيمة ، تنحدر بخشونة نحو البحر ؛ والى جانب ، كان يقوم حيّ « نساء الحياة » . وقد دخلنا اسواقاً ملآى بالبضائع المختلطة ، كانت الجدران والسقوف مزروعة بفراشات لامعة ، مقتطعة من غلافات المجلات . وقد انزلقت السيارة على منحدرات متعرجة ووضعتنا على المرفأ ، بالقرب من السوق المكشوفة التي ذكرتني بسوق بكين ، وان كانت دونها صحة ؛ وكانت تباع في الممرات الضيقة اطعمة خشنة ومقدّدات ، وجلود واقمشة وحدائد ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الى جانب كمية هائلة من الآثار الفنية الشعبية وهي مخلفات ثقافة قديمة متنوعة. وقد اشترى امادو له ولنا عقوداً واساور ذات حبات ملونة وقطع سيراميك وتماثيل من طين ودمى ذات وجوه سوداء ترتدي ملابس باهيانية تقليدية وآلات موسيقية ... وشرح لنا معنى التمائم والصور والأعشاب والطبول والجواهر المرتبطة بالاحتفالات الدينية. وكانت البسطات تمتد، تحت الهواء الطلق، حتى الاحواض التي كان يتأرجح فيها اسطول من قوارب «السافيروس» : وكانت حيازيمها تتلاصق، وصواريها مزدحمة كشجر رابية ؛ وكان باعة متجولون يبيعون قطعاً من قصب السكر المقشور، وحلوى بجوز الهند، وفطائر بالمشمش، وجراراً وقواوير وموزاً وفاكهة اخرى. وكانت روائح زيت النخيل تختلط برائحة الرّبّ ؛ وعلى القوارب والارض الصلبة كان يروح ويجيء رجال ونساء كانت الوان بشرتهم تتراوح بين جميع أنواع السمرة. وعبرنا حانوت حلاق كانت تقام فيه مراهنات «البيشو» ، او لعبة الحيوانات، وهي نوع من اليانصيب يفضّله البرازيليون مع لعبة كرة القدم، على جميع اللعب الاخرى. وفي الطابق الاول، كانت زنجية تدير حانةً ذات مظهر تافه، ولكنها مشهورة ؛ وكانت معلقة على الجدار صورة «يمنجا» الهة البحر. وفي احدى الأواني، كانت أوراق من الصبّار تشبه الشفرات، وكانت منتشرة جداً في فرنسا، وهي ضرورية لحماية البيوت البرازيلية. ولم يأكل سارتر لقمة من الطعام المبتل السائل بالزيت — وهو مؤلف من الزنجفر والمرجان والحمص — وقد اكل منه في حذر، بعكس عجة السرطان التي تغلبت عليّ.

وبعد أيام، عند خروجنا من المدينة، شاهدنا سوقاً اخرى. وكانت امرأة فرنسية قد قالت لي : «إن البرازيليين لن يأخذوك اليها». ولكن امادو كان يأخذنا الى كل مكان. وكان المطر قد هطل، فسرنا في الوحل ؛ وكانت البسطات تعكس بؤس الشارين، باستثناء بعض الآنية الجميلة : كان الجوع في باهيا ايضاً يروح ويجيء، ولاسيما في الاحياء التي كان

امادو يسميها « احياء الغزو » لأن الناس كانوا مقيمين فيها بلا مأوى. وكان أحد هذه الاحياء قد بُني على مستنقع: كانوا واثقين من ان هذه الارض لن يطالب بها احد؛ وكانت جسور مرتجّة تصل الارض ببيوت حقيرة أقيمت على اوتاد: وقد ذكّرني ذلك بـ « الحي المائي » في كانتون، ولكن السكان هنا كانوا يعيشون باستسلام، بلا ادنى عناية صحية. وكانت ضواحٍ أخرى منتثرة على روابٍ خضراء، بين شجرات من الموز ذات اوراق ممزّقة؛ وكانت اسلاك تلّغرافية تخترقها، مقابر للطائرات الورقية التي كان الاطفال يلعبون بها؛ وكانت الأرض السمراء الدهنية تُرسل رائحة ريف؛ لكأنها كانت قرى صغيرة، تحافظ على التقاليد والروابط العضوية للمجتمعات القروية.

والواقع ان سكان باهيا، وسبعون بالمئة منهم زنوج — وقد كانت هذه منطقة قصب السكر والعبودية — تشارك في حياة جماعية كثيفة. وقد عاشت فيها الطقوس الزنجية الافريقية، مختفية بدافع الحذر وراء الحَدَر الكاثوليكي حتى ذابت فيه، على شكل « الفودو » الهايتي، في دينٍ توحيدي، هـو « الكاندومبليه ». وهو مجموع معقد من العقائد والطقوس المتنوعة. وكان كتاب روجيه باستيد « الاديان الافريقية في البرازيل » قد صدر حديثاً فقرأته. إن هناك ربـاً أعلى، هو ابو السماء والأرض، تحيط بـه ارواح هي « الاوريكسا » التي تشبه بعض قديسينا؛ فأوكسالا قريب من المسيح، ويمانجا من العذراء مريم، واوغون شبيه بالقديس جورج، وكسانغو بالقديس جيروم، واوموه بسان لازار. اما « اكزو » وهو اشبه بهرمس القديم منه بشيطاننا، فهو وسيط بارع بين البشر « والمسحورين ». وهؤلاء يقيمون في افريقيا، ولكن سلطتهم تمتدّ الى البعيد. وكل فرد ينتمي الى اوريكسا (يكشف له الكهنة عن اسمه) يحميه إن هو قدّم له العطايا والتضحيات المطلوبة. وهناك بعض ذوي الامتياز، الذين أخضعوا للطقوس، وهي طويلة ومعقدة بما فيه الكفاية، وهم مدعوون الى ان يكونوا « افراساً » لإلههم:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهذا الإله يُنزّل في اجسامهم باحتفالات هي الذروة القصوى لـ « كاندومبيليه » كما هو بالنسبة للكاثوليك هبوط الربّ في القربان المقدس .

وكانت قد نُظّمت لنا في « رسيف » امسية رقص فيها زنوج ، متنكرون بلباس الهنود ، رقصات باليه مسفسطة ؛ ولكننا لم نستطع ان نرى رقصات « كزانغو » [1] . والحفلات الدينية في باهيا هي يومية تقريباً ، وجميع المثقفين يهتمون بها . وامادو الذي كان اسقفاً في شبابه ، هو احد اكابر معتنقي الكاندومبليه ؛ واما فيفالدو فيحتلّ فيه مكاناً اكثر تواضعاً ، ولكنه يعرف جميع « امهات القديسين » و « باباّلاو » المدينة (وهم عرّافون ، انصاف كهنة ، وانصاف سحرة) . وقد ادخلنا لنشاهد احتفالات ليست مسرحية ، بل حقيقية . ومرتين ، حملتنا السيارة ليلاً ، عبر هذه الجبال الروسية التي هي ضواحي باهيا ، الى بيوت بعيدة كانت تهدر فيها اصوات الطبول . وفي كل مرة ، كانت ام القديسين تدخلنا اولاً الى المطبخ ، حيث تُعدّ امرأة اطعمة مدنّسة ومقدّسة ، ثم الى الحجرة التي يقوم فيها المذبح : وهناك ، بين خليط عجيب من التماثيل ، اشرطة ذات ألوان الهية ، وقرابين وحجارة وجرار — تمثّل الآلهة الاوريكسا تماثيل مصنوعة على شكل القديس سولبيس : القديس جورج مع تنّينه ، والقديس جيروم ، والقديس كوم وداميان (التوأم ذو السلطات القوية العديدة) والقديس لازار الخ . وفي ساحة تحيط بها الدرابزونات ، كان يتزاحم زنوج — واكثرهم من النساء — وهم اعضاء احدى الاخويات ، وآخرون كانوا قادمين كمدعوين ؛ وكان ثمة بعض البيض : رسّام كان قد استوحى هذا الرقصات كثيراً ، وصحفي من الريو — هو روبام براغا — والفرنسي بيار فيرجيه الذي قيل لنا انه احد كبار المعتنقين ، والرجل الذي يعرف خير ما يعرف طقوس الكاندومبليه . وكان ثمة رجال يضربون الطبول المقدسة ؛ وآخرون يعزفون على آلات غير معروفة . واشتركت « ام القديسين » في رقص « بنات القديسين » : وهنّ عارفات كان إلههن قد

(١) وهي في منطقة « بيرنامبوك » معادل الكاندمبوليه في باهيا .

« ركبهن » في حفلات مماثلة ؛ وكان بينهن صبيات وعجائز ، وكن يرتدين اجمل حلاهن ، وتنانير طويلة من القطن ، وقمصاناً مطرزة ولآليء وجواهر . وكنّ يدرن في مشية موقّعة ، مترنحة ، متقطعة احياناً ، ولكنها هادئة . وكان معظمهن يضحكن وينفجرن بالقهقهات . وفجأة يتغيّر وجه ، وينغلق النظر ، وبعد فترة تقصر او تطول من التركيز القلق ، او احياناً على التو ، تهزّ جسم المرأة انتفاضات ، فاذا بها تترنّح . ويمدّ لها العارفون — ومنهم امادو وفيفالدو — راحاتهم ، كما ليسندوها . وكانت احدى خادمات القديسة — وهي عارفة ولكن الزيارة الالهية ممتنعة عليها — تهدّيء المأخوذة بضغطة أو ضمّة ، وتفكّ لها وشاحها ، وتنزع حذاءها (لتردّها الى وضعها كأفريقية) وتجرّها الى داخل المنزل . وفي كل جلسة ، كانت جميع الراقصات يسقطن في النشوة الراعشة ، وكذلك مدعوتان او ثلاث كن يؤخذون مع الاخريات . وكنّ يعدن مرتديات اثواباً فخمة تتناسب مع قديسيهم . وهن يحملن بأيديهنّ علامات رمزية منها بندقية يدرنها بين ايديهن ؛ وكانت فخامة حركاتهن ورصانة وجوههن تشيران الى ان إلهاً كان يسكنهنّ . وقد استعدن رقصتهن ، كل منهن مستسلمة لنشوتها الراعشة ، ولكنها منسجمة مع حركة الفريق . وكان سارتر قد حدّثني عن عصبية « الفودو » المجنونة ؛ اما هنا ، فقد كان النظام الجماعي يراقب المظاهر الفردية ؛ وكانت هذه المظاهر تبلغ لدى البعض عنفاً كبيراً ، ولكن لا يعزلهن ابداً عن الاخريات . وفي احدى الحفلتين ، كانت احدى الزنجيات تنهي دورتها ؛ وكان رأسها حليقاً ، وهي ترتدي اللباس الابيض ؛ وقد ظلت مضطجعة على الأرض طوال القسم الأول من الأمسية ؛ كانت ترتجف قليلاً ، ونظرها محدّق بما لا يُرى ، حاضرة وغائبة في وقت واحد ، كما حدث لأبي في اثناء احتضاره — واخيراً ، دخلت مرحلة الارتجاف ، فذهبت ، وعادت ، وقد شوّهت وجهها فرحة خفية .

وطرحت السؤال الكلاسيكي : « ما هو تفسير هذه الرعدات ؟ » كان يحق « لأم القديسات » وحدها ان تتصنّع هذه الرعدة ، لتسهم في نزول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاوريكسا : وقد بدا لي ان احدى الاثنتين قد افادت حقاً من هذا الإذن . وأجمع المراقبون على ان الاخريات لا يغششن ، وانا أراهن بقطع يدي : إن تحوّلهنّ ، بالنسبة اليهن والى المشاهد على حد سواء ، هو مفاجأة ؛ ولم يكن يبدو عليهن كذلك انهن عصابيات او مخدّرات : فقد كنّ يصلن الى الكاندوبيليو ، ولا سيما العجائز منهن ، مرحات ، متمتعات بكل حسهنّ السليم . واذن ؟ لقد تحدث فيفالدو بكل صراحة ، وتحدث بيار فيرجيه بقدر اقل من الصراحة ، عن تدخّل غير طبيعي . اما أمادو وجميع الآخرين ، فقد كانوا يعترفون بجهلهم . على ان ما هو مؤكّد ، ان ليس في هذه الوقائع ما هو مرضي ، بل هي ذات صفة طقوسية ؛ والمرء يجد مثيلاً لها في كل مكان تتمزّق فيه حضارتان . إن زنوج باهيا ، المقسورين على الانطواء للعالم الغربي ، والذين كانوا في الماضي عبيداً ، وهم اليوم مستغلّون ، يخضعون لاضطهاد يبلغ حدّ انتزاعهم من أنفسهم ؛ ولا يكفيهم للدفاع عن أنفسهم أن يحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم : بل هم يمارسون الأساليب التي تعينهم على ان ينتزعوا أنفسهم ــ بالنشوة ــ من الشخصية المزيفة التي سُجنوا فيها ؛ وفي اللحظة التي يبدون فيها وكأنهم ضائعون ، يجدون أنفسهم مرة اخرى : انهم مأخوذون ، نعم ، ولكن بحقيقتهم الخاصة . ولئن لم يغيّر « الكاندومبليه » الكائنات البشرية الى آلهة ، فانه يحوّلهم على الاقل بواسطة الأرواح الخيالية الى اناس منحطين الى صفّ القطيع ويردّ لهم انسانيتهم . إن الكاثوليكية تطرح الفقراء على ركبهم امام الرب وكهنته . اما في الكاندومبليه فهم على العكس يقومون بتجربة تلك السيادة التي ينبغي لكل انسان ان يطالب بها . صحيح ان الجميع لا يبلغون درجة النشوة ، حتى بين اولئك الذين تهيئهم المعرفة لذلك ، ولكن يكفي ان يحسّ بها البعض لانقاذهم جميعاً من الذل . إن اللحظة القصوى للحياة الفردية « لابنة القديسين » ــ حين تتحول من بائعة قطائف او غاسلة صحون الى « اوغين » او « يمانجا » ــ هي ايضاً اللحظة التي تندمج فيها اندماجاً كاملاً بمجتمعها . وقليلةٌ هي المجتمعات التي تسمح

لأحد افرادها بمثل هذه الفرصة : ان يحقّق صلته بالجميع لا بالتفاهة اليومية ، ولكن عبر ما يُحسّ بأنه الأخفى والأثمن . إن البروز الجذّاب في الكاندومبليه هو محدود ورتيب بما فيه الكفاية ، ولئن كان المثقفون التقدميون يولونه هذا الاهتمام الكبير ، فلأنه ، بانتظار التغيّرات التي ينشدونها ، يحفظ لدى المحرومين شعورهم بالكرامة .

بعد ان هبطنا وصعدنا طرقاً وعرة كثيرة – ومن حسن الحظ ان « زيليا » كانت تملك حرزاً حريزاً ضد الحوادث – توقفنا ذات صباح أمام باب اشهر كاندومبليه في باهيا وأوسعه وأقدمه . وهذا المعبد الذي تشرف عليه أمّ من امهات القديسين هو بالنسبة لباهيا ماكان مونسيرا بالنسبة لاسبانيا : إن هذا الدين وحده يخدم الفقراء لا الاغنياء ؛ إن التراب المصلّب يقوم مقام الرخام ، والطين مقام الآنية ، وبعض الطبول مقام الاراغن الكبيرة . كان الحوش قائماً على رابية ، وكان يضمّ بيوتاً صغيرة يعيش فيها المعمّدون حديثاً اثناء مهلة التدريب ويعود اليها في بعض الظروف فتيات القديسين وخادماتهم ؛ وهناك قاعة كبيرة للرقص مبنية ، على غرار كنائسنا ، وفق قواعد رمزية معقدة ؛ وفي المبنى الرئيسي تسكن « ام القديسين » : وتتجمّع في احد المذابح آلهة المدينة ، بصورة تماثيل من جصّ ؛ اما آلهة الأرياف فقد كانت معابدهم في الخارج : وكانت موضوعة بشكل يذكّر بأوضاع المعابد على القارة الاصلية ، لأن كل كاندومبليه عالم افريقي صغير . وبعد نظرة سريعة الى هذه الأبنية التي يضيع بعضها في الطبيعة على بُعد كبير ، عُدنا الى « ام القديسين » : وكانت تنقد الحبّ امام بابها دجاجتان مهيأتان للذبيحة . وكان امادو وزوجته ينتميان الى كاندومبليه ام القديسين هذه ؛ وقد تدبّرا ، على انفراد معها ، امر الواجبات التي لم يكونا يخلاّن بها قطّ . وكانت قد أُخبرت بزيارتنا ، فارتدت اجمل ثوب لديها : تنانير وشالات وعقود ولآلىء . وكانت حيّة ، ثرثارة ، وخبيثة ؛ وقد اشتكت من « كلوزو » الذي كان قد حاول ان ينتهك الأسرار ، ومدحت مدحاً كبيراً بيار فيرجيه الذي كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد جلب لها من افريقيا حاجات مختلفة ، مما جعل علاقاتها بالاوريكسا معزّزة . وكانت هي نفسها قد سافرت الى افريقيا . وفهمت انها حين دُعيت للاختيار بين آلهة هذا الفريق او ذاك ، اختارت عبادة الزنوج . وكانت تتكلم لغة الزنوج قليلاً : إن امتلاك اللغة الافريقية ضرورية لعقد العلاقات مع القديسين . وفيما كانت امرأة شابّة تعدّ لنا في المطبخ بعض المآكل ، استشارت ام القديسين بعض المحار لتعرف الى اي الارواح كنّا ننتمي؛ وقد قالت إن سارتر كان اوكسالا ، وانا اوكسين . وعلى الطريق ، كنا قد لمحنا عند اقدام الشجر ، دجاجاً مذبوحاً هنا وهناك ؛ وسألناها في ذلك ، فقالت إن هناك رُقىً يجب شجبها ، وصرّحت بقولها : « انني أعمل ابداً للخير ، لا للشر » ، والسحرة هم الذين يجعلون الناس مرضى ، بمساعدة « الشيطان » ، ويهدمونهم ويقتلونهم . وامهات القديسين وآباؤهم ، والبابالاو ، يتدخلون لسعادة البشر . وتحدّثنا وقتاً طويلاً . إن تزاوج الكاندومبليه والكاثوليكية ، في التفصيل ، يعطي غالباً نتائج لا معقولة ؛ ولكن الوثنية القروية المندمجة بالمسيحية تنسجم اجمالاً انسجاماً جيداً مع مخلّفات الوثنية الافريقية ؛ وسكان باهيا يشعرون في كنيسة سان فرنسيسكو بمثل الارتياح الذي يحسّونه في معابدهم .

وفي كنيسة السنيور دوبونفيم تقام خصوصاً الحفلات الوثنية المسيحية التي يجاور فيها دم الدجاج المذبوح البخور . وقد قمنا بنزهة طويلة وجميلة لنقصد الى مشاهدتها ، سالكين الطريق المحاذية للشاطيء المتعرج ، متفرجين في طريقنا على قلعة مونسيرات القديمة والمعبد الذي يتقدم فناؤه حتى البحر . وتنتصب الكنيسة في أعلى ساحة واسعة : ويباع امام بابها سُبحات وعقود طقوسية وتماثيل مسيح مصلوب وتعاويذ وصور للقلب المقدس ويامنجا بشعرها الطويل المسدل ، وهي تسير فوق الموج . وتحتوي السكرستياً على مجموعة من النذور المدهشة : جص وعكازات وصور ورسوم وقوالب للأعضاء التي شفاها الرب .

وفي شوارع باهيا ، لا يزال السوقة ليلاً يمارسون لعبة « التضارب بالرجلين »

الفرنسية القديمة ؛ وحين يعلّقون في أكعابهم شفرات حلاقة ، تصبح اللعبة مميتة . وهي قد أوحت برقصة شهدت نموذجاً لها ذات مرة في احد الحانات ، وسط « حيّ للغزو » ، وشهدت نموذجاً آخر في وسط باهيا ، في قاعة مزدانة بالأكاليل والأعلام والأنابيب المختلفة الألوان . وكان كل راقص يُرسل شريكه في الرقص في الهواء ويلقيه ارضاً وهو يهدّد وجهه بقدمه ، ولكنه يتجنّب ان يدركه . وهناك انواع كثيرة من الهجوم والتجنّب . ويرافق هذه المعركة البيضاء عدد من الموسيقيين . وقد قام بعرض مدهش زنجيّ مسنّ هزيل ، قصير جداً ، ذو مظهر خبيث ، وهو استاذ وبطل في اللعبة .

وقد كان والد امادو زارعاً للكاكاو ؛ وقد وصف جورج امادو في قصته الأولى « كاكاو » التي كتبها وهو في التاسعة عشرة ، وضع عمّال ابيه الزراعيين. وفيما بعد ، صوّر في قصته « الأرض العنيفة » الشجاعة والاجرام اللذين يتميّز بهما فاتحو الغاب الأولون ، « الكولونيلية » الذين كانوا يمارسون حق الحياة والموت على قطعان من العبيد ويفضّون منازعاتهم بحدّ البندقية . اما « الأرض ذات الثمار الذهبية » فتصوّر الجيل الذي تبعهم : مضاربون ومستغلّون كانوا يحترمون مظاهر الشرعية . وفي رواية « غابرييلا » التي حازت في ذلك العام نجاحاً ضخماً ، كان امادو يصف ايضاً « ايليوس » مرفأ الكاكاو . وقد اراد ان يُرينا اياه .

وقد حلّقنا فوق مشهد متموّج من التلال والغابات المنتفخة بالماء . وفي المساء ، كان المطر يهطل على « الايتابونا » الذي لم يبد لنا أقلّ كآبة تحت شمس الصباح . وكان امادو يعتقد ان المرء محتاج ، لكي يعرف بلداً ما ، ان يعرف أولاً ماذا يأكلون فيه ؛ وقد أخذنا الى السوق ، فكان ثمة فاصولياء حمراء ، ومنهيوث ، وارز رديء ، وقرع ، وبطاطا حلوة ، وقطع من السكر الخام شبيهة بصابون اسود ، ولحم بقر مجفّف في الشمس : لم يكن ثمة ما هو طازج ؛ وعلى ظهور الحمير الصغيرة أوانٍ مغطّاة بالتبن ؛ وعلى الأرض ظروف من جلد الماعز وحبال ؛ وكان المرء يشمّ في الهواء رائحة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليّة قديمة . وكانت للسكان – وهم خلاسيون من الهنود والبرتغاليين مع قليل من الدم الاسود – وجوه شرسة . كانت الأرض غنية ، ولكن بعض ذوي الامتياز والنفوذ كانوا يحتكرونها ؛ ولم يكن التبغ والكاكاو يتركان مكاناً لزراعة مواد المعيشة . وقد صحبنا امادو وبعض الأعيان الى زراعة « فازندا » نموذجية ، على ما قيل لنا . وقد مشينا بحذاء نهر متدفّق عبر ريف جميل . وكان منزل السيد يقوم على ربوة وسط حديقة . وكان كمعظم ملاّكي الأراضي يفضّل ان يقيم في الريو على ان يقيم في املاكه . وكان المدير هو الذي استقبلنا ، فقادنا ، والبسمة على شفتيه ، الى المكان الذي ينزل فيه العمال – وهو أشبه بزريبة منه بقرية . لم يكن ثمة ماء ولا نور ولا تدفئة ولا أثاث : وانما جدران تحيط بقطعة مربعة من الأرض ، وبعض صناديق . وكانت الغرف مصفوفة حول ساحة كان يلعب فيها اطفال عراة ذوو بطون منتفخة ونساء في أسمال ؛ وكان الرجال ذوو البشرة المعتمة والشعر الاسود ينظرون الينا ، والفؤوس في ايديهم ، والحقد في عيونهم . « في كوبا ، كان لهم هذه البشرة ، وهـذا الشعر ، وتلك الفؤوس ، وكانت عيونهم المحدّقة في كاسترو تلتمع بالحب » . وفي احد الممرات ، كانت صورة دعائية مضحكة تمثّل مسافرة انيقة تهبط من سريرها ، معلّقة على جدار : ولم أر أية زينة اخرى . وعلى السقوف ، كان لوز الكاكاو تتصاعد منه في الشمس رائحة معتّقة لذيذة كانت تمتزج بروائح اخرى لا اسم لها . ومن ممر موحل ، وصلنا الى الغابة التي تنبت فيها ثمار الذهب . وقطف امادو احدى الجوزات وشقّها : كانت حبة اللوز بيضاء دبقة تذكّر بطعم الشوكولا . وفي طريق العودة ، سألته لماذا حدثونا عن « فازندا » نموذجية ، فأجاب : « أعتقد ان طبيباً يزورها بين الفترة والفترة ، وأن مركز الماء لا يبعد اكثر من كيلومتر ، وان المطر لا يخترق السقوف .» وأضاف يقول : « ومهما يكن من أمر ، فاننا اذا قارنّا هؤلاء الرجال بفلاّحي « سرتان » وجدناهم يتمتعون بامتيازات : انهم يأكلون . »

ودلفنا بين الغابات ، بمحاذاة النهر ، عبر ريفٍ كان يخيّل للمرء فيه ان

بوسعه ان يكون سعيداً ، حتّى بلغنا « ايليوس » . وكانت ركام من الكاكاو منضدة في المستودعات ؛ وكان رجال أغلبهم من الزنوج يحملونها الى سفن مربوطة في خليج صغير هادىء يفصله عن المحيط مدخل ضيّق ، وكان لونه بلون النخيل الأخضر الذي يزيده المساء عذوبة . وكان عمّال المرفأ منظّمين في نقابة ، وكانوا يعملون بقسوة ، ولكنهم يكسبون جيداً . وكان يُرى من عضلاتهم ومن مظهر الصحة عندهم ، ومن افواههم التي تعرف ان تضحك ، انهم كانوا يأكلون حتّى الشبع . وفي عرض « ايليوس » كان المحيط متلاطم الأمواج حتّى ان السفن الكبرى لم تكن تستطيع الدنوّ ؛ وقد لمحنا سفينتين منها في البعيد كانتا تنتظران حمولتهما . وقد طالب امادو في « غبرييلا » بمرفأ عصري لايليوس ؛ وحظوته في البرازيل تبلغ حدّ أنّ اعمال بناء هذا المرفأ قد بدأت ؛ وقد قصدنا المكان الذي كان البناء يقوم فيه .

وكان ثمة مورد آخر للمنطقة : هو المواشي . وقد قصدنا ذات صباح سوق « سانتا أنّا » ، على بعد حوالي مئة كيلومتر من باهيا ، وكان اليوم يوم سوق . وكان ثمة جموع غفيرة تتزاحم وتتدافع على رقعة تمتد عدة كيلومترات ، وكان موسيقيون متنكرون يرسلون من غيتاراتهم ومن حناجرهم كل ما يستطيعون من ضجيج ؛ وكانت تباع قطائف ومعجنات بالفاكهة ، وحلويات بالكوكو ؛ ولكن وهم المرح هذا كان سرعان ما يتبدّد ؛ كانت السوق في مثل بؤس سوق « ايتابونا » ؛ ولم يكن ثمة فنّ شعبي ، باستثناء بعض التماثيل الطينية المتوسطة القيمة ؛ كانت باهيا بعيدة جداً ؛ وقد كان هنا انعكاس أسى الريف الذي يعني العيش فيه استنفاد القوى من أجل العيش ؛ ولم يكن ثمة مكان للاضافيّ . وعلى تخوم المدينة ، كانت قطعان هائلة من البقر معسكرة في سهول : وكانت بعض العجول تقفز وهي تثير حولها غباراً ، وكانت مغطّاة من قرونها حتّى اقدامها بالجلد ، حماية لها من الشوك والصبّار . ولم تكن هذه القطعان تخصّهم ؛ انهم لا يهتمون الا اهتماماً ضئيلاً بتربية المواشي التي لا تعود عليهم بعائدات مغرية ، بسبب الجفاف والاوبئة . وعلى الأرض ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت قبعات وأحذية وسراويل وسترات وقفازات مراويل من جلد ذات لون أحمر جميل ، ولكنها ذات رائحة حيوانية .

وكان علينا بعدُ ان نطلع على شأن التبغ ــ لأن امادو كان نظامياً . وقد قال لنا الاستاذ الذي تناولنا الغداء عنه : « إن «كاشويرا » هي على بعد ساعة من هنا » . وكان لا بد من ثلاث ساعات لاجتياز الطريق المحفورة بالورطات والتي ايقظت ارتجاجاتها داء المنطقة لدى سارتر ؛ ولمحنا خربتين او ثلاثاً كانت تنبت بالقرب منها نباتات التبغ . وكانت المدينة منبسطة بهدوء على جانبي النهر ؛ وشردنا عبر البيوت القديمة والكنائس القديمة . ثم دخلنا سقيفة سيئة الإنارة كانت نساء متعبَات ينكثْن فيه بأرجلهن العارية اوراق التبغ ؛ وكان ينضاف الى الرائحة الحامزة للنباتات الميتة رائحة مراحيض ، حيث كانت قطع من غائط تتحلّل تحت الشمس ، وداخلني شعورٌ بجحيم كانت النساء محكومات فيه على ان يدسن على اقذارهن . ولدى خروجهن انقضضن ليغسلن ارجلهن في ساقية ماء موحلة : لم تكن ثمة مغاسل ، ولم تكن ثمة احواض ، ومع ذلك ، كان نهر يجري على بضعة أقدام . وكان كثير من العاملات يلبسن عقوداً مقدسة . وقال فيفالدو لإحداهن «آه ! انت ابنة اوكسين ؟ » وسألها عن كاندومبليه مدينة كاشويرا . وقال لنا فيما بعد ، انها كانت مترددة أول الأمر ، ثم أشرق وجهها حين عرفت انه كان هو نفسه من المعتنقين . وادركت تماماً ، بعد ان رأيت القذارة التي تعيش فيها هؤلاء النسوة ، المعجزة التي كان يحققها الكاندومبليه .

وقادتنا نزهة اخيرة ، ذات صباح ، الى داخل الخليج ، حيث كانت تقوم مدينة البترول . وتأميم بترول البرازيل هو احد مفاخر هذا البلد . لقد اقام فارغاس عام ٥٣ المونوبول الحكومي على البترول ، بدافع من تيار عنيف ضد الاميركيين : فلا يحق لأي رأسمال اجنبي بعد ذلك التاريخ ان يوظّف في استثمار البترول ، وهذا ما عاد بخسارة جسيمة على شركات البترول الاميركية . وبعد مضيّ عام ، دفعت الطغمة « الاميركية » فارغاس

الى الانتحار ، ولكن المونوبول قد بقي ؛ وتتعاقد مدينة البترول « بتروبرا » احياناً مع اخصائيين اميركيين ، ولكن ليس ثمة بعد بئر بترول لا يخصّها. وقد اقيمت مصفاة هائلة عند شاطيء البحر : وكنا ننظر اليها من أعلى الربوة التي أقيمت عليها مدينة العمال التي تتوفر لها جميع اسباب الرفاهية . والواقع ان البروليتاريا ، اذا قورنت بطبقة الفلاحين في البرازيل ، فانها تشكل ارستقراطية ، ويقف عمّال بتروبرا في قمتها . وقد رأينا في الغابة كذلك برجاً معدنياً يحفر مثقبه الأرض الى عمق اربعة كيلومترات .

كانت هذه الزيارات تجعلنا نعرف مادياً الارض البرازيلية ، وأشكال شواطئها ، والوان غاباتها . وفي الوقت نفسه اطلعنا أصدقاؤنا على وضعها السياسي الذي شقّ علينا اولاً ان ندركه .

كانت البلاد في الحمى الانتخابية . وكانت البرازيل تستعدّ لاختيار رئيسها . وبالاضافة الى ذلك ، فان « ريو » التي سقطت من رتبتها كعاصمة لصالح « برازيليا » كانت تشكّل بعد الآن « دولة غوانارا » الجديدة التي كان يجب تعيين ممثليها وحكومتها . وكان ثلاثة رجال يتنافسون على الرئاسة : اديمار (الذي كانوا يذكرون عبارته : « أسرق ولكنني أعمل ») ولم يكن له اي حظ ، بحيث ان المعركة كانت تدور بين « جانيو » والماريشال « لوت » ؛ وكان جانيو مرشح اليمين : فاذا حصل على السلطة ، فانه سيشجّع مصالح الرأسمالية الكبيرة ؛ : ولكنه كان قد وجّه الى كوبا والى الجزائريين تصريحات ودية ؛ وكانت كريستنيا عازمة على ان تصوّت له ؛ وكانت تنتعل حذاء مزيّناً بشعار جانيو : مكنسة صغيرة ، وكان يَعِدُ بازالة الفساد . وكانت لوسيا تقول : « ولكنه سيسلّم الحكم الى فريق آخر من المستغلّين » . وكانت كريستينا تجيبها : « إنه يؤيّد كوبا والجزائر ، وسيفعل شيئاً من أجل الفلاحين . » فتردّ أختها : « انه هستيري ، فهو يَعِدُ ، ولكنه لن يفي » . ولذلك فهي ستصوّت « للوت » ، على غرار امادو وجميع افراد اليسار . وكان يؤكّد انه ، هو الوطني المناهض للاميركيين ، سيناضل من اجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استقلال البرازيل الاقتصادي .وكان يؤيده كوبيتشيك ــ الذي كان الدستور يمنعه من ترشيح نفسه ، ولكن نفوذه كان عظيماً ــ والشيوعيون ؛ والمصيبة ان « لوت » كان عسكرياً يتصنّع التقوى ، وكان في السياسة الخارجية رجعياً : ذلك انه كان قد انحاز ضد كوبا . وكان مواطنوه يتناقلون حول بلادته حكايات مؤسفة بقدر ما هي مضحكة . من ذلك ان مرضاً منعه من المشاركة في مناورة عسكرية ، فقرّر ان يقيم هذه المناورة على شكل أصغر في حديقته : وقد قام بالطواف ، بناء على اوامره ، لمسافة اربعين كيلومتراً ، مشياً دائرياً . وبعد عشرين كيلومتراً ، توقّف الجنود للاستراحة . وعطش أحدهم ، فلاحظ انه نسي قربته ، واراد ان يذهب ليأتي بها ، فاستوقفه لوت قائلاً له : « انها على بعد عشرين كيلومتراً » ... وطوال ستة اسابيع ، رفعت اعلام ولافتات واذيعت اسطوانات ، وطافت سيارات بالمكبرات تمتدح في صخب مزايا المرشحين ، وكانت المفرقعات تطلق على شرفهما .

وكنا نتابع هذه الحملة في الصحف التي كنا نفهمها تقريباً ، لقرب لغتها من الاسبانية . وقد قرأت معظم الدراسات المكتوبة او المترجمة الى الفرنسية عن البرازيل ؛ وقد اطلعت على ادبها عبر الترجمات الفرنسية .

* * *

ودّعنا الاختينَ ت . وفيفالدو الذي كان ينتظر ، بعصبية ، وصول استاذ افريقي ليعلّمه لغة الزنوج . وحين غادرنا باهيا الضاحكة المبللة وليمونها الأصفر وجموعها السوداء وكنائسها التي يبدو فيها تماثيل المسيح اوثاناً ، ومذابحها التي يبدو فيها القديسون المصنوعون من الجص آلهة افريقيين ، واسواقها وفولكلورها وفلاحيها المسحورين ، كنا نعلم اننا نبدّل عالمنا . ثلاث ساعات بالطائرة . وانتصبت في الارض جبال ذات اسنان كاسنان المنشار ، اصابع الرب ، إبرٌ مقشورة ، خبزٌ مسكّر ؛ واكتشفت خليجاً مزروعاً بجُزيرات لا تحصى ، وهي من الاتساع بحيث لم يكن بصري يضمها كلها . ريو . وقادتنا طريق غاصّة بالناس وهي

قبيحة ، وجادات ملآى ترفرف فوقها اعلام انتخابية ، ونفق ، الى فندقنا في كوبا كابانا .

كان جمال كوبا كابانا من البساطة بحيث انها لا تُلمح على الخرائط ، وكان لابدّ من انقضاء بعض الوقت لكي تتملكني . وكنت افتح نافذتي في الطابق السادس ، فكان يدخل غرفتي بُخار حارّ مع رائحة طرية من اليود والملح وهدير الأمواج المرتفعة . وكان خطّ البنايات العالية يتطابق على بعد ستة كيلومترات مع انحناء الشاطيء الواسع الذي يموت عنده المحيط ؛ وتقوم بينهما جادّة ملساء : لاشيء يعكر التقاء الواجهات العمودية والرمل المنبسط ؛ كان تجرّد الهندسة المعمارية يزاوج عري الأرض والماء . وكانت لطخة الوان واحدة على بياض الحصباء : طائرات اجرة صغيرة حمراء وصفراء منقطة بالأسود . كان الوقت شتاء ، ولم يكن يرى الا اشباح نادرة ، جامدة او متحركة ، بين الطريق والبحر . ففي الصباح الباكر ، يأتي خدم الحيّ ، وحوالي الثامنة الموظفون ، والأشخاص الذين يعملون في النهار ، ثم العاطلون والاولاد ؛ وقلما يسبح الناس بسبب اصطخاب الأمواج ؛ وهناك في امكنة اخرى سيركات وشواطيء أفضل حماية وتنظيماً ؛ اما هنا ، فالمرء يغسل رجليه ويتمدّد في الشمس ويلعب بكرة القدم . وكان من الصعب التفكير بأن هذه الوحدة اللامبالية ، وان روعة المحيط والصخور تنتمي الى مدينة كبيرة كثيفة ومحمومة . وفي المساء ، كان ضباب ذو رائحة تجفيف يُبهت اضواء الأبنية ونيون اللافتات : ولم يكن ثمة في العالم ما يُتمنى غير ذلك التلألؤ ، وتلك الرطوبة اللزجة .

تضمّ كوبا كابانا ٣٠٠ الف نسمة ، معظمهم من البورجوازيين الصغار والكبار ؛ وكان لذيذاً ان يتنزّه المرء بين هذه الابنية الجميلة القائمة غالباً على عوّامات ، في اسلوب «لوكوربوزييه» . وكان الحيّ يموت عند قدم جرفٍ ترقاه بعض الطرق ، وكان يُجتاز غالباً بالأنفاق . وكانت الخضرة تغطي هذه الحدبات ، وتكتسح الغابة المدينة التي يحاصرها المحيط

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ايضاً : فليس ثمة مدينة اخرى كبيرة تنتمي هذا الانتماء الكامل الى الطبيعة. والنزهة بالسيارة في الريو، هي سلسلة من الصعود والاستدارة والهبوط غير المتوقع، والنزول عمودياً، مع اكتشافات مفاجئة رائعة على صخور الشاطيء وعقده من البلاجات. وينبهر المرء بهذا المشهد المدني والمتوحش من أعلى كوركافادو، حيث نُصب على ارتفاع سبعمئة متر تمثال للمسيح طوله ثلاثون متراً.

وليست المدينة مبنية علواً إلاّ في الاحياء الجميلة؛ وهي تمتدّ امتداداً بعيداً حتى ان السائقين قد قسموها قسمين : فان سيارات الشمال العمومية لا تدخل منطقة الجنوب، والعكس بالعكس. وقد عبرنا أحياناً تجمعات قبيحة للعمال في الشمال، ولكننا لم نعرف معرفة أليفة الا الجنوب. وكانت جادة الرئيس فارغاس تثبط عزيمتنا بعرضها، ولكنا كنا نصعد غالباً جادة «ريو ـ برانكو» : وكان ثمة امواج من المارّة على الارصفة، وطريق غاصّة، وحوانيت، وأكشاك، واعلانات وحانات مفتوحة على الشارع حيث كانت تلتمع آلات صنع القهوة، وآنية ملآى بعصير الاناناس والبرتقال والماراكوجا والاعلام والشعارات : كانت هذه الحركة تشبه المرح، ولكن هيئة الناس كانت حزينة. والى اليمين والشمال، كانت الشوارع الممنوعة على السيارات سوداء من كثرة الناس؛ ثم كان المارّة انفسهم يقلون تدريجياً، وتصبح الحوانيت اكواخاً هزيلة؛ وفي قلب المدينة، تسكّعنا في حيّ رديء قذر. واكثر من مرة، صعدنا الترام الذي كان بطوءه ومحطاته تروقنا. ورأينا الأبنية التي بناها المهندسون البرازيليون الشبان : «متحف الفن الحديث»، «وحدة السكن» لألفونسو ريدي، عمارات نينو ليفي، وعمارات نيمير وكوستا، وكلهم تلامذة لوكوربوزييه، وقد بنوا معه بناية وزارة التربية الوطنية؛ وكانت آثارهم اكثر اناقة من آثاره. اما آثار البرتغال الباقية فقليلة. وقد نسيت اسم هذه الساحة التي زينت جدرانها بالفسيفساء، وهي ذات مخرج واحد، بعيدة عن ضجيج المدينة،

تحيط بها بيوت وأشجار سامقة. وكانت ساحة الإقلاع احد اماكننا المفضلة: فقد كانت فيها قوارب بخارية تنطلق نحو جزر الخليج؛ وكانت مراكب وسفن تنقل الناس والسيارات والبضائع الى «نيترو» التي كانت بسكانها المثّي ألف وناطحات سحابها تبدو، وهي على الشاطيء المقابل، توأماً لريو سيء الحظ. والسفن هناك محملة اكثر مما ينبغي، وغالباً ما تنشر الصحف ان ثلاثين او خمسين راكباً قد غرقوا. وكانت سيارات التاكسي والترام تتدفق؛ وباعة متجولون وحوانيت يبيعون أطعمة ومشروبات. والى جانبها تمتد اسواق كبيرة تنبعث منها رائحة الخضرة الطازجة والاناناس وكذلك السمك واللحم المتعب. وكان الخليج وسفنه يُرى من الطابق الاول لمطعم؛ وكذلك الشارع والتنقلات فيه. وقد لمحنا ذات أحد، جمعاً من الرجال بقمصان وردية وصفراء وخصوصاً خضراء (وهذا هو اللون المفضل لدى البرازيليين) واقفين على جادة كثيبة تشقها قناة. كانوا يضحكون ويتكلمون مع نساء كنّ متدليات كالعناقيد من نوافذ بيوت كبيرة واطئة. وكنا نلمح عبر أبواب مشقوقة خلاسيات جميلات بثوب السباحة. لم يكن ثمة ما هو سرّيّ خفيّ؛ فكأنه عيد قروي في وضح النهار.

وفي المساء، كانت ريو تتلألأ: كانت العقود والسلاسل والنطاقات الحجرية تلتفّ حول جسدها المعتم. وقد آثرت، في أبخرة الشفق الرمادية الزرقاء، الشوارع الصغيرة ذات الأكواخ المغلقة. إن في ريو شيئاً متعباً وذابلاً — الأرصفة ذات الموزاييك الأسود والابيض متشققة، والاسفلت والجدران مقشرة، والطرق قذرة — وكلها تخفيها الشمس والجموع. اما في الاحياء الشعبية، فان اشباحاً والواناً من الأسف تطفو في الليل والصمت.

وعلى ثلاثة ملايين من السكان في ريو، يعيش سبعمئة الف فيما يسمى ب «الفافيلا»؛ فالقرويون الذين يقدمون، من بعيد غالباً، بحثاً عن الثروة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المدينة ، يتراكمون في اراضٍ يتركها المالكون مهجورة : كالمستنقعات والتلال الصخرية ؛ وحين ينجحون في ابتناء اكواخ لهم بواسطة الألواح الخشبية والورق المقوى والصفيح ، فان السلطات لا تجد من حقها بعد ان تطردهم منها . و « الفافيلات » كثيرة في قلب ريو نفسها ، على النتوءات الصعبة . وكان احد موظفي السياحة قد اقترح دهن هذه الاكواخ بالالوان ، إخفاء لبؤسها ، ولكن المشروع ترك في نصف الطريق ، ولا تزال بعض الأكواخ تحتفظ بألوان فاقعة ؛ وتبدو بعض هذه الاحياء المعلقة على قمم الروابي ، مشرفةً على المدينة والمحيطة ، وكأنها قرى سعيدة . ولا يحب البرازيليون ان يرُوا « فافيلاتهم » . ولكن تيريز كارنيرو التي كنا قد تعرفنا اليها في باريس قد اخذتنا في زيارة واحد منها . وكان ذلك في كوبا كابانا ، حيث تجمع اكثر من أربعة آلاف شخص في أكواخ نضدت على رابية مرتفعة اكثر من مئة متر ، وكان معظمهم من الزنوج . وكانت الفافيلا ظاهرة البؤس والقذارة والامراض ، كجميع الفافيلات الاخرى . ولكن كانت تمتاز بوجود راهبة فيها تدعى الاخت رينيه ، او ببساطة رينيه . كانت ابنة قنصل فرنسي ، وقد تأثرت في صباها لشقاء الشعب الاسباني ، فارتدت الزيّ الديني وعملت في حقل الكهنة العمال . وقد نصحت ان تأتي الى ريو ، « فاكتسحت » ، برضى المالك ، قطعة أرض كان رجال « الفافيلا » قد ساعدوها على ان تبني فيها مستوصفاً ومدرسة . كانت شقراء مورّدة ، ذات وجنتين بارزتين ، وكانت جميلة تقريباً ، بقميصها الازرق ، قميص الممرضة ، وقد ادهشتنا بذكائها وثقافتها وحسّها المادي السليم . وقالت : « اننا سنتحدث لهؤلاء الأشخاص عن الله بعد ان يحصلوا على الماء... بلاليع اولاً ، ثم الاخلاق . » وكانت تدافع عن قضيتهم : « يتهمونهم بجملة من الجرائم ؛ وانا أجد انهم ، في الظروف التي يعيشون فيها ، انما يرتكبون جرائم قليلة » وأشارت الى النادي ، القائم على شاطيء البحر ، حيث كانت الشبيبة المذهبة تلعب

التنس وتسترخي في الشمس ، ثم قالت : « انني مستعدة ، بما املك من صحة ودم ، ان أهبط لأذبحهم . اما هؤلاء المساكين ، فانهم لا يأكلون بما فيه الكفاية ، وهم من أجل هذا لا يتحركون » وكان على الطاولة كتاب كبير عن القنّب : كان الرجال والنساء يسممون انفسهم بمخدرات كانت تقذفهم في الوان من الهذيان العنيف . وكانوا يقيمون مساء السبت ، عدة اكواخ ، حفلات « ماكومباس » وهي مختلفة جداً عن « كاندومبليه » باهيا العاقلة . وفي هذه البروليتاريا — الدون ، المقطوعة عن تقاليدها القروية ، كان الامتلاك مغامرة فردية وليست جماعية ؛ وقد كان العارفون بالأسرار يحرقون انفسهم او يجرحون أطرافهم في اثناء حالاتهم الارتعادية ؛ وكانت رينيه ، صباح الأحد ، تعالجهم ، وتقول انهم كانوا يعرفون ادوية سحرية : وكانت قد رأت جروحاً عميقة التأمت بعد ساعة . وكانت تؤكد : « ان هناك شيئاً ما في دينهم » من غير ان تضطرب لذلك ، لأنها كانت تعتقد بلاشك ان دروب الله متعددة . وكانت تدير الفافيلا وفق مناهج قريبة جداً من تلك التي كنت قد رأيتها تطبق في الصين : كانت قد اقنعت السكان ان يعملوا بانفسهم لسعادتهم . وكان ثمة رجال قد خطّوا وبنوا طرقاً ، وكانوا يحفرون انواعاً من السواقي والبلاليع ، وكانت تساعدهم على سرقة الكهرباء من المدينة ؛ وفي الوقت نفسه كانت تقوم بالمساعي لدى البلدية للحصول على الكهرباء بصورة مشروعة ، وللحصول على الماء وعلى البلاليع الحقيقية . وكانت بعض نساء الحيّ يساعدنها ، وكانت تحاول ان تربيّ بديلات . وكانت اقلية من البيض لا بأس بعددها تعايش الزنوج ، وكانت تحارب عنصريتها . وقد كانت لها مشكلاتها . كان المكان غاصّاً بالسكان أكثر مما ينبغي ؛ وكانت البلدية والعقل السليم يمنعان قبول قادمين جدد ؛ وكانت رينيه تردّهم ولكنها تقول : « إن هذا ليس من الاحسان ، ليس من المستحسن رفض ايواء من لا سقف لهم . » وفي شهر العطلة التي اعطاها إياها معلّموها ، كانت تنوي ان تهتمّ بهنود امازونيا . وقالت لنا وهي تبتسم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« يجب ان يقضي المرء عطلة ذكية » . كانت مستقيمة ، تلقائية ، فكانت تزيل جميع الانتقادات التي توجّه عادة الى السيدات المديرات واخوات الاحسان : انها لم تكن تنظر الى الأشخاص الذين تخدمهم بعيني المجتمع او الرب ، وانما كانت تنظر الى المجتمع والرب بأعينهم هم .

كانت زيليا تقود ، وكانت كريستينا التي جاءت مع امها الى ريو تملك سيارة ؛ وقد اخذتانا للتفرّج على الضواحي ، ومنها الكورنيش المتوحّش الذي يمتدّ من البلاجات ؛ وعلى جوانب جبل « توجوكا » وهو بارتفاع ألف متر ، رأينا الغابة الكثيفة التي تحتل اليوم مكان مزارع البنّ المنهكة . واصطحبنا امادو وزوجته الى الجبل ، في بترويوليس ؛ وكانا في الصيف ، حين تخنق الحرارة ريو ، يستأجران فيه غرفاً في فندق ضخم لا بدّ انه كان كازينو : ولكن القمار كان قد منع فيه ، وكانت الصالونات الخالية مصطفّة فيه . ورأينا الفيلا التي انتحر فيها ستيفان زفيج . وفي يوم آخر ، استقللنا مع زيليا باخرة الى جزيرة باكيتا ، حيث قمنا بدورة في العربة ؛ وكانت المركبة القديمة منسجمة مع المساكن الجميلة المجدّدة ، ومع البساتين المهجورة ، ومع رائحة الصبار .

وفي المساء كنا نتناول العشاء على سطيحة « الاتلانتيكا » ، متنبّهين الى تلألؤ الأنوار وتمتمات الأمواج ، والى مداعبة الهواء الفاتر . وكنا غالباً ما نتناول الغداء في ما يسمى « شوراسكاريا » . فأمام نيران تنبعث من الخشب ، تنبعث اوتاد من حديد ، منصوبة عمودياً في الأرض ، ومشكوك فيها قطع من لحم الخنزير والغنم والبقر : على هذا النحو يشوي سكان الجنوب لحمهم . وتُقدَّم اكلة « الشوراسكو » في آنية تحمل السفود عمودياً ؛ ولم آكل في اي مكان في العالم لحماً اشهى من هذا اللحم ؛ اما المنيهوت الذي يرافقه فقلما يأكله الأوروبيون . وقد وجدته لذيذاً وهو مشويّ ومرتّب بشكل جيد ؛ وكانت رائحة الخشب المحترق تضمّخ الهواء .

ويحمل الفندق المطعم الأشد تواضعاً في البرازيل اسم « علبة » ؛ وفي

كوباكابانا كثير من العلب بالمعنى الذي نطلقه على هذه الكلمة ، ولكن امادو وزوجته كانا يجهلانها . وقد اكتفينا بارتياد تلك الحانات المعتمة التي تسمى « الجهنّمات الصغيرة » لأن قصصاً غرامية ذات طابع مالي تجري فيها ، مع الشراب والموسيقى . وفي هذه الامكنة ، قضى غراهام غرين حين جاء لمؤتمر نادي القلم ، اجمل اوقاته فراراً من المناقشات الادبية .

وكنا قد شعرنا بودّ سريع مع جورج امادو وزوجته زيليا ؛ وفي ريــو اصبحنا اصدقاء حميمين : ولم نكن نعتقد ، وقد بلغنا عمرنا هذا ، ورأينا كثيراً من العلاقات تذبل ، ان نعرف بعدُ مرح صداقة جديدة . وقد كانت زيليا ابنة شيوعي قتله رجال الشرطة ، وكانت هي نفسها شيوعية ، وقد التقت جورج امادو في احدى الحملات الانتخابية ؛ وقد اكتسبها بعد صراع طويل مع زوج كانت قد كفّت عن حبّه ؛ وهما منذ خمسة عشر عاماً يشكّلان زوجين سعيدين حيّين ؛ وكانت زيليا مدينة الى أصلها الايطالي بتلقائية ونضارة طفليتين ؛ وكانت ذات شخصية وحرارة ، ونظر ثاقب ، ولغة حيّة ؛ وقد وجدت حضورها منعشاً ، وهي احدى النساء النادرات اللواتي كنت أضحك معهن . وكانت الرصانة والحماسة تتوازنان لدى جورج ايضاً ، وإن المرء ليشعر ان خلف اعتداله صخباً كبيراً مكبوتاً . وكان يتأثر بما كان يسمّيه : « الاشياء الطيبة الصغيرة للحياة » : من مثل المآكل والمناظر ، وجاذبية النساء ، والمحادثة ، والضحك . كان يهتمّ بالآخرين ويبدو على استعداد دائم لمساعدتهم وفهمهم ، ولكن كانت له كراهيات حاسمة ، وكثير مــن السخرية . كان عميق الجذور في الأرض البرازيلية ، فكان يتمتع فيها بمركز ممتاز : ففي الفترة التي يعمل فيها بلدٌ للتغلّب على انقساماته ، يكرّم تكريم الابطال الكتّاب والفنانين الذين يعكسون له الوحدة الوطنية التي ينشدها . وكان جميع الذين يحسنون القراءة في البرازيل يعرفون « غابرييلا » ، ولم أر في اي بلد آخر كاتباً يتمتع بمثل شعبيته العالمية . كان يستقبل في كل مكان بالترحاب ، فكان يستطيع ان يُدخلنا الى قصر الرئيس كوبيتشيك كما يدخلنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الى منزل « ام القديسين » .

وكان وهو شاب في عهد فارغاس قد دخل السجن ، وحين مُنع نشاط الحزب الشيوعي فيما بعد ، نفى نفسه مع زيليا ، فقضيا عامين او ثلاثة في تشيكوسلوفاكيا ، في فترة صعبة . وتعرّفا الى باريس وايطاليا وفيينا وهلسنكي وموسكو والباكستان والهند والصين ونسيت البلاد الاخرى . وفي المؤتمرات والرحلات ، كانا يصحبان غالباً الشاعر الكوبي نيكولاس غويان والشيلي نيرودا ، وكان يمازحهم تفريجاً للنفس عن الزيارات الرسمية . من ذلك انه كان يحضر في بكين حفلة اوبرا ، فنقل الى غويان نصّاً من الغنائية اثار استنكاره ودهشته بدعارته . وبعد ايام ، حصلت مناقشة بينهما وبين كتّاب صينيين عن المسرح ، فقال غويان مستاء : « انني لا أفهم ان يبلغ احترامكم للتقاليد الى حد ان تبقوا في المسرحيات التي تقدمونها للشعب فصولاً داعرة . » فبدا الصينيون مشدوهين ؛ وكان امادو يختنق من شدة الضحك ، ففهم غويان على الفور وقال له من غير ان يضحك : « لقد عملتها معي انت ! » وفي فيينا كان امادو يرسل الى نيرودا برقيات : « الى اكبر شعراء اميركا اللاتينية » لكي يثير غضب غويان . ومع ذلك ، فقد اطلع غويان على رسالة سرية ، من تأليفه ، كانت احدى المعجبات تعرض نفسها فيها على نيرودا . وفي أثناء تناول الفطور ، قرأ نيرودا عليهم الرسالة ، ثم اغتمّ قائلاً : « يا لها من حمقاء ! لقد نسيت ان تعطيني رقم تلفونها ! » وكانت زيليا تعرف معه مجموعة من القصص عن مجموعة من الناس .

وكانت زيليا تحضر دروساً في « الاليانس فرانسيز » وتتحدث الفرنسية جيداً . اما جورج فكان يتكلم بنصيب أقلّ من الصحة ، ولكن بسهولة ، كمعظم البرازيليين الذين التقيناهم . وكانا مشتركين في بعض العبارات البرازيلية. فبدلاً من فرد او رجل او شخص ، كان امادو يقول « سيد » . « إن لهذا السيد رأساً لا يروقني ... واعتقد انه سيد قذر » .

وكان امادو وزوجته يسكنان ، على بعد مترين منا ، شقة كبيرة مبلطة

وذات زجاج كثير ، ملآى بالكتب ؛ وكانت الرفوف مغطّاة ببعض آثار الفن الشعبي : كانا قد حملا من جميع انحاء العالم اواني وجراراً وألعاباً وعلباً ودمى وتماثيل وآنية من فخّار وسيراميك وآلات موسيقية وأقنعة ومرايا ومطرزات ومجوهرات . وكان طير ذو لون رقيق يطير بحرية عبر الغرفة . وكان لهما ابن في حوالي الثانية عشرة وابنة في الثامنة . وقد رفض الابن حين طلبت اليه جريدة مدرسته ان يأخذ مقابلة من سارتر ، وكان يعترض بقوله : « هو يقول إنه لم يبق لديه ما يقوله للشبيبة »[1] . وكانت صديقة فرنسية تسكن عندهم ، وكان أخو جورج ، وهو صحفي ، يتردد عليهم غالباً . كان بيته بيتاً عائلياً لنا . وكنا كل مساء تقريباً نشرب فيه الباتيدا ممزوجاً بالمارا كوجا والليمون والنعناع ؛ وكنا احياناً نتناول فيه العشاء او ، ان كنا خارجين ، يصحبانا . وكان جورج ينظم مواعيدنا ، ويحمينا من الفضوليين الثقلاء بصبرٍ عنيد اغتاظ له اكثر من واحد ؛ وقد اتهمه صحفي لم يتح له ان يلقانا ، بأنه كان يسجننا . وكانت المآدب الرسمية مع الجامعيين والكتّاب والصحفيين تقام على شاطيء الخليج ؛ وكان المكان جميلاً جداً ، والطعام لذيذاً جداً حتى اني لم اكد أشعر بشيء من الضجر .

وكانت جريدة « اولتيما هورا » تنشر « عاصفة على السكر » . وقد قرّر روبام براغا واحد اصدقائه ، وهو كاثوليكي يساري ، ان يصدراها في كتاب . وتناقشنا معهما في ذلك . ورأينا مرة اخرى دي‌كافالكانتي . وقادتنا الطرق المتعرجة ، عبر « التيجوكا » الى بيت « نيمير » : وكان يسكن فيلاً في الأعالي ، هي من بنائه ، وكانت تشبه منحوتة تجريدية اكثر مما تشبه بيتاً ؛ وكان سقف يظلّل السطيحة ، وكان الستوديو ينفتح على السماء من كل مكان . وقد قدم لنا اقداحاً من « الدجن » وتحدثنا كما لو كنا متعارفين منذ وقت طويل . وبناء مدينة برمتّها ، يُعدّ بالنسبة للمهندس المعماري حظاً عظيماً ؛ وكان مديناً لكوبتشيك انه عرض عليه هذا الحظ وانه دعمه في وجه

---

(١) إشارة منه الى مقدمة « عدن العربية » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجميع . ولكنه كان شيوعياً – مثل كوستا الذي وضع تصميم العاصمة الجديدة – وكان يطرح على نفسه اسئلة كان ينوي ان يحدّثنا عنها مطولاً في برازيليا .

ولم نكن نعرف شيئاً من الموسيقى البرازيلية باستثناء موسيقى فيلا – لوبوس . ولم تكن « مدارس السامبا » التي كان الكرنفال يُهيّأ فيها قد فتحت بعد . واسمعنا امادو بعض الاسطوانات . كما دعا ملحناً موسيقياً فغنّى وهو يعزف على الغيتار . ونظّم لنا مؤلف مسرحية « اورنيو نيغرو » امسية خاصة (ولم يكن يحب قط الفيلم ، ويقول إنه قد خانه : وكان جميع البرازيليين الذين رأيتهم يأخذون على مارسيل كامو انه اعطى عن بلدهم صورة سهلة وكاذبة) والتقينا عنده بفريق من الشباب والفتيات من « البوسا نوفا » كانوا يعزفون على البيانو ، والغيتار في اسلوب متحفظ جداً حتّى ان اشد انواع الجاز كان يحترق . وقال لي سارتر لدى الخروج إنه كان يعاني من حضور الفتيات الصبيات الضيق نفسه الذي كان يعانيه الغرين لدى رؤية الألبسة التنكرية في « الكاروسيل » كان ينظر في رضى الى وجه امرأة ، ولكنه كان يجد نفسه وهو يسترق النظر الى فتاة في الثالثة عشرة .

وقضينا امسيةً لدى جوزيه دوكاسترو الذي كان اعداؤه يقولون عنه ، في كثير من الظلم : « إن الجوع يغذيه جيداً » . كان هاماً مثل كتبه ، وطريفاً . وقد حدثنا بعض التكنوقراطيين الشبان عن الاقتصاد البرازيلي ، ثم جرى الحديث في كل شيء ، ومن بينها حوادث السير على اختلاف انواعها ، وهي كثيرة في البرازيل . فترامات ريو محمّلة بالعناقيد البشرية التي تكفي هزّة واحدة لفصلهم عن الركب ؛ وقد قال لنا امادو : « إن هذا بسيط اذا قورن بترامات الضواحي » فغالباً ما كان المسافرون ينقذفون على الرصيف فيُجرحون او يُقتلون . وكان كاسترو وامادو اللذان قاما بالطواف حول العالم ثلاث مرات ، لا مرة واحدة ، قد اعترفا بأنهما كانا يموتان رعباً في الطائرات البرازيلية[1] ،

(١) بعد ذلك بعامين ، في صيف ٦٢ ، كان كاسترو مع ابنته وحفيده البالغ من العمر بضعة شهور في طائرة سقطت في البحر وهي تقلع من ريو . وقد غرق الطفل .

وهما يقولان ان نيمير كان يفضّل ان يستقل السيارة لمدة ثماني عشرة ساعة على ان يركب الطائرة لساعة واحدة ، حين كان يريد ان يسافر من برازيليا الى ريو ، وكان هذا يحدث له غالباً . وبسبب نقص الطرق والسكك الحديدية ، كانت البرازيل تملك اوسع شبكة طيران في العالم بعد الولايات المتحدة ، ولكن تجهيزات الشبكة كانت غير كافية اطلاقاً . وهذا البلد يعيش فوق مستوى موارده بكثير ، وهذا سرّ صفة بارزة لدى البرازيليين : الخداع — وهو يملك قدماً له في المستقبل : صناعات مزدهرة ، ومدن حديثة ، وبترول غزير ؛ ولكنه يدخل هذا المستقبل بآلات قديمة ورثها عن الماضي : من مثل القوارب القديمة وسيارات النقل القديمة والعجلات القديمة والطرق الوعرة المتشقّقة ، والمختبرات والوسائل التكنيكية والملاكات غير الكافية ؛ فهو من اجل هذا مرهَق . وبالاضافة الى ذلك ، فان الفساد منتشر فيه ، شأنه في ذلك شأن جميع البلدان التي كانت خاضعة للامبريالية الأجنبية — ككوبا قبل كاسترو والصين قبل ماو ؛ فالاغنياء فيه يشكّلون ، مقابل شعب لا دفاع لديه ولا يمكن النفاذ الى بؤسه ، نوعاً من العصابة لا تفكر الا بملء الجيوب ، وبأسرع وقت : ولهذا فهم لا يحترمون قواعد البناء ولا النقل ولا اللقاح ولا الأغذية ولا قوانين الأمن الاشد ابتدائية . ولم يتخلَّ البرازيليون عن الحظوظ التي كان يحتملها العصر الماضي في كل مشروع ، في حين ان عملياتهم — في جميع الميادين — البشر والمادة والحيّز — قد تضاعفت الى ما لا حد . فقد وقعت حرائق في الفافيلات[1] ، وانهدمت بنايات ، وغرقت سفن ، وسقطت في الأودية شاحنات محمّلة بالفلاحين ؛ وكان شيء ما في هذه الكوارث يذكرني بايطاليا ، على نطاق ضخم ؛ ففي ايطاليا ينتظرون ان يُقتل عمّال ليبدأ القلق حول الاوضاع التي يعيشون فيها : ولكنهم يقلقون . اما في البرازيل : فليس الأمر كذلك ؛ إن اليد العاملة غزيرة ، ولا تسوى حياة الانسان مسماراً .

وفي آخر الأمسية ، وصل « بريست » . وكنت قد قرأت الكتاب الذي

(١) وكان مصداق ذلك مأساة لقاحات فورتاليزا وحريق سيرك نيتيروا فيما بعد .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وضعه عنه امادو . كان نقيباً عام ١٩٢٤ ، وقد انضمّ مع فرقته الى ثورة فاشلة قامت في سانباولو ؛ وظلّ طوال ستة أعوام على رأس فرقة من ألف وخمسمئة رجل يطوف البرازيل داعياً الى الثورة ، فيما كانت الشرطة تطارده . وفي اثناء هذه « المسيرة الطويلة » الأولى ، اعتنق الشيوعية . وفي عام ١٩٣٥ حاول ان يثير الجيش على فارغاس ، فحكم عليه بالسجن ستة واربعين عاماً وثمانية اشهر . وقد عمد أعضاء « القمصان الخضر » الى قطع ثديي امرأته ، وهي من أصل ألماني ، والى تسليمها للألمان : وقد ماتت في احدى المعسكرات . وفي عام ٤٥ ، بعد ذهاب فرغاس ، أطلق سراحه فترأس الحزب الشيوعي البرازيلي ، وكان اعظم احزاب القارة . وقد حُلّ الحزب عام ٤٧ على يد « دوترا » فلجأ « بريست » الى المقاومة السرية . ولكنه في عام ٥٥ اعطى اصوات الشيوعيين لمرشح الرئاسة الوطني كوبيتشيك ، فاستطاع ان يعيش بعد ذلك في حرية . ووضع الشيوعيين غريب : الحزب ما يزال ممنوعاً ، ولكن باسم الحرية الفردية ، يحق لكل انسان ان يكون شيوعياً وان يجتمع بأشخاص يدينون بمبدأه . ولم يكن بريست يشبه بعد « فارس الأمل » الشاب الجميل الذي تعرفه العصور البطولية . وقد كتب دراسة عقائدية طويلة هاجم فيها جمعيات الفلاحين ودعا الى الاعتدال : ان البرازيل ستصبح بلداً اشتراكياً ، شريطة ألاّ يُعمل شيء من أجل هذا . وكان يخطب في الساحات العامة لصالح « لوت » المرشح الحكومي ، الذي كان اصدقائي يزدادون منه نفوراً يوماً بعد يوم . وكان امادو يقول : « سأصوّت له ، ولكنه سيضعني في السجن » . ولكن لماذا لم يكن الشيوعيون يقترحون رجلاً يمثّلهم ، من غير ان يعلن ذلك صراحة ؟ لقد كانوا أقلّ جداً مما ينبغي ، ولم يكونوا حريصين على احصاء انفسهم . ولم تكن المعركة الانتخابية تعني الا نصف السكان : إن الاميين لا يصوّتون ، ولم يكن الفلاحون يعرفون القراءة ولا الكتابة . ومع ذلك ، فان البرازيليين يصفون انفسهم بأنهم ديمقراطيون ، وهذا صحيح الى حد ما ؛ إنهم يجهلون الغطرسة ؛ فالسادة والخدم يعيشون

سطحياً على قدم المساواة ؛ وفي « ايتابونا » حين قدّم لنا مدير « الفازندا » قدحاً ، اخذ السائق الذي يقود سيارتنا يشرب معنا في الصالون . ولكن التمييز الطبقي يتمّ في مستوى ادنى ؛ فمديرو المزارع لا يعاملون عمّالهم على قدم المساواة ، بل لا يعاملونهم كبشر . والبرازيليون يرفضون التمييز العنصري الى حد ما ايضاً . فجميعهم تقريباً يسري في عروقهم الدم اليهودي ، لأن معظم البرتغاليون الذي هاجروا الى اميركا الجنوبية كانوا يهوداً ؛ ومع ذلك فقد لاحظت في الاوساط البورجوازية نزعة قوية لمناهضة السامية . ولم نلمح قط في الصالونات او في الجامعات [1] او في الذين اجتمعنا اليهم وجهاً اسمر . وقد اشار سارتر الى هذه الملاحظة علناً في احدى محاضراته ، بجامعة سان بول ، ثم استدرك : فقد كان ثمة زنجي في القاعة ؛ ولكنه كان عاملاً تكنيكياً من عمال التلفزيون . صحيح ان التمييز اقتصادي ، ولكن الواقع ان المتحدّرين من العبيد ظلوا جميعاً من البروليتاريا ؛ وفي « الفافيلات » يشعر البيض المساكين انهم متفوقون على السود .

وهذا لا يمنع الافريقيين من أن يكونوا متعلقين بتقاليدهم الافريقية . وقد كان جميع الذين التقيتهم مصابين بتأثير العبادات الزنجية . ولئن لم يكونوا ، كفيفالدو ، مؤمنين بوجود القديسين ، فقد كانوا مؤمنين على الاقل بسلطاتهم . وحين كشفت لنا « ام القديسين » اسماء معلمينا ، أكد لنا امادو ان استشارة كاهنة اخرى ستؤدي الى النتائج نفسها . لقد كان من كبار معتنقي الكاندومبليه ، فكان يحافظ على مبادئها . وقد رفض يوماً صحناً من الفاصولياء وهو يقول لسارتر : « ان قدّيسي يحرّمه عليّ . أما أنت ، فانت اوكسالا ، وكل ما هو ابيض مسموح لك . » وكان يبتسم ولكنه كان يفضل بلا شك ان يخضع لوساوس واوهام على ان يجازف بالسخرية منها . وسأل سارتر زيليا ، ابنة المدن ، وهي عقلانية وضعية ، فقالت : انها

(١) كان فيفالدو الاستثناء الوحيد ، ولكنه كان مقيماً في باهيا ، وكان يملك بشرة فاتحة ، بالرغم من انه خلاسي .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من غير ان تؤمن بما هو فوق الطبيعة ، تتردّد في ألاّ تؤمن به . وكان ابو امادو يشكو سرطاناً ، وكان يعتقد ان روحاً شريرة كانت تعذبه . وقد استدعت زيليا عالماً روحانياً ؛ واشترك البيت كله في جلسة طرد الشيطان ، ودخلت الخادمة في حالة الارتعاد ؛ فاختفت آلام العجوز ؛ وكلما عادت ، طردها العالم الروحاني ، وكانت زيليا تقول: « ما الرأي في هذا ؟ » وكانت ترتدي عادة العقد المقدس ذا الألوان الشبيهة بلون قدّيسها . وبدا لنا حدث صغيرٌ ذا مغزى . فان احدهم كان قد أعطى سارتر تعويذة تضمن له حماية الأوكسالا . وبعد تناول العشاء في بيت احد الصحفيين ، أخذ المدعوون يهنئون الطبّاخة . وقالت لها زيليا وهي تشير الى سارتر : « إن قديسه هو قديسك نفسه » وأخرج سارتر تعويذته : فظنّت الطبّاخة ان سارتر كان يعطيها اياها ، فتناولتها شاكرة . وفي اليوم التالي ، تلفن الصحفي لأمادو: أليس سارتر متحسّراً على هذه الهدية التي قدّمها بلا تفكير ؟ الا يريد ان تُردّ له ؟

وروت لنا زيليا ان صديقاً لهم يُدعى « و » كان يريد ان يصبح نائباً ، طلب منها ذات صباح ان تقوده مع زوجته قبل الفجر الى قمة « تيجوكا » . ووفقاً لتعليمات « بالاباو » ، هبطوا من السيارة ، فأخرجوا منها سلة بيض ، وصبّوا على أجسامهم دزينة بيض ثم ألقوها في مجرى . وكان عليهم ان يوزعوا في الليل صدقات؛ ففتشوا في المدينة كلها ليجدوا شحاذاً ، ثم انتهوا الى ايقاظ متشرد كان نائماً على مقعد . ولم يفز « و » في الانتخابات . وقد تقدّم لها ثانية في اثناء اقامتنا ، واقام حفلة « اومباندا » عرض علينا امادو ان نحضرها . وقد اجتازت سيارة زيليا بنا « ريو » خلف السيارة الانتخابية لـ « و » المغطّاة باللافتات : « انتخبوا و » وكان جوان امادو الصغير قد اتخذ فيها مكاناً له ، وكان يصيح في المكبّر : « انتخبوا و . انتخبوا سارتر . انتخبوا امادو . لا تنتخبوا و» وكانت السيارة الانتخابية تقوم بدورات لتلتقط من هنا وهناك دعاة انتخابيين . وكان لا بد من قضاء ساعتين للوصول الى القطاع الشمالي ؛ وقد تهنا في ضواحٍ بعيدة قبل ان نجد

حديقة كانت الاعلام تمّ فيها عن الاجتماع الكبير الذي سيعقده « و » بعد الظهر . وكانت ادغال صغيرة تحيط بالبيت القديم حيث كانت « امّ قدّيسين » تربّي دزينة من الأولاد بالتبنّي ؛ وكانوا ينامون بلا تنظيم في الأسرّة ، ويلعبون تحت الأشجار . وكانت « الأم » سوداء سمينة جداً ، ترتدي ثياباً رائعة ، وقد زرنا بصحبتها مذبحاً شبيهاً بمذابح باهيا ، وان كان اغنى منها كثيراً . وكانت المائدة الضخمة التي كان المفروض ان نتناول عليها الغداء ما تزال فارغة . وفي المطبخ والحديقة كانت بعض النسوة يعملن حول الأفران . وكنا نتضوّر جوعاً حين قُدّم لنا أخيراً ، حوالي الساعة الثالثة ، طبق الأرز بالقريدس ولحم الخنزير المشوي ، اللذيذ ، وان كان قد افسد المتعة علينا « و » بخطاب فخم . ولما كانت لنا مواعيد في ريو ، فقد خرجنا في منتصف المأدبة . وهُزم « و » مرة اخرى في الانتخابات .

وكان اليسار البرازيلي يفكر باقامة علاقات اقتصادية وثيقة مع دول افريقيا السوداء الفتية . وكان يأخذ على كوبيتشيك زيارته لسالازار : لقد عرف البرازيليون الديكتاتورية ، وهم يحتقرونها ، وينفرون من الاستعمار . وكان للمنفيين البرتغاليين الذين التقيناهم ، وهم ديمقراطيون في البرتغال ، موقف فاشي بالنسبة لافريقيا : كانوا يتمنّون لو أنّ ثورة الانغوليين قد حُطمت . اما البرازيليون الذين ظفروا باستقلالهم منذ مئة واربعين عاماً فقط ، فانهم يؤيدون دائماً الشعوب التي تطالب به . ولهذا ايقظ سارتر لديهم كثيراً من الأصداء حين تحدّث عن الجزائر وكوبا ، ولا سيما عن كوبا . كانت ثورة كاسترو تعنيهم مباشرة ؛ كانوا يعيشون هم ايضاً تحت ضغط الولايات المتحدة وكان الاصلاح الزراعي يشغلهم .

وفي « رسيف » تحدّث سارتر عن الجزائر ، من غير ان يهاجم الحكومة مواجهة ، مما عاد بالعزاء على قنصل فرنسا ، وهو رجل سمين ودود . وكان معتدلاً في باهيا ايضاً . وحين فتحت له جامعة ريو احدى قاعاتها ليعقد فيها مؤتمراً صحفياً ــ مدلّلة بذلك على نزعتها التحرّرية ــ كان قد قرّر ان يكون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صريحاً . فأجاب بلا مواربة على الاسئلة التي طرحت عليه حول ديغول ومالرو . وقد نشرت جميع الصحف هذا الحوار ، ومنذ ذلك الحين اخذت الصحف اليومية والاسبوعية في ريو وسان – بول تنشر صوراً لسارتر وتعليقات مفصلة عن ألوان نشاطه . وقد اقبل عدد هائل من الناس لسماع المحاضرة التي ألقاها في الجامعة ، والمحاضرة التي نظّمها له بعض التكنوقراطيين الشبّان ، عن النظام الاستعماري ؛ وكان مكانها « مركز الدراسات » ، فكانت القاعة أصغر من ان تستوعب الجمهور الذي تراكم على الشرفات وفي البساتين . وكان المستمعون والخطيب يرشحون عرقاً ، حتى ان قميص سارتر ، حين تخلّص من التصفيق ، قد اصبح ازرق ، باعتبار ان سترته قد حلّت عليه . ووفّق روبيم براغا الى اصدار « عاصفة على السكر » قبل سفرنا ، وقبل سارتر ، تضامناً منه مع كوبا ، ان يوقّع كتابه علناً ؛ وللسبب نفسه ، وبالرغم من وساوسي ، جلست الى جانبه في قاعة مزدانة ، امام طاولة محمّلة بالنسخ ، ووقّعت انا ايضاً . واراد احد المشترين ان يُرضي سارتر ، فقدّم له صورة لديغول رسمها بنفسه وأطّرها بيديه . وفي الجامعة تحدثت عن وضع المرأة – لا برغبة مني ، بل لأنه طُلب إليّ ذلك .

وقد أظهرت لنا الجالية الفرنسية عداوة صريحة . ولم يقتصر سارتر على عرض وجهات نظره بشأن الجزائر وديغول في محاضرات ومقالات ومقابلات في الراديو والتلفزيون ، بل لقد قام بزيارة ممثّل حكومة الجزائر الموقتة الذي كان يسكن في كوباكابانا مع زوجته ، وهي فرنسية سبق لها ان كانت معلّمة في الجزائر . وقد رأينا عندهما نسخاً مزوّرة من « المجاهد » قام بتزويرها قسم الخدمات النفسية في الجيش الفرنسي . وكانا يحكمان على العمل الذي كان سارتر يقوم به من اجل القضية الجزائرية بأنه عمل هام جداً [١] .

* * *

---

(١) حين زار بن خده البرازيل ، في خريف ٦١ ، دهش للخدمات التي كان سارتر قد قدمها للقضية الجزائرية . وقد روى للزمان وفانون أنه حين هبط بالطائرة، أرادت =

قطعنا اقامتنا في ريو باسبوع قضيناه في سان بول التي تبعد مسافة ساعة بالطائرة. واقترح امادو: «ألا تفضّلا ن ليلة هادئة في سرير – قطار؟» ثم استجاب لرغبتنا في ركوب الطائرة. ولدى الوصول كان ثمة حشد على المطار، ولا سيما من الشبان الذين كانوا يحملون لافتات «كوبا نعم» الاميركيون لا.» وكانوا يهتفون لسارتر ولكوبا. واستولت علينا «جمعية سارتر» المؤلفة من طلاّب واساتذة من الشبان.

ليست المدينة جميلة، ولكنها تطفح حياة. انها احد مهود البرازيل: وقد اقام اليسوعيون فيها في منتصف القرن السادس عشر، ومنها خرج «الباندیرانت» لفتح الداخل، وهي كذلك أحدث مدن البرازيل؛ شبكات طرق واسعة وانفاق وجسور، وبنايات سامقة، وجمهور منشغل، وتنقلات كثيفة، ودفقٌ من الحوانيت الصغيرة والمخازن الكبيرة. وقد زاد عدد سكانها بين ١٩٠٠ و ١٩٦٠ من ٨٠ الف نسمة الى ثلاثة ملايين ونصف المليون، ولم يكن بناؤها قد تمّ بعد: ففي كل مكان بناء غير ناجز. على اننا لاحظنا ان البناة لا يعملون الا ببطء. بل هناك بعض الورشات التي لا يعملون فيها إطلاقاً: ذلك ان التضخم الهائل الذي وصل اليه البلد كان يؤدي الى تخفيض النشاط؛ وقد تُركت كثير من المشاريع. وقمنا بنزهة في الحي الايطالي، الذي لا شخصية له، وفي الحي الياباني الذي له شخصية واضحة؛ فجميع سكانه تقريباً يابانيون، والمطاعم تقدم طعاماً يابانياً، والحوانيت تبيع بضاعة يابانية. وهناك منطقة للسكن غنية جداً: بالحدائق المزدهرة، والبيوت ذات الطراز الاستعماري، والفيللات العصرية. وهناك ايضاً «فافيلات»؛ وكان الناس يتحدثون كثيراً عن المذكرات التي تكتبها امرأة زنجية تدعى كارولين، وكانت تصور فيها بخشونة، يوماً بعد يوم، حياة الفافيلا التي تخصها: وكان صحفي شاب

= السلطات أن ترده: ولكن طلاباً كانوا قد جاءوا بأعداد كبيرة أخرجوه من المطار بشكل منتصر. وسرعان ما أخذوا يتحدثون عن سارتر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد اكتشفها بالاتفاق ، وما لبث كتابها ان اصبح من روائع الكتب . وقد لاحظنا في الشوارع الغاصة بالناس عدداً كبيراً من البيانات التي كانت تمتدح مزايا النظرية الروحانية او تعلن عن جلسات للتنويم المغنطيسي . ونزلت الى سانتوس ، صباح يوم احد ، وكان المرفأ نائماً . وقد ذكّرتني النزهة على شاطيء البحر ، بشجر نخيله وحدائقه واكشاكه وعربات اطفاله ، بجمال كوباكابانا .

كانت سان بول المصنّعة اكثر من ريو ، تتفوق عليها ايضاً بالجانب الثقافي . مؤتمرات صحفية ، تلفزيون ، لقاءات ، مناقشات مع بعض علماء الاجتماع والاقتصاديين الشبّان ، توقيع كتب ، غداء مع الكتّاب ، زيارة المتحف مع عدد من الرسّامين الذين كانوا ينظرون الينا فيما كنا ننظر الى اللوحات ... وهكذا لم نعطّل ساعة واحدة . وكنّا نزداد حبّاً للمفكرين البرازيليين بمقدار ما كانت معرفتنا لهم تعمق . كانوا واعين انهم ينتمون الى بلد صاعد يتوقف عليه مستقبل اميركا اللاتينية كلّه ، فكانت آثارهم ، في انظارهم ، أعمالاً يلزمون بهم حياتهم ؛ وكان فضولهم واسعاً ومتطلّباً ؛ وكان مفيداً ولذيذاً التحدث اليهم ، وهم بالاجمال مثقفون جداً ، وسريعو البديهة . وكانوا يهتمون اهتماماً عنيفاً ، بالمشكلات الاجتماعية . ولم يكن البرازيليون يستطيعون ان ينسوا البؤس ، و « الفافيلات » منتشرة في مدنهم ؛ وكان هذا البؤس يجرحهم في كرامتهم القومية ، ويشكّك في حسّهم الديمقراطي . وحتّى اليمين ، كان يهتم بهذا البؤس ويحاول ان يحاربه [1] . ويرى الجناح التقدمي للبورجوازية والمثقفون انفسهم مدعوين الى اتخاذ مواقف ثورية . وقد لفت نظرنا واقع يتكرّر في اميركا اللاتينية كلها : فان عدداً من الملاكين

---

(١) كان ذوو الامتياز يبذلون طبعاً كل جهود ضارية لحماية امتيازاتهم ، وهم الى حد بعيد مسؤولون عن البؤس . ولكنهم لا يقفون تجاهه على الأقل الموقف الذي يقفه أمثالهم في بلاد أخرى . وقد نشرت « الاستادو دو ساو باولو » في أثناء إقامتنا دراسة هامة جداً عن « فافيلات » المدينة .

الكبار ومن الصناعيين الاغنياء شيوعيون ؛ وهم يعتقدون ان الاشتراكية وحدها تستطيع ان تحرّر بلادهم من امبريالية الولايات المتحدة وتنقذ جموع مواطنيهم من انحطاط لا بدّ ان ترتدّ آثاره عليهم هم بالذات . وهذه بالطبع استثناءات ، ولا يلعب المثقفون هناك الا دوراً محدوداً . فينبغي ألاّ ننتهي من هذا الى ان الثورة موعدها غداً .

نظمت صحيفة «اولتيماهورا» ذات صباح لقاء لسارتر مع القادة النقابيين . ولم يجيبوا الاجابات نفسها على اسئلته ؛ ولكن بعض الوقائع الواضحة برزت من هذه المحادثات ، وأكدتها فيما بعد وقائع اخرى . إن العمال البرازيليين حديثو العهد بالخروج من الحالة الفلاحية : لقد كانوا فلاحين او آباؤهم كانوا كذلك ؛ ولما كان مستوى معيشتهم اكثر ارتفاعاً من مستوى الارياف ، فانهم يحسّون انفسهم ذوي امتيازات . وليست مصالحهم متضامنة في شيء مع مصالح الجائعين في الشمال الشرقي ، ولا مع مصالح المياومين في الجنوب . صحيح أن بعضهم شديدو الوعي لانتمائهم الى طبقة مستغلّة ؛ ولكنهم يرون جميعاً ان تعاوناً ما مع الرأسمال الكبير يفرض نفسه . اما موقف هذا الرأسمال ، فملتبس . إنه يتمنى ان يمتلك موارد البرازيل التي هي حالياً تحت سيطرة الشركات الاميركية في معظمها ؛ ولكنه بحاجة لكي ينمو ويتطور الى مساعدة الولايات المتحدة المالي ، فهو يحارب امبرياليتها فيما هو يشجّعها . اما العمّال ، فبمقدار ما يقصدون الى تصنيع البلد وجعله مستقلاً اقتصادياً ، فانهم يرون في انتصاراته وعداً بالازدهار : وهذا معنى التأييد الشيوعي لكوبيتشيك ثم للوت . ووضع البرازيل ، بصرف النظر عن ارتباطها بأميركا ، يذكّر بوضع ايطاليا ، مع قلب في الجنوب والشمال ، ولكنه أكثر فجوعاً بسبب التخلّف واتساع الأرض . والوحدة الوطنية تلعب ضد الشمال ، لأن كبار ملاّكي هذه المنطقة يوظّفون أرباحهم في مصانع الجنوب ، وهذا ما يحرم الشمال من كل نموّ . فالفلاحون هم في حالة ثورية لأنهم مرصودون للجوع ، ولكنّ التفرّق والتصوّر والجهل لا تساعد على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظهور وعي طبقي لديهم ، وليس لهم سلطة على شيء تقريباً ؛ صحيح أن البروليتاريا واعية وان لديها وسائل عملية للنضال : ولكن وضعها ليس ثورياً . اما البورجوازية الصغيرة ، فان فقدان اسواق التصريف في كوبا جعلها تنتصب في وجه باتيستا ؛ ولكن التصنيع في البرازيل يحيي آمالها فتقبل الوضع القائم . وقد كان جميع المتحدثين الينا يرون ان خطوط الاشتراكية في البرازيل لن تتحقق قبل وقت طويل .

وتحدثت مجدداً عن النساء في قاعة كبيرة مزهرة ومعطرة ، امام نساء يرتدين اثواباً زاهية وكنّ يعتقدن عكس ما كنت أقول ، ولكن محامية شابة شكرتني باسم النساء العاملات . ووضع المرأة البرازيلية صعب التحديد ، وهو يختلف حسب المناطق : ففي الشمال الشرقي ، ليست لأية فتاة — حتى ولو كانت تعيش في « فافيلا » — اي حظ في ان تتزوج اذا لم تكن عذراء ؛ ومحيطها يراقبها رقابة شديدة . اما مدن الجنوب الكبرى فهي اكثر تحرراً من ذلك . والطلاق في البرازيل غير موجود . ولكن اذا قرر رجل وامرأة ، احدهما متزوج ، ان يعيشا معاً ، فهما يعلنان ذلك في الصحف . وحينذاك يُعتبران في رأي أشد الأوساط محافظة زوجين شرعيين ويحق للأولاد ان يأخذوا اسم الأب ويستفيدوا من إرثه . وهذا جيّد جداً ، ولكن المقابل ان الام حين تترك البيت العائلي تفقد كل حقوقها على اولادها . وحين يموت الرجل ، فالزوجة الأولى هي وحدها الزوجة الشرعية ؛ والرفيقة التي قاسمته حياته بلا عقد رسمي لا تأخذ بنساً واحداً .

وألقى سارتر محاضرة ادبية اخرى عن الاستعمار في قاعة مسرح تتسع لستمئة شخص ؛ وحين وصلنا كانت القاعة ملآى ، وكان اكثر من اربعمئة شخص يروحون ويجيئون امام الأبواب التي كان يحرسها رجال الشرطة وكان يُسمع صراخ احتجاجهم حين بدأ سارتر يتكلم . وفجأة ، حُطّم السدّ ، فتدفقوا الى القاعة ، وجلسوا ارضاً والتصقوا بالجدران ، وسط عاصفة من التصفيق . وطلب فرنسيان حق الكلام يدافعا عن الجزائر الفرنسية » ؛

وظنّ كل من سمعهما انهما شريكان كلّفهما سارتر بالسخرية من خصومه ؛ والحق ان احدهما كان نصف مجنون معروفاً . ونهض استاذ وكاهن فرنسيان فأيّدا سارتر وتضامنا معه .

ويحاولون في البرازيل ان يزيلوا مركزية التعليم العالي . وكانت قد انشئت جامعة في « اراراكوارا » ، وهي مدينة تضم ثمانين ألف نسمة ، على بعد بضع ساعات من سانبول . وقد اراد البروفسور ل . ان يعمل لنفسه دعاية ، فبذل جهوداً ومناورات كثيرة حتى اقنع سارتر بأن يذهب للتحدث في الجامعة عن الديالكتيك امام فلاسفة ، وعن الاستعمار امام طلاب . وقد قصدنا الجامعة عند هبوط المساء ، وتوقفنا لقضاء الليل ، بناء على تدابير اتخذها امادو ، في « فازندا » مدير « استادو دوساوباولو » ، وهي صحيفة يمينية ، ولكنها شديدة الاختلاف عن صحف اليمين عندنا : فقد ذكرت انها كانت تقوم بحملة ضد البؤس الذي تعانيه « الفافيلات » ؛ وكان كتّاب يساريون يكتبون فيها ؛ وكانت تقوم بدعاية ضخمة لسارتر ولمحاضراته . وقد سبق لمديرها « م » ان سُجن مع أمادو بصفته « متحرراً » يعارض نزعة فارغاس القيادية ، وكانا يحتفظان بعلاقات ودية . وكان بعض الصحفيين يصوروننا لحساب الجريدة . وفي اثناء العشاء ، حدثنا « م » عن المشكلة الزنجية ، فأوضح قائلاً : « اننا لسنا عنصريين على الاطلاق ، ولكننا — وهذا هو خطأنا — لم نعرف ان نرفع الزنوج الى مستوانا الفكري والخلقي . ولذلك ، ظلّوا بالضرورة في اسفل السلّم الاجتماعي . » وعلى الطرف الآخر من المائدة ، كان اولاده الثلاثة الطوال يكزّون على اسنانهم : كانوا بلا ريب سيعبّرون عن الأفكار نفسها ، لو تكلموا ، ولكن بطريقة أبرع . وكان الأب أخضر النفس ، بالرغم من سنّه المتقدّمة ، وقد هاجم النساء اللواتي يدخنّ ؛ فهو يعتقد ان التبغ كان يهيّج العصاب الخاص بجنسنا . وقادتنا زوجته ، التي كان يبدو ان أعصابها كانت في مكانها الطيّب ، الى الغرف القديمة الواسعة التي كانت قد أُعدّت لنا .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعند اليقظة ، بهرني بريق الشجر والعشب والازهار المختلفة الألوان . وقمنا بزيارة المزرعة : كان البنّ المنزوع والمحروق والملقى في البحر ، تلك الفضيحة التي تعود الى اعوام ١٩٢٨ ، هو هذا الزرع الأخضر الذي كان يغطي السهول ؛ ولم يكن ثمة أي مذاق للنواة المبيضة لذلك الثمر الصغير ،وكان المنظر الشاسع الرتيب ، ولكن المتموّج ، مع شجر كبير في الافق ، يبدو رائعاً تحت سماء خفيفة . ولكن امادو كان قد وصف لنا عمل القطاف الشاقّ القاسي ؛ وهذا العمل لا يستمرّ الا بضعة اسابيع يؤوي فيها الملاّك عمّاله الزراعيين ؛ ويحتفظ بهم احياناً حتى العام القادم ، ولكنه اذا عزم على إنقاص اليد العاملة او تجديدها ، فهذا من حقّه : انهم في هذه الحالة يذهبون لالتماس العمل في مكان آخر . وتحت حديقة آل « م » ، على احد جانبي الساحة حيث كان حبّ البنّ يجفّ ، كانت قاعة مدرسة تظلّل زهاء عشرين طفلاً : لا شك في ان معظمهم ، في العام القادم ، سيكونون على بُعد مئات الكيلومترات وسيجدون مشقّة في تعلّم القراءة . وكانت بيوت العمال المياومين أنظف من اكواخ « ايتابونا » ، ولكنها شديدة الفقر .

وفي اراراكوارا ، التهم سارتر بعض السندويشات ، وحوالي الساعة الثانية دخل قاعة المحاضرات الملآى بالأعلام : « لتعش كوبا ! ليعش سارتر ! لقد تحدثت عن « البوهيو » ، فحدّثنا عن « الفافيلات » وناقش الطلاّب سارتر في امكانية قيام ثورة في البرازيل شبيهة بثورة كاسترو . وطرح عليهم سارتر اسئلة عن الجامعات الفلاحيّة ، وحدّثهم عن ضرورة قيام اصلاح زراعي . وقلت لأمادو : « لكأنهم جميعاً ثوريون ! » فيما كنّا نتنزّه بعد ذلك في خلاء يوم أحد ، بينما كان سارتر يعيد النظر ببعض مذكراته ، فقال لي : « إنهم سينتهون من ذلك حين يصبحون اطباء او محامين . ولن يطالبوا بأكثر من رأسمال وطني ، مستقل عن الولايات المتحدة . ولن يتغيّر من جراء ذلك مصير الفلاحين » وحين عدنا الى منزل البروفسور ل . رأينا سيارات وشاحنات ومركبات كثيرة : كان جمهور غفير يعود مـــن

مباراة في كرة القدم ؛ والبرازيليون شديدو التعصب لهذه اللعبة .

وتحدث سارتر عن الديالكتيك . وخرجنا في ساعة متأخرة ، فتناولنا العشاء في مطعم وكان الليل متقدماً حين تركنا الطريق العام لنعود الى « فازندا » م . حيث كان المفروض ان ننام من جديد ، وضاع السائق بين الدروب المشقوقة في المزارع . واخيراً لمحنا في البعيد نوراً ضئيلاً ، فتوجهنا اليه ، وأضعناه ، ثم عثرنا عليه ورحنا ندور حوله من غير ان ندركه . ولم تتوقف السيارة امام الحاجز الا عند الساعة الثانية ؛ وكانت الفوانيس مضاءة والغرف مفتوحة ، فولجناها . مثال آخر لتلك الضيافة البرازيلية التي كانت واحدة من متع هذه الرحلة . وحين خرجت في الصباح ، وجدت امادو مسروراً جذلاً ، لأنه لم يكن يحب البروفسور ل . وقد قال لي : « لقد اوشك هذا السيد المسكين ان يصاب بنوبة ! » ذلك ان البروفسور ل ، قد قرأ حين فتح الصحيفة العنوان الرئيسي : « سارتر يدعو الى الثورة » فأرسل أنّة عميقة وقال : « لقد انتهى امري ! » .

كانت شعبية سارتر قد انتشرت كثيراً بين الشبّان . وقد تدبّرنا امرنا مرتين او ثلاثاً في سان بول لنقضي الأمسية وحدنا . وكانت خشونة المدينة تمّحي ، وكان المارّة يمشون مشية اقل سرعة ، ويمرّ زنجيّ وهو يغنّي ؛ وقد كنا نستمتع ، بعد صخب النهار ، بهذا الهدوء الحالم . وكانت السيارات غالباً ما تقف ليقول من فيها : « هل نستطيع ان ننقلكما الى اي مكان ؟ » وفي ريو ، كان الطلاب يدنون منا عند زوايا الشوارع ومنعطفاتها . وقد سألت احدى الفتيات ، عند نهاية محاضرة : « ما رأيك فيك يا سيد سارتر ؟ » فأجاب وهو يضحك : « لا أدري ، فأنا لم ألتقِ بنفسي قط ! » فقالت في اندفاع : « يا حسرة لك ! » واتفق ان ممثلاً للحكومة الفرنسية كان موجوداً في ريو لدى حضورنا اليها ، فأقيمت حفلة كوكتيل على شرفه . وقد روى لنا صديق برازيلي انه – وكان ثملاً بعض الشيء ، حسب قوله – قد أخذه على حدة فقال له : « لست انت فرنسا : وانما جان بول سارتر » فابتسم الرسميّ ؛ لقد كان من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحرَق حرمان فرنسا من هذه الزينة ، ما دامت البرازيل تكسب سارتر هذا المجد ، واكتفى بالتعليق قائلاً : « انهما مظهران لفرنسا . » وكان المثقفون البرازيليون يعترفون لسارتر بأنه يجسّد المظهر « الآخر » . وقد وهبتنا ريو لقب « مواطني شرف » ، واعطتنا الشهادتين في حفلة استقبال قصيرة .

كنا نجد مشقة في الحصول على صحف فرنسية ؛ ولكن اصدقاءنا كانوا ، برسائل ومخابرات تلفونية ، يبلغوننا ما كان يجري في فرنسا . لقد فتحت محاكمة جانسون يوم ٧ ايلول ؛ وكان المحامون يتمنّون حضور سارتر للشهادة ؛ ولكنه كان قد ارتبط بالتزامات مع البرازيليين ولم يكن يريد ان يترك العمل الذي كان يقوم به لديهم لصالح الجزائر . واعتبر ان رسالة يُرسلها للمحكمة سيكون لها من الوزن ما يكون لشهادة شفوية . ولم يكن البريد من ريو الى باريس يصل بسرعة ، بل كان ثمة خطر في ان يضيع اثناء الطريق . وعرض سارتر ، بواسطة التلفون ، للنزمان وبيجو ما كان يودّ ان يصرّح به للمحكمة ، وكلّفهما بتحرير النصّ الذي قريء يوم ٢٢ ايلول :

« لما كان من المتعذّر عليّ ان أحضر جلسة المحكمة العسكرية ، وهذا ما آسف له أسفاً عميقاً ، فاني حريص على ان أشرح بشكل مفصّل بعض الشيء غايتي من برقيتي السابقة . واقلّ ما يمكنني ان افعله ، في الواقع ، هو تأكيدي على « تضامني التامّ » مع المتهمين : ولا بد من شرح السبب : انا لا احسب اني التقيت يوماً « هيلين كوينا » ، ولكني أعرف معرفة جيّدة بواسطة « فرانسيس جانسون » الظروف التي كانت تعمل فيها « شبكة التأييد » التي تقام اليوم محاكمتها . وأعيد الى الذاكرة ان جانسون كان وقتاً طويلاً بين مساعديّ ، ولئن لم نكن دائماً على وفاق ، وهذا طبيعي ، فان القضية الجزائرية ، على كل حال ، تجمع بيننا . ولقد تابعت يوماً فيوماً جهوده التي كانت جهود اليسار الفرنسي لايجاد حلّ لهذه المشكلة بالوسائل المشروعة . ولكنه ازاء فشل هذه الجهود وامام عجز هذا اليسار الواضح ، قرّر ان يلجأ الى العمل

السري ليحمل معونة ملموسة للشعب الجزائري المناضل من اجل استقلاله .

« ولكن يجب هنا ان نزيل التباساً : فان التضامن الذي حققه مع المقاتلين الجزائريين لم يكن مملىً عليه فحسب من مبادىء نبيلة ولا من ارادة عامة لمقاومة الاضطهاد حيث كان ؛ وانما كان صادراً ايضاً عن تحليل سياسي للوضع في فرنسا نفسها . والواقع ان استقلال الجزائر امرٌ مكسوب . فهو سيتم بعد عام او خمسة اعوام ، بموافقة فرنسا او ضدها ، بعد استفتاء او بعد تأميم للنزاع ، لست ادري ، ولكنه قد أصبح واقعاً ، ويرى الجنرال ديغول نفسه ، وقد حمله الى الحكم ابطال الجزائر الفرنسية ، مجبراً على الاعتراف : « ايها الجزائريون ، إن الجزائر لكم . »

« وإذن فهذا الاستقلال اكيد ، واكرّر ذلك . اما ما ليس هو اكيداً ، فهو مستقبل الديمقراطية في فرنسا . إن التضييق التدريجي على الحريات ، واختفاء الحياة السياسية ، وتعميم التعذيب ، والتمرّد الدائم الذي تمارسه السلطة العسكرية على السلطة المدنية ، كل ذلك ينمّ عن تطوّر نستطيع ان نصفه بلا مبالغة بأنه فاشستي . وأمام هذا التطور ، يجد اليسار نفسه عاجزاً ، وسيظل عاجزاً اذا لم يقبل ان يوحّد جهوده مع القوة الوحيدة التي تناضل اليوم حقاً ضد العدو المشترك للحريات الجزائرية والحريات الفرنسية . وهذه القوة هي جبهة التحرير الوطنية .

« الى هذه النهاية وصل فرانسيس جانسون ، وهي التي وصلت اليها انا نفسي . وأعتقد ان بوسعي أن اقول انهم اليوم عديدون ، اكثر فأكثر ، الفرنسيون الذين قرروا ، ولا سيّما الشبّان منهم ، ان يترجموا هذه الحقيقة الى أفعال . والمرء الذي يتصل بالرأي العام الاجنبي ، كما افعل الآن في اميركا اللاتينية ، يملك روءية افضل للأشياء . إن اولئك الذين تتهمهم صحافة اليمين بـ « الخيانة » والذين يتردّد يسارٌ ما في الدفاع عنهم كما ينبغي ، انما يُعتبرون في الخارج امل فرنسا للغد وكرامتها لليوم . ولا يمضي يوم من غير ان أسأل عنهم ، وعمّا يفعلون ، وعما يُحسّون به ؛ والصحف هنا مستعدّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأن تفتح لهم صفحاتها . وقد دُعي ممثلو حركات المتمردين « الشبيبة المقاومة » الى حضور مؤتمرات . وقد قوبل التصريح حول حق عدم الخضوع في حرب الجزائر ، والذي وقّعت عليه مع مئة وعشرين جامعياً وكاتباً وفنّاناً وصحفياً ، قوبل على انه يقظة للفكر الفرنسي .

« وبالاختصار ، من الضروري في رأيي الاطلاع على وجهتي نظر ارجو المعذرة لايرادهما بصورة سطحية بعض الشيء ، ولكن يصعب في شهادة للمحكمة الذهاب الى أعماق الأمور .

« فالفرنسيون الذين يساعدون من جهة ، جبهة التحرير الوطنية ، ليسوا مدفوعين فحسب بعواطف كريمة تجاه شعب مضطهد ، وهم لا يضعون أنفسهم في خدمة قضية أجنبية ، وانما هم يعملون من أجل أنفسهم ، ومن أجل حريتهم ، ومن أجل مستقبلهم . انهم يعملون لاقامة ديمقراطية حقيقية في فرنسا . وهم من جهة اخرى ليسوا معزولين ، وانما يتمتعون بتأييد متزايد ، وبعطف فعّال او سلبي لاينى يزداد . ولقد كانوا طليعة حركة ربما كان لها ان توقظ اليسار ، المدوّم في حذر بائس . وربما ستُعدّ إعداداً أفضل لحركة الجيش العسكرية المؤجّلة منذ أيار ١٩٥٨ .

« إنه يصعب عليّ طبعاً ، وانا على هذه المسافة البعيدة ، ان أتصوّر الأسئلة التي كانت المحكمة العسكرية ستطرحها عليّ . على اني افترض ان أحدها كان سيتناول المقابلة التي اعطيتها لفرنسيس جانسون ونشرها في نشرته « الحقيقة من أجل » وسأجيب على هذا السؤال بلا مواربة . وانا لا اذكر بعدُ التاريخ الدقيق لهذا الحديث ولا نصه المفصّل ، ولكن من اليسير عليكم ان تجدوه اذا كان مرفقاً بالملفّ .

« على انني اعرف تماماً ، بالمقابل ، ان جانسون قد أقبل عليّ بصفته محركاً لـ « شبكة التأييد » ولهذه النشرة السرية التي كانت لسان حالها ، واني استقبلته على معرفة تامة بالقضية . ورأيته بعد ذلك مرتين او ثلاثاً . ولم يُخف عني ما كان يقوم به ، وقد اقررته عليه كلّيّةً .

« ولا اعتقد أن في هذا الميدان مهمات نبيلة ومهمات مبتذلة ، ونشاطات مخصصة للمثقفين واخرى غير جديرة بهم . إن اساتذة السوربون لم يكونوا يترددون ، ايام المقاومة ، في نقل الرسائل والقيام باتصالات . ولو طلب جانسون مني ان أحمل حقائب ، او أُنزل في بيتي مناضلين جزائريين ، وكان بوسعي ان افعل ذلك من غير ان أعرّضهم للخطر ، لفعلت هذا بلا ادنى تردّد .

« واعتقد ان هذه الأمور يجب ان تُقال : لأن اللحظة التي ينبغي ان يضطلع فيها كل انسان بمسؤوليته تقترب . والواقع ان اولئك الذين هم الأشد انخراطاً في العمل السياسي ما يزالون يترددون في اجتياز بعض الحدود ، لاحترام للشرعية لا نفهم له تبريراً . اما الشبان ، فهم الذين ، على العكس من ذلك ، بدأوا بمساعدة المثقفين يفجّرون الأضاليل التي نحن ضحيتها ، كما فعل شبان كوريا وتركيا واليابان . ومن هنا أهمية هذه المحاكمة الكبيرة ؛ فللمرة الأولى ، وبالرغم من جميع العقبات ، وجميع الآراء المسبقة ، وجميع الحيطة والحذر ، يلتقي في قفص الاتهام جزائريون وفرنسيون ، جمعتهم في الأخوة معركة مشتركة .

« وعبثاً ما تقوم المحاولات لفصلهم . وعبثاً ما يجرّب البعض تصوير هؤلاء الفرنسيين على انهم ضالّون ، او يائسون او رومانتيكيون . حسْبُنا ما رأينا من الرحمات المزيّفة و « التفسيرات البسيكولوجية » . ويجب ان يقال بوضوح إن هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء ليسوا وحدهم ، وان مئات آخرين قد قاموا بالاتصال ، وان آلافاً يستعدّون لمثل ذلك . صحيح ان قدراً معاكساً قد فصلهم موقتاً عنا ، ولكني اجرؤ على القول انهم في هذا القفص مندوبون عنّا . وهم يمثّلون مستقبل فرنسا ، والسلطة الموقتة التي تستعدّ للحكم عليهم لا تمثّل بعدُ شيئاً . »

هذه الشهادة ، اعتبرتها الصحافة الفرنسية كلها ، تحدّياً يجب على الحكومة ان تتخذ منه موقفاً . وقد طالب السيد باتيسي ، نائب السين – ايمارن ، في استجواب مكتوب ، ملاحقة سارتر . وكتب بيار هنري سيمون يقول :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« إن سارتر يضع الحكومة في موقف اختيار : إما ان توفّره ، اي ان تبدو ضعيفة ، وإما ان تضرب ، اي ان تضعف اذ تدخل في نزاع مع مفكر عظيم معتبر . » ومن جهة اخرى ، وبصدد بيان الـ ١٢١ الذي انكرته « الاكسبريس » و « الاومانيتيه » ، فتح تحقيق ضد X . ويوم ١٨ ايلول نشرت « باري — بريس » على صفحتها الأولى بخط عريض : « جاء بول سارتر وسيمون سينيوريه ومئة آخرون يتعرّضون لخمسة أعوام في السجن » وكانت السفارة الفرنسية في ريو تذيع ان سارتر سيوقف لدى عودته الى باريس . وأعلنت الحكومة ان التحريض على عدم الخضوع سيعرّض فاعله لعقوبة عام الى ثلاثة اعوام في السجن ؛ وستكون العقوبة أشد اذا كان الفاعل موظفاً . وحين غادرنا ريو ، كان بعض الموقعين قد سُجنوا ، ومنهم دانيال غيرين ولانزمان ومارغريت دورا وانتيلم وكلود روي . وكان السيد « تيرنوار » ، وزير الاعلام آنذاك ، قد صرّح في احدى المآدب بقوله : « لقد حلّ سارتر محل « موراس » ، وانها لديكتاتورية فوضوية انتحارية تلك التي تريد ان تفرض نفسها على « انتلجنسيا » مضلّلة ومنهارة » وخصصت صفحات كاملة في الصحف لشبكة جانسون ، وللـ ١٢١ عامة ، ولسارتر خاصة . وكانت الشتائم والتهديدات تهطل كالمطر .

* * *

نزلنا ذات صباح ، مع امادو واخيه وزيليا ، في « بيلو اوريزونت » عاصمة دولة المناجم العامة التي كانت في الماضي ملآى بالذهب والجواهر . وكان نيمير قد وعد بأن يُرسل لنا من برازيليا سيارة وسائقاً : ولكن لم نجد أحداً ؛ فكانت بداية الرحلة سيئة . وظهرت السيارة اخيراً ، يسوقها رجل ذو شاربين . وشاهدنا على ضفة نهر معبداً من تصميم نيمير وفي المدينة انتاجاً آخر من انتاجه ، هو بناء جميل يبدو لمن يدور حوله انه يتحرك .

وقضينا بعد ظهر اليوم في « سابارا » التي كان يسكنها في الماضي الباحثون عن الذهب ؛ وفي « متحف الذهب » ، وهو بيت قديم ذو طراز استعماري

يوزن فيه الذهب ويُحفظ ، كانت نماذج وآلات وتصاميم ومناظر عامة تبتعث الماضي . وكانت « سابارا » بشوارعها الضيقة وسقوفها القرميدية تشبه مدينة صغيرة من مدن اوروبا . وقد لاحظنا في كنائسها ذات الاقسام الناتئة ، والجدران الحمر والزرق ، شيئاً أثار دهشتنا : هو ان الرب والملائكة والقديسين في الصور كانت عيونهم معصوبة ، مما حملنا على الاعتقاد بأن الرسامين البورتغاليين قد أقاموا في « ماكاو » .

وكان قد سبق لنا ان شاهدنا بعض آثار « الايجادينهو »[1] ، ذلك العبد ذي اليدين المتآكلتين بالبرص ، وهو اكبر نحّاتي البرازيل ومهندسيها المعماريين. وصعدنا الشارع المركزي لكونغونهاس ، وهو خشن ضيّق مليء بالنفايات والمرضى والأطفال الجائعين ، حتى بلغنا الساحة التي تنتصب فيها كنيسة بناها ، واثنا عشر تمثالاً لانبياء ، منحوتة من صخر الصابون ؛ وكان بعضها جميلاً جداً في قسوته الملهمة ، ومجموعها يأخذ بالنفس ، ومن هذه الساحة حتى اسفل الرابية ، كانت تماثيل من الجصّ ، بأكبر من الحجم الطبيعي ، تمثّل في اكشاك من زجاج مشاهد آلام المسيح ؛ وكانت بألوانها الصارخة والواقعية والمسرحية تثبت ان « الايجادينهو » كان غزير الانتاج ، ولكن بلا تميز دائماً . وقد أحسسنا بعبقريته في « اوروبريتو » : لقد كان هو الذي صمّم هذه الواجهات الرائعة والشكل المتوازن البديع لمنحنياتها حيث كان الضوء يقع في الشَرَك ، وتنوّع رسومها .

ووصلنا عاصمة الذهب الأسود عند هبوط الليل . وكان الفندق الذي نمنا فيه من تصميم نيمير في شبابه : وكان آنذاك يحب السلالم حباً شديداً حتى انه أقام في كل غرفة سلماً . وفي الصباح ، اكتشفت تحت شرفتي سطوحاً بلون الأحمر الباهت ، وطرقاً ملتوية ، وحدائق وسطائح ، وهنا وهناك لطخات حيّة تمثّل نوافذ صفراء او زرقاء ، وحولها تلال مغطّاة بخضرة لمّاعة ؛

---

(١) الأعرج القصير . وكان اسمه انطونيو فرنسيسكو ليسبوا ، وقد عاش من ١٧٣٩ الى ١٨١٤ .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت أدراجٌ تصعد نحو كنائس بعيدة ؛ وكان هواء لذيذ خفيف يداعب رئتي ، ورائحة الريف تنبعث منه . وذهبنا مشياً على الاقدام . ومن كنيسة لكنيسة ، ومن ساحة لساحة ، هبطنا ورقينا شوارع وسلالم ، واجتزنا جسوراً قديمة ؛ وبين البيوت القديمة المدهونة ، اومأوا لنا في البيت الذي أعتقل فيه « تيرادانت » ـ منتزع الأسنان ـ الذي تآمر عام ١٧٨٨ على السيطرة البرتغالية : وكان تمثال ينتصب في ريو ، على الساحة التي شنق فيها وقطّعت أطرافه . وقد أقيم في ساحة « اورو بريتو » الرئيسية متحف لـ « الانكوفيدانت » الذي كان رئيساً لهم . وغادرت اورو بريتو على مضض : انه مكان اودّ لو أبقى فيه طويلاً .

في اليوم التالي انتظرنا مجدداً ، لمدة طويلة ، وصول السائق الى بيلو هوزيزونت . وفي اثناء الطريق ، فهمنا أسباب تأخّره : كانت صناديق السيارة ملآى بالساعات والجواهر التي كان ينوي بيعها في المدن التي كنا نتوقف فيها . وشرح لأمادو انه كان يجمع الى عمله كسائق مهنة الشرطي التي كانت تتيح له اتصالات مثمرة مع جماعة ذات أهمية خاصة في البرازيل : المهرّبين . وقد كان يصادر منهم او يشتري بأثمان منخفضة البضائع التي كان سكان برازيليا ، المنقطعون عن العالم ، يشترونها بأثمان باهظة . وقال لنا امادو مسحوراً إن السائق كان يصف أعماله ومؤامراته ببراعة برازيلية نموذجية .

وسرنا طوال الصباح على طريق مستقيمة عبر « الكيرادو » ؛ ادغال وأشجار ذات أشواك بلا اوراق خضراء ولا زهور ، باستثناء بعض العناقيد البنفسجية التي كانت تتأرجح ، من بعيد لبعيد ، بين الأغصان العارية . وطوال ساعات لم نلمح كوخاً ولا بيتاً ، ولكننا رأينا مرتين او ثلاثاً واحداً من هذه « الحيوانات الضارية » التي تحدث عنها لابروبير : فلاّحاً عاري القدمين بأسمالٍ بالية . وبالرغم من مقاومة السائق ـ الشرطي الذي لم يكن يعتبر المكان مجدِباً لتجارته ، توقفنا لتناول الغداء ، في قلب الصحراء ، في المدينة الصناعية التي انتصبت على حافة سان فرنسيسكو بفعل بناء « يولدر »

فيها . كان زهاء خمسة عشر ألف شخص من العمال والمهندسين والتكنيكيين مع أُسرهم يعيشون في تلك الأكواخ القائمة على الحصى ، بين الاسلاك الشائكة . وكان علينا ، لكي ندخل ، ان نبرز اوراق هوياتنا . وقد واكبنا احد المسؤولين وجعلنا نزور السدّ الضخم الذي لم ينته بعد والذي سيروي المنطقة كلها . وبعد ان تناولنا الغداء في الكوخ الذي يقوم مقام المطعم ، استعدنا سيرنا على الطريق الكئيب . وكان للمدينة التي توقفنا فيها ليلاً مطار ، ولكن بلا كهرباء ؛ وقد تنزّهنا بعد العشاء في شوارع سوداء كانت رائحة الريف تنبعث منها وكان بعض الأشخاص العائدين من اجتماع انتخابي يتضاربون فيها تلمّساً ؛ وبين مكان وآخر كانت تلتمع مصابيح الاستيلين او شمعات حانة من الحانات ؛ وشربنا بعض « الكاشاسا » بينما كانت تنفجر بعض المفرقعات . وظللنا طوال نهار آخر في هذه الادغال والوحدة نفسها ؛ وبلغنا برازيليا أخيراً في المساء .

وسجلت في مذكراتي وصفاً لبرازيليا : « رسم تصميمي بالحجم الطبيعي » ؛ وعلمت على مضض اني كنت ألتقي « لاسيردا » : « معرض للهندسة بالحجم الطبيعي » وما يلفت النظر اولاً هذه اللاإنسانية . كانت الجادة الرئيسية التي يبلغ عرضها ١٦٠ متراً وطولها زهاء ثلاثين كيلومتراً ، مقوّسة ، ولكن بشكل خفيف جداً حتى لتبدو مستقيمة ؛ وجميع الطريق الاخرى موازية لها او هي تقطعها بزاوية مستقيمة وبملتقيات بشكل الخندقوق تمنع ايّ اصطدام . ولا يمكن للمرء هناك ان يتجول الا بالسيارة . والحق ، اي فائدة في ان يتنزّه المرء بين البنايات المؤلفة من ستة طوابق الى ثمانية ، المبنية الأعمدة ، والتي لا تبلغ فيها التغييرات السطحية حدّ الإيهام بالرقابة ؟ ويحدس المرء بحيّ مخصص للراجلين ، فيعزم على استقلال سيارة تحمله الى بُعد عشرة كيلومترات لكي يمشي . ولكن الشارع ، هذا المكان لالتقاء المارّة بسكّان الشواطيء ، والتقاء الحوانيت بالمساكن ، والشاحنات بالمشاة – بفضل هذا المزج الاعتباطي ، غير المتوقّع ابداً – الشارع الساحر في شيكاغو وروما ولندن وبكين ، وباهيا وريو ، والذي هو احياناً مقفر حالم ، ولكن صمته نفسه حيّ ، إن هذا الشارع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يوجد ولن يوجد في برازيليا. وتملك كل مجموعة سكنية ، مؤلفة من خمسة عشر ألف شخص ، كنيستها ومدرستها وحوانيتها وملاعبها . وقد تساءل نيمير امامنا في حزن : « هل بالامكان صنع هندسة معمارية اشتراكية في بلد ليس اشتراكياً ؟ » ثم أجاب نفسه : « بالطبع ، لا » والتمييز العنصري هنا هو أشدّ جذرية منه في اية مدينة اخرى ، لأن هناك « كتلاً » باذخة ، واخرى متوسطة ، واخرى شديدة التواضع : وسكانها لا يختلطون ؛ ولا يجلس الاطفال الاغنياء الى جانب الاطفال الفقراء على مقاعد المدرسة ؛ ولا تقترب امرأة الموظف الكبير من امرأة الموظف الصغير في السوق ولا في الكنيسة . وكما في « السوبورد » الاميركية ، لا تمنح هذه المجتمعات افرادها الا حظاً ضئيلاً من الصميمية الخاصة : فلما كان كل انسان هو كجميع الآخرين ، فليس لديه ما يخفيه على أحد . إن برازيليا تشبه تلك المدينة البلورية التي تخيّلها زامياتين في « نحن والآخرون » : إن الزجاج يأكل جميع الواجهات ، ولا يجد الناس حاجة لإسدال الستائر ؛ وفي المساء ، يتيح اتساع الجادات روية العائلات تعيش في قاعات مضاءة . من الاعلى الى الأسفل . وتسمى بعض الممرات السكنية التي تصطفّ فيها بيوت واطنة « تلفزيون كاتنغو [1] » : فعبر فتحات واسعة في الطوابق الارضية يتفرّج العمّال ، ذوو القمصان المحمّرة بلون الأرض ، على الاغنياء وهم يتناولون العشاء او يقرأون الجرائد او يتفرجون على جهاز تلفزيونهم الخاص . ويبدو ان هناك عمالاً وسكرتيرين مشغوفين ببرازيليا . اما الوزراء فيظلّون يحنّون الى ريو ، وقد اضطر كوبيتشيك الى تهديدهم بتقديم استقالاتهم ليجبرهم على الإقامة في العاصمة الجديدة . وكانت طائرات صغيرة نفّاثة تتيح لهم ان يقفزوا في ظرف ساعة من مدينة الى اخرى .

على ان الأبنية التي بناها نيمير في ساحة « تروا بوفوار » جميلة جداً : قصر الحكومة ، وقصر العدل ، وناطحتا السحاب اللتان تقوم فيهما المكاتب ،

---

(١) تعني هذه الكلمة العامل القادم من الأرياف لبناء برازيليا .

والأبنية نصف الكروية التي تسيطر على مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، والكاتدرائية التي هي بشكل تاج من الشوك : إنها جميعاً تتعادل وتتوازن مع ألوان من التنافر الدقيق والمفارقات الواضحة التي تملأ النظر . ولفت نيمير انتباهنا الى ان الحواجب الشمسية الهامة جداً في الابنية البرازيلية الحديثة تلعب الدور نفسه الذي لعبته في الماضي مخروطيات الفن الغريب الشاذ : إن المرء يمنع النور عنه بتجنّب الخط المستقيم . وقد شرح لنا المشكلاتِ التي كان عليه ان يحلّها لتحقيق بعض ألوان البراعة : من ذلك انبثاقة حاجب شمسي بصورة افقية على الفراغ ، مما يدهش جميع الزوار . والحق ان المرء يُفلت مما هو اصطناعي بفصل هذه العجائب المدروسة ، في تلك القصور المخصصة للموظفين.

وعلى بعد عشرة كيلومترات على الأقل ، ينتصب « قصر الفجر » الذي يقيم فيه الرئيس والذي ينهض الى جانبه معبد رائع بشكل حلزوني . وهو ينعكس في حوض تُرى فيه حوريتان ، من البرونز مشغولتين بتزيين شعرهما ؛ ويروى انهما تمثّلان ابنتي كوبتشتيك وكل منهما تنزع شعرها لأنهما نُقلتا الى برازيليا . واذ كنا نجري على احدى الطرق ، عبر الادغال قال لنا رئيس البلدية الذي كان يرافقنا ذلك اليوم ، بلهجة منتعشة : « آه ! هذه سفارة فرنسا ! » والتفت فقرأت على لافتة : « سفارة فرنسا » ؛ وكانت لافتات اخرى تشير الى سفارات اخرى .

وكان فندق « برازيليا بالاس » الواقع على بعد من « قصر الفجر » من تصميم نيمير كذلك ، وهو جميل ، ولكن النازل فيه يختنق ؛ وأيّ منفى هو ! فحتى في السيارة ، كان الذهاب لشراء زجاجة حبر او اصبع حمرة مشقة كبيرة بسبب الحرارة والغبار . والرياح والارض تقاومان قرارات البنّائين . ففي كل مكان تستخفّ بهم دوّامات الأرض اللاهبة . وساحة « تروا بوفوار » بحاجة الى ثروة لتغطية الأرض الحمراء بالاسفلت . لقد انتزع الرجال من الصحراء اشد المدن اعتباطاً؛ وستستردّها منهم الصحراء اذا تراخى عنادهم يوماً ؛ إنها تحاصرها ، مهدّدة . ولا ترطّب البحيرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاصطناعية النظر : فهذه الرقعة من الماء الأزرق تبدو الانعكاس الأرضي للسماء الملتهبة .

أدخلنا امادو ونيمير الى مكتب الرئيس كوبيتشيك ؛ وقد جرت لنا معه محادثة قصيرة شكلية جداً . وهو يعتبر برازيليا عمله الخاص . ويقوم في ساحة « تروا بوفوار » متحف من تصميم نيمير ، مخصص لتاريخ العاصمة الجديدة . وهو أشبه بالنحت التجريدي؛ فهو بسيط ، وغير متوقّع ، وجميل جداً ؛ ومن سوء الحظ ان رأس « جوسكلينو » ينبثق من احد الجدران اكبر من الحجم الطبيعي وبلون أخضر ؛ وتحته ، سُجلت عبارات مديح مزعجة استوحاها الناس منه . وقد اعتاد الناس ان يذهبوا يوم الأحد في حجّ – اين تراهم كانوا يذهبون ؟ فانه لم يكن حول برازيليا «شيء» اطلاقاً– الى البيت الخشبي الذي كان يمكث فيه بعض الاحيان يوم كانت الأعمال في بدئها ؛ كانوا يزورون البيت ، ويتناول فنجان قهوة تحت ظل بعض الأشجار ، ويتأمّلون التمثال الذي كان محفوراً على قاعدته : « المؤسّس وقصة انجازاته المجيدة » .

والمرء الذي يحتاج الى تذكرة طائرة او دواء او اي شيء آخر ، ينبغي ان يذهب الى بُعد عشرين كيلومتراً ، الى « المدينة الحرة » حيث لم ينظّم البناء . فما أن رُسمت تصاميم برازيليا حتى بُني على عجل اكواخ من خشب جُعلت دكاكين وفنادق ومطاعم ووكالات ومساكن . كأنها مدينة من مدن « الفار – وست » ، ولكن هناك – بدلاً من الخيل والمركبات – سيارات وشاحنات تجري في ضجيج مصمّ ، وتهدر السيارات الاعلانية بالشعارات هدراً . اما على الرصيف ، فهناك الهوشة؛ إن قدميك يُداسان ، والغبار يحمّر حذاءك ويدخل في اذنيك ويهيج منخريك ويَخزُ عينيك ، والشمس تهبط بأشعتها عليك كالمطرقة : ومع ذلك ، فأنت سعيد ، لأنك تلفي نفسك ثانية على ارض البشر . وغالباً ما تشبّ الحرائق ، بسبب ان الخشب يلتهب بسرعة في ذلك الجفاف ؛ وقبل وصولنا بقليل ، احترق حيّ بكامله ؛ ولم

تقع ضحايا ، وانما كان ثمة انقاض وبقايا وأثاث مسودّ وحدائد وأسرّة مقبورة . وكان الناس ينسون هذا الحزن حين يرون في الشوارع بعض « الكاتنغو » يربتون على اكتاف بعضهم ويضحكون . ذلك ان الناس قلما كانوا يضحكون في برازيليا . إنهم نهاراً يعملون ، وفي المساء يروحون ويجيئون احياناً عبر هذا العالم الذي كانوا يبنونه والذي لم يكن لهم .

ولكي أفهمهم ، كان لا بدّ لي من ان اتذكّر الحيوانات البشرية التي ألتقيتها في الشارع ، واكواخ « رسيف » ، وكل ما كنت أعرفه عن الشمال الشرقي . وكنت قد قرأت « درب الجوع » حيث روى امادو هجرةً قديمة عبر « الكاتنغا » ؛ كان الفلاحون الذين كانوا متضورين من الجوع يذهبون مشياً على الاقدام عبر الجنوب ، وكان قليلون منهم يبقون على قيد الحياة . اما الآن ، فهم يتراكمون في عجلات تسمى « اقفاص الببغاء » . وكانت هذه العجلات المثقلة التي يقودها سائق يجهد على الطريق ، تسقط غالباً في الحفر والأودية : فتنشر الصحف بشكل سريع خبر مقتل عشرين او خمسين من ركابها . وأحياناً — وقيل لي إن هذا هو ما حدث بصدد بناء برازيليا — حين يحتاج الملتزم الى اليد العاملة ، يدفع الى الموظف الذي ينقل الناس مبلغاً صغيراً لكل نقلة . وحين يصل الرجال الى الورش ، لا يستطيعون الا ان يقبلوا الرواتب وشروط الحياة التي تفرض عليهم . وهكذا كان عمّال برازيليا يتراكمون في « مدن تابعة » في « فافيلات » عملاقة ، على بعد عشرين او ثلاثين كيلومتراً من عملهم . وقد كنت ألاحظ ان سائقي الشاحنات الذين كانوا يحملونهم عبر المدينة كانوا يعاملونهم بوحشية لا تُصدّق : فهم لم يكونوا يبطئون السير عند المواقف ، وكان لا بد للكاتنغو ان يقفزوا في اثناء السير ، وغالباً ما كانوا يتدحرجون على الأرض ؛ وقيل لي انه كان يتفق لهم ان يصابوا بجراح ، او حتى يُقتلوا[1] .

---

(١) كان المفروض ان تهدم « المدن التابعة » حين ينجز بناء العاصمة . ولكن العمال فضلوا ، على ان يعودوا الى اريافهم ، ان يجربوا حظهم في برازيليا ، فبقيت تلك المدن .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد سمعت عدة مناقشات حول برازيليا . كان قادة البرازيل ، منذ زهاء مئة عام ، يفكرون في نقل العاصمة الى الداخل ، وكان هذا المشروع يلقي دائماً التأييد الشعبي . صحيح ، ولكن برازيليا لا تقوم في وسط البلاد الحقيقي ، وانما هي ، عند تخوم مسافات شاسعة غير مستغلّة ، تعتبر مركزاً عند « الحدود الأخيرة » . ولن تستطيع الحضارة ان تجتاح هذه الادغال قبل مضيّ وقت طويل. وقد أجاب عالم زراعي ألماني تحدثوا اليه عن فلاحة هذه المسافات بقوله: « ليكن . ولكن يجب جلب ألوف من الجرارات والشاحنات والحافرات ، ثم أطنان من السماد .. وكذلك الأرض . » وليس حول برازيليا اي مورد زراعي او منجمي او صناعي . وهي معرّضة لأن تظلّ مدة طويلة « سوبورباً » بعيداً عن سانبول وريو ، مع وسيلة اتصال واحدة هي الطريق التي اتبعناها والطائرات . وقد قال لنا كوبيتشيك إن برازيليا ، بسبب وجودها بالذات ، تجبرنا على خلق شبكة طرق ستوحّد البلاد : وقد بديء بناء طريق تصل « بيليم » بـ « برازيليا » عبر الغابة المتوحشة . ويجيب الخصوم إن الأعمال قد كلّفت من المال والرجال ثمناً لا يعوّضه ايّ فائدة عملية ، باستثناء انتقال عمليات التهريب من بيليم ــ سيارات اميركية ، عطور ، الخ ... ــ الى سانبول وريو . والواقع ان الشمال الشرقي ليس بحاجة الى اسواق تصريف ما دام لا ينتج شيئاً تقريباً ؛ بل إن صناعته اليدوية الفقيرة ــ صنع الأحذية مثلاً ــ هي معرّضة على العكس لان تنهار بفعل تدفّق بضائع سانبول . وقد كان من شأن الرساميل التي ابتلعتها برازيليا ان تزوّدها بشبكة محلية للطرق ، وان ترويها ، وان تقيم فيها المصانع . وكان امادو يعترف بأن برازيليا كانت اسطورة ؛ ويقول : ولكن كوبيتشيك لم يستطع ان يحصل على اقرارات وقروض وتضحيات إلا لأنه كان يعتمد على اسطورة ؛ وقد كانت الأمة سترفض مشروعات اكثر عقلانية ، ولكن أقل جاذبية وربما كان هذا صحيحاً . اما أنا فأشعر بأني رأيت ولادة مسخ تعمل رئتاه وقلبه بشكل اصطناعي ، بفضل طرق تكلّف تكاليف باهظة . وعلى اي حال ، اذا عاشت برازيليا ، فستستولي

عليها المضاربة. فالأراضي التي تحيط بالبحيرة، والتي كان المفروض في تصميم لوسيو كوستا ان تظل ملكاً عاماً، قد بدأت البلدية التنازل عنها لمشترين من اصحاب الأملاك الخاصة. وهذا نوع من التناقضات البرازيلية: لقد بنيت المدينة رقم واحد في هذا البلد الرأسمالي على ايدي مهندسين معماريين يؤمنون بالاشتراكية. ولقد أنجزوا أعمالاً جميلة وحققوا حلماً كبيراً، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون ان يربحوا.

* * *

كنت أتمنى ان ارى هنوداً. وقال لنا امادوان منهم من هو موجود على بعد ثمانمئة كيلومتر، في جزيرة نهرية هائلة وشبه مقفرة أنشأ فيها كوبيتشيك مدينة جديدة هي اكثر مدن البرازيل حملاً للطابع الغربي. وقد دعانا حاكم الجزيرة الى زيارتها. اما أمادو الذي لم تكن الطائرة تروقه كثيراً، فقد ظلّ في برازيليا، وقد صحبنا اخوه وزيليا في الطائرة الصغيرة التي وضعت تحت تصرفنا، وكنا فيها وحدنا مع الربان والمضيف. وقد حلّقنا فوق سهوب ما تزال عذراء، ذات لون مخضر متغيّر. وبعد ساعتين بدا النهر، ضاماً بين ذراعيه العملاقتين جزيرة لم تكن نهايتها تبين. وقال الربان وهو يضحك: «سيكون الهنود في المطار». ولم يكن يمزح. فقد لمحناهم في البعيد، يكادون يكونون عراة، والريش في رأسهم، والاقواس في أيديهم، وشعرهم الصلب يؤطّر وجوههم المطلية بالأحمر والأسود. واذ كنّا خارجين من الطائرة، قيل لنا: «هل تذهبون اليهم ام يجيئون اليكم؟» فذهبنا اليهم. وقد حيّونا بصرخات مجردة عن كل اقتناع. وكانت بعض النساء واقفات خلفهم بأسمالهنّ اليومية، وعلى اذرعتهن أطفال، وهيأتهن مرهقة. وأحسسنا انفسنا منزعجين جداً من هذه التمثيلية ومن دورنا البليد فيها. تبادل بسمات ومصافحات؛ وقد اعطونا، كما أوصوا، أسلحة وسهاماً وتيجاناً من ريش كان ينبغي ان نضعها على رؤوسنا. ثم زرنا قريتهم في اتون من حرّ، فشاهدنا خياماً واسعة ملآى بالنساء والاولاد النائمين على الأرض او في أراجيح. كانت الحكومة تحميهم، فكانوا يصطادون السمك، ويفلحون بعض الأراضي الصغيرة ويصنعون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دمى من الفخّار واواني يبيعونها او يقدمونها هدايا للزوار الذين يقدمون — في مقابلها — مساعدة للمؤسسة . وقد حملنا اقداحاً من الطين مزينة برسوم سوداء وحمراء وصور : نساء جالسات او واقفات ، يهدهدن سرر اولادهن او يعملن . وفي ظلّ الخيام ، لمحت ببغاوات مسكينة منتوفة الشعر ، فقد انتزعت من ظهورها الزينات التي قُدّمت لنا . وقد اغتسل بعض الرجال من ماكياجهم الطقوسي فبدوا لنا صِلاباً هادئين ؛ اما النساء ، فبالرغم من انهنّ كما قيل لنا قد مارسن تأثيراً كبيراً على المجتمع ، فقد كن يبدون متحلّلات . لقد كان هؤلاء الهنود الذين انتُزعوا من وضعهم الطبيعي من غير ان يتمثّلهم المجتمع كما تمثّل هنود « الاحتياط » في نيومكسيكو ، يعيشون عيشة لا تقلّ تصنّعاً عن عيشة الوحوش في حديقة الحيوانات . وكان الربان قد اقترح علينا ان نذهب لنرى ، على بعد ساعة ، قبيلة أقلّ تدجيناً : وكنت اؤمل ان نتمكن من الذهاب اليها بعد غداء سريع .

وحملتنا سيارة جيب الى المركز الذي كان يعيش فيه رجال المؤسسة . وكان فيه طبيب شاب كان يكره الهنود حتّى العمى ، ورجلان ملتحيان كانا يحبّانهم كثيراً ويحتقران البيض الآخرين بكل وضوح . وقد كادا يُذبحان حديثاً على يد قبيلة من « ماتو غروسو » ، ولكن ذلك لم يغيّر شيئاً من عواطفهما . وكان بامكانهما ان يرشدانا عن هذه القرية ، ولكنهما كانا يكرهان السيّاح الذين يأتون ليتفرجوا على الرجال كما يتفرجون على الحيوانات ، فأوليانا ظهرهما في قلة أدب لطيفة . وظللنا جالسين تحت الشرفة ونحن ننظر ، في الجهة الاخرى من النهر الواسع ، الى « ماتو غروسو » الخطر . ثم سمعنا أخيراً هدير طائرة : انه الحاكم والإعاشة . وحيّانا الحاكم ، وشرب زجاجة من البيرة من غير ان يقدّم لأحد منّا قطرة ثم نام في ارجوحة . وبدأوا يراكمون على سيارات جيب وعلى قارب آلي طاولات وكراسي وصناديق صحون ومؤناً : سوف نأكل في مدينة كوبيتشيك الجديدة ، على بعد بضعة كيلومترات . ولكن متى ؟ كنت جائعة ، وعطشى ، وكنت اعاني من الحرّ ، وكانت هذه الرحلة تبدو لي بليدة حمقاء . وأقبل رئيس هندي قديم

يدخّن غليونه بالقرب منا ويلقي علينا خطباً بالبرتغالية . وروى لنا أحدهم انه حين عُيّن رئيساً نازعه احد ابناء عمّه على هذا الشرف وشكا امره الى فارغاس الذي جاء يزور تلك المدينة . وقال الرئيس وهو يدعوهما الى المبارزة : « إن افضلكما هو الذي يكسب » وانتصر ابن العم . وكانوا يأخذون على فارغاس أنه شكّك في قرار القبيلة . وحوالي الساعة الثالثة ركبنا قارباً ، وكانت الشمس تمطرني بحرارتها ، وحتّى النهر نفسه كان يقذف لهباً . وكان أحد الملتحين يغتسل قرب المنزلة ، في حذر ، لأنّ المياه كانت ملآى بسمك صغير من النوع الذي يأكل اللحم وله اسنان سريعة العمل . ولم ينضمّ الى فريقنا . وكنت أسأل : « اين هي المدينة ؟ » فأروني فندقاً مخصصاً للسياحة ولكنه لم يكن جاهزاً بعد . مثال جميل للخداع البرازيلي ! وكانت المدينة كبيرة : بلاجات من الرمل الابيض ، ونهر ذو لون فولاذي ، وسهول دغلية لا محدودة ، تحت سماء معدنية . ولكن ايّ عراء لاهب ! ولجأنا الى مكان الأوتاد القائمة تحت البيت — وهو المكان الوحيد الظليل — وفيما كانت النساء ينصبن المائدة ، وضع الطبيب اسطوانة لكارلوس غارديل . وانتزعت زيليا من يدي الحاكم زجاجة بيرة فشربنا . وقدم لنا أخيراً الأرز بالروبيان ؛ وكنت من فرط الجوع بحيث كففت عن ان اكون جائعة . وكان سارتر يبذل جهوداً للمحادثة ، وكان يجيب على حديث الحاكم بقوله : « هـ — امّ جداً . » — لا شك في ان الفندق سيجذب العرسان القادمين في شهر العسل . » « — هام جداً » بل هو قد طرح بعض الاسئلة : « وهل ستكون ثمة طائرات لحمل العرسان ؟ » وقد أثار الإفراط في حسن النية لديه ضحكة شديدة لدى زيليا ، حتى انها خرجت من الطاولة وتصنّعت انها تتأمل شجرة ذات زهر قطني ؛ وسارعت احدى المدعوات لترشدها الى المرحاض ...

ولم يكن وارداً بعد ان نذهب لرؤية القرية الاخرى ؛ ثم إنها لما كان « البيض » يشرفون على ادارتها ، فاننا لن نتعلم عنها شيئاً كثيراً . اما القبائل التي هي وحدها تثير الاهتمام فخطيرة ولا يمكن الاتصال بها . وكثيرون من الخارجين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على العدالة يختبئون في المنطقة ، وهم مسلّحون ويتسلّون في قتل « المتوحشين » وقد أعدمت السلطات احد هؤلاء القتلة تحت انظار الهنود ، ولكن ذلك لم يكن كافياً لطمأنتهم ؛ فهم يهاجمون حين يلمحون « أبيض » .

وكانت الساعة السادسة حين عادت بنا الباخرة الى المركز . وكان الطبيب قد بقي في الفندق مع الجيب . وقال ربان الطائرة : « إن لم نذهب على الفور فيجب قضاء الليلة هنا » . وليس مطار برازيليا مضاءً في الليل ، ويحظر الهبوط فيه بعد غروب الشمس . وقفز سارتر : « لنذهب مشياً على الاقدام ! » وبالرغم من حمولتنا من الآنية الخزفية ، فقد سرنا الكيلومتر الذي كان يفصلنا عن المطار . وكنا قد اتخذنا مقاعدنا ، وكانت المحركات تدور حين وصل الطبيب ثملاً وهو يلوّح بذراعيه . ورُفع الى الطائرة ، فاسترخى بطوله ونام . وتنفسنا رضى حين وجدنا أنفسنا نحن الأربعة .

وبعد ايام ، سافر امادو وزوجته بالطائرة الى ريو . وكنت متأثرة وانا أتركهما . اننا سنصعد ثانية الى الشمال ، وسنسافر من « ماتوس » الى هافانا : فقد كنّا مدعوين اليها ، وكانت تذكرتا السفر تنتظراننا في احدى الوكالات ؛ وإلاّ فيجب ان نذهب الى « رسيف » لنستقل الطائرة الى باريس . وبعد ستة اسابيع تنقضي على مثل ذلك التفاهم الذي ربط بيننا وبين امادو وزوجته ، كان من الصعب ان نتصوّر اننا لن نراهما مرة اخرى قبل انقضاء سنوات ، بل قد لا نراهما ابداً .

* * *

كان عميد جامعة فورتاليزا الذي التقيناه في « رسيف » قد دعانا . وكانت رطوبة الجوّ تثير الدهشة ، في ذلك القرب من خط الاستواء ؛ واية مسرّة كانت في ان نجد ثانية طفرة البحر ، ومدينةً حقيقية . هي ذي من جديد « الجانغادا » ذات الأشرعة البيضاء ، والسوق المغطّاة ذات الروائح القوية ، والشوارع الضيقة التجارية — أقمشة ، أحذية ، ألبسة ، أدوية — وساحات ناعمة وحدائق وأكشاك ، وتدفّق بشريّ . وألقى سارتر محاضرة ، واقيمت

حفلة غداء رسمية في نادٍ يقع على حافة البحر ، وحفلة كوكتيل في حديقة العميد حيث غنّت جوقة الطلاّب أغاني فولكلورية . ولكن بقيت لنا اوقات فراغ كبيرة ، فكنّا نجلس مساء تحت أشجار حديقة ، في سطيحة مقهى — مطعم كان جنود يأتون ليشربوا فيه مع مومسات شابات ؛ وكانوا يلتقطوهن من حيّ المواخير القريب : وهو جزء من « الفافيلا » الصاخبة التي كانت تنسحق عند البحر ؛ وفي حاناتها المفتوحة باتساع وممراتها ، كان رجال ونساء يضحكون ويتحدّثون ، وقد قرّب بينهم ، فيما وراء مادّة تجارتهم ، فقرُهم المشترك . وذات مساء ، عبرت عند الغروب جزءاً آخر من « الفافيلا » : كان هذا الشفق مؤثّراً بسرعته ؛ فما ان ينحسر ضوء ما بعد الظهر حتى يلتهب الافق ويهبط الليل . وكانت قوارب « الجانغادا » المستقرة على الحصباء تشبه طيوراً كبيرة ميتة ، وكان رجال ونساء يأتون مشياً على الاقدام او ركوباً على ظهور الحمير ليشتروا السمك الذي يكون الصيادون قد جلبوه ؛ وكانوا لا يكادون يتكلمون ، وكان هذا التبادل الصامت بين بؤساء ، في عذوبة النهار الزائل ، يملك بساطة المقايضات البدائية . وحين عدت على اعقابي ، كانت بقايا شمع تلتمع في اكواخ « الفافيلا » .

وفي مقهى الحديقة الصغير كانت اسطوانة تدور وتدور وهي تمتدح « جانيو » بالموسيقى . وقد نزل جانيو هذا ذات مساء في فندقنا مع حاشيته ، فأصبح الليل مجنوناً . وكانت عصائب من الشبان يجتازون الشوارع وهم يصيحون ويغنّون ، والمكانس في ايديهم . وكانت الساحة الكبيرة ملآى بالأشخاص المزودين بالمكانس ، قبل ساعة من إلقاء خطابه . وكان ثمة مكبرات للصوت ومفرقعات وصراخ وضحك . وكان انتصار جانيو يبدو أكيداً ، وكان بودّ سارتر ان يلقاه : ولكن اصدقاءنا الذين كانوا يصوّتون لـ « لوت » ، والحزن ملء نفوسهم ، كانوا سينزعجون من ذلك .

وكنا نتمنى ان نشاهد « الكاتينغا » — اي الغابة البيضاء — بعد ان سمعنا عنها حديثاً طويلاً . وقد كلّف أحد الاساتذة رئيس الشرطة المحلية الذي كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتحدث الفرنسية ويملك اراضي في المنطقة ان يرافقنا. كان في الخمسين من عمره، أصلع، وقد علّق على لوحة «سيرانو» من صنع روستان فيما كنا نخرج من المدينة. وكان المنظر اولاً مؤلفاً من نخيل سامق ذي شوك يسمى «كارنوبا»، وكان يُصنع من جذوع هذا النخيل أسيجة وجدران، وتغطى السقوف بأليافه، ويؤكل ثمره. وكان يؤخذ منه خصوصاً الشمع الذي يحمي اوراقه من الجفاف اذ يمنعها من التنفّس، ويصدّر الى الخارج لتصنع منه الاقلام والاسطوانات واعواد الثقاب. وكان هذا النخيل يخصّ ملاكين كباراً سمعت انهم كانوا يعارضون ريّ المنطقة. وما لبث ان زال، فلم يبق الا بعض شجيرات غير نامية وذات أشواك واوراق باهتة رمادية؛ وبعض الصبّار: بشكل شموع وشمعدانات ذات أغصان عديدة، وارضي شوكي عملاقة، واخطبوط وتوتياء... في هذه الطبيعة العاقة ازدهر الملهمون و «الكانغاسيرو» الذين كانوا يضعون أملهم في الله او ثقتهم في اسلحتهم ليغيّروا احتضارهم الذي لا ينتهي الى حياة بشرية. وقد انطفأ القديسون وقطّاع الطرق. ومدافعةً للجوع، لا يُعوَّل بعدُ الا على «البحرات» التي يتجمّع فيها ماء المطر: ومعظمها جافّ. وقد رأينا احداها، وهي كبيرة كالبحيرة، وكان الرجال يقصدونها على ظهور حميرهم ليملأوا براميل يحملونها غالباً الى البعيد؛ وقد كان بالامكان، بفضل هذا المخزون، إخصاب ارضٍ كانت تنتج بمجرد ان تبتلّ: ولكن لم يكن اي نظام للتقنية قد نُفّذ. ويدّعي بعض الاقتصاديين ان اي برنامج لريّ «المضّلع» هو طوبائي؛ والحلّ الوحيد هو في نقل السكان الى الجنوب. ولكن آخرين يعتقدون ان بالامكان جعل المنطقة صالحة للزرع اذا أنفق على استصلاحها؛ وآخرون كذلك يعتقدون ان وضع الفلاحين منذ الآن سيكون محتملاً اذا استغلّوا الأرض لحسابهم ووفق حاجاتهم؛ ولكن اصلاحاً زراعياً حقيقياً يقتضي ثورة تظلّ غير مرجّحة [1]. ولا شك في ان اطفال «المضّلع» سيظلّون مدة طويلة

(1) منذ عام ١٩٦٠، نمت الجامعات الفلاحية، وعمد الفلاحون الى احتلال الأراضي =

يأكلون ، بسبب فقدان الطعام ، الأرض التي تقتلهم فيما هي تغذّيهم . على ان رئيس الشرطة المرافق يشكو من ان كل شيء في البرازيل يجري بأسرع مما ينبغي ؛ فلقد أُلغي الرقّ قبل الأوان ، والأتجاه الآن هو الى توعية الفلاحين وتثقيفهم قبل الاوان . وفيما كان يُدلي بهـذه التأملات ، حصل للسيارة عطل مفاجيء . وخطونا بضع خطوات على أملٍ لا مجدٍ بأن نحتمي في ظل بيت : فقد كانت الشمس تسلخني حيّة .

وحين أصلحت السيارة ، تجاوزنا رجلاً وامرأة كانا يمسكان بيد صبيّ متنكر بلباس الفرنسيسكان ؛ وعلى بُعدٍ يسير ، كانت عائلة ترتاح في حفرة ، تحت غطاء . وكانت كنيسة سان فرنسوا قريبة ، وفي ذلك اليوم اكتسحت المدينة الصغيرة التي كانت تقوم فيها جماعات غفيرة من الحجاج . وقد نشط النشّالون في اثناء الحفلة ، وتأكد رئيس الشرطة من ان النظام كان سائداً . وتناولنا الغداء في نزل ظليل ، ولم تقبل صاحبته درهماً واحداً ، وكذلك كان موقف صاحب المقهى الذي شربنا لديه عند العودة قدحاً : ان صداقة رئيس الشرطة كانت تساوي بعض الهدايا الصغيرة !

وفي الشارع ، كانت تباع بعض صور قبيحة للمعبد الموهوب الى القديس فرنسوا ؛ وكان هو في مثل قبحها . ولكن سقيفة النذور كانت أعجب من سكرستيا معلّم « بونفيم » . ففي وسطها كانت تُطرح الأشياء الخشبية التي كانت تُحرق كل عام : دُمى سحرية ، اذرعة ، سيقان ، ارجل ، أيدٍ ، رؤوس ، اعضاء تناسلية ، صور ، رسوم ، وكلّها تمثّل الحوادث الّتي يكون المؤمن قد تحاشاها او الامراض التي شفاها القديس فرنسوا : من جروح وندوب ودمامل وغُدد وبلغم وبثور وقُوَب وتشويهات . وكانت الاعضاء المريضة متمثّلة بالجصّ او بالشمع : كالكبد والجنب والعضو التناسلي ؛ وقد مرّ الزمن على هذه الأشياء فعفّنها : حتى لتكاد تشمئز من ان يكون لك جسم .

= وبدأوا ينظمون أنفسهم .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولدى العودة ، في رحمة المساء ، كانت « الكاتينغا » تبدو اقل إغاظة . واجتزنا قرية كانت اعلام واكاليل وبسطات تعلن فيها عيداً ؛ والتقينا عربات قديمة محمّلة بشبّان ، وزرافات تسير ؛ وكان الصبية يرتدون قمصاناً لامعة خضراء . والفتيات اثواباً فاقعة الألوان، وكنّ يحملن أحذيتهن بأيديهن ، حتى لا يهرّئنها وحتى يُرحْن اقدامهن .

* * *

لم يكن سارتر يتمنى قط ان يسافر الى امازونيا التي لم يكن احد قد دعانا اليها . ولكن بوست كان قد صوّر ، في « التان مودرن » مدينة « مانوس » تصويراً ألهب فضولي ؛ وكان اليجو كاربانتيه وليفي ستروس قد انعشا هذا الفضول . وكانت كريستيان ت . قد قالت لي : « اجل ، يجب ان تذهبي الى امازونيا ، فان للناس هناك طرقاً للضجر تختلف عن طرق الناس هنا » وهكذا هبطنا ذات مساء في « بيليم » . وكان جديداً ولذيذاً ألاّ ينتظرنا أحد ، ولكن سيارات الاجرة كانت غير متوفرة ، واحسسنا بالارتباك في لزوجة المطار الخانقة . وانتهى بنا الامر الى العثور على سيارة اوصلتنا الى الفندق . وكانت الغرف أشبه بالمخانق ؛ وفي الحانة المكيّفة كنّا نرتجف . فما ان تخرج حتى تلفّك حرارة مبلّلة وتقطع عليك نَفَسك . ولم يكن معنا بعدُ الا عملة فرنسية ، وقد رفضها الفندق ، وكذلك المصرف الذي اتجهت اليه ، ودلّوني على مصرف آخر ، وهو الوحيد الذي قبل تبديل القطع الأجنبي : الدولارات الاميركية وحدها دون غيرها . فما العمل ؟ وتناقشت بالانكليزية مع الموظف الذي اقتنع بان يتلفن لأحد معارفه ، وكان بائع تحف نادرة اشترى مني فرنكات بنصف سعرها . وفتشت عن طائرة الى « مانوس » : فلم يكن ثمة امكنة قبل ثلاثة أيام . وبدا ذلك طويلاً ، لاسيما وان المناخ والظروف كانت تمنع علينا كل نشاط . ومع ذلك ، فقد احتفظت بذكرى طيبة عن « بيليم » . وكان على ارصفة الامازون وفي السوق ، وبين البسطات المصفوفة جنباً الى جنب ، كان يرود زنوج وأجانب ومهرّبون مغامرون من كل جنس ،

وكانوا كذلك يملأون الحانات. ويحتوي مصبّ النهر، وعرضه ٣٥٠ كيلومتراً، جزيرة اكبر من سويسرا كانت ترى خضرتها فيما وراء المياه الكثيفة. وكانت المدينة البرتغالية القديمة قد بقيت على حالها تقريباً: بكنائسها وبيوتها ذات الطراز الاستعماري، وساحاتها المزروعة بشجر داكن والمزينة بالخزف. وبعيداً عن الوسط المركزي، على جادات واسعة كانت في الحقيقة اراضي بوراً، كانت اكواخ من قش تسبح في غزارة شجر الموز؛ وكانت تتصاعد من الليمون المصفرّ رائحة ثمر معجل النضج وخضرة وحراثة. وكانت تمتد تجاه الفندق حدائق؛ وقد اكلنا مرطبات غريبة في كشك مزين بطريقة غريبة فيما كنا ننظر الى مرور سيارات اميركية فخمة أُدخلت تهريباً، في حين اننا لم نكن نرى مثيلاتها في ريو او سان بول. وتلك هي شهرة «بيليم» التي كانت سان بول ترسل اليها عطوراً تباع على انها مستوردة خفيةً من باريس. وطوال النهار، كانت مكبرات صوت متنقلة تحث الناخبين على التصويت لجانيو، وفي الليل كانت الف مفرقعة تنفجر. وبالمقابل، كان يوم الانتخاب هادئاً جداً.

وذات صباح اقترب صحفي من سارتر في مشرب الفندق، وقال له: «لقد كنت انا اول من أعلن موتك». وكان منذ بضعة أعوام قد أبرق الى جريدته، وهو في حالة سكر شديد، ان سارتر قد قُتل في حادث سيارة بجوار «بيليم». وذهب صحفي باريسي يدق على باب بيت سارتر في شارع بونابارت، ويسأل امه إن كان في تلك اللحظة في البرازيل، فقالت: «لا. إنه هنا» قال الصحفي: «حسناً! ذلك انه عُلم انه قد حصل هناك حادث سيارة ...» فظنت انه سيغمى عليها، وسارعت تفتح الباب لتتأكد من ان سارتر موجود. وقد كسب الصحفي البرازيلي شهرة من هذه القصة. وحين جاء يلقى سارتر قال له: «المهم الا تسقط بك الطائرة فتقتل، لأن احداً لن يصدقني هذه المرة!»

حلّقت فوق الامازون والشبكة اللامتناهية من روافده عبر خضرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لامتناهية من الغابات ، مفتونة وحزينة في وقت واحد ، لأني كنت أعلم انني لن ارى بعد منه اكثر مما رأيت . وكانت طائرة تذهب كل شهر من « مانوس » لتزوّد حوانيت بعيدة كان الهنود يقصدونها للتموّن : ولكننا لن نزور قراهم ، وعلى اي حال ، لم يكن وارداً ان نبقى اكثر من ثلاثة أيام او اربعة في « مانوس » . وكان قد قيل لي انه كان مكاناً أخاذاً . وكانت مانوس قد أصبحت في أواخر القرن التاسع عشر ، بفضل اختراع الكاوتشوك ، عاصمة باذخة ، ولكنها انهارت في بضعة أشهر عام ١٩١٣ ، بعد ان سرق الانكليزي ويكام بذور شجرة الكاوتشوك ، فانتجت في سيلان وجاوى كميات كبيرة من الكاوتشوك . وقد هجر المدينة كل سكانها تقريباً ، ولم يبق منها الا هيكل عظمي بدأ بدوره يتحلل ؛ غير ان اقامة المصانع الصغيرة فيها اعاد اليها سكاناً يبلغ عددهم ١٧٠ الف نسمة يعيشون في استرخاء وسط آثار عظمة زائلة بين غابة لا تُخترق والريونغرو ، طريق الوصول الوحيد بعد الطائرات .

وعلى جدران فندق امازوناس ، وهو بناء مخروطي جميل أقيم منذ عدة أعوام ، تُرى انهار صغيرة تسحقها قبة من الخضرة تجري عليها قوارب محملة بسياح ضاحكين يحملون بايديهم بنادق . وقد أغرت هذه الصور التي نُقلت الى بيانات دعائية ، كثيراً من شبان سان بول الاغنياء . فقصدوا المدينة للصيد والمغامرة . كان هذا منذ عشرة أعوام . ولكنهم عادوا من غير ان يروا شيئاً او يطلقوا طلقة واحدة ، وأعلنوا خيبة أملهم . وكان الفندق مقفراً تقريباً . وعلى عكس « بيليم » ، كنا نتجلّد في غرفه ، ونرشح عرقاً في مشربه وفي مطعمه . اما في الخارج فكنا نصبح خرقةً دبقة . وفي الساعة السادسة ، حين كانت الشمس تنطفيء كشمعة ، كانت موجة حرّ جديدة تتصاعد من الارض ، تبلغ من الكثافة بحيث لا ينفذ ايّ ضوء منها في الليل : ولم يكن ثمة كهرباء في مانوس (على ان الفندق كان مزوداً بمحرك كهربائي) . وكان الرضاب يجفّ في أفواهنا ، وكان

من المستحيل ان نأكل. وكانت مساكن الماضي الغنية – المصنوعة من المرمر المجلوب من ايطاليا – قد بدأ العشب يأكلها؛ وكان المرفأ وحده هو الذي يعيش بسفنه المحملة بالركاب والبضائع، وعوّاماته وبيوته الصغيرة التي تتقدم فوق الماء وبجريان النهر الاسود.

وهنا ايضاً لم يكن ثمة اي مصرف يقبل هذه المجازفة الخطرة: ابدال الفرنكات؛ ولكن بائع جواهر الزاسياً قدم لنا كمية من «الكروزيرو» بالسعر العادي وبلا تعقيدات. وقد أخذنا صديقه الوكيل القنصلي، وهو فرنسي آخر مسن يقيم في امازونيا منذ خمسين عاماً، في سيارته الى الطريق الذي كان يشقّ الغابة لبضعة كيلومترات. اما «تيجوكا» فكانت لها خطوط اوفر من الجاذبية؛ كنا «نعلم» هنا اننا محاطون بمحيط من الكلوروفيل، ولكننا لم نكن نرى الا ستارين من الشجر؛ وكان بالامكان ان نكون في اي مكان. وأصبنا في نزهة اليوم التالي شعوراً أعمق بالغربة. وتضع امازونيا اليوم كل آمالها بوجود البترول، وتنقّب شركة بتروبرا عن نفطها. وقد هبطنا النهر مع القنصل وتكنيكي سويسري، على باخرة من بواخر الشركة: وكانت امواج النهر مفصولة عن الامازون الابيض بخطّ شديد الوضوح حتى ليحسبه المرء مرسوماً باليد على ارض صلبة. وكان صيادون جالسون في قوارب يلقون بشباكهم في المياه المليئة بالأسماك آكلة اللحوم. وصعدنا أحد الانهار حتى بلغنا بيوتاً عائمة لعمال البترول وتكنيكييه، وقد قاسمناهم طعامهم، ثم وصلنا الى أحد السدود بعد ان قطعنا المسافة في شاحنة مكشوفة تصبّ عليها الشمس نيرانها؛ وكانت كثافة الغابات حول الطريق تلفت النظر. لقد كنّا بعيدين عن الأسرار الخضراء التي ذكرها اليجو كاربنتييه. وعدت منهوكة. وفي الصباح، أخذنا القنصل لنتفرّج على أجمل تحفة في مانوس: المسرح، المصنوع كله من المرمر، والذي تعلوه قبّة، والذي رقص فيه وغنّى أشهر فناني العالم. ولم اكن اتماسك في الوقوف؛ كانت الأرض مصابة بالحمّى، وكنت أغتسل في عرقها، وكنت انا ايضاً محمومة اغتسل بالعرق. ونمت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسألني سارتر : « هل نذهب مع ذلك ؟ » نعم ، نعم ؛ كان ينضاف الى كآبة المدينة والى تعبي ضيقٌ ناجم عن شعورنا بأننا مقطوعان عن العالم . ولم نكن قد وجدنا تذاكر الى كوبا ، ولم نكن قد نجحنا بالاتصال تلفونياً بريو . وحاولنا عبثاً ان نتبادل برقيات مع امادو وزوجته . ففي البرازيل ، لا يعمل بدقة الا دائرة البرق الاميركية التي لم تكن شبكتها تصل الى مانوس ؛ وقد قال لنا القنصل : لا بد من انقضاء اسبوع قبل ان تصل برقية من ريو — هذا اذا وصلت . وكانت امورٌ تجري في باريس ؛ لقد ابلغتني الوكالة التلفونية ان لي مخابرة ، فانتظرتها ساعتين : وخنَّ صوت لانزمان من بعيد ، وكان يقول لنا ألاّ نعود الى فرنسا قبل ان نتلقّى رسالة ، ولم يكن يسمعني ، وقد انطفأ صوته في وسط كلمة . وكنت مستعجلة لأن اكون في « رسيف » ، ثم في باريس . وصحبنا القنصل ليلاً الى المطار فيما هو يعلّق على الانتخابات . إن فرز الاصوات يقتضي أسابيع ، بسبب اتساع البلاد وسوء الادارة : ولكن جانيو كان متقدّماً على خصمه تقدماً كبيراً حتى ان نصره بات اكيداً . على ان حاكم مانوس كان قد صوّت للوت : كان يسارياً ، وشريفاً . وشرح القنصل : هناك نوعان من الحكّام : الارديا‌ء الذين يضعون الأموال كلها في جيوبهم ولا يفعلون شيئاً ؛ والطيبون الذين يضعون المال في جيوبهم ، ويفعلون شيئاً ما .

ثماني عشرة ساعة من السفر ؛ وكنّا كل ساعتين نهبط الى اليابسة ، فكنت اختنق في المطارات الصغيرة . وحين وصلنا حوالي الثامنة مساء ، اراد ضابط الجمرك ان يفتش حقائبنا : فكل من يأتي من امازونيا متّهم بالتهريب . ولكن غضب سارتر وتدخل كريستينا ت . التي أتت تستقبلنا ، حرّرانا . وقد صحبتهما الى المطعم رغم تعبي ، لأن من غير المحتشم ، في الشمال الشرقي ، ان يخرج رجلٌ وحده في المساء مع فتاة شابة . وللسبب نفسه ، شاركت في اليوم التالي في النزهة التي اقترحتها كريستينا . وكنا سعيدين برؤيتها ثانية . لقد كان في ثوراتها مقدار كبير من العمق والحميّا والسخاء : ولم تكن توجّهها

نحو انقيادية وسطها – التي كانت تزعجها – بل نحو الظلم . وكانت كلمة شيوعي ترعبها ؛ وكانت قد بلغت اوضاعها الحالية عبر افكار مسبقة كثيرة : وهذا ما كان يضمن صدقها وصلابتها . ثم إنها كانت تتفجّر حياة ، وكانت ذات مرح وفكاهة على خلفية من الكآبة ، لأنها كانت تشعر انها وحيدة جداً . ولكنني كنت حقاً متوعكة . وكنت أجرّ نفسي عبر اسواق كئيبة في قرى كئيبة كانت تريد ان تطلعنا على بؤسها . كنت طوال شهرين قد أحببت البرازيل ؛ انني احبّها عبر ذكرياتي : ولكني في تلك اللحظة ، فجأة ، ضجرت من الجفاف والجوع وهذا الضيق كلّه .

والتهبت طوال الليل ، الى حد اني عند الصباح ارتكبت حماقة استدعاء طبيب . وفحصني صديق للدكتور ت . – شقيق لوسيا وكريستينا – فاذا أنا مصابة بالتيفوئيد ؛ ولكن هذا المرض عندهم كان يشفى في بضعة ايام . وانخفضت درجة الحرارة عندي بعض ابرة بنسلين ؛ ولكني مع ذلك نقلت الى مستشفى الامراض الاستوائية .

ولن أنسى ابداً تلك الأيام بمذاقها الجهنّمي السرمدي . كانت لي غرفة بحمام ، وممرضات لطيفات جداً . ولكني كنت من شدة الضعف بحيث بدت لي هذه العزلة غير محتملة . وكان المرضى والموظفون يثرثرون حتّى ساعة متأخرة من الليل ؛ وكان ثمة ساعة تدقّ كل ربع ساعة بصخب . وقد اصبت بما يشبه ثورة الاعصاب ، في اليوم الاولى ، حين ايقظوني عند الفجر ، وكنت لم أكد أغلق عيني . ثم اعتدت الضجيج ؛ فكنت منذ الساعة الخامسة أنتصب في سريري ، فأفقد شجاعتي اذ أتصوّر هذا النهار الطويل الذي ينبغي لي ان أقتله . كانت لديّ هموم . وفي المساء ، كان سارتر يكرع بكآبة في مشرب الفندق كأساً او كأسين من الويسكي ، ويذهب لينام في العاشرة ؛ ولكي ينام ، كان يتناول حبوب الغاردينال . ولم يكن الصيدلي البرازيلي يطلب وصفة الطبيب، بل يكتفي بأن يسأل: « من أجل البلع ام للإبرة ؟ » (ذلك ان البرازيليين يحقنون انفسهم بالبنسلين او بأي شيء آخر في سهولة مدهشة) .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد حدث له مع ذلك ان استيقظ في الساعة الثانية صباحاً فعانى ضجراً شديداً حتى فضّل ان يحلق ذقنه. وكان حين يخرج من سريره في الصباح يترنّح عند سريري، وكاد يوماً ان يقلب الآلة التي كانوا ينقّطون لي منها العلاج. لقد كان الموت، منذ خريف ١٩٥٨، يشدّ بخناقي عند اول انذار: وكنت انتظره واغادره في الخوف؛ وكانت الروايات البوليسية (بالانكليزية) التي كان يبتاعها لي من مكتبة المدينة الوحيدة غير كافية لإلهائي بالرغم من اني قرأتها كلّها.

ثم ان الرسالة التي كان لانزمان قد وعد بارسالها لم تكن تأتي؛ ولم يكن لدينا صحف فرنسية. وكانت سفارة ريو الفرنسية تشيع في مزيد من الإلحاح أن سارتر سيلقى في السجن بمجرد وصوله. وكانت الجالية الفرنسية في «رسيف» تدّعي ان مرضي كان بالاحرى ديبلوماسياً، واننا كنا نخشى العودة. والواقع، اننا كنّا على عجل لكي نُسجن كرفاقنا. وكنت اكره ان أحسّني سجينة هذا المستشفى، وانا آكل كلّ صباح ومساء حساء الأرز والدجاج نفسه. وكنت ألمح من سريري أشجاراً من جوز الهند مبسوطة نحو سماء زرقاء، وقصباً وخضرة باهتة بعض الشيء، والمدينة في الأفق؛ وكنت أطلّ من النافذة، فأرى رجالاً ونساء حول مواقد صغيرة. وهطلت بعض الأمطار العنيفة والسريعة، وهبّت غالباً ريح ثقيلة وبطيئة. وسحرت بذلك المشهد الهادىء اكثر مما ينبغي، وبصمته الرطب، فكنت أحسّني ضحية لعنة من اللعنات: انني لن اغادر هذا المكان ابداً. وفي سكون صباح كان الناس ما يزالون نائمين فيه، رأيت فتى زنجياً يتسلّق بقدمين عاريتين جذع شجرة جوز: ورمى جوزاً الى الأرض؛ كان ماهراً جميل الحركات، قريباً جداً مني، وبعيداً جداً عني؛ وقد اصعد وجوده ووجودي الدمع الى عينيّ. وكانت الأمسيات جميلة بأضواء «رسيف» الخضراء والحمراء، ولكن حلقي كان ينقبض، بسبب تلك الليلة التي كان يجب عليّ بعدُ أن أقضيها، والكوابيس التي ينبغي ان اطردها، وذلك النهار الذي كان يجب ان ابدأه

من جديد .

واستمرّت الأبدية سبعة ايام . وتلقيت رسالة لانزمان . كانت محاكمة جانسون قد انتهت يوم ٤ تشرين الاول بحكم لئيم . وكانت الاعتقالات بحق الـ ١٢١ – الذين كانت لائحتهم قد امتدّت كثيراً – تستمرّ . وفقد موقّعو البيان كل حق في ان يذيعوا بالراديو او بالتلفزيون ، بل لم يكن لهم حق بعدُ في ان تذكر اسماؤهم في اثناء الاذاعات . وقد أقيل فيدال – ناكيه ، واوقف بارا . وكان دوبريه قد شهّر ، في خطابٍ له بميّز بالـ « ١٢١ وبمشاغباتهم التافهة والكريهة في وقت واحد » . وكانت السلطات في اول تشرين الاول قد قامت بمصادرات واعتقالات في مكاتب « التان مودرن » و « اسبري » و « فيريته اليبرتيه » ؛ وقد اوقف دومناك وبيجو ساعات في مراكز الشرطة ، وصودر عدد تشرين الأول من التان مودرن . وفي اثناء مظاهرة قام بها خمسة آلاف رجل من المحاربين القدامى في جادة الشانزليزيه ، كانت الهتافات ترتفع : « أعدموا سارتر ! » وباسم جميع اصدقائنا ، كان لانزمان يطلب منا ان نتوقف في برشلونة حيث سيوافينا ليطلعنا على الوضع .

وقلت للطبيب إني كنت راغبة في الذهاب ، فاعترض بأني مصابة بالتيفوئيد ، وان الفندق سيردّني . وقدّمت لي الشقيقتان ت . اللتان كانتا مع عائلتهما تسكنان في تلك الفترة مقصورة على البلاج بمنزلهما في « رسيف » . وقضيت ثلاثة ايام في غرفتي التي كانت على الطراز القديم، وكان جهاز لتكييف الهواء ، بدائي وصاخب ، يرطّبها قليلاً : وكان الصيف يُعلن مقدمه والحرارة تحاصرني من وراء الزجاج . وفي الصباح الباكر ، كان اقرباء لـ « ت » يسكنون في البيت المقابل يبعثون الي بطعام الفطور . وذات مرة ، دهشت لدى سماعي ، في السادسة صباحاً ، صوت سارتر يرتفع من الحديقة : كان ضجراً لاستعصاء النوم عليه ، ففضّل النهوض . وأقبل الطبيب الشاب ت . يفحصني ذات مساء ؛ فتأخّر ، وقلت لسارتر واختيه ان يذهبا للعشاء من غير ان ينتظروه ؛ ولكنهما رفضتا : فانه لا يمكن ترك رجل وحيداً مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

امرأة ، حتى ولو كانت في سنّي ، في بيت . صحيح انهما لم تكونا تؤيدان هذه الآراء الرجعية ، ولكن اقرباء لهما كانوا يراقبونهما على طول الطريق . وسمح لي الطبيب بالخروج . وبعد ربع ساعة من السير في شوارع بدا لي فيها الهواء كثيفاً كأنه مشروب ، وكان سارتر يترنّح الى جانبي ، استلقيت نصف مغمى عليّ عند سطيحة مقهى ؛ وأغمي عليّ بعد يومين ، في ريو ، في اثناء الغداء الأول الذي تناولناه مع امادو وزوجته في مطعم عائلي .

وكان القائم بالأعمال الكوبي قد جاء للقائنا في رسيف ، بعد ان يئس من الاتصال بنا تلفونيا : كانت هافانا تلحّ على ان نقضي فيها بضعة ايام ؛ وكانت الطريقة الوحيدة للسفر اليها هي ان نعود الى ريو التي كانت تبعد ١٦٠٠ كيلومتر . ولكن متعة رؤية امادو وزوجته وكوبا كابانا مرة اخرى أفسدها عليّ تعبي ؛ وكنت أحنّ الى وطني ، بالرغم من أن لانزمان كان قد ردّد لي بالتلفون ان المتطرفين كانوا يريدون رأس سارتر .

ومساء ذهابنا الى كوبا ، كانت دوّامة عنيفة تكنس المطار ، وكانت تهزّ في قاعة الانتظار أشجار النخيل المزروعة في آنية كبيرة وتثير عواصف من الورق . وانتظرنا هدوءها طوال ساعات ، مخدّرين ، ناعسين . ثم أقلعنا . وكانت المحركات تبصق كمية من النار مبالغاً فيها ؛ وكانت تلك احدى الليالي التي يبدو فيها وقوع الأسوأ أكيداً ؛ وحين هبطنا في « بيليم » ، في ظلمات لزجة ، أكّدت لي لامعقولية وجودي هناك شعوري السابق : لقد كانت تلك القارّة شَرَكاً لن نفلت منه . ولم أستعد طمأنينتي الا حين اكتشفت في الصباح سهلاً مخنوقاً بين سهب وبحر أزرق : إنها كاراكاس تحت أقدامنا . وحطّت بنا الطائرة . وفيما كنت أشرب فنجان قهوة في المشرب ، تأمّلت الطائرة التي ستنتزعنا بعد ساعة او ساعتين من ارض البؤس هذه ، وكانت امرأة عجوز تمرّ بين الطاولات وتلمّ كسرات من الخبز ، وعظاماً وبقايا بياض البيض ، وكانت تصرّها في ورقة لتقدمها مأدبةً لأسرتها . وطلب بعض الطلاّب من سارتر ان يتوقف بضعة ايام في كاراكاس : وقد وجدناهم

وجدناهم لطافاً ودودين ، وكانت فنزويلا تتحرك . (وقد حصلت مظاهرة للطلاب بعد ظهر هذا اليوم نفسه ، وبعد أيام قتل رجال الشرطة عدداً من الطلاب) . ولكننا كنّا منتظَرين في كوبا ، وكنا نتحرّق للوصول اليها .

واقترب موظف رسمي من موظفي المطار يسأل سارتر : « هل لديكم تذكرة عودة ؟ تذكرتكم الى باريس ؟ لا ؟ انكم اذن لا تستطيعون السفر : وهذه أوامر هافانا » وقال سارتر : « ولكننا مدعوّان ؟ » فقال الموظف : « اثبتوا ذلك ! » ولم نكن نملك درهماً لنشتري تذاكر العودة ، ولا اية ورقة رسمية . وكانت الطائرة البرّاقة توشك ان تقلع بدوننا ! وتلفن سارتر للسفارة الكوبية ثم انقضّ على موظفي المطار بغضب شديد انتهى بانتصاره ، فتركونا نذهب في اللحظة الأخيرة . ولم نفهم اسباب هذه المعاكسة : فان الكوبيين لم يكونوا يتخذون اية تدابير ضد الهجرة الى بلادهم .

وابتعد الشاطيء أخيراً ! أخيراً ! وحلّقنا فوق الجامايك ، وكان بالامكان ان نصدّق اننا بخفقة جناح قد ادركنا انكلترا : فقد كان ثمة عشب مخضرّ ، ومقاصير تحفّ بها مسابح . وقال لي سارتر ، الذي كان قد زارها ، انه لم يكن ثمة مستعمرة في العالم أكأب منها . وما لبثت هافانا أن أطلّت ، وكان اصدقاؤنا ينتظروننا ــ باستثناء فرانكي واركوشا اللذين كانا آنذاك في موسكو . وكان معهم موسيقيون يرتدون ثيابهم ويعزفون على الغيتارات .

* * *

كانت هافانا قد تغيّرت ؛ لقد ألغيت الملاهي الليلية وألعاب القمار ، وانقطع السيّاح الاميركيون ؛ وفي فندق ناسيونال ، الذي كان نصف فارغ ، كان فريق من الحرس القومي ، من الفتيان والفتيات ، يعقدون مؤتمراً لهم . وفي كل مكان ، في الشوارع وعلى السطوح ، كان الحرس القومي يقومون بالتمارين . وكان دبلوماسيون غواتيماليون قد أخبروا ان فرقاً من المهاجرين الكوبيين ومن المرتزقة الاميركيين كانوا يتدربو ن في غواتيمالا . وسوف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحاولون ان ينزلوا في الجزيرة ، وباسم حكومة وهمية ، يطلبون مساعدة الولايات المتحدة . وامام هذه التهديدات، كانت كوبا تزداد صلابة ؛ لقد انتهى «شهر عسل الثورة» .

لم يكن اولتوسكي وزيراً بعد . بل كان يعمل في «المعهد» الذي كان غيفارا قد أسسه لتصنيع البلاد والذي صحبنا في زيارته . ولم يخف عنّا المسؤولون صعوباتهم . كانت تنقصهم الملاكات ؛ وكان عدد من المهندسين يعملون في تصميم ثلاثة مصانع مختلفة او اربعة ؛ ومع ذلك فان الرساميل المخصصة لانشاء المصانع او تجديدها لم يمكن ان تستعمل بكليّتها .

وزرنا بالقرب من هافانا مصنعاً للنسيج : وهو بناء قديم ذو غرف جيدة الترتيب ، تحيط به الأشجار والأعشاب ، مع بيوت مريحة للموظفين والعمال . وكانت الحديقة في عيد : العمال ونساؤهم العاريات الأكتاف والمتبرجات ، واولادهم ، وباعة المرطبات والحلويات . ووقف سارتر في احد الأكشاك ، وسط الحديقة الخضراء ، فتحدث عن عاطفته تجاه كوبا . وسئل عن فرنسا ، وطرح بدوره أسئلة : اية فوائد كسبها عمال المصنع من تغيير الحكم ؟ وكان بعض العمّال على وشك ان يجيبوا ، فاستوقفهم رئيس نقابي وأجاب بدلاً منهم .

وعند لقائنا بالمثقفين ، تحدّث رافائيل وغويان ، ولم يكونا في نيسان الماضي قد فتحا فميهما ، تحدّثا بصوت عال . وصرّح غويان في صدد الشعر : «انني اعتبر ايّ التماس للشكل مناهضاً الثورية .» وكانوا يطلبون ان ينطووا للواقعية الاشتراكية . وقال لنا بعض الكتّاب ، في جلسات خاصّة ، انهم كانوا بالرغم منهم ، قد بدأوا يمارسون على انفسهم الرقابة الذاتية ، وكان كل منهم يتساءل : «هل انا حقاً ثوري ؟» .

كان ثمة مرح أقلّ ، وحرّيّة أقلّ ؛ ولكن تحقّق تقدّم كبير في بعض النقاط . وكان للتعاونية التي زرناها تفوق كبير على جميع التعاونيات التي كنا قد رأيناها من قبل . كانت تزرع خصوصاً الأرز ، ولكن بطرق تكثيفية

جداً ، حتى انها استولت على اراضٍ كانت تنبت فيها البندورة والخضار المختلفة . وكان الفلاّحون ينجزون ، بمساعدة بنائين قدموا من المدينة ، بناء قرية : بيوت مريحة ، قاعة سينما ، مدارس ، ملاعب للرياضة . وكان مستودع للدولة يبيع بسعر الكلفة تقريباً منتوجات ذات ضرورة اولى . وكان مصنع للأحذية وآخر لمعلبات البندورة يعملان مباشرة لتزويد التعاونية ؛ وهكذا كان يتحقق ، على نطاق اضيق ، ما كانت تعمل له التعاونيات الصينية : اقامة صلة بين الزراعة والصناعة . وكان الفلاحون يبدون أشد تعلقاً بالوضع منهم في اي وقت مضى ، ولكنهم ثائرو الاعصاب . ذلك ان القرية كانت قريبة من المكان الذي كان يتوقع حدوث نزول المرتزقة الاميركيين فيه . وقال لنا رئيس التعاونية ، الذي كان شديد الهياج ، وكان يضع مسدساً في نطاقه ، إنه كان ينتظر بفارغ الصبر لحظة القتال .

وعقد سارتر ، في الامسية التي كانت تسبق سفرنا ، مؤتمراً صحفياً ؛ وقبل ان يبدأ المؤتمر ، همس له أحد اصدقائنا من الصحفيين ان فرقاً كانت تهبط الى الارض الكوبية ، بجوار سانتياغو . على ان سارتر لم يمتنع عن التصريح امام الصحافة والراديو والتلفزيون انه لا يعتقد بامكانية تدخّل اميركي مباشر ؛ كانت الفترة فترة انتخابية ، ولن يحاول الحزب الجمهوري ان يفسد حــظّ نيكسون باتخاذ مسؤولية مغامرة غير مأمونة العواقب . وذهبنا نتناول العشاء مع صحفيين من جريدة « ريفولوسيون » في مطعم « هيلتون » القديم الذي اصبح اسمه « هافانا الحرة » . . وكان حدادياً ، ذلك المكان الواسع المقفر الذي كان ديكوره يذكّرنا بـ « بولينازيا » . وكان اصدقاؤنا في كل لحظة ينهضون عن المائدة ويتلفنون : وكان نبأ الغزو يتأكّد . وكانوا يقولون بصوت جاهــم : « وسوف نردّهم » . وفي اليوم التــالي ، كُذّب النبأ : ولكن الكوبيين كانوا يعتقدون بأنها عمليةٌ قد أُجّلت فحسب .

ولم نكن قد رأينا كاسترو . ويوم سفرنا ذهبنا نزور « دوريتكوس » ؛ وكان ذلك يوم ذكرى وفاة كاميلو سانفوجو الذي كان معبوداً ككاسترو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقريباً والذي كانت طائرته قد سقطت في البحر منذ عام. وكانت مواكب من الطلاب والعمال والموظفين والنساء والاطفال يمشون في الشوارع حاملين اعشاباً وأكاليل كانوا يلقونها في المحيط. وفيما كنّا نتحدث مع الرئيس، كان جيمينيز يتلفن لسكرتيرة كاسترو: كان موجوداً في ضواحي هافانا، وكان يطلب منا ان ننتظره. وكان هذا مستحيلاً، فالساعة كانت السادسة، وموعد اقلاع الطائرة الثامنة. واصطحبنا جيمينيز الى الفندق، فصعدنا لنأتي بحقائبنا؛ وعند الهبوط ثانية، ضغطنا على زرّ المصعد: فوصل، وانفتح، وانبثق منه كاسترو، يتبعه اربعة ملتحين و «اديث ديبستر». ولم يكن قد فقد شيئاً من مرحه، ولا من حرارته. وقد أخذنا في سيارته. وسألنا ما الذي رأيناه، وما الذي لم نره. وكانت السيارة تمشي بنا في صعوبة وسط الزحام؛ وكانت مواكب تسدّ الطرق، وكانت الجماهير توقف السيارة وتصيح: «فيديل! فيديل!» وحين خرجنا من هافانا أخيراً، قال لنا كاسترو: «سأريكما المدينة الجامعية» فتمتمت: «ولكن الطائرة تقوم في الساعة الثامنة...» فأجاب: «انها سوف تنتظر!» وكانت اكبر ثكنة في هافانا قد حوّلت الى مجموعة من الأجنحة والبنايات وملاعب الرياضة. وقد ألقينا عليها نظرة سريعة، ثم سلك بنا السائق، بحجة وجود طريق مختصر، دروباً مظلمة وسط اراضٍ تقطعها مستنقعات؛ وكنت اقول لنفسي: لقد أقلعت الطائرة. وفي المطار، ارتفعت حواجز، ووضعتنا السيارة على ارض المطار، قرب الطائرة التي كان بعض الميكانيكيين يفحصونها: وكان علينا ان ننتظر على بعد بضعة امتار من المحركات. وقد قال لنا: «: «إن انزال فرق المرتزقة امر اكيد. ولكن من الأكيد ايضاً اننا سنردّهم. واذا سمعتم اني قد قُتلت فلا تصدّقوا.»

ومضى. وصحبنا جيمينيز واديث واوتيرو واولتوسكي واصدقاء آخرون لتناول العشاء في مقصف المطار. وكان المطار مليئاً بأشخاص نظروا الينا بلا صداقة: «انهم ينتظرون الطائرة لتقلّهم الى ميامي، ولن يعودوا.» وكانت

ملابسهم تنمّ عن طبقتهم . وحين نادى مكبّر الصوت : « المسافرون الى ميامي » ، انقضّوا على باب الخروج .

وطرنا . وحطّت الطائرة في « برمود » ، وكنت انتظر ان تحطّ في جزر « الاسو ر » : ولكنها تأخّرت . وفكرت حين بدت لنا الأرض : « ها نحن في الجزر . » ولكن هذه الجزر لم تكن تنتهي . وخيّل إليّ اني اتعرّف لون الأرض وبروزها والطريقة التي كانت مقسمة بها ، وخضرة هذا النهر : التاج ؛ انها اسبانيا ، وقمة الجبال الثلجية ، ومدريد التي بلغناها في اربع عشرة ساعة ، وكان النهار يلفظ انفاسه فيها . وحملتنا طائرة اخرى الى برشلونة .

وكنّا قد واعدنا أصدقاءنا على اللقاء في فندق «كولون » ؛ اما الفندق الذي كنت قد عرفته من قبل ، فكان قد زال ، كما اخبرنا الصحفيون الذين التهمونا عند الوصول . ولكن فندقاً بالاسم نفسه ، وكان لطيفاً جداً ، قد فُتح بالقرب من الكاتدرائية . وقد التقينا فيه صباح اليوم التالي بوست وبويون . ورويا لنا بالتفصيل ما كان قد حدث منذ ايلول . كانت محاكمة جانسون ، وبيان الـ « ١٢١ » قد دفعا الشبيبة الشيوعية والشبيبة الاشتراكية والنقابات والحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي الموحد الى القيام بأعمال ضد الحرب . وأطلق النقابيون والجامعيون نداء من أجل « سلام متفق عليه » وكانت النقابات قد دعمت المظاهرة التي نظمها « الاتحاد القومي للطلبة الفرنسيين » يوم ٢٧ تشرين الأول والتي احرزت نجاحاً هائلاً ، بالرغم من الحواجز والضرب . وكانت العقوبات المفروضة ضد الـ ١٢١ قد أثارت اعتراضات كثيرة . وكان ممثّلو التلفزيون قد أضربوا تضامناً مع ايفلين التي طُردت من أحد البرامج . على ان كرسيّ لوران شوارتز في مدرسة البوليتكنيك قد نُزعت منه ، وعُلّق الاساتذة ، وكذلك بويون وبنغو امينا سرّ المجلس . وكان المرشال جوان قد حرّض على توقيع بيان ضدّ « اساتذة الخيانة » . وكان « الاتحاد القومي للمحاربين » يطالب بـ « عقوبات لا هوادة فيها ضد معدومي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الضمير ولا سيما ضد الخونة. وكان « الاتحاد القومي لضباط الاحتياط » يطالب باتخاذ تدابير ضد ال ١٢١، وكان بيان ال ١٢١ قد علّق في جميع مطاعم الضباط وضباط الصف الخ ... وكان سارتر هو اكثر المقصودين بذلك. وكانت شهادته قد عادت عليه بكثير من ألوان الحقد المسعور. واخبرنا لانزمان بالتلفون، وكان قد حجز في باريس، ان نعود بالسيارة: ذلك اننا اذا عُدنا بالطائرة، فان سارتر سيستقبل في المطار استقبالاً صاخباً، وستحدث منازعات، وسيجيب الصحفيين إجابات لا بدّ للشرطة معها ان تعتقله. وانا افكر اليوم انه كان من الأفضل القيام بأكبر قدر ممكن من الدعاية لل ١٢١؛ ولكننا أصغينا الى أصدقائنا الذين ادركت تعاطفهم لأن هناك خفّة في ان يخاف المرء على الآخرين خوفاً ضئيلاً. وتنزّهنا في برشلونة التي لم يرها سارتر مرة اخرى بمتعة اكثر مما رأى مدريد: اما انا، فكنت مسرورة بعدُ وانا على « الرمبلاس ». ونظرنا الى كاتدرائية « غودي » التي لم تكتمل، وصعدنا الى « تيبيدابو »، وزرنا متحف الفن الكاتالاني، وبعد ظهر اليوم التالي توجهنا نحو الحدود.

وكانت الصحافة قد شتمت سارتر شتائم ضخمة منذ شهرين — خائن، عدو الفرنسيين الخ — بحيث كنا نعتقد أننا سنستقبل استقبالاً سيئاً في فرنسا. وكان الليل قد هبط حين وصلنا الى مركز الجمرك. وحمل بوست الجوازات الأربعة الى الشرطة ثم عاد. كان المفوض يريد ان يرانا: وقال لنا بلهجة اعتذار انه كان عليه ان يخبر باريس بمرورنا. وارسل احد موظّفيه يشتري لنا جرائد وقدّم لنا علب سجاير وسيجارات — لا شك في انها مصادرة من بعض السوّاح — وحين ودّعنا رجانا أن نوقّع على سجلّه الذهبي. واوصاني أن نبلغ الشرطة بمجرد عودتنا. وقضينا الليل في « بيزييه ». وقد تأثّرت، بعد ذلك القدر من الجمالات الأجنبية، حين رأيت في الصباح، تحت سماء زرقاء باهتة، عذوبة أشجار الدلب المذهبة، ودوالي ملتهبة بالخريف، وبدلاً من اكواخ مبعثرة فوق اراضٍ بور، قرى حقيقية. فهل سيتاح لي

يوماً ان احبّ من جديد هذا البلد ؟

وفي باريس ، كان همّنا الأول أن نساعد على اعتقالنا ؛ وقد اتخذنا محامياً لنا رولان دوماس الذي كان قد دافع عن المتهمين في دعوى جانسون والذي تكفّل بالقيام بالخطوات الضرورية . وقد بلغ من تأدّب رجال الشرطة انهم هم الذين جاءوا الى بيتي : وقد جرح أصغرهم سنّاً ، وكان متعجرفاً ، إصبعه وهو يضرب شهادتينا على الآلة الكاتبة ، فسال دمه على المضارب . وساعدنا المفوض « م » على تحرير تصريحاتنا وعلى تنويعها . وكان قد أدهشه باديء ذي بدء اصرار الـ ١٢١ على ان يتحمّلوا المسؤولية ما وجدوا الى ذلك سبيلاً ؛ اما الآن ، فانه يبتسم لذلك . وقد اختتم كلامه بلهجة مشجّعة : « انكم بهذا مطمئنون ، فأنتم تمسكون بأيديكم امر اعتقالكم » . ولكن لا . فقد حدث عشية اليوم الذي استجوبنا فيه ان قاضي التحقيق تمارض . فحدّد موعد آخر . وفي آخر لحظة ، أجّل مرّة ثانية بحجّة أن الملفّ الذي كان يخصّنا كان موجوداً بين ايدي النيابة العامة . وهي حجّة سخيفة . وأعلن ان سلسلة الاعتقالات قد أغلقت . والواقع ان السلطة الحريصة ابداً على الظهور بمظهر العظمة ، كانت تجد من المستحسن ان تحرم موظّفين من خبزهم ، ولكن لا أن تظهر في أعين الناس في مظهر معذّبة الكتّاب المعروفين . وكانت تأمل ايضاً ان تحطم وحدة الـ ١٢١ بأن توفّر البعض ، وان تحتفظ بتهديد معلّق فوق رؤوس البعض الآخر .

وإفساداً لهذه اللعبة ، دعا سارتر الى مؤتمر صحفي ؛ وامام زهاء ثلاثين صحفياً فرنسياً وأجنبياً اجتمعوا في شقّتي ، شرح موقفه من البيان وعرض الوضع الراهن . وكان « تييري مولنييه » جالساً على السجادة ، فأراد ان يطرح سؤالاً ، فقال :

ـ اني لا اريد ان أشوّه فكرتك ... » فقاطعه سارتر بقوله :

ـ ستكون هذه هي المرة الأولى التي تحرص فيها على ذلك !

ولم تنشر الصحف حديث سارتر الا باقتضاب . وأُغلق الحادث .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الحادي عشر

كانت السلطة الحاكمة تساعد ، بواسطة « قضية المتاريس » ، على تجمّع الفاشيست ؛ ولكن الشبيبة كانت قد تحرّكت ، وكنا نظنّ انها ستعمل . وفي كانون الأول ، رفع العلم الأبيض والأخضر فوق حيّ القصبة بمدينة الجزائر ، وهتفت الجماهير لفرحات عبّاس[1] ، وانفجرت الحقيقة في عيون الناس جميعاً : فان الجموع الجزائرية كانت ، خلف الصمت والتزييف اللذين كانت القوة قد دفعتها اليهما ، تطالب باستقلالها ؛ وكان ذلك بالنسبة لجبهة التحرير الوطنية نصراً سياسياً يقرّب ساعة النصر الكامل .

وظهر « قوة العمر »[2] فظفر بنجاح كان يجلب لي سروراً غامراً يوم كنت مبتدئة . والذي وقع هو انني ، حين قيل لي في دار غاليمار في شهر تشرين الثاني ان اربعين ألف نسخة من الكتاب كانت قد بيعت قبل صدوره ، تأثّرت تأثّراً سيئاً : اتراني قد أصبحت واحدة من صنّاع الكتب الرائجة الذي يملكون جمهورهم المسحور ، من غير ان تدخل قيمة الأثر في الحساب ؟ لقد أكّد لي كثير من النقّاد انني كتبت ، في ذلك الكتاب ، خير أعمالي ؛

(١) وقد دفعت ثمن ذلك غالياً : فقد أعلنت جبهة التحرير الوطنية في الأمم المتحدة ان ألوفاً من القتلى قد سقطوا في ذلك اليوم .

(٢) وهو الذي نشر بالعربية تحت عنوان « انا وسارتر والحياة » (هـ. م)

وكان في هذا الحكم ما هو مُقلق : أكان عليّ ، كما اقترح البعض ، ان احرق كل ما كتبت قبل ذلك ؟ وكنت خصوصاً أحوّل المدائح الى متطلبات ؛ اما الرسائل التي كنت اتلقاها ، والتي كانت تؤثر فيّ ، فقد كنت أعتقد اني كنت ما أزال أستحقها . فقد كان هذا الجزء الأخير من المذكرات يشق عليّ ، وكنت أقول في كآبة انه على الأكثر سيُعادل السابق ، من غير ان يمتلك النضارة نفسها . ومع ذلك ، فان الرضى قد انتصر عندي على الأسف . وكنت أخشى ان أخون الأشياء التي كانت الأشد تأثيراً في نفسي : ولكن قرّائي كانوا قد فهموها . وكانت « مذكرات فتـــاة رصينة » قد راقت كثيرين ، ولكن بشكل ملتبس ؛ اما الذين كانوا يحبون « قوة العمر » ، فقد كنت أفترض انهم من طينتي .

وكنت اتدبّر امري ، بلا أسف ، مع صرامة أيامي . لقد كنا منذ وقت طويل نعيش على الهامش : وقد انقطعنا عن الخروج . وكان زبائن المطاعم يُبدون غالباً العداوة لنا ، فلم نكن نتحمل بعدُ ان نقترب منهم . وقد قضينا في شقتي امسياتنا المشتركة ، ونحن نتعشى قطعة من لحم الخنزير ، ونتحدث ونستمع الى الاسطوانات ؛ وكنت أستمع اليها ساعات طويلة اذ اكون وحيدة في شقتي . ولم اكن اضع أنفي بعدُ في الخارج ، ليلاً ، الا مع لانزمان او اولغا . وكانت هذه العزلة توثق علاقاتنا مع فريق اصدقائنا الصغير . وكان محررو « التان مودرن » الذين انضم اليهم غورز وبينغو يجتمعون في بيتي مرتين كل شهر . وكان غورز اول من يصل منهم ، وهو يقول : « انني لا أستطيع ألاّ اكون في الساعة المحددة » . وكانت مناقشاتنا التي قلّت عن السابق ، أشدّ ايجازاً واحكاماً . وسررت مرة بأمسية قضيناها انا وسارتر عند مونيك لانج مع فلورانس مالرو ، وغويتيسولو وسيرج لافورى ، فأقمت مثلها عندي . وكان واحد على الاقل من كل زوج من الأزواج الذين دعوتهم الى الامسية ، أحد الذين وقعوا بيان الـ ١٢١ . ولم اكن قد قصدت الى ذلك قصداً ، بل كان هذا من نتيجة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

توثق الصداقات بيننا. وكنت قد أعددت اسطوانات جاز ، ولكننا لم نستمع اليها ، اذ أخذنا نتحدث.

وأقيم كذلك عشاء في السفارة السوفياتية ؛ وكنت جالسة الى جانب مورياك الذي كنت ألتقيه للمرة الاولى ؛ وكان سارتر قد قال لي انه كان يملك حساً لاذعاً وطرافة ؛ ولكن اترى السنّ قد أطفأت هذا الحس ، ام ان غرامه بديغول قد استنفده ؟ لقد فتشت عنه فلم أجد أحداً. وتحدث سارتر مع اراغون ، فنصحه بان يزور كوبا ، فقال اراغون : « انني مسنّ اكثر مما ينبغي » قال سارتر : « عجباً ! انك لست اكبر سناً مني الى هذا الحد. » قال اراغون : « وكم عمرك ؟ » فقال سارتر : « خمسة وخمسون » فقال أراغون بلهجة سحرية « إن « هذا » يبدأ في الخامسة والخمسين ». وردت ايلسا تريوليه بجاذبية انه وجب عليها ، بعد توعكات مختلفة ، ان تضع في عينيها دموعاً اصطناعية وفي ركبتيها « قلوباً متوازية ». وكان العشاء مقاماً على شرف غالينا نيكولاييفا ، مؤلفة « المهندس باخيريف » ؛ وكانت تتحدث في كتابها ، بطريقة حية وروائية ، عن موضوع عالجه الغرب قليلاً وبصورة سيئة : العمل. ولم اجتمع بها الا قليلاً ، ولكننا دعوناها الى شقتي مع زوجها. وكانت مصابة بمرض خطير في القلب ، فجاءتها نوبة في ذلك اليوم ، وقَدِم زوجها وحده مع احد المترجمين. وقد حيّانا بشكل احتفالي، وأشعرنا طوال المحادثة ان خلفه وفداً برمته. وقال لنا إن الكتّاب الروس سيكونون سعداء بلقائنا في موسكو ، فقال سارتر اننا يسرّنا ان نلبيّ الدعوة.

وكان اندريه ماسون قد وقّع بيان الـ « ١٢١ ». وكنا معجبين بكتبه ، وكنا نجد سحراً كبيراً في وجهه وكلامه البريء. كان فوضوياً قديماً ، وكان تطرّفه في كرهه للسياسة قد أبعدنا عنه. غير ان اعتقال « دياغو » فتح عينيه. وكانت « روز » تقضي كل وقتها في مساعدة المعتقلين الجزائريين وعائلاتهم. وقد رأيتها في عدة مناسبات ، وتناولنا العشاء في منزلهم بشارع

سانت ــ آن ، وكنا مرة وحدنا معهما ، ومرة اخرى مع « بوليز » احد موقعي البيان . وكان ماسون مرخياً لحيته ؛ وقد روى لنا بشكل جذاب قصصاً عن عهد السيريالية الاول . اما « بوليز » فكنا نعرف من آثاره ونحبّ « القدّوم بلا معلم » و « البنية » بجزئها الاول . ولم نكن قد ذهبنا لنستمع الى « طيّة وفق طية » خشية ألا نفهم منها شيئاً في حفلة واحدة . وكان يروق لنا كثيراً ، عبر كتاب غوليا واقاصيص « ماسون » . وقد حدث ان مؤلفاً موسيقياً المانياً شاباً كان يقدم أحد أعماله في اثناء حفلة يقودها « بوليز » فهتف الجمهور ضدّه ، فلاذ بالفرار بعد انتهاء المقطوعة ، مضطرباً . ولكن بوليز أعاده قسراً الى المسرح ، وخاطب الجمهور بقوله : « إن تصفيركم يدل على انكم لم تفهموا شيئاً : ولذلك فانه سيعيد عزف المقطوعة » وعاد المؤلف الى العزف ، فاستمعت اليه القاعة في صمت . وكانت هيئة بوليز تنسجم مع ما كنت أعرفه عنه . كان يعمل في بادن ــ بادن ، لأنه كان يجد مستوى الموسيقيين الالمان أعلى جداً من مستوى الفرنسيين . وقد طرحت عليه أسئلة ، فشرح لنا كيف تبعث الموسيقى القديمة ، وكيف يتمّ التسجيل : لا مرة واحدة كما كنت أعتقد ، بل قطعاً صغيرة ؛ ثم تُلصق قطع الشريط التسجيلي كما يُصنع بالفيلم . ولا بد من عدة ساعات لتسجيل عشر دقائق من الموسيقى : وان اي خطأ ، كضجة طفيلية مثلاً يمكن ألاّ تُلحظ في الحفلة ، ولكنها تصبح غير محتملة لدى كل استماع لها . من أجل هذا كان ثمن الاسطوانات غالياً : فهي تتطلب عملاً كبيراً . وتسمح الطريقة المستعملة ببعض الغش : فقد استطاع احد الهواة ان يعزف في وقت واحد : في سوناتات باخ ، القطعة الّتي تعزف على البيانو ، والقطعة التي تعزف على الكمان . وتحدث بوليز عن عمله كرئيس فرقة موسيقية ، فقال لنا ان العازفين لا يعرفون من المقطوعة الا وجهاً جانبياً يختلف عند احدهم عنه عند الآخر ، حسب مكانه ، والآلة التي يعزف عليها ، والذين يحيطون به : والمثلث لا يسمع السمفونية نفسها الّتي يسمعها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عازف الكمان الاول . فاذا عُدّل في النظام الذي اعتادوه ، ضلوا تمام الضلال .

وعقد اجتماع « للجنة جميلة بوباشا » قبل وقت قصير من استفتاء كانون الثاني ١٩٦١ . وتأملت آن فيليب الرصينة المؤثرة ورأس فرانسواز ماليه — جوريس الطريف ذا الشعر المقصوص ؛ وأما لوران شوارتز فكان يبدو اكثر شباباً مما كنت أتصوّر ؛ وكان يرفع من معنوياتي ان أستطيع أن انظر الى جميع هؤلاء الأشخاص في ودّ : فقد أصبح نادراً جداً ، هذا الودّ . وفجأة ، سمعنا ضجة وصراخاً ، فسارع جميع الحضور تقريباً الى النوافذ ؛ وكان اعضاء « الحزب الاشتراكي الموحّد » يتشاورون في الطابق الأرضي حول الجواب الذي ينبغي اعطاؤه بشأن الاستفتاء ؛ ودخل اثنان منهم علينا يقولان : « إن الفاشسيت يها جموننا ، فتعالوا لمساعدتنا » ونهض شوارتز ، ولكن يداً آمرة أمسكته ، ونزل بعض الشبّان . وحدث قفز وجري على السلالم ، وفتح شرطيان الباب طالبين الرئيسة ؛ وقال البعض بلطف : « ستعيدونها لنا » . وكانا يريدان ان يعرفا إن كان عضوان من « الحزب الاشتراكي الموحّد » ، كانا قد اوقفا بعد نشوب منازعة ، ينتميان الى لجنتنا : ولم أهدم ظنّهما . وحدث تبادلٌ في الطريق الطيّبة : فعند الخروج ، واكبنا بعض موظفي الأمن ، انا وكلودين وشونيز ، حتى سيارتهم .

وطلب مني بعض الطلاّب ان أجيء الى مدينة انطوني الجامعية لأشرح لماذا ينبغي ان نجيب بـ « لا » على الاستفتاء . ولم أكن أعرف تلك المباني الواسعة التي ينزل فيها ، كما أظنّ ، أربعة آلاف شاب ، وحيث كان يمكن المرء ان يعيش أسابيع ، من غير ان يعوزه شيء . وكان المعهد مملوءاً بالشعارات : صوّتوا لا — السلام في الجزائر ، وبالصور التي تمثّل بعض الفظائع الفرنسية ؛ وكان المكتب كلّه من اليسار ؛ اما طلاّب اليمين ، وعددهم قليل جداً ، فقد كانوا جالسين في هدوء . وجلست مع ارنو ، الشيوعي ، وشيرامي ، وهو تروتسكي قديم ، في قاعة كبيرة ملآى بالطلاب ومزيّنة

باللافتات : صوّتوا لا . وقد حيّوا في شخصي المواقف التي وقفها الـ « ١٢١ » . وألححت في الحديث على انعدام « قوة ثالثة » في الجزائر ، وعلى نفور ديغول من ان يتفاوض مع فلاّحين . وكانت وجهة نظري مخالفة لوجهة نظر « ارنو » فيما يخصّ عدم الخضوع ، ولكننا لم نبالغ في اظهار خلافنا ، بالرغم من انه أزعجني بتفاؤليته الموصى عليها : فقد كان يعلم جيداً ان « الشعب الفرنسي » لم يكن يؤاخي الجزائريين لا في الجيش ولا في المصانع . وعند الخروج ، تحدّثت مع الطلاب : فكنا متفقين حول كل شيء .

وبعد ذلك بفترة قصيرة ، ذكّرني طلاّب بلجيكيون ينتمون الى جناح « اليسار » ـ اليسار المتطرف في الحزب الاشتراكي البلجيكي ـ وعدي الذي كانوا قد انتزعوه مني ، قبل ذلك بعام ، في ان ألقي محاضرة في بروكسل . وكانت صحيفتهم قد ناضلت ضد حرب الجزائر ؛ وكان كثيرون منهم يساعدون الجزائريين سرّاً ، فيؤونهم ويسهّلون لهم اجتياز الحدود ؛ وقد وافقوا حين أخبرتهم بأنني سأتحدّث ، تحت عنوان « المثقف والسلطة » ، عن الجزائر .

وانا دائماً اكون متوتّرة حين اكون امام جمهور مستمع ؛ فأنا أخشى الا اكون على مستوى ما يتوقّع ، او على مستوى مقاصدي . انني أتحدّث بأسرع مما ينبغي ، مذعورةً بالصمت الطويل الذي ينبغي ان أملأه وبكمية الأشياء التي ينبغي ان اقولها في فترة من الزمن قصيرة الى هذا الحدّ . وشعرت هذه المرة باستياء عميق . كانت القضية قضية ما يُدعى بـ « محاضرة كبيرة » اقبل لحضورها ، بدافع من تعطّل او سنوبيسم او فضول ، أشخاصٌ لم يكن ثمة ما هو مشترك بيني وبينهم : بورجوازيون كبار ، وحتى وزراء . وقد أحسست على الفور ان كلّ امريء إلى اية جهة انتمى ، كان له مكانه المرسوم الناجز . وعندما خرجت ، أخذ عليّ شيوعي اني لست شيوعية ، وأخذ عليّ متمرّد غير خاضع اني لم أهاجم من كانوا يخضعون . وكان البعض آسفين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اني لم أعالج قضايا الكونغو : وكنت قد أشرت إليها ، ولكني لم اكن احسّني كفوءاً لمعالجتها . ولكن ما ازعجني ، اكثر من هذه الانتقادات ، حفلة الاستقبال التي تبعت المحاضرة . كان البعض يقول لي بابتسامات كبيرة : « انني لا اوافقك على آرائك سياسياً ؛ ولكن كتابك قد راقني جداً ! » وقد قلت لأحدهم : « آمل ألاّ يروقك كتابي القادم ! » وصحيح أني كنت في « قوة العمر » ابتعد قليلاً عن بعض مواقفي السابقة ؛ على ايّ حال ، كنت أتحدّث في وضوح عن نفوري من المؤسسات والايديولوجيات البورجوازية ؛ وكان ينبغي لي ألاّ انال تأييد من كانوا متصلين بهم . وقد عزّاني « لالمان » المحامي الممنوع من دخول فرنسا لتأييده الجزائريين ، فقال : « إن هذا هو تناقضهم ؛ إنهم يهضمون الثقافة كلّها : يلتهمون سارتر ، ويلتهمونك ؛ ولكنهم في الوقت نفسه مقسورون على ان يهضموا هجماتكما ، وهذا ما يساعد على تحلّلهم الايديولوجي . »

وقضيت ثلاثة أيام هامّة . ورأيت ثانية المتحف لمدة طويلة ، وكنت وحدي ؛ ونزّهني لالمان في بروكسل . وقد تناولت العشاء مع محرّري « اليسار » الذين اطلعوني على اوضاع الكونغو ؛ وقدّمت أمام جمهور محدود ومهتمّ بالسياسة محاضرة عن كوبا . ثم صحبني لالمان الى « مونس » وجعلني ألتقي بزهاء خمسة عشر نقابياً شرحوا لي معنى الاضرابات التي كان قد قام بها لمدة اثنين وثلاثين يوماً زهاء مليون من العمال . كان مستوى حياة العمال البلجيكيين مرتفعاً نسبياً ؛ وقد حضر كثيرون منهم الاجتماعات في سياراتهم ؛ وكانوا قد كافحوا ليدعموا هذا الكسب ، ولكيلا يدفعوا نفقات القضاء على الاستعمار ، ولكي يفرضوا خصوصاً سياسية اقتصادية جديدة : وكان هذا في اوروبا الاضراب العام الأول الذي يهدف الى اعادة تنظيم الاقتصاد على اساس اشتراكي . كانوا يحكمون احكاماً مختلفة على شخصية « رونار » الذي كان في وقت واحد خميرة هذا العمل وضابطه ؛ ولكن الجميع كانوا يتّهمون البرلمانيين والاشتراكيين بأنهم سرقوا منهم نصرهم ؛ وهم انما

قادوا هذه المعركة جزئياً ضد نزعة المحافظة وقادتها.

وقد دعاني هؤلاء البرلمانيون الذين كان المضربون يعتبرونهم خونة ، فألقيت في « اوتيل دوفيل » المحاضرة نفسها التي ألقيتها في بروكسل ، ولكن بقدرٍ أقل من الأنزعاج ، لأن الحضور كانوا منحازين لليسار بكل وضوح . ثم تناولت العشاء بعد ذلك مع مضيفيّ . وكان « لالمان » قد قال لي : « هؤلاء هم خصومك الحقيقيون ، اولئك الذين لا يهضمون : انهم لا يقرأونك . انهم يسخرون من الثقافة : وهذه هي قوتهم ! » وقد ألقينا عليهم أسئلة مُربكة . من ذلك سؤالي : « لماذا اوقف الاضراب في إبّانه ؟ » فكان الجواب : « لأننا كنا سنفضي الى ثورة ، ونحن جماعة اصلاحيون » – « وما رأي القاعدة في ذلك ؟ » فأجاب « م » بوضوح : « انها مستاءة جداً » ؛ وروى رفاقه وهم يضحكون كيف ان عشرين الف مضرب قد هتفوا ضدّه . واتى من ينجده : « اتدري ما هي الجموع : يجب ان يحسن المرء التلاعب بها ... » فقلت له : « كيف تقول ذلك ، انت الاشتراكي ؟ هل تحتقر الجموع ؟ » فالتفتت اليه عيونٌ مستنكرة : « هل قلت إنك تحتقر الجموع ؟ » وتحدث « س » بصوتٍ آسف عن اليسار الفرنسي : « لقد فهمت أن اتحاد اليسار كان مستحيلاً حين سمعت دانيال ماير يتحدث بمثل ذلك الحقد .. » وخشيت ان يقول : « عن الشيوعيين » ولكنه أنهى عبارته بقوله : « عن غي موليه » . فقلت : « ولكنه على حق » فقال « س » : « إن غي موليه رجل شريف » وتمتم بعض المدعوين . واستطرد « س » بصوت مبهور : « إنه شريف وهو لم يقبض مالاً قط » . ولم اكن قد عاشرت سياسيين وممتهنين ، فأدهشتني تفاهة هذه الجلسة . وقد قال لي « لالمان » في اليوم التالي حين جاءني لينزّهني في « مونس » وضواحيها قبل ان أستقل القطار : « إن كل ما يهمّهم هو إعادة انتخابهم . » وفي المدينة ذات الشبابيك المغلقة ، كان الضوء يضفي على الحجارة تورّد كاتدرائية ستراسبورغ . ورأيت سجن فيرلين ، والمكان الذي كان فان غوخ قد عاش فيه ، و « البوريفاج » والأراضي المهجورة التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يغطيها نباتٌ قد أصبح كثيفاً : ووسط السهل ، كان ثمة منظر وعر للتلال الاصطناعية . ولم يكن بالمستطاع تفادي إغلاق المناجم ؛ وما كان يثير حقاً هو ان عمال المناجم هم الذين دفعوا تكاليف العملية ؛ ولم يكن يعيش في الأكواخ العمالية بعد الا المشتركون . والواقع ان المرء هنا ، حين يتجاوز الأربعين ، يكفّ عن العمل ، على ما أخبرني « لالمان » : فان مرض اكسيد السيليسيوم قد تفاقم باستعمال القدوم الكهربائي ؛ وقد وصف لي الوجوه الغريبة للرجال ذوي الجفون المملوءة بالسيليسيوم .

اشتركت في السوق الخيرية للجنة الوطنية للمقاومة. وكان الشيوعيون قد أنكروا عمل الـ « ١٢١ » ؛ وحين توجهنا مجتمعين الى « قصر الرياضة » ، أظهرنا اننا متضامنون معهم : وكانت تلك طريقة ، ترضيهم او تغضبهم ، لوضعهم في المغطس . والذي حدث اننا وجدنا أنفسنا متفرقين ، كل فريق منعزل وراء طاولته . وكانت مكبرات صوت تبصق موسيقى لباخ في إلحاح مبالغ فيه . وكنت أحسّني اقرب الى هذا الجمهور مما كنت الى مستمعيّ في بروكسل ، ولكني كنت أشدّ انشغالاً في التوقيع من ان أتصل به . ولم يخفّ انزعاجي . لقد راق كتابي للناس بسبب تفاؤلية كنت الآن بعيدة عنها جداً . إن حركات المقاومة لم تصب النجاح والاتساع اللذين كنا نأملهما . وكنا نسقط ثانية في عزلتنا .

وقصدت مع سارتر معرض « دوبوفيه » الذي كنّا قد تجاهلناه قليلاً عام ٤٧ . وكانت لوحات فترته الأخيرة تنتزعنا من روتين الادراك اليومي ، وتعرض رؤية كوكبية عن العالم . فأحد سكان مارس مثلاً سيكتشف على هذا النحو وجوهاً ومناظر في مظهرها المادي العاري ، بأشكال متنوعة ودقيقة غير محدّدة ، ولكنها مجرّدة من كل حسّ بشري . وحين خرجت من المعرض ، لم اكن أستطيع ان ارى بعدُ وجوه الناس على غير هذا الشكل : كتلة كثيفة ترتسم عليها شبكة سطحية من الخطوط .

التقيت « كريستيان روشفور » عدة مرات بسرور كبير . وكنت احب

كثيراً كتابها « اولاد العصر » . وكانت قد اخترعت لوصف عالم العبودية بقسوة ملائمة صوتاً ولهجة كانا يوحيان بامكانية قيام عالم آخر – اكثر مما يوحيه تصويرٌ جادّ لأسرة شيوعية . وكان هذا الكتاب قد أثار من الاستنكار أقل مما أثاره الكتاب الأول ، ولكنهم مع ذلك نثروا عليه من جديد كثيراً من الغائط . وقد قلت لها : « لقد عرفت مثل هذا » ، فقالت لي في ودّ : « لا بدّ ان هذا كان اكثر ازعاجاً لك، لأنني أنا من السوقة الشحّاذين » والواقع انني كنت أستشعر ، بقربها ، اصولي البورجوازية ؛ كانت هي فتاة من فتيات الشعب ، وقد رأت منه مختلف الألوان ؛ وكانت تملك جرأة وقريحةً وحرية كنت أغبطها عليها . وكانت آنذاك قد كفّت عن الكتابة وقالت : « انني لا أستطيع ان أهتمّ بقصصي الصغيرة ، في هذه الفترة . »

وكنت أفهم موقفها . فان مقتل لومومبا ، والصور الأخيرة التي رأيناها وهي تمثّله ، وصور امرأته في الحداد ، حليقة الرأس ، عارية النهدين – اية رواية كان يمكن ان تصمد ازاء هذا كله ! لقد كان هذا القتل يلطّخ اميركا والأمم المتحدة وبلجيكا والغرب كلّه ، كما كان يلطّخ كازابوفو وتشومبي ، وكذلك جوار لومومبا . وقد قال سيرج ميشال الذي كان ملحقاً صحافياً للومومبا ، قال للانزمان : « كان الجميع يخونونه ، حتى اقرباؤه ، ولم يكن يريد ان يصدّق ذلك . ثم انه كان يعتقد انه يكفيه ان يهبط الى الشارع ويتحدث الى الجموع لينتصر على جميع المؤامرات . » وقال ايضاً : « كان يكره العنف : وبالعنف قُتِل . » وقد جرت هذه المحادثة مع لانزمان في تونس حيث ذهب بصحبة « بيجو » ليمثّلا « التان مودرن » في مؤتمر مناهضة الاستعمار . وقد تحدّثا الى فرحات عبّاس الذي كان طوال المحادثة يُرقص حفيدته على ركبتيه . وقال لي لانزمان : « لقد ظنّنا محررين في « الاسبري » ، وقال لهما : « إن هؤلاء الشيوعيين يعطون خبزاً للناس ، هذا حسن ؛ ولكن الانسان لا يعيش فقط بالخبز ؛ انني نحن مسلمون ، ونحن نؤمن بالله ، ونريد ايضاً ان نربّي النفوس . يجب ان نغذّي الروح . » ولم يكن له بعدُ في الثورة ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كما يبدو بوضوح ، الا دورٌ تزييني . وهذا ما كان قد قاله لنا أحد اعضاء جبهة التحرير الوطنية . « إن عباس شيخ في الستين . هناك جيل الستين ، وجيل الاربعين ، وجيل العشرين . ولكنه ليس هو الذي يقود ، ولن يقود . » وكان بين القادة المعروفين ، كما كان يقال ، اتجاهان : اتجاه السياسيين ذوي الطراز الكلاسيكي المستعدّين لقبول التعاون مع فرنسا ، اي وقف الثورة ؛ واتجاه آخر تدعمه المقاومة السرية والقاعدة التي كانت تطالب بالاصلاح الزراعي والاشتراكية ؛ وكان بعض المسؤولين الذين كانوا يريدون المضيّ بالحرب حتى النهاية ، بمساعدة الصينيين عند اللزوم ، يقولون : « واذا خرّبوا لنا النصر ، فاننا سنعود الى القمم . »

وبين الذين كانوا يعارضون قيام سلام تسوية ، كان « فانون » مؤلف « الجلود السوداء والأقنعة البيضاء » و « السنة الخامسة للثورة الجزائرية » . كان طبيباً نفسياً ذا أصل مارتينيكي ، وقد التحق بجبهة التحرير الجزائرية ، وألقى في « أكرا » خطاباً صفـّق له الحضور طويلاً ، عارض فيه نظريات « نكروما » السلمية ، وتحدّث عن ضرورة العنف وقيمته . وكانت « التان مودرن » قد نشرت له مقالاً أخاذاً في الموضوع نفسه . كان يبدو لنا عَبْر كتبه وما كنا نعرفه عنه واحداً من أهمّ شخصيات هذا العصر . وقد أصيب لانزمان بصدمة حين وجده ملازَماً سريره ، وكانت زوجته ، كلما خرجت من غرفته ، تبكي : كان مصاباً بـ « اللوسيمي » ؛ وكان الأطباء يعتقدون انه لن يعيش بعدُ اكثر من عام . وقد قال على الفور : « لنتحدث في شيء آخر » . وطرح اسئلة على سارتر الذي كانت فلسفته قد طبعته ؛ وقد اهتمّ اهتماماً مهووساً بـ « نقد العقل الديالكتي » وخصوصاً بتحليلاته حول الاخوّة ــ الإرهاب . وكانت أحداث افريقيا السوداء تمزّقه . وكان ككثير من الثوريين الافريقيين قد حلم بافريقيا موحدة ومتحرّرة من الاستغلال . ثم ادرك في اكرا ان السود قبل ان يبلغوا الاخوّة ، موشكون على ان يتقاتلوا . وكان مقتل لومومبا قد هزّه . وهو نفسه ، أفلت من القتل في احدى رحلاته بافريقيا .

وكان الناس يتساءون في تلك الفترة ـ بعد ان ترك ديغول « مقدمة مولين » ـ عن التنازلات التي كان الجزائريون مستعدّين لتقبّلها . إنهم لم يتزحزحوا في اي شيء يمسّ استقلال الجزائر ووحدة أراضيها . ولكن هل يفضي انتصارهم الى الاشتراكية ؟ كنا نعتقد ان نعم .

وهرب ستة معتقلين من « الروكيت » : نصر جميل ، دُبّر تدبيراً حسناً ، وكان لا بدّ له من ان يساعد النساء على التطهّر من عُقَد نقصهن . وشاهدت مع سارتر معرض « لابوجاد » . وكان سارتر قد كتب بصدده دراسة عن الرسم الملتزم ؛ وكنت احبّ تلك اللوحات . وولُد الربيع عذباً عذوبةً لا تصدق : ٢٣ درجة في آذار ! إن هذا شيء لم نشهده منذ عام ١٨٨٠ على ما تقول الصحف . وكانت السماء من فرط الزرقة بحيث ان الرغبة في الكتابة قد استولت عليّ ، وانا تجاه النافذة المفتوحة ، لكي لا أقول شيئاً ، كما لو انني كنت سأغنّي لو كنت أملك صوتاً . وقال لي لانزمان ذات مساء : « ان لديّ أشياء اريد ان أريك اياها » وصحبني للعشاء في جوار باريس ، في قرية نائمة تنبعث منها رائحة الريف . وفجأة ، صعد الجحيم الى الأرض ثانية . كانت ماري ـ كلود رادزيوسكي قد أعطته ملفاً عن الأساليب التي عامل بها جنودٌ فرنسيون في كهوف « غوت دور » عدداً من المسلمين سلّمتهم إياهم « ادارة مراقبة الأراضي » : من حروق وتعذيب بالقناني . وشنق وخنق الخ ... وكانت تقطع ألوان التعذيب ضروب من الضغط البسيكولوجي . وقد كتب لانزمان حول ذلك مقالاً لـ « التان مودرن » ونشر ملفّ الشكاوى . وروت لي طالبة انها رأت بعينيها في شارع « غوت دور » رجالاً تسيل منهم الدماء كان الجنود يجرّونهم من بيت الى آخر . وكان أهل الحيّ يسمعون طوال الليل انيناً . « لماذا ! لماذا ؟ لماذا ؟ » : هذه الصرخة التي لم يكفّ عن اطلاقها فتى جزائري في الخامسة عشرة رأى جميع افراد اسرته يُعذّبون [1] ، كانت تمزّق أذني وحلقي . ما كانت أهزلها الثورات

---

(١) وقد روى ذلك « بنوا راي » في كتاب صغير ممتاز ومريع : « الذابحون » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي كان يقذفني فيها سابقاً الوضع البشري وفكرة الموت المجردة ! إن بوسع المرء ان يتخبّط بتشنّج ضد القَدَر ، ولكن القدر يثبّط الغضب . وقد كانت الفضيحة تبقى على الأقل خارج نفسي . اما اليوم ، فقد أصبحت فضيحة في عيني نفسي . لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا كان ينبغي لي ان انهض كل صباح في الألم والغضب ، مصابةً حتى النخاع بشرّ لم اكن أقرّه ولم اكن املك اية وسيلة لإبعاده ؟ مهما يكن من أمر ، فان الشيخوخة كما كان يعتقد « كانت » ، هي التجربة الأقلّ استحقاقاً ، والأكثر مفاجأة كما يقول تروتسكي . اما ان تقذف الى الاستفظاع حياةً كانت حتى ذلك الحين تتملّكني ، فهذا ما لم اكن أحتمله . كنت اقول لنفسي : « انهم يكبّدونني شيخوخة فظيعة ! » إن الموت يبدو لامقبولاً اكثر فأكثر حين تفقد الحياة كرامتها وعزّتها ؛ ولم أكن أكفّ عن التفكير بذلك بعد : التفكير بحياتي ، وبحياة سارتر . وحين كنت افتح عيني كل صباح ، كنت اقول في وقت واحد : « اننا سنموت » و « هذا العالم فظيع كريه » وكانت الكوابيس تعكّر كل احلامي . وكان ثمة كابوس يعود إليّ غالباً ، حتى انني لم امتنع عن تسجيله :

« حلمت هذه الليلة حلماً ذا عنف هائل . انني مع سارتر في هذا البيت ؛ والفونوغراف ساكن تحت غلالته . وفجأة تنبعث موسيقى ، من غير ان اكون قد تحرّكت ! إن هناك اسطوانة على الفونو ، وهي تدور . واحرّك زرّ الإيقاف : فيكون مستحيلاً إيقافها ، بل هي تسرع اكثر فأكثر ، ولا تستطيع الإبرة ان تتابع ، وتتخذ الذراع اوضاعاً عجيبة ، ويزفر داخلُ الفونو كالأتون ، وتُرى بعض أنواع اللهب ، ولمعان الاسطوانة السوداء كأنه يحترق ؛ أشعر أولاً بضيق محدود لدى التفكير بأن الفونو سيتعطّل ، ثم يصبح الضيق هائلاً : « إن كل شيء سينفجر ؛ عصيان سحري ، غير قابل للفهم ، تعطّل كل شيء . انني خائفة ، في حالة يأس ؛ وافكّر في ان أستدعي اخصائياً . واعتقد انه قد جاء ؛ ولكن ينتهي بي الأمر الى التفكير بقطع التيار عن الفونو ، غير اني اخشى ان أمسّ « البريز »؛ ويتوقف . اي خراب !

لقد تحوّلت الضجة الى نوع من القشّة الملويّة ، والإبرة ذابت ، والاسطوانة تلاشت ، واللوحة الحاملة للاسطوانة احترقت ، وباقي القطع امّحت ، وظلّ المرض كامناً في أعماق الآلة » .

وكان لهذا الحلم ، حين تذكرته لدى اليقظة ، معنى واضح عندي : إن القوّة المتمرّدة الخفية هي قوة الزمن والاشياء ، وقد كانت تكتسح جسمي (هذه الفضلة البائسة من ذراع جافّة) ، وكانت تقطّع وتهدّد بالإعدام الجذري ماضيّ وحياتي وكل ما قد كنته .

« الإنسان مطّاط[1] » : هذه فرصته وعاره . فعلى خلفية رفضي ، واشمئزازاتي ، كنت أنصرف الى مشاغلي ، وكانت لي مباهجي : ولكنها نادراً ما لم تكن معتكرة . وقدّمت فرقة اوبرا برلين « موسى وهارون » لشوانبرغ ، فذهبت لحضورها مرتين ، الاولى مع اولغا ، والثانية مع سارتر . وشقّ عليّ ، قبل الافتتاح ، ان أسمع بحضور مالرو الذي وكان واقفاً وراء سلّة من الزهور ، نشيد المارسيلياز : وقد كان ينسجم بالغ الانسجام هنا مع النشيد الألماني الذي عُزف بعده مباشرة ؛ وحاولت عبثاً ان أنسى حولي هؤلاء الحضور الأعداء الذين كنت مرة اخرى شريكتهم في الذنب .

وسافر سارتر الى ميلانو ليتسلّم جائزة « اومونيا » التي منحه اياها الايطاليون لكفاحه ضد حرب الجزائر ؛ وكانوا قد منحوها في العام الماضي « اليغ » ، ومن أجل هذا قبلها ، بالرغم من قلّة ميله الى المظاهر الاحتفالية . وغادرت باريس على الأثر ، حاملة الى فندق في الجوار عملي وكتبي وفونوغرافي وراديو ترانزستور . إن الأيام الهادئة أشدّ قابليـــة للبروز في هذه الفترة الحزينة . وكنت الزبونة الوحيدة في الفندق . وكنت أجلس تحت الشمس في الحديقة التي كان بعض شجرها مخضوضراً ؛ وكان معظمها ما يزال يعكس في السماء تخريمات سوداء وباقات خيوط بيضاء تزيّن رؤوس أغصانها ؛ وكان بطّ يدرج على ماء الحوض او يغازل غزلاً عنيفاً على حفافيه .

---

(١) سارتر في كتابه « القديس جينيه » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وللمرة الأولى في حياتي سمعت في الليل بلابل تغني بعذوبة لا تقل عن عذوبة معزوفات هاندل وسكارلاتي . وفوق هذا الهدوء ، كانت تمرّ في هدير هائل بطونٌ كبيرة بيضاء . وكانت اضواء باريس تلمع في الافق . الطيور والنيون ورائحة العشب : كان يخيّل إليّ احياناً ان من المهم ان اروي على الورق من جديد ما الذي آلت اليه في هذا العصر أرض البشر (هذه الأرض التي ، في أقبية « غوت دور » ...) .

وكنت قد اقترحت على سارتر ، الذي كانت باريس تتعبه ، ان يسافر الى جزر الانتيب . وقد نزلنا فيها مع بوست ، مارّين بـ « فيزون » المرحة ، عن طريق قمة « فانتو » حيث كانت ريحٌ شديدة تهدر ، متناولين الغداء في حديقة فوق « مانوسك » ؛ وفي فترات التوقّف ، انصرفتُ الى لعبة اعواد الثقاب التي كانت رواية « السنة الماضية في ماريانباد » قد جعلتها شائعة ، حتى نفذت الى سرها . وعند الوصول ، علمنا بنبأ محاولة غزو كوبا . وكانت الانباء ، المقلقة بحدّ ذاتها ، تنسجم انسجاماً كبيراً مع خطط المهاجرين ــ كما كان الكوبيون قد عرضوها لنا ــ حتى انها كانت تبدو انعكاساً لآمالهم اكثر منها أحداثاً . والواقع انهم لم يكونوا قد وضعوا أقدامهم في « جزيرة الصنوبر » ولم يستطع قائدهم ان يهبط في اي مكان . وما لبثوا ان تبادلوا الاتهامات ، وارتدّ الجميع على الاميركيين الذين بدأوا يتساءلون عن قيمة استخباراتهم . كان كل انسان يستطيع ان يذهب الى كوبا ويأخذ فكرة عن الحالة . كان لا بدّ من وجود شخص كآلان والاس ليتصوّر أن الفلاحين سيرتمون بين اذرعة الملاكين والمرتزقة الذين كانوا قادمين ليسلبوهم أراضيهم . وكان ما يضحك في هذه الغزوة يُبعد ، الى الابد ، خطر تدخّل اميركي . وإذن ، فقد بدأت اقامتنا بداءة حسنة . وكنّا ننظر من سطيحة الفندق الى البحر والأسوار والجبال ، وكل مساء كنا نطوف بالخليج لنرى انوار الشاطيء تلتمع ؛ وحججنا الى مقصورة مدام لومير التي كانت تحيط بها الآن ابنية عالية ، وقد حُوّلت الى عيادة . وفي « بيو » ، زرنا متحف « ليجيه . »

وحين أعلن نبأ مفاوضات جديدة ، فجّر المتطرّفون في الأماكن العامة قنابل بلاستيك ؛ وقد وضعوا قنبلتين في منزل رئيس بلدية « افيان » الذي قُتل : وهكذا وُلدت « منظمة الجيش السري » . واستولى الجنرالية سالان وشال وجوهو وزيلر على السلطة في مدينة الجزائر ؛ وفي الجزائر كلّها ، انضمّ اليهم معظم كبار الضباط . وهم لن يظلّوا في السلطة الا اذا نجحوا في القيام بحركة انقلاب في فرنسا ، في فترة قصيرة .

أويت الى سريري ليلة الأحد بعد ان سمعت من جهاز الترانزستور مقطوعة «كوراندو » حيث كانت « تيبالدي » تغنّي ، حين دقّ جرس التلفون : وكان المتحدث سارتر : « انني صاعد الى غرفتك » . كانوا قد تلفنوا له من باريس حيث كان المظليّون منتَظَرين بين لحظة ولحظة . وكان « دوبريه » يبتهل الى الباريسيين ان يوقفوهم بقوة قبضاتهم ؛ وكانت قد وُضعت سيارات اوتوبيس في عرض الطريق على الجسور ليسدّوا عليهم المنافذ : وكان هذا التفصيل بغرابته يبدو مقلقاً بصورة خاصة . وبحثنا في الراديو عن اخبار اخرى ، ولكن عبثاً . وانتهى بي الأمر الى النوم . وفي الصباح ، لم يكن المظليّون قد هبطوا ؛ وبعد الظهر أعلن اثنا عشر مليون عامل في ارجاء فرنسا الاضراب . ومساء اليوم التالي كان « الانقلابيون » قد فرّوا او اعتقلوا . ولقد فشلت الخطّة بسبب موقف الجنود في الجزائر الى حدّ بعيد ؛ كان خطاب ديغول مساء ٢٣ قد شجّعهم على عدم الطاعة ، وقد خشوا ان يجدوا انفسهم مقطوعين عن فرنسا وان يظلّوا الى مالانهاية في الخدمة العسكرية ـ وكان ثمة كذلك من وقف هذا الموقف بسبب معتقداته السياسية ـ فعارضوا الضباط المشاغبين بوقوفهم موقفاً سلبياً او حتّى بالعنف .

كان ريتشارد رايت قد مات في مطلع الشتاء بنوبة قلبية . وكنت قد اكتشفت نيويورك معه ، وكنت أحتفظ منه بكثير من الصور الثمينة التي نثرها لي العدم في لحظة واحدة . وفي الانتيب ، عرفت من مخابرة تلفونية بموت ميرلو ـ بونتي : الذي مات هو ايضاً بنوبة قلبية . وفكّرت : إن هذه القصة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي تحدث لي ليست هي قصتي بعدُ . » . ولا شك في اني لم اكن اتصوّر بعد اني كنت أرويها لنفسي على هواي ، ولكني كنت ما ازال اعتقد اني أشارك في بنائها : والحقيقة انها كانت تفوتني . كنت أشاهد ، وانا عاجزة ، لعب قوى أجنبية عني : التاريخ ، الزمن ، الموت . وهذا القدر لم يكن يترك لي بعد حتى عزاء البكاء . لقد استنفدت الحسرات والثورات . وكنت مهزومة ، وقد استسلمت . كنت على خصام مع هذا المجتمع الذي أنتمي اليه ، وكنت مُبعدةً ، بالسنّ ، عن المستقبل ، مجرّدة من الماضي عصباً عصباً ، فكنت أتقلّص الى حضوري العاري . وأي ثلج هو !

* * *

عرض « جياكوميتي » لدى « مايت » تماثيله الكبيرة ولوحاته . وانها لسعادة دائمة لي ، ومبعث دهشة ، أن ارى آثاره ، منزوعة من الظلّ الجصّيّ لمرسمه وموضوعة بين جدران نُفض عنها الغبار ، وحولها مداها الكامل . وحضرت في جلسة خاصة فيلم « العام الماضي في ماريانباد » الذي لم يكن مساوياً لمطامحه ، وفيلم « فيريديانا » لبونويل الذي يلتهب بنار متأجّجة جعلتني أتجاوز عن مبالغاته وسيئاته . وذهبت أحضر افلاماً اخرى ؛ وكنت اقرأ وأكتب ؛ وكان سارتر يحتمي بالعمل ، في عصبية شديدة ، حتى انه لم يكن بعدُ يضبطه : كان يكتب كتابه عن « تانتوريه » مرة اخرى ، حتى من غير ان يأخذ وقته لقراءة كتابته الاولى .

وثارت ثورة المشاغبين عند افتتاح مفاوضات ايفيان ــ التي كانت مرصودة مع ذلك للاخفاق بسبب مطالب فرنسا في الصحراء ــ فراحوا يفجّرون قنابل البلاستيك في بيوت رجال اليسار والاتحاد القومي للمقاومة . واكتسحت عملية تخريب مكاتب جريدة « الاوبسرفاتور » ، فعلّق عليها سارتر في مقابلة صحفية ، وكان ان تلقّى رسائل تهديد . وقد أرانا « بورديه » احدى هذه الرسائل ، وكانت تُعلن قرب تصفية الـ « ١٢١ » ؛ وكان ثمة احتمالات ان يكون منزل سارتر مقصوداً ، فنقل امه الى الفندق ، وأقبل يعسكر في

شقي .

وعاد لانزمان من تونس حيث كان قد قضى بضعة ايام على الحدود ، امام المتاريس ، وسط وحدات جيش التحرير الوطني الجزائري وفي اركان حرب بومدين . وقد كان الانتقال في ثلاث ساعات من باريس الى مراكز المقاومة ، والنوم ارضاً الى جانب المقاتلين الجزائريين ، ومشاركتهم حياتهم – كل ذلك كان تجربة أخاذة حدثني عنها طويلاً . وكان قد زار أيضاً قرية للمجمعين انتزعهم الجيش من معسكر قريب من الحدود ، وتمكن من جعلهم يعبرون المتاريس . وما قاله لي عنهم لم يكن جيداً ، ولكنه كان قد رأى بعينيه العجوز الذي مزقت الكلاب كتفيه : والنساء المذعورات من فرط الحقد ، والاطفال ...

في تموز ، نقل الينا ماسون وزوجته دعوة من آيت أحمد الذي كان موجوداً في مستشفى « فرين » . وقد سلكنا ممراً تحيط به أجنحة كانت سيارات واقفة بجانبها ؛ كانت زوجات « الانقلابيين » قد جئن يرين ازواجهن ؛ وكن يُدخلن على الفور ، في حين ان الجزائريات كانت تُفرض عليهن ساعات من الانتظار . واتت المحامية « ميشيل بوليفار » ، فعبرت بنا باباً اول ، وكان ثمة شرطة طلبوا اوراقنا ؛ وعلى بُعد قليل ، شرطة آخرون ، وتفتيش آخر . وكان يحق لآيت أحمد ، بصفته وزيراً ، ان يكون في غرفة جيدة ومعاملة استثنائية . وكان يفضل مستشفى « فرين » على مستشفى « توركان » لأنه كانت تتاح له فيه اتصالات مع مواطنيه ، وكان يستطيع ان يقدم لهم خدمات . وفيما كان يحدثنا عن السكان المستأصلين ، والقطعان المقتولة ، والأرض المحرقة ، دخل رجلان أحدهما عجوز هزيل ذو عينين لاهبتين وهيئة رقيقة في وجه مليء بالجروح الملتئمة : انه بومعزة الذي لم يكن يتجاوز الواحدة والثلاثين : « لقد أحاله السجن والمعاملة السيئة الى عجوز » وإذن فإن هذه العبارة التقليدية كان يمكن ان تكون حقيقية : إن ألوان التعذيب والاضراب عن الطعام – والمياه المقطوعة بأمر من السيد ميشليه – كانت قد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هدمته. وقد حدثنا في ود ملأ نفسي شعوراً بالعار. وكنت اقول لنفسي: «انها على اي حال ليست غلطتي» ولكني كنت ما البث ان اعود الى اللازمة نفسها: لقد كنت فرنسية.

وفي ٣ تموز، حدث اضراب عام ذهب ضحيته من الجزائريين، حسب ما نشرت الصحف الفرنسية، ١٨ قتيلاً و ٩١ جريحاً. واعترفت الارقام الرسمية الفرنسية بـ ٨٠ مسلماً قتيلاً و ٢٦٦ جريحاً، سقطوا عشية «النهار الوطني[1]» في ٥ تموز: اما يزيد، فقد صرح بأن عدد الضحايا كان يرتفع الى عدة مئات. وفي ليون، أطلق سراح الارهابي توماس الذي اتهم بأنه قتل جزائرياً بكل طواعية. وفي مدينة الجزائر، كانت قنابل البلاستيك تهدم كل يوم حوانيت المسلمين.

حوالي منتصف تموز، تناولنا الغداء في «الكوبول» مع «رايت ميلز» واحد أصدقائه. وكان كتاب ميلز «White Collar» قد فتح الطريق امام دراسات عن المجتمع الاميركي اليوم. وكانت «التان مودرن» قد نشرت مقاطع طويلة من كتاب له آخر بعنوان The Power Elite. كان ذا عينين براقتين، وكان ذا لحية، وقد قال لي بمرح: «إن لنا الأعداء أنفسهم» وهو يذكر لي بعض النقاد الاميركيين الذين لم يكونوا يريدون بي خيراً. وكانت اميركا تثير اشمئزازه الى حد انه أتى يقيم في انكلترا. ولم يكن يحق لصديقه المتزوج ذي الأولاد ان يعود الى الولايات المتحدة لأنه كان قد مكث في كوبا بعد قطع العلاقات الدبلوماسية بين هافانا وواشنطن؛ وكانت زوجته قد زارت الصين، فحُرمت من جواز سفرها؛ ولم يكونا يستطيعان ان يلتقيا الا في المكسيك او في كندا.

وكان «رايت ميلز» محبوباً جداً في كوبا حيث كان قد مكث مدة طويلة، وحاول ان يعرّف كوبا الى مواطنيه بكتاب ألّفه عنها. وكان مثلنا يتساءل عما كان يجري فيها الآن. صحيح أن الحزب الشيوعي كان يقدّم للحكم

(١) الذي نظم ضد مشروع التقسيم الذي كانت تواجهه فرنسا منذ إخفاق محادثات ايفيان.

الجهاز الذي كان ينقصه ؛ ولكن من سوء الحظ انه كان بين صفوفه طغمة يرأسها « انيبال اسكالانت » — وكان قد بدا لنا في شباط من عام ١٩٦٠ رجلاً بليد الذهن منتفخاً — وكانت متعصّبة وانتهازية الى حدّ انها كانت توشك ان تحرّف ثورة كاسترو . وكانت صحيفة « هوي » لرافائيل قد تغلّبت على صحيفة « ريفولوسيو ن » التي أصبحت مهددة اما بالاحتجاب او بالسقوط في ايدي فريق آخر .

وذهبنا من جديد نقضي الصيف في روما ؛ إن ذلك سيريحنا من فرنسا ، وكنت آمل ان يخفّ عمل سارتر . كان يكتب مقالاً عن ميرلو — بونتي ، وكان يتناول الكوريدران بكميات كبيرة حتّى انه كان يصبح ، عند المساء ، أصمّ . واتفقنا بعد ظهر أحد الايام ان ألقاه في شقته ، فظللت خمس دقائق أقرع جرس بابه . وجلست على احدى درجات السلّم ، بانتظار عودة أمه ، وانا افكر بأنه قد أصيب بنوبة . وحين دخلت مكتبه ، رأيت انه كان في حالة طيبة : ولكنه بكل بساطة لم يسمع الجرس .

وصباح يوم عودتنا ، كنا ننجز ترتيب حوائجنا حين دقّ التلفون في الساعة السابعة والنصف . كانت امّ سارتر تتحدّث : لقد انفجرت قنبلة بلاستيك في مدخل منزل سارتر ، شارع بونابرت رقم ٤٢ ؛ وكانت الاضرار قليلة .

* * *

كان سارتر قد استمتع في هافانا بالرطوبة الاصطناعية في فندق « ناسيونال » فحجزنا غرفتين متصلتين في روما كانتا مزودتين بالهواء المكيّف . وكانت الآلة تعمل بشكل سيء ، ولكن الفندق كان منتصباً فوق سهل منبسط ، على تخوم المدينة ، حيث كانت الحرارة أقل قسوة منها في الوسط . وعبر الفتحة الزجاجية التي كنت أعمل أمامها ، كنت انظر الى « التبر في جوار جسر ميلفيو حوالي عام ١٩٦٠ » . وكان المشهد ما يزال نصف ريفيّ : بالنهر الأخضر الذي كانت تدرج عليه القوارب ، والعشب المصفرّ الذي كانت تتخلله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مخارف عريضة ، وغابات الصنوبر ، وفي البعيد الروابي وجبال « البان ». ولكن احياء جديدة بدأت تُبنى هناك ؛ وعلى غرار صور قديمة لباريس وامستردام وساراغوس ، كان من اليسير تخطيط بيوت وجادات ومحطات وجسور فيها . وكان قطار « فيترب » الصغير يمرّ تحت قدميّ ، بين أحواض زرقاء . وتحت نافذتي ، من الجهة الاخرى من الشارع ، كان ثمة صيدٌ للحمام . ولم اكن ارى الصيّادين ، ولكن كان طيرٌ مزيّف يفلت أحياناً من باب سقف ، فتنفجر رصاصة بندقية . وعلى مقربة من هناك ، كانت أسرةٌ تفلح حقلاً : فكنت أتنسّم ، اذ استيقظ صباحاً ، رائحة عشب محروق .

كنا ننهض متأخرين ، فنستمع الى بعض الأغاني عبر آلة الترانزستور قبل ان نهبط لنأخذ قهوة ونقرأ الصحف . وكنا نعمل ، وننتقل في بضع دقائق بالسيارة الى وسط روما حيث كنا نتنزّه . ونعمل بضع ساعات اخرى ، ثم نذهب لنتناول العشاء في امكنة كنّا نحبّها ، ولا سيما في ساحة سانتا ماريا دوتراستيفير ، متأمّلين نوافير المياه ، وذهب الموزاييك الممحوّ . وكان لهيب أحمر يتراقص تحت اوراق احدى السطائح ؛ وكانت دراجة « فيسبا » تنبثق من زاوية شارع ، وقد علّقت على مقودها عنقوداً هائلاً من البالونات الملوّنة . وكنا نشرب قدحاً أخيراً قرب فندقنا ، على السطيحة المزروعــة بالشجر والتي تشرف على السهل . وتحتنا كانت أكاليل مضيئة تتلوّى بين ثقوب من ظلال تتسرّب اليها أحياناً انعكاسات نار حمراء ؛ وكانت بعض المنارات تحفر أثلاماً برّاقة في سواد الروابي ؛ وكان ارتعاش الصراصير الأرضي يجيب بعناد على النجوم التي كانت تتلألأ على مخمل السماء البارد . كانت الصناعة الطبيعية — تمجّد احداها الاخرى ، وتنكرها ، فكنت أحسّ انني في لا مكان : او ربما على آلة اتصال بين الكواكب .

لم يكن كتابي يتقدم خطوة واحدة ، وكانت الاحداث الراهنة تطاردنا . وقد فشلت محادثات « لوغرين » . وفي « ميتز » كان المظليّون يقتلون الجزائريين فيقابلون باللامبالاة : ٤ قتلى ، ١٨ جريحاً ؛ ثم كانت مذبحة بنزرت . وكان

يشقّ عليّ ان أهتمّ بنفسي وبماضيّ . ولم يكن سارتر يفعل شيئاً بعد . كنا نقرأ كتباً كانت تُطلعنا على العالم ، وكثيراً من الروايات البوليسية .

وكان « فانون » قد طلب من سارتر ان يقدم مقدّمة لكتابه « معذّبو الأرض » الذي كان قد ارسل له مع لانزمان نسخة مخطوطة منه . وكان سارتر قد تحقّق في كوبا مما كان يقوله « فانون » : إن المضطهَد يستمدّ إنسانيته من العنف . وقد كان على اتفاق مع كتابه : فهو بيانٌ للعالم الثالث ، متطرّف ، كامل ، محرق ، ولكنه كذلك معقّد ودقيق ، وقد قبل في سرور ان يقدّم له . وقد سعدنا جداً حين أبلغنا فانون انه سيزورنا ، وكان يعالج بعض آثار الروماتيزم عنده في شمالي ايطاليا . وقد ذهبت لاستقباله في المطار ، وكان بصحبتي لانزمان الذي كان قد وصل مساء الأمس . وكان قد سبق لفانون منذ عامين ، حين جُرح عند الحدود المراكشية ، ان أُرسل الى روما للعلاج ؛ وقد نجح احد القتلة في النفاذ الى الفندق والوصول الى غرفته ؛ ومن حسن الحظ أنه كان قد قرأ في الصباح جريدة تشير الى انه مراقب ، فانتقل بشكل سري جداً الى طابق آخر . ولا شك في أن هذه الذكرى كانت تبرمه حين نزل من الطائرة . وقد لمحناه قبل ان يرانا : كان يجلس ، وينهض ، ويعود للجلوس ، ويصرف عملة ، ويأخذ حوائجه ، بحركات متقطعة ، ووجه مضطرب ، وعين مترصّدة . وفي السيارة التي أقلّتنا ، تحدّث في عصبية : كان المنتظر ان يكتسح الجيش الفرنسي تونس في خلال ثمان واربعين ساعة ، وسوف يجري الدم أنهاراً . والتقينا بسارتر للغداء : وقد استمرّت المحادثة حتى الساعة الثانية صباحاً ؛ وقد قطعتها بأدب كبير ، قائلة إن سارتر كان بحاجة الى النوم ؛ فانزعج فانون من ذلك : « انني لا احب الأشخاص الذين يوفّرون انفسهم ويقتصدون » هذا ما قاله للانزمان الذي أبقاه متيقظاً حتى الساعة الثامنة . لقد كان الثوريون الجزائريون ، شأنهم في ذلك شأن الكوبيين ، لا ينامون اكثر من أربع ساعات في الليل . وكان لدى فانون اشياء كثيرة يقولها لسارتر ، واسئلة يطرحها عليه . وقد قال للانزمان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضاحكاً : « انني مستعد ان ادفع عشرين الف فرنك في اليوم لأتحدّث مع سارتر من الصباح حتى المساء مدة خمسة عشر يوماً ! » وطوال ايام الجمعة والسبت والأحد ، حتى الساعة التي استقل فيها القطار الى « بانو » ، تحدّثنا بلا انقطاع . وكذلك حين مرّ ثانية بروما ، بعد عشرة ايام ، قبل ان يطير الى تونس . كان ذا ذكاء حادّ ، وكان حيّاً بشكل كثيف ، يتمتّع بروح فكاهية معتمة ، وكان يشرح ويضحك ويقلّد ويروي : فيجعل كل ما يحكيه حاضراً .

كان قد ظنّ في شبابه انه استطاع ان يتغلّب بثقافته وقيمته على التمييز العنصري ؛ وقد اراد ان يكون فرنسياً : وترك المارتينيك في اثناء الحرب ليشارك في القتال . وحين كان يدرس الطبّ في ليون ادرك ان الزنجيّ في نظر الفرنسيين يظل زنجياً ، فاضطلع اضطلاعاً هجومياً بلون جلده . وكان احد اصدقائه الطيبين يراجع معه برنامج الامتحانات ، فصاح قائلاً : « لقد اشتغلنا حقاً كالز ... » فقال له فانون : « ولكن قلها ، قلْها يا عزيزي : كالزنوج » وطوال أشهر ، لم يكلّم أحدهما الآخر . وسأله احد الممتحنين بلهجة استصغار : « وانت ، من اي بلد انت ؟ آه .. المارتينيك : بلاد جميلة .. » ثم اردف بلهجة ابوية : « ما الذي تريد ان أسألك ؟ » وقال لنا فانون : « لقد ادخلت يدي في قربة الاسئلة ، وسحبت سؤالاً . وقد وضع لي خمس علامات على عشر ، بينما كنت أستحق تسعاً . ولكنه كلّمني بلهجة احترام . » وكان قد تابع محاضرات ميرلو - بونتي الفلسفية من غير ان يقابله : وكان يجده بعيداً .

وقد تزوّج فرنسية ، وعُيّن مديراً لمستشفى « بليده » للامراض النفسية : وكان ذلك هو الدمج الذي حلم به منذ صباه . وحين أُعلنت حرب الجزائر أحسّ بالتمزّق ؛ انه لم يكن يريد ان يتنازل عن وضع احرزه بصعوبة ؛ ومع ذلك ، فقد كان جميع المستعمَرين إخوته ؛ وكان يجد في القضية الجزائرية قضيته . وقد خدم الثورة طوال عام من غير ان يترك وظيفته . وقد آوى في

بيته وفي المستشفى عدداً من المسؤولين عن حرب المقاومة ، ووزّع عليهم أدوية ، ودرّب المقاتلين على معالجة الجرحى ، وشكّل فرقاً من الممرضين المسلمين . وكانت ثماني محاولات اغتيال على عشر تفشل ، لأن « الارهابيين » كانوا يصابون بالذعر ، فيكتشف أمرهم اويفوّتوا عليهم محاولتهم . وقال فانون : « إن هذا لا يمكن ان يستمر » . وكان ينبغي تشكيل فرق « الفدائيين » وقد اضطلع بهذه المهمة ، بموافقة المسؤولين ؛ وقد علّم الفدائيين على ان يراقبوا ردود فعلهم حين يضعون قنبلة او يقذفون مفرقعة ؛ كما علّمهم على الوضع النفسي او الجسمي الذي يساعدهم على ان يصمدوا خير الصمود للتعذيب . وحين كان ينتهي من هذه الدروس ، كان يذهب لعلاج مفوض شرطة فرنسي كان مرهق الأعصاب لفرط ما « استجوب » : وأصبح هذا التناقض شيئاً غير محتمل في نظره . وقد ارسل هذا الموظف الفرنسي الى « لاكوست » ، في ابان معركة مدينة الجزائر ، رسالة استقالة كان يقطع فيها علاقته بفرنسا ، ويعلن نفسه جزائرياً .

وبعد ان مكث فترة قصيرة في فرنسا ، في منزل فرانسيس جانسون ، عاد الى تونس حيث أصبح كاتب الافتتاحيات السياسي لا « مجاهد » : وقد كتب ضد اليسار الفرنسي مقالاً آلمه . وبعد عامين اوفدته الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية سفيراً الى « اكرا » ؛ وقد قام بعدة رحلات عبر افريقيا ليحمل تأييد الجزائر لكل ثورة مناهضة للاستعمار . وكان وثيق الصداقة بروبرتو هولدن ، رئيس الحزب الوطني الانغولي ، فأقنع حكومة الجزائر الموقتة بأن تُدخل في المقاومة السرية بجيش التحرير الوطني مقاتلين انغوليين . وكان هدفه الرئيسي ان يجعل الشعوب الافريقية تعي تضامنها ؛ ولكنه كان يعرف انها لن تتفوق بسهولة على خلافاتها الثقافية ونزعاتها الاقليمية . وفي تونس ، لم تكن الانظار التي يفاجئها في الشوارع لتجعله ينسى لونه . وحدث ان صحب مندوبي بلد زنجي — المالي او غينيا — الى حفلة سينمائية كان وزير الانباء قد دعاهم اليها . وفي فترة الاستراحة ، عُرض فيلم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دعائي ، كان فيه بعض أكلة لحوم البشر يرقصون حول رجل ابيض موثق الى عمود ، وقد نجا بجلده بان وزّع عليهم مرطبات مثلجة . وقال المندوبون « الحرارة شديدة في هذه القاعة » وخرجوا . وعاتب « فانون » وزير الاستعلامات التونسي ، فأجابه هذا : « اوه ! انتم التونسيين شديدو الحساسية » اما في غينيا ، فقد كان اصدقاوه ينفرون من اجراء محادثات هامة معه أمام زوجته ، البيضاء . وقد وصف لنا ايضاً ارتباكه ذات مساء حين صحب وفداً جزائرياً الى حفلة اقامتها لهم الحكومة الغينية . وكان ثمة زنجيات جميلات يرقصن ؛ وقال لنا فانون : « كانت نهودهن عارية ، وكنّ يُظهرنها » ؛ ولكن فلاّحي الجزائر المتزمتين سألوه في دهشة : « أهن نساء شريفات ؟ وهل هذا بلد اشتراكي ؟ »

وفي غانا ، سقط فانون مريضاً ، ووجد الطبيب عنده كمية زائدة من الكرويات البيض . وقد ظلّ يعمل ويسافر . ولدى عودته الى تونس ، ذُعرت زوجته من هزاله ، فأجبرته على استشارة طبيب : وكان مصاباً بفقر الدم . وقد حسب عدة مرات فيما بعد ان أجله قد دنا : فقد فَقَدَ بصره طوال اسبوع او اسبوعين ؛ وكان لديه شعورٌ احياناً بأنه « يغرق في الفراش » كجسم ميت . وكان قد أُرسل الى الاتحاد السوفياتي حيث أكد له الاخصائيون التشخيص . ونصحوه بأن يذهب للعلاج الى الولايات المتحدة . ولكنه كما قال لنا كان يرفض ان يذهب الى بلد قَتَلة الزنوج ذاك . وكان أحياناً ينفي مرضه ، ويخطط مشاريع له كما لو انه سيعيش سنين طويلة . ولكن الموت كان يسكنه . وهذا سرّ نفاد صبره وهَذَره والنزعة الكوارثية التي لفتت نظري لديه منذ كلماته الاولى . وقد سُرّ للقرارات التي اتخذها المجلس الوطني للثورة الجزائرية في طرابلس وتعيين ابن خدّه رئيساً ، وكان يعتقد ان النصر قريب ، ولكن بأي ثمن ! لقد قال مرة : « إن المدن ستثور : وسيقع خمسمئة الف قتيل » وقال مرة اخرى « سيقع مليون قتيل » . وكان يضيف إن الأيام القادمة ستكون

« رهيبة » .

وهذه النزعة الى السيء كانت تعبّر كذلك لديه عن صعوبات جادّة بينه وبين نفسه ؛ كان من مؤيدي العنف ، وكان يستفظع العنف ؛ وكانت ملامحه تتعكّر حين يذكر ألوان التعذيب والتقطيع التي كان البلجيكيون يمارسونها على الكونغوليين ، والبرتغاليون على الانغوليين — ثقب الشفاه وقفلها ، وسحق الوجوه بضربات « البالماتوريو » — ولكن كذلك حين كان يتكلم عن « العنف المقابل » الذي كان يقوم به الزنوج ، وعن التصفيات القاسية التي اضطرت الثورة الجزائرية الى القيام بها . وكان يعزو هذا النفور الى وضعه كمثقف : إن كل ما كتبه ضد المثقفين ، انما كتبه ضد نفسه . وكان أصله يزيد من صراعاته ؛ إن المارتينيك لم تكن ناضجة للثورة : وما كان يُكسب في افريقيا كان يخدم جزر الأنتي ؛ ومع ذلك ، فقد كنّا نشعر بانزعاجه لكونه لا يناضل في مسقط رأسه ، وكان أشد انزعاجاً لأنه لم يكن ذا محتد جزائري ؛ وكان يقول لنا في ضيق : « انني خصوصاً لا أتمنّى ان اكون ثورياً ممتهناً » ونظرياً ، لم يكن ثمة سبب لكي يخدم الثورة هنا ، لا هناك ؛ ولكنه كان يتمنّى بهوس ان يتجذّر — ولهذا كانت قصته مؤثّرة . وكان يوكد التزامه بلا هوادة ولا انقطاع : إن الشعب الجزائري كان شعبه ؛ ولكن الصعوبة انه لم يكن في القادة او الجماعات من يمثّل هذا الشعب بشكل غير مشكوك فيه ؛ وقد كان فانون يعرف عن الاختلافات والدسائس والتصفيات والمعارضات التي كان لا بدّ لها فيما بعد ان تحدث هذا الاضطراب كلّه ، اكثر مما كان يستطيع ان يقول . وتلك الاسرار المظلمة ، وربما كذلك تردّدات شخصية ، كانت تمنح حديثه لهجة عجيبة ، تنبوئية ومعتكرة .

كان يدافع عن نفسه تجاه الحاضر والمستقبل بتضخيم أعماله السابقة بشكل قد أدهشنا ، ذلك لأن أهميتها العظيمة كانت تجعل اية مزايدة لامجدية ؛ وكان يقول « إن ضميري يبكّتني لموت شخصين : موت « عبّان » و « لومومبا » فلو كان قد أجبرهما على سماع نصائحه لأنقذا حياتهما . وكان غالباً ما يتكلم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كما لو انه كان هو وحده « الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية » وقد أوضح نزعته الانانية حين ابدى له سارتر ملاحظة فقال : إن على المستعمَر أن يملك دائماً اهتماماً مستمراً باوضاعه وبوجهه ؛ إن كل شيء كان يهاجمه : فمن المستحيل عليه ان ينسى لحظة ان يدافع عن نفسه . ففي ايطاليا مثلاً ، كانت زوجته هي التي تحجز دائماً غرفتهما في الفنادق ؛ ولو كان يفعل ذلك بنفسه لصرفوه بخشونة او لأحدث مشاكل . وروى لنا انه بعد عودته من « ابانو » سألته احدى الوصيفات ، بعد ان راقبته بضعة أيام : « أصحيح ما يُقال من انكم تكرهون البيض وتحقدون عليهم ؟ » وأضاف بصوت مغتاظ : « المشكلة هي انكم انتم البيض تكرهون الزنوج كراهية جسدية » .

ولم يكن هذا الاعتقاد يبسّط علاقات صعبة من بعض النواحي . فحين كان فانون يتناقش مع سارتر في قضايا فلسفية ، او في قضيته الخاصة ، كان منفتحاً ، منفرج الأعصاب . وأذكر محادثة معه في طريق من شارع « آبيا » : إنه لم يكن يفهم لماذا أخذناه الى هناك ، فماضي اوروبا لم تكن له اية قيمة في نظره ؛ ولكن سارتر سأله عن تجربته كعالم نفسي تحليلي ، فاذا به ينتعش . لقد أصيب بخيبة شديدة من علم النفس التحليلي الروسي ؛ وكان يشجب الحبس . وكان يتمنّى ان يعالج المصابون العقليون من غير انتزاعهم من وسطهم ؛ وكان يعلّق أهمية كبيرة على العوامل الاقتصادية والاجتماعية في تكوين التشوشات النفسية ، ويحلم باقامة علاقات بين علم معالجة الأمراض العقلية والتربية المدنية للمرضى ؛ وكان يقول « يجب على جميع المفوضين السياسيين ان يكونوا في الوقت نفسه علماء نفس تحليليين » ووصف لنا عدة حالات غريبة ، بينها حالة مصاب بالشذوذ الجنسي كان بمقدار ما يتفاقم تشوّشه النفسي ، يحتمي بمستوى اجتماعي متدنّ ، كما لو انه كان واعياً ان الوان الشذوذ التي تظهر في أعلى السلّم ، تختلط في اسفله مع الاضطرابات المعزوّة الى البؤس . وقد انتهى في آخر تطوره الى حالة من نصف ــ البله فكان يعيش آنذاك في المستعمرات متشرداً بين المتشرّدين : وعند هذه المرحلة من الانحلال

الاجتماعي ، لم يكن انحلاله العقلي يُلاحَظ تقريباً .

على ان فانون لم يكن ينسى ان سارتر كان فرنسياً ، وكان يعاتبه أنه لم يكفّر عن ذلك بما فيه الكفاية : « إن لنا عليكم حقوقاً . فكيف تستطيعون ان تستمروا في العيش والكتابة بصورة عادية ؟ » وكان يطلب منه تارة ان يخترع عملاً مجدياً ، وتارة ان يختار الاستشهاد . كان يعيش في عالم آخر غير عالمنا : كان يتصوّر ان بوسع سارتر ان يهزّ الرأي العام اذا أعلن انه سينقطع عن الكتابة حتى نهاية الحرب ، او أن هناك حلاً آخر : ان يدخل السجن : وبذلك يثير فضيحة قومية . ولم نكن ننجح في تغيير رأيه . فقد كان يضرب لنا مثل « ايفوتون » الذي كان قد صرّح عند موته : « انني جزائري » . اما سارتر ، فقد كان يقول إنه متضامن كليّاً مع الجزائريين ، ولكنه فرنسي .

كانت محادثاتنا ذات أهمية بالغة دائماً ، بفضل غناه في المعلومات ، وطاقته على التذكر والتذكير ، وسرعة فكره وجرأته . وكنّا نتمنّى ، بدافع الصداقة ومن أجل مستقبل الجزائر وافريقيا ايضاً أن يمنحه مرضه فترة تأجيل طويلة . لقد كان انساناً استثنائياً . وحين كنت أشدّ على يده المحمومة ، كنت أحسب اني كنت ألمس النار التي كانت تحرقه . وقد كان يُعدي بهذه النار ؛ وكانت الحياة على مقربة منه ، تبدو مغامرة فاجعة ، فظيعة غالباً ، ولكنها ذات ثمن لا يقدّر .

وبعد سفره ، أخذ سارتر يكتب مقدمة لـ « معذبو الأرض » ، ولكن بلا عجلة ؛ كان مشمئزاً من هذا الصراع الذي كان يعيشه منذ أشهر عيشاً أعمى ضد الزمن وضد الموت ؛ وكان يقول لي : « انني اعيد تكوين نفسي » . وانا كذلك عاودني الهدوء رويداً رويداً . وقد استطعت أن أهتمّ بالانباء التي لم تكن تخصّ الجزائر . وكنا نتناول يوماً طعام الفطور ، في ساحة « الموز » فرأينا على صحيفة جارٍ لنا وجهاً كبيراً يحتل الصفحة الأولى بكاملها : انـه « تيتوف » وهو يدور حول الأرض . وبعد ذلك بقليل ، تابعنا أخبار البرازيل : كان هذا البلد موجوداً الآن بالنسبة الينا ؛ كادروس ، لاسيردا ، جانغو :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانوا أشخاصاً أحياء ؛ وكانت كلمتا برازيليا وريو تثيران عندنا صوراً محددة . وكنا نتساءل : « ما رأي امادو وزوجته ؟ ماذا تفعل لوسيا وكريستينا ؟ » وكان « جانيو » يؤكد حكم أصدقائنا : « برنامج جميل ، ولكنه لن يملك الشجاعة لتنفيذه » وأسعدنا ان تفشل حركة الانقلاب العسكري ، من أجل البرازيل ومن أجل فرنسا : فلو نجحت ، لشجّع ذلك الجنرالية عندنا .

منحت جائزة « فياريجيو » التي رفع « اوليفاتي » قيمتها هذا العام الى اربعة ملايين لير ، الى « مورافيا » ، وهذا ما أثار في الصحف الايطالية تعليقات خبيثة ، وغير عادلة ، ولكنها لذيذة ؛ ولم يكن مورافيا في روما ، ولم نَرَه . ولكننا التقينا كارلو ليفي . وتناولنا العشاء في « التراستفير » مع اليكاتا وزوجته وباندينللي الذي وجدناه لطيفاً ودوداً كما في عام ٤٦ . وتحدّثنا عن اجتماع كان معهد « غرامسكي » ينوي عقده في الربيع بين الماركسيين الايطاليين وسارتر حول قضية الذاتية ، وموضوعات كانت تطرحها في فرنسا وفي ايطاليا الخطط الرأسمالية الجديدة .

وقمنا ببعض النزهات حول روما . ولم أكن قد رأيت منذ عام ١٩٣٣ مقصورة « هادريان » مرة اخرى . وكنت أتذكّر قرميداً وشربيناً كانا قد سحراني : وكانت في الواقع ، ساحرةً الخرائبُ التي ابهتتها الشمس ، وخضرة الصنوبر والشربين المعتمة التي كانت تنعكس على السماء الزرقاء . وصعدنا من طريق شُقّت حديثاً الى « سيرفيرا » وهي قرية سوداء متعالية تشرف من ارتفاع ألف متر على سهل « اللاتيوم » . ورأينا ثانية « ناتونو » و « أنزيو » التي دهشنا فيها لسفينة حمراء موضوعة على البحر الأزرق : انها سفينة كليوباطرة في الفيلم الذي كان يجري العمل بتصويره في مشقة كبيرة مع « ليز تايلور » . ومن فراسكاتي صعدنا الى « توسكولوم » ؛ إن المنظر العام الشامل لم يكد يتغيّر منذ الأزمان القديمة : جبال « البان » وقراها ، « اللاتيوم » ، موضع روما في البعيد . ولقد وجدتُ ثانية ، وانا جالسة الى جانب سارتر بين خرائب المسرح الصغير ، مذاق السعادات الماضية . كانت روما قـــد

هدّأتني تدريجياً ، وكانت احلامي في الليل هادئة . وكنت اقول لنفسي واقول لسارتر : « اذا كان لنا ان نعيش بعد عشرين عاماً آخر ، فلنحاول ان نستمتع بها . » أليس بامكان المرء ان يبقى حاضراً في العالم من غير ان يستنفد نفسه في انفعالات لا تجدي أحداً ؟

لا ، بلا شك . فقد ردّت « منظمة الجيش السري » على سياسة « التخليص » [1] بمحاولة اغتيال ديغول — وهذا ما لم يزعجني الا قليلاً — وبدعوات الى القتل . وأنّى لي ان افكّر بهدوء في أعمال القتل بوهران ومدينة الجزائر ، وفي رجم المسلمين حتى القتل ، وفي احراقهم وهم احياء في سياراتهم ؟ إن العطلة في روما لم تكن الا هدنة : فانا عائدة لأجد مرة اخرى باريس وحياتي كما كنت قد تركتهما .

* * *

كانت الرحلات الطويلة في السيارة تُضجر سارتر ، فبقي في روما ليعود منها بالطائرة ، في حين اني توجهت بالسيارة نحو الشمال بصحبة لانزمان الذي كان قد عاد ليرافقني . وكان لانزمان يقوم بزيارات كثيرة لسجن « فرين » وقد كان المعتقلون الجزائريون مقتنعين بأن اتفاقاً ما سيعقد عما قريب . وقد أطلعني على مشروع فرار بومعزة ؛ وكان عامل كهربائي معتقل من قبل الحق العام يعمل يومياً في رأس سلّم مستند من الداخل الى جدار السجن ؛ وكان حارس يراقبه ؛ وفي يوم من الايام ، يتمّ الاتفاق على ان يمرض الكهربائي ، وان يحلّ بومعزة محلّه ، ويحلّ معتقل من قبل الحق العام محلّ الحارس : ولن يرى الحارس المتحرّك ، الذي تعوّد على هذه الاشباح ، إلا ناراً ؛ وفي اللحظة المناسبة يقفز الشريكان فيما وراء الجدار حيث تكون بانتظارهما سيارة .

تركت لانزمان في زوريخ وقصدت بيت أختي التي تسكن قرية في جوار ستراسبورغ ؛ وكانت تنبعث من المنزل نار من خشب ؛ وكان ليونيل الذي

---

(١) كان ديغول قد انتهى به الأمر للاعتراف ، يوم ٥ ايلول ، بشخصية الصحراء الجزائرية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ألف السفر قد حمل معه من « داهومي » بُسُطاً كانت تزيّن المرسم بشكل لطيف . وكانت لوحات اختي الأخيرة اكثر جرأة وإلهاماً ، فكانت تتفوق على سابقاتها تفوقاً ظاهراً ؛ وقد تفرّجت عليها طويلاً ، وتحدّثنا وقضينا نهاراً لا هموم فيه . وصباح اليوم التالي ذهبت معها في نزهة في « الفوريه – نوار » ، وتوقّفت في ستراسبورغ حيث تلفنت للانزمان ، فروى لي في غضب شديد قصة الهجوم الوحشي الذي شنّه رجال الشرطة على الجزائريين عند « قوس النصر » ، وكانوا ينتظرونهم عند مخارج محطات المترو ، فيقفونهم ويطلبون منهم رفع ايديهم ، ثم ينهالون عليهم ضرباً ؛ وقد رأى بعينيه وجوهاً تُهشّم ورؤوساً تحطّم ؛ وكان الجزائريون يغطّون رؤوسهم بأيديهم حمايةً لها : فكانت تُكسر ايديهم ؛ وقد وُجدت جثث معلّقة في أشجار غابة بولونيا ، ووُجدت جثث اخرى مشوهة ومقطّعة ملقاة في السين . وقد سارع لانزمان وبيجو الى اتخاذ المبادرة لتوجيه نداء يدعوان فيه الفرنسيين ألاّ يكتفوا بعدُ بالاحتجاج المعنوي ، بل أن « يعارضوا تجدّد مثل أعمال العنف هذه بأيديهم وحيثما وقعت » . ولم يكن عدد الذين وقّعوا النداء الا ١٦٠ [١] ؛ اما محرّرو « الاكسبريس » باستثناء اثنين ، ومحررو « الاوبسرفاتور » جميعهم تقريباً ، فقد تهرّبوا . وقلت لنفسي بينما كنّا نسير بين أشجار الصنوبر على طرقات مكلّلة بالثلج : « عودة طيّبة الى الوطن الأمّ » ! واستحال عليّ أن أنام ، تلك الليلة ؛ وقد بقيت فترة طويلة ، وحيدةً امام الموقد ، واجدةً من جديد الفظاعة واليأس الذين كانا يحرقان عينيّ . وفي اليوم التالي ، شاهدت من جديد ، مع اختي وليونيل ، « ريكوير » و « ريبوفيليه » ؛ وكانت القرى والدوالي على مثل جمالها الماضي ، وقد أكلنا طير التدرج مطبوخاً بالعنب ، ولكني لم أكن أحتمل بعد جمال الطبيعة ولا النجوم ، ولا التقاليد القديمة ، وكلّ هذا الماضي الذي قادنا الى ما نحن فيه . وفي المساء استمعت الى الراديو الذي أعلن فرار بومعزة ؛ ولا شك في انه قد حقّق

(١) وبعد اسبوع أصبح عددنا ٢٢٩ .

خطتّه بنداً بنداً . ولكني سمعت بعد ذلك مقابلة « فراي » وأكاذيبه الهادئة : قتيلان ، في حين انه كان قد أحصي خمسون . وكان عشرة آلاف جزائري معسكرين في « فيل ديف » ، كما فعل اليهود سابقاً في « دانسي » . ومن جديد ، كنت أحتقر كل شيء ، هذا البلد ، ونفسي ، والعالم . وكنت اقول لنفسي إن أجمل الاشياء – وكنت مع ذلك قد أحببتها وعشت منها – ليست في آخر المطاف جميلة الى هذا الحدّ ؛ إن المرء يمسّ السقف بسرعة ؛ والشرّ وحده يفضي الى اللانهائي ؛ ولو أن الاكروبول وروما والأرض كلها قد نُسفت ، ما رفعتُ إصبعاً واحداً لأحول دون ذلك .

ويوم الأحد التالي ، في بداءة بعد الظهر ، وصلت الى باريس ، وكانت مقفرة عابسة ، تنغل برجال الشرطة . وقال لي اصدقائي انه عُثر على اكثر من خمسة عشر مشنوقاً في غابة بولونيا وانه كانت تلتقط كلّ يوم من نهر السين جثثٌ أخرى . وكان اصدقائي يودّون لو يفعلون شيئاً . ولكن ماذا ؟ لقد كنا نعيش ايام دكتاتورية بوليسية : فبعض الصحف تُصادر ، والتجمّعات تُمنع . ولم يُتح بعد للنقابات ولا للأحزاب ان تنتقل الى العمل . ويوم ١٨ تشرين الأول ، قرّرت بعض الجماعات وبعض الافراد ان يثبتوا وجودهم مهما كلّفهم الأمر . وكانت لجنة الدائرة السادسة قد دعت اعضاءها الى التظاهر ، فأتى عدد صغير فقط . وكان لانزمان وبويون قد تحدّيا رجال الشرطة فاعتقلوهما ؛ وحاولت ايفلين عبثاً ان تلحق بهما . وقد ضربهما رجال الشرطة وكانوا يقولون : « يا للملاعين ! إنهم لا يقولون شيئاً حين يُقتل رجال الشرطة ، اما اذا قُتل جزائريون ، اغتاظوا ! » وقد تحدّثت طوال الليل مع اصدقائي . وفي الساعة الخامسة صباحاً ، انفجر نزاع بين الزبائن والخدم في مقهى « الفالستاف » حيث كنت موجودة مع أولغا وبوست ؛ وقد جرّ الخدم الى الخارج رجلاً فاقد الحراك كانت زوجته تصرخ : « سوف ننسف لكم المقهى ! » .

وعاد سارتر في اليوم التالي ، فاستعدت توازني في باريس هـــذه ، باريس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحريف والدم. وقضى لانزمان نهاراً في سجن « نانتير » : رجال جرحى ، ومشوهون، ومقطّعو الاطراف؛ وكانت بعض النساء يبكين ازواجهن المختفين... ودهشنا ان نرى بعض الصحف تهاجم « أعمال الشرطة الوحشية » ، كما لو أنّ بعض أعضاء الحكومة كانوا ضدّ « بابون » وكانوا يشجّعون نشر هذه الأخبار. ثم إن عدداً غير قليل من القراء الذين شاهدوا الأحداث ، كتبوا مغتاظين الى « لوموند » وحتّى « الفيغارو » : إن الناس يتحرّكون حين توضع انوفهم في الدم أخيراً. وفي مجلس النواب ، قال «كلوديوس بوتي » لـ « فراي » ، على ما روى لنا بويون الذي حضر الجلسة : « إننا نعرف الآن ما معنى ان يكون الناس ألماناً في عهد النازية ! » ؛ وسقطت كلماته في صمت الموت. وكانت قد انقضت خمسة اعوام على اليوم الذي ذكر فيه « مارو » الغستابو وافراد الجيش السري الألماني ؛ كان الفرنسيون طوال اعوام قد قبلوا الضلوع الذي عاشه الالمان في العهد النازي ؛ والاستياء المتأخر الذي كان يُحسّه البعض من جرّاء ذلك لم يكن ليقيم الصلح بيني وبينهم.

وفي أول تشرين الثاني حظر « اتحاد فرنسا » على الجزائريين ان يتظاهروا بشكل قد يتخذ ذريعة لقيام مجازر جديدة. وفي هذه الدولة البوليسية التي أصبحتها فرنسا ، لم يكن لليسار اي امكانية للعمل تقريباً. ودعا شوارتز وسارتر المفكرين والمثقفين الى مظاهرة صامتة في ساحة « موبير ». وفي صباح جميل مشمس ، التقينا في حديقة «كلوني ». وكان اندريه وروز ماسون موجودين هناك يتأكلهما القلق لأن المعتقلين الجزائريين ، في جميع سجون فرنسا ، و « اخوتهم » الفرنسيين ، كانوا يبدأون اضراباً كبيراً عن الطعام. وعرفت كثيراً من الوجوه الاخرى حين كنا سائرين نحو تمثال « اتيان دوليه » الذي كان قد تجمّع قربه زهاء الف ومئتي شخص.

واوقفتنا سلسلة من الشرطة قرب مدخل المترو. وتفاوض سارتر مع المفوض الذي كان قد تلقّى دون شك أمراً بتجنّب المشاكل ، فتركنا نقف عشر دقائق في صمت. وألقى البعض كلمات قصيرة : فشرح سارتر معنى

التظاهرة . وأخذ المصوّرون صوراً ؛ وتمتم شوارتز وسارتر بعض كلمات في مكبر صوت . وبعد خمس دقائق أصدر المفوض أمره : « تفرّقوا . » فاحتججنا ، وصاح عضو شوفينيّ مشاغب من « الحزب الاشتراكي المتّحد » : « أطلقوا ! لماذا لا تطلقون النار ؟ » فهزّ الشرطي (بالثياب المدنية) كتفيه ، كما لو انه لم يحدث قط ، في تاريخ الشرطة ، أن أطلق شرطيّ النار . واقترح أحدهم : « لنجلس ! » فرفع المفوض نحو السماء عينين كليلتين . كانت الطريق مسدودة ، والصحافة عالمةً بالأمر ، وما كنّا لنربح شيئاً لو كبّدنا انفسنا ساعات من الانتظار ، فكان ان تفرّقنا . واتجهت مع بويون وبونتاليس وبوست ولانزمان وايفلين نحو شارع « لاغرانج » وقالت لي سيّدة كانت مارّة : « شكراً لأنك قد اتيت » ، وهذا ما خلفني حالمة . وفجأة سمعت صوت انفجار خلفي ، وصاح أحدهم « الجبناء القذرون » ! ولمحت في ساحة « موبير » ، فوق الحشد ، شظايا مسودّة . وارتددنا نحو الساحة . ولكن البلاستيك ، اذا فجّر في الهواء ، ليس اكثر من مفرقعة ؛ كانت النوافذ قد تحطّمت شظايا ، وقد جُرح شخصان (بينهما جاك ابن عمّي ، الذي كان يمرّ هناك) والتقيت اولغا التي وصلت متأخرة فلم تستطع ان تبلغ ساحة موبير التي كان بعض الأشخاص قد جلسوا في زاويتها ، وكذلك في ساحة مدسيس ؛ وقد قُبض على بعضهم . وذهبنا مع سارتر وفريق وجدتهم في « بالزار » فتناولنا الغـــداء في مطعم بجادة سان ميشال . وكانت الاذاعة تقوم بالدعاية لمظاهرتنا : ففي أثناء الطعام ، روت خبر المظاهرة ثلاث مرات .

وبعد الظهر ، كان زهاء الف ومئتي عضو من « الحزب الاشتراكي المتحد » قد تواعدوا على اللقاء خفيةً امام احدى دور السينما ، في ساحة « كليشي » ؛ وقد استطاعوا ان يتجمّعوا من غير إزعاج . وكانوا يحملون اعلاماً ويطلقون شعارات ، وقد هبوا حتى « ريكس » ، ووضع « دوبرو » أكاليل حيث كان مسلمان جزائريان قد قُتلا .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على ان الراديو اذاع عند الظهر ، فيما هو يؤكّد ان «كل شيء هادىء في الجزائر» ، ان اربعين قتيلاً قد سقطوا. وفي المساء ، روى مندوب الحكومة في اذاعة «اوروبا رقم ١» أن السكان الجزائريين لم يكونوا قد أتوا أية حركة ، ولكنّ بعض المحرّضين اطلقوا النار على قوى الأمن ، فقتلوا منهم ثلاثة : وكان ان سقط ستة وسبعون قتيلاً بين المسلمين ! وأضاف بعض الصحفيين انهم قد سمعوا اطلاق رصاص ، وانهم لم يُسمح لهم بالاقتراب : مجزرة اخرى ! ولم يحدث شيء في وهران. وفي بعض أحياء المسلمين ، كانت هذه الذكرى عيداً حقيقياً : كان الراديو ينقل صرخات فرحة ، وأغاني ...

لم يكن ثمة من يشك بأن الاستقلال أصبح قريباً. وكانت ثمة مفاوضات تجري وتتحدث عنها جميع الصحف. كان ديغول يجد نفسه وقد دفعته جبهة التحرير الوطنية والرأي العام الى الصلح ، ولأن هذه الحرب كانت تزعج «سياسة العظمة» التي كان ينتهجها. وحين أعلن في «باستيا» عن «ربع الساعة الأخير» ، بدا لنا ، للمرة الأولى ، ان هذه الكلمات كانت تنطبق على الحقيقة ، ولكن قبل ان ينتقل بن‌خدّة الى مدينة الجزائر ، فان الفاشيست سيجعلوننا نمرّ في لحظات سيئة. وكان ينبغي ان ننظّم أنفسنا.

اما في الاتحاد السوفياتي ، فمع تقرير المؤتمر الثاني والعشرين ، اجتازت سياسة ازالة آثار ستالين مرحلة ثانية [1]. وفي الحزب الشيوعي الفرنسي ، كان بعض المثقفين ، وبينهم «فيجبيه» ، يتمنّون حدوث تقارب مع اليسار اللاشيوعي ؛ وقد اقترح على سارتر ان يوقّع ويحث أصدقاءه على توقيع منشور موجّه ضد الحكم وضد العنصرية : وسيكون ذلك نقطة انطلاق

(١) كان خروتشوف قد عارض البانيا والصين ، وكان من جديد قد هاجم ستالين الذي كان جثمانه قد نقل من الضريح الرسمي ، وكذلك الأكاليل التي كانت تزينه (وكان بينها الأكاليل التي كان شو إن لاي قد وضعها عليه قبل ذلك بثمانية ايام) وقد دفن بين القبور المستندة الى جدار الكرملين ، واقترح خروتشوف ان يقام بناء ضخم «لضحايا سياسة الاعتباط».

لمظاهرة ، وقاعدة لتنظيم مناهض للفاشية ، ولكن بعض الصعوبات نشأت في الحال . كان سارتر واصدقاؤنا يريدون ان يؤكدوا بالأعمال تضامنهم مع الثورة الجزائرية ؛ وكانوا يعتقدون أن هدم « منظمة الجيش السرية » يقتضي مهاجمة الحكومة التي كانت ضالعة معها بصورة مجردة . اما الشيوعيون الحريصون على « استبقاء ما يجمع ، وطرح ما يفرّق » فقد كانوا يتمنّون ان يحدّوا الحركة بالنضال ضد منظمة الجيش السري . واعتقد سارتر أنه ينبغي القيام بمحاولة للتغلّب على هذا الاختلاف : فانه لم يكن ثمة عمل ممكن بدون الشيوعيين . وكان لانزمان وبيجو وبويون يتنبأون بأنه لا يمكن عمل شيء معهم . واخيراً ، قرروا ان يجرّبوا ، فدعموا سارتر الذي أسهم ، مع شوارتز وفيجييه ، في انشاء « جامعة للتجمّع ضد الفاشية » .

وكانت محاولات التخريب والاغتيال قد استؤنفت بأشدّ مما كانت قبل العطلة الصيفية . واراد سارتر ان يستأجر غرفة في احدى الفنادق ، ولكن المدير رفض : فانه كان قد دهن واجهته من جديد . وكان لا بدّ من اللجوء الى حيلة ، فأستأجر « كلود فو » باسمه شقّة مؤثّثة في بولفار سان جرمان نزلنا فيها (وكان كلود قد حلّ محلّكو بالقرب من سارتر) ؛ وكان المبنى لا يزال في حالة البناء ، ولم يكن ثمة ضوء في السلّم المليء بالبقايا ، وحيث كان العمال ، من الثامنة صباحاً حتى السادسة ، يصطدمون بالمسامير ؛ ولم تكن الشمس تدخل من النوافذ التي تشرف على شارع سان غيويوم الضيّق : فكنّا مضطرين الى ابقاء الكهرباء مضاءة طوال الوقت . صحيح اني كنت قد عرفت مساكن أسوأ من هذا ، ولكني لم أعرف ما هو أزعج منه .

وكتبت مقدّمة لكتاب جيزيل حليمي عن جميلة بوباشا ؛ وكان الجنرال « ايوريه » والوزير « مسمر » مضطرين الى التدخّل علناً لوقف عمل العدالة ؛ وقد اردنا ان نكشف عن الأشراك التي كان لا بدّ من تجنّبها للوصول الى هذه النقطة . ومن جهة اخرى ، خطر لجيزيل حليمي ان تلاحق « ايوريه » و « مسمر » امام المحاكم ، ودعمها في هذه الفكرة اخصائيون من امثال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« هوريون » و « دوفيرجيه » ؛ اننا بالطبع لن ننجح في حمل السلطات على اعتقالهما ، ولكن كان يبدو لنا مفيداً آنذاك ان نكشف مسؤوليتهما للعيان : ولم نكن نتنبأ بأن المحاكم العسكرية ستأخذ على عاتقها في هدوء غريب ان تحل محلّنا ، ولا بسلسلة الحقائق التي أكّدت أحكامها ، وسط اللامبالاة العامة . وكانت اللجنة العدلية تضمّ عدداً من الديغوليين اليساريين الذين كانوا يدّعون انهم يناضلون ضد التعذيب فيما هم يبقون على الصعيد المعنوي . ولقد أشمأزّوا ، فاستقال قسمٌ من المكتب ، وانتُخب مكتب سواه .

وخُطّطت مظاهرة — مفاجئة ، ضد الفاشية العنصرية ، ليوم ١٨ تشرين الثاني ؛ وكانت الشبيبة الشيوعية خصوصاً هي التي نظمتها . ولم يكن مقدّراً للمظاهرة ان تنجح الا اذا استطاع منظّموها ان يضلّلوا الشرطة بشأنها : وكان مكان اللقاء سرياً جداً حتى ان أحداً لم يعرف الى اين الاتجاه ، حين اجتمعنا امام « البارامونت » . وكانت عشرات من سيارات الشرطة واقفة في ساحة سان جرمان دي‌بريه ، وكانت الضفة اليسرى في حالة حصار . واعطانا « فيجيه » كلمة السرّ : ستراسبورغ — سان دنيس . ونصحنا بقوله : « اذهبوا الى هذا المكان بالمترو » ؛ وهبطت الدرجات مع سارتر ولانزمان واداموف وماسون الذي كان يقول في خجل : « انني لم أحسن في حياتي قط ركوب المترو ؛ وهذا سيء ، وغير ديمقراطي ، ولكن هذا هو الواقع . » (وقد كان في نيويورك يُعلّق داخل سترته ورقة عليها عنوانه الذي كان يُريه للسائقين ...) وكان يبدو بقبعته وصدرته الجلدية السوداء ، وكأنه ينبثق من أعماق عصر فوضوي قديم . وكان في المترو كثير من الشبان . وعلى بعد خطوات منا ، في نَفَق الخروج ، كان ثلاثة فتيان في الخامسة عشرة يتناقشون : « انني احسّني ثائر الأعصاب جداً . انني احاول ان أضبط نفسي ، ولكني ثائر الأعصاب » هذا ما كان يقوله أحدهم . وكانت جموع مساء السبت تملأ الأرصفة ، فخيّل إليّ انها سوف تُغرق الفرق المنتظرة ، المنتثرة هنا وهناك . وقال لي لانزمان : « سترين ، إن الأمور ستشتعل فجأة ، ذات

لحظة » وفي اللحظة ذاتها ، انبثق موكب يحمل لافتة : « السلام في الجزائر » ما لبث ان انضمّ اليه المئات ؛ وكان آخرون يصلون من كل مكان ؛ وركضنا وأخذنا مكاناً لنا خلف اللافتة ، في مقدمة العرض . وتناولت ذراع سارتر ، وذراع رجل مجهول ، ملاحظةً في دهشة ان الجادة كانت تمتدّ امامنا ، على مدى النظر ، مقفرة . (وكانت ذات اتجاه واحد للسير ؛ وخلفنا كان الموكب يسدّ السير ؛ وفي جميع الطرق المعترضة كانت السيارات التي توقّفت لحسن الحظّ في منتصف الشارع ، تعرقل السير وتمنع سيارات الشرطة من المرور) وقد اكتسحنا الأرصفة كذلك ؛ كان يُظنّ ان باريس تخصّنا وحدنا . ومن النوافذ ، كانت تطلّ وجوه لا تعبير فيها – باستثناء نوافذ « الاومانتيه » التي كانت صاخبة الفرح – وعلى طول الطريق ، كان ثمة كثير من الصحفيين والمصورين . وكنا نهتف ونحن سائرون هتافاً متقطّعاً : السلام في الجزائر – متضامنون مع الجزائريين – اطلقوا سراح بن بللا – منظمة الجيش السري : مجرمون وقتلة ؛ وكانت هتافات اخرى ، اقلّ : وحدة عمل – سالان الى المشنقة . وحين مررنا امام متحف « غريفين » صاح البعض « ديغول الى المتحف » ، وحين مررنا امام جنديّ مظليّ : « المظليّون الى المصانع » وسمعت ايضاً مرتين او ثلاثاً : « ديغول الى المشنقة » ، ولكن شعار « السلام في الجزائر » كان طاغياً على جميع الشعارات الاخرى . وكان مرحٌ عظيم ينتشر بين هذه الجموع السائرة ، المندهشة بحريتها . وكم كنت أحسّني راضية ! إن الوحدة موت ، وقد كنت أُبعثُ من جديد وانا أجد حرارة الاتصالات البشرية . ووصلنا الى « ريشيليو – درووو » ؛ واذ كنّا نسلك جادة مونبارناس ، حدث اهتزاز وتفرّق : كان رجال الشرطة قد بدأوا يضربون ؛ وانسل عدد من الناس الى شارع يقع الى اليمين ؛ وتبعناهم ، انا وسارتر ولانزمان ، واستدرنا الى اليسار ، ودخلنا حانة أغلقت خلفنا الباب بسرعة . وقال لانزمان لصاحب الحانة : « انك خائف ! » فأجاب بقوله : « آه ! ليست لديّ الرغبة في ان يحطّموا لي كلّ شيء . لقد اراد بائع التبغ ، عند الزاوية ، ان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتخابث في المرة الماضية ، فترك ابوابه مفتوحة ؛ وجاء الشرطة : مليونا فرنك ، اضرار » وأضاف وهو يتوجّه الى سارتر ببسمة : « ستكتب لي رواية حول هذا ، وتضعني فيها ، ولكن ذلك لن يجديني شيئاً... ان لي ثلاثة اولاد ، وانا لا اشتغل بالسياسة ، فالسياسة هي مصالح عليا . » واومأت يده في الهواء الى نثار من ذهب : « مصالح هائلة : وهذا ما يتجاوزنا » وبعد لحظة ، خرجنا ثانية الى الطريق ، فكان ثمة لطخات كبيرة من الدم عند الزاوية ، وكانت سيارات الشرطة في الجادة ، وكان آخر المتظاهرين يبتعدون . وعدنا الى المنزل بسيارة اجرة ، وسرعان ما بدأ جرس التلفون يدقّ : كانت جيزيل حليمي و « فو » اللذان كانا حيث كنّا قد تعرّضا لهراوات الشرطة ؛ وقد رأيا متظاهراً مجرّح الوجه ، وآخر فاقدَ الوعي ، محطّم الرأس . وكان رجال الشرطة مسلّحين بهراوات خاصة ، هائلة ؛ وقد انهالوا بها ضرباً بدافع اللذة ، لأن الجمهور تفرّق لدى الهجوم الأول ، مبتهجاً انه ظلّ طوال هذه المدة يحتلّ الساحة . ولم يعرف بيجو وايفلين واداموف وزوجته واولغا وبوست ، وكانوا خلفنا ببضعة صفوف ، شيئاً عن هذا الاشتباك ؛ لقد ذهبوا من جادة الايطاليين وشارع ترونشيه الى محطة سان لازار ، من غير ان يلتقوا الشرطة ؛ وقد تفرق المتظاهرون ــ الذين كانوا آنذاك حوالي ثمانية آلاف ــ على أمرٍ من منظّمي المظاهرة . وحين هبطت لأشتري العشاء ، سمعت ضجة وصخباً ، وكانت السيارات متجمّعة في جادة سان جرمان لا تستطيع العبور : كانت ثمة مظاهرة اخرى من جهة الاوديون ، وقد علمنا فيما بعد أنه قد حدثت مصادمات في الحي اللاتيني . لقد كان نهاراً جميلاً يفسح المجال للأمل.

شعلة قصيرة . وحدثت بعد ذلك مأساة فاقمت في عيني ظلام هذا الخريف المعتم . ذلك أن فانون اصيب في مطلع تشرين الأول بانهيار جديد في صحته ، فأرسله أصدقاؤه للمعالجة الى الولايات المتحدة التي قبل ان يذهب اليها ، على شدة نفوره . وقد توقّف في روما ، وقضى سارتر بضع ساعات في غرفته بالفندق ، بصحبة بولحروف ، ممثل حكومة الجزائر الموقتة في ايطاليا . وكان

فانون متمدداً على سريره ، مرهقاً الى ابعد الحدود ، حتى انه لم يفتح فمه طوال المقابلة ؛ كان متشنّج الوجه ، وكان لا يني يتحرك كأنما كان جسمه يثور على الاستسلام الذي فرض عليه .

ولدى عودتي الى باريس ، أطلعني لانزمان على رسائل وبرقيات من زوجة فانون . لقد ظنّ فانون انه بصفته عضواً في الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية سيستقبل في واشنطن استقبالاً حاراً : والذي حدث انهم تركوه عشرة ايام ، وحيداً ، بلا اية عناية ، في غرفته بفندق . وقد التحقت به زوجته مع ابنهما البالغ من العمر ستة أعوام . ونُقل فانون اخيراً الى المستشفى فأجريت له عملية جراحية ؛ وقد استُبدل دمه كلّه ، وكان الأمل ان توقظ الصدمة نخاعه ، ولكن لم يكن ثمة اي أمل بالشفاء : انه في أفضل الأحوال سيعيش عاماً آخر . وكتبت زوجته من جديد ، وتلفنت : ٦ آلاف كيلومتر مسافة ، وقد تابعنا يوماً فيوماً هذا الاحتضار . وصدر كتاب فانون ، وكتبت مقالات أشبعته مديحاً ؛ وقد قرأت له زوجته مقاليْ « الاكسبريس » و « الاوبسرفاتور » ؛ وقال : « ليس هذا ما يردّ لي نخاعي . » وتلفنت في الساعة الثانية من احدى الليالي الى لانزمان لتقول له : « لقد مات فرانز » ! وقد سقط تحت ضربة ذات رئة مزدوجة . وكان قارىء رسائلها المقتضبة يشعر بيأسها ، وقد استقل لانزمان الطيارة الى واشنطن للاجتماع بها ، رغم انه كان يعرفها معرفة بسيطة . وعاد بعد بضعة ايام ، مشدوها ومهتزّاً . لقد عاش فانون موته دقيقة دقيقة ، ورفضه بشكل وحشي ؛ وقد انطلقت نزعته الهجومية في هذيانه الاحتضاري ؛ كان يحتقر الاميركيين ، اولئك العنصريين ، ويحذر جميع موظفي المستشفى ؛ وحين استيقظ ، في آخر صباح له ، قال لزوجته ، كاشفاً عن كوابيسه : « لقد وضعوني هذه الليلة في آلة الغسيل » وكان ابنه قد دخل غرفته ذات يوم ، حين كان يجري له نقل الدم ؛ وكانت أنابيب تشدّه الى كرتين من المطاط ملئت احداهما بالكرويات الحمر ، والاخرى بالكرويات البيض ؛ وخرج الصبي وهو يهدر : « اللصوص !

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد قطعوا ابي الى قطع » وفي شوارع واشنطن ، كان يلوّح في تحدٍّ بالعلم الأبيض والأخضر . وارسل الجزائريون طائرة خاصة لتعود بجثمان فانون الى تونس . وقد دُفن في الجزائر ، في احدى مقابر جيش التحرير الوطني : وللمرة الأولى ، وفي صميم الحرب ، قام الجزائريون بمأتم وطني لواحد من أبطالهم . وطوال اسبوع او اسبوعين ، التقيت في شوارع باريس صورة فانون في كل مكان : في الأكشاك على غلاف « جون افريك » وفي واجهة مكتبة ماسبرو ، وكان يبدو اكثر شباباً وهدوءاً مما رأيته ، وجميلاً جداً . لقد كان موته ثقيل الوزن لأنه كان قد حمّله بكل كثافة حياته .

دعا معهد « غرامسكي » سارتر ، كما تمّ الاتفاق في ايلول ؛ وقد بقي بضعة أيام في روما وعقد اجتماعاً عن الجزائر ، بحضور بولحروف. ولما لم يكن للايطاليين بعدُ من مستعمرات ، فهم جميعاً ضد الاستعمار ، وقد صفّقوا لسارتر في حرارة . على انه كان ثمة بعض الفاشيست – وهم ابطال على حد قول سارتر – الذين ألقوا بمناشير تقول : « ان سارتر هو العدم وليس الوجود » وكانوا يصفرون له ايضاً . والتفت كلّ من في القاعة ، وهو مستعدّ للانقضاض عليهم ، ولكن الرئيس قال : « دعوا جيرانهم يهتمّون بهم » وقد هجم « غوتوزو » مع ذلك ، ولكن المساكين كانوا يهبطون السلالم ، ورؤوسهم في المقدّمة : وقد نقل نصفهم الى المستشفى ، والنصف الآخر الى السجن . وروت الصحافة الفرنسية ان سارتر قد قُذف بالبيض المعفّن ، ونشرت صورةً كان يُرى فيها مع بولحروف . وعند عودته ، تلقّى من وهران رسالة تهديد .

وحدثت يوم ١٩ كانون الأول مظاهرة اخرى ضد منظمة الجيش السري ، ولكنها مُنعت في آخر لحظة . ومع ذلك ، فقد ذهبنا الى حيث كنا متواعدين ، قرب تمثال « موسيه » ؛ وكان هناك أولئك الذين اجتمعوا في « بالزار » يوم اول تشرين الثاني ، والذين اجتمعوا يوم ١٨ تشرين الثاني امام البارامونت ، وكان بعضنا يعرف البعض الآخر ، وكنا نحسب انفسنا في كوكتيل ادبي .

وهذه المرة ، كان انطلاق الموكب قد تحدّد ابتداء من جادة هنري الرابع ، وقد ركبنا المترو انا وسارتر ولانزمان وغودمان الذي كان منزله قد نُسف منذ بضعة ايام : وكانت زوجته موجودة فيه ، وكانت ما تزال جريحة . وكانت الجادة سوداء من كثرة الناس ، ولكن كانت تسدّها ، من ناحية « الباستيل » ، فرقة من الشرطة . ولم أفهم تماماً ما الذي حدث — فالمظاهرة اشبه بمعركة « واترلو » ، لا يعرف منها المرء الا اجزاء — فقد خرجنا الى شارع سانت انطوان ، من الجانب الآخر من سدّ الشرطة ؛ وكان « بورديه » يبدو مرحاً جداً ، تحت قبعته المروّسة المدهشة ، وقد تناول ذراع سارتر قبل ان يختفي في الموكب الكبير الذي كان يسير بانتظام ، محتلاً الطريق والأرصفة ؛ وكان يسير على رأسه مستشارون عامّون وبلديّون يحملون اللافتات . وكانت سيارات الشرطة والدركيون المصطفّون على طول الأرصفة ينظرون الينا من غير ان يتحركوا . وفجأة ، عند مدخل محطة سان — بول للمترو ، أُخذنا في اضطراب هائل : كانت الجموع امامي تتراجع ، ولكنها من الخلف كانت مستمرة في التقدم وهي تصيح : « لا تتراجعوا » !! وكنت أختنق ، وأترنّح ، وكان حذائي الايمن قد ترك قدمي التي كانت عشرات الأقدام تدوسها ؛ وكنت أخشى ان أُداس بالأقدام ، وكنت متشبّثة بذراع سارتر الذي لم اكن اريد ان أتركه ، وهذا ما كان يقيّد حركاتي ، وقد أحسستني أمتقع ؛ اما لانزمان فكان يتنفّس خيراً منا ، لأنه كان اطول منّا : وقد ساعدّنا على ان نتجه الى طريق معترضة ، حيث لم يكن بامكاننا كذلك ان نتحرك لأن عدداً من الناس كانوا قد لجأوا اليها . وجلست مع سارتر في مقهى صغير بساحة « الفوج » ، وجاءتني « بيانكا » بجورب من صوف ، وكان ذلك من حسن الحظ ، لأني مشيت ساعة قبل ان نجد سيارة قال لنا سائقها في انزعاج : « انهم يسدّون جميع الطرق ». وكانت المخابرات التلفونية ذلك المساء أقلّ مرحاً من مخابرات الشهر الماضي . كان بعض الاصدقاء قد داروا عدة دورات في ساحة الباستيل ، فكادوا يختنقون بالغاز المسيل للدموع ؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد وقعت اشتباكات في « ريومور سيباستوبول » : وكان ابن بويون ، وهو ممن يؤمنون باللاعنف ، قد قلب بمساعدة بعض رفاقه سيارة للشرطة وضربوا شرطياً بالعصا . وكانت بيانكا قد استقلت مترو سان – بول ؛ وعند المحطة التالية ، كان شاب يتخبّط مع أحد رجال الأمن الذي كان يدفعه الى شاحنة ، فكان يصيح : « لقد فقدت نظارتي ! دعني أعثر على نظارتي » وقد أخذ رجل الأمن يضربه ، حين هبط من المترو زهاء خمسة عشر رجلاً وهم يصيحون : « قاتل ! » ؛ وقد انقلب رجل الأمن على قفاه وارتفعت قدماه ، ولكن بعض رجال الأمن الآخرين أتوا لنجدته . وأراد عدة ركاب ان ينزلوا ويشاركوا في المعركة ، ولكن السائق أغلق الأبواب . وحين حاولت بيانكا ان تفتح باباً ، استوقفها رجل يحمل مزلاجاً على كتفه وهو يقول بصوت آت من عالم آخر : « ما عسى ذلك ان يجدينا ؟ » وفي اليوم التالي عرفنا ان الشرطة قد انقضّت فجأة على رأس المظاهرة وضربت بعض الأعيان الذين كانوا يحملون لافتات . وقد وقع جرحى عديدون بحالة خطرة ، وداس المتظاهرون في فرارهم على بعض النساء بينما كانت تلك المظاهرة السلمية تقوم ضد اعداء الحكم . وقد كتب بورديه مقالاً يقول في آخره : « في المرة القادمة يجب ان نتسلّح » .

كان العهد يلعب لعبة منظمة الجيش السري ، وكانت البلاد تقرّ العهد ، باستثناء أقلية . صحيح ان المفاوضات كانت قائمة ، ولكن التعذيب كان مستمراً . وقد كتب مورياك يقول : « إن حركتي الأولى ليست هي بعدُ ان أحتجّ كالماضي ، حتى ولا ان أصرخ ، لأنّ ذلك يجري تحت رئاسة الجنرال ديغول » .

كان ملجأنا الوحيد العمل . وكان سارتر قد عاد الى دراسته عن فلوبير التي كان بدأها منذ اعوام ، وكان يكتب باجتهاد ضارٍ . وقد شارك ، في قاعة « الموتوياليتيه » بندوة عن « ديالكتيك الطبيعة » مع فيجييه وغارودي وهيبوليت ، وبدا ان المستمعين الستة آلاف قد تحمّسوا للموضوع كثيراً .

ولكنه لم يكن يستطيع في عشرين دقيقة ان يعطي الا فكرة مقتضبة عن نظريته ، وكنت أفضّل أن يمتنع عن ذلك . اما انا ، فقد وصلت الى اعوام ٥٧ — ٦٠ ، وتاريخ هذه الحقبة الكريهة كان شديد الانسجام مع هذا الخريف الكريه . ولم يكن مزاجي يحتمل السهر ليلة رأس السنة ، فظللت قابعة في مسكني المعتم . وليلة ٣١ كانون الأول ، تحدّث ديغول ، فأطفأت الراديو بعد دقيقتين ، منزعجة بتلك النرجسية العصابية ، وذلك الفراغ الفخم . وحوالي منتصف الليل ، سمعت حفلة من الزمامير : كانت سيارات كثيرة ، تعدّ بالمئات ، تجري بصخب كبير ، على جادة سان جرمين ؛ وحسبت ان شيئاً ما يجري ، ولكن لا ، انما كان ذلك هو الفرح الذي لا مبرّر له ، سوى ان اليوم يوم عيد ، وان الناس يملكون سيارات . وتناولت اقراصاً من البيلادينال حتى لا أسمع بعدُ هذا الجذل العدوّ ، جذل الفرنسيين ، القتلة والجلاّدين . « كم كنت أحبّ تلك الليالي ، في جادة مونبارناس ، تحت بُهرة الأضواء والضحكات والصراخ ، كم كنت احبّ الجموع وأعيادها ، يوم كنت في العشرين ، يوم كنت في الثلاثين » .

في مطلع كانون الثاني ، تناولنا العشاء مع جياكوميتّي وزوجته اللذين صحبناهما من منزلهما . وكان جياكوميتّي جالساً ، ونظارته على أنفه ، امام مسند ، وهو يرسم صورة رائحة « لانيت » بالرمادي والأسود ؛ وكان ثمة صور اخرى مستندة الى الجدران ، بالرمادي والأسود ؛ ودهشت من لطخة حمراء على خشبة الألوان ؛ وضحك جياكوميتّي وأراني اللوحة : كانت اربع علامات حمراء تشير الى موضع الكرسي الذي كان النموذج سيجلس عليه . وكالعادة ، كانت التماثيل المغلّفة بأقمشة مبتلّة تثير فضولي . وقد كان جياكوميتّي في الماضي ينحت الوجه البشري في عموميته ؛ اما منذ عشر سنوات ، فهو يسعى الى جعله فردياً ، ولم يكن قط راضياً عن عمله . وقد كشف احد التماثيل ، فرأيت وجه « أنيت » بمثل كثافة أعماله السابقة وضروريتها وكان نجاح التمثال من الوضوح ، ومن البساطة في الظاهر ، بحيث يتساءل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرء : « لماذا اقتضى نحته عشرة أعوام ؟ » وقد أقرّ أنه لم يكن مستاءً . وقد بدا لي ، لمدة لحظة ، هاماً ان يخلق الانسان شيئاً ما بالجصّ او بالكلمات .

قرأت رسائل « السيدة ز » للكاتب البولوني « برانديس » ؛ وقرأت مخطوطة كوليت اودري : « وراء مقصورة المسرح » ومخطوطة غورز « الشيخوخة » وهي ثلاثة كتب مختلفة جداً ولكنها جميعها حرّة ومباشرة ؛ وكانت تلقيني في قلب تجربة أجنبية تُريحني من نفسي ، فيما هي تحدّثني عمّا يهمّني .

وذات ليلة ، عند الساعة الثانية صباحاً ، استيقظت على ضجة هائلة ؛ ووجدت سارتر على الشرفة فقال لي : « لقد عرفوا مكاننا » وكان دخان يصعد من شارع سان غويوم ، وكانت ألواح خشبية مقذوفة وسط الشارع ، وكان يُسمع في الصمت صوت شظايا زجاج يتساقط – ولم يكن ثمة من يتحرك . وبعد عشر دقائق ، اضيئت انوار البيت المقابل ؛ وظهر رجال ونساء في « الروب دي‌شامبر » وقد تزوّد كل منهم بمكنسة ، فنظّفوا شرفاتهم الملآى بالشظايا ؛ولم يتبادلوا اية كلمة ، بالرغم من انهم كانوا يقومون بالحركات نفسها . وخرج بعض البوابين بمناماتهم وفوقها معاطف . واخيراً ، وصلت سيارات الشرطة والاطفائية . وارتديت ثيابي ، وهبطت : كان حانوت بيع القمصان متناثراً ؛ وناداني شرطيّ وتبعني حتّى باب الشقّة : لقد رآني اني كنت أفتحه ، فلم يطلب مني اوراق هويتي ، ولكني كنت قد شعرت بالضيق . اتراهم كان يقصدون حانوت القمصان ؟ اي اتفاق غريب ؛ كلا ، بل كانوا يقصدوننا ؛ وإذن ، فان منظمة الجيش السري قد استعلمت عنا جيداً . وفي الساعة العاشرة صباحاً ، جاء « كاود فو » لرؤيتنا ، وكان منزعجاً : لا شك في ان قنبلة البلاستيك كانت مهيأة لنا . وتلفن لانزمان : فكان رأيه مثل ذلك . وكنّا نفكر بأننا سنضطر للانتقال الى منزل آخر ؛ وكنّا نرتجف برداً لأن التدفئة كانت مقطوعة ، وكانت اعصابنا ثائرة . وقد عزّانا ان نعرف ان المحاولةكان يقصد بها « رومولي » ، وهو فرنسي من أصل

جزائري كان قد رفض ان يجمع المال لصالح منظمة الجيش السري . وكانت لافتة كبيرة معلقة في واجهة محله : « حانوت مضروب بقنبلة البلاستيك ، البيع مستمر » وفي جميع طوابق البيت المقابل ، كان زجّاجون يركّبون ألواحاً جديدة ، وكان المستأجرون يُرون في منازلهم وهم معزولون في قلب مغامرتهم المشتركة .

ومرّت ثلاثة أيام ؛ وتلفن « فو » حوالي الحادية عشرة ليلاً ليقول إن جريدة « ليبراسيون » قد أخبرته ان منزل سارتر في ٤٢ شارع بونابرت قد نُسف . وتلفن « فو » بعد ذلك بساعة ولم يكن يضحك حين قال : « لقد كانوا يريدون جلدكما » لقد قال للشرطي الذي كان يحرس البيت بعد نسفه : « انني سكرتير سارتر . ومعي المفاتيح . » فقال له الشرطي : « لا حاجة بك الى مفاتيح » ذلك ان قنبلة البلاستيك كانت قد وُضعت فوق بيت سارتر ؛ وقد هُدمت شقّتا الطابق الخامس ، وكذلك غرف السادس ؛ اما شقة سارتر فلم تتأثّر الا قليلاً ، ولكن الباب قد نُزع ، وتطايرت قطع الخزانة النورماندية التي كانت موجودة في المدخل ؛ وكان السلّم ، ابتداء من الطابق الثالث ، متدلّياً في الفراغ ، وكان الجدار منهاراً . وتلفنت ايفلين لتخبرنا انها سمعت الانفجار فيما كانت مارّة بالسيارة في الساحة ، فهبطت واختلطت بالناس الذين تجمعوا امام باب البناية ، من غير فضول تقريباً . وقال شاب : « لو كان يحبّ الدعاية ، لهبط ليعطي توقيعه للناس » وكانت القنبلة جواباً على الاجتماع الذي كان سارتر قد عقده في روما . وقد قصدت في اليوم التالي الى المنزل بصحبة بوست لآخذ فكرة عن الاضرار ، فصاح احد المستأجرين خلفي ، وهو خمسيني غنيّ ، فيما كنت اجتاز الساحة الملآى بالبقايا : « هذه نتيجة تعاطي سياسة تزعج الناس ! »

وصعدنا الى الشقة من سلّم الخدم ، فالتقينا بمستأجرين كانوا يحملون حقائبهم ، فوجدنا الخزانة قد اختفت ، والسلّم مفتوحاً بشكل مريع لم أصدّقه ؛ وفي المنزل ، كانت الأوراق تملأ الارض ، وكانت الأبواب منتزعة ، وكانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجدران والسقوف والأرض الخشبية مغطّاة بما يشبه الشحم : إن سارتر لن يستطيع ابداً ان يقيم هنا ثانية ، وكان هذا جزءاً آخر من ماضيّ يهرب . وقد تلقّى سارتر كثيراً من رسائل التعاطف والبرقيات والمخابرات التلفونية الّتي نقلها له « فو » وقد تظاهر بعض الاصدقاء تحت نافذته وهتفوا : « منظمة الجيش السري : منظمة القتلة والمجرمين ! » وفي المطعم ، اقترب أحدهم ومدّ يده يقول : « برافو ! سيد سارتر ! » .

وبعد ذلك بأيام ، كان سارتر قد هبط ليشتري الصحف حين طُرق الباب ، فقال لي رجل سمين وهو يريني إشارته : « مفوضية الشرطة ، انني أبحث عن شخصية .. عن كاتب ... » فسألته : « من تعني ؟ » فقال : « ربما قلت لك اسمه فيما بعد .. انه يسكن البيت .. ولكن بما انه ليس ثمة بواب ... هل تعيشين وحدك ؟ » فقلت : « نعم » فلم يقرّر الذهاب . وسمعت وقع خطوات على السلم ، فسألته : « اي كاتب تعني ؟ » فقال « السيد جان بول سارتر » فقلت حين ظهر سارتر : « هوذا » . وشرح الشرطي يقول : « لقد طُلبت حماية للسيد جان بول سارتر . » وكان ذلك بمبادرة من السيد « بابون » ؛ وقد كان يؤمّن بصورة غريبة حماية بعض « الشخصيات » ؛ فسيكون ثمة امام البناية شرطي طوال النهار ، على ان يخبره سارتر عند المساء حين يعود نهائياً الى المنزل : واذذاك يذهب الشرطي . وقال سارتر : « ولكن لن يكون من شأن ذلك إلاّ ان يُرشد الناس إليّ ! » فقال مبعوث مفوضية الشرطة : « هذا صحيح » ذلك أن واضعي قنابل البلاستيك يعملون ليلاً ؛ واضاف في لطف : « انهم على اي حال لا يأتون وفي ايديهم حقيبة : بل رزمة صغيرة في الجيب ، لا اكثر ولا اقل » وختم حديثه وهو يستأذن : « اذا قررتم الانتقال ، اخبروا الحارس » واضاف بلهجة تواطؤ : « ولكنكم لستم بحاجة لأن تقولوا له الى اين انتم ذاهبون . » وهكذا وُضع شرطيان امام بابنا ، ابتداء من تلك اللحظة ؛ وكانا يثرثران مع الشرطيين اللذين كانا يسهران على « فردريك دوبون » على بعد عشرين متراً منا .

ولم يكن ثمة ما يدهش في ان تكون الشرطة قد عرفت عنواننا : فان الرسّامين والمهندسين والعمال الذين كانوا يعملون في السلّم ، وكذلك وكيل المباني ، كانوا يعرفون من نحن ؛ واراد اصحاب البناية ، حين عرفوا ، ان يطردونا . فوافقناهم : وكانت الشرطة تظهر لنا كثيراً من المساعدة . وصباح اليوم الذي تبع ليلة الثماني عشرة محاولة للقتل ، زارنا شرطيان بثياب مدنية ، وكانا يدعوان سارتر بـ « المعلم » وأعطياه رقم تلفون المفوضية التي ينبغي طلب نجدة منها في حال الخطر . وعلّقا على اعتقال الشابين القادمين من « سير » واللذين فوجئا وهما يضعان قنبلة بلاستيك : « انهما ينتميان الى عائلة محترمة ! لقد بتنا لا نفهم ! » .

والواقع ان ابناء العائلات المحترمة ، كانوا « ينفقون » أنفسهم كثيراً ؛ ففي الجزائر ، كانوا قائمين بالارهاب : من سرقة سلاح ، واختلاس مصارف ، واطلاق نار الرشاشات ، والقتل وقنابل البلاستيك ... وفي « بون » نُسف بيت لسكان مسلمين . وفي باريس ، كان يُسمع كل يوم تقريباً اصوات انفجارات . وفي محلة « كي دورسيه » انفجرت قنبلة فقتلت رجلاً وجرحت خمسين . وفي هذه الأثناء ، كانت محكمة « رويي » العسكرية تبرّىء ثلاثة ضباط كانوا يعترفون بأنهم عذّبوا امرأة مسلمة حتى الموت : وقد أحدثت هذه الصراحة لوناً من الاستياء في الصحف .

تناولنا الغداء في بيت « ماسون » مع « دياغو » و « الابكور » اللذين خرجا حديثاً من السجن ؛ وكانا يجدان مشقّة في الانسجام مجدّداً مع العزلة البورجوازية : لقد خسرا مرةً واحدة ستمئة صديق . وكان دياغو يقول : « إننا نجد صعوبة في رؤية الناس . فيجب ان نكتب اولاً او نتلفن لنأخذ المواعيد . اما هناك ، فلم يكن لنا الا ان ندفع باباً . » .

وفي اليوم نفسه الذي تركنا فيه جادة سان جرمين ، ألقيت قنبلة بلاستيك اخرى على حانوت رومولي : ومن جديد ، حُطّم زجاج المستأجرين في البناية المقابلة ، واصيب البعض بنوبات عصبية . وكان وكيل المباني قد وجد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لنا شقة في محلة «بليريو» في ثكنة كبيرة (كان يختبيء فيها كما عرفنا فيما بعد عضوان قاتلان من منظمة الجيش السري)؛ وكانت شقة عالية، واسعة، ذات فتحات كبيرة تشرف على السين. وحين كنت أستيقظ، كانت شمس حيّة تغرق الأرض الخشبية؛ ومن النافذة، كانت تدخل رائحة ريف، وكان لدي ما أنظر اليه حين كنت أعمل: فقد كانت أغصان الدلب السوداء تشفّ عن واجهات هندسية، على الضفة الاخرى، شبيهة بالواجهات التي تبدو في لوحات «بوفيه»؛ وفي الليل، كان الماء يتلألأ، شديد السواد، فيمدّد الاضواء الخافقةاو يطيلها او يكسرها او يعيد تأليفها. وأتى الثلج نقياً على الزوارق الجامدة، وعلى الضفات المهجورة؛ وكانت الشمس عند الظهيرة تجعل الشمس يلتمع، وكانت امواج النهر تبرق تحت لمسات الطيور. ومن المطبخ الذي نتناول فيه طعامنا عادةً، كنا نكتشف «حيّزاً كبيراً أخضر» كان يُستعمل ايضاً كمرأب. وكنا نرى رجل «المنظمة» وسيدته يعيشان على الشكل الذي صنعتهما عليه فرنسا، بعد اميركا: كان هو يذهب الى العمل، وكانت هي تذهب للتموّن صباحاً، فتُخرج كلبها (الذي كان زوجها ينزّهه عند المساء) واولادها بعد الظهر. اما يوم الأحد، فكان يُلمّع سيارته، وتذهب العائلة الى القداس، او في نزهة.

كان معظم الصحفيين ورجال السياسة والكتّاب والجامعيين اليساريين قد تعرّضوا لمحاولات اغتيال. وفي اليوم التالي لظهور كتاب «جميلة بوباشا» الذي وضعت عليه اسمي الى جانب اسم جيزيل حليمي لاشاركها في مسؤوليته، قصدت بيتي لآخذ بريدي، فأخبرني البوّاب وزوجته انهما لم يغمضا اعينهما، ذلك انهما كانا قد تلقّيا مخابرة تلفونية: «حذار! حذار! إن سيمون دو بوفوار ستُنسف هذه الليلة!» وقد كان البوّاب من القنّاصة والانصار سابقاً، وكان يسارياً وكذلك زوجته، وكنت أعرف انهما سيفعلان كل شيء لحمايتي، ولكني كنت اودّ ان يستطيعا النوم في الليالي التالية. ولكن الشرطة رفضت ان تساعدهما؛ لقد كانت منظمات الرقابة الخاصة تكتفي بالعمل من بعيد

لبعيد . وقد ظلت جميع مساعيّ طوال خمسة ايام لامجدية ؛ وأخيراً ارسل « اتحاد الطلاب » بعض طلابه ليقضوا الليل في منزلي ، وكان بينهم « بنوا راي » الذي أعاره البواب ذات مرّة مفتاحاً انكليزياً ؛ واذ كان يروح ويجيء امام المبنى ، اقتاده بعض رجال الشرطة الى النظارة ، بتهمة حمل سلاح ممنوع ؛ وقد بذل ناشره « ليندون » المساعي فأطلق سراحه بعد خمس ساعات ؛ وظلّ محكوماً بحكم السجن ، ولكن المحكمة برّأته في حزيران .

وقد رأى حرّاسي الشبّان ، وهم يُطلّون من النوافذ ، ويترصّدون الباب ، عدة سيارات مشبوهة كانت تمرّ في الليل ؛ ولا شك في ان المنزل قد نجا من التهديم بفضلهم . وذات ليلة كانت ايفلين نائمة في شقتها بشارع جاكوب حين سمعت انفجاراً ، فقالت في نفسها : « لا شك في اني احلم طوال الليل بالبلاستيك » وصاح أحدهم في الشارع : « منظمة الجيش السري ، منظمة القتلة والمجرمين ! » وهبطت بمنامتها ومعطفها . فاختلطت مع جماعة — بينهم بعض بائعي التحف من شارع جاكوب — كانوا يتظاهرون امام دار « سوي » التي القيت عليها القنبلة فأحدثت فيها اضراراً . واقترب مفوّض الحي يقول : « اسكتوا ، إن هناك ناساً ينامون ، وهناك مرضى ، وسوف توقظونهم » وبعد بضعة ايام ، جُرح « بوزنر » جراحاً بليغة ، فقد تحطّم رأسه ، وفقد ذاكرته ، واجريت له عدة عمليات ، وقضى بضعة أشهر حتى شُفي .

وكان سارتر ولانزمان يخصصان كثيراً من وقتهما لتحضير جلسات « الجامعة » . وكانا مع شوارتزر وكثيرين آخرين يفكرون بضرورة محاربة لامبالاة البلاد وانجرافها نحو اليمين بعمل جماعي جذري ، ولم يكن الشيوعيون موافقين . كانوا يصرّون على توجيه النضال ضد منظمة الجيش السري وحدها . وكانوا يخشون أن تتصل « الجامعة » بلجان الاحياء فتكون لها أهمية سياسية : وكانت تريد ان تحدّ الانتماء اليها بالمثقفين وحدهم . ولكن سارتر كان يرفض ان يدع نفسه يُحبس في عُزلة . ولم يكن يجد لدى الشيوعيين « المنفتحين » التأييد الذي كان ينتظره ؛ فقد كانوا يقولون « انك توشك ان تسيء علاقتنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالحزب » وكان في ذلك عنصر ايقاف وابطاء للعمل ، ففكّر في ان يقدم استقالته .

ويوم ٨ شباط ، تناول الغداء مع شوارتز وبانيجل فناقشوا هذه المشكلات ؛ وقد لحقت به الى المقهى . وكان المفروض ان تقوم بعد ظهر اليوم مظاهرة ضد منظمة الجيش السري احتجاجاً على المحاولة التي ادت الى اتلاف احدى عيني الطفلة « دلفين رينار » . وقد تقرّرت هذه المظاهر ة عشية الليلة السابقة ، فلم يتمكن احدٌ منا من المشاركة فيها . وصباح اليوم التالي ، تلفن لانزمان : خمسة قتلى في ساحة الباستيل ، بينهم فتى في السادسة عشرة ، وعدد من الجرحى جراحاً خطرة . وفي النهار روى بعض الشهود المذبحة . فقد صرخ احد حاملي الأوسمة من الشرطة حين كان المتظاهرون يتفرقون : « لم يبق بعدُ الا الشيوعيون ، فاهجموا عليهم . » وانقضّ رجال الشرطة ؛ وكانوا الناس قد انحشروا على سلالم محطة شارون للمترو : فألقى عليهم رجال الشرطة حواجز أخذوها من تحت الأشجار . وكان ان « خُنق » الفتى خنقاً . وقد قال احد رجال الشرطة لرفيق له كان يبكي : « لقد مات وهذا ما يجعلك تتقدم كثيراً » ونشر عدد كبير من الصحف تقارير مفصّلة عن هذه المذبحة ؛ ومع ذلك ، فقد أخذ اليمين الفكرة التي أشاعتها الحكومة من أن « الجموع قد خنقت نفسها » .

وقرّرت النقابات أن تجعل من الدفن مظاهرة كثيفة . فاضطرت الحكومة الى الموافقة . وتواعد بعض اعضاء « الجامعة » ، وكنا منهم ، على اللقاء في الساعة التاسعة عند « بورس دوترافاي » حيث كانت النعوش معروضة . وكان المفروض ان تكون السيارات العمومية نادرة (وكنت قد تحدّثت الى سائقة سيارة فقالت لي : « اوه ! كلا ! الجماهير ... لقد أخذني زوجي يوماً الى « الكرميس اوزيتوال » ففهمت ! ») وكان المفروض ان يأتي لانزمان فيأخذنا في الساعة الثامنة والنصف . وقد كنّا نرى من المطبخ ، منذ الساعة الثامنة ، باقات كبيرة واكاليل ضخمة تمرّ في جادة فرساي وهي على ظهور السيارات . ووصل لانزمان متأخراً في سيارة اجرة ، بعد ان تعطّلت سيارته .

وكان تعرقل السير شديداً حتّى ان السائق أنزلنا عند مدخل احدى محطات المترو . وكانت الساعة العاشرة حين هبطنا الى ساحة « لاربوبليك » : وابتداء من تلك اللحظة ، توقّفت وسائل النقل عن العمل ؛ وكان جميع العمال الفرنسيين مضربين . وكانت جماهير غفيرة تزدحم على الأرصفة ، خلف الحواجز ؛ وكانت جماعات كثيرة العدد تحمل الأكاليل الحمراء وهي تتجه نحو « بورس دوترافاي » وقد دخلنا القاعة التي كانت الوفود منتظرة فيها ، ونودي عليها ، فكان بينها كثير من الشيوعيين ، ومن الحزب الاشتراكي الموحّد : ولم يكن ثمة وفد اشتراكي . وأخذنا مكاناً لنا في الموكب ، خلف السيارات التي تحمل النعوش . وفي الساحة ، كان ألوف من الناس ينتظرون ، صابرين جادّين ، اللحظة التي ينضمّون فيها الى الموكب . وفي جادة « تامبل » صعدت احد السقوف ، فلمحت السيارات المغطّاة بالزهور الحمراء ، والجادة السوداء والحمراء ، مع مسافات بيضاء بين فرق الرجال المتحركة ؛ وخلفي كانت الجموع لا تنتهي؛ وكانت اكثر عدداً من جموع بكين في عيد اول تشرين : سبعمئة ألف شخص على الاقل . إن الناس يمشون ، حين تتفق النقابات .

كانت الحكومة قد أسالت الدماء لتفرّق خمسين ألف متظاهر : فكانت مجبرة على ان تترك سبعمئة ألف يسيرون في المدينة المضربة . ولم تكن هذه الجموع الصامتة المنظمة لتستغلّ حريّتها لتغرق باريس في النار والدم ، فان احداً لا يُخنق ولا يُداس عليه ، اذا لم تستعمل الشرطة هراواتها . وقد كان عدد من المناضلين يؤمّنون على طول الطريق نظاماً ممتازاً ، وكانت ريحٌ شديدة تصفع الشجر المسودّ تحت سماء سوداء ، في ضوء من العاصفة ؛ وكان يهطل ثلج ذائب كان يجلد اقدامنا ؛ وكنا نمشي ، مرتعشين برداً ، ولكن هذا الحضور الهائل فيما حولنا كان يدفئنا . وكنت ارجو ان يكون هذا الحضور بالنسبة لذوي الضحايا ، عزاءً وعوناً ، وان يمنح حدادهم معنى . اما بالنسبة للموتى ، فان هذا االتمجيد ، كان في مثل خشونة الموت . « دفن جميل » :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إن حياة برمتّها تهيئه إجمالاً ، حتى ان الميت فيه يكون حاضراً ، على نحوٍ ما . اما في هذه الحالة ، فلا . إن الموتى ، حتى من عكس غيابهم هذا ، غائبون .

حين وصلنا امام « لوبير ــ لاشيز » ، أصبحت السماء زرقاء . وكان ثمة رجال يطلّون من فوق جدار المقبرة ، وآخرون واقفون على القبور . واستمعنا ، ونحن جامدون الى « السلام الجنائزي » لبيتهوفن . وكانت الريح تداعب الأغصان السوداء كما لتجعل هذه اللحظة اشد مأساوية . يا إلهي ! لقد سبق ان احتقرت الفرنسيين كثيراً ! فكانت هذه الاخوة العائدة تهزّني هزّاً . ولكن لماذا جاءت متأخرة الى هذا الحدّ ؟ وتحدثت دومينيك فالون باسم « الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين » كما تحدث سكرتير « اللجنة الفرنسية للعمال المسيحيين » فذكّر الحضور بمذابح ١٧ تشرين الاول ، وألقيا على الحكومة تبعة مجزرة ٨ شباط . وكان الجميع يبدون وهم مؤيدون لهذين الخطابين ، وتساءلت : لو ان الحزب الشيوعي والنقابات كانت قد جنّدت القاعدة ضد حرب الجزائر ، أما كانت قد حذت حذو تلك اللجنة وذلك الاتحاد ؟ لا شك في انه ينبغي ألاّ تُلتمس المعاذير في الظروف ، والبُنيات ، والدوّامات ، واختلاف الطبقات ؛ ولكن لا ريب في انه كان ثمة ارادات طيبة كانت تظهر هذا الصباح ، وكان قد فُرّط بها . ولم اكن ادري ان كانت هذه الحقيقة تقوّيني ام تحزنني .

اجتزنا المقبرة . وكان جبين فكتور لودوك متلألئاً بآثار الجروح : ذلك انه كان قد ضُرب يوم ٨ شباط ضرباً شديداً بالهراوات . وكنّا نمشي بين القبور الرخامية التي كانت تحمل اسماء بورجوازية كبيرة ؛ وكانت ثمة صور نساء نصف عاريات يعزفن على القيثارات او يرفعن الى السماء أذرعاً مبتهلة . وتوقفنا قرب جدار « مور ديفيديريه » ، الى جانب سجادة هائلة من الزهور البيضاء والحمراء . وظلّ أشخاص يمشون في العرض حتى ساعة الإغلاق ، قبيل المساء . ولم تستطع الصحف ان تقلّل من شأن الحدث ، فقررت الاعتراف بأهميته ، ولكنها نقلته الى صالح الحكومة ، كما لو أن قَتَلَة « شارون »

كانوا مجرمي « منظمة الجيش السري » لا خادمي العهد الاوفياء.

وكانت الجلسة قد عُقدت يوم الأحد في « غرانج اوبيل ». وكان اجتماع بعد الظهر عاصفاً. وكان سارتر وأصدقاؤه قد خضعوا للشيوعيين في احدى النقاط ؛ وكانت نتيجة مناقشاتهم تسمية الحركة باسم « جبهة الجامعيين والمثقفين والتنسيق من أجل تجمّع مناهض للفاشية » ولكن سارتر واصدقاءه استطاعوا ان يقنعوا الجبهة بأن تعلن ، عند نهاية الاجتماع ، تضامنها مع الجزائريين ، وعزمها على ان تكافح في وقت واحد ضد العهد وضد منظمة الجيش السري. وبعد ذلك بأيام ، عُقدت جلسة حضرتُها. ومن جديد تناقش المجتمع طوال ثلاث ساعات حول تعريف « الجبهة » في قاعة مليئة بالدخان تتسع لثلاثين شخصاً وكان الحضور ثمانين. ولم يتخذ شيء حاسم بشأن العمل الواجب اتباعه ، لا في ذلك اليوم ، ولا في الأيام التالية.

كانت المحادثات حول السلام قائمة ، وقد كتب للانزمان احد أصدقائه الجزائريين عن هذا السلام فوصفه بأنه « السلام بأي ثمن ، والذي نبصق عليه ». وقد قرأنا مساء الأحد في ١٨ ، في زاوية من جريدة ، أن هذا السلام قد وُقّع ، فلم نُحسّ من ذلك أية فرحة. إننا لم نكن قد انتهينا من الجيش ، ولا من الفرنسيين المقيمين في الجزائر. ولم يكن انتصار الجزائريين يمحو هذه السنوات السبع من الفظائع الفرنسية التي انبسطت فجأة تحت الأضواء. وقد كان أحد الذين مارسوا التعذيب ، ويُدعى « سانشيه » ، قد برّأته محكمة « رويي » ، ولكنه غضب لأنهم ارادوا ان ينتزعوا منه كرسيّه كمعلم ، فصرّح بقوله : « انّهم يريدون ، من خلالي ، مهاجمة التعذيب ! » وكان جميع سكان القرية يؤيدونه بحجّة أن « التعذيب واردٌ دائماً في الحرب ... » لقد كان الفرنسيون الآن يعرفون ؛ ولم يكن ذلك ليغيّر من الأمر شيئاً ، لأنهم كانوا قد عرفوا دائماً. وقد كان يُقال لهم في تكرار : « انتم كالألمان في عهد النازية ! » فكانوا يجيبون ، وقد سمعت ذلك بأذنيّ ، وكان هذا هو الشعور العام : « نعم ، يا للألمان المساكين ! اننا ندرك الآن انها لم تكن غلطتهم ! »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومع ذلك ، فما معنى هذا الدفن ؟ الحق ان الانانية الجماعية غير مرتبطة بالنفسية ، بل بالسياسة . وقد كان الباريسيون يتعرّفون في ضحايا ٨ شباط « ضحاياهم » .

كان سارتر قد قبل ان يعقد في بروكسل اجتماع عن الجزائر والفاشية . وقد نقلنا اليها بوست بالسيارة . ولما كان في بلجيكا كثير من الفاشيست الفرنسيين ، الى جانب فرق اليمين المتطرّف . فقد كان اتخاذ بعض الاحتياطات مفيداً . وكان المنظّم الرئيسي للاجتماع ، وهو رجل في الخامسة والثلاثين كان يُدعى « جان » ، قد عمل طوال أعوام على تسهيل عبور الحدود للجزائريين ؛ وقد كان معتاداً على اوامر الأمن الدقيقة ، فطبّقها على سارتر . وقد دلّنا بالتلفون ، عند لحظة السفر فقط ، وبلغة مناسبة ، على طريقنا . وفي « روكروا » ، صعد سارتر مع لالمان ومع « ل » ، وهو شاب شيوعي أسمر ، سيارة بلجيكية كانت تحيط بها سيارات ملآى بمناضلين مسلّحين . وحلّ محلّ سارتر ، بيني وبين بوست ، شاب شيوعي أشقر ، وقال لنا : « إن الوضع مزعج جداً في هذه الفترة . إن هناك وحدة العمل ، كما تعرفون : وهذا يعني ألواناً من التجاذب » وتوقّفنا عند « جان » لمقابلة قصيرة على التلفزيون ، ثم سرنا سيراً متعرّجاً زهاء نصف ساعة عبر المدينة قبل ان نذهب لتناول العشاء لدى « ل » وزوجته . وكانا قد دعوا عدة ممثلين لليسار البلجيكي والمحافظ الذي كان قد قبل بعقد الاجتماع في دائرته ، بالرغم من بعض ألوان الضغط التي تعرّض لها . وفي اثناء الطعام ، غادر جان المائدة ؛ وبعد لحظة ، وصلت الخادمة تقول مذعورة : « لقد سقط السيّد في الحمّام ! » كان قد أغمي عليه فشجّ رأسه بالمغطس عند سقوطه . وقد قال لنا في اليوم التالي بخجل : « لقد تصرفت تصرّف انثى صغيرة ! » والواقع ان أصدقاءه كانوا يعتبرونه بطلاً . وكانت المجازفات التي تعرّض لها والمسؤوليات التي تحمّلها ــ باعتبار ان الجزائريين كانوا مصممين كلما عبر احدهم الحدود على ان يبيعوا جلدهم غالياً جداً ــ قد استنفدت قواه . وبتنا الليلة في منزل

« لالمان » ؛ وحين هبطنا لنتناول الفطور ، علمنا ان حرّاسنا من الشبان كانوا قد قضوا الليلة في الممرّ ووضعوا مسدساتهم في احدى المزهريات .

وانعقد المؤتمر مساء في الطابق السادس من بناية ، في قاعة كانت تضمّ ستة آلاف مستمع ؛ وكان حول المركز عدد كبير من الشرطة ، وفي المراتب وحول منصة الخطابة : وأعلن رئيس الشرطة انه قد أخذ بمنطق سارتر الذي قام بعرض واسع ولكنه قاس ؛ وكان يجد صعباً ان يتحدث الى البلجيكيين الذين كانوا اكثر علماً من ان يكتفي بأخبارهم ، ولكنه لم يكن يشعر معهم بالمشاركة التي كان يحسّها مع الجمهور الفرنسي : وقد أخذ عليه عديدون –كما أخذوا عليّ في العام الماضي – أنه لم يعالج « مشكلاتهم » . وكان لالمان منحازاً الى يسار الحزب الاشتراكي البلجيكي ؛ وكان لا بدّ من إقامة التوازن : فبعد ألف دورة ودورة ، وألف حيلة ، ذهبنا نقضي الليل في منزل مناضل شيوعي . وتحدثنا في اثناء العشاء عن محاولات الاغتيال العديدة التي ذهب رجال اليسار البلجيكي ضحيتها . وروى لنا البروفسور « ج » ان زوجته كانت قد تلقّت طرداً شبيهاً بالطرد الذي سبق ان قتل زميله : نسخة ملغومة من « سياسة اشاعة السلام » ؛ وقد شمّت رائحة مشبوهة في الطرد ، فوضعته وسط الحديقة .

في اليوم التالي واكبنا اصدقاؤنا حتى الحدود ، عن طريق « وادي الموز » الذي كان الربيع قد بدأ يتنفّس فيه . وحين تركنا الشاب « ل » سأل بوست : « اي سلاح تحمل ؟ » فقال له بوست : « لا أحمل سلاحاً » فقال « ل » وقد انزعج من الخفّة الفرنسية ، ولكنه اضطرب قليلاً : « لا بدّ ان تكونوا قد وجدتمونا إذن مجانين » . والحق انا كنّا جدّ متأثرين ان يكونوا قد دفعوا حسّ مسؤوليتهم الى هذا الحدّ .

وحجرت على نفسي من جديد . وكانت تأتينا عن طريق بوست ، في شارع سان جرمين ديبريه ، اصداء محزنة . منها أن رولان كان قد اعتنق « الديغولية » على اثر ميراث أصابه : كان يملك ثروة . وكان سيبيون قد تبعه .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت آن ـ ماري كازاليس قد قضت فترة طويلة وهي ترفرف بين اليمين واليسار ؛ وكان زواجها قد أجبرها على ان تختار حلاً كانت الظروف تمنحه ثقلاً : كان اصدقاؤها اليساريون قد كفوا عن رؤيتها . اما ماضينا ، فقد ابتعد عنا كثيراً . وحين خسر بويون وبينغو راتبهما لأنهما وقعا على بيان الـ « ١٢١ » ، قام زملاؤهما بجمع المال لهما : ولكن بانييز لم يعط شيئاً . وتلفنت مدام لومير ، التي لم نكن قد رأيناها منذ وقت طويل ، الى ام سارتر بعد فترة قصيرة من نسف بيته ، فلم تتحدث قط عن هذا الأمر ، بل لقد قالت : « انت تعلمين اني انا من انصار الجزائر الفرنسية » على انها جاءت يوماً تتناول العشاء معنا عند محطة بليريو ، فقالت وهي تضحك : « آمل ألا نسف بقنبلة بلاستيك » وكانت تلك اشارتها الوحيدة . وكان الحديث مملاً .

كنت أحتقر الحيّ الذي كنت أسكنه ، وكان يتفق لي ان اقضي ثلاثة ايام متوالية من غير ان أخرج . ولم أكن أستمع بعد الى الموسيقى ، وكنت مفرطة التشنج . كنت اقرأ ، ولكن قليلاً من الروايات . وكنت مشمئزة من لا معنى الأدب ، ادبي وأدب الآخرين . لقد حدثت اشياء كثيرة منذ عام ٤٥ ، وهي لم تكد تعبّر عن شيء من ذلك . وعلى الاجيال التي تريد ان تعرفنا ان ترجع الى كتب علم الاجتماع والاحصائيات ، او حتى الصحف بكل بساطة . وما يحزنني بصورة خاصة ضروب الانحياز لما يسمى بـ « الرواية الجديدة » . وكان سارتر قد تنبأ بعودة ما كان يسميه بـ « ادب الاستهلاك » ؛ وهو ادب مجتمع فقد سيطرته على المستقبل . فقد كتب عام ١٩٤٧ : « إن ادب الانتاج [١] الذي بدأت طلائعه تظهر لن يُنسينا نقيضه ادب الاستهلاك... بل ربما تلاشى عما قريب : فالجيل الذي يتبعنا يبدو متردداً . حتى ولو نجح ادب « التطبيق » هذا في الاستقرار ، فانه سيمضي ، كما مضى ادب l'exis وربما سجّل تاريخ العقود القادمة تتابع الادبين . وسيعني هذا ان البشر سيكونون قد فوّتوا عليهم نهائياً » « ثورة » اخرى ذات أهمية أكبر [٢] »

---

(١) وهو ما سمي بـ « الأدب الملتزم » . (٢) « ما هو الأدب ؟ »

وكان يقول ايضاً عن ادب الاستهلاك : « إننا في هذا الأدب لا نلمس الكون ، بل نعبّه بالعيون وهو نيء . » وادب l'exis هو ادب ناتالي ساروت : انها تمثّل لحسابها النزعة الفرنسية البسيكولوجية القديمة ، فتصوّر ببراعة الموقف البارانوي للبورجوازية الصغيرة ، كما لو أن هذا الموقف كان يشكّل طبيعة الانسان الّتي لا تتغيّر . وتهتّم مدرسة « النظر » من جهة اخرى بأن تعبّ بالعينين الكون نيئاً ؛ وهي تطرد منه الانسان بصورة اكثر جذرية مما فعلت النزعة الطبيعية للقرن التاسع عشر . إن المفروض ان ينتصب الأثر الفني وحده وسط مجموعة من الاشياء مجرّدة من المعنى . وقد عمرت فكرة « الأثر – الشيء » مخيلة الرسامين والنحاتين والشعراء في الجيل الذي سبقني ؛ وقد دفعها مارسيل دوشان حتّى التطرّف . وتجاوزها كبار المبدعين امثال بيكاسو وجياكوميتّي . اما نظريات « التشيّؤ » ، فان الميتافيزيقا الّتي تفترضها هي من التقهقر بالنسبة للايديولوجيات العصرية بحيث انه يستحيل على الكتّاب الذين يروّجون لها ان يؤمنوا بها حقاً . ولا قيمة لنواحي النقص في نظام فلسفي اذا كانت ألوان التقصّي والاستقراء الّتي يوحي بها هي في ذاتها خصبة : فقد كان للانطباعيين والتكعيبيين مثلاً افكارٌ خاطئة عن الادراك . ولكن التبريرات والاختلاقات ، في مدرسة النظر ، تتطابق : لقد فشلت « الثورة » ، والمستقبل يفرّ ، والبلاد تسقط في الحياد عن السياسة ، والانسان يوقف ؛ فاذا تحدثنا عنه ، فسنتحدث عنه كشيء ، بل نُسقطه لصالح الأشياء ، وفق انحناءة الاقتصاديين والتكنوقراطيين ؛ اننا على اي حال نحرمه من بُعده التاريخي . وتلك هي النقطة المشتركة بين ساروت وروب – غرييه ؛ إنها تخلط الحقيقة والأمور النفسية ، بينما هو يرفض الاستبطان ؛ إنها تقلّص الظاهرية الى المظهر ، اي الى وهم الشبه ؛ اما في نظره ، فالمظهر هو كل شيء ، ومن المحظور تجاوزه : وفي الحالتين ، فان عالم المشاريع ، والصراعات ، والحاجة ، والعمل ، العالم الواقعي يتبخّر . ونحن نجد هذا الاختطاف في جميع انواع « الرواية الجديدة » . فهناك من يختار ألاّ يقول شيئاً ، فيقنع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انعدام المحتوى بالتواءات شكلية ، سارقاً فوكنر وجويس اللذين سبق ان اخترعا وسائل جديدة ليقولا شيئاً جديداً . وهناك من يتجه الى الأبدي الخالد : فيرتاد القلب البشري او عقدة المكان – الزمان . وربما أخذ الأدب نَفْسَه موضوعاً : وذلك هو شأن « بوتور » الذي يُلحّ على عدم التلاؤم المكاني والزماني للقصة والواقع . وهناك من يصوّر الأشياء في حضورها المباشر – على ما يعتقد[١] . وهم على اي حال يلوون وجوههم عن الانسان . إن روب – غرييه وساروت وبوتور يثيرون اهتمامنا بمقدار ما يعجزون عن الامتناع عن صبّ أنفسهم في كتبهم بنزعاتهم ، نزعات عظمة الجنود والتسلّط والعلاقة الشخصية بالأشياء والناس والزمن . ولكنّ احدى ثوابت هذا الأدب في مجموعه انما هي الضجر ؛ إنه ينزع من الحياة ملحها ، ونارها : إندفاعها نحو المستقبل . لقد كان سارتر يعرّف الأدب بأنه أشبه بالحفلة : جنائزية كانت ام بهيجة ، ولكنها حفلة ؛ فما أبعدنا عن هذا مع الرواية الجديدة ! انها كون ميت يبنيه تلاميذ المدرسة الجديدة (ولا علاقة لهـذا ببكيت الذي يحلّل تحت انظارنا العالم الحيّ) وانه لكون مصطنع لا يستطيعون هم أنفسهم ان يندمجوا فيه ، ما داموا يعيشون . وتكون النتيجة أن الانسان فيهم ينفصل عن المؤلف ؛ انهم يصوّتون ، ويوقّعون على بيانات ، ويتخذون مواقف : ضد الاستغلال والظلم والامتياز عامة . ثم يعودون ثانية الى البرج العاجي القديم . وقد قالت ناتالي ساروت في موسكو : « حين أجلس الى مكتبي ، أترك على عتبة الباب السياسة والاحداث والعالم : وأصبح شخصاً آخر » . فكيف يستطيع الكاتب حين يكتب ، ألاّ يضع نفسه بكليته في هذا العمل الذي هو أهم شيء عنده ؟ إن هذا الفصل بين الكتابة والذات ،

---

(١) وهذا الموقف يقود ، عند أبنـاء روب – غرييه ، الى ضروب كبيرة من البشاعـة الكتابيـة ؛ انهم مضطرون ، بسبب انعـدام الموضوع ، الى نفخ الروح في الأشياء ، فيسقطون في نموذجية محدودة ذات صفة أكاديمية بالية : من مثل الجسر الذي يتجاوز ، والأدغال التي تبتعد الخ...

وهذا اللجوء الى أشباح المطلق ، يشهدان على انهزامية تجد تبريرها في انحطاطنا . ان فرنسا التي كانت في الماضي فاعلاً ، ليست بعدُ الا موضوعاً للتاريخ : وروائيوها يعكسون هذا الهبوط .

* * *

في مدينة الجزائر ، وقعت في ليلة واحدة مئة واربعة انفجارات . وكان الناس يتساءلون عما اذا كان الجيش سيميل من جانب المستوطنين الفرنسيين . وكنت ذات صباح أستقل سيارة عمومية فسمعت في الراديو ان سيارة ملغومة قد انفجرت في « ايسي ليمولينو » امام المبنى الذي كان المفروض ان يفتتح فيه مؤتمر « حركة السلم » : فوقع قتلى وجرحى . وروى شهودٌ الحادث . لم يمض يوم من غير ان يكون مسموماً .

وعقدت « جبهة الجامعيين والمثقفين للعمل والتنسيق من أجل تجمّع ضد الفاشية » مؤتمراً لها في قاعة « الموتوياليتيه » . وفي بدء الاجتماع ، أبلغت مخابرة تلفونية المجتمعين بأن قنبلة هي على وشك الانفجار : وكان ذلك شيئاً كلاسيكياً . وخطب سارتر بطريقة اشد حيوية مما كانت في بروكسل . ولكن الحضور كانوا قليلين : الفين بينما كان يمكن توقّع ستة آلاف . وكان اتفاق وقف النار يعجّل في نزع صفة السياسة عن الفرنسيين ؛ ثم إن الحزب الشيوعي الفرنسي كان ماضياً في الاحساس بالاستياء تجاه جبهة الجامعيين والمثقفين ، وكان الشيوعيون الذين ينتسبون للجبهة قد هيّأوا الاجتماع بغير حماسة كبيرة . وفي النهاية كان سارتر ولانزمان كلاهما على حق : فلولا الشيوعيون لما كان بالامكان فعل شيء ، ومعهم لم يكن بالامكان فعل شيء . وكان هذا الفشل يحزنهما كليهما .

وسجل استفتاء ٨ نيسان ان جميع الناس في فرنسا كانوا يتمنون الآن تقريباً تصفية حرب الجزائر ؛ ولكن هذه التصفية كانت تتمّ في أسوأ الاوضاع . وقد عرف المستوطنون الفرنسيون ، بعد حادث اطلاق الرصاص في « ايسلي » ، وبعد محاصرة « باب الواد » انهم قد خسروا ؛ فأخذوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يخرّبون بصورة نظامية بلداً كان قد أصبح مخرّباً ، وانصرفوا الى مذابح أفظع من الحرب نفسها ؛ وكانت منظمة الجيش السري تقصف بقنابل المدافع الأحياء الاسلامية ، وتقذف المسلمين بشاحنة ملتهبة بالنار ، وتضرب بالرشاشات العاطلين الواقفين امام مكتب التوظيف ، وتغتال النساء العاملات في البيوت . وكنت كل صباح أفتح الجريدة وانا ضيقة الصدر قلقة : ما الذي سأعرفه ايضاً ؟ ولقد كانت الصحافة ، في البدوء ، تنشر هذه الجرائم على صفحاتها الاولى ؛ وكان المسلمون على وشك ان يردّوا ، فكان الخوف منتشراً ؛ ثم أُعجب الناس ، في عزاء ، بتنظيم المسلمين : والحقيقة انهم كانوا يقفون موقفاً ممتازاً ! ولهذا ، رُكنت في الزاوية اخبار حوادث السير ، واخبار العشرين والثلاثين مسلماً الذين يقتلون كل يوم في مدينة الجزائر ووهران (وهو الرقم الرسمي) . اما الاسرى الذين تطلق عليهم الرشاشات في السجون ، والجرحى الذين يُجهز عليهم في المستشفيات ، فكان الناس يغضبون لأخبارهم في نوع من النفاق . وحين انقضّ المستوطنون الفرنسيون على فرنسا ، لينازعوا السكان المحليين مساكنهم وعملهم ، عند ذاك فقط أصبحوا غير محبوبين : وهكذا رأينا عنصرية جديدة ، تحلّ محل القديمة ، بين اناسٍ من عنصر واحد ، كما لو انه كان لا بدّ دائماً من « آخر » مكروه ليضمن لنا براءتنا الخاصة . كما لو أن الجيش والحكومات التي ساقت هذه الحرب لم تكن مكوّنة من فرنسيي فرنسا ، وكما لو أن البلاد كلها لم تظاهرها ! وكانت المشاركة بالآثام والجرائم تتوكّد كل يوم : كان يُعفى عن المعذّبين ، ولكن لا يعفى عن الفارّين من الجيش ، ولا المتمردين ، ولا اعضاء شبكة التأييد . ولم ينفّذ الحكم بـ « جوهو » الذي حكم بالاعدام ؛ وكان سالان ينقذ رأسه ، فلم يُعدم بالرصاص الا بعض الممثلين الثانويين ؛ وفي اثناء المحاكمات ، كان القلق ينصبّ فقط على ولاء المتهمين ، وعلى اخلاصهم في شوفينيتهم : اما الجزائريون المقتولون ، فلم يكن يُحسب لهم حساب . ولم تكن حرب

الجزائر كريهة لي بمقدار ما كانت كريهة في هذه الاسابيع التي أعلنت فيها حقيقتها وهي تحتضر .

* * *

ظلّ ما يحدث في كوبا يشغلنا طوال العام . وكان يبدو ان انيبال اسكالانت هو المنتصر . وبالرغم من أن الحصار والاخطاء الباهظة قد ادّت الى انخفاض مستوى الحياة ، فانه لم يكن ثمة معارضة يخشى منها ؛ على ان الشرطة كانت قد اقامت الإرهاب على سبيل الوقاية . وقد أُجبر بعض صغار اصحاب الاملاك الخاصة على الدخول في التعاونيات . وكان معظم اصدقائنا يتألمون من هذا التغيير . وكان اولتوسكي قد فقد عمله . وكانت جريدة « ريفولوسيون » تحتضر : ذلك ان اشتراكاً في جريدة « هوى » كانت تحسم قيمته من رواتب العمال ، ولم يكونوا يشترون جريدة اخرى . وكنا نعرف كاتباً لوطياً قُبض عليه مع بعض اللوطيين الآخرين ، فعُرضوا في شوارع هافانا ، وكانت حروف كبيرة من « ل » مكتوبة على ظهورهم ، ثم سُجنوا . وقد كانت جميع هذه المعلومات تصلنا تباعاً ، وبلا تفسير . ولم نكن نفهم لماذا كان الحزب الشيوعي الكوبي يشجب « الانحرافية البولونية » وينحاز مع الصين والبانيا ويتبنى المناهج الستالينية . وكان يبدو مثيراً للدهشة خصوصاً ان يتركه كاسترو يفعل ذلك . لاشك في ان امله كان قد خاب بسبب بعض الوان الاخفاق . وكان مجلس الثورة قد اصيب بكثير منها . وقد شعر بحاجته الى جهاز ، وقرّر أن يضع ثقته بالجهاز الوحيد الموجود : الحزب الشيوعي . ولكن ازاء الاخطاء المرتكبة ، كيف تراه لم يستردّ الأمور ؟

ولقد فعل ذلك . فقد ألقى يوم ٢٦ آذار خطاباً هاجم فيه اسكالانت وجميع الأشباه الذين كانوا ينغلون في البلاد . وطرده من كوبا . واهتمّ بتصحيح اخطاء هذه الأشهر الأخيرة . وألغى التعاونيات التي انشئت بالضغط والاكراه . واستدعي من جديد اولتوسكي وجماعته . واستعادت جريدة « ريفولوسيون »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أهميتها. وفي أثناء زيارتنا لموسكو التقينا اولتوسكي واركوشا، فأكدا لنا انه ليس ثمة بعدُ من نظام اساسي، وليس بعدُ من تعصّب. صحيح أن ثمة شيوعيين كانوا مشتركين في الحكومة، وان العلاقات مع الاتحاد السوفياتي كانت ممتازة؛ ولكن كاسترو كان السيّد من جديد. وكان الناس يشعرون انهم يعيشون من جديد، بالرغم من الحصار وانعدام الملاكات.

* * *

كان اتحاد الكتّاب السوفيات قد دعانا لزيارة موسكو. وفي الميدان الذي كان يهمنا مباشرة، ميدان الثقافة، كان المؤتمران العشرون والثاني والعشرون، قد حملا ثمارهما؛ وكانت رحلة افتوشنكو تؤكّد ذلك، واكثر من هذا حضور طلاب روس بعثتهم الجامعة الروسية الى باريس. وكنت قد التقيت فتاة جيورجية كانت منذ عام تعمل بحرية في رسالة عن سارتر: لقد كان ثمة ما هو جديد حقاً تحت الشمس السوفياتية.

ثلاث ساعات من الطيران، وهبطنا في اول حزيران على مطار يحيطه الصنوبر والشربين. ووجدت ثانية «الساحة الحمراء» والكرملين ونهر الموسكوفا وشارع غوركي وموسكو القديمة، وتخريمات عزبها، ومتاهات ساحاتها وحدائقها الهادئة التي يلعب فيها الرجال الشطرنج. وكانت النساء يرتدين ثياباً اكثر مرحاً من ثياب ٥٥، وكانت المعروضات – بالرغم من العوز الكبير – اكثر جمالاً. وكانت الدعاية الاخبارية قد احرزت تقدّماً: فقد كانت على الجدران مناشير مستوحاة غالباً من رسوم ماياكوفسكي المسلّية، وكذلك صورٌ مأخوذة من الافلام التي كانت تعرض في تلك الفترة. وفي المساء، كانت تضاء لافتات بالنيون. وكان الشارع لذيذاً، كثير الحركة، ولكن بلا فوضى ولا عجلة؛ صحيح انه كان ثمة انشغال، ولكن كان ثمة ايضاً فراغ، وشباب، وضحكات؛ وكانت الطرقات تعرف حركة كثيفة ولا سيما للشاحنات. على ان الاحياء الجديدة كانت تبعث على الضجر، على غرار مساكننا لذوي الدخل المحدود، بالرغم من غزارة الشجر، وكانت

تكتنف المدينة التي كان عدد سكانها الآن يبلغ ثمانية ملايين .

والتقينا بعض معارفنا القدامى — سيمونوف ، وفدين ، وسوركوف ، واولغا ب . ، وكورنايتشوك ، وزوجة اهرنبورغ (ولم يكن هو موجوداً في الاتحاد السوفياتي) ورأينا أشخاصاً جدداً . وكانت لينا زونينا ، وهي ناقدة وسكرتيرة القسم الفرنسي في اتحاد الكتّاب ، دليلتنا ومترجمتنا ، وكانت تعرف جيداً كتبنا ، وقد كتبت بعض المقالات عن « المثقفون » و « اسرى ألتونا » ، وسرعان ما أصبحت صديقة لنا . وقد حلّ محلّها ، في بعض الاحيان ، جورج بريتبورد ، سكرتير القسم الايطالي ، الذي كان يتكلم الفرنسية جيداً . وكان يدهشنا ان نتفاهم معهم الى هذا الحدّ .

وكنا قد عزمنا ان نقصر نشاطنا على لقاء بعض المثقفين : من كتّاب ونقّاد وسينمائيين ورجال مسرح ، ومهندسين معماريين . وقد داخلنا شعورٌ بأننا نشهد ، بعد قرن وسيط قاسٍ ، بداءة « نهضة » جديدة .

وكانت بداءة صعبة عاصفة ؛ فقد قام صراع عنيف بين المجدّدين والانقياديين . وكان معظم الشبّان ينحازون للمعسكر الأول ؛ ولكن كان في هذا المعسكر ايضاً بعض من كانوا مسنّين : امثال باوستوفسكي واهرنبورغ الذي استقبل الطلاب « مذكراته » في نَهَم ؛ وبالمقابل ، كان بعض الشبّان انتهازيين ومتعصّبين . وعلى اي حال ، كانت القضية قضية صراع بين الاجيال . وقد قال لنا جميع اصدقائنا : « إن الشبيبة هي اليوم أهمّ ما يُلاحظ عندنا » ولكن كثيرين كانوا يتمنّون لو يتسلّموا توجيهها . وقال لنا رجل خمسينيّ : « إن كل شيء شديد السهولة ، في نظر هؤلاء الشبّان » وكان مع ذلك يحبّهم . وكنا نفهم سبب هذه المرارة . كان الابناء يأخذون على الآباء ، في غموض ، انهم تحمّلوا الستالينية : ولكن ما عساهم كانوا يفعلون لو كانوا مكانهم ؟ كان لا بدّ ان يعيشوا : وكانوا يعيشون . مع تناقضات وتسويات وتمزّقات والوان من الجبن : ولكن كذلك أحياناً مع ضروب من الأمانة والشرف والكرامة والجرأة كانت تتطلب جرأة اكبر من اية جرأة أتيح لسوفياتي ان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يظهرها من قبل. وليس من العدل قطّ التعالي على أشخاص لم يُقَاسموا المتاعب والمصاعب. على ان الشبّان كانوا على حق في ألاّ تظلّ سياسة ازالة آثار ستالين سلبية، وان يُسمح لهم بشق دروب جديدة. إنهم لم يكونوا يعودون قط الى القيم البورجوازية؛ كانوا يكافحون ضدّ مخلّفات الستالينية؛ وكانوا يطالبون بالحقيقة، بعد ذلك القدر الكبير من الأكاذيب؛ وكانوا يعتقدون أن الفن والفكر الثوريين بحاجة الى الحرية.

وكانوا قد ربحوا في ميدان: الشعر. ولم يتح لنا ألا ان نلمح افتوشنكو، ولكننا رأينا غالباً فوزنسنسكي الذي كان يتمتع بمثل شعبيته، وان كان أصعب منه. وقد التقيناه اتفاقاً، عند رصيف المحطة، مساء كنّا مسافرين الى «كييف»؛ كان شاباً ورديّ اللون، ضاحك الفم، مائع العينين، وكان يعتمر قلنسوة غريبة زرقاء، وقد حدثني بالانكليزية، في تلقائية لذيذة. ولدى عودتنا اقترح علينا ان نحضر جلسة مناقشة لقصائده، في مكتبة حيّة؛ وكان قد ألِفَ إلقاء قصائده، وهي عادة تقليدية في روسيا؛ وكانت تلك الجلسات تجمع في الهواء الطلق او في القاعات ألوفاً من المستمعين؛ على ان الاجتماع هذه المرة كان أضيق من ذلك — اربعمئة الى خمسمئة شخص — ولكن كان المطلوب منه ان يوضّح مذهبه، بعد نقد قاسٍ نشرته «لاغازيت ليتيرير» وكان يُحسّ الهيبة، وقد همس لنا وهو يأخذ مكانه تجاه الحضور: «انهم أعداء». وقد وقف وأغمض عينيه نصف إغماضة، وراح يلقي قصائده التي كانت لينا زونينا تتمّم لنا ترجمتها. وكان التصفيق يرجّ القاعة. ونهضت احدى الفتيات، وكان قد سبق لها ان سمعت للمرة الأولى بعض قصائد فوزنسنسكي في ساحة مايا كوفسكي؛ وكان الفتى الذي يلقيها، والناس الذين يستمعون اليها قد بدوا لها مشبوهين، وكانت فيها اشياء فظيعة عن النساء؛ وكانت قد عادت الى بيتها مشمئزة، ولم تتناول عشاءها، وقد بكت فقلق عليها ذووها: وحدثت تمتمات وضحكات فيما كانت تصف اضطرابها ذاك الفضولي. وأنهت كلمتها بأن الوضع اليوم مختلف. وان ما سمعته قد

راق لها . وتحدّث مدرّسون وطلاّب عن إعجابهم بفوزنسنسكي ، وقال أحدهم : « هل هو شعر قيّم ؟ شعر يخلد ؟ إن هذا غير مهمّ : فهو شعرنا ، وشعر جيلنا » وقالت امرأة طبيبة : « انني لدى القراءة الأولى لم أفهم شيئاً ، فالشعر شديد الانغلاق . ثم لاحظت انه ، بسبب هذا بالذات ، بقيت في رأسي صور وأبيات كنت غالباً ما أردّدها . ثم قرأت فوزنسنسكي عدة مرات ، فأحببته اكثر فأكثر . وعند ذاك تساءلت وأودّ أن أتلقّى جواباً : أيحقّ لشعراء مثله ورسّامين مثل بيكاسو ألاّ يريدوا ان يُفهموا على الفور ؟ إنهم يجبروننا على بذل جهدٍ يغنينا . ولكن ذلك من جهة اخرى يأخذ كثيراً من وقتنا ؛ وحين نعمل عشر ساعات في اليوم ، يكون الوقت ثميناً . » وكان الرأي العام انه لا ينبغي ان يؤخذ على فنّان ان يكون صعباً . وقال مهندس : « انني حين اقرأ مجلة من اختصاصي ، أُعيد ما أقرأه فيها عدة مرات ؛ فلماذا لا يحق للشعراء ان يطلبوا منا اكثر من ذلك ؟ » ونهضت معلمة في الاربعين من عمرها ، وأخذت تقرأ بياناً طويلاً كانت تأخذ فيه على فوزنسنسكي غموضه ؛ وقالت إن تلامذتها ، وهم في حوالي الثانية عشرة ، لم يكونوا يفهمون منه شيئاً (احتجاجات وضحك) وإنه يستعمل كلمات مبهمة من مثل « وهم » (ضحك ، هتافات استنكار) وانه يتحدّث عن « لون بلون ورق النشّاف » في حين ان هناك ورق نشّاف بمختلف الألوان . وظلّت تتابع مطالعتها وسط ضجة ساخرة وغاضبة . وصاح بعض المراهقين : « وهي مع ذلك تدرّس « اولادنا » الأدب ؟ إن هذا لعار ! » وحين انتهت ، تحدّث شابّ أسيوي ، فقال إنه يتابع بالمراسلة مع معهد غوركي دروساً في الابداع الادبي ، وكان يحفظ فوزنسنسكي عن ظهر قلب ، وقد قال في طيبة : « انكم مخطئون في ان تهينوا هذه المرأة ، إنها تستحق كل شفقتنا » وكان جميع الشبّان الذين التقيناهم فيما بعد يكادون يعبدون فوزنسنسكي . وأوضح لنا بعض علماء الفيزياء والتكنيك بقولهم : « اننا اختصاصيون ، وهو يتحدث باسمنا ، وحين نقرأه نحسّ اننا بشر كاملون » وقال لنا هو نفسه : « إن الشعر هو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشكل الذي تتخذه الصلاة في البلاد الاشتراكية » وهناك نقّاد يهاجمون الشعراء الشباب ، وبيروقراطيون يوبّخونهم ، ولكن لكي نمنعهم من ان يعبّروا عن آرائهم على هواهم ، لا بد من العودة الى الأساليب الستالينية : كأن تُمنع اولاً مثل هذه الاجتماعات التي يسمّيها فوزنسنسكي « حفلاته » . والواقع ان ليس ثمة ايّ ضغط عليهم [1] ، فهم يسافرون ، وقد ذهبوا في جماعة عديدة الى الولايات المتحدة حيث تفاهموا جيداً مع جماعة « الجيل الغاضب » . وكتبهم تطبع في مئات الألوف من النسخ .

اما الناشرون الذين لا علاقة مباشرة لهم بقرّائهم ، فهم متوقفون على دور النشر والمجلات التي يحدّ حرّيتها ألاّ تروق من جهة للقراء ، ومن جهة اخرى للسلطات . واجرأ الناشرين محرّرو مجلة « نوفيمير » ، في حين ان الحذر هو الغالب في المجلات الأخرى . ويجب على الناشرين ان يصارعوا في كل مرة ليطبعوا قصصاً وروايات ذات لهجة ابداعية . ويعاني بعض النقّاد مشقّة في ان يجعلوا مقالاتٍ مطابقة لأفكارهم مقبولة : ذلك انه يُطلب منهم ان يخفّفوا من لهجة هذه المقالات او يقتطعوا منها ؛ وهم اما ان يخضعوا او يرفضوا ، او يحتالوا جاهدين في صبر للقضاء على المعارضات : وتنفع هذه السياسة في آخر المطاف . فهناك مقالات ودراسات مطبوعة اليوم ، وكان مقدّراً لها منذ سنوات ألاّ ترى النور أبداً .

والجمهور متعطّش للجديد ؛ ولدى زيارتنا كانت قد تُرجمت الآثار الكاملة لريمارك — لماذا ؟ — وآثار سانت اكزوبري : فكان الجمهور يلتهمها . وكان الشبّان يطلبون : « ترجموا كامو ، وساغان ، وسارتر ، وكل شيء » وتناقش سارتر مع محرّري « الأدب الأجنبي » فأثار رعشة فرح حين طرح اسم كافكا ؛ وانتفض المعسكر الآخر محتجّاً : « لقد تبنّاه المفكرون البورجوازيون » فأجابهم سارتر : « عليكم ان تستردّوه منهم » ومع ذلك ، فقد قررت المجلة ان تنشر احدى قصصه . وكذلك بريخت ، فانه يدخل اليوم الاتحاد

---

(١) من المعروف ان الأمور تغيرت كثيراً ، بعد رحلتنا هذه .

السوفياتي ، بعد أن أحيط مدةً طويلة بالحذر . وقد رأينا في لنينغراد نسخة مسرحية « روح سشوان الطيبة » وقد أخرجت بروح ستانيسلافسكي الواقعية ؛ وكانت النتيجة محزنة : فقد كان النص يحيّر الجمهور الشعبي ، وكان الاخراج يصدم محبّي بريخت . ولكن يوتشكفيتش كان يستعدّ لاخراج المسرحية في موسكو . أيكون تأثير بريخت هو الذي جعل « التنين » لشوارتزر تُمثل بهذا القدر من الحرية والابداع ؟ وقد كانت هذه المسرحية موجّهة ضد الفاشية ، ولكنها اوقفت بعد العرض الأول عام ٤٤ . لأن التنين كان يذكّر بستالين بقدر ما كان يذكّر بهتلر ؛ وقد أعيد تمثيلها في لنينغراد بنجاح كبير .

والجمهور السوفياتي مأخوذ بالسينما الايطالية [١] . ويخشى الانقياديون ان يتنكّر المخرجون الشبّان للتقاليد القومية . ولكن لم يسبق لفيلم أن جعلني أحسّ الحرب كما عاشها الاتحاد السوفياتي مثل فيلم « طفولة ايفان » . وكان جورج بريتبورد قد قال لنا : « انها اكثر من قصة فتى . انها قصة شبيبة برمتّها ، لقد قتلت أمّ ايفان تحت بصره ، وأحرقت قريته ، فأصبح نصف مجنون ؛ وكانت أحلامه في نضارة سنيّه العشر ؛ وحين استيقظ ، كان يستولي عليه الحقد والرغبة في القتل ؛ إنه جذّاب ، مؤثّر ، بطولي ، ولكنه شيطان شرير . وقد اختفى في اثناء مهمة عهد اليه فيها ضبّاط . وفي برلين ، في غمرة النصر ، وجد أحد هؤلاء الضبّاط بطاقة فيها اسمه وصورته : لقد شُنق . ويكمن جمال هذه النهاية وجدّتها في ان « تاركوفسكي » يُظهر في وقت واحد عظمة النصر الذي احرزه الاتحاد السوفياتي ، والطابع الفظيع لهذه الفضيحة : قتل طفل . ويبلغ تاركوفسكي السادسة والعشرين ؛ وقد أثار فيلمه عداوات عنيفة ، ولكنه عُرض في مهرجان البندقية فنال جائزة « الأسد الذهبي » . وكذلك هوجم فيلم يوتشكفيتش المستوحى من « حمّامات » مايا كوفسكي ، والذي مزج فيه بين الصور المتحركة والدمى والفيلم الوثائقي : ولكنه بأصالته الجريئة عملٌ لا يمكن ان يولد الا في الاتحاد السوفياتي . وشاهدنا

---

(١) « ليالي كابيريا » ، « روكو واخوته » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في احدى دور السينما فيلم «واذا كان الحب!» الموجّه ضد «روح البورجوازية الصغيرة». انها قصة طفلين «من اطفال العصر»، طالب وطالبة يتحابّان حباً بريئاً؛ ولكن ألوان التعذيب التي يُخضعهما لها ذووهما وجيرانهما والأقاويل والأكاذيب، كل ذلك يفضي بهما الى ان يناما معاً، بصورة تدعو للرثاء، لأنّ الفتاة تحاول ان تقتل نفسها ثم تذهب بعيداً. انه فيلم دون المتوسّط، ولكنه يُطلع نكهةً جديدة؛ وهو يُنتَقد انتقاداً مرّاً، بحجة ان ليس فيه بطل ايجابي، وليس فيه حل عقدة سعيد.

وقد قال لنا أحد الاصدقاء: «إننا في النحت والرسم ريفيّون.» وكان يستثني من هذا الحكم نايزفستني الذي زرنا بصحبته مرسمه: وهي قاعة مرتفعة السقف، ولكنها ضيّقة ومليئة بالتماثيل حتى ان المرء يصعب عليه ان يتنقّل بينها؛ وكان سلّم شديد الصلابة يفضي الى غرفة مجاورة. ويريد نايزفستني ان يعبّر عن «انسان اليوم الآلي»، وهذا ما دفعه الى اختراع أشياء جريئة بما فيه الكفاية: فأرسلت اليه «الدولة» بعض الأوامر. والحق ان الرسّامين الشبّان قليلو الحظوة؛ فهم لا يكادون يعرفون الفنّ الغربي، وهم ينطلقون من الصفر او يكادون، وتقابل اجتهاداتهم بحذر، باعتبار ان خروتشوف لا يحبّ التجريديات ولا الفن العصري إجمالاً[1] ويعمل اللاإنقياديون في نصف سرّيّة ولا يعرضون أعمالهم الا في دائرة ضيّقة. صحيح انهم يبيعون آثارهم، ولكن معيشتهم شاقّة. وقد زرنا اثنين منهم: وكانا يشغلان في المنازل الجماعية غرفة واحدة غير كبيرة كانا يستعملانها كرسم ومخدع في وقت واحد. على انه يُعرض في موسكو ولنينغراد منذ بضعة أعوام مجموعات رائعة للانطباعيين وفان كوخ وغوغان وماتيس. وقد مُنح بيكاسو جائزة لينين، ونُشر عنه كتابٌ يحتوي مجموعة من لوحاته، كما خصصت له قاعة في متحف «الارميتاج»[2]. ويبدو على الزوّار انهم

(١) وقد أظهرت ذلك قضية «ماينج» في كانون الأول الماضي: فقد أجبر نايزفستني على ان يقوم بنقد ذاتي لنفسه. وقد رأيت في تلفزيون موسكو برنامجاً يهزىء بأعماله.

(٢) وفي عام ٦٣ كانت له قاعتان.

مصدومون امام لوحة « المرأة ذا المروحة » حيث يُعامل الوجه البشري كشيء ، اكثر مما هم مصدومون أمام اللوحات التكعيبية التي تظهر صوراً من الطبيعة الميتة . وقد ردّد لي بعضهم تعليقات دليلٍ كان برأس محاضرة — نزهة ؛ فقد تحدّث باحترام عن لوحات بيكاسو في مرحلته الزرقاء ، ثم اومأ الى باقي لوحات القاعة بقوله : « هوذا رسّام تقهقر بدلاً من ان يتقدم . » وصرّح أمام لوحات غوغان بقوله : « من سوء الحظ أن جميع الألوان مزيّفة » . على ان مديرة القسم الفرنسي في « الارميتاج » أرتنا كمية من الأعمال العصرية اشتراها « المتحف العام » وكانت تتحدث عنها بلهجة اطلاع واسع .

ولأن الروس يحتقرون « تشويه » الوجه البشري — وهم في باقي الميادين حريصون على ان يطالبوا بماضيهم — فانهم يبدون غير عادلين مع بدائييهم . ف « روبلوف » يتساوى مع « جيوتو » و « دوشيو » ؛ وقد بقي ماتيس إعجاباً امام الايقونات التي استلهمها : ومع ذلك فان بضع مئات فقط معروضة ، بينما المستودعات ملآى بها . وكان لا بدّ من خوض معركة لانشاء متحف « روبلوف » حيث جمعت آثار أصيلة ونسخ من صور المعلّم وتلامذته . ويودّ تاركوفسكي ان ينتج فيلماً عنه : ولكن ثمة معارضة شديدة . ومن الصعب طبعاً أن يتبنّى المرء « روبلوف » و « ريبين » في وقت واحد ؛ وقد اختار الرسميون « ريبين » .

والجمهور مشغوف بالرسم كذلك . وقد كان الناس يتقاتلون لدخول « الارميتاج » صباح اليوم الذي قصدناه ؛ وقد انتُزعت جميع ازرار سترة احدى الفتيات ؛ وطلبت لينا زونينا الى أحد المدراء ان يُدخلنا من مدخل خاص . ويتدفّق الناس في ازدحام شديد على مداخل المتاحف ، حتّى يضطر المسؤولون الى الاستعانة بالشرطة للمحافظة على النظام . وحين يعلن احد أصحاب المكتبات عن البدء ببيع كتاب عن الانطباعية او عن « ميرو » يتشكل أمام حانوته صفّ طويل منذ الساعة الخامسة صباحاً : وفي ساعة واحدة ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تباع جميع نسخ الكتاب. أيكون الضغط من الشدة في المستقبل بحيث يمكن انتزاع تنازلات جديدة؟ [1].

اما بالنسبة للمعماريين، فالوضع أفضل جداً. إن خروتشوف يهتمّ بالهندسة المعمارية ويحب البساطة. وقد وافق في «كييف» على نصب الجندي المجهول الذي كان يثير استنكار معظم الأعيان بتجرّده. وقد بُني «قصر الرواد» في اسلوب يذكّر باسلوب نيمير؛ وقد كتب نزلاء بيت للراحة، في الجانب الآخر من الوادي، رسائل احتجاج على ذلك، قالوا فيها إن بشاعة ذلك القصر تفسد عليهم المنظر. ولكن القصر راق لخروتشوف: فاكتُفي بنقل محتوى الرسائل الى المهندسين. وقد قال لنا هؤلاء في ندم: «إن لنا نحن ايضاً على ضمائرنا أعمدة منصوبة في الطوابق الرابعة» وقد انتهى الأمر الى ذلك القبح المعروض الذي كان اثيراً لدى ستالين؛ إن الاحياء الجديدة كئيبة، ولكنها مبنيّة في همّ من الاقتصاد والتوفير. وأجمل الأبنية الحديثة هو «قصر المؤتمر» الذي كان بعض اصدقائنا يقولون انه «كان ينبغي ألاّ يقام داخل الكرملين»! ولكن الآخرين كانوا يجيبون: لماذا لا يكون للقرن العشرين مكانه في تلك القلعة التي يجاور فيها العصر الوسيط القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مجاورة سعيدة؟ لقد ناقش السوفيات مطوّلاً في هذا، في المجتمعات وفي الصحف. اما انا فقد وجدت رائعاً انعكاس الجذور الذهبية القديمة في مرايا القصر الملتمعة. وهناك عمل عصري آخر ذو أناقة ساذجة وبارعة، هو «فندق الشبيبة». وقد كنا نتناول الشاي في قاعته مع زوجة سيمونوف [2] التي تعمل في معهد للفن التطبيقي، وهي ناقدة فنية، فلاحظت أن الأثاث والاواني كانت غير منسجمة مع ذلك الإطار.

---

(١) يميل المرء، منذ كانون الأول ٦٢، الى إعطاء جواب متشائم. ومع ذلك، فان تصلب المعسكر الرسمي يبدو وكأنه يشير الى ان المقاومة من الجهة الأخرى شديدة جداً، بالرغم من ألوان الإنكارات المنتزعة.

(٢) زوجته الثانية. وكان قد طلق وتزوج من جديد.

وليس ثمة أصعب من ان يعثر المرء في حوانيت موسكو على صحن او فنجان او كرسيّ جميلة. وقد كانت تقول إنه من الصعب ارضاء جميع اذواق سكان موسكو المغرمين بالمكسرات والمقلّمات والمخرّمات والحواشي والمرصعات، ولكن جهداً كبيراً يبذل من أجل ذلك؛ وهناك مساعٍ كثيرة لصنع أشياء جميلة وتعويد الناس على حبها.

حين زار سارتر عام ١٩٥٤ احد الصفوف وتلفظ باسم دستويفسكي، سألته طالبة في الثانية عشرة بلهجة لا تخلو من هجوم: «ولكن لماذا تهتمّ به؟» اما اليوم، فانهم يقرأونه ويحبونه. وقد دهشنا للطريقة التي حدثتنا بها عن «باسترناك». وحين صرّح افتوشنكو في لندن: «انه في رأيي شاعر جيد جداً» آخذه كثيرون على هذا الرأي المضمن؛ فان الجميع في الاتحاد السوفياتي يعتبرونه واحداً من اعظم الشعراء الروس. وقال فوزنسنسكي «إن موته يجبرنا على الكتابة. اما قبل ذلك، فقد كان ذلك غير مجد: كان «هو» الشعر» وحين قمنا بزيارة «فيدين»، بالسيارة التي وضعها اتّحاد الكتّاب تحت تصرّفنا، توقّف السائق أمام بيت تحيط به الأشجار، وقال في تقى: «انه داشا باسترناك». وحتى الرسميون، امتنعوا عن مهاجمته. ولئن كانت صديقته القديمة قد أرسلت الى احد المعسكرات[1]، فلأنها كانت قد تعاطت التجارة بالقطع النادر.

المعسكرات: كان هذا الموضوع يُعالج دون ما حذر. وقد روت لي امرأة شابة: «طوال عام، كان ابي يجلس كل مساء في أريكته، محدّق العين، ينتظر ان يأتي من يعتقله؛ وكان جميع رفاقه قد أُعدموا بالرصاص: وهو لم يفهم قط ما الذي أنقذه». وقالت لي معلّمة: «لقد ظلّ أبي ستة أعوام في معسكر. ومع ذلك، فقد بكيت ليلة مات ستالين.» وقال لنا استاذ: «أُرسلتُ في عام ٤٢ الى معسكر اعتقال بتهمة النزعة الانسانية، لأني لم اكن اريد أن يُعدم أسرى الحرب. وقد قضيت في المعسكر خمسة

---

(١) التي لا يسجن فيها إلا المطلوب من «الحق العام».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعوام . » وقد رُوي لنا أن كثيراً من المعتقلين كانوا يُقرّون مبدأ المعسكرات وكانوا يجدون أنه كان من الحق إلقاء جيرانهم فيها : وقد كانوا هم انفسهم ضحايا خطأ لم يكن يشجب النظام . ويبدو ان المعسكرات كانت حتى عام ٣٦ مراكز حقيقية للتربية والتدريب : فهناك عملٌ معتدل ، ونظام ليبرالي ، ومسارح ، ومكتبات ، وندوات وعلاقات عائلية ، شبه ودّية ، بين المسؤولين والمعتقلين . وابتداء من عام ٣٦ ، كانت العقوبة القصوى كالماضي عشر سنوات ، ولكن السجين كان يملك الحق او لا يملكه في التراسل والاتصال بأسرته : وكان البند الثاني يعني انه قد أُعدم ؛ وقد أصبح نظام السجن الاصلاحي فظيعاً جداً ، حتى ان كثيرين من المعتقلين كانوا يموتون ؛ وظلّ الحال كذلك بعد عام ٤٤ ، ولكن الاعدام بالرصاص أُلغي . ولم يعطنا أحدٌ اية تفاصيل عن حياة المعسكرات ، سواء بدافع الاشمئزاز ، او الجهل ، او أنّ هناك امراً بالصمت حول هذا الموضوع . وقد رويت لنا بعض الحكايات فقط : من ذلك أن احد المنفيين ، وهو اخصائي في دراسة بوشكين ، أعلن انه اكتشف آخر اغاني اوجين اونغين ؛ وكانت اوراقه قد ضاعت ، ولكن ذاكرته الممتازة كانت تتيح له ، لو تُرك له الوقت ، بأن يعيد تأليف النصّ ؛ وقد انصرف فعلاً الى العمل وشُجّع لأن بوشكين كان على ما يظهر قد تنبّأ بنظرية « جدانوف » الجمالية : في القومية والبطولة والتفاؤل وكل شيء ؛ وبعد ان أنهى عمله ، ظلّ يتمتّع بحالة الحظوة الخاصة ، باعتبار ان الستالينيين كانوا سعداء جداً أن يكتشفوا « بوشكيناً » ينسجم تماماً مع ميولهم . ولكنّ بعض العارفين الآخرين حاولوا فضح الأكذوبة ، غير أنهم اضطروا الى الصمت الى اليوم الذي أُطلق فيه سراح المساجين فاعترف الناقد الاخصائي انه كان قد اخترع كل شيء . وكانت عودة المنفيين قد أثارت مآسي عملية او خلقية او عاطفية . وكان فكتور نكراسوف قد أصدر رواية صوّر فيها المشقّات الكبيرة التي عاناها أحد هؤلاء العائدين للانسجام من جديد مع مجتمعه . وكان بعض المعتقلين القدامى في المعسكرات قد كتبوا او يكتبون

مذكراتهم ، على امل ان ينشروها ذات يوم .

لم نكن نُستقبَل في موسكو قط كما استُقبل سارتر عام ٥٤ . فليس ثمة بعد مآدب ولاحفلات فخمة ولا دعاية . وانما كان الناس يدعوننا الى اجتماعات خاصة ؛ وكنّا على توافق معهم او خلاف في الرأي ، نناقش الأمور في ميداننا الخاص . وقد تناولنا العشاء في داشا سيمونوف مع كاتب في زهاء الخمسين من عمره ، يدعى دورّوش ، كان يقيم في موسكو ، ولكنه يقوم بزيارات طويلة الى الريف والى « روستوف ــ لو ــ غران » ؛ وقد استأجر غرفة صغيرة في عزبة ؛ إنه يحبّ الفلاحين ويهتمّ بحياتهم ويصوّرها في كتبه ، من غير ان يخفي صعوباتهم ولا ألوان خشونتهم ، ومن غير ان يقنّع الأخطاء التي يرتكبها المشرفون على الزراعة . وقد صَحِبنا في سيارة قدّمها لنا اتحاد الكتّاب لقضاء يومين في روستوف . وكانت زوجته في رفقتنا ، وهي استاذة في الفيزياء وطبّاخة ماهرة ، وكانت تحمل في صندوق السيارة طعاماً لنا لمدة يومين . وروستوف التي تبعد مئتي كيلومتر عن موسكو هي مهد روسيا : اما اليوم فهي ضيعة كبيرة ذات خمسة وعشرين ألف نسمة ، تقع على شاطيء نهر ، ويشرف عليها كرملينٌ أقدم من كرملين موسكو ، جميل جداً . وقد كان المهندس المعماري الذي يعيد بناءه يعسكر في احد الأبراج المستديرة في القلعة ؛ وكان المفروض ان نتناول وجباتنا عنده ، وان يرينا المباني ، وان يجمعنا دورّوش ببعض الفلاحين الذين كان يعرفهم . ولكنه في اثناء الطريق كان قد أنبأنا : « أن سادة يروسلاف [١] لهم أفكارهم عمّا يهمّ الكتّاب الفرنسيين . » واجتزنا أحد ابواب الكرملين ، وهبطنا من السيارة : فاقترب منّا ثلاثة رجال يعتمرون قبعات من قشّ ، فحيّونا في تصلّب ؛ وكان منهم مسؤولان في مجلس السوفيات الاقليمي ومدير الدعاية . وقد صعدوا الى البرج معنا وقاسمونا طعامنا . ومن النوافذ الضيقة ، كانت

(١) هي المدينة الكبيرة التي تعتبر روستوف تابعة لها ، وهي على بعد ثلاثين كيلومتراً ، على نهر الفولغا .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تُرى مياه حريرية وتُرى سهول ، وكانت القاعة المستديرة لطيفة ، وكذلك المهندس ، ولكن وجود الرسميين الثلاثة كان يزعجنا . وقد تبعونا فيما كنا نزور الكنائس ذات العروق اللازوردية والذهبية والارتوازية ، الناعمة او الخشنة . وكانت الرسوم التي تزيّن المعابد اهدأ من رسوم معابدنا ، ولا يكاد الجحيم يمثل فيها . ثم كان المفروض ان نزور «كولخوزاً » فأخّروا الذهاب حتى نهاية بعد الظهر : وعند الو صول : كان جميع الفلاحين قد عادوا الى منازلهم باستثناء امرأة كانت قد تأخرت في الاسطبل ، وكانت أفضل حلاّبة للبقر في تلك المنطقة . أكان بامكاننا ان نزور عزبتها ؟ لا ، فهي قد غسلت غسيلها بعد ظهر هذا اليوم . وطوّفونا حول حقل للفاصولياء : وكان خروتشوف قد اوصى بزراعة هذه الخضرة ، وكان مدير الكولخوز قد اتخذ المبادرة اليها قبل ذلك بعامين ! وكان دوروش قد ابتعد وهو يخفق الأرض بقدميه . وقادنا مرافقونا الى بيت رئيس فرقة : وكان البيت من داخله بيتَ بورجوازي صغير فقير ، اكثر مما يشبه مزرعة فرنسية . وبالرغم من ان صاحبه كان مسجّلاً في الحزب ، فقد كان ثمة مصباح مضاء بالقرب من أيقونة . وحين خرجت سألت : « هل هناك كثير من الفلاحين الذين يمارسون الشعائر ؟ » فأجابني رجل الدعاية : « إن كل انسان حرّ » وكان يتجنّب جميع الاسئلة . ولكي يشرح لنا « عقلية الفلاحين » ذكر عبارة معروفة للينين وارفقها بسلسلة من الكلام العام . وفي اثناء العشاء ، بدأ سارتر هجومه . وكنّا نريد أن نرى في اليوم التالي فلاحين ، ونحن وحيدان مع دورروش ؛ فان الناس اذا كانوا كتّاباً يتفاهمون بالاشارة ، وهو سيعرف ان يجعلهم يتحدثون بالشكل الذي يهمّنا . ولكن الرسميين لم يجيبوا بشيء . وقد صحبونا انا وسارتر ولينا زونينا الى « ياروسلاف » حيث كانوا قد حجزوا لنا غرفاً ، وفي اليوم التالي ارادوا ان يأخذونا في زيارة لمصنع أحذية . ولكننا رفضنا . وأرانا رئيس الدعاية ضفاف الفولغا ، والبيت الذي التقت فيه ناتاشا الامير اندريه وهو يموت ، وكنائس قديمة : وكانت تلك نزهة لطيفة ، ولكنه عاد بنا الى

روستوف بعد ساعتين من الموعد الذي اتفقنا عليه مع دورروش ؛ وكان مصمّماً تماماً على ان يواكبنا طوال النهار . فعدلنا . وبعد الغداء عدنا الى موسكو . وفي اثناء العودة ، حدّثنا دورروش ، وكذلك في موسكو حيث لقيناه ثانية ، عن المشكلات البشرية التي تطرح نفسها في الارياف : وضع النساء ، واماني الشبان والعلاقات بين العمال والفلاحين ، وجاذبية المدن ، وما كان ينبغي ان يُعمل ، وما عُمل من أجل الاحتفاظ في القرية بالجيل الجديد الذي لم يكن ادخال الآلات يكفي لشدّه الى الأرض ، والصراع بين اولئك الذي يريدون ان يغيّروا وضع الريف تغييراً جذرياً وأولئك الذين يتمنّون الحفاظ على بعض التقاليد .

وفي ليلة واحدة بالقطار ، وصلنا الى لينغراد : وهي احدى اجمل مدن العالم . ولقد اوتيت كاترين الثانية لمعة عبقرية حين كلّفت « راستريللي » بأن يحمل الى ضفاف النيفا الاسلوب الايطالي الذي كانت تلائمه في النور الشمالي الألوان الحمراء والزرقاء والخضراء التي يتلبّس بها هنا . ولنينغراد ساحرة ، على غرار روما : ولا سيما الساحة الهائلة التي تلمع فيها نوافذ « قصر الشتاء » . وقد طابقت ذاكرتي على عظمتها الخفيّة صوراً سوداء وبيضاء من « عشرة أيام هزّت العالم » ومن الثورات التي أرهصت بها . وكان جمهور مستعجل يهبط شارع « نفسكي » ويصعده : وكنت أتذكّر تلك الصورة التي تمثّل الطريق والأرصفة وهي مزروعة بالجثث والجرحى . وفي وسط هذا الجسر القائم على النيفا ، كنت ارى عربة : كان الجسر يرتفع . وكان الحصان والعربة يتدحرجان ، في صمت أفلام الأيام الماضية . سمولني . الأمارة . قلعة بيار وبول . وايّ صدى كان لهذه الكلمات حين قرأتها ، للمرة الأولى في حوالي العشرين من عمري ! وفي النهار ، كنت اتنزه في مدينة لينين (ومدينة ذلك الآخر الذي لا يُذكر اسمه) .

ثم كان الليل يهبط في إبّان الاشراق . « الليالي البيضاء لسان — بطرسبورغ » : وكنت في النروج وفنلندا قد ظننتني استشعرها ؛ ولكن سحر الشمس الليلية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحاجة الى هذا الديكور الذي تحجّر فيه الماضي والذي تعمره الأشباح.

تناولنا العشاء في منزل الكاتب «غيرمان» مع اسرته و «كايلفيتز» مخرج «السيدة ذات الكلب الصغير». وكنا نعلم انه لم ينج من النفي إلاّ بالاختباء، وبفضل اهرنبورغ جزئياً. وقد قال لنا: «اني لم اكتب مرة واحدة اسم ستالين» فيما كان يملأ صحوننا بالرافيولي السيبيرية. وتحدثنا عن السينما والمسرح؛ وروى لنا ذكريات عن «مايرهولد». وقد وصلت زوجة «كايلفيتز» وابنهما، وهو في العشرين، عند تناول القهوة: وكانا قبل وصولهما يشاهدان فيلم «روكو واخوته» وكانت منفعلة ومسحورة. وأخذ ابن كايلفيتز وابناء غيرمان يقارنون بين مزايا فوزنسنسكي وافتوشنكو: كان هو يفضّل الأول، وهم يفضّلون الآخر. وقامت بين سارتر وزوجة كايلفيتز مناقشة طويلة عن علاقة الأبناء بالآباء: وقد رجع هو الى بعض آراء فرويد التي هاجمتها هي في عنف. وعند منتصف الليل هبطنا جميعاً الى ساحة «شان ـ دو ـ مارس»: وكان ثمة عشّاق يتبادلون القبلات والعناق على المقاعد، في رائحة الفجر الخضراء، وشبّان يعزفون على الغيتار، وعصابات من الفتيان والفتيات يمرّون متضاحكين.

وبعد يومين، التقيناهم ثانية في مطعم، حوالي الحادية عشرة، إثر خروجنا من المسرح. وقد حملونا في السيارة لنرى السماء المتقعة في حيّ دستويفسكي: بيته، ومسكن روغوجين، وملعب المرابية التي قتلها راسكولنيكوف، والقناة التي ألقى فيها فأسه. وقد لمحنا في الطريق نافذة الغرفة التي انتحر فيها «ايسانين». وأرونا أقدم منزل لبطرس الأكبر، والأقنية الأولى. وفي الضاحية التي تبارز فيها بوشكين وجُرح جرح الموت، شربنا الفودكا تحية لذكراه.

وسكان لنينغراد يعدّون اربعة ملايين، كما كانوا قبل الحرب؛ ولكنهم جميعهم تقريباً قادمون جدد: ففي أثناء الحصار، ذهب ضحية المجاعة ثلاثة ملايين نسمة ونصف المليون، باعتبار ان مصانع المؤن كانت قد احترقت

منذ الأيام الأولى . وقد وصف استاذ عجوز لسارتر الشوارع المجلّدة المزروعة بالجثث التي لم يكن المارّة حتى لينظروا اليها ؛ لم يكن الفرد يفكّر الا بأن يحمل الى بيته وعاء الحساء من غير ان يسقط وهناً : فان من يسقط لا يؤتى القوة للنهوض ثانية ؛ واذا اتفق ان مدّ لك أحدٌ يده ، فان ذلك لن يجدي : ذلك أنه يسقط هو ايضاً .

ويستمر الروح في امتداح محاسن «كييف» ؛ وكذلك فان «سانت صوفي» التي أخذنا اليها الشاعر الأوكراني «باجو» ، تستحق شهرتها . ولكن احياء الوسط — نصف المدينة — كانت ممحوّة تقريباً بقنابل الألمان ؛ وقد هدم ستالين احدى الكنائس العظيمة ، واعاد بناء «كييف» بالاسلوب الذي كان أثيراً لديه : قناطر وأعمدة ؛ وتجثم الجادة الكبيرة ككابوس هائل . وفي اوكرانيا ايضاً ، تجد الجميع مأخوذين بذكريات الحرب . وقد كانت كييف رماداً حين دخلها باجان ، وكان المارّة النادرون يبدون له أشباحاً . وقد عرف وجه صديق له : وقد ظلاّ فترة طويلة يتبادلان النظر بلا كلام ، غير مصدّقين عينيهما . وقد كان النازيون يريدون ان يمحوا الثقافة السلافية فأحرقوا معبد «أفرا» الذي كان محجّة مشهورة ؛ ويبقى ثمّة على احدى الروابي ، فوق الدنيبر ، شقة من حائط مدهون ، وعقدة سوّدها اللهيب ، وبقايا محترقة . وكانت ما تزال في عيني صور «طفولة ايفان» ، وكنت ارى تحت حقول الفريز التي كانت بعض الكولخوزيات يملأن منه بعض سلال الفاكهة اللذيذة الضخمة ، ارضي مهدّمة .

تناولنا الغداء مع «كورناتيشوك» وزوجته ، و«واندافاسيلسكا» في الداشا التي يملكونها في ضواحي كييف : وكان فيها حديقة مزدهرة بالخزامى تهبط نحو بحيرة . وكان يتمنى كثيراً ان يحضر سارتر مؤتمر السلام الذي كان يوشك ان ينعقد في موسكو ، وان يتحدث فيه عن الثقافة . وكان اهرنبورغ ، بواسطة زوجته ، وسوركوف وفيدين يلحّون هم ايضاً على ان يتكلّم سارتر في المؤتمر ؛ كانوا راغبين في مساعدته لتنظيم اجتماع بين مثقّفي العالم كلّه .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحين كان سارتر يخرج من هذه الاحاديث ، كان يضحك ويتذكّر الألقاب التي قُذف بها : « ضبع يحمل قلم حبر ، عدو البشر ، ممجّد الوحول ، حفّار قبور ، مُباع » ...

وفي موسكو ، نزلنا في فندق بكين ، وهو احدى القطع المنثورة هنا وهناك عبر المدينة ، وكان المفروض ان تنسجم مع ابراج الكرملين . ولكننا كنا نبقى فيه أقصر مدة ممكنة . وكنا نفضّل ان نقف بالصف مع الموسكويين على ابواب المطاعم والمقاهي . وكنا احياناً نتناول العشاء في نادي الكتّاب ، او نادي المسرح . والأمكنة العامة هناك تغلق ابوابها في الحادية عشرة ليلاً ، باستثناء مطاعم بعض الفنادق الكبيرة التي يمكن للناس فيها ان يأكلوا ويشربوا ويرقصوا حتّى الثانية عشرة والنصف ؛ غير ان الشوارع تبقى حيّة لمدة طويلة ، ذلك ان الناس يتزاورون . ومساكنهم بالاجمال رديئة ، وثمانون بالمئة منهم يعيشون في مساكن جماعية ؛ ولكن جهد البناء متواصل ، والمساكن الجديدة جميلة الداخل . وقد كان جورج بريتبورد يشغل ، في بناية مخصصة للمفكرين ، قاعة واسعة مضيئة بحمّام ومطبخ يحسده عليها كثير من الفرنسيين العزّاب الذين يتمتعون بمستوى مهني كمستواه . وفي احياء موسكو القديمة ، لا بدّ من اجتياز ساحات قذرة ، واتقاء سلالم مخرّبة او الصعود في مصاعد تشبه الحاملات : ولكن شقق الكتّاب والمخرجين الذين وجّهوا الينا دعوات — وهم طبعاً أصحاب امتيازات — هي واسعة اتساعاً كافياً وأنيقة . ووسائل النقل متيسرة . قليل من السيارات العمومية ، ولكن كثير من الباصات ، وشبكة هامة للطرق مع سلالم متحركة . على ان نهارات الموسكويين مُتعبة بسبب ندرة البضائع ؛ فلا بدّ من التنقّل بين الحوانيت ، والوقوف في الصف ؛ وحتّى في هذا الوضع ، لا يجد المرء كل ما يريده .

ذلك ان الاتحاد السوفياتي ، كما لا يخفي قادته ، فريسة مصاعب اقتصادية جدّيّة ؛ وقد كانت الزراعة سيئة الحال دائماً ؛ وقد كشف في هذه الفترة الأخيرة عدد من أعمال الفساد والاختلاس والفضائح المالية . والسلطات تقمع

هذه الأعمال بقسوة ، وتحكم بالموت في الحالات الخطيرة . ولا شك ايضاً في ان الانتصارات التي احرزها الاتحاد السوفياتي في غزو الفضاء مسؤولة عن هذا الفقر . فهل سيخفّ هذا الفقر ام يتفاقم ؟ إن الدراسات والاحصائيات في هذا المجال أفضل كشفاً للحقيقة من رحلة ثلاثة أسابيع . ولكن هذه الرحلة كانت مفيدة لنا . فمنذ بدء الحرب الباردة ، انحزنا للاتحاد السوفياتي ؛ ونحن منذ ان سلك سياسة السلام والقضاء على الآثار الستالينية لا نقتصر على تفضيله فحسب : إن قضيته وحظوظه هي قضيتنا وحظوظنا . وقد حوّلت اقامتنا هذه الصلة الى صداقة حيّة ؛ وحقيقةٌ ما هي غنية بمقدار ما هي « صيرورة » ؛ ويخطيء من يظنّ مكاسب المفكرين والمثقفين الروس متواضعة : فهي تعانق كل ما قد تجاوزته . وإن تناقضات تجربتهم – ومنها الميراث المرفوض من الماضي الستاليني – تجبرهم على ان يفكروا بأنفسهم ، وهذا ما يمنحهم عمقاً استثنائياً في هذه الفترة من التكيّف الخارجي . وإن المرء ليُحسّ لدى الناس ، وخصوصاً لدى الشبّان ، رغبةً مهووسة في المعرفة والفهم : سينما ، مسرح ، باليه ، شعر ، حفلات موسيقية ؛ إن جميع الأماكن محجوزة قبل أيام عديدة من العرض ؛ والمتاحف والمعارض تغلق ابوابها دون الناس ، والكتبُ تختطف فور طبعها . والنقاش والنزاع قائم في كل مكان . اما في العالم التكنوقراطي الذي يريد الغرب ان يفرضه علينا ، فيُحسب فقط حساب الآلة والتنظيم . وهما وسيلتان لبلوغ وسائل اخرى لا تكشف أية غاية . واما في الاتحاد السوفياتي ، فان الانسان يُصنع ، وحتى لو كان ذلك لا يتمّ بغير مشقّة ، ولو كان ثمة ضربات ثقيلة ، وألوان من التقهقر والخطأ ، فان كل شيء حوله ، وكل شيء يحدث له ، غنيّ بالمعاني .

* * *

في طريق العودة ، توقّفنا في بولونيا . فارصوفيا ، الاحياء اليهودية : خرائب ، جبّانات ، صحراء من الرماد . وكنت ارى مدينة كبيرة جديدة ، ذات جادات واسعة ، وحدائق وورشاً هنا وهناك ، وبيتاً نصف منهار ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بلا تبرير . ولم يكن باقياً من الحي اليهودي إلا شقّ جدار وبرج ، وسط اراض بور مزيّفة بعشب أخضر ، وأبنية أنيقة . لقد أعيد بناء الحيّ القديم بشكل جيّد : ساحة السوق ، الكاتدرائية ، الشوارع الصغيرة ذات البيوت الواطئة الملوّنة . اما باقي المدينة — القبيحة هنا ، والجميلة هناك وفق الفترة التي أعيد فيها بناؤها — فيفتقر الى الانسجام ، والى الشخصية والى الروح : انه نصرٌ رائع على الموت ، ولكن يخيّل للمرء ان الحياة ما تزال مترددة في الاستقرار عليها . وقد كانت براغ ، الصناعية ، الكثيرة السكان ، القذرة ، في الجانب الآخر من « الفيستول » — حيث توقفت الجيوش الروسية وحيث نجت من التدمير — تردّ إليّ الثقة لأنّ مجرى الزمن فيها لم يكن حاسماً .

وقد أخذنا « لسيوفسكي » الشيوعي الذي يتكلم الفرنسية كما يتكلم البولونية ، في سيارته للنزهة . وقد استرعى انتباهنا فراغ الطرقات . ولكن الشوارع حيّة ، وهي مرحةٌ . في الوسط على الأقل : ففيها نساء دقيقات العود ، متبرّجات جيداً ؛ والمعروضات معتنىً بها ؛ وجميلة هي البضائع والأثاث وديكورات المطاعم والمقاهي . وعند الساعة العاشرة مساء تغلق المحلات العامة : وقد قدَّم السكّيرون ساعة شربهم ؛ فمنذ الساعة التاسعة يلتقي المرء كثيراً منهم . صحيح أن ثمة حظاً أقل من اللاتساوي في الرواتب من الاتحاد السوفياتي ، ولكن مستوى الحياة منخفض جداً . إن الطعام لا يكلّف شيئاً تقريباً ، ولكن الملابس بالمقابل باهظة الأثمان : فزوج الأحذية مثلاً يكلّف ربع الراتب الشهري الوسط . اما المنازل ، فبالمجان ، ولكن الحصول عليها صعب جداً ؛ وفرصوفيا مغلقة ، ولا يحق لأحد ان يقيم فيها لأن قسماً كبيراً من السكان ما يزالون مركومين فيها في الأكواخ . ويتردّد المهندسون المعماريون : لقد أقاموا في كل شقّة حمّاماً ، ولكن السكّان لا يستعملونه ، لأنهم لم يتعوّدوا ذلك ؛ أليس من الأفضل والحالة هذه الغاء الحمامات وزيادة عدد غرف السكن ؟ولكن في ذلك جوراً على المستقبل : إن الفرصوفيين لن يتعلّموا الصحة إلاّ اذا كانت في متناولهم . أينبغي التفكير

اولاً بالحاجات الفورية المباشرة ام الاهتمام بالجيل الصاعد؟ وقد انتصر الحلّ الثاني .

ورأينا «كاركوفيا» وقد شاخت ، ولكنها ظلت ساحرة : الجامعة ، غرفة الدكتور فاوست ، وأنابيقه وأثر قدم مفيستوفيليس ؛ والكاتدرائية في وسط السوق ، ببرجها الجميل المرتفع الذي تنطلق منه كل ساعة نفخة بوق نحو اربعة أركان الأفق ؛ والقصر الملكي ، ومكتب العمل وقاعة العرض اللذان كان قد بناهما «فرانك» جلاّد بولونيا . ولمحنا «نوفا هوتا» المجمّع الضخم ، والمدينة العمالية ، ومعبداً سيسترسياً جميلاً ، وكنيسة خشبية مؤثرة ، مزروعة وسط حقل . وعدنا بالسيارة الى فارصوفيا : وكانت الطريق طوال ثلاثمئة كيلومتر تتموّج بين البراري وحقول الحنطة المخضرّة ، وبيوت الفلاحين ذات السقوف التبنية ، المدهونة بالأصفر او الأزرق . ليس ثمة الا املاك خاصة : فان «اكتوبر» البولوني قد كرّس إخفاق السياسة الجماعية . وكنّا غالباً ما نتجاوز جماعات من الفلاحات المرتديات الثوب التقليدي : سترات وتنانير بألوان فاقعة ، واوشحة معقودة تحت الذقن ؛ لا بدّ انهنّ كن عائدات من حفلة دينية ، برفقة أولادهن الذين يحملون الشموع . إن الدين في الارياف يثقل بكل وزنه . ولقد شاهدنا فيلماً وثائقياً مدهشاً سمح الاكليروس بأخذ صوره شريطة التعهّد بعدم إضافة أيّ تعليق عليه : دربُ صليبٍ يجري كل عام في قرية ، ويشترك فيه جمهورٌ قادم من جميع انحاء البلد ؛ ويرقى المسيح حاملاً صليبه احد الروابي ، فيجهد ويلهث ويعرق ويتعثّر ، ثم يسقط في اقتناع وفنّ عظيمين جداً حتّى تشكّل هذه السقطة حدثاً حقيقياً ؛ ويتبعه رجال وهم يترنّحون تحت ثقل الصخور التّي يتلفون بها أكتافهم ؛ وتتطلّع نساء ، مضيّعات بالنشوة ، باكيات ، على وشك ان يصرخن ؛ ويحيط رجال الاكليروس بأناشيدهم الجميلة المنظّمة لهذا الهيجان الماسوشي . ولكن هذا الفيلم المؤثّر بالقضية التّي يطرحها ، والداعي الى التمرّد بالجواب الذي يحمله ، لا يُعرض على الجمهور . وقد قال لنا أحد اصدقائنا إنّ في المدن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٦٠ بالمئة من المؤمنين ؛ ولكن آخرين يجدون هذا الرقم خاطئاً تماماً. لقد كانت كاتدرائية فارصوفيا غاصّة بالناس صباح الأحد : ولكن سكان الحيّ القديم ذوو أصل بورجوازي ؛ اما العمال ، فلا يذهبون الى الكنيسة ، الرجال منهم على الأقل. اما ما يبقى قوياً ، فهي النزعة المناهضة للسامية : وقد رأينا في احد الافواه البرونزية في النصب التذكاري الذي اقيم تمجيداً لذكرى يهود الحيّ اليهودي ، عقب سيكارة وضعته احدى الايدي الخبيثة.

نظّمت لنا جريدة « بوليتيكا » اجتماعاً بصحفيين كانوا قد شاركوا حديثاً في تحقيق عن المجالس العمالية ، وبرئيس لأحد هذه المجالس : وعلمنا أن هذه المجالس كانت تنهار. فهي تطلب من العمال وقتاً يعجزون عن تأمينه فيتركون المهندسين والموظفين يتخذون كل القرارات ، بسبب عدم اختصاصهم. ولا شك في ان هذه المجالس صائرة الى الزوال.

وقد كنت أعرف معرفة كافية الثقافة البولونية في فترة ما بعد الحرب ؛ وقد شاهدت معظم الأفلام البولونية التي عُرضت في فرنسا ، ومنها « رماد ولؤلؤ » الذي يتميّز بالنضارة والصراحة اللتين تلتمسهما موضة « الموجة الجديدة » والذي يعني شيئاً ما. وكنا قد قرأنا ونشرنا في « التان مودرن » ، منذ عام ٥٦ ، كثيراً من النصوص البولونية. وبالمقابل ، كان معظم مسرحيات سارتر قد مُثّلت في بولونيا ، وتُرجمت كتبه وكتبي. وكان جميع الكتّاب تقريباً يتحدّثون الفرنسية ؛ وكنا قد عرفنا عدداً منهم في باريس : فكانت العلاقات بيننا من أسهل العلاقات. ولم يتح لنا ان نرى « براندييس » الذي كنّا قد نشرنا له « الدفاع عن غرناطة » و « أمّ الملوك » و « رسائل الى السيدة « ز » : وقد كانت نظرته الى الأدب مثل نظرتنا اليه ، وكان في كتابته حارّاً تحت مظاهر توحي بالبُعد ، وكان حسّاساً بقدر ما كان ذكياً. وقد قضينا لحظة طويلة مع جان كوت ، مترجم مسرح سارتر الذي كانت منشورات «التان مودرن» على وشك ان تصدر له كتاباً عن « شكسبير ، معاصرنا ». هذا وقد وُفّر على المثقفين البولونيين الصراع الذي قام في الاتحاد السوفياتي من أجل

حرية الثقافة او ضدها . فهم مطّلعون على ما يجري في الغرب . وهم يكتبون ويرسمون كل ما يريدون تقريباً . ولكنهم ممزّقون ؛ انهم ينتمون الى بلد أقلّ تقدّماً من الاتحاد السوفياتي على درب الاشتراكية حيث تبقى قوى رجعية منها النزعة الدينية ونزعة مناهضة السامية ونزعة الفلاحين المتعلّقين بالملكية الخاصة ؛ ولما كانوا ضد اخضاع هذه القوى بالقسر والإكراه ، فهم يعانون من هذا التأخّر . والحق ان مصير البولونيين القليلي العدد نسبياً ، والضعيفي التصنيع ، مرتبط بمصير روسيا ؛ ولكن لهم من الأسباب القديمة والاسباب الحديثة ما يبرّر لهم عدم محبّتها ، وان كانوا ايديولوجياً وسياسياً متفقين معها ، والكتّاب شديدو الحساسية تجاه هذا الضيق الذي عبّر عنه بعضهم تعبيراً مُعجباً.

* * *

كنا قد عرفنا في موسكو نبأ الاتفاق المعقود بين الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية ومنظمة الجيش السري : كان الجيش السري يوقف أعمال الاغتيال ، بعد ان ضمن العفو العام ؛ والواقع انه كان يستسلم . وسرعان ما حدث لدى المستوطنين الفرنسيين انقلاب جذري : فجميع اولئك الذين بقوا في الجزائر صوّتوا « نعم » يوم الاستفتاء على الاستقلال الذاتي .

واحتفل الجزائريون يوم ٥ تموز باستقلالهم ؛ وقد دعوا اصدقاءهم الفرنسيين ورسميين من جميع البلاد الى حفلة يقيمونها مساءً في فندق كونتيننتال. وسألنا البواب : اين كان يُعقد الاجتماع ؟ فأجاب بلهجة انتصار : « الاجتماع الجزائري ! إنه لم يعقد » وفي الشارع القريب كان زهاء مئة من الأشخاص — هم الذين كنا نلتقيهم في جميع المظاهرات — يتمشّون تحت سماء مثلجة ؛ وكان سفراء قد جاءوا ثم ذهبوا . وكان يقال إن الفندق قد تلقّى تهديدات من منظمة الجيش السري ؛ او ان مفوضية الشرطة قد رفضت الحماية التي رأت ادارة الفندق انها ضرورية . وأياً ما كانت الحجة ، فقد أشمأزتنا من هذه الفظاظة الفرنسية الأخيرة . وقد بقينا هناك نتحدث فيما بيننا ، وقد أسقط في ايدينا ، بينما كان في زاوية الشارع رجال من الشرطة يتمتمون :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« ما الذي ننتظره لنهجم ؟ » واتجهت مع سارتر وفريق صغير الى مركز الطلاب الافريقيين ، بجادة سان ميشال . وكان ثمة كثير من الناس ، ودخان يملأ المكان ، وكان الحضور يختنقون في القاعة الصِغيرة الغاصّة ؛ وكانت ثمة جزائريات جميلات يرتدين اللباس الأبيض والأخضر ، وقد وقفن على منصّة ، ورحن يغنّين ترافقهن جوقة صغيرة . ولم يكن جوّ هذا الحذل خالياً من الغيوم : ذلك ان خلافات خطيرة كانت قد نشبت بين القادة الجزائريين . ولا بدّ ان تنتهي بالتسوية . اما نحن الفرنسيين ، فان الوضع الذي كنّا نترك فيه الجزائر ، لم يكن يسمح لنا بالفرح . منذ سبعة اعوام ونحن نتمنّى هذا النصر : وقد وصل متأخراً اكثر مما ينبغي ليعزّينا من الثمن الذي كلّفه .

لقد ذهبت في عطلة ، ولقد عدت ؛ ومن جديد عُدت الى منزلي ، وكان خريف بارد ازرق يدخل مكتبي . وللمرة الأولى منذ اعوام ، التقيت في شوارع باريس عمّالاً جزائريين كانوا يبتسمون . إن السماء أخفّ ثقلاً من الماضي . لقد طُويت صفحة ، وان بوسعي أن أتأمّل الأمر .

خاتِمَة

سجّلت في حياتي نجاحاً لا شك فيه : هو صلتي بسارتر . وفي اكثر من ثلاثين عاماً لم نم منفصليْن الا مساءً واحداً . وهذا الاقتران الطويل لم يحدّ من الاهتمام الذي كان كلٌّ منّا يوليه الآخر في الحديث : وقد لاحظت احدى الصديقات [1] ان كلاً منا يصغي الى الآخر دائماً بتنبّه كبير . على ان افكارنا قد تبادلت النقد والتصحيح والتأييد بشكل متصل جداً حتى أصبحت كلّها مشتركة بيننا . وإن خلفنا لرصيداً لا ينفصم من الذكريات والمعارف والصور ؛ ونحن نستعمل لالتقاط العالم الآلات نفسها ، والصور نفسها ، والمفاتيح نفسها : وغالباً ما يتمّم احدنا العبارة التي يبدأها الآخر ؛ واذا طُرح علينا سؤال ، يتّفق لنا ان نشكّل معاً جوابين متماثلين . وانطلاقاً من كلمة ، وإحساس ، وظلّ ، نجتاز درباً داخلياً واحداً ، ونبلغ في وقت واحد نتيجة – ذكرى او تقريباً – لا يتوقّعها الآخرون قط . وليس يدهشنا بعدُ ان نلتقي في ألوان خلْقنا نفسها ؛ ولقد قرأت حديثاً تأمّلات سجّلها سارتر حوالي ١٩٥٢ وكنت أجهلها : فاكتشفت فيها مقاطع واردة كلمة كلمة تقريباً في « مذكراتي » التي كتبتها بعد ذلك بعشرة أعوام . صحيح

(١) هي ماريا – روزن اوليفه في مقابلة سجلتها لحساب جريدة ارجنتينية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن مزاجينا واتجاهاتنا واختياراتنا السابقة تظلّ مختلفة ، وقلّما تتشابه آثارنا . ولكنها تنبت في تربة واحدة .

وقد أخذ عليّ أنّ هذا التوافق يناقض الاخلاقية التي تضمّنها « الجنس الثاني » : انني اطالب النساء بالاستقلال ، وانا لم أعرف الوحدة قط . وليست الكلمتان مترادفين ؛ ولكني اودّ قبل ان اوضّح رأيي أن أبعد بعض الحماقات .

لقد روى البعض ان سارتر كان يؤلف كتبي . ونصحني أحدهم ، وهو لا يريد بي شرّاً ، غداة فزت بجائزة غونكور ، بقوله : « اذا اعطيت احاديث صحفية ، أوضحي ان « المثقفون » هي من تأليفك ؛ فأنت تعرفين ما يُقال عنك : من ان سارتر يُمسك بيدك ... » وقد ادّعوا ايضاً انه صنع لي حياتي الأدبية : والواقع ان تدخّله قد اقتصر على ان يقدّم لـ « بريس باران » مخطوطتين لي ، رُفضت إحداهما . لندع هذا . لقد قيل غالباً امامي إن كوليت كانت قد وصلت « وهي تنام » : وهذا لفرط ما يحرص مجتمعنا على ان يبقي مثيلاتي في وضعهن ككائنات ثانوية ، او انعكاسات ، أو دُمى او مصّاصات دم لجنس الذكور الكبير .

ومن باب أولى ، فان افكاري موحاة من سارتر ؛ وقد كتب « جان غيتون » يقول : « لو كانت مع شخص آخر ، لكانت ذات نزعة صوفية » وكتب حديثاً ناقد بلجيكي ، اذا لم أكن مخطئة ، يقول وكأنه يحلم : « لو كان « برازياك » هو الذي التقته ! » وقرأت في جريدة تُدعى « لاتريبون ديزاسورانس » : « لو كانت تحت تأثير عالم لاهوتي ، بدلاً من ان تكون تلميذة لسارتر ، لكانت من المؤمنات المتحمسات بالإله وبالقدر . » وانني بعد مرور خمسين سنة أجد فكرة أبي القديمة : « إن المرأة هي ما يصنع منها زوجها » وقد كان على خطأ كبير ؛ فهو لم يؤثّر قيد شعرة بالتقيّة الشابّة التي رُبّيت في دير « وازو » . وحتّى شخصية « جوريس » الضخمة تحطّمت ازاء عناد زوجته الورعة . والحقيقة ان الشباب له ثقله وصموده : فكيف كان لي ان اصاب ، على الشكل الذي كنت عليه في العشرين من عمري ،

بتأثير مؤمن او فاشستي ؟ ذلك انهم يقرّون عندنا أن المرأة تفكّر بواسطة رَحمها : وما أدنأ هذا حقاً ! لقد التقيت برازياك وطغمته : فكنت اشمئز منهم واستفظعهم . وما كنت أستطيع ان ارتبط الا برجل يُعادي كل ما كنت احتقره : اليمين والخضوع في التفكير والدين . وليس من قبيل الصدفة ان اكون قد اخترت سارتر : لأنني في آخر المطاف قد اخترته . لقد تبعته في جذل لأنه كان يقودني في دروب كنت اريد ان اسلكها ؛ وفيما بعد ، ناقشنا دائماً طريقنا . واتذكّر اني حين تلقّيت عام ١٩٤٠ آخر رسالة له من « برومات » وكانت عجلى وغامضة بعض الشيء ، ذُعرت لدى قراءتي احدى العبارات للمرة الأولى ، وتساءلت : تُرى ، هل يتخاذل سارتر ويتعاقد ؟ وفي الدقيقة التي غمرني فيها هذا الخوف ، شعرت في تصلّبي وألمي اني اذا أخفقت في اقناعه بألاّ يفعل ، فاني سأعيش بعد ذلك ضدّه الى الأبد .

يبقى ان المبادرات ، فلسفياً وسياسياً ، انما صدرت عنه . ويبدو أن بعض النساء الشابات قد أصبن من ذلك بخيبة : فأنا أقبل هذا الدور « النسبي » الذي أنصحهنّ في الفرار منه . لا . إن سارتر هو الخالق ، ايديولوجياً ، ولست أنا ؛ لقد دُفع الى هناك بمواقف سياسية ، فتعمّق أسبابها اكثر مما اهتممت ان أفعل : وانما انا اخون حريتي اذا رفضت ان اعترف بألوان التفوّق هذه ؛ انني اذذاك سأكون في موقف المنافسة والنية السيئة اللتين تنشأان عن صراع الجنسين واللتين هما مناقضان للكرامة الفكرية . لقد حافظت على استقلالي ، لأنني لم ألق قطّ مسؤولياتي على سارتر : وانا لم أقرّ اية فكرة واي حلّ الاّ بعد ان اكون قد نقدتّهما وأخذتهما لحسابي . وان انفعالاتي قد جاءتني من اتصال مباشر بالعالم . وقد اقتضاني تأليف كتبي الخاصة دأباً وبحثاً وتقريراً وصراعاً وعملاً . ولقد ساعدني سارتر ، وساعدته كذلك . وأنا لم أعش من خلاله .

والحقيقة أن هذه التهمة سلاح واحد من الاسلحة التي استعملها خصومي ضدي . ذلك أن قصتي العامة هي قصة كتبي ، وانتصاراتي وهزائمي ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكذلك قصة الهجمات التي تعرّضت لها.

اذا كتبت امرأة في فرنسا، أعطت الناس مقارع ليضربوها بها. ولا سيما اذا كانت في السن التي كنت فيها حين بدأت كتبي تُنشر. فاذا شاخت، قدموا لها عبارات الاجلال والاحترام. اما اذا فقدت نضارتها الاولى، من غير ان تكتسب بعدُ صدأ القِدَم، ثم جرؤت على أن تتكلم، فما اعنفه هجوماً ذلك الذي تتعرض له! واذا كنتِ يمينية، واذا انحنيت في رشاقة ازاء تفوّق الذكور، واذا صمتّ بوقاحة فلم تقولي شيئاً، فانهم يوقّرونك. اما انا، فيسارية، وقد حاولت ان أقول أشياء، ومنها أن النساء لسن كسيحات بالولادة.

وقد كان نلسون الغرين يقول لي في ربيع ١٩٦٠: «لقد ربحتِ؛ فقد كوّنت الاعداء الذين يجب ان يكونوا اعداءك.» أجل؛ لقد كانت شتائم مجلات «ريفارول» و «بروف» و «كارفور» وجاك لوران تبهجني. ولكن المزعج ان سوء النية ينتشر انتشار لطخة الزيت. إن الشتائم تجد فوراً اصداء لها، إن لم يكن في القلوب، ففي الافواه على الاقل! ولا شك في احد اشكال هذا الاستياء الذي نحسّه جميعاً ألاّ نكون إلاّ هذا. اننا قادرون على أن نفهم، ولكننا نفضّل ان نبتلع. والكتّاب بصورة خاصة مستهدفون لهذا الخبث؛ إن الجمهور يقدّسهم فيما هو عارفٌ جيداً انهم كسائر البشر، وهو يؤاخذهم على هذا التناقض؛ وجميع الدلالات التي تقرّر بشريتهم، إنما يعتبرها ممسكاً عليهم. وقد كتب ناقد اميركي، حسن النية، اني في «قوة العمر» قد أنزلت سارتر من قاعدته، رغم جهودي: ولكن اية قاعدة؟ كان الكاتب ينهي فكرته مع ذلك بأن سارتر اذا فقد قليلاً من نفوذه، فسيزداد حبّ الناس له. واذا اكتشف الجمهور انك لست فوق البشر، فانه يُخفضك عادة الى ما تحت النوع، فيجعلك مسخاً. ولقد كنّا بين اعوام ٤٥ و ٥٢ ندعو بصورة خاصة الى التمرّد والالتواء، لأننا كنا نصمد للتصنيفات: لقد كنّا في اليسار، ولكن غير شيوعيين، بل كان الحزب الشيوعي ينظر الينا

نظرة استياء ، غير أننا لم نكن « بوهيميين » ؛ وكان يؤخذ عليّ أن اعيش في الفندق ، وعلى سارتر ان يعيش مع أمه ؛ على اننا كنا نرفض الإطارات البورجوازية ، ولم نكن نعاشر « اشخاص المجتمع » ، وكنّا نملك مالاً ، ولكننا لم نكن نملك « طريقة » للحياة ، كان احدنا مشدوداً الى الآخر بصميمية ، ولكنه لم يكن مستعبَداً للآخر ، وكان انعدام الصوى هذا يُزعج ويُحيّر . فقد استغربت قبلاً ان تغضب جريدة « سامدي – سوار » للمبلغ الذي دفعناه اجرة لسيارة عامة نقلتنا من « بوسعدى » لـ « جلفا » : والحق ان ركوب سيارة اجرة لمسافة خمسين كيلومتراً يشكل بذخاً اقل جداً من بذخ امتلاك سيارة . على انه لم يأخذ عليّ أحدٌ ، بعد ذلك ، أن أشتري سيارة « اروند » : فهذا إتفاق كلاسيكي يدخل في القوانين البورجوازية .

إن ما يساعد على تشويه صورة الكتّاب ، هو عدد المولعين بالكذب الذين يُدخلوننا في حكاياتهم . وقد كانت اختي ، في فترة ما ، تجتمع الى كثيرين ، وكانت تُقدَّم لهم باسم زوجها : فكانت تُذهل لما كانت تسمعه حين كان الحديث يتناولني . « انني اعرفها جيداً . انها صديقة حميمة لي .. والحق اني كنت أتعشى معها في الاسبوع الماضي » : وتكون الحقيقة أن اولئك أشخاص لم يسبق لي قط ان رأيتهم . وكانت التعليقات تهطل كالمطر . وكانت اختي تصغي وهي تبتسم الى صديقة تُسرّ لها متحدّثةً عنّي : « انها بائعة سمك ! وحديثها يشبه حديث الحراس والجندرمة ! » وذات مرة ، قال لي فرنان وستيفا في نيويورك بلهجة عتاب : « لماذا تخفين عنا انك تزوجت بسارتر ؟ » فأنكرت ذلك ؛ فضحكا : « كفى ! لقد كان صديقنا « سوفاج » شاهداً لعرسكما : وقد روى لنا ذلك هو نفسه » واضطررت ان أريهما جواز سفري لإقناعهما . وحوالي ٤٩ ، نشرت فرانس روش خبراً في « فرانس – ديمانش » مفاده أننا كنا قد اشترينا انا وسارتر ملكاً لنا اسمه « لابيرل » وحفرنا صورة قلبين على احدى الاشجار . وأرسل سارتر تكذيباً لم تنشره الجريدة ، وقالت الكاتبة لصديق لنا : « ولكنني أخذت الخبر من « ز » الذي تناول الشاي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معهما في الحديقة » ولا ازال اذكر تلك المرأة الشابة التي اقتربت مني على خجل في مقهى « دوماغو » وقالت : « اعذريني لازعاجك ، ولكني صديقة حميمة لبرتران ج » فنظرت اليها نظرة استفهام ، وبدت مندهشة : « برتران ج الذي تتناولين الغداء معه كل اسبوع ؟ » فحزنت لها وقلت بسرعة : « لا ريب في انك تخلطين بيني وبين اختي الرسامة واسمها هيلين دوبوفوار ، ولا شك في انه صديق لها » فقالت : « لا .. ليست القضية قضية اختك ... لقد فهمت ؟ فالمعذرة ... » وذهبت مستطارة اللب، واعيةً الحقيقة بشكل قاسٍ أشعرني بالذنب . والمولع بالكذب لا يثير الاهتمام طبعاً الا اذا روى وقائع هامة — كزواج سري مثلاً — او تفاصيل مدهشة ؛ والجمهور يستمع اليه بلذة لأنه يحبّ القيل والقال . وهناك أشخاصٌ هوس لا تكون الواقعة مدللاً عليها عندهم الا اذا فوجئتْ من ثقب قفل . وانا أجد معاذير لهذه النقيصة : فان القصص والصور الرسمية ترشح كذباً ، والناس يتصورون ان للحقيقة اسرارها وعارفيها وشبكاتها . وإن خصومنا يستغلّون هذا الموقف.

لقد صُنعت لي صورتان : فأنا مجنونة ، نصف مجنونة ، شاذّة . (وقد كانت صحف ريو تُعلن في دهشة : «كنا ننتظر امرأة شاذة ؛ ولكن خاب املنا اذ رأينا امرأة تلبس كما يلبس الناس جميعاً ») واخلاقي هي اكثر الاخلاق انحلالاً ؛ وكانت احدى الشيوعيات تروي عام ٥٤ اني روئيت في شبابي وانا ارقص عارية على البراميل في « روان » ؛ واني قد مارست جميع الرذائل بلا انقطاع ، وان حياتي هي كرنفال الخ ...

إنني قائدة فرقة من الكشافة ، بحذاء مسطّح وخصلة شعر مرفوعة ؛ وانا رئيسة موئسسة خيرية ، ومعلّمة (بالمعنى الحقير الذي يطلقه اليمين على هذه الكلمة) وانا اقضي حياتي في الكتب امام طاولة عملي ، عقل محض . وقد سمعت صحفية شابة تقول عني : « انها لا تعيش ، ولو قد دُعيتُ الى ندوة الاثنين للسيدة ت ، لركضت اليها ركضاً » ونشرت مجلة « ايل » ذات مرة صوراً لنماذج من النساء ، فكتبت تحت صورتي : « حياة فكرية لا غير » .

وليس ثمة ما يمنع من التوفيق بين الصورتين . فبامكان المرأة أن تكون مجنونة عقلية ، وسيدة مترئسة ماجنة ؛ المهم ان يظهروني كامرأة غير طبيعية . واذا كان مراقبيّ يعنون اني لا أشبههم ، فانهم يمتدحونني . والواقع هو اني كاتبة : امرأة كاتبة ، وليست هي ربة منزل تكتب ، وانما شخص تقود الكتابة حياته كلّها . وقيمة هذه الحياة كقيمة اية حياة اخرى . إن لها اسبابها ونظامها وغاياتها التي لا بدّ لمن يحكم عليها بأنها معتوهة ان يكون غير فاهم شيئاً . أصحيح ان حياتي كانت حقّاً مترهّدة ، وعقلية محضاً ؟ عجباً يا آلهي ! اني لا أحسّ بأن معاصريّ يتسلّون اكثر مني الى هذا الحدّ على هذه الأرض ، ولا أنّ تجربتهم أوسع من تجربتي . وعلى اي حال . فاني اذ ألتفت إلى ماضيّ لا أحسد أحداً .

لقد دُرّبت في شبابي على ألاّ اكترث بالرأي العام . ثم إن سارتر وصداقات متينة كانت تحميني . ومع ذلك ، فاني لم أكن أحتمل بعض الهمسات وبعض النظرات : ومنها قهقهات موررياك والشبان الذين كانوا يصحبونه في مقهى « دوماغو ». ولقد كرهت طوال أعوام أن أظهر في الناس : فانقطعت عن ارتياد المقاهي ، وتجنبت حضور الحفلات الاولى المسرحية والسينمائية وجميع السهرات التي توصف بأنها باريسية . وكان هذا التحفظ ينسجم مع زهدي بالدعاية : فأنا لم أظهر في التلفزيون قط ، ولم أتحدث عن نفسي بالراديو ، ولم أعط احاديث صحفية تقريباً . وقد أوضحت لماذا قبلت جائزة غونكور ، ولكني رفضت في تلك الفترة كل عرض وظهور . ولم اكن اريد ان أدين بنجاحي لتدخلات خارجية ، بل لعملي وحده . وكنت اعرف ان الصحافة بمقدار ما تتحدث عني تشوّهني : ولقد كتبت هذه المذكرات ، الى حد بعيد ، لكي اعيد الحقيقة الى نصابها ، وقد قال لي كثير من القراء انهم كانوا قد أخذوا عني فعلاً افكاراً مشوهة كل التشويه . صحيح أنّ لي بعدُ اعداء ، ولو كان الأمر خلاف ذلك لقلقت . ولكن كتبي ، مع الزمن ، فقدت رائحة الفضيحة ؛ وقد أضفت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليّ السنّ ، واحسرتاه ، بعض الاحترام ؛ وكسبت خصوصاً جمهوراً يصدّقني حين أتحدث اليه . وقد جُنبت الآن ما في الشهرة من نواحٍ سيئة .

وأنا لم اذق في البدء إلاّ مباهج الشهرة ، وفيما بعد تفوقت هذه المباهج دائماً على المساويء . ولقد منحتني ما كنت أصبو اليه : ان يحبّ الناس كتبي ، ويحبوني عبَرها ؛ ومنذ « المدعوة » عرفت فرحة ان يصغي إليّ الناس وان اوْدي لهم خدمة بأن اكشف لهم العالم كما كنت أراه . وأنا لم أتجنب أن أؤخذ بالوان من السراب ، ولم أجهل الغرور : فهي تولد منذ ان يبتسم المرء لصورته ، وما ان يرتعش لصدى التلفّظ باسمه . ولكني على الاقل لم يبلغ بي الأمر الى التظاهر بأهميتي .

ولقد تقبلت الهزائم بروح طيبة دائماً ، ولم اعتبرها إلاّ نقصاً في الربح ، وهي لم تكن تسدّ أمامي الطريق . ولقد منحتني ضروب النجاح التي أصبتها حتى هذه السنوات الأخيرة مباهج لا يعكرّها شيء ؛ وكنت أعلق على أصوات القراء اهمية تفوق التي أعلقها على مدائح النقاد المتهنين ، فأفضّل الرسائل والعبارات التي تُطلق على الطائر وبقايا تأثير ما او عمل ما . ومنذ « مذكرات فتاة رصينة » ولاسيما « قوة العمر » أصبحت علاقاتي بالجمهور ملتبسة جداً لأن حرب الجزائر قد فاقمت الى ابعد الحدود الاشمئزاز الذي توحيه لي طبقتي . وعلى من لا يروق لها ألاّ يرجو ان يكسب جمهوراً شعبياً : فان الكاتب لا تطبع كتبه في طبعة شعبية إلاّ إذا بيعت الطبعة العادية جيداً . وإذن ، فاننا على رضى منا او مضض انما نتوجه الى البورجوازيين . والحق ان فيهم من ينتزعون أنفسهم انتزاعاً من طبقتهم او يجهدون من أجل ذلك على الأقل : وهم المثقفون والشباب . وأنا متفاهمة مع هؤلاء . ولكني أحس بالاستياء اذا تقبلتني البورجوازية بمجموعها تقبلاً حسناً . وكثيرات هن القارئات اللواتي قدرن في « مذكرات فتاة رصينة » تصوير وسط كنّ يتعرّفنه ، من غير ان يهتممن بالجهد الذي بذلته لأفرّ منه . اما « قوة العمر » فغالباً ما كنت أكزّ على اسناني حين اسمع بصدده التهنئة : « انه محيي ، ديناميكي ، متفائل »

في وقت كان اشمئزازي يبلغ فيه حداً كنت اوثر معه ان اكون ميتة على ان اكون حية .

اني حساسة امام الذم وأمام المدح . ومع ذلك ، فما ان أحفر قليلاً في نفسي حتى ألتقى قدراً كافياً من اللامبالاة ، يلامس مستوى نجاحي . وقد قلت اني في الماضي كنت بدافع الاعتزاز والحذر اتجنب أن آخذ احتياطاتي ؛ اما اليوم فلا ادري بعد بأي مقياس أقيس : أينبغي أن أرجع الى الجمهور ؛ ام الى النقاد ، ام الى بعض القضاة المختارين ، ام الى اقتناع صميمي ، ام الى الضجيج ، ام الى الصمت ؟ وما الذي يقيّم ؟ الشهرة ام مزية العمل ، التأثير ام الموهبة ؟ وحتى هذا : ما الذي تعنيه هذه الكلمات ؟ إن هذه الاسئلة نفسها والاجوبة التي يمكن ان تعطى لها تبدو لي عديمة الفائدة . إن تجرّدي اشدّ من ذلك جذرية ؛ إن له جذوره في طفولة مرصودة للمطلق : ولقد بقيت مقتنعةً ببطلان كل نجار أرضي . وقد قوّى تعرّفي العالم هذا الاحتقار ؛ فقد اكتشفت فيه شقاءً اكبر جداً من ان اقلق كثيراً للمكان الذي أحتلّه فيه وللحقوق التي يمكن ان املكها او لا املكها في احتلاله .

وبالرغم من خلفيّة زوال الاوهام هذه ، واضمحلال كل فكرة للوكالـــة والرسالة والخلاص ، وبالرغم من اني لا أعرف بعدُ لمن اكتب ولماذا ، فان هذا النشاط ضروريّ في اكثر من اي وقت مضى . وانا لا اعتقد بعدُ أنه « يبرّر » فحسب ، بل سوف أحسّ اني بدونه غير مبرّرة بصورة مميتة . إن هناك اياماً جميلة جداً حتى ليرغب المرء في ان يسطع كالشمس ، أعني ان يلطّخ الأرض بالكلمات ؛ وهناك ساعات سوداء جداً حتى لا يبقى ثمة بعد أملٌ آخر غير هذه الصرخة التي يودّ لو يطلقها . وما هو مصدر هذه الطاقة العجيبة « للكلمة » التي تأتي المرء وهو في الخامسة والخمسين ، مثلما تأتيه وهو في العشرين ؟ انى اقول : « لم يكن لشيء مكان إلاّ المكان » او « واحد وواحد يساويان واحداً : اي سوء تفاهم ! » ويصعد في حلقي لهيب يبثّ حريقَه فيّ الحماسة . لاشك في أن الكلمات العالمية ، السرمدية ، التي هي حضور الجميع لكل فرد ، هي التفوّق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوحيد الذي أعترف به وانفعل له ؛ انها ترتعش في فمي ، وبها اتصل بالبشرية . انها تنتزع من اللحظة ومن لالزوميتها الدموع والليل والموت نفسه وتغير ملامحها . وربما كانت أعمق رغبة لديّ اليوم هي ان يردّد الناس في صمت بعض كلمات وصلاتُها فيما بينها .

إن ثمة مزايا بدهية في ان يكون المرء كاتباً معروفاً ؛ فليس ثمة عليه بعدُ سخرة غذائية ، بل امامه عملٌ مُراد ، ولقاءات ، وأسفار ، وسلطةٌ اكثر مباشرةً مما قبل على الأحداث . وتأييد المثقفين الفرنسيين مطلوبٌ من قبل عدد كبير من الأجانب المختلفين مع حكومتهم ؛ وغالباً ما يُطلب الينا ايضاً ان نسجّل تضامننا مع امم صديقة . ونحن جميعاً مرهقون بعض الشيء بالبيانات والاحتجاجات والقرارات والتصريحات والنداءات والرسائل التي ينبغي لنا ان نحرّرها او نوقّعها ، ومن المستحيل ان نشارك في جميع اللجان والمؤتمرات والجلسات والندوات التي نُدعى الى حضورها . ولكنْ مقابلَ الوقت الذي نعطيهم إيّاه ، يقدّم لنا الأشخاص الذين يطلبون تأييدنا معلومات أوسع وأدق واكثر حياة بالخصوص من اية صحيفة عما يحدث عندهم : في كوبا ، وغينيا ، وجزر الأنتي ، وفنزويلا والبيرو ، وكاميرون ، وانغولا ، وافريقيا الجنوبية . وبالغاً ما بلغت مشاركتي في صراعاتهم من التواضع ، فهي تمنحني الإحساس بأنني أشدّ التاريخ بأسناني . واذا لم تكن لي علاقات اجتماعية ، فان لي علاقات مع مجموع العالم . وقد قال لي صديق في عتاب : « انك تعيشين في دير » فليكن . ولكني أقضي كثيراً من الساعات في قاعة الاستقبال .

على اني رأيت في ضيق وكآبة الشهرة تنقضّ على سارتر وتولد شهرتي . وقد فقدنا عدم الاهتمام منذ اليوم الذي أصبحنا فيه شخصين عامّين ، فوجب ان نحسب حساب هذه الموضوعية ؛ لقد خسرنا الجانب المغامر من اسفارنا القديمة ؛ وكان لا بدّ من أن نعدل عن الأهواء والتسكّعات . وكان علينا ، لنحمي حياتنا الخاصة ، ان نقيم حواجز — فنغادر الفندق والمقاهي — وقد ثقل عليّ هذا الفراق انا التي كنت أحبّ كثيراً أن أعيش مختلطة بالجميع . صحيح انني ارى كثيرين :

ولكن معظمهم لا يتحدّثون اليّ بعد كما يتحدّثون الى اي فرد ، وقد تشوّهت بذلك علاقاتي معهم. وقد قال كلود روي: « إن سارتر لا يعاشر قط الا الأشخاص الذين يعاشرون سارتر » . ويمكن ان تنطبق هذه الكلمة عليّ . وانا اوشك أن أفهمهم أقلّ ، لأنني لا أقاسمهم بعدُ مصيرهم تماماً . وهذا الاختلاف صادرٌ عن الشهرة نفسها وعمّا تجلبه من يسر ماديّ .

وانا اقتصادياً امرأة تتمتّع بالامتيازات . فان كتبي تردّ عليّ منذ عام ١٩٥٤ مالاً كثيراً ؛ وقد اشتريت سيارة عام ٥٢ وشقة عام ٥٥ . وانا لا أخرج ولا أستقبل الناس ؛ وقد ظللت أمينة لما كنت أنفر منه وانا في العشرين ، فأنا لا أحب اماكن البذخ ؛ وألبس الثياب بلا فخفخة ، وآكل احياناً بشكل جيد جداً ، وغالباً بكمية ضئيلة ؛ ولكنّ هواي هو وحده الذي يقرّر هذا كلّه ، وانا لا احرم نفسي من شيء . ويأخذ عليّ بعض المراقبين هذه البحبوحة : أشخاص من اليمين طبعاً ؛ ذلك ان رجال اليسار لا يأخذون على رجل يساري قطّ انه غنيّ حتى ولو كان ملياردير اً ١ ؛ يسرّهم فحسب ان يكون يسارياً ، لا علاقة للايديولوجية الماركسية بالاخلاق الانجيلية ، فهي لا تطالب الفرد الا بالزهد والتقشف ولا بالعوز : والحقيقة انها لا تكترث بحياته الخاصة . اما اليمين فهو من شدة الاقتناع بشرعية ادعاءاته بحيث لا يستطيع خصومه ان يبرّروا أنفسهم في نظره الا بالاستشهاد ؛ ثم إنّ مصالحه الاقتصادية هي التي تُملي عليه مواقفه ، وهو لا يتصوّر أن من الممكن للأمرين ان ينفصلا : إنه يعتقد ان الشيوعي الذي يملك مالا لا يمكن ان يكون مخلصاً . وأخيراً ، وخصوصاً ، فان اليمين يحرق جميع الأخشاب حين تكون القضية مهاجمة رجال اليسار . انها قصة الطحّان وابنه وحماره . وقد كتب معلّق ، كان يجهد في الحقيقة ليكون موضوعياً ، يقول بعد بعد أن قرأ « قوة العمر » اني احبّ « الامكنة الرديئة » ، لأني كنت في أثناء الحرب قد نزلت في فنادق قذرة ، بسبب قلة وسائلي : فما الذي لن يقولوه اذا

---

(١) وهناك أصحاب مليارادات يساريون في اميركا الجنوبية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عرفوا أني اقيم اليوم في بيت حقير؟ إن معطفاً يقي البرد هو تنازلٌ للبورجوازية ؛ اما لباس مهمل فسيُعتبر من التصنّع او من قلة الحشمة . إن الناس يتهمونك اما بأنك تلقي المال من النوافذ واما بأنك شحيح . ولا تعتقدْ ان ثمة حداً وسطاً : فانهم سيكرّسونه على انه نوعٌ من الحساسة . والحل الوحيد هو أن تتبع إلهامك وتدع الناس يقولون .

ولكن ذلك لا يعني أني أتدبّر وضعي في جذل . فان الضيق الذي عانيته من هذا الوضع حوالي ١٩٤٦ لم يتبدّد . انا أعلم انني نفعيّة ، وقبل كل شيء بالثقافة التي تلقّيتها والامكانات التي منحتني اياها . انني لا أستغلّ أحداً بصورة مباشرة ولكن الأشخاص الذين يشترون كتبي هم جميعاً منتفعون من نظام اقتصادي قائم على الاستغلال . انني شريكة في الذنب مع اصحاب الامتيازات ومشوَّهةٌ بهم ؛ من أجل هذا عشت حرب الجزائر كمأساة شخصية . إن من يسكن عالماً ظالماً ، لا يجديه ان يؤمّل ، بأية طريقة ، ان يتطهّر من الظلم ؛ وما يجب انما هو تغيير العالم . ولست املك القدرة على ذلك . ولا يجدي نفعاً معاناة هذه التناقضات ؛ اما نسيانها ، فكذبٌ على النفس . وفي هذه النقطة ايضاً ، لاستحالة الحلّ ، أدَعُ نفسي لألوان مزاجي . ولكن نتيجة هذا الموقف ، هو انعزال كبير ؛ إن وضعي الموضوعي يقطعني عن البروليتاريا ، والطريقة التي أعيش بها هذا الوضع بصورة ذاتية تنصبني في وجه البورجوازية . وهذه العزلة النسبية تلائمني ، لأن الزمن دائماً يدركني ؛ ولكنها تحرمني من حرارةٍ ما — وجدتها من جديد بكثير من الفرح ، هذه السنوات الأخيرة ، في المظاهرات — ثم انها تحدّ تجربتي ، وهذا ما هو الأخطر بالنسبة لي .

والى هذه التشويهات التي هي عكس حظوظي ، يُضاف تشويهٌ آخر لا أجد له أيّ تعويض . ان أهمّ ما وقع لي منذ عام ١٩٤٤ ، مما لا يمكن اصلاحه ، هو انني قد شخت — على غرار « زازي » . وهذا يعني اشياء كثيرة . وأولها أن العالم حولي قد تغيّر : لقد صَغُرَ ودقّ . وانا لا أنسى بعدُ أن مساحة العالم قد انتهت ، وانتهى عدد سكانها ، وجوهر نباتها وانواع حيوانها ، وكذلك عدد اللوحات ،

والكتب والتماثيل التي وضعت فيها . وكل عُنصر يُشرَح بهذا الموضوع ولا يُرجَعُ إلاّ اليه : فغناه ايضاً محدود . حين كنّا شابين ، انا وسارتر ، كنا نلتقي غالباً « فرديّات فوق فرديتنا » اي انها كانت تصمد للتحليل ، محتفظةً لعيوننا ببعض سحر الطفولة . وقد انحلّت نواة هذا السرّ : فقد مات ما يفتُن ، ولم يعد المجانين يبدون لي مقدّسين ، وكفّت الجماهير عن ان تُسكرني . اما الشباب الذي كان في الماضي ساحراً ، فاني لا أرى فيه بعدُ الا طليعة النضج . صحيح أن الواقع ما يزال يثير اهتمامي ، ولكن حضوره لا يصعقني بعدُ . ومن المؤكد ان الجمال يبقى ؛ وبالرغم من انه لا يحمل لي بعدُ كشفاً مذهلاً ، وبالرغم من أن معظم أسراره قد فشت ، فانه يتفق له بعدُ ان يوقف الزمن . وانا ايضاً غالباً ما أحتقره . وقد كنت ذات مساء تقع فيه مذبحة أستمع الى قطعة لبتهوفن ، فأوقفت الاسطوانة في غضب : كان ثمة كلّ ألم العالم ولكنه مكبوتٌ ومصعّد بشكل رائع جداً حتى ليبدو مبرّراً . إن جميع الآثار الجميلة تقريباً قد صُنعت لذوي الامتياز ، وصنعها ذوو امتياز استطاعوا ، حتى ولو تألّموا ، ان يعبّروا عن حالتهم بآلامهم : وهذه الآثار تقنّع فضيحة الشقاء العاري [1] . وفي مساء يوم آخر حدثت فيه مذبحة اخرى — وذهب ضحيتها الكثيرون — تمنّيت ان تتلاشى جميع هذه الألوان الكاذبة من الجمال . اما اليوم ، فقد ابتعدت الفظاعة. وباستطاعتي ان أستمع الى بتهوفن . ولكنه لا يستطيع هو ولا سواه ان يعطيني ابداً هذا الشعور الذي كنت أحسّه أحياناً بأني ابلغ مطلقاً من المطلقات .

ذلك اني اعرف الآن حقيقة الوضع البشري : إن ثلثي البشرية جائعون . وإن جنسي مكوّن ، في ثلثيه ، من دود اشدّ ضعفاً من ان يثور . وهو يجرّ من الولادة حتى الموت يأساً شفَقياً . ومنذ شبابي ، تعاودني في النوم اشياء جامدةٌ في المظهر

---

(١) الفن الشعبي : باستثناء بعض الآثار التي أصفها بأنها « وحشية » : فقد استمعت مثلا الى نشيد حاخام حول موتى « اوشويتز » والى نشيد صبي يهودي يروي قصة إحدى الحركات المناهضة للسامية ؛ ولم يكن في هذين الصوتين التالفين ما يهدىء . ومع ذلك ، فان اللجوء ، حتى في هذه الحالة ، الى محاولة النقل والاتصال يميل الى تجاوز الفضيحة التي هي بالتعريف مطلق الشر الذي لا يمكن استرداده .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن يسكن فيها عذابٌ ما ؛ وتأخذ عقارب ساعة في الجري، لا يُحرّكها بعدُ نظامٌ آلي ، بل فوضى عضوية خفيفة وكريهة ؛ وتنزف قطعة خشب تحت الفأس ، وبعد لحظة سيُكشف كائن مقطّع الأوصال بشكل فظيع عن نفسه تحت غطائه المخشوشب . انني أجد هذا الكابوس ثانية وانا مستيقظة اذا تذكّرت هياكل «كالكوتا» التي تسري فيها الحياة ، او تلك القِرَب الصغيرة ذات الوجوه البشرية : اولاد سيئو التغذية . هنا فقط ألامس اللامنتهي : إنه غيبوبة كل شيء، وهو مع ذلك واعٍ . انهم سيموتون ، وليس ثمة شيء آخر قد وُجد . إن العدم يُفزعني أقل مما يفزعني مطلق الشقاء .

ليست لديّ الرغبةُ بعدُ في الترحّل على هذه الأرض المفرّغة من أعاجيبها : إن المرء لا يتوقّع شيئاً إن لم يتوقّع كل شيء . ولكني أودّ كثيراً أن أعرف تتمة قصّتنا . إن الشباب هم بالغو المستقبل، ولكني أهتمّ بهم؛ إن المستقبل في ايديهم، واذا تعرّفت في مشاريعهم مشاريعي ، يخيّل إليّ إن حياتي تمتدّ الى ما وراء قبري. انني ألتذّ بصحبتهم ؛ على ان التعزية التي يحملونها لي مشكوك فيها : انهم يسرقون مني هذا العالم ، إذ يخلّدونه . فستكون « ميسين » لهم والـ « بروفانس » و « رامبرانت » وساحات روما . وأيّ تفوّق للمرء ان يكون حيّاً ! إنّ جميع الأنظار التي استقرّت قبل نظري على « الاكروبول » تبدو لي باطلة . وقد بدأت أراني ، في هذه العيون ، عيون ذوي العشرين عاماً ، ميتةً مكفّنة .

ماذا أرى ؟ إن من يشيخ يتحدّد وينقُص . لقد تخبّطت ضدّ الطوابع ، ولكني لم أستطع أن امنع السنين من ان تسجنني . وسوف أسكن طويلاً هذا الديكور الذي حطّت فيه حياتي ؛ وسوف أبقى وفيّة للصداقات القديمة ؛ وسيبقى مذخور ذكرياتي ، ولو اغتنى قليلاً . لقد كتبت بعض الكتب ، ولم اكتب سواها . وفي هذا الصدد ، يبلبلني شيءٌ ما . لقد عشت مشرئبّة نحو المستقبل ، وأنا الآن استسلم للماضي : فكأنّ الحاضر قد اختُطف . ولقد فكّرت طوال أعوام بأن نتاجي كان أمامي ، وها هو الآن ورائي : فلم يكن له مكان في اية لحظة . وهذا يشبه ما يسمّى في الرياضيات « قطعاً » ، هذا العدد الذي لا

مكان له في أيّ من السلسلتين اللتين يفصلهما . كنت أتعلّم ليوم من الايام أن أستخدم علمي ؛ وقد نسيت نسياناً هائلاً ، ولا ارى ما استطيع ان أفعله مما هو عائم . واني اذ اتذكّر قصتي ، أجدني دائماً إمّا « قبل » او « بعد » شيء لم يكتمل قطّ . ولم أحسّ إحساساً ممتلئاً كاملاً إلاّ بمشاعري .

ومع ذلك ، فقد اوتي الكاتب حظّ ان يُفلت من التحجّر في اللحظات التي يكتب فيها . انني في كل كتاب جديد ، أبداً . وأشكّ ، وتثبط همّتي ، وينهار عمل السنوات الماضية ، وتكون مسوّداتي من الاختلاط بحيث يبدو لي مستحيلاً ان اتابع المشروع : حتى اللحظة — التي لا تُلتقط ، فهنا ايضاً « قطع » — والتي أصبح فيها مستحيلاً ألاّ أنجزه . وكل صفحة ، وكل عبارة تتطلّب خلقاً نضراً ، وعزماً لا سابق له . إن الخلق مغامرة ، إنه شباب وحرّية .

ولكن ما أن اترك طاولة عملي ، حتى يتجمّع خلفي الزمن المنقضي . وأجد أشياء اخرى أفكر فيها ؛ وفجأة ، اصطدم بسنّي . إن هذه المرأة المتجاوزة النضج هي معاصرتي : وأتعرّف وجه هذه الفتاة الصبيّة المبطيء على بشرة مسنّة . ويقول في هذا السيّد الشائب ، الذي يشبه أحد أعمامي ، اننا لعبنا معاً في اللكسمبورغ . وتقول لي امرأة في الثلاثين : « انك تذكرينني بأمي » . وفي جميع المنعطفات تقفز الحقيقة عليّ ، ولا أدرك جيداً أية حيلة لجأت اليها لتبلغني من الخارج ، في حين انها تسكنني .

الشيخوخة : إنها من البعيد تعتبر قانوناً وسنّة ؛ ولكنهم شبّان هم الذين يجدون أنفسهم وقد أصبحوا فجأة شيوخاً . لقد قلت لنفسي يوماً : « إنني في الأربعين ! » وحين استيقظت من هذه الدهشة ، كنت قد أصبحت في الخمسين . ولم يتبدّد الذهول الذي تملّكني آنذاك .

انني لا أنجح في أن اصدّق . وانا حين أقرأ مطبوعاً اسم : سيمون دوبوفوار انما يحدّثونني عن فتاة صبية هي أنا . وغالباً حينما أنام أحلم في النوم اني في الرابعة والخمسين ، واحلم اني افتح عيني واني في الثلاثين : وتقول المرأة الشابة التي استيقظت يقظة زائفة : « اي كابوس فظيع كان هذا الحلم ! » ويحدث احياناً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اخرى ، قبل ان اعود الى العالم ، ان يجلس وحش هائل على صدري : « صحيح ! إن الصحيح هو كابوسُ ان يكون عمري اكثر من خمسين عاماً ! » فكيف يستطيع ما ليس له شكل ولا مادّة ، الزمن ، ان يسحقني بهذا العبء الثقيل جداً حتى لأكفّ عن التنفّس ؟ وكيف يمكن لما لا يوجد ، المستقبل ، أن يُحسَبَ هذا الحساب الدقيق ؟ إن عيد ميلادي الثاني والسبعين قريب بمقدار ما هو قريبٌ يوم التحرير .

ولا عليّ ، لكي أقتنع بذلك ، إلاّ ان أنزرع امام المرآة . لقد فكرت يوماً ، وانا في الاربعين : « إن الشيخوخة تترصّد في قعر المرآة ؛ وسوف تستولي عليّ ، فهذا مقدور » واستولت عليّ . وغالباً ما أقف ، مندهشة ، امام هذا الشيء الذي لا يُصدّق والذي أستخدمه وجهاً لي . وأفهم موقف « كاستيغليون » التي كانت قد حطّمت جميع المرايا . وكان يخيّل إليّ اني كنت قليلة العناية بمظهري . وهكذا فان الأشخاص الذين يأكلون حتى الشبع ويتمتّعون بصحة جيدة ، ينسون معدتهم. فما دام باستطاعتي ان انظر الى وجهي بلا استياء ، فقد كنت انساه ، وكان امره طبيعياً . اما الآن ، فليس ثمة ما هو صالح . انني احتقر صورتي : ففوق العينين القبعة ، وتحتهما الجيوب ، والسحنة الممتلئة اكثر مما ينبغي حول الفم ، وهذا الطيف من الحزن الذي تعطيه التجعّدات . ربما كان الأشخاص الذين يلتقونني يرون بكل بساطة امرأة خمسينية ليست جيدة ولا رديئة ، وانما لها السنّ التي لها. اما انا ، فأرى وجهي القديم وقد لحق به جُدريّ لن أشفى منه أبداً .

وهذا الجدري يتفشى في قلبي ايضاً . لقد فقدت تلك القوة التي املكها لفصل الظلمات عن النور ، باحثة لنفسي عن سماوات مشعّة ، دافعةً عن ذلك بعض الرياح العنيفة . إن ثوراتي يثبطها قرب نهايتي وقدرية درجات الانحلال ؛ ولكن سعادتي كذلك قد اصفرّت . إن الموت ليس بعدُ في الأمكنة القصيّة مغامرة شديدة القسوة ؛ انه يعمر نومي ؛ حين استيقظ ، أحسّ شبحه بين العالم وبيني : لقد بدأ سيره . وهذا ما لم أكن اتنبّأ به : انه يبدأ باكراً ، ويتأكّل . ولعلّه سينتهي بلا كثير من الألم ، بعد ان يتركني كل شيء ، بحيث ان هذا الحضور الذي

لم اكن اريد ان أتخلّى عنه ، حضوري ، لن يكون بعدُ حضوراً لشيء ، ولن يكون شيئاً ، فيستسلم للانحراف بلامبالاة . ستُقضم واحدةً بعد الأخرى ، وتتحطم ، وهي على وشك ان تتحطم ، تلك الصلات التي كانت تشدّني الى الأرض .

أجل ، لقد آن الأوان لأقول : ليس بعدُ أبداً، ولست انا التي أنفصل عن سعاداتي القديمة ، وانما هي التي تنفصل عني : ان دروب الجبل تستعصي على قدميّ . لن أتدحرج بعدُ ابداً ، ثملةً من التعب ، في رائحة التبن ؛ ولن أتزحلق بعدُ ابداً وحيدة على ثلوج الصباح . وليس ثمة بعد من رجل ابداً . إن خيالي الآن شأنه في ذلك شأن جسمي ، قد استسلم ؛ وهناك لحظات يثلج فيها هذا الشيء الغريب ، بطابعه النهائي ، دمي . وما يحزنني اكثر من هذه الألوان من الحرمان، هو ألاّ ألتقي بعدُ فيّ رغائب جديدة : انها تذوي قبل ان تولد في هذا الزمن الممدّد الذي هو زمني . لقد كانت الأيام في الماضي تمضي بلا عجلة ، وكنت أمضي أسرع منها ، وكانت مشاريعي تستخفّني . اما اليوم فان الساعات المفرطة في القصر تسوقني بغاية السرعة نحو قبري . وأتجنّب التفكير : بعد عشر سنوات او بعد سنة . إن الذكريات تلهث منهوكة ، والأساطير تسقط قشرة فقشرة ، والمشاريع تجهض في المهد : انني هنا ، والأشياء هنا . واذا كان لا بدّ لهذا الصمت من ان يطول ، فكم يبدو طويلاً ، مستقبلي القصير !

وأية تهديدات ينطوي عليها ! إن الشيء الوحيد الجديد والهامّ معاً الذي يمكن ان يحدث لي ، هو المصيبة . فاما ان ارى سارتر قد مات ، وإما ان اموت قبله . وفظيعٌ ألاّ يكون المرء موجوداً ليعزّي احداً من المشقة التي يُحدثها له حين يتركه. وفظيعٌ كذلك ان يتركك ويصمت . وسيكون احد هذه الأنصبة نصيبي ، الا اذا اوتيت حظاً غير محتمل قط . وانا أتمنّى احياناً ان اموت بسرعة لأقصّر مدة هذا الضيق .

على اني اكره ، كما كرهت في الماضي ، ان أنعدم . وانا افكر بكآبة في جميع الكتب المقروءة ، والأمكنة المُزارة ، والمعرفة المجمّعة التي لن تكون بعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كل الموسيقى ، وكل الرسم ، وكل الثقافة ، وجميع تلك الأمكنة : ليس ثمة ما هو موجود بعدُ ، فجأة . إن هذا ليس عسلاً ، ولن يغتذي منه أحد . وإذا قُرئتُ ، فسيفكّر القارىء ، في احسن الظروف : لقد رأت اشياء واشياء ! ولكن هذا المجموع الفريد ، تجربتي بالذات، بنظامها واتفاقاتها — اوبرا بكين ، حلبات هولغا ، كاندومبيلهات باهيا ، تلال الواد ، شارع وابانسيا ، فجــر « البروفانس » ، تيرانت ، كاسترو وهو يخطب في خمسمئة ألف كوبي ، سماء كبريتية فوق بحر من غيوم ، الزان الارجواني ، ليالي لنينغراد البيضاء ، اجراس التحرير ، قمر برتقالي فوق « البيريه » ، شمس حمراء تطلع فوق الصحراء ، تورسيلو ، روما ، جميع هذه الاشياء التي تحدثت عنها ، واخرى لم اقل عنها كلمة — ان هذا لن يبعث من جديد في اي مكان . لو أن تجربتي قد أغنت الأرض على الأقل ؛ لو انها وضعَتْ ماذا ؟ رابية ؟ صاروخاً ؟ ولكن لا . لن يكون قد حدث شيء . انني أتمثّل سياج أشجار الجوز الذي كانت الريح تدافعه ، والوعود التي كنت أهزّ بها قلبي حين كنت أتأمّل هذا المنجم الذهبي تحت قدميّ ، حياةً برمّتها مرصودةً للعيش . لقد وُفيت هذه الوعود . ومع ذلك ، فاني اذ أحوّل نظرةً غير مصدّقة نحو تلك المراهِقَة السريعة التصديق ، أقدّر في ذهول الى اي حدّ كنت مخدوعة .

حزيران ١٩٦٠ — آذار ١٩٦٣

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكتبة بغداد

هذا الكتاب

في هذا الجزء الثاني من « قوة الاشياء » تواصل الكاتبة الفرنسية سيمون دوبوفوار التي وصفت بانها اكبر اديبة وفيلسوفة في عصرنا الحديث مذكراتها الرائعــة التي قرأها القراء العرب في « مذكرات فتــاة عاقلة » و« انا وسارتر والحياة» والجزء الاول من هذا الكتاب . وهي تخصص فصولا برمتها لاحداث الجزائر وانعكاساتها على المثقفين الفرنسيين ، ولا سيما موقفهــا هي مع عدد من كبار الادباء في فرنسا ، وعلى رأسهم سارتر ، من « حرب الجزائر القذرة » وتأييدهم لنضال الشعب الجزائري ودفاعهم عن حقوقه ، ومــا لاقوا بسبب ذلك من اضطهاد في فرنسا وحرمان وتهديــد بالقتل والاغتيال .

والى جانب ذلك فصول ممتعة عن علاقاتها بالادباء وتطور صلتها بشريك حياتها سارتر ، ويتخلل ذلك تأملات عميقة في الحياة والموت والمصير .

الثمن ٦٠٠ ق.ل.
٧٥٠ق.س.

مطبعة دار الكتب